

نفاذ الكليات الشريفة

المشرف
محمد بن علي بن محمد
صلى الله عليه وسلم

ادمون ديولان

ترجمته من اللغة الفرنسية

المرحوم

احمد فتحى زغالول بانا

ضبطه وشكله وشرح بعض عباراته الأستاذ

عبد الرحمن البرقوقي

بمجلس الشيوخ

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي بمصر

لصاحب مصطفى محمد

حقوق الطبع محفوظة

المطبعة الرحمانية



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ دَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ
رَسُولِهِ الْأَمِينِ ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ .

ظَهَرَ بِفَرَنْسَا فِي شَهْرِ أَقْرِيلَ سَنَةِ ١٨٩٧ مِيلَادِيَّةٍ كِتَابٌ أَلْفَهُ
مُوسِيوِ إِدْمُونِ دِيمُولَانَ وَسَمَاهُ (سِرِّ تَقْدِمِ الْإِنْكَلِيزِ السَّكْسُونِيِّينَ)
بَحَثَ فِيهِ بِجَشَاءٍ دَقِيقًا عَنِ أَحْوَالِ الْأُمَّمِ الْفَرَنْسَاوِيَّةِ ، وَقَارَنَ بَيْنَ
التَّرْبِيَةِ فِيهَا وَفِي أَلْمَانِيَا وَيُنْهَاهَا فِي انْكَتَرَةِ . وَاسْتَدَلَّ عَلَى ضَعْفِ
أُمَّتِهِ بِفَسَادِ التَّرْبِيَةِ فِيهَا وَاسْتَشْهَدَ عَلَى فَضْلِ الْأُمَّمِ الْإِنْكَلِيزِيَّةِ
السَّكْسُونِيَّةِ بِتَرَبِّيَتِهِمْ وَلِنَشَأَتِهِمْ وَمَا أَلْفُوهُ مِنَ الْعَادَاتِ وَالْأَخْلَاقِ .
وَعَرَضَهُ مِنْ بَيَانِهِ هَذَا حَثُّ الْأُمَّةِ الْفَرَنْسَاوِيَّةِ عَلَى الْعُدُولِ عَنِ
تَقَالِيدِهَا ^(١) فِي التَّرْبِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ وَإِدْخَالَ الْإِصْلَاحِ فِي الْمَدَارِسِ حَتَّى
تُؤَدَّى الْغَرَضَ الْمَقْصُودَ مِنْهَا وَهُوَ تَخْرِيجُ رِجَالٍ قَادِرِينَ عَلَى الْعَمَلِ
الصَّحِيحِ غَيْرِ مُعْتَمِدِينَ إِلَّا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَا يَطْلُبُونَ سَعَادَتَهُمْ
إِلَّا مِنْ كَدِّهِمْ وَاجْتِهَادِهِمْ .

(١) تقاليدها: أى عاداتها الموروثة وأساليبها التى تتبعها كأنها الزام عليها، وكانما جمعاتها ذلك فلانند
فى أعناقها.

وَالْمُؤَلَّفُ رَجُلٌ ظَلَّ السَّنِينَ الطَّوَالَ فِي عَزَلَةٍ لَا يَكَادُ يَشْعُرُ
 بِهِ أَحَدٌ مِنْ قَوْمِهِ ، وَأَنْشَأَ مَجَلَّةً شَهْرِيَّةً سَمَّاهَا (العلم الاجتماعي)
 مَضَى عَلَيْهَا إِلَى يَوْمِ نَشْرِ الْكِتَابِ اثْنَتَا عَشْرَةَ سَنَةً وَلَمْ يَكُنْ
 لَهَا مِنْ الشُّهُرَةِ أَكْثَرُ مِمَّا لِبَعِيْرَهَا مِنْ الْمَجَلَّاتِ الْعِلْمِيَّةِ ، وَلَكِنَّهُ
 كَانَ فِي عَزَلَتِهِ يَرْكَبُ الصَّعَابَ فِي الْبَحْثِ عَنْ أَحْوَالِ أُمَّتِهِ وَيَطِيلُ
 النَّظْرَ فِي أَسْبَابِ تَأَخُّرِهَا عَنِ الْأُمَمِ الْإِنْكِلِيزِيَّةِ السَّكْسُونِيَّةِ ، وَيَجْمَعُ
 مَوَادَّ كِتَابَهُ مِنْ كُلِّ شَارِدَةٍ ^(١) يَعْزُّ نَوَالِبَهَا وَيَسْعَى وَرَاءَ الْأَدَلَّةِ
 الَّتِي يُؤَيِّدُ بِهَا رَأْيَهُ مِنْ النَّظَرِ فِي الْحَوَادِثِ وَنَتَائِجِهَا وَالْعَادَاتِ
 وَآثَارِهَا وَالْأَخْلَاقِ وَمَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهَا .

وَقَسَمَ كِتَابَهُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَبْوَابٍ بَحَثَ فِي الْبَابِ الْأَوَّلِ مِنْهَا
 عَنِ نِظَامِ الْمَدَارِسِ عِنْدَ أُمَّتِهِ وَالْأُمَّتَيْنِ الْأَخِيرَتَيْنِ ، وَأَعْرَبَ عَنْ
 نَتَائِجِ ذَلِكَ النَّظَامِ فِي كُلِّ أُمَّةٍ مِنْهَا . وَقَارَنَ فِي الثَّانِي بَيْنَ الْفِرَنْسَاوِي
 وَالْإِنْكِلِيزِي السَّكْسُونِي فِي مَعِيشَتِهِمَا الْخُصُوصِيَّةِ فَتَكَلَّمَ عَنِ
 الْمُسْكَنِ وَالْمَلْبَسِ وَالصَّنَاعَاتِ وَالْحَرْفِ وَالزَّوْاجِ وَالْمَوَالِيدِ وَالْوَفِيَّاتِ ^(٢)
 وَتَأْثِيرِ ذَلِكَ فِي الْأُمَّةِ مِنْ جِهَةِ الثَّرْوَةِ الْعُمُومِيَّةِ وَالزَّرَاعَةِ وَالصَّنَاعَةِ
 وَالتَّجَارَةِ . وَخَصَّصَ الْبَابَ الثَّلَاثَ لِلْكَلامِ عَلَيْهِمَا فِي حَيَاتِهِمَا

(١) أي من كل مسألة شاردة: من شرد البعير ند ونفر. والمراد المسألة التي يعز الحصول عليها

(٢) الوفيات جمع وفاة: الموت

الْعُمُومِيَّةِ فَقَارَنَ بَيْنَ أَهْلِ السِّيَاسَةِ فِي الْبِلَدَيْنِ وَفَرَّقَ بَيْنَ مَجْلِسِي
النُّوَابِ فِيهِمَا ، وَأَفَاضَ فِي بَيَانِ مَزَايَا الْحِرْفِ الْمُسْتَقَلَّةِ وَالصَّنَاعَاتِ
الْفَنِيَّةِ كَمَا أَطَالَ فِي ذِكْرِ مَضَارِّ أَهْلِ الْحِرْفِ الْأَدَبِيَّةِ كَالْأَطِبَّاءِ
وَالْمُحَامِلِينَ وَوُكَلَاءِ الدَّعَاوَى وَالْمُؤَثِّقِينَ ^(١) وَأَهْلِ الصَّحَافَةِ وَأَرْبَابِ
الْجَرَائِدِ إِذْ كَانَ الصَّوْتُ صَوْتَهُمْ فِي سِيَاسَةِ الْأُمَّةِ . وَأَجْهَزَ عَلَى ^(٢)
مَذْهَبِ الْإِشْتِرَاكِيِّينَ بِسَاطِعِ الْبُرْهَانِ وَأَقْوَى الْحُجَجِ وَفَنَّدَ ^(٣)
أَقْوَالَ أَصْحَابِهِ تَفْنِيدًا يَخْضَعُ لَهُ الْمُكَابِرُونَ ، وَخَاضَ فِي الْكَلَامِ
عَلَى مَعْنَى الْوَطَنِ وَالْوَطَنِيَّةِ فَرَدَّهُمَا إِلَى مَعْنَاهُمَا الصَّحِيحِ ، بَعْدَ أَنْ
بَيَّنَّ الْمَعَانِي الْفَاسِدَةَ الَّتِي أَخْطَأَ غَلَاةُ ^(٤) الْوَطَنِيَّةِ فِي فَهْمِهَا مِنْ هَاتَيْنِ
الْكَلِمَتَيْنِ ، وَدَلَّ عَلَى الْفَرْقِ الْمَوْجُودِ بَيْنَ أُمَّتِهِ وَبَيْنَ الْأُمَّمِ الْإِنْكَلِيزِيَّةِ
السَّكْسُونِيَّةِ فِي إِدْرَاكِ مَعْنَى التَّكَافُلِ وَالتَّعَاوُنِ مِنْ بَعْضِ الْأَفْرَادِ
لِبَعْضِهِمْ ، وَأَرْشَدَ إِلَى أَحْسَنِ أَحْوَالِ الْإِجْتِمَاعِ لِتَحْصِيلِ السَّعَادَةِ
فِي هَذِهِ الدَّارِ . وَهَذَا الْفَصْلُ الْأَخِيرُ كَأَنَّ حِكْمَهُ بَلِيغَةٌ وَدُرُّهُ
ثَمِينَةٌ ^(٥) . وَخَتَمَ الْكِتَابَ بِالْكَلامِ عَلَى الدِّينِ وَتَأْثِيرِهِ فِي النُّفُوسِ
وَفِعْلِهِ فِي سَعَادَةِ الْأُمَّمِ بِصَلَاحِهِ ، وَشَقَائِمِهَا بِفَسَادِهِ . وَتَخَلَّصَ إِلَى
ذِكْرِ الْحَوَادِثِ الْجَدِيدَةِ الَّتِي أَخَذَتْ تَبَدُّو ^(٦) فِي الْأُمَّةِ الْفَرَنْسَاوِيَّةِ

(١) أى مأمورى العقود Notaires (٢) أنى عليه من أجهز على الجريج أسرع فى قتله

(٣) نقده وضعفه (٤) المتطرفون (٥) أى معانى قيمة تشبه الدر جمع درة وهى

اللؤلؤة (٦) تظهر

مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا سَائِرَةٌ نَحْوَ التَّقَدُّمِ شَاخِصَةً^(١) إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ
حَالَةٍ سَيِّئَةٍ إِلَى حَالَةٍ رَاضِيَةٍ^(٢)

وَيَمُرُّ الْقَارِئُ عَلَى الْكِتَابِ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ فَلَا يَجِدُ فِيهِ دَلِيلًا
خَطَائِبِيًّا^(٣) أَوْ حُجَّةً غَيْرَ مُعْتَرَفٍ بِهَا، لِأَنَّ الْمُؤَلِّفَ أَرَدَفَ كُلَّ قَوْلٍ
بِدَلِيلِهِ الْمُنْتَزَعِ مِنَ الْحَوَادِثِ الصَّادِقَةِ وَالْمُشَاهَدَاتِ الصَّحِيحَةِ مِمَّا
لَا يَدْعُ مَجَالًا لِلشَّكِّ أَوْ مَحَلًّا لِلْإِعْتِرَاضِ .

فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْ تَأْلِيفِهِ وَرَمَى بِهِ بَيْنَ الْقُرَّاءِ مِنْ قَوْمِهِ كَانَ كَشُعْلَةٍ
مِنَ النَّارِ أَصَابَتْ وَقُودًا^(٤) جَافًا ، فَالْتَهَمَتْهُ^(٥) لِسَاعَتِهَا وَسَرَى لَهْيُهَا
فِي جَمِيعِ الْأَنْدِيَةِ^(٦) وَالْبُلْدَانِ ، غَيْرَ أَنَّ النَّاسَ لَمْ يَشْتَغَلُوا بِإِطْفَاءِهَا
بَلْ كُلُّ يَدٍ كَيْبَهَا وَيُصْلِيهَا^(٧) لِأَنَّهَا نَارٌ هُدَى وَسَلَامٌ .

وَحَقِيقَةٌ^(٨) مَا نُشِرَ الْكِتَابُ حَتَّى اسْتَشْهَرَ وَعَظُمَ شَأْنُهُ وَتَهافتَ^(٩)
النَّاسُ عَلَى تِلَاوَتِهِ وَأَقْبَلَتِ الْجُمُوعُ عَلَى مُطَالَعَتِهِ وَقَامَتْ لَهُ قِيَامَةٌ
الْمُدْرَسِينَ وَاسْتَشْغَلَ بِالْبَحْثِ فِي أَبْوَابِهِ كِبْرَاءُ الْكِتَابِ وَالْمُدَقِّقِينَ
وَتَلَقَّفَتْهُ الْجَرَائِدُ فَشَرَحَتْهُ وَذَيَّلَتْهُ وَقَرَّظَتْهُ^(١٠) وَأَنْهَأَتْ عَلَى صَاحِبِهِ

(١) ذاهبة : سائرة ، من شخص من بلد إلى بلد أي ذهب (٢) راضية : أي مرضية
(٣) أي غير قطعي (٤) الوقود بفتح الواو : ما يوقد به من حطب ونحوه (٥) التهم الشيء
ابتلعه بمره . والمراد أقبلت الأمة على هذا الكتاب إقبالا عظيما (٦) المحافل والجماع
(٧) يدكها : يوقدها . ويصليها لعله يريد ويصطلي بها أي يستدفئ بها أو يتعرض لحرقها
(٨) كان الاجل أن يقول وفي الحق (٩) أقبلوا عليه من تهافت الفرائش على النار ولذا
أكثر ما يستعمل في الشر (١٠) ذيلته عاقت عليه تعليقات ، كانها ذبل له . وقرظته : مدحته

الرَّاسَلَاتُ تُتْرَى (١) مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ يَسْأَلُهُ أَصْحَابُهَا : أَيْنَ الْمَدَارِسُ
الَّتِي يُشِيرُ إِلَيْهَا وَالسَّبِيلُ إِلَى تَرْبِيَةِ أَبْنَائِهِمْ عَلَى غَيْرِ تَرْبِيَةِ آبَائِهِمْ ؟
وَلَمْ يَمُضْ إِلَّا الْقَلِيلُ مِنَ الْأَيَّامِ حَتَّى تُرْجِمَ الْكِتَابُ (٢) إِلَى لُغَاتِ
عِدَّةٍ فَقَرَأَهُ الْإِنْكَلِيزُ وَالْأَلْمَانِيُّونَ وَالْإِسْبَانِيُّونَ وَالْبُولُونِيُّونَ .
وَهَاجَنَ (٣) الْيَوْمَ نَزْفَهُ (٤) إِلَى قُرَاءِ الْعَرَبِيَّةِ يَتَهَادَى فِي أَحْسَنِ مَعَانِيهِ
وَرَفِيعِ مَبَانِيهِ .

هَذَا كِتَابٌ لَمْ يَتْرُكْ مَنْقَصَةً فِي تَرْبِيَةِ الْأُمَّةِ الْفَرَنْسَاوِيَّةِ إِلَّا
أَذَاعَهَا وَلَا خُلِقًا سَيِّئًا أَوْ عَادَةً سَافِلَةً إِلَّا نَدَّدَ (٥) بِهَا ، لِذَلِكَ اشْتَدَّ
وَقَعُهُ فِي قُلُوبِهِمْ وَضَرَبُوا بِأَيْدِيهِمْ عَلَى جُيُوبِهِمْ (٦) وَلَكِنَّهُمْ مَعَ ذَلِكَ
لَمْ يَلُومُوا الْمَوْلَفَ بَلْ عَظَمُوهُ ، وَلَمْ يَعْتَفُوهُ بَلْ أَحْتَرَمُوهُ ، وَعَرَفُوا
أَنَّهُ مُخْلِصٌ يُحِبُّ أُمَّتَهُ وَيَطْلُبُ لَهَا النِّفْعَ وَالْفَخَارَ . فَمَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ
أَكْرَمَ مَثْوَى الْكِتَابِ (٧) وَرَأَى فِيهِ تَذْكَرَةً لِأُولَى الْأَلْبَابِ
وَأَجْلَسَ صَاحِبَهُ حَيْثُ يَجْلِسُ الْحُكَمَاءُ وَأَحَلَّهُ حَيْثُ تَحُلُّ الْعُظَمَاءُ ،
وَسَأَلُوهُ أَنْ يَكُونَ قَائِدَ حَرَكَةِ التَّعْلِيمِ وَالْهُدَى بِهِمْ إِلَى الطَّرِيقِ
الْمُسْتَقِيمِ : فَبَاءَهُ أَرْبَابُ الْغِنَى وَالنِّسَارِ يُقَدِّمُونَ لَهُ الْأَمْوَالَ وَيَمْدُونَهُ

(١) تتابع (٢) يريد نقل (٣) كان الافصح أن يقول : وها نحن أولاء (٤) نزفه :
نقدمه ، من زف العروس إلى زوجها (٥) ندد بكذا : أظهر عيوبه (٦) الجيب من
القميص : طوقه ، والمراد بقوله : وضربوا بأيديهم على جيوبهم أنهم روعوا بما جاء في هذا
الكتاب (٧) مثنوى : أى مقام من نوى بالمكان أقام به ، والمراد عظموه .

بِالنَّفْسِ وَالنَّفِيسِ. وَامْتَأَزَمِنْ بَيْنَهُمْ ثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلًا مِنْ سُرَاةِ الْقَوْمِ (١) عَقَدُوا مَعَهُ شَرَكَةً وَأَشْتَرُوا عَلَى مَسَافَةِ سَاعَتَيْنِ مِنْ مَدِينَةِ بَارِيسَ، قَصْرًا مُشِيدًا (٢) وَحَدِيقَةً أُنِيقَةً وَأَرْضًا فَسِيحَةً تَبْلُغُ الْأَرْبَعَةَ وَالْعِشْرِينَ فَذَانَا وَاسْتَخْدَمُوا الْمُهَنْدِسِينَ وَأَرْبَابَ الصَّنَاعَاتِ وَالْحِرَفِ فِي إِعْدَادِ الْقَصْرِ مَدْرَسَةً وَالْبُسْتَانَ مَيْدَانَ تَمْرِينَ وَالغَيْطَ مَوْضِعًا لِلتَّجَارِبِ وَالِاخْتِبَارِ، فَقَامَ كُلُّ وَاحِدٍ بِمَا عَاهَدَ إِلَيْهِ وَأَعْلَنَ عَنِ افْتِتَاحِ الْمَدْرَسَةِ فِي شَهْرِ أَكْتُوبَرِ سَنَةِ ١٨٩٩ لِلطَّلَّابِينَ .

وَأَلَّفَ مَسِيوُ دِيمُولَانُ كِتَابًا آخَرَ سَمَّاهُ (التربية الجديدة) ، ظَهَرَ فِي السَّنَةِ الْمَاضِيَةِ، ذَكَرَ فِيهِ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ كِتَابِهِ الَّذِي تُقَدِّمُهُ لِلْقُرَاءِ وَضَمَّنَهُ نِظَامَ الْمَدْرَسَةِ الْجَدِيدَةِ وَبَيْنَ الْفُرُقِ بَيْنَ التَّعْلِيمِ الَّذِي يَقْصِدُهُ وَبَيْنَ التَّعْلِيمِ الَّذِي يَجْرِي عَلَيْهِ قَوْمُهُ وَجَاءَ فِيهِ عَلَى ذِكْرِ بَعْضِ الرِّسَالِ الَّتِي كُتِبَتْ إِلَيْهِ مِنْ جَمِيعِ الطَّبَقَاتِ وَكُلِّ الْجِهَاتِ وَأَهْدَاهُ إِلَى صَدِيقِهِ مَوْسِيو (چول لومتر) عَالِمٌ مِنْ أَرْبَابِ الْأَفْهَامِ وَكَاتِبٌ نَابِغٌ بَيْنَ أَهْلِ الْأَقْلَامِ قَدَّرَ كِتَابَ (سِرِّ تَقَدُّمِ الْإِنْكِلِيزِ) حَقَّ قَدْرِهِ وَسَاعَدَ كَثِيرًا بِخُطْبِهِ وَقَلَمِهِ عَلَى إِذَاعَتِهِ وَنَشْرِهِ .
وَلِأَجْلِ أَنْ يَعْلَمَ الْقُرَاءُ مَا كَانَ لِلْكِتَابِ مِنَ التَّأْثِيرِ نَلْخَصُ

(١) سرّاة بضم السين وفتحها: جمع سرى وهو السيد الشريف السخى ذو المروءة.

(٢) مشيد كهبجل، نقول شيدت البيت تشيداً إذا طولته ورفعته، وشدت البيت أشيداً إذا بنيته بالشيد وهو الجص.

بَعْضَ شَدَرَاتٍ^(١) مِمَّا نَشَرْتَهُ الْجَرَائِدُ وَبَعْضَ الرَّسَائِلِ الَّتِي كَتَبْتِ
إِلَى الْمُؤَلِّفِ :

قال موسيو (جورج رودوناخ) في جريدة (پاتريوت دي بروكسيل)
« ظَهَرَ كِتَابٌ فِي فِرَاسَا عَظْمٍ اشْتَهَارُهُ وَكَانَ لَهُ تَأْثِيرٌ كَبِيرٌ فِي تِلْكَ
الْبِلَادِ عُنْوَانُهُ (سِرِّ تَقْدِيمِ الْإِنْكَازِ السَّكْسُونِيِّينَ) وَمُؤَلِّفُهُ مُوسِيو
«إِدْمُون دِيُولَان» وَقَدْ اشْتَهَرَ هَذَا الْمُؤَلِّفُ بِكِتَابِهِ دَفْعَةً وَاحِدَةً فَإِنَّا
عَرَفْنَاهُ مِنْذُ زَمَانٍ مُكَبَّأً عَلَى الْعَمَلِ بِصَبْرٍ وَسُكُونٍ وَحَضَرَ نَا مَجْلِسَهُ
عِنْدَ (لَابِلِي) مُؤَسَّسِ الْعِلْمِ الْاجْتِمَاعِيِّ، وَكَانَ أَكْبَرَ تَلَامِيذَتِهِ وَهُوَ
الَّذِي كَانَ يُحْيِي مَجْلِسَهُ بِأَحَادِيثِهِ وَيُفِيدُ الْحَاضِرِينَ بِمَعَارِفِهِ وَيُنَسِّبُهُم
الْوَقْتَ بِمَا يَحْكِي مِنَ الْحَوَادِثِ وَمَا يَشْرَحُ مِنَ الْحَقَائِقِ ، فَلَمَّا رَحَلَ
أُسْتَاذُهُ عَنْ هَذِهِ الدَّارِ انْزَوَى^(٢) هَذَا الرَّجُلُ وَنَسِيَهُ أَكْثَرُ الْعَارِفِينَ
بِهِ وَصَارَ اسْمُهُ لَا يَرُدُّ عَلَى الْأَلْسِنَةِ إِلَّا ضِمْنَ الْحَدِيثِ ، حَتَّى إِذَا كُنَّا
نَتَسَاءَلُ عَنْهُ وَنَقُولُ : لَعَلَّ دِيُولَانَ لَمْ يَلِكْ مِنَ النَّاجِحِينَ مَعَ مَا ظَهَرَ
مِنْهُ أَوَّلًا مِنْ غَزَاةِ الْمَادَّةِ وَعَظِيمِ الْعُرْفَانِ . وَيَبْنِئُ النَّاسُ يَتَنَاسَوْنَهُ
إِذَا بِهِ قَدْ ظَهَرَ ظُهُورُ الْقَمَرِ فِي اللَّيْلَةِ الظُّلْمَاءِ بِكِتَابِهِ (سِرِّ تَقْدِيمِ الْإِنْكَازِ
السَّكْسُونِيِّينَ) الْكِتَابِ^(٣) الَّذِي امْتَحَنَ فِيهِ الْمُؤَلِّفُ وَجِدَانَ الْأُمَّةِ

(١) أى قطع مختارة، وأصل الشذرة القطعة من الذهب أو اللؤلؤ (٢) أى قبع فى زاوية
يريد اعتزال العالم (٣) إما قرأت الكتاب بالرفع على أنه خبر مبتدا محذوف أى وهو
الكتاب ، أو بالجر على أنه بدل من بكتابه، أو بالنصب على تقدير أغنى الكتاب.

الفرنساوية، فجاء يُبرهن على أن زمان السكر بالزهو^(١) قد انقضى وقام العلماء والكتاب يدلون على مواقع الضعف ويشعرون الأمة بما أصبحت في حاجة إليه، ولم يأت «موسيو ديمولان» في مقابلته بين الفرنسيين وبين الإنكليز السكسونيين إلا بالوقائع الثابتة والمُشاهدات الصحيحة. واختار المقابلة بين الماديات. فليس كتابه كتاب مذهب يريد نشره، ولكن كتاب أفكار^(٢) تؤيدها الحوادث والمُشاهدات. فالأرقام فيه ناطقة بلسان فصيح، والإحصاء ينتج النتيجة من نفسه ويدل على الإصلاح الذي ينبغي اه

وقال موسيو (درومون) في جريدة (ليبر پارول)

«كثيراً ما سألتني بعض الشبان: أي كتاب يقرأون؟ وإني أجيبهم الآن: عليكم بكتاب^(٣) من الكتب الرئيسية اختبر فيه مؤلفه حالة الأمة اختباراً دقيقاً، اقرأوا كتاب (سرتقدم الإنكليز السكسونيين) فقد بحث فيه موسيو إدمون ديمولان عن مزاج الأمة الإنكليزية وبين أسباب انتشارها العجيب في الدنيا ودل على علة سيادتها بين الأمم، تلك الأمة القوية القادرة التي تلجى أكبر مبغضها إلى الإعجاب بها والأعراف بفضلها» اه

(١) يريد الذهاب مع الاعجاب بالنفس، والزهو: الكبر والفخر (٢) أي وليكنه كتاب أفكار (٣) أي الزموا هذا الكتاب - يعني كتاب سرتقدم الإنكليز كما بين ذلك بعد

وقال موسيو (ديلاهي) في تلك الجريدة أيضا:

« إِنِّي فَرَعْتُ مِنْ قِرَاءَةِ كِتَابِ مُوسِيو دِيمُولَانِ وَوَعَدْتُ نَفْسِي بِقِرَائَتِهِ مَرَّةً ثَانِيَةً لِأَنَّهُ جَمَعَ شَيْئًا كَثِيرًا وَلَكِنِّي لَا أَنْتَظِرُ تِلْكَ الْفُرْصَةَ لِأَنَّهُ نَاشَرَ مَا وَجَدْتُهُ فِيهِ مِنَ الْمَادَّةِ الْغَزِيرَةِ وَالْعِلْمِ الْكَثِيرِ، وَلَيْسَ لَنَا نَحْنُ أَصْحَابُ الْجَرَائِدِ مِنَ الْخِدْمِ إِلَّا أَنْ نَقْرَأَ كِتَابًا يَكُونُ مُؤَلَّفَهُ قَدْ أَعْمَلَ الْفِكْرَةَ فِي فُصُولِهِ قَبْلَ أَنْ يَكْتُبَهَا، وَهُوَ نَادِرٌ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ، ثُمَّ نَشَرَهُ بَيْنَ النَّاسِ .

« يُوجَدُ فِي إِحْدَى زَوَايَا بَارِيسَ أَرْبَعَةُ شُبَّانٍ أَوْ خَمْسَةٌ لَا تَفْتَرُ لَهُمْ هِمَّةٌ عَنِ الْبَحْثِ وَالتَّنْقِيبِ، لَا يَعْرِفُونَ الْمَلَلَ مِنَ الْعَمَلِ مَهْمَا كَانَ شَاقًا. قَدْ أَفَادُوا وَحَدَّثُوا فِي الْعَشْرِ السِّنِينَ الْأَخِيرَةِ أَكْثَرَ مِمَّا أَفَادَ ذَلِكَ الْقَطِيعُ^(١) الَّذِي يَتَأَلَّفُ مِنْ أَعْضَاءِ مَجْلِسِ النُّوَابِ وَمَجْلِسِ الْأَعْيَانِ. وَلَهُمْ مَجَلَّةٌ شَهْرِيَّةٌ لَا يَعْرِفُهَا وَلَا بِالْأَسْمِ، إِلَّا الْقَلِيلُ النَّادِرُ مِنْ ذَلِكَ الْقَطِيعِ! مَعَ أَنَّهَا كَنْزٌ أَعْظَمُ فَائِدَةٍ مِنْ مَجْمُوعَاتِ تِلْكَ الْمَجَالِسِ الَّتِي غَصَّتْ^(٢) بِمُدَّ كِرَاتِهَا وَخُطْبَيْهَا تَحْتَ حُكْمِ الْجُمْهُورِيَّةِ الثَّلَاثَةِ ». إِلَى أَنْ قَالَ: « إِنَّ كَانَ فِي دِيمُولَانِ شَيْءٌ يُوجِبُ الْإِعْجَابَ فَهُوَ حُسْنُ مَقْصِدِهِ وَسَلَامَةُ ذَوْقِهِ . رَجُلٌ مَا قَصَدَ إِلَّا اسْتِخْلَاصَ الْحَقِيقَةِ

(١) أصل القطيع الطائفة من البقر أو الغنم. ولا يخفى ما في ذلك من التهم اللاذع القاسي

(٢) من قولهم غص فلان بالطعام أو الماء: أي اعترض في حلقه شيء منه فثغره بالتنفس

والمعنى امتلأت .

مَمَّا غَشِيَهَا^(١) مِنَ الْأَلْفَاظِ وَالْجُمَلِ وَالْأَوْهَامِ الَّتِي اعْتَادَ النَّاسُ عَلَيْهَا .
 وَقَدْ تَوَصَّلَ بِحُسْنِ اسْلُوبِهِ إِلَى إِحْيَاءِ حَقَائِقَ كَانَتْ نَسِيًّا مَنْسِيًّا^(٢) .
 مَلَأَ كِتَابَهُ عِلْمًا وَأَسْنَدَهُ إِلَى الْوَقَائِعِ الصَّحِيحَةِ وَأَعْمَلَ الْفِكْرَةَ
 قَبْلَ أَنْ يَكْتُبَ؛ وَكُلُّ النَّاسِ مُعْتَرِفٌ بِأَنَّهُ مُصِيبٌ فِي تَخْلُصِهِ
 إِلَى السُّؤَالِ عَنِ سَبَبِ سُقُوطِ فِرَاسَا وَجَوَابِهِ بِأَنَّهُ سُوءُ التَّرْبِيَةِ .
 وَلَيْسَتْ الْمَسْأَلَةُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ الْإِمْسَالَةَ التَّرْبِيَةَ . فَكَمَا تَكُونُ الْآبَاءُ
 تَكُونُ الْآبَاءُ بِنَاءً، وَكَمَا تَكُونُ الْبَنَاءُ تَكُونُ الرِّجَالُ، وَكَمَا تَكُونُ الرِّجَالُ
 تَكُونُ الْأُمَّةُ . وَمُوسِيُو دِيمُولَانِ لَا يُنْكَرُ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ وَلَسْكَنَهُ
 أَرَادَ اللَّهُ لَالَةً^(٣) عَلَيْهَا بَيَانِ مَعْنَى التَّرْبِيَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الصَّحِيحَةِ . وَقَدْ
 دَلَّ بِمَقَارَنَتِهِ بَيْنَ الْأُمَّتَيْنِ الْفَرَنْسَاوِيَّةِ وَالْإِنْكَلِيزِيَّةِ السَّكْسُونِيَّةِ فِي
 التَّرْبِيَةِ وَالْمَعِيشَةِ الْبَيْتِيَّةِ وَقُوَّةِ الْإِنْتِشَارِ وَالْمَعِيشَةِ الْعُمُومِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ
 عَلَى أَنَّ مِنَ الْبَدِيهِيَّاتِ مَا يَنْسَاهُ النَّاسُ وَيَجْهَلُونَهُ جَهْلًا كَلِيًّا

« وَأَجْمَلُ فُصْلٍ فِي الْكِتَابِ - عَلَى مَا أَرَى^(٤) - هُوَ الَّذِي عَقَدَهُ لِبَيَانِ
 أَحْسَنَ الْحَالَاتِ لِذَوَالِ^(٥) السَّعَادَةِ وَهُوَ الَّذِي يُحْمَلُ إِلَى النَّقْلِ عَنْهُ »
 ثُمَّ أَخَذَ الْكَاتِبُ يُنْقِلُ عَنْ ذَلِكَ الْفُصْلِ مَا حَوَى مِنْ الْحُكْمِ .

وَلَمَّا انْتَشَرَتْ هَاتَانِ الْجُمْلَتَانِ فِي تِلْكَ الْجُرِيدَةِ تَهَافَتَ قُرَاؤُهَا عَلَى

(١) أى غطاها (٢) نسيا بفتح النون وكسرها أى نسيانا (٣) بكسر الدال وفتحها

(٤) على ما أرى: أى على ما أظن وأعتقد (٥) يريد أن يقول لنيل السعادة وتعبيره بنوال

هنا خطأ لان النوال العطاء .

مُطَالَعَةَ الْكِتَابِ. وَنَقَلَتْ جَرَائِدُ الْأَرْيَافِ مَا كَتَبَ الْفَاضِلَانِ
وَعَلَقَتْ عَلَيْهِ مِنَ الشُّرُوحِ وَالْأَقْوَالِ مَا لَا يُحْصَى، وَكُلُّهَا تُمَجِّدُ
الْكِتَابَ وَتُعْظِمُ الَّذِي أَهْدَاهُ.

وقالت جريدة (لاريبونيكيك فرانسيز)

« جَاءَ كِتَابُ ذَلِكَ الْمَوْلَفِ الْعَظِيمِ الشَّانِ بِمَسْأَلَةٍ شَغَلَتْ الْأَفْكَارَ
فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ أَلَا وَهِيَ السَّرُّ فِي انْتِشَارِ الْأُمَّةِ الْإِنْكِلِيزِيَّةِ
السَّكْسُونِيَّةِ ذَلِكَ الْانْتِشَارَ الْعَجِيبَ. وَلَقَدْ كَانَ النَّاسُ يُشْعُرُونَ
بِوُجُودِ تِلْكَ الْأَفْضَلِيَّةِ، إِلَّا أَنَّ مُوسِيُو دِيمُولَانَ أَتَى لَهَا بِالْبَرَاهِينِ
الْعَقْلِيَّةِ وَالْحُجَجِ الْعَامِيَّةِ » اهـ

وكتبت جريدة (الكوكارد) مقالة طويلة ختمتها بقولها: « يَنْبَغِي
لِصَادِقِي الْوَدَانِيَّةِ أَنْ يُطِيلُوا النَّظَرَ فِي هَذَا الْكِتَابِ وَأَنْ يَشْكُرُوا
مُوسِيُو دِيمُولَانَ عَلَى هَدِيَّتِهِ » اهـ

وقالت جريدة (لوبي پاريزيان) بعد الفراغ من الكلام على
فصل التريية: « تِلْكَ أَفْكَارٌ حَقَّةٌ صَحِيحَةٌ يَجِبُ الْاِتِّفَاتُ إِلَيْهَا بِالنَّظَرِ
إِلَى حَالَتِنَا الْحَاضِرَةِ ».

وقالت جريدة (لوبي فرانسيز) « ذَلِكَ كِتَابٌ يُشِيرُ الْخَاطِرَ
وَإِنْ كَانَ كُلُّهُ جِدًّا^(١) وَهُوَ لَذِيذٌ وَإِنْ كَانَ قَاسِيًا » اهـ

ونشر موسيو (باريزيو) جُملاً في يَوْمٍ وَاحِدٍ في جرائد (لايه)
 و(لويي) و(سوفرنتيه ناسيونال) و(لوليبرال) و(لوكونستيتسيونيل)
 و(ليتندار) أَجْمَعَتْ عَلَى مَدْحِ المَوْئِفِ وَوَصَفِ الكِتَابِ بِأَنَّهُ
 «مُفِيدٌ مُؤَيَّدٌ بالشَّوَاهِدِ، رُبَّمَا حَمَلْنَا عَلَى التَّحَلِّي بِأَخْلَاقِ الأُمَّةِ
 الانكليزيةِ السكسونيةِ» اه

ونشر موسيو (لوسيان ديكاف) مقالة طنانة في جريدة
 (ايكودي پاری) منها «هَذَا كِتَابٌ شَدِيدُ الوَقْعِ لَوْلَا أَنَّ قِرَاءَتَهُ
 وَاجِبَةٌ عَلَى كُلِّ رَبِّ عَائِلَةٍ وَكُلِّ مُشْتَغِلٍ بِالتَّرْبِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ» ثمَّ خَتَمَهَا
 بقوله: «إِنَّ كِتَابًا حَوَى تِلْكَ المَسَائِلَ كُتِبَ لِجَدِيرِهِ بِالإِذَاعَةِ
 وَالإِشْتِهَارِ فَكُنَّا فِي حَاجَةٍ إِلَى مَعْرِفَةٍ سِرِّ تَقَدُّمِ الانكليزِ السكسونيينِ»
 وَإِلَّا صَدَقَ فِينَا قَوْلُ (پرودون) ^(١) «أورُوبًا حُبْلَى» ^(٢) بِثَوْرَةِ اجْتِمَاعِيَّةِ
 وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تَمُوتَ قَبْلَ أَنْ تَضَعَ حَمَلَهَا» اه

وقال موسيو «فرنسيسك سارسي» في تِلْكَ الجريدةِ مُحْتَمًا
 كَلَامَهُ عَلَى الفَصْلِ المُتَعَلِّقِ بِالمُقَارَنَةِ بَيْنَ تَشْكِيلِ مَجْلِسِ النُّوَابِ
 الفَرَنْسَاوِي وَمَجْلِسِ النُّوَابِ الإِنْكَلِيزِيِّ مَا نَصَّهُ: «ذَلِكَ الكِتَابُ
 مُفِيدٌ جَدًّا لِمَا حَوَاهُ مِنَ الأَفْكَارِ الجَدِيدَةِ، أَوِ التِّي وَضِعَتْ فِي

(١) فيلسوف اشتراكي (٢) حامل: يريد أنها تجن نورة اشتراكية إما أضعفها الأقدار
 باظهارها وتحقيقتها وإلا اضعفت أوربا.

قَالَ جَدِيدٌ، وَلِلنَّاسِ فَائِدَةٌ كُبْرَى فِي مَعْرِفَةِ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنْ
الحقائق فَإِنَّ الْمُؤَلَّفَ عَالِمٌ حَكِيمٌ» اهـ

وبعد أَيَّامٍ عَادَ الكَاتِبُ المُشَارُ إِلَيْهِ إِلَى الكَلَامِ عَلَى ذَلِكَ
الكتابِ فِي جريدة (رأپیل) وَبَدَأَ مَقَالَتَهُ بِهَذِهِ الجُمْلَةِ : « لَقَدْ هَاجَ
کتابُ موسیو دیمولانِ عَامِلِ الهوسِ ^(١) فِي نَفْسِي وَقَدْ تَكَلَّمْتُ
عَلَيْهِ قَبْلًا، وَلَا بَدَأَ مِنَ العُودَةِ إِلَيْهِ لِأَنِّي لَا أَعْرِفُ کِتَابًا أَحْسَنَ
مِنَهُ فِي الغَرَضِ المَقْصُودِ لِوُؤْلَفِهِ » اهـ

وَلَمْ یَكْتُبْ أَحَدٌ کَلِمَةً ضِدَّ الكِتَابِ إِلَّا وَاحِدًا مِنَ النُّوَابِ؛
وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّهُ اعْتَرَفَ بِأفضلیةِ الإنکلیزِ السکسونینِ وَالألمانیینِ
وَعَلَّلَ ذَلِكَ بِشِدَّةِ الإقْدَامِ وَکِبَرِ الهِمَّةِ؛ وَلَعَلَّهُ مِنْ أَوْلَثِکَ الثَّلَاثَةِ
وَالأَرْبَعینِ نَائِبًا الذِّینَ قَالَ فِیهِمُ موسیو دیمولانُ : إِنَّهُ لَمْ یَجِدْ
لَهُمْ طَائِفَةً أَوْ حِرْفَةً یُلْحِقُهُمْ بِهَا ^(٢)

وَلَمْ یَمُضِ الشَّهْرُ الثَّانِیَ عَلَى نَشْرِ الكِتَابِ إِلَّا وَقَدْ طَبَّقَ
صِیْتُهُ الخَافِقِینَ ^(٣) وَتَنَاوَلَتْهُ الأَیْدِیَ فِي المَشْرِقِینِ ^(٤) وَکَتَبَتْ عَنْهُ
الجرائدُ الأَلمانیةُ وَالتلیانیةُ وَالانکلیزیةُ وَالامرِیکِیةُ وَغَیْرُهَا بِلهِجَةٍ
تَمَجِّدُ الكَاتِبَ وَتَمَدِّحُ الكِتَابَ .

(١) الهوس : طرف من الجنون (٢) راجع جدول تشکیل مجلس النوایب

(٣) الخافقان : أفقا المشرق والمغرب، لأن الليل والنهار يخفان فيهما (٤) المشرقان : المشرق

وَلَمَّا نَشَرَ مُوسِيُو دِيمُولَانُ كِتَابَهُ الثَّانِي (التربية الجديدة) صَدَّرَهُ
بِكثِيرٍ مِنَ الرِّسَائِلِ الَّتِي وَرَدَتْ عَلَيْهِ إِثْرٌ^(١) كِتَابِهِ الْأَوَّلِ، وَمِنْ الْفَائِدَةِ
أَنَّ نَقَطْتَفَ الْبَعْضَ مِنْهَا :

كُتِبَ إِلَيْهِ صَاحِبُ مَعْمَلٍ صِنَاعِيٍّ فِي مَدِيرِيَّةِ (سِينِ اِيُوَازِ)

« أَنَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الصَّنَاعَةِ وَقَدْ انْتَهَزْتُ فُرْصَةَ السَّفَرِ
فَطَالَعْتُ كِتَابَكُمْ وَلَا حَاجَةَ بِي أَنْ أَذْكَرُ لَكُمْ مِقْدَارَ اسْتِفَادَتِي
مِنْهُ، إِلَّا أَنَّهُ أَلْقَى الْحَيْرَةَ فِي أَمْرِي مِنْ جِهَةِ أَنِّي صَانِعٌ وَوَالِدُ ابْنَيْنِ
فِي الْعَاشِرَةِ وَالْحَادِيَةِ عَشْرَةَ مِنْ عُمُرِهِمَا؛ وَأَنَا أَكْتُبُ إِلَيْكُمْ هَذَا
الْخَطَابَ تَحْتَ تَأْثِيرِ الْإِعْجَابِ بِالْفَصْلِ الْمُتَعَلِّقِ بِنِظَامِ التَّرْبِيَةِ
فِي الْمَدَارِسِ الْإِنْكَلِيزِيَّةِ. أَتُوجَدُ مَدَارِسُ فِي فِرَنْسَا عَلَى هَذَا النِّجْوِ
قَدْ جَمَعَتِ الْعِلْمَ وَالْعَمَلَ وَالرِّيَاضَةَ وَالْمَعِيشَةَ الْبَيْتِيَّةَ حَتَّى أُسَارِعَ
إِلَى وَضْعِ أَبِي فِيهَا إِلَى أَنْ يَشْتَدَّ فَأُرْسِلُهُمَا إِلَى إِحْدَى الْمَدَارِسِ
الْإِنْكَلِيزِيَّةِ؟ » اهـ

وَكُتِبَ إِلَيْهِ صَاحِبُ مَعْمَلٍ فِي (هِيِرُولْتِ) :

« لَمَّا طَالَعْتُ كِتَابَكُمْ عَقَدْتُ الْعَزِيمَةَ عَلَى إِرْسَالِ ابْنِي إِلَى إِحْدَى
الْمَدَارِسِ الَّتِي وَصَفْتُمُوهَا، وَهُوَ الْآنَ فِي الثَّانِيَةِ عَشْرَةَ، وَقَدْ سَافَرْتُ
لِأَشْهَادِ مَدْرَسَةِ (بِيدَالِ) بِنَفْسِي فَأَعْجَبَنِي نِظَامُ التَّعْلِيمِ فِيهَا، وَكَانَ

(١) إِثْرٌ: بِمَعْنَى أَثَرٍ أَوْ عَقْبٍ

ذَلِكَ مِنْ مُؤَكَّدَاتِ رَغَبَتِي فِي إِرْسَالِ أَبِي إِلَىٰ إِنْكَاتِهِ . نَعَمْ سَيَكُونُ
الْأَمْرُ صَعْبًا عَلَيْنَا وَبِالْأَخْصَ عَلَىٰ وَالِدَتِهِ لِأَنَّهَا نَسَكُنُ فِي جَنُوبِ
فِرْنَسَا وَلَا يَتَيَسَّرُ لَنَا أَنْ نَرَاهُ إِلَّا فِي الْمَسَاحَاتِ الْكَبِيرَةِ ، غَيْرَ أَنَّ تَرْبِيَّتَهُ
أَعَزُّ وَأَبْقَى « اه

وَ كَتَبْتُ إِلَيْهِ سَيِّدَةً مِنْ (تولوز):

« لَعَلَّكُمْ لَا تَعْجَبُونَ مِنْ أَنْ إِحْدَى الْوَالِدَاتِ تَكْتُبُ إِلَيْكُمْ
لِتَسْأَلَكُمْ بَعْضَ الْمَعْلُومَاتِ عَنِ الْمَدَارِسِ الَّتِي وَصَفْتُمُوهَا وَجَعَلْتُمْ
كُلَّ مُسْتَعْلٍ بِمُسْتَقْبَلِ أَبْنَائِهِ يَعْرِفُ قَدْرَهَا وَمَزَايَاهَا ، فَكُلُّ
مَنْ أَمَعَنَ النَّظَرَ ^(١) فِي الْفَوَائِدِ الَّتِي تَنْجُمُ عَنْ ^(٢) التَّعْلِيمِ فِيهَا
يَنْدُبُ ^(٣) عَدَمَ وَجُودِ مِثْلِهَا فِي الْبِلَادِ الْفَرَنْسِيَّةِ . لِي وَوَلَدَانِ وَلَكِنْ
يُعَوِّزُهُمَا ^(٤) الْإِقْدَامُ وَالْهَمَّةُ الذَّائِمَةُ الَّتِي هِيَ شَرْطُ النَّجَاحِ فِي هَذِهِ
الْأَيَّامِ وَهِيَ صَغِيرَانِ وَتَرْبِيَّتِنَا الَّتِي اسْتَوْلَتْ عَلَى زِمَامِ الْأَطْفَالِ ^(٥)
وَاسْتَعْرَقَتْ كُلَّ أَوْقَاتِهِمْ لَا تَمُرُّ وَقْتًا يَكُونُ لَهَا فِيهِ فِكْرٌ
ذَاتِيٌّ أَوْ تَصَوُّرٌ شَخْصِيٌّ وَلَا تُؤَدِّي إِلَى الْغَرَضِ الَّذِي أَقْصِدُهُ فِيهِمَا
وَلَوْ أَنَّي أَثِقُ بِمَدْرَسَةِ (بيدال) مِنْ الْجِهَةِ الدِّيْنِيَّةِ لَمَا تَأَخَّرْتُ عَنْ
أَرْسَالِ ابْنِي إِلَيْهَا . وَأَرْجُو سَيِّدِي عَفْوًا إِذَا كَثُرَتْ مِنَ السُّؤَالِ فَأَنْتُمْ

(١) الافصح انعم النظر لأمعن (٢) نجم كذا عن كذا : نتج وصدور (٣) مرندب
الميت بكي عليه (٤) أعوزه الشيء إذا احتاج إليه فلم يقدر عليه (٥) يريد استبدت

الذين شوقتموني الى الاستفهامِ إذ كَشَفْتُمُ الْقِنَاعَ^(١) لِلآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ
الفرانسويينَ عَنْ سُبُلِ وَطَرَائِقَ يَجِبُ عَلَى الْكَثِيرِ مِنْهُمْ أَنْ
يَسْأَلُوكُوهَا، وَكَثِيرُهُ يُوذُّ سُؤكُوهَا « اه

وكتبت إليه سيدة :

« أَبْنَائِي ثَلَاثَةٌ وَأَنَا أَشْتَعِلُ بِرَبِّبَتِهِمْ كُلَّ الْإِشْتِعَالِ وَإِنِّي لَمَحْزُونَةٌ
لِمُخَالَفَةِ التَّرْبِيَةِ الَّتِي يَتَقَوَّنَهَا فِي الْمَدْرَسَةِ لِأَفْكَارِي عَلَى خَطِّ مُسْتَقِيمٍ :
تَرَى الطِّفْلَ مَشْغُولًا عَلَى الدَّوَامِ بِالْأُمُورِ الْعَقْلِيَّةِ فَلَا يَكَادُ يَتَفَرَّغُ
هَيْهَاتَهُ لِأُمُورِ الْحَيَاةِ الْعَمَلِيَّةِ؛ وَعَلَى التَّحْقِيقِ لَيْسَ لَهُ مِنْ وَقْتِهِ يَسِيرٌ
يُمْكِنُهُ مِنَ الرِّيَاضَةِ وَالتَّعْرِينَاتِ الْجِسْمِيَّةِ الَّتِي تُقَوِّمُ الْجِسْمَ وَتَشْدُدُ
الْأَعْصَابَ . لِهَذَا أَتَشَوَّفُ^(٢) إِلَى أَخْبَارِ التَّعْلِيمِ وَاتَّبَعْتُ خُطَى تَعْدِيلِ
طَرِيقَتِهِ بِكُلِّ إِهْتِمَامٍ .

وَلَقَدْ يَتَوَلَّانِي الْقَنُوطُ^(٣) عِنْدَ مَا أَشَاهِدُ ابْنِي الْأَوَّلَ الَّذِي بَلَغَ الثَّانِيَةَ
عَشْرَةَ مِنْ عُمُرِهِ مُتَخَمِّشًا^(٤) لَا يَقْدِرُ عَلَى مُسَاعَدَتِي فِي أَيِّ أَمْرٍ عَمَلِيٍّ ،
قَلِيلَ الْهِمَّةِ ضَعِيفَ الْإِرَادَةِ ، وَلَكِنِّي أُنْجِسُ فِي ذَلِكَ الْمَدْرَسَةَ^(٥)
وَالْوَاجِبَاتِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي تُطَلَّبُ مِنَ الْأَطْفَالِ . وَقَدْ دَلَّتْهُمُونِي
بِكِتَابِكُمْ عَلَى أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيَّ أَيْضًا أَنْ أَعِدَّ نَفْسِي مِنَ الْإِثْمِينَ . إِذْ

(١) يعني أظهرتم وأوضحتم (٢) أنطلع (٣) القنوط : اليأس (٤) كذا بالاصل
ولاعني لها، ولعلها منكشامن انكش الضرع تقاص يريد متقبضاً متبدلاً (٥) أي احمل
المدرسة والتكاليف الكثيرة التي يكادون بها إثم ذلك.

صَحِيحٌ أَنِّي وَوَالِدُهُ كَمَا أَرَدْنَا الْخَوْضَ فِي مَوْضُوعٍ مُهِمٍّ أَوْ فِي
عَمَلٍ مِنَ الْأَعْمَالِ الْمُفِيدَةِ نَنْتَظِرُ حَتَّى لَا يَكُونَ الْأَوْلَادُ مَعَنَا، وَلَوْ اتَّفَقَ
لِأَحَدِهِمْ أَنَّهُ اشْتَرَكَ مَعَنَا فِي الْحَدِيثِ أَوْ تَطَرَّفَ إِلَى الْخَوْضِ فِي
كَيْفِيَّةِ مَعِيشَتِنَا أَوْ تَطَاوَلَ فَسَأَلْنَا عَنْ أَمْرٍ لَمْ يُدْرِكْهُ فِيهَا رَدَدْنَاهُ
فِي الْحَالِ عَلَى عَقِبِهِ بِالْأَفَاطِ كَهَذِهِ: لَيْسَ هَذَا مِمَّا يَعْنِيكَ — اِشْتَغَلَ
بِوَأَجِبَاتِكَ — مَنْ كَانَ فِي سِنِّكَ فَلَا يُعْوَلُ عَلَيْهِ — اِخْرَسَ !!

« وَقَدْ اجْتَهَدْتُ فِي تَلْقِينِ ابْنَائِي الْمَبْدَأَ الْآتِيَّ: إِنَّ الْأَطْفَالَ
يُضَايِقُونَ النَّاسَ فَيَجِبُ عَلَيْهِمْ إِذَا كَانُوا فِي غَيْرِ بَيْتِهِمْ أَنْ يَكُونُوا
مِثْلَ مَنْ لَا يَشْعُرُ بِوُجُودِهِمْ أَحَدٌ مِنَ الْحَاضِرِينَ. وَقَدْ كَفَأْتَنِي إِحْدَى
صَدِيقَاتِي عَلَى اجْتِهَادِي بِهَذِهِ الْجُمْلَةِ: إِنَّ ابْنَاءَكَ لَعَلَى تَهْذِيبٍ عَظِيمٍ.

« سَيِّدِي: لَقَدْ هَدَيْتَنِي بَعْضُ أُسْطُرٍ مِنْ كِتَابِكَ إِلَى أَنِّي ضَلَلْتُ
السَّبِيلَ وَذَكَرْتَنِي بِذَلِكَ الْقَوْلِ الَّذِي لَسْتُ أَذْكَرُ أَيَّنَ قَرَأْتُهُ:
« إِذَا عَامَلْتَ ابْنَكَ مُعَامَلَةَ الرَّجَالِ لَا يَلْبَثُ أَنْ يَصِيرَ رَجُلًا ». وَعَلَى
الْعُمُومِ أُسَلِّمُ مَعَكَ أَنَّ الْأُمَّهَاتِ الْفَرَنْسَاوِيَّاتِ عَقِبَةُ عَظِيمَةٌ أَمَامَ
الْأَفْكَارِ الَّتِي قَتَمَ أَتَمُّ وَمُوسِيو (بُونْفَالُو) بِنَشْرِهَا، وَأَنَّ بَنَاتِهِنَّ
لَا يَصْلُحْنَ زَوَاجَاتٍ لِلْمُسْتَعْمَرِينَ^(١). وَالزَّوْجَةُ الْحَقِيقِيَّةُ الَّتِي أَعْنَى

(١) لعلها المستعمرين بفتح الميم يعني أنهن لا يصلحن لاهل المستعمرات التي نستعمرها
فضلا عن أنها تصلح لنا، والأظهر أنها بكسر الميم أي انهن لا يصلحن لمن يستعمرهن
البلاد، يعني هم أي لا يلحقن لعظمتهم

وَجُودَهَا فِي الْقَرْنِ الْمُتَمِّمِ لِلْعَشْرِينَ هِيَ الَّتِي تَكُونُ صَدِيقَةَ زَوْجِهَا
 وَشَرِيكَتَهُ وَرَفِيقَتَهُ وَهِيَ الَّتِي لَا تَقْتَصِرُ عَلَى كَوْنِهَا وَالِدَةَ أَبْنَائِهَا
 الْمُحْتَرَمَةِ ، بَلْ تَكُونُ أَلِفْتَهُمْ وَمَرْجِعَ سِرَّهُمْ قَدْ عَرَفَتِ الْحَيَاةَ
 وَاخْتَبَرَتْ كُلَّ أُمُورِهَا ؛ لِاتِّوَافِقِ عَلَى كُلِّ أَمْرٍ بَلْ لَتَفْهَمَ كُلَّ شَيْءٍ .
 وَلَنْ يَجِبَ عَلَيْنَا أَنْ نَنْسِجَ ^(١) عَلَى مَنَوَالِ تِلْكَ الرُّومَانِيَّةِ الَّتِي قِيلَ فِيهَا
 (أَقَامَتْ فِي بَيْتِهَا وَبَرَمَتْ مِغْزَلَ صُوفِهَا ^(٢)) « اه

هَذَا وَلَمْ تَقْتَصِرْ حَرَكَةُ الْأَفْكَارِ الَّتِي أَحَدَثَهَا الْكِتَابُ عَلَى
 الْجَرَائِدِ وَالرَّسَائِلِ بَلْ تَعَدَّتْ ، بَعْدَ انْتِشَارِهِ أَيْضًا ، إِلَى الْمُسْتَغْلِينَ بِالْتَعْلِيمِ
 وَظَهَرَتْ فِي خُطَبَاتِ رُؤَسَاءِ الْإِمْتِحَانَاتِ وَالَّذِينَ تَوَلَّوْا تَوْزِيعَ
 الْجَوَائِزِ وَالْمَكَافآتِ السَّنَوِيَّةِ عَلَى تِلَامِذَةِ الْمَدَارِسِ . وَمِنْ تَمَامِ الْفَائِدَةِ
 أَنْ نَأْتِيَ عَلَى طَرَفٍ مِنْ ذَلِكَ .

قالت جريدة (الطان) وهي أكبرُ الجرائدِ الفرنسيةِ وَأَنْفَذَهَا رَأْيًا:
 « قَرَأْنَا خُطْبَ تَوْزِيعِ الْمَكَافآتِ فِي هَذَا الْعَامِ وَالَّذِي اسْتَرْقَفَ
 نَظْرَنَا فِيهَا هُوَ اتِّفَاقُ الْخُطَبَاءِ جَمِيعًا ، مِنْ غَيْرِ مَوْعِدٍ بَيْنَهُمْ ، فِي الْإِرْشَادَاتِ
 وَالنِّصَاحِ الَّتِي أَلْقَوْهَا عَلَى التَّلَامِذَةِ ، فَلَمْ نَرَ هَذِهِ الْمَرَّةَ فِي خُطْبِهِمْ
 مَا جَرَتْ بِهِ الْعَادَةُ مِنْ تَمْجِيدِ التَّعْلِيمِ الْمَعْرُوفِ وَمَدْحِ الطَّرِيقِ

(١) نسج من باب ضرب وقعد فينسج كيضرب وكيقعد (٢) المغزل بكسر الميم وضمها .
 وبرمه يريد : أدارته

المألوفة والإطراء^(١) بنتائج الامتحانات ولا ما كُنَّا نَسْمَعُهُ مِنْهُمْ
 مِنَ الْجَمَلِ الطَّوِيلَةِ وَالْقَوْلِ الْمُوشَى^(٢) فِي الْأَدَبِ وَقَوَاعِيدِهِ ، وَلَكِنَّهُمْ
 أَجْمَعُوا تَقْرِيْبًا عَلَى الْخُطَابَةِ فِي مَوْضُوعِ الْعَمَلِ وَالْحَثِّ عَلَيْهِ وَامْتِدَاحِ
 خِصَالِ الرَّجُولِيَّةِ الْحَقَّةِ وَتَعْظِيمِ شَأْنِ فَضِيلَةِ الْإِقْدَامِ وَالْهَمَّةِ
 الذَّائِبَةِ ، وَلَمْ يَقْفُوا عِنْدَ ذَلِكَ بَلْ امْتَدَحُوا الْجُرْأَةَ وَالتَّرَاحُمَ .

« هذا موسيو (رني ميامي) مبعوثنا في تونس قد هتأ نفسه بما
 شاهد من تقدم التمرينات الرياضية وترك تلك الطريقة الوحشية
 في التعليم التي ما كان يلتفت فيها لغير الرأس حيث يهمل الجسم
 أي إهمال^(٣) »

« وهذا موسيو (بولسون) يرفع رأية المجد والفخار لأصحاب
 الإرادة الصادقة ويشير إلى أن أول واجب في التربية هو
 تكوين الرجال بالمعنى الصحيح »

« وهذا موسيو (هنات) يحكم على طريقة التربية التي ترجع
 إلى أن الحكومة وصية على الأفراد^(٤) بالرداءة^(٥) والفساد ويدعو
 الشبان إلى اعتناق الحرف المستقلة وإن كانت مما يقتضى المخاطرة
 والمجازفة .

(١) يريد المبالغة في المدح والثناء على نتائج الامتحانات (٢) يريد المزين المزخرف.

(٣) أي اهما الأي اهما (٤) أي تتحكم في الافراد تحكم الوصي في القاصر (٥) بالرداءة

متعلقة ببحكم .

وَأَوْلَئِكَ غَيْرُهُمْ كَثِيرُونَ مِنَ الْخُطْبَاءِ يُحَادِثُونَ شَيْبَتَنَا فِيمَا
وَرَاءَ الْمُسْتَعْمَرَاتِ مِنَ الْخَيْرَاتِ وَمَا يَنَالُ النَّازِحُ ^(١) إِلَيْهَا مِنَ
الْمَعِيشَةِ الْمُسْتَقِيلَةِ وَبَسْطَةِ الْيَدِ مِمَّا يُؤَدِّي أَيْضًا إِلَى زِيَادَةِ ثَرْوَةِ
الْوَطَنِ وَيُعَلِّي شَأْنَهُ وَيَشُدُّ أَرْزَهُ ^(٢) ،

وعلى هذا فقد ظهر اليوم في الأفكار ردُّ فعل الماضي وانعطف ^(٣)
الأميال إلى التمثيل بالأنكليز، وهي حركة من شأنها أن تدخل الفرح
في قلوب محبي الوطن. فعليتنا أن نقابل تلك الفصاحة الحريية بهزة
فرح ^(٤) في النفوس وأن نرى فيها تحذيراً ووعداً ورجاءً

وخطب موسيو بنى دى جولفيل في مدرسة (كوندورسى):

يَجِبُ عَلَيْكُمْ فِي مَسَاعِدَةِ الضَّعْفَاءِ أَنْ تَكُونُوا أَقْوِيَاءَ فَقُولُوا وَلَا
تَخْشَوْا أَحَدًا: إِنَّ التَّكَافُلَ فِي الْوُجُودِ نَوْعَانِ صَحِيحٌ وَفَاسِدٌ، طِيبٌ
وَرَدِيٌّ. أَمَّا الْأَوَّلُ فَهُوَ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ لغيرِهِ مَا اسْتَطَاعَ، وَهُوَ
التَّكَافُلُ الْحَقُّ فَاعْمَلُوا بِهِ جُهْدَكُمْ. وَأَمَّا الثَّانِي فَهُوَ أَنْ يَنْتَظِرَ الْوَاحِدُ
كُلَّ شَيْءٍ مِنْ غَيْرِهِ وَهُوَ تَكَافُلٌ لِأَخِيرٍ فِيهِ وَلَا قِيَمَةَ لَهُ، وَإِنْ كَانَ
لَهُ أَحْزَابٌ وَمُعْجِبُونَ. فَاحْذَرُوهُ وَاجْتَنِبُوهُ وَلَا يُعْوَلَنَّ الْوَاحِدُ مِنْكُمْ
فِي نَفْسِهِ عَلَى غَيْرِهِ؛ بَلْ لِيَكُنْ اعْتِمَادُهُ أَوْلَى عَلَى نَفْسِهِ وَهَمَّتِهِ وَإِرَادَتِهِ

(١) أى ما يناله الذهاب إليها من بلاده، ويقال نرحت الدار أى بعدت (٢) الأزر: القوة
وشد أزره أى قوامه وعلونه (٣) انعطفت مالت والتمثل التشبه (٤) الهزة: الطرب

وَصَبْرِهِ وَجَلْدِهِ وَمُثَابَرَتِهِ عَلَى الْعَمَلِ بِذَاتِهِ، وَعَوْدُهُو أَنْفُسِكُمْ عَلَى الْإِرَادَةِ» اه
 وَقَابِلِ مُوسِيُو (فاجت) فِي مَدْرَسَةِ شَارْمَانِ بَيْنَ الْحِرْفِ الْيَدَوِيَّةِ
 وَبَيْنَ الْحِرْفِ الْأَدَبِيَّةِ وَبَرَهَنَ عَلَى أَنَّ الْأُولَى لَيْسَتْ أَقْلَ فَضْلاً وَلَا
 شَرْفًا مِنَ الثَّانِيَةِ .

إِلَّا أَنَّ الْكَاتِبَ الَّذِي اهْتَزَّتْ لِقَامِهِ الْأَفْكَارُ وَانْحَازَتْ لِصَوْتِهِ
 الْأُمِّيَالِ^(١) وَتَمَّ بِقَوْلِهِ النَّصْرُ لِكَاتِبٍ سَرَّ تَقْدِمَ الْإِنْكَلِيزِ السَّكْسُونِيِّينَ
 وَمَوْلَاهُ هُوَ مُوسِيُو (جول لومتر) وَهُوَ الَّذِي أَهْدَاهُ الْمَوْلَفُ كِتَابَهُ
 الثَّانِي (التربية الجديدة) قَالَ فِي جَرِيدَةِ الْفِيْجَارُو وَهِيَ أَيْضًا مِنْ أَهَمِّ
 الْجَرَائِدِ الْفَرَنْسَاوِيَّةِ وَأَكْثَرِهَا انْتِشَارًا :

« مَا أَضْعَبَ كِتَابَ مُوسِيُو دِيْمُولَانَ عَلَى النَّفُوسِ . وَلَسْكَنْ يَجِبُ
 أَنْ يُقْرَأَهُ النَّاسُ وَيَشْرَبُوا ذَلِكَ الْكَأْسَ الَّذِي مَلَأَ بِالْحَسَرَاتِ^(٢) إِنَّ
 الَّذِي يَقُولُهُ مُوسِيُو (دِيْمُولَانَ) كُنَّا نَعْرِفُهُ أَوْ نَشْعُرُ بِهِ، وَلَسْكَنَهُ
 حَدَدَ الْمَطْلَبَ وَجَمَعَ بَيْنَ شَتَاتِهِ جَمْعًا مُحْكَمًا . وَالَّذِي يُسْتَخْلَصُ مِنْ
 هَذَا الْكِتَابِ الَّذِي يُقْنَعُ الْقُرَّاءَ بِقَدْرِ مَا يُحْزِنُهُمْ هُوَ أَفْضَلِيَّةُ الْأُمَّةِ
 الْإِنْكَلِيزِيَّةِ السَّكْسُونِيَّةِ مِنْ جِهَةِ أَحْوَالِهَا الْاجْتِمَاعِيَّةِ^(٣) وَسِيَاسَتِهَا
 وَتِجَارَتِهَا وَمَالِيَّتِهَا وَأَخْلَاقِهَا وَأَدَابِهَا مُقَابِلَ ضَعْفِنَا وَمَسْكَنَتِنَا وَعَدَمِنَا

(١) انحازت: انضممت له (٢) الكأس مؤنثة فتذكره إياها خطأ والمؤلف رحمة
 الله عليه على مبدأ خطأ مشهور ولا صواب مهجور . . . (٣) عبارة المترجم من حيث
 ولكننا استبدلنا بها من جهة .

فِي الْوُجُودِ ، لِأَنَّ أَفْضَلِيَّةَ هَزَلِيَّاتِنَا وَأَفْضَلِيَّةَ طَهَاتِنَا (١) لَنْ تُنْجِيَنَا
مِنَ الْوَهْدَةِ الَّتِي نَحْنُ فِيهَا . وَلَقَدْ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ أَفْضَلِيَّتُنَا الْفَنِيَّةُ
لِأَفَائِدَةٍ فِيهَا

« وَمِنْ سُوءِ الْحِظِّ لَا يُسَكِّنُنَا الْقَوْلُ بِأَنَّ الزَّمَانَ قَلْبٌ فَالْيَوْمَ مِنْ مِثْ
وَعَدًا حُلُوًّا ؛ لِأَنَّ أُمَّةً اتَّكَلِيَّةً : كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ أَفْرَادِهَا يَعْتَمِدُ عَلَى
الْبَقِيَّةِ ؛ وَالْأَنْجَلِيزُ السَّكْسُونِيُّونَ أُمَّةٌ اسْتِقْلَالِيَّةٌ لَا يَعْتَمِدُ أَوْ أَحَدٌ مِنْ
قَوْمِهَا إِلَّا عَلَى نَفْسِهِ ؛ وَالنَّيْجَةُ مِنْ هَذَا خَطَرٌ عَلَيْنَا »
ثُمَّ أَخَذَ الْكَاتِبُ يَسْرُدُ أَفْكَارَ الْمَوْلَفِ وَيُوَيْدُ اسْتِنْتِجَاتِهِ إِلَى
أَنَّ قَالَ :

« ذَلِكَ مَا يَجِدُهُ الْقُرَّاءُ مُفْصَلًا وَمُبْرَهَنًا عَلَيْهِ بِأَقْوَى الْحُجَجِ
فِي كِتَابِ مُوسِيُو دِيمُولَانَ مُضَافًا إِلَى كَثِيرٍ غَيْرِهِ ؛ كُلُّهُ حَقٌّ وَكُلُّهُ
لَا يُوجِبُ الْعِزَاءُ وَلَا يُؤَدِّي إِلَى السُّلْوَانِ (٢) »

وَبَعْدَ أَنْ جَارَى الْمَوْلَفَ فِي مُقَدِّمَةِ الْكِتَابِ وَآتَى عَلَى ذِكْرِ
اِنْتِشَارِ الْأُمَّةِ الْإِنْكَلِيزِيَّةِ السَّكْسُونِيَّةِ خَتَمَ مَقَالَتَهُ بِمَا يَأْتِي :

« لَيْسَ لَنَا إِلَّا أَنْ نَحْمَلَ مَا فَاتَنَا مِنَ الْفَضَائِلِ الَّتِي كَثُرَتْ فِي أُمَّةِ
الْإِنْكَلِيزِ السَّكْسُونِيِّينَ فَنَسَاعِدَ عَلَى نُمُوِّ الْهَمَّةِ الشَّخْصِيَّةِ وَنَعُودَ
أَهْلَانَا عَلَى الْإِعْتِمَادِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَعَلَى ذَلِكَ الْإِقْدَامِ وَالْعَزِيمَةِ وَالْإِهْتِمَامِ .

(١) جمع طاء: الطباخ (٢) بمعنى العزاء

« يَلْزَمُنَا آبَاءُ يَعْتَقِدُونَ كُلَّ الْأَعْتِقَادِ أَنَّهُ لَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ لِأَبْنَائِهِمْ
إِلَّا التَّرْبِيَّةُ بِشَرْطِ أَنْ تَكُونَ حَقِيقَةً قَوِيمَةً .

« يَلْزَمُنَا شُبَّانُ يَعْتَقِدُونَ كُلَّ الْأَعْتِقَادِ أَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ عَلَيْهِمْ
لِأَنْفُسِهِمْ تَحْصِيلُ رِزْقِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .

« يَلْزَمُنَا شُبَّانُ يَعْتَقِدُونَ الْخُنَاصِرَ ^(١) عَلَى أَنْ يَطْلُبُوا مِنَ الزَّوْجِ
رَفِيقًا لَا مَهْرًا جَزِيلًا

« يَلْزَمُنَا حُكُومَةٌ تُرْجِعُ اخْتِصَاصَهَا إِلَى الْحَدِّ الْأَدْنَى وَتُقَلِّلُ
عَمَّا لَهَا إِلَى الْحَدِّ الْأَدْنَى وَتَرْتُدُّ بِذَلِكَ الشُّبَّانَ إِلَى الْمِهْنِ الْمُسْتَقِلَّةِ الَّتِي
تَقْتَضِي الْهَمَّةَ الذَّاتِيَّةَ وَالْإِقْدَامَ وَالْعَمَلَ .

يَلْزَمُنَا حَالَةُ اجْتِمَاعٍ يَكُونُ فِيهَا الْمُوظَّفُ وَالسِّيَاسِيُّ وَمَنْ لَاعْمَلَ
لَهُ أَقَلَّ اعْتِبَارًا مِنَ الزَّرَّاعِ وَالصَّنَاعِ وَالتَّجَارِ

« يَلْزَمُنَا أَنْ نُلْغِيَ دُرُوسَ اللُّغَاتِ الْمِيَّتَةِ مِنْ مَدَارِسِنَا الْإِبْتِدَائِيَّةِ

وَأَنْ نُلْغِيَ جَمِيعَةَ الْمَعَارِفِ ذَاتِهَا إِنْ لَمْ تُلْغَ جَمِيعَاتُ الْعُلُومِ ، وَأَنْ نُلْغِيَ

مَدْرَسَةَ الْهَنْدَسَةِ وَجَمِيعَ مَدَارِسِ الْحُكُومَةِ ، وَأَنْ نُلْغِيَ طَرِيقَةَ

الِإِتِّخَابِ الَّتِي يَتَسَاوَى فِيهَا صَوْتُ الْعَظِيمِ بِالْحَقِيرِ وَالْجَاهِلِ بِالْعَالِمِ

وَالزَّرَّاعِ بِأَهْلِ الْبَطَالَةِ وَالْكَسَالِ ، وَأَنْ نُلْغِيَ ثَلَاثَةَ أَرْبَاعِ الْمُوظَّفِينَ

وَأَنْ نُلْغِيَ ذَلِكَ النِّظَامَ الْإِدَارِيَّ الَّذِي أَسَّسَتْهُ الثُّورَةُ وَأَيَّدَتْهُ

الْإِمْبَرَاطُورِيَّةُ الْأُولَى .

(١) يقال هذا أمر تعقد عليه الخناصر: أي يعتبر ويحفظ به، والخنصر: الأصبع الصغرى.

« إِنِّي لَا أَرَى ضَرَرًا مِنْ إِيغَاءِ هَذَا كَلْبِهِ ، وَإِنْ كُنْتُ أَرَاهُ صَعْبًا .
 « يَلْزِمُنَا اقْتِصَادُ الْأَمْوَالِ الَّتِي نَصَرَفُهَا عَلَى الْجِيُوشِ فَإِنَّهَا تَجْلِبُ ^(١)
 عَلَيْنَا الْخَرَابَ وَالذَّمَّارَ ، وَإِغْيَاءُ ^(٢) الْخِدْمَةِ الْعَسْكَرِيَّةِ الَّتِي تَأْخُذُ مِنْ
 حَيَاةِ شُبَّانِنَا ثَلَاثَ سِنِينَ وَلَا تُعْمَى رُوحَ الْهِمَّةِ فِيهِمْ إِلَّا يَسِيرًا ، وَأَنْ
 نَكْتَفِي كَمَا تَكْتَفِي أَنْكَلَتَهُ بِجَيْشٍ لَا يَزِيدُ عَدَدَهُ عَلَى مِائَةِ أَلْفٍ
 أَوْ الْوَلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ ^(٣) بِجُنْدٍ لَا يَزِيدُ عَنْ سِتَّةٍ وَعِشْرِينَ أَلْفًا .

« يَلْزِمُنَا أَنْ نُغْفِيَ تِلْكَ الْحُجَّةَ الْمَادِّيَّةَ ^(٤) إِلَى الدَّفَاعِ عَنِ الْوَطَنِ
 وَالطُّمُوحِ إِلَى الْأَخْذِ بِالثَّأْرِ مِنْ قَاهِرِينَا .

« يَلْزِمُنَا أَنْ نَنْسَى انْكِسَارَنَا الَّذِي أَضْعَفَنَا وَجَعَلَنَا نَحْجَلُ

فِي كُلِّ أَنْ .

« يَلْزِمُنَا أَنْ نُبَدِّلَ نُفُوسَنَا

« يَا قَوْمِ هَلْ تَعْرِفُونَ وَسِيلَةً نَوْجِدُ بِهَا الْهِمَّةَ وَالْإِرَادَةَ مِنْ حَيْثُ

فُقِدَتَا ، وَنَجْعَلُ اللَّاتِنِيَّ أَوْ السَّلْتِيَّ ^(٥) الضَّعِيفَ انْكَلِزِيًّا سَكْسُونِيًّا

مِنْ الْجَبَّارِينَ .

« وَبَعْدَ هَذَا فَعَلَيْكُمْ بِمَا يُسْرَى ^(٦) الْهَمَّ عَنْكُمْ لَعَلَّ صَاحِبَ

(١) جلب يجلب كضرب يضرب وكطلب يطلب (٢) أي ويلزمنا الغاء (٣) أي أو
 كما تكتفي الولايات المتحدة بجند الخ (٤) لعله يريد التعلية الحقيرة التي تتعلل بها وتلهي
 عن واجباتنا — تعلية الدفاع عن الوطن (٥) السلت شعب قديم تشعب منه الفرنسيون
 (٦) يذهب

الْكِتَابِ الَّذِي اشْتَدَّ وَقَعُهُ قَدْ بَالِغٌ وَغَالِي
 « يَا قَوْمَ لَا يَنْفَعُكُمْ اعْتِقَادُكُمْ بِأَنَّكُمْ أُمَّةٌ خَيْرٌ تَطْلُبُ الْخَيْرَ
 لِلنَّاسِ، وَبِأَنَّ الْإِنْكِلِيزَ السَّكْسُونِيِّينَ أُمَّةٌ اخْتِصَّاصٍ ^(١) وَخِدَاعٍ
 وَبِأَنَّ الدَّوْلَةَ الْأَلْمَانِيَّةَ إِنَّمَا تَعِيشُ مِنْ فَوَائِدِ نَصْرِهَا عَلَيْكُمْ
 يَا قَوْمَ لَا يَنْفَعُكُمْ غَيْرُ إِصْلَاحِ حَالِكُمْ فَاعْمَلُوا إِنْ كُنْتُمْ
 فِي التَّرَقِّيِّ رَاغِبِينَ » اهـ

ثم كتبت ذلك العالم الشهير رسالةً أُخْرَى، وَكَانَتْ الْأُولَى قَدْ
 أَجْهَزَتْ ^(٢) عَلَى الطَّبْعَةِ الْأُولَى مِنَ الْكِتَابِ. وَيَقُولُ صَاحِبُ التِّزَامِ
 إِنَّهُ اضْطُرَّ إِلَى طَبْعِ الثَّانِيَةِ عَلَى عَجَلٍ فَقَدْ كَانَ يُطَلَّبُ مِنْهُ فِي الْيَوْمِ
 الْوَاحِدِ مَا يَزِيدُ عَلَى مِائَةِ نُسْخَةٍ. وَرَدَّدَتْ جَمِيعُ الْجَرَائِدِ صَدَى
 هَاتَيْنِ الْمَقَالَتَيْنِ وَنَشَرَتْهُمَا جَرَائِدُ الْأَقَالِمِ كُلُّهَا عَلَى التَّقْرِيبِ، وَلِكُلِّ
 وَاحِدَةٍ مِنْهَا قَوْلٌ يُشْجَعُ عَلَى اقْتِنَاءِ هَذَا الْكِتَابِ وَيُؤَيِّدُ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ
 مِنَ النَّصَاحِ وَالْمَبَادِيءِ.

هَذَا هُوَ الْكِتَابُ الَّذِي نُهَيْدِي الْيَوْمَ تَرْجَمْتُهُ إِلَى النَّاطِقِينَ
 بِالضَّادِ ^(٣) عُمُومًا وَإِلَى الْمِصْرِيِّينَ خُصُوصًا لِمُطَابَقَةِ الْوَقَائِعِ الَّتِي دُونَتْ

(١) لعله يريد أمةً أنانيةً تعمل لنفسها فقط (٢) يريد أن الرسالة الأولى كانت سبباً في
 رواج الطبعة الأولى ونفاذها (٣) الذين لغتهم اللغة العربية

فِيهِ عَنِ الْأُمَّةِ الْفَرَنْسَاوِيَّةِ لِمَا هُوَ حَاصِلٌ فِي بِلَادِنَا وَلا تَفَاقِ الْبَلَدَيْنِ
فِي كَثِيرٍ مِنَ الْعَادَاتِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْأَفْكَارِ الَّتِي عَنِ^(٢) الْمَوْلَفُ
يَبَيِّنُ جِهَاتِ النَّقْصِ فِيهَا. اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ الصَّغِيرَةَ لَدَيْهِمْ كَبِيرَةٌ لَدَيْنَا
وَإِلْتِسْنَاءٌ فِيهِمْ قَاعِدَةٌ عَمُومِيَّةٌ عِنْدَنَا.

وَوَجْهُ الشَّبَهِ هَذَا هُوَ الَّذِي اخْتَرْنَاهُ سَبَبًا فِي طَلَبِ الْإِذْنِ مِنَ
الْمَوْلَفِ. وَإِلَيْكَ نَصًّا مَا بَعَثْنَا بِهِ إِلَيْهِ بَعْدَ الدِّيَابِجَةِ:

لَمَّا قَرَأْتُ كِتَابَكُمْ الْفَيْسَ « سِرَّ تَقَدَّمَ الْانْكِلِيزِ السَّكْسُونِيِّينَ »
أَثَرًا عِنْدِي بِمَا رَأَيْتُهُ مِنَ الشَّبَهِ الْكُلِّيِّ بَيْنَ أُمَّتِي وَأُمَّتِكُمْ: فَأَخْلَقْنَا
أَخْلَاقَكُمْ وَعَادَاتِنَا عَادَاتِكُمْ، وَالْفَرْقُ بَيْنُنَا وَبَيْنَكُمْ أَنَّ الْعُيُوبَ
عِنْدَنَا كَبِيرَةٌ جَدًّا. وَلَا شَكَّ فِي أَنَّهُ سَيَكُونُ لِكِتَابِكُمْ هَذَا مِنَ
التَّأثيرِ مَا يَرْجَعُ بِالْفَائِدَةِ عَلَى الْأُمَّةِ الْفَرَنْسَاوِيَّةِ، لِذَلِكَ رَأَيْتُ أَنْ
نَقْلَهُ إِلَى اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ يُفِيدُ أَهْلَ بِلَادِي أَهْلًا^(١) تَسْمَحُونَ لِي
بِتَرْجُمَتِهِ.

وَقَدْ تَفَضَّلَ حَضْرَتُهُ فَأَجَابَنِي عَلَى طَلْبِي فِي ٤ يُولْيُو سَنَةِ ١٨٩٨ بِمَا يَأْتِي:—

« أَخَذْتُ خِطَابَكُمْ بَعْدَ عَوْدَتِي مِنْ غَيْبَةٍ قَصِيرَةٍ وَقَدْ سُرِرْتُ جَدًّا
مِنْ حُسْنِ ظَنِّكُمْ بِكِتَابِي. وَفِي اعْتِقَادِي أَنَّ بِلَادَكُمْ يُسْتَفِيدُ مِنْ تِلْكَ

(١) عني بكذا مبنى المجهول: أي اهتم به (٢) الاسح وهل دون الهمزة التي هي استفهام آخر.

الأفكار مثل بلدي فأنا أصرح لكم، بكمال الارتياح، أن تُترجموه
إلى اللغة العربية»

ويحتاج سيرتكم الانكليز السكسونيين في مطالعته إلى دقة نظر
وروية حتى لا يفوت الغرض المقصود لنا من ترجمته وهو تنبيه
الفكر إلى أسباب ما نحن فيه من التأخر والانحطاط.

ومن المقرر أن ميلنا إلى مطالعة المؤلفات التي من هذا القبيل
ضعيف حتى في هذه الأيام، وأن المشتغلين بنشرها شقى العاملين:
فإن الواحد منهم قد ينتهب أوقات العمل فيها من سويعات نومه
ولحظات راحته ويتحمل من المتاعب مالا تُقدر قيمته ثم لا يستعيز
عن تعب بلذة أن الناس يقرأون ما أهدى إليهم فيرتاح لكونه
كان لقومه من النافعين.

لكن الذي لا يأخذ الأمور بطواهرها بل يطلب الحقيقة أنى
وجدت، يعلم أن ازواء رغبة الناس عن مطالعة المؤلفات المفيدة
وملاهم من العلم بما يجرى في الوجود من تقدم الأمم بترقى المعارف
والتساع نطاق التربية والتعليم لم يكن ناشئا عن بغضهم للعلم أو
نفورهم من القائمين بنشره، وإنما هو مسبب عن طول زمن الترك
الناشيء عن الضعف العام الذي ألم بروح الشرق منذ أجيال
طويلة حتى آتت ملكة حب الاستطلاع، وجعل النظر في أحوال

الأُمَّةِ خُصُوصًا وَأَحْوَالِ الْأُمَّمِ عُمُومًا مَقْصُورًا عَلَى مَا يُحْسِنُ إِحْسَاسًا
 مَادِيًّا، فَلَا يَتَحَرَّكُ الْفِكْرُ إِلَّا مِنْ جَانِبِ الشُّعُورِ الْجِسْمَانِيِّ، عَلَى أَنَّ
 تَحَرُّكَهُ إِنَّمَا يَكُونُ لِمُجَرَّدِ التَّوَجُّعِ وَالتَّحَسُّرِ أَوْ لِمُجَرَّدِ الْإِبْتِهَاجِ
 وَالْفَرَحِ الْوَقْتِيِّ ثُمَّ لَا يَلْبَثُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى السَّبَبَاتِ^(١) الْعَمِيقِ فَيَذْهَلُ
 عَنْ أُمَّتِهِ وَعَنْ نَفْسِهِ وَيُضْبِحُ كَمَا أَمْسَى، بِلْ أَقْلٍ عَزَمًا وَأَكْثَرَهُمَا
 ذَلِكَ مَا أَصَابَ الْأُمَّمَ الشَّرِيقِيَّةَ وَاسْتَحْكَمَ فِي عُقُولِنَا حَتَّى عَمَّ الْقُتُورُ
 وَصَارَ كَأَنَّهُ حَالَةٌ فِطْرِيَّةٌ فَحَسِبْنَاهُ خُلُقًا مِنْ أَخْلَاقِنَا وَعَدَدًا مِنْ مَخْرُجِ
 عَنْ حَالَتِنَا هَذِهِ مُبْتَدَأًا عَنِ الْمَنْهَجِ الْقَوِيمِ وَمَارِقًا^(٢) عَنْ تَقَالِيدِ الْأُمَّةِ
 وَعَادَاتِهَا وَمُهَيِّنًا لَهَا فِيمَا تَرَى التَّمَسُّكَ بِهِ مِنْ مُوجِبَاتِ كَمَالِهَا .
 خُصُوصًا إِذَا جَاءَ بِمَا يَكْشِفُ الْقِنَاعَ^(٣) عَنِ الْمَصَائِبِ الْمُتَوْلِّدَةِ مِنْ
 ذَلِكَ الْجُمُودِ وَيُبَيِّنُ وَجْهَ الضَّرَرِ فِيمَا نَحْنُ فِيهِ مِنَ الْأَنْزَوَاءِ وَنَدَّدَ بِمَا
 اعْتَقَدَ — كَمَا هُوَ الصَّحِيحُ — أَنَّهُ أَصْلُ الشَّقَاءِ وَمَجْلِبَةُ الْعَنَاءِ مِنْ
 أَخْلَاقٍ تُخَالِفُ الْغَرَضَ مِنَ الْحَيَاةِ وَطِبَاعٍ تَبْعُدُ بِأَصْحَابِهَا عَنْ مَحَبَّةِ^(٤)
 النَّجَاةِ وَمُعْتَقِدَاتٍ يَقُومُ فِيهَا الْوَهْمُ وَالْخِيَالُ مَقَامَ حَقِيقَةِ الْحَالِ .
 تِلْكَ عَادَةُ الْمَرْءِ إِنْ كَلَّتْ هِمَّتُهُ وَوَهِنَ عَنْ الْقِيَامِ بِمَا وَجَبَ كَانَ
 أَقْرَبَ إِلَى الْغَضَبِ دَفْعًا لِمُؤَثِّرِ يُؤْلِمُهُ، وَانْتِقَامًا مِنْ نُصُوحٍ يَدْبُ عَلَى

(١) السببات: النوم واصله الراحة ومنه سمي يوم السبت (٢) من مرق السهم من الرمية
 خرج من الجانب الآخر، ومنه يقال مرق فلان من الدين (٣) استعارة من قناع المرأة
 ما تقع به وجهها (٤) المحجة: جادة الطريق

مَوْضِعِ الْأَلْمِ فَتَتَأَثَّرُ النَّفْسُ مَعَ فَقْدِ الْقُدْرَةِ عَلَى نَفْيِ أَسْبَابِ التَّأَثُّرِ
وَيَصِيرُ الْمُخَاطَبُ كَمَنْ شُدَّ وَثَاقُهُ^(١) وَانْهَأَتْ عَلَيْهِ السَّيْطَةُ^(٢) فَلَا هُوَ
قَادِرٌ عَلَى تَحْمِيلِ آلامِهَا وَلَا هُوَ يَجِدُ مِنْ وَثَاقِهِ فَكَا كَأَنَّ فِيكَتَفِي
بِالصِّيَاحِ وَالْإِيَّ كَثَارٍ مِنَ النُّوَاحِ وَتَمَتَّى نَفْسُهُ بِالْحَقْدِ عَلَى ذَلِكَ
السُّبْبِ إِلَيْهِ فِي نَظَرِهِ فَيَبِيَّتُ نَفُورًا مِنْهُ لَا يَسْمَعُ لَهُ قَوْلًا وَلَا يَعِي
عَنْهُ فِعْلًا.

هَذَا هُوَ السَّبَبُ فِي الْإِقْبَالِ عَلَى مُطَالَعَةِ الْقِصَصِ وَالْخَرَافَاتِ
وَالْتَهَابِ^(٣) عَلَى اقْتِنَاءِ التَّافِهِ^(٤) مِنَ الْمَوْلَفَاتِ وَالتَّسَابِقِ إِلَى حِفْظِ
كُتُبِ الْمَجُونِ^(٥) وَالرِّوَايَاتِ، وَالنُّفُورِ مِنَ الْقَوْلِ الْجَدِّ وَهَجْرِ النَّافِعِ
وَإِغْفَالِ الْمُفِيدِ وَفِيهِ تَعْلِيلٌ وَاضِحٌ لِكثْرَةِ انْتِشَارِ كُتُبِ الْمَجُونِ
وَالْهَذْيَانِ^(٦) وَقِلَّةِ كُتُبِ الْعُلُومِ الصَّحِيحَةِ. فَإِنَّ الْأُولَى لَا تَطْلُبُ شَيْئًا مِنْ
هَمَّةِ الْقُرَّاءِ وَلَا تَشْغَلُ مَحَلًّا مِنْ مُدْرِكَتِهِمْ^(٧) وَلَا يَتَكَلَّفُونَ أَكْثَرَ
مِنَ النَّظَرِ إِلَى الْأَحْرَفِ لِيُحْصَلُوا^(٨) مِنْهَا صُورَةً فِي الذَّهْنِ تُضْحِكُهُمْ
أَوْ يُدْرِكُوا وَاوَاقِعَهُ تَعْجِبُهُمْ. ثُمَّ يَنْقَضِي الْوَقْتُ بِسَلَامٍ وَعِظَاءٍ الْإِدْرَاكِ

(١) الوثاق بفتح الواو وكسرها: القيود والجل ونحوها (٢) جمع سوط الذي يضرب به
(٣) من قولهم تهافت الفراش في النار إذا تطاير إليها (٤) التافه الحقيقير الحسيس من كل
شئ (٥) أصل المجون أن لا يبالي الانسان ما صنع ، والمراد كتب الهزل (٦) يريد
الهزل الشبيه بالهذيان (٧) أى الحاسة التى تدرك الاشياء ومعلوم أن أول مراتب وصول
العلم الى النفس هو الشعور ثم الإدراك ثم الحفظ الى آخر ما هو مبسوط في كتب الفلسفة
(٨) يقال حصل الشئ تحصيلًا

الْحَقِيقِيُّ مُقْفَلٌ عَلَيْهِ . وَلِأَنَّ الثَّانِيَةَ تَقْتَضِي إِمْعَانَ النَّظَرِ ^(١) وَتَسْتَوْقِفُ
 الْفِكْرَ وَتَنْسَابُ فِي النَّفْسِ فَتُحَدِّثُ فِيهَا مِنَ التَّأْثِيرِ مَا يَهْبِجُ خَاطِرَ
 الْمُطَالِعِ وَيَدْعُوهُ إِلَى الْعَمَلِ أَوْ يُدَبِّهُهُ إِلَى الْوَاجِبِ عَلَيْهِ . فَإِنْ كَانَ
 مِنْ أَهْلِ الِهْمَمِ السَّاقِطَةِ — وَهُوَ الْغَالِبُ — وَجَدَتْهُ يَشْعُرُ بِثِقَلِ
 الْوَاجِبِ الْمَطْلُوبِ مِنْهُ . وَمَتَى أَحَسَّ مِنْ نَفْسِهِ الْعَجْزَ عَنِ الْقِيَامِ
 بِهِ أَسْرَعَ إِلَى طَرْحِ الْكِتَابِ وَاشْتِغَلَ عَنِ الْعَمَلِ بِالتَّعْنِيفِ وَالْعِتَابِ
 وَرَبَّمَا أَوْقَدَ النَّارَ وَأَحْرَقَ الْكِتَابَ كَمَا فَعَلَ بَعْضُهُمْ فِي الْعَامِ الْمَاضِي
 بِتَرْجُمَةِ كِتَابِ الْإِسْلَامِ ظَنًّا بِأَنْ إِحْرَاقَهُ يُنْجِيهِ مِنْ وَصْمَةٍ ^(٢)
 الْجَهْلِ الَّذِي انْعَمَسَ فِيهِ .

تِلْكَ حَالٌ تَسُوُّ عُقْبَاهَا وَتَدْعُو إِلَى أَسْوَأِ مِنْهَا ، وَقَدْ أَحْدَثَتْ
 عِنْدَنَا مِنَ انْحِلَالِ الْأَخْلَاقِ وَتَمَزُّقِ الرِّوَابِطِ مَا ظَهَرَتْ نَتَائِجُهُ فِي جَمِيعِ
 مَشَاعِرِ الْأُمَّةِ وَتَقَالِيدِهَا .

هَذِهِ الْمَجْتَمَعَاتُ أَصْبَحَتْ مَعْدُومَةً فِي مَنَازِلِنَا حَتَّى بَيْنَ أَهْلِ الْحَرْفَةِ
 الْوَّاحِدَةِ ، بَلْ صَارَ هُوَ لِأَشَدِّ النَّاسِ نَفُورًا بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ فَجْهَلَ
 كُلُّ وَاحِدٍ سَبِيلَ أَخِيهِ وَغَابَتْ عَنْهُ بِذَلِكَ مَنَفَعَتُهُ وَمَنَفَعَةُ مُوَاطِنِيهِ
 وَضَعُفْنَا بِتَفَرُّقِنَا وَسَهَّلَ عَلَى الْمَزَاحِمِ أَنْ يَفُوزَ بَيْنَنَا فَوْزًا مُبِينًا . نَعَمَ
 يُوجَدُ عِنْدَنَا مُجْتَمَعَاتٌ كَثِيرَةٌ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ وَلَكِنَّهَا حَوْلَ

(١) الافصح إتمام (٢) الوصمة العيب والعار

الْكُؤُوسِ وَالْأَكْوَابِ^(١) أَوْ فِي مَيَادِينِ الْمَلَهِ وَالْأَلْعَابِ
 وَتِلْكَ الْجِرَائِدُ عَلَى كَثْرَتِهَا وَانْتِشَارِهَا لَا يُقْرَأُ مِنْهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ إِلَّا
 سَافِرٌ فَلَانَ وَعَادَ فَلَانَ وَشَكَرُ فَلَانًا وَنَحَذِرُ فَلَانًا، وَهَكَذَا. وَكُلُّهُ رَاجِعٌ
 إِلَى ذَلِكَ الْحَالِ^(٢) الَّذِي اسْتَوَى عَلَى الْأُمَّةِ جَعَلَهَا لَا تَقْبَلُ إِلَّا مَا يُوَافِقُ
 الْكَسَلَ وَيُلَاقِي عَدَمَ الْحَرَكَةِ فِي كُلِّ شَيْءٍ. أَمَّا مَا كَانَ فِي تِلْكَ الْجِرَائِدِ
 مِمَّا يُرْسَدُ إِلَى فَضِيلَةٍ أَوْ يُذَبَّهِ إِلَى رَذِيلَةٍ أَوْ يُوضِحُ حَقِيقَةً فَحُظُّهُ حَظُّ
 كُتُبِ الْجِدِّ مِنْ جَعَلَهَا خَلْفَ الظُّهْرِ وَالِاسْتِعَاذَةَ عَنْهَا بِمَا لَا يُفِيدُ.
 لَكِنْ عَلَى قَدْرِ فَقْدَانِ الشُّعُورِ الْعَامِّ فِي الْأُمَّةِ يَجِبُ الْعَمَلُ عَلَى تَنْبِيهِهِ
 وَبِمَقْدَارِ إِعْرَاضِهَا عَنِ النَّافِعِ يَنْبَغِي السَّعْيُ فِي حَمْلِهَا عَلَى الرَّغْبَةِ فِيهِ.
 وَمِنْ الْحَقَائِقِ أَنَّ الْأُمَّةَ لَا تَنْهَضُ مِنْ رَقْدَتِهَا وَلَا تَهْبُثُ مِنْ سُبَاتِهَا
 إِلَّا إِذَا خَلَصَتْ مِنْ قُبُودِهَا وَفَارَقَتِهَا الْأَمْرَاضُ الَّتِي تَنْهَكُ^(٣) قُوَاهَا
 وَتَحْطُطُ مِنْ عَزِيمَتِهَا.

وَلَا يَتَيَسَّرُ لِلْأُمَّةِ أَنْ تَتَخَلَّصَ مِنْ آلامِهَا وَتَبْرَأَ مِنْ أَمْرَاضِهَا إِلَّا
 إِذَا عَرَفَتْ أَسْبَابَهَا وَأَحَاطَتْ بِمَوْجِبَاتِ الضَّعْفِ فِيهَا
 فَأَوْلُ وَاجِبٍ عَلَى مَنْ يَطْلُبُ مَصْلَحَةَ أُمَّتِهِ أَنْ يُبَيِّنَ لَهَا مَوَاضِعَ
 الضَّعْفِ الْمُمْبِهَا^(٤) حَتَّى إِذَا تَمَّ تَشْخِيسُ الدَّاءِ سَهَلَتْ مَعْرِفَةُ الدَّوَاءِ.

(١) جمع كواب: الكوز الذي لاعروة له (٢) الحال يذكر ويؤنث فيقال حال حسن
 وحال حسنة، وقد يؤنث بالهاء فيقال حالة (٣) من نهكته الحمى هزلته (٤) الممبها:
 النازل بها.

وَلَيْسَ مَنْ يُنْكَرُ أَنَّا مُتَأَخَّرُونَ عَنْ أُمَّمِ الْعَرَبِ وَأَنَا أَمَامَهَا
ضِعَافٌ لَا نَسْتَطِيعُ مَغَالَبَتَهَا وَلَا يَسَعُنَا أَنْ نَفُوزَ بِبُعَيْتِنَا مَا دُمْنَا وَدَامَتْ.
على هذا الحال :

نَحْنُ ضِعَافٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ تَقُومُ بِهِ حَيَاةُ الْأُمَّمِ، مُتَأَخَّرُونَ فِي كُلِّ
شَيْءٍ عَلَيْهِ مَدَارُ السَّعَادَةِ. ضِعَافٌ فِي الزَّرْعَةِ وَهِيَ الْأَسُّ^(١) الْمَتِينُ الَّذِي
تَقُومُ بِهِ حَيَاةُ الْأُمَّمِ وَالشُّعُوبِ فَلَا مَطْمَعَ لِرَجُلٍ لَا يُحْصِلُ عَيْشَ يَوْمِهِ وَلَا
حَوْلَ لِأُمَّةٍ لَا تَجِدُ مَا تَقْتَاتُ مِنْهُ. وَبِالزَّرْعَةِ تَأْمَنُ الْأُمَّةُ غَائِلَةَ الشَّقَاءِ^(٢)
الْمَادِّيَّ فَتَمَكَّنُ مِنَ النَّهْوِضِ إِلَى الْحَيَاةِ الْأَدْبِيَّةِ وَطَلَبِ الْكَمَالِ، وَنَحْنُ
لَا نَعْرِفُ حَتَّى الْيَوْمِ مِنْ أَصُولِهَا غَيْرَ شَقِّ الْأَرْضِ بِقِطْعَةٍ مِنْ حَدِيدٍ
مُرْكَبَةٍ فِي كُتْلَةٍ مِنَ الْخَشَبِ يَجْرُهَا ثَوْرَانِ، وَرَمَى الْبُدُورِ كَمَا كَانَ يَرْمِيهَا
أَبَاؤُنَا ثُمَّ أَنْتَظِرُ الرِّبْحَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ وَرَاءِ الْكَسَلِ وَالْإِنْكَمَاشِ^(٣)
وَأَهْلُ الْعَرَبِ يَسْتَحْدِثُونَ لِإِصْلَاحِ الْأَرْضِ كُلِّ يَوْمٍ جَدِيدًا،
وَيَخْتَرِعُونَ مِنَ الْآلَاتِ مَا تَتَضَاعَفُ بِهِ الْهِمْمُ وَتَشْتَدُّ بِهِ الْأَيْدِي،
وَيُؤَلَّفُونَ الشَّرَكَاتِ لِلْقِيَامِ بِمَا يَعْجِزُ عَنْهُ الْأَفْرَادُ مِنْ جَلْبِ الْمِيَاهِ
وَتَصْرِيْفِهَا وَجَمْعِ الْحَاصِلَاتِ وَيَبْعِثُهَا وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا جَعَلَهُمْ يَسْتَعْمِلُونَ^(٤)

(١) الاس والاساس: أصل البناء (٢) الغائلة: الفساد والشر والهلاك (٣) المراد بالانكماش
ههنا التقصير من انكماش الضرع وهو تقاصه (٤) أى يجعلون الصخر يأتي بالغلة والثمرة.

الصَّخْرَ وَيَسْتَنْبِتُونَ الْجِبَالَ ، وَالزَّرَاعَةَ عِنْدَنَا حَلِيفَةٌ ^(١) الْإِخْطَاطِ .
 فَالْفَلَاحُ هُوَ ذَلِكَ الْمَسْكِينُ الَّذِي اقْتَفَى أَثَرَ أَبِيهِ الْقَدِيمِ فِي عَمَلِهِ وَلَمْ
 يُجِدْهُ بَعْدَهُ طَرِيقَةً وَلَا صِنْفًا فَكَتَسَى أَرْدَاءَ الْمَلَائِسِ وَتَعَذَّى بِأَخْسَرِ
 الْمَأْكُولَاتِ وَقَضَى حَيَاتَهُ فِي أَدْنَى الْمَسَاكِينِ ، وَهُوَ أَبُو الْجَهَالَةِ الْمُحَقَّرِ
 الْمَرْذُولِ ، فَلَا نَزَالَ تَقُولُ عَنْ أَنْفُسِنَا إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُبَالِغَ فِي ذَمِّ أَحَدِنَا
 بِالْجَهْلِ إِنَّهُ فَلَاحٌ ...

ضِعَافٌ فِي الصَّنَاعَةِ لِأَنَّهَا أَهْمَلْنَاهَا وَجَهَلْنَا طَرِيقَهَا فَأَصْبَحْنَا وَلَيْسَ
 مِنَّا إِلَّا الْفَعْلَةُ وَالْحَمَّالُونَ وَمُنْفَذُو إِرَادَةِ الْأَجْنَبِيِّ ، نَشَقَى لِيَسْعَدَ ،
 وَنَحْوَتُ لِيَحْيَى . هَذِهِ الْمَعَامِلُ الْفَسِيحَةُ وَالْمَصَانِعُ الْعَظِيمَةُ الَّتِي أُقِيمَتْ
 بَيْنَ يَوْمِنَا كُلِّهَا لِلْأَجْنَبِيِّ ، وَإِذَا زُرْتَهَا وَجَدْتَهَا تَنْقَسِمُ إِلَى أَقْسَامٍ
 مُخْتَلِفَةٍ بِحَسَبِ طَبِيعَةِ الْعَمَلِ الْمَطْلُوبِ وَفِي كُلِّ قِسْمٍ رَئِيسٌ مِنْ
 الْإِفْرِنِجِ وَالْكُلُّ بَعْدَ ذَلِكَ مِصْرِيُونَ . هَذِهِ الْمَبَانِي الشَّاهِقَةُ ،
 وَالْقُصُورُ الشَّامِخَةُ ، شِيدَتْ كُلُّهَا بِيَدِ الْمِصْرِيِّينَ لَكِنِّيهِمْ كَانُوا
 فِي تَشْيِيدِهَا مِنْ الْأَجْرَاءِ يَعْمَلُونَ بِمِشِيئَةِ الْأَجْنَبِيِّ وَلِفَائِدَتِهِ .

أَدْخَلَ بَيْتَ عَظِيمٍ مِنْ عُظَمَائِنَا أَوْ بَيْتَ شَيْخٍ مِنْ عُلَمَائِنَا أَوْ بَيْتَ
 رَاهِبٍ مِنْ رُهْبَانِنَا أَوْ بَيْتَ حَقِيرٍ مِنْ أَجْرَائِنَا ثُمَّ أَعْدَدُ مَا فِيهِ مِنْ
 أَنْوَاعِ الْأَثَاثِ وَالْأَمْتَعَةِ وَأَنْظُرُ إِلَى بِنَائِهِ وَمَا يَتَرَكُّ مِنْهُ ، وَوَزَعُ

كُلَّ شَيْءٍ عَلَى صَانِعِهِ وَابْتَحَثَ عَنْ يَدِ الْمِصْرِيِّ فِيهِ لَا تَجِدُهَا إِلَّا فِي قَطْعِ
 الْأَخْجَارِ وَرَصَّهَا وَمَا بَقِيَ كَأَنَّ مِنْ آيَةِ طَعَامٍ وَمَوَائِدٍ وَأَخْشَابٍ
 وَأَطَالِسٍ ^(١) وَحَرَائِرَ وَبُسُطٍ وَحَدِيدٍ وَمَقَاعِدَ وَمَصَائِيحَ وَأَكْوَابٍ
 وَمَفَاتِيحَ وَالْوَانَ وَمَلَابِسَ وَمَطَابِخَ وَكُلَّ شَيْءٍ صُنِعَ الْأَجْنَبِيُّ ^(٢)
 ضِعَافٌ فِي التَّجَارَةِ فَلَا نَعْرِفُ مِنْهَا غَيْرَ أَنَّ الرَّجُلَ مِنَّا يَشْتَرِي
 الصَّفَقَةَ ^(٣) مِنَ الْمَخْزَنِ الْكَبِيرِ وَيَجْلِسُ بِهَا فِي حَانُوتِهِ الصَّغِيرِ حَيْثُ
 يَفْتَحُهَا مُتَأَخِّرًا وَيُقْفِلُهَا قَبْلَ الْمَسَاءِ وَيَتَحَادَثُ مَعَ جَارِهِ طُولَ النَّهَارِ
 وَإِذَا جَاءَهُ طَالِبٌ أَجْلَسَهُ مَكَانَهُ وَبَالَغَ فِي مُوَأْنَسْتِهِ وَإِكْرَامِهِ بِمَا يَنْقِضِي
 بِهِ الْوَقْتَ وَالرَّجُلُ مَا اشْتَرَى وَالتَّاجِرُ مَا اسْتَفَادَ ، وَهُوَ يُحْسَبُ مِنْ
 التَّجَارِ ^(٤) ذَوِي الْمَسْكَنَةِ وَالْإِعْتِبَارِ ^(٥) مَعَ أَنَّهُ لَا يَعْرِفُ أَيَّنَ تَصْنَعُ بِضَاعَتَهُ
 وَلَا مَنْ الَّذِي جَلَبَهَا إِلَيْهِ وَلَا تَمَنَّ مَادَّتَهَا الْأُولَى ، وَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى .
 لِذَلِكَ ضَرَبَ الْأَجْنَبِيُّ عَلَى أَبْوَابِ التَّجَارَةِ وَأُحِيطَتْ بِسُورٍ مِنْ عِلْمِهِ
 وَهَمَّتْهُ فَاسْتَأْثَرَ بِصَادِرَاتِهَا ، وَأَخْتَصَّ بِوَارِدَاتِهَا ، وَأَنْشَأَ الشَّرَكَاتِ
 تَوْسَعًا فِيهَا وَاسْتَخْدَمَ الْوَطَنِيِّينَ سَمَاسِرَةَ لَا يَكْسِبُونَ مِنْ كَدِّهِمْ
 إِلَّا الْإِسِيرَ .

ضِعَافٌ فِي الْعِلْمِ ؛ اللَّهُمَّ إِلَّا فِي عِلْمٍ مَدَارُهُ جَهْلُ حَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ

(١) جمع أطلس : ثوب من حرير منسوج (٢) صنع الاجنبي خبر قوله ما بقي

(٣) أصل الصفقة ضرب اليد على اليد في البيع مما هو علامة وجوب البيع ، ومنه يقال

صفقة راجحة وصفقة خاسرة (٤) التجار بكسر التاء وتخفيف الجيم وبضم التاء والتشديد

(٥) يريد الاحترام ، والاعتبار بهذا المعنى غير صحيح

فِي الْوُجُودِ . أَمَّا الْمَفِيدُ مِنْهُ فَقَدْ اقْتَصَرْنَا فِيهِ عَلَى مَا يَخْتَصُّ بِعِلَاقَةِ
 الْإِنْسَانِ مَعَ رَبِّهِ وَالْبَاقِي مِنْهُ أَخْرَجْنَاهُ عَنْ مَعْنَاهُ الصَّحِيحِ وَحَكَمْنَا
 عَلَيْهِ بِالْإِعْدَامِ وَشَهَرْنَا ^(١) الْمُسْتَعْلِينَ بِهِ حَتَّى أَمْتَنَّا رُوحَ التَّقَدُّمِ
 وَأَطْفَانًا مَصَابِيحَ الْعُرْفَانِ فِي الْأَذْهَانِ . أَيْنَ مِنَ الْمَوْرُخِ وَالنَّبَاتِيِّ وَالطَّبِيبِ
 وَالْكِيمِيَانِيِّ وَالْمُهَنْدِسِ وَالطَّبِيعِيِّ وَالْأَدِيبِ وَالْمَنْطِقِيِّ وَاللُّغَوِيِّ وَعَالِمِ
 الْأَخْلَاقِ وَالْحَكِيمِ وَالْفَلَسْكَيِّ وَعَالِمِ الزَّرَاعَةِ وَغَيْرِ هَؤُلَاءِ ؟! نَعَمْ
 نَحْنُ لَا نَعْدَمُ نَفَرًا مِنْهُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَلِيلُونَ ، بِدَلِيلِ أَنَّهُ لَوْ كَانَ
 عِنْدَنَا مِنْهُمْ عَدَدٌ يَكْفِينَا لَمَا وَجَدَ الْأَجْنَبِيُّ بَيْنَنَا عَلَى هَذِهِ
 الْكَثْرَةِ الَّتِي نُسَاهِدُهَا لِأَنَّهُ مَا كَانَ يَجِدُ عِنْدَنَا ذَلِكَ الْمُرْتَزِقَ الْفَسِيحَ .
 ضِعَافٌ فِي الْعَزِيمَةِ فَلَا يَبْدَأُ الْوَاحِدُ مِنَّا بِعَمَلٍ إِلَّا وَقَدْ أَدْرَكَهُ
 الْعَمَلُ وَأَحَاطَ بِهِ الْفِشَلُ فَتَرَكَ عَمَلَهُ وَتَقَهَّرَ فَرِحًا بِسَلَامَتِهِ ، وَإِذَا
 قَامَ أَحَدٌ مِنَّا بِمَشْرُوعٍ يَقْتَضِي الْمَعُونَةَ لُبَّيْتُ دَعْوَتَهُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ
 حَتَّى إِذَا آنَ أَوَانُ الشَّرُوعِ فِي الْعَمَلِ هَرَبَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ نَاحِيَةٍ
 وَأَصْبَحَ صَاحِبُهُ يَنْدُبُ الْوَقْتَ الَّذِي قَدْ أَضَاعَهُ فِيهِ ، بَلْ رُبَّمَا وَجَدَ
 فِي نَفْسِهِ ارْتِيَاحًا أَيْضًا لِأَنَّهُ كَانَ قَدْ عَرَضَهَا لِأَمْرِ يَجْرُؤُ إِلَيْهِ ضَرَّاءُ
 بَلْ إِنْ تَلَبَّيْتَ النِّدَاءَ أَصْبَحْتَ مَعْدُومَةً لِكَثْرَةِ مَا كَانَ مِنَ الْفِشَلِ
 وَالْخِذْلَانِ فَمَاتَتْ بِذَلِكَ رُوحُ الطَّلَبِ وَاسْتَوَلَى الْخُمُولُ عَلَى كُلِّ

(١) يريد شنعنا عليهم وجعلناهم شهرة

الطبقات وانفرد أولو العزيمة بمثل هذه المشروعات .

ضعافٌ في الألفة والمودة فكلُّ يومٍ ترى الأصحاب أعداءً
والأصدقاء متنافرين وأهل العلم متباغضين متحاسدين .

ضعافٌ في النخوة^(١) والشعور الملقى والجامعة القومية: فالعظيمُ
منأيَّهانُ والكبيرُ يَنْتَابُهُ^(٢) الزمانُ وأمثاله يُنظرون إليه فرحين
بمُصِيبَتِهِ مُسْتَبْشِرِينَ بِنَسْكَبَتِهِ أَوْ آسِفِينَ مِنْ بَعِيدٍ بِحَيْثُ لَا يَسْمَعُ
لَهُمْ صَوْتُ لِمَعْوَتِهِ ، وَالْأَصَاغِرُ يَشْتَمُونَ جَهْلًا أَوْ انْتِقَامًا . وَمَا دَرَى
الْعُظَمَاءُ أَنَّ ذُلَّ الْوَاحِدِ مِنْهُمْ ذُلٌّ لَهُمْ أَجْمَعِينَ ، وَلَا حَسِبَتِ الطَّبَقَاتُ
النَّازِلَةَ أَنْ زَوَالَ الطَّبَقَاتِ الْعَالِيَةِ مِنْ الْأُمَّةِ بِمَثَابَةِ^(٣) زَوَالِ الرُّوحِ
مِنَ الْجِسْمِ لِأَنَّهَا سَيَاجُ^(٤) الْأَخْلَاقِ وَمَرْجِعُ صِيَانَةِ الْعَادَاتِ وَمُشَخَّصُ
الْأُمَّةِ فِي حَيَاتِهَا وَشَعُورِهَا وَلَا حَيَاةَ لِقَوْمٍ لَا يَشْعُرُونَ .

ضعافٌ في الخيراتِ فَمَا أَثْقَلَ طَلَبَ الْإِحْسَانِ عَلَى أَغْنِيَانِنَا
وَالْمُوسِرِينَ .

ضعافٌ في طلبِ حقوقنا فالرَّجُلُ مِنَّا يُسَابُ حَقُّهُ وَيَهَانُ
مَلِكُهُ وَهُوَ يَقُولُ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ وَحَسْبُنَا
اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

ضعافٌ في أداء الواجبِ عَلَيْنَا فَكُلُّ مَنْ أَقَامَ فِي عَمَلٍ يَهْرُبُ

(١) أصل النخوة العظمة ، والمراد الشهامة والمروة (٢) يريد بصدده الزمان بنوبه

(٣) يريد بمنزلة (٤) أصل السياج الحائط وما أحيط به على شيء .

منه، إن كان رئيساً استعمل الرياسة في البطالة^(١) واتخذها شعاراً^(٢) العدم العمل ورعى أحماله على مرءوسيه، وإن كان مرءوساً طفق يندد بالرئيس ويقول كان يجب عليه أن يعمل كذا وكذا ولقد أخطأ في كذا وكذا وعاقبوني لأنني قمت بالواجب ولكنهم قوم لا يعقلون. ضعاف في الاعتبار^(٣) بالحوادث فنحن ننسى كل شيء وقد يكون النسيان حاصلاً في زمن التذكير، لذلك تقع في الخطأ بعينه كل يوم.

ضعاف في حفظ ما ترك الآباء فكل يوم تشرق الشمس^(٤) على بيوت دمرت وأملأك تفر من أيدي وأرثيها فتتلقفها أيدي^(٥) عرفت مكان الضعف مناً وتذنبات بزوال النعمة عنا فتربصت بنا ريب الزمان^(٦)

ضعاف في التحصيل فالرجل يولد ويتربى^(٧) ويهزم ويموت وقاماً تراه قد حافظ على ما كان في يده، والنادر هو الذي يزيد عليه شيئاً يسيراً

ضعفنا حتى أصبحنا نرجو كل شيء من الحكومة فهي التي

(١) هي الرياسة والرأسة، أما البطالة بفتح الباء فصدر بطل الأجير يبطل بطالة أي تعطل (٢) الشعار في الأصل مايلي الجسد من الثياب والمراد الزق البطالة بنفسه كلزوق الثياب من الثياب بالجسد (٣) الاعتبار: الاتعاض (٤) شرقت الشمس طلعت وأشرقت أعضاء (٥) تلقف الشيء: تناوله بسرعة (٦) ريب الزمان: حوادثه (٧) تقول هربته فتربى أي نشأته فنشأ

نَطَّالِبُهَا بِحِفْظِ حَيَاتِنَا وَخُصُوبَةِ أَرْضِنَا وَتَرْوِيجِ تِجَارَتِنَا وَتَحْسِينِ
صِنَاعَتِنَا . هِيَ الَّتِي نَطْلُبُ مِنْهَا أَنْ تُرَبِّيَ الْأَبْنَاءَ وَتَطْعِمَ الْفُقَرَاءَ وَتَرْزُقَ
الْعَجْزَةَ ^(١) وَتَنْفِيْ أَسْبَابَ الْبَطَالَةِ وَتَحْفَظَ الْأَخْلَاقَ وَتَلْمَّ شَعَثَ ^(٢)
الْعَائِلَاتِ وَتَجْمَعَ أَشْتَاتَ الْقُلُوبِ ، هِيَ الَّتِي نَطَّالِبُهَا بِتَعْوِيْضِ
مَا نَقَصَ مِنْ إِرَادَتِنَا وَتَقْوِيْمِ مَا اعْوَجَّ مِنْ سَيْرِنَا وَسِيْرَتِنَا وَرَدِّ
هَجَمَاتِ الْمُزَاحِمِيْنَ عَنَّا وَالسَّهْرِ عَلَى مَصَالِحِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَّا ، فَإِذَا تَأَخَّرْنَا
فِي عَمَلٍ مِنْ تِلْكَ الْأَعْمَالِ بِإِهْمَالِنَا رَمَيْنَاهَا بِسُوءِ الْإِدَارَةِ وَاتَّهَمْنَاهَا
بِحُبِّ الْأَثَرَةِ ^(٣) وَالْقِيْنَا عَلَيْهَا تَبِعَةً خُمُولَانَا كَلْبًا .

لَا رَيْبَ أَنَّهَا بِهَذَا الزَّعْمِ قَدْ ضَلَلْنَا السَّبِيلَ فَإِنَّمَا الْحُكُومَةُ وَازِعٌ ^(٤)
لَا يُكَلِّفُ إِلَّا مَا اقْتَضَتْهُ طَبِيعَتُهُ ، وَشَأْنُ الْحُكُومَاتِ فِي الْأُمَمِ تَأْيِيدُ
النِّظَامِ وَحِفْظُ الْأَمْنِ وَإِقَامَةُ الْعَدْلِ وَتَسْهِيْلُ سُبُلِ الزَّرَاعَةِ وَمُعَاهَدَةُ
بَعْضِهِمْ بَعْضًا عَلَى مَا يَضْمَنُ حُرِّيَّةَ التِّجَارَةِ وَيُشْجِعُ أَهْلَ الصَّنَائِعِ
وَالْحِرْفِ كَمَا تَقْتَضِيهِ الْمَصَالِحُ الْمُشْتَرَكَةُ وَعَلَى قَدْرٍ مَا تَسْمَحُ بِهِ الْمُمَكِّنَاتُ .
وَبِالْجَمَلَةِ فَالْحُكُومَةُ وَازِعٌ عَامٌّ لَا وَاجِبَ عَلَيْهِ إِلَّا الْأَمْرُ الْعَامُّ مِمَّا يَدْخُلُ
تَحْتَهُ جَمِيعُ النَّاسِ وَلَا يَنْفَرِدُ بِالْإِسْتِفَادَةِ مِنْهُ وَاحِدٌ بِخُصُوصِهِ .

وَعَلَى الْأُمَّةِ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ تَسْتَفِيدَ مِنْ هَذَا النِّظَامِ وَتَنْتَهِزَ فُرْصَةَ

(١) جمع عاجز (٢) الشعث : انتشار الأمر . ولم الله شعنك أى جمع أمرك المنتشر
(٣) يقال استأثر بالشئ أى استبد به والاسم الاثره (٤) الوازع : الذى يزع الناس
أى يكفهم .

الْأَمْنِ وَالطُّمَأْنِينَةَ لِتَسْعَى وَرَاءَ مَنَافِعِهَا وَتَطْلُبَ الْكَمَالَ فِي زِرَاعَتِهَا
وَصِنَاعَتِهَا وَتِجَارَتِهَا وَفِي نَشْرِ الْمَعَارِفِ وَإِحْيَاءِ الْعُلُومِ وَفِي آدَاءِ الْوَاجِبِ
وَالْمُحَافَظَةِ عَلَى الْحُقُوقِ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي أَهْمَلْنَا حَتَّى أَضَعْنَاهُ .

تَرَكْنَا الزَّرَاعَةَ فِي انْحِطَاطِهَا وَالصَّنَاعَةَ فِي تَأَخُّرِهَا وَالتِّجَارَةَ
فِي كَسَادِهَا وَصَارَ كُلُّ الَّذِي نَطْلُبُهُ مِنَ التَّعْلِيمِ لِابْنَانَا وَظَئِفَةً
فِي الْحُكُومَةِ يَعِيشُونَ فِيهَا عَيْشَةَ الْإِنْكَشِ (١) جَرِيًّا عَلَى سُنَّةِ الْآبَاءِ؛
وَمَا دَرَيْنَا أَنَّ الزَّمَانَ يَتَقَلَّبُ وَأَحْوَالَ الْمَعِيشَةِ تَتَبَدَّلُ وَأَنَّ وُضَائِفَ
الْحُكُومَةِ أَصْبَحَتْ آخِرَ الْحَرْفِ كَسَبًا وَأَشَدَّهَا تَقْيِيدًا مُلْحَرِيَّةَ الْعَمَلِ
وَأَقْلَهَا مُشَجَّعًا عَلَى الْهِمَّةِ وَالْإِقْدَامِ لِانْحِصَارِ مَزَايِهَا فِي ذَلِكَ الرَّاتِبِ
الزَّهِيدِ الَّذِي لَا يَنِي فِي الْحَقِيقَةِ بِجَمِيعِ حَاجَاتِ الْإِنْسَانِ فِي حَيَاتِهِ بَعْدَ
أَنْ كَانَتْ مَصْدَرِ الثَّرْوَةِ وَمَوْضِعِ الرَّاحَةِ وَالْأَمَلِ وَمُظْهَرِ الْأُبْهَةِ
وَالْفَخَارِ وَعُنْوَانِ الشَّرَفِ وَالِإِعْتِبَارِ (٢) .

وَمَا أَقْبَلَ بَابَ التَّوَضُّعِ خُصُوصًا فِي وَجْهِ الْعَطَالَةِ (٣) وَالَّذِينَ أَضَاعُوا
وَقْتَهُمْ فِي اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ ظَنَّ النَّاسُ كَأَنَّهُمْ أَنَّ أَبْوَابَ الرِّزْقِ كُلَّهَا أَقْفَلَتْ
فِي وُجُوهِهِمْ وَظَهَرَتْ فِي الْوُجُودِ نَشَاءٌ جَدِيدَةٌ (٤) نَرَاهَا فِي الْغُدُوِّ

(١) الانكماش هنا: التقبض من انكماش الضرع أى نقله كما تقدم (٢) يريد بالاعتبار

الشرف والحرمة واستعمال الاعتبار بهذا المعنى عامى مبتذل (٣) يريد العاطلين

(٤) يريد نشأً جديداً أى شبانا .

وَالرَّوَّاحِ مُجْتَمِعَةً فِي الْقَهَاوِي (١) وَمُنْتَشِرَةً فِي الطَّرِيقَاتِ وَهِيَ أَعْلَمُ النَّاسِ
بِطَرِيقِ التَّخْرِيبِ وَأَسْرَعُهُمْ إِلَى الْإِنْصَابِ عَلَى تَزْيِيقِ ثُرُوتِهِمْ وَتَبْدِيدِ
مَاجَمَعِ الْآبَاءِ ، وَأَصْبَحَتِ الشَّبِيهَةُ (٢) أَقْلًا اسْتِعْدَادًا إِلَى الْعَمَلِ الَّذِي
يَعُودُ عَلَى الْأُمَّةِ بِالْخَيْرِ وَيَنْهَضُ بِهَا إِلَى التَّقَدُّمِ وَالتَّرَقُّي .

هَكَذَا انْصَرَفْنَا عَنْ مَصَالِحِنَا وَأَضَعْنَا الْوَقْتَ فِيمَا لَا يُفِيدُ حَتَّى
أَحْدَقْتُ (٣) بِنَا الْمَصَائِبُ وَضَاقَتْ عَلَيْنَا أَرْضُنَا .

مَصَائِبُنَا جَهْلٌ بِمَا احْتَجْنَا إِلَيْهِ ، وَإِهْمَالٌ لِمَا يُعَوَّلُ فِي حَيَاةِ الْأُمَّمِ عَلَيْهِ ،
وَتَمَسُّكٌ بِأَهْدَابِ (٤) أَحْلَامٍ قَدْ أَشْرَقَتْ عَلَيْهَا شَمْسُ الْحَقِيقَةِ فَبَدَدَتْ
غِيَاهِبَهَا (٥) الْإِمْنِ عَقُولَنَا ، وَبَرَهَنْتْ عَلَى بُطْلَانِهَا إِلَّا فِي خَيَالِنَا ، فَكَانَ
مِنْ وَرَاءِ إِصْرَارِنَا عَلَى التَّعَلُّقِ بِهَذَا الْخِيَالِ أَنْ تَرَبَّعَ الْأَجْنَبِيُّ بَيْنَ رُبُوعِنَا
وَأَنْفَرَدَ بِمَصَالِحِ دَارِنَا وَصِرْنَا تَرَدَّدُ عَلَيْهِ لِخِدْمَتِهِ وَهُوَ يَتَرَدَّدُ فِي قَبُولِنَا
لِكثْرَةِ مَا أَهْمَلْنَا أَنْفُسَنَا وَقَلَّةِ مَا أَهْتَمَّمْنَا بِمَصَالِحِنَا وَطُولِ غَيْبَةِ
الصَّوَابِ عَنَّا

بِذَلِكَ أزدَدْنَا ضَعْفًا عَلَى ضَعْفٍ فَأَصْبَحَتْ شُؤُونُنَا فِي أَيْدٍ غَيْرِ
أَيْدِينَا وَذَهَبَتْ أَمْوَالُنَا إِلَى غَيْرِ أَهْلِينَا مِمَّنْ لَا يُشْفِقُ عَلَيْنَا وَلَا لَوْمَ عَلَيْهِ
لِأَنَّهُ اسْتَفَادَهَا بِجِدِّهِ مِنْ خُمُولِنَا وَاكْتَسَبَهَا بِكَدِّهِ مِمَّا أَضَعَفْنَا .

(١) يريد المقاهي: أي المشارب (٢) يريد الشباب جمع شاب. أما الشبيهة فهي الحدائنة
خلاف الشيب (٣) أحدقت: أحاطت (٤) أهْدَابُ أطراف من هذب العين وهو ما نبت
من الشعر على أشجارها أو من أهْدَابِ الشجرة أغصانها (٥) غياهبها: ظلماتها

وَاسْتِخْدَمْنَا فِي مَنَافِعِهِ جَزَاءَ مَا أَهْمَلْنَا مَنَافِعَنَا . وَلِأَنَّهُ رَجُلٌ تَثَقَّفَهُ الْعُلُومُ
 وَهَدَّبَتْهُ التَّرْبِيَةُ الصَّحِيحَةُ فَأَتَمَّتْ فِيهِ الْأَدْرَاكَ وَاسْتَنْارَتْ بِصِيرَتِهِ
 وَقَوِيَّتْ إِرَادَتُهُ وَاسْتَدَّتْ زَيْمَتُهُ وَتَلِمَ أَنَّ الْحَيَاةَ لَا تَقُومُ إِلَّا بِالْمُتَابَرَةِ (١)
 عَلَى الْعَمَلِ وَالسَّعْيِ الْمُسْتَمِرِّ فِي طَلَبِ السَّكَّالِ ، وَمِنْ سُنَنِ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ
 أَنَّ يَسُودَ الْعِلْمُ عَلَى الْجَهْلِ وَأَنَّ تَعْلَوْ الْقُوَّةُ عَلَى الضَّعْفِ وَأَنَّ يُبَدِّدَ
 النُّورُ الظُّلُمَاتِ . وَعَلِمَ ذَلِكَ الرَّجُلُ نُورًا انْبَعَثَتْ أَشِعَّتُهُ وَرَاءَ
 عَزِيمَتِهِ تُضِيءُ جَوَانِبَ الْجَهْلِ فَمَالَتْ مِنَ الْغَرْبِ إِلَى الشَّرْقِ وَانْكَشَفَ
 السِّتَارُ عَنْ رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا عَالِمٌ مُقَدِّمٌ ، وَمُدْرِكٌ هَامٌ ، وَزَيْزُ الْجَانِبِ
 بِهَيْمَتِهِ ، رَفِيعُ الشَّانِ بِفِطْنَتِهِ ، وَالثَّانِي جَاهِلٌ قَدْ اسْتَوْلَى الْجُبْنَ عَلَيْهِ
 فَلَسْتَكَانَ لِحُكْمِ الزَّمَانِ وَأَنَّ تَحْتَ أَثْقَالِ الْخَوْلِ (٢)

هَذَا هُوَ الدَّاءُ الَّذِي تَتَأَلَّمُ مِنْهُ وَتِلْكَ هِيَ الْأَمْرَاضُ الَّتِي تَنْهَكَ (٣)
 جِسْمَ أُمَّتِنَا ، وَبِدِيهِ أَنْ مَعْرِفَةَ الدَّوَاءِ صَارَتْ سَهْلَةً عَلَى الْقُرَّاءِ .

دَوَاءُ نَا التَّرْبِيَةِ وَسَلَامَتُنَا فِي نَشْرِ الْمَعَارِفِ وَالْعُلُومِ فَعَلِينَا بِهَا بِمَا بَقِيَ
 فِيْنَا مِنَ الشُّعُورِ وَمَا تَرَكْنَا لَنَا مِنَ الْإِخْتِيَارِ فِي الْعَمَلِ قَبْلَ أَنْ يَتِمَّ الْإِنْحِلَالُ
 . وَيَتَعَذَّرَ عَلَيْنَا الْقِيَامُ . نَعَمْ — لَا أَنْكَرُ أَنَّ النَّدَاءَ بِوُجُوبِ التَّرْبِيَةِ
 وَالتَّعْلِيمِ يُشْعِرُ بَأَنَّ الْمُنَادِيَ بِعَيْدِ عَنْهُمَا وَمِثْلُ هَذَا النَّدَاءِ لَا يَرُوقُ
 الَّذِينَ تَمَكَّنَتْ مِنْ قُلُوبِهِمُ الْأَثَرَةُ وَحُبُّ الذَّاتِ وَصَارَ أَحَبَّ النَّاسِ

(١) المداومة (٢) استكان: ذل، واستخذى، وأن الرجل من الوجع: صاح

(٣) من نهكته الحجر هزله

إِيَّاهُمْ مَنْ يَهَشُّ لَهُمْ وَيَبْشُ فِي وُجُوهِهِمْ وَإِنْ كَانَ أَقْلَهُمْ رَحْمَةً بِهِمْ
 وَحَنَانًا عَلَيْهِمْ — وَكُنَّا ذَاكَ الرَّجُلَ — لَكِنَّ الَّذِي يَسْعَى وَرَاءَ
 الْحَقِيقَةِ وَيَطْلُبُ النَّفْعَ لِقَوْمِهِ مَضْطَرُّ إِلَى التَّخْفِيفِ مِنْ تِلْكَ الْعِزَّةِ
 الْبَاطِلَةِ وَالْإِفْلَاحِ عَنْ حُبِّ ذَاتِهِ وَعَدَمِ الْإِسْرَاعِ إِلَى النُّفُورِ مِنَ النَّدَاءِ
 حَتَّى يَتَبَيَّنَ صَوَابُهُ مِنْ خَطَايَاهُ وَيُمَيِّزَ ضَارَّهُ مِنْ نَافِعِهِ .

وحُبُّ الأَثَرَةِ هَذَا هُوَ الَّذِي جَعَلَ كِتَابَ حَضْرَةِ صَدِيقِ الْفَاضِلِ
 قَاسِمِ بَكِّ أَمِينِ (تَحْرِيرِ الْمَرْأَةِ) الَّذِي نَشَرَهُ فِي الشَّهْرِ الْمَاضِي لَا يَرُوقُ
 فِي عَيْنِ بَعْضِ الْقُرَّاءِ لِأَنَّهُ يَدْعُوهُمْ إِلَى تَرْكِ عَادَةِ تَأْصَلَتْ فِي النُّفُوسِ
 وَعُدَّتْ مِنَ الْإِعْتِقَادَاتِ وَنُسِبَتْ غَلْطًا إِلَى الشَّرِيعَةِ السَّمْحَاءِ وَكَلِمَاتٍ
 مِنْهَا فِي شَيْءٍ، مِنَ الْأَشْيَاءِ مَعَ أَنَّ الْمُوَلِّفَ جَمَعَ فِي كِتَابِهِ مِنْ شَوَارِدِ
 الْأَفْكَارِ وَرَفِيعِ الْأَقْوَالِ مَا يُعْجَبُ بِهِ كُلُّ مُحِبِّ خَيْرِ الْأُمَّةِ طَالِبِ
 لِنَفْعِهَا وَلِسُكْنِهِ بَرَهَنَ عَلَى أَنَّ عِلَّةَ تَأْخُرِ نَاسِئِهِ حَالِ النَّسَاءِ وَعَدَمُ
 تَرْبِيَّتِهِنَّ وَتَعَدُّى الرِّجَالِ عَلَى حَقُوقِهِنَّ، فَكَانَ ذَلِكَ النُّفُورُ مِنْ كِتَابِهِ
 لِمُجِئِهِ عَلَى مَا يُخَالِفُ مَا أَلْفَتَهُ النُّفُوسُ وَارْتَاخَتْ إِلَيْهِ .

وَأَعْلَى سِرِّ تَمَدُّمِ الْإِنْكَارِ السَّكْسُونِيِّينَ لَا يُسَلِّمُ مِنْ مِثْلِ هَذَا
 الْإِنْتِقَادِ وَلَكِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَلِكُلِّ أَمْرٍ مَا نَوَى .

غَرَضِي مِنْ تَرْجُمَةِ هَذَا الْكِتَابِ تَنْبِيهِ الْأَفْكَارِ إِلَى حَالَتِنَا الَّتِي

نَحْنُ فِيهَا وَمُقَارَنَتَهَا^(١) بِحَالَةِ الْأُمَّةِ الْفَرَنْسَاوِيَّةِ لِنُوقِنَ بَعْدَ عَامِنَا بِمَا هِيَ عَلَيْهِ مِنَ التَّقَدُّمِ وَالْعُمْرَانِ وَبِمَا بَلَغَتْهُ مِنَ الدَّرَجَاتِ الرَّفِيعَةِ فِي الْعِلْمِ وَالْحَضَارَةِ^(٢) وَالْعَرَفَانِ أَنَّهَا احتاجت، وهى على تلك الأحوال، إلى إصلاح شؤونها لتضارِعَ غيرَها من الأمم فنحن أحوَجُ منها إلى التعليم وأشدُّ افتقاراً إلى التربية وأعوزُ الناسَ إلى الاشتغال بما ينفعنا في هذه الحياة، كما أنني أقصدُ لفتَ الأذهانِ إلى أن الزَّمانَ يمرُّ بالأقوالِ وَالْأُمَّةَ لَا تَحْيَا إِلَّا بِصَالِحِ الْأَعْمَالِ، وَأَنَّ أَوْلَى الْأُمَمِ بِالْجِدِّ فِي تَحْصِيلِ سَعَادَتِنَا فَبِقَدْرِ التَّأخُّرِ يَنْبَغِي شِدَّةُ الْعَزَائِمِ وَتَقْوِيَةُ الْهَمَمِ وَإِدَامَةُ السَّهْرِ فِي الْعَمَلِ حَتَّى نَفُوزَ بِحِظَانِنَا مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا. كَذَلِكَ أُرِيدُ أَنْ تَمِيلَ الْأَفْكَارُ إِلَى إِطَالَةِ النَّظَرِ فِي أَحْوَالِ الْأُمَّةِ الْإِنْكَلِيزِيَّةِ الَّتِي تَحْتَلُّ الْبِلَادَ وَإِلَى أَنْ عُمَّالَ الْإِحْتِلَالِ هُمْ قَوْمٌ مِنْ ذَلِكَ الْجِنْسِ الَّذِي أَلَّفَ هَذَا الْكِتَابُ لِيَبَيِّنَ السَّرَّ فِي تَقَدُّمِهِ وَسَيَادَتِهِ فِي الْوُجُودِ، وَهُمْ مَا دَامُوا فِي بِلَادِنَا يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نُقَارِنَ بَيْنَ أَحْوَالِهِمْ وَأَحْوَالِنَا وَعَادَاتِهِمْ وَعَادَاتِنَا وَمَعَارِفِهِمْ وَمَعَارِفِنَا وَهَمَّتِهِمْ وَهَمَّتِنَا وَحَرَكَتِهِمْ وَحَرَكَتِنَا وَاقْتِدَارِهِمْ وَاقْتِدَارِنَا وَكِفَايَتِهِمْ وَكِفَايَتِنَا وَحَوْلِهِمْ وَحَوْلِنَا^(٤) وَثَرَوَتِهِمْ وَثَرَوَتِنَا، يَجِبُ

(١) إما معطوف على تنبيهه أو على حالتنا (٢) الحضارة بكسر الحاء وبفتحها

(٣) الحول: القوة

علينا أن نقارن بين هذا كله وبين ذلك كله ، لأننا مضطرون إلى معاشرتهم ومعاملتهم والاحتكاك معهم في جميع أمورنا حتى إذا صحَّ نظرنا وعرفنا الأمر على حقيقته وتشبعت نفوسنا بما هو واقع لا بما نتخيلهُ من غير تبصُرٍ ورويةٍ اهتدينا إلى واجبنا القويم ، وعلمنا إن كان مجرد القول يُجدينا نفعاً وهل الأجدر بنا دوام الاسترسال مع الأمانى التي لا مرجع لها من عملنا وكدنا أو إطالة التفكير في الحوادث التي تجرى علينا لتمييز الصالح لنا من الضار بنا ولتقصِدَ باب النجاة فندخل منه ولا نبتغي عنه من ذلك الخيال بديلاً .

غرضي من ترجمة هذا الكتاب أن يكون مرآة يرى القراء فيها أمتين عظيمتين ودولتين فخميتين تتنازعان اقتسام الوجود قد سبقت إحداهما الأخرى ؛ فلما رأت هذه تأخرها جعلت تفكير في أسباب تلك الأفضلية وقام العقلاء فيها وأرباب الأقلام يُخبرونها بأسباب ضعفها ويرشدونها إلى سبل الإصلاح فلم تنفر من هذا النداء بل أجابت الدعوة شاكرة مُرشديها وشارت مدعورة^(١) في طلب الكمال والتشبهه بجارتها . وأخلق بنا أن نتعظ بأعظم منا وتمثل بمن بيننا وبينه في العلم والتهذيب والقوة والسلطان والهمة والإقدام

مَا بَيْنَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ . ثُمَّ نَأْسَفُ عَلَى زَمَنِ قَضَيْنَاهُ فِي التَّمَيِّ وَنَنْفُضُ
غُبَارَ الْأَوْهَامِ وَنَلْتَمِسُ إِصْلَاحَ شُؤُونِنَا بِأَنْفُسِنَا وَلَا نُحْجِمُ عَنْ سُلُوكِ
طَرِيقِ الْكَدِّ وَالْعَمَلِ فَهُوَ الَّذِي فِيهِ الْحَيَاةُ وَدُونَهُ الْمَوْتُ الصَّحِيحُ .

غَرَضِي مِنْ تَرْجَمَةِ هَذَا الْكِتَابِ لِقَوْمِي هُوَ غَرَضُ الْمُؤَلِّفِ مِنْ
نَشْرِهِ عَلَى قَوْمِهِ . لِذَلِكَ يَجْمَلُ بِي أَنَّ اسْتَعِيرَ فِي الْبَيَانِ عِبَارَتَهُ حَيْثُ
يَقُولُ :

« إِنَّ الْحَيَاةَ لَيْسَتْ لِعَبَابٍ وَلِهَوَاً وَإِنَّمَا هِيَ مُغَالَبَةٌ دَائِمَةٌ لِلْمَتَاعِ ،
وَالْمَتَاعُ لَا تُحْصَى وَالْمَتَاعُ مُتَجَدِّدٌ فِي كُلِّ آن . وَلَنْ تَنَالُوا النَّصْرَ
فِي هَذَا الْجِهَادِ إِلَّا إِذَا جَعَلْتُمْ كُلَّ اعْتِمَادِكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ لَا عَلَى غَيْرِكُمْ
إِذْ كُلُّ مَا يُمْكِنُ أَهْيَاكُمْ وَأَصْدِقَاءُكُمْ وَمُحِبِّبِكُمْ وَجِيرَانِكُمْ
وَحُكَّامَتَكُمْ أَنْ يُسَاعِدُوكُمْ بِهِ أَقْلٌ فِي الْحَقِيقَةِ بِكَثِيرٍ مِمَّا يُمْكِنُكُمْ
أَنْ تُسَاعِدُوا بِهِ أَنْفُسِكُمْ بِأَنْفُسِكُمْ إِذَا عَوَّلْتُمْ عَلَيْهَا وَلَمْ تَرْجِعُوا فِي
أُمُورِكُمْ إِلَّا إِلَيْهَا »

هَذَا غَايَةُ الْحِكْمَةِ وَمُنْتَهَى الرَّأْيِ الصَّوَابِ فَاتَّبِعُوهُ إِنْ كُنْتُمْ
لِلسَّعَادَةِ طَالِبِينَ .

وَإِنَّمَا رَجُلٌ الدُّنْيَا وَوَأَحَدُهَا مَنْ لَا يُعْوَلُ فِي الدُّنْيَا عَلَى رَجُلٍ
أحمد فتحي زغلول

مقدمة المؤلف

للانكليز السكسونيين افضلية لاشك فيها، لان كل انسان يشعر بها ويقدرها قدرها. ومن اكبر الدلائل عليها ما يجده كل واحد عند ملاقاته الانكليزي من التهيّب والحذر والغبطة احياناً (١) نحن لا نكاد نخطو خطوة في العالم الا وجدنا الانكليز امامنا ولا نرمي بنظرنا الى املاك قديمة الا رأينا العلم الانكليزي يخفق عليها. وقد احتل الانكليزي السكسوني الاماكن التي كانت لنا في امريكا الشمالية من كندا الى لوزيان وفي الهند وفي موريس التي كانت جزيرة فرنساوية قديمة وفي مصر، وهو الآن يشرف على امريكا بكندا والولايات المتحدة وعلى افريقيا بمصر ورأس الرجاء الصالح وعلى آسيا بالهند وبرمانيا وعلى الاقيانوس باوستراليا وزيلاندا الجديدة وعلى اوروبا وعلى العالم باجمعه بمتاجره وصنائه وسياسته. والخريطة التي رسمناها في اول الكتاب تدل باجلى بيان على مال هذه الأمة من القوة على الانتشار فيخيّل انها تريد ان تقوم مقام المملكة الرومانية في سياسة الدنيا.

(١) الغبطة أن تشتهي أن يكون لك مثل ما المغبوط ولا تمنى زوال ما هو عليه، ورجل مغبوط بالكسر ومغبوط بالفتح أي في غبطة، وعي حسن الحال

لغير الإنكليز من الأمم مُسْتَعْمَرَاتٌ كَفَرَنْسَا وَالْمَانِيَا وَإِيطَالِيَا
وإِسْبَانِيَا، إِلَّا أَنَّهُمَا مُسْتَعْمَرَاتٌ تَنْحَصِرُ مَنَافِعُهُمَا عَلَى الْخُصُوصِ فِي الْمَوْظِفِينَ
فَتَرَى سُلْطَتَهَا الْعَسْكَرِيَّةَ مُتَمَدِّدَةً فِي تِلْكَ الْأَقَالِيمِ وَلَكِنَّهَا لَا تَأْهَلُ بِهَا
وَلَا تُغَيِّرُ مِنْ أَحْوَالِهَا وَلَا تَتَعَوَّدُ الْإِقَامَةَ فِيهَا كَمَا هُوَ شَأْنُ الْإِنْكِلِيزِيِّ
السَّكْسُونِيِّ، وَلِلرُّوسِيَا وَالصِّينِ أَمْلَاكٌ شَاسِعَةٌ (١) إِلَّا أَنَّ غَالِبَهَا خَرَابٌ
وَقَدْ لَا يَدْخُلُهَا التَّمَدُّنُ إِلَّا بَعْدَ زَمَنٍ طَوِيلٍ . أَمَّا الْأُمَّمُ الْإِنْكِلِيزِيَّةُ
السَّكْسُونِيَّةُ فَإِنَّهَا بَلَغَتْ ذُرُورَةَ (٢) التَّمَدُّنِ الْفَعَّالِ الَّذِي يَتَرَقَّى عَلَى
الدَّوَامِ وَيَنْبَسِطُ فِي جَمِيعِ الْأَرْجَاءِ فَلَا يَكَادُ ذَلِكَ الْجِنْسُ يَنْزِلُ بِمَكَانٍ
مَهْمًا كَانَ مِنَ الْأَرْضِ، إِلَّا بَدَلَهُ وَأَدْخَلَ فِيهِ بِسُرْعَةٍ عَجِيبَةٍ أَقْصَى
مَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ الْأُمَّمُ الْغَرَبِيَّةُ مِنَ التَّقَدُّمِ وَالتَّرَقِّيِ . وَقَدْ تَقَوُّنَا فِي ذَلِكَ
غَالِبًا تِلْكَ الْأُمَّمُ الْحَدِيثَةَ حَتَّى إِنَّهَا تُسَمِّيْنَا بِالْذُنُوبِيَا الْقَدِيمَةِ تَسْمِيَةً تُشْعِرُ
بِاحْتِقَارِهَا لَنَا، وَنَحْنُ فِي الْوَأَقِعِ نَظْهَرُ بِجَانِبَيْهَا مِنَ الْقُدَمَاءِ . أَنْظُرْ إِلَى
مَا فَعَلْنَا فِي كَالِيدُونِيَا الْجَدِيدَةِ وَأَمْلَا كِنَا فِي الْأُوقْيَانُوسِ وَأَنْظُرْ إِلَى
مَا فَعَلُوهُ فِي أُسْتْرَالِيَا وَزِيلَانْدَا الْجَدِيدَةِ وَقَابِلِ بَيْنَ مَا فَعَلَهُ الْإِسْبَانِيُّونَ
وَالْبُرْتِغَالِيُّونَ فِي أَمْرِيكَا الْجَنُوبِيَّةِ وَبَيْنَ مَا فَعَلَهُ الْإِنْكِلِيزِيُّ السَّكْسُونِيُّ
فِي أَمْرِيكَا الشَّمَالِيَّةِ تَجِدُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣) .

(١) شاسعة: بعيدة يريد مترامية الأطراف متسعة (٢) ذرورة بكسر الذال وضمها

واحدة الذرى وهى الأعلى (٣) أى تجد الفرق كالفرق بين الليل والنهار

وَلَنَا عَلَى هَذِهِ الْأَفْضَلِيَّةِ دَلِيلٌ قَاطِعٌ فِي الْإِحْصَائِيَّاتِ الرَّسْمِيَّةِ
الَّتِي تَنْشُرُهَا شَرَكَةُ قَنَاالِ السُّوَيْسِ فَقَدْ كَانَ عَدَدُ الْمَرَآكِبِ الَّتِي مَرَّتْ
فِي الْقَنَاالِ مُدَّةَ سَنَةٍ وَاحِدَةٍ كَمَا يَأْتِي : —

مراكب فرنساوية ١٦٠

مراكب ألمانية ٢٦٠

مراكب إنكليزية ٢٢٦٢

وَعِنْدِي أَنَّهُ لَا يَكْفِي بَيَانُ هَذِهِ الْأَفْضَلِيَّةِ وَالنِّدَاءِ بِهَا عَلَى مَنَابِرِ
النُّوَابِ أَوْ صَفَحَاتِ الْجَرَائِدِ وَإِظْهَارُ الْغَيْظِ مُشِيرِينَ بِقَبْضَةِ الْيَدِ إِلَى
الْإِنْكَلِيزِ كَمَا تَفْعَلُهُ الْقَوَاعِدُ^(١) مِنَ النِّسَاءِ الْغَضَابِي، بَلِ الْوَاجِبُ أَنْ
نَنْظُرَ إِلَى الْأَمْرِ مِنْ جِهَةِ ضَرُورَةِ الْإِسْتِعْدَادِ لَهُ كَبَاحِثٍ يَرْتَادُ
الْحَقَائِقَ بَيِّنًا وَإِمَعَانٍ حَتَّى يَصِلَ إِلَى مَعْرِفَةِ أَسْبَابِهَا، لِأَنَّ حَاجَتَنَا هِيَ
فِي الْوَاقِعِ اكْتِشَافُ السَّرِّ فِي انْتِشَارِ تِلْكَ الْأُمَّةِ وَتَقَدُّمِهَا فِي الْمَدِينَةِ
وَالْعُمُرَانِ لِنَهْتَدِيَ بِذَلِكَ إِلَى مَعْرِفَةِ الْوَسَائِلِ الَّتِي آدَتْ إِلَيْهِ.

وَالغَرَضُ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ هُوَ الْبَحْثُ عَنْ تِلْكَ الْأَسْبَابِ لِأَنِّي
أَرَى أَنَّ حَيَاتَنَا وَمُسْتَقْبَلَ آبَائِنَا مُتَوَقِّفَانِ عَلَيْهِ.

(١) القواعد : اللأى فعدن عن الولد والحيض أى العجائز

مُقَدِّمَةُ الطَّبَعَةِ الثَّانِيَةِ

قَوْلٌ

﴿ فِيمَا يُدْعَى مِنْ أَفْضَلِيَّةِ الْأَلْمَانِيِّينَ ﴾

أَبْدَأُ بِشُكْرِ الصَّحَافَةِ وَالْقُرَّاءِ عَلَى حُسْنِ قَبُولِهِمْ هَذَا الْكِتَابَ
الَّذِي انْتَهَتْ الطَّبَعَةُ الْأُولَى مِنْهُ فِي بَضْعَةِ أَيَّامٍ ، وَغَرَضِي فِي هَذِهِ
الطَّبَعَةِ الْجَدِيدَةِ أَنْ أُجِيبَ مُقَدِّمًا عَنْ اعْتِرَاضِ عَسَاهُ يَخْطُرُ بِالْبَالِ
وَهُوَ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ التِّجَارَةَ الْأَلْمَانِيَّةَ عَظُمَتْ مُنْذُ خَمْسِ عَشْرَةَ سَنَةً
حَتَّى أَحْجَمَتْ أَمَامَهَا ^(١) التِّجَارَةُ الْفَرَنْسَاوِيَّةُ فِي جَمِيعِ الْجِهَاتِ
وَأَضَاعَتْ جَمِيعَ الْمَرَكَزِ الَّتِي كَانَتْ تَشْغُلُهَا وَاحِدًا فَوَاحِدًا ، وَقَدْ
يَخْطُرُ بِبَالِ الْمُتَمَامِلِ فِي هَذَا التَّقَدُّمِ التِّجَارِيِّ أَنَّهُ رُبَّمَا يُخْشَى مِنْهُ أَيْضًا
عَلَى تَقَدُّمِ الْأُمَّمِ الْإِنْكَلِيزِيَّةِ السَّكْسُونِيَّةِ فِي التِّجَارَةِ ؟

وَيَكْفِي لِلْإِجَابَةِ عَنْ ذَلِكَ أَنْ نُوضِّحَ الْفَرْقَ بَيْنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي
تُوجِبُ قُوَّةَ الْإِنْكَلِيزِيَّةِ السَّكْسُونِيَّةِ وَكُنْهَ ^(٢) هَذِهِ الْقُوَّةِ وَبَيْنَ
عِلَّةِ قُوَّةِ الْأَلْمَانِيِّينَ ، وَإِنِّي أَقْتَصِرُ هُنَا عَلَى بَيَانِ مُقَدِّمَاتِ هَذِهِ الْمَسْئَلَةِ

(١) يريد انخازت وتأخرت عنها (٢) كنه الشيء : حقيقته

وَتَوْضِيحِ عَنَّا صِرْهَا وَأَشِيرُ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الشَّبَّانِ الَّذِينَ حَضَرُوا
دَرَسَنَا فِي الْعِلْمِ الْاجْتِمَاعِيِّ أَنْ يَتَوَجَّهُوا فِي هَذَا الصَّيْفِ إِلَى أَلْمَانِيَا
لِيُشَاهِدُوا وَاحَالَةَ تِلْكَ الْبِلَادِ بِأَنْفُسِهِمْ .

تَكَثَّرَ الْجِبَالُ فِي الْقِسْمِ الْجَنُوبِيِّ مِنْ أَلْمَانِيَا كَمَا تَكَثَّرَ الرِّمَالُ
وَالْمُسْتَنْقَعَاتُ وَالْجَدْبُ فِي الشَّمَالِ ، وَلِذَلِكَ كَانَ أَهْلُهَا عَلَى الدَّوَامِ مِنَ
الْفُقَرَاءِ الَّذِينَ اعْتَادُوا التَّدْبِيرَ فِي حَاجَتِهِمْ وَالْبَسَاطَةَ فِي مَعِيشَتِهِمْ
وَالْاِكْتِفَاءَ بِالْأَجْرِ الْقَلِيلِ . فَفَضِيلَةُ الْبَسَاطَةِ الْمَشْهُورَةِ عَنِ
الْأَلْمَانِيِّينَ هِيَ فَضِيلَةُ الْجَائِئِمِ إِلَيْهَا طَبِيعَةُ بِلَادِهِمْ ، وَلِقَلَّةِ
أَجُورِ الْفَعَلَةِ وَقِلَّةِ حَاجَاتِ تِلْكَ الْأُمَّةِ انْحَصَرَتْ الْمَصْنُوعَاتُ
الْأَلْمَانِيَّةُ بِحُكْمِ الطَّبِيعَةِ دَائِمًا فِي الْأَشْيَاءِ الْمُسْتَعْمَلَةِ عِنْدَ الْعُمُومِ (١)

ذَاتِ الْقِيَمَةِ الزَّهِيدَةِ ، وَهِيَ حَالَةٌ تَسْتَلْزِمُ فِي الْحَقِيقَةِ تَأْخُرَ أُمَّتِهَا
إِلَّا أَنَّهُمَا صَارَتِ الْآنَ مَزِيَّةً عِنْدَ الْأَلْمَانِيِّينَ لِسَبَبٍ خَارِجِيٍّ عَلَى
أَنَّهَا لَنْ تَدُومَ أَبَدًا . وَيَبَيِّنُهُ أَنَّ اتِّسَاعَ نِطَاقِ وَسَائِلِ النَّقْلِ سَهَّلَ
الْوُصُولَ إِلَى الْبِلَادِ الْجَدِيدَةِ أَوْ الْمُتَأَخَّرَةِ فِي التَّمَدُّنِ وَمَكَّنَ مِنَ
الْاِخْتِلَاطِ بِالْأُمَّمِ الْبَسِيطَةِ أَوْ الْهَمْجِيَّةِ فَكَثُرَ عَدَدُ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ
الْبَضَائِعَ الْمُعْتَادَةَ الرَّخِيصَةَ وَوَجَدَتِ الْأُمَّةُ الْأَلْمَانِيَّةُ سُوقًا
جَدِيدَةً (٢) لِمَبِيعِ سِلْعِهَا وَاسْتَفَادَتِ مِنْ ذَلِكَ عَلَى قَدَرِ أَمْوَالِ تِجَارَتِهَا (٣)

(١) العموم مصدر فاستعماله هنا خطأ لأنه يريد جمهرة الناس وسوادهم الأعظم وعامتهم

(٢) السوق يذكر ويؤنث (٣) جمع التاجر تجار وتجار بالتشديد والتخفيف

وَاقْتِدَارِهِمْ فِي الصِّنَاعَةِ وَالْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ وَلَكِنَّهَا فَائِدَةٌ صَغِيرَةٌ لِقَلَّةِ
رَأْسِ مَالٍ كُلِّ تَاجِرٍ عَلَى حَدِّتِهِ وَضَعْفِهِ مُنْفَرِدًا . وَطَلَبًا لِلزِّيَادَةِ مَالِ
التُّجَّارِ إِلَى الشَّرِكَاتِ بَجَاءَتِ لَهُمْ عَوْنًا عَلَى نَشْرِ مَتَاجِرِهِمْ وَتَوْسِيعِ
نِطَاقِهَا وَتَوَافُرِ المَالِ لَدَيْهِمْ فَأَقَامُوا الأَسْوَاقَ الكَبِيرَةَ لِعَرْضِ
مَتَاجِرِهِمْ وَمَعْرِفَةِ الأنْوَاعِ الَّتِي يَكْثُرُ الطَّلَبُ فِيهَا .

وَهَذَا عَمَلٌ نَسْتَفِيدُ مِنْهُ عِلْمًا لِذِلَالَتِهِ عَلَى أَنَّ الشَّرِكَاتِ تَسُدُّ جُزْءًا
عَظِيمًا مِنَ النَّقْصِ الَّذِي يَنْشَأُ عَنِ طَبِيعَةِ الأَمَاكِنِ . وَالْعَمَلُ وَالتَّرْبِيَةُ
الَّتِي تَزِيدُ فِي الشَّخْصِ قُوَّةَ المِيلِ إِلَى الإِشْتِرَاكِ أَكْثَرَ مِمَّا تُهَيِّئُهُ إِلَى
العَمَلِ بِنَفْسِهِ سَنِينُهُ فِي هَذَا الكِتَابِ ، إِلاَّ أَنَّ الشَّرِكَاتِ لَا تُزِيلُ
النَّقْصَ وَإِنْ خَفَّفَتْهُ ، وَلِذَلِكَ لَا تُفِيدُ الأَلْمَانِيَّينَ إِلاَّ مِنْ جِهَةِ تَسْهِيلِ
العَمَلِ دُونَ أَنَّ تُحَدِّثَ فِيهِمْ مَا أَحْتَاجَ إِلَيْهِ كُلُّ فَرْدٍ مِنَ القُدْرَةِ
الشَّخْصِيَّةِ الَّتِي تُمْكِنُهُ مِنَ التَّقَدُّمِ فِي الصِّنَاعَةِ وَالتِّجَارَةِ بِنَفْسِهَا .
وَلَنَا عَلَى ذَلِكَ مَا جَاءَ فِي رِسَالَةِ نُشْرَتِ حَدِيثًا فِي الأَلْمَانِيَّاءِ عَنِ تِجَارَةِ
تِلْكَ الأُمَّةِ فِي بِلَادِ التَّرَنْسِفَالِ وَبَعَثَ سَفِيرُنَا المُرْكِيْزِ دِي نَوَايَ
بِنُسخَةٍ مِنْهَا إِلَى وَزِيرِ التِّجَارَةِ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى تَأَخُّرِ التَّاجِرِ الأَلْمَانِيِّ
مُنْفَرِدًا عَنِ التَّاجِرِ الإِنْكِلِيزِيِّ السَّكْسُونِيِّ كَذَلِكَ ^(١) قَالَ كَاتِبُ
الرِّسَالَةِ : «يَحْتَاجُ التَّاجِرُ الأَلْمَانِيُّ إِلَى مُسَاعَدَةِ حُكُومَتِهِ وَإِلاَّ أَحَاطَ

(١) كذلك ، أى منفردا

به الفشل كما أصابه في منافسته مع الإنكليز أولاً. فالألماني يخرج إلى العمل برأس مال صغير ثم هو على ما به من إقدام قليل الصبر غالباً « ولعله قال قليل الوسائل، لأن الألمانى صبورٌ » فلا ينتظر النجاح بل تنحل عزيمته إذا خاب مرة في مساعيه أما الإنكليزى فإنه يعلم أن النجاح معقودٌ بأطرافِ المِثَابرة^(١) ولدنيه من الوسائل ما يساعده على الانتظار. « وفي الألمانين عيبٌ خاصٌ يُحْبَطُ^(٢) مساعيهم غالباً في « الترنسفال » وهو جهلهم بحركة الأسواق فيأتون ببضائع لا طلب لها، يُضَافُ إلى ذلك عدمُ اعتنائهم بربط المتاجر وتغليبها « وهذا يدلُّ على مقدار تمكّنهم في علم الاقتصاد المشهور عندهم قديماً « وجهلهم بطرق التسفير وعدم التفاتهم إلى اختلاط الأجناس في أسواق تلك البلاد. ومن أسباب عدم نجاح التجارة الألمانية اختيار العمال ممن لا خبرة لهم بالتجارة وحاجات البلاد التي يعملون بها ثم عدم إطلاق سراحهم في العمل كما ينبغي » .

ويعلم القارىء من أقوال صاحب الرسالة، وهو الألمانى، أن الألمانين — وإن توصلوا بالشركات إلى توسيع نطاق تجارتهم حتى خيل أنهم يهددون تلك القوة العظيمة التي امتاز بها الإنكليز

(١) أى أنه لانجاح بلامثابرة. والمثابرة على الأمر: المواظبة عليه (٢) يحبط: يبطل ويفسد

فِي التِّجَارَةِ وَالصَّنَاعَةِ — لَا يَتَيَسَّرُ لَهُمْ أَنْ يُلْحِقُوا ضَرْرًا صَحِيحًا بِهِؤَلَاءِ.
 ذَلِكَ لِأَنَّ طَرِيقَهُ الْإِنْكِلِيزِيَّ السَّكْسُونِيُّ فِي التِّجَارَةِ وَالصَّنَاعَةِ
 تَخْتَلِفُ عَنِ طَرِيقَةِ نَظِيرِهِ : فَالْإِنْكِلِيزِيُّ السَّكْسُونِيُّونَ إِنَّمَا اسْتَوْلَوْا
 عَلَى الْأَسْوَاقِ فِي الدُّنْيَا بِأَنْفُسِهِمْ وَجِدَّهُمْ الشَّخْصِيَّ مِنْ غَيْرِ
 مُشَارَكَةٍ غَيْرِهِمْ لَهُمْ فِي الْعَمَلِ وَلَا مُسَاعَدَةِ الْحُكُومَةِ . وَبِالْجَمَلَةِ
 فَإِنَّهُمْ تَوَصَّلُوا إِلَى ذَلِكَ بِوَسِطَةِ أَحْوَالِهِمِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الَّتِي أَلْفَنَّا
 هَذَا الْكِتَابَ فِي بَيَانِهَا . وَبَدِيهِيٌّ أَنْ أَفْضَلِيَّةَ الرَّجُلِ الَّذِي يَأْتِي
 بِنَفْسِهِ مِنَ الْأَعْمَالِ مَا لَمْ يَأْتِهِ غَيْرُهُ مَعَ الْإِسْتِعَانَةِ فِيهِ إِلَّا نَاقِصًا ،
 لَا تَحْتَمِلُ الشَّكَّ وَلَا تَحْتَاجُ إِلَى الدَّلِيلِ . وَهَذَا هُوَ حَالُ الْإِنْكِلِيزِيِّ
 السَّكْسُونِيِّينَ بِالنَّظَرِ إِلَى غَيْرِهِمْ . وَمَهْمَا اجْتَهَدَ الْأَلْمَانِيُّونَ وَبَالَغُوا
 فِي نَشْرِ مَتَاجِرِهِمْ فِي أَسْوَاقِ الدُّنْيَا فَإِنَّهُمْ لَنْ يَسْبِقُوهُمْ بَلْ تَبَقَى
 لَهُمْ تِلْكَ الْأَفْضَلِيَّةُ لِأَنَّ الْفَضْلَ الذَّاتِيَّ أَثْبَتُ قَدَمًا مِنَ الْفَضْلِ
 الْمَكْتَسَبِ . وَكُلُّ إِنْكِلِيزِيٍّ تَاجِرٌ كَبِيرٌ بِنَفْسِهِ وَصَانِعٌ عَظِيمٌ
 بِعَمَلِهِ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ مِنْ صُنَاعٍ لَاقُوَّةَ لَهُمْ إِلَّا مُجْتَمِعِينَ وَمِنْ
 تِجَارٍ لَاحَوْلَ لَهُمْ إِلَّا مُشْتَرِكِينَ .

ثُمَّ إِنَّهُ يُجِبُّ عَلَى التُّجَّارِ أَنْ يُنَوِّعُوا تِجَارَتَهُمْ وَعَلَى الصُّنَّاعِ
 أَنْ يَتَفَنَّنُوا فِي صِنَاعَتِهِمْ حَتَّى تَكُونَ الْمَتَاجِرُ وَالْمُصْنُوعَاتُ مُوَافِقَةً
 لِرَغَائِبِ النَّاسِ وَطَلَبَاتِ الشَّرَائِينِ بِحَسَبِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ فِي كُلِّ

أَنَّ . وَهُوَ مَعْلُومٌ أَنَّهُ يُصْعَبُ عَلَى الشَّرَكَاتِ التِّجَارِيَّةِ وَالصَّنَائِعِيَّةِ ، مَهْمَا قَوِي نِظَامُهَا ، أَنَّ تَتَكَيَّفُ بِحَسَبِ الظُّرُوفِ لِمَا يُوْجَدُ بَيْنَ بَعْضِهَا وَبَعْضِ الْعَبْضِ عَادَةً مِنْ تَخَالُفِ الْمَنَافِعِ وَحُصُولِ الْمُنَافَسَةِ ، فَالْخُلْفُ لَازِمٌ لِطَبِيعَةِ الشَّرَكَاتِ وَهُوَ السَّبَبُ فِي اخْتِلَافِهَا . وَهُنَا يَثْبُتُ أَنَّ الْعَمَلَ قَدْ يُخَالِفُ الْعُقُولَ وَإِنْ كَانَتْ سَدِيدَةً .

إِنَّ الشَّرَكَاتِ الصَّنَائِعِيَّةَ لَا يُمَكِّنُهَا أَنْ تَقَاوِمَ هَذِهِ الْبُيُوتَاتِ الْإِنْكِلِيزِيَّةَ السَّكْسُونِيَّةَ لِاجْتِمَاعِ أَرْزَمَتِهَا^(١) فِي قَبْضَةِ رَجُلٍ وَاحِدٍ أَوْ رَهْطٍ مِنَ الرِّجَالِ مُتَّحِدِينَ فِي الْمَنَافِعِ ذَوِي رَأْسِ مَالٍ طَائِلٍ وَلَهُمْ مِنَ الدَّرَايَةِ مَا يَفُوقُ الْوَصْفَ مِمَّا هُوَ طَبِيعِيٌّ فِي تِلْكَ الْأُمَّةِ الَّتِي يَسْهُلُ عَلَيْهَا أَنْ تَدْوَرَ مَعَ أَحْوَالِ التِّجَارَةِ كَلَّمَا رَأَتْ أَنَّ الْكَسْبَ قَدْ وَقَفَ لِتَتَجَهَّ فِي طَرِيقٍ جَدِيدٍ . وَبُرْهَانُهُ أَنَّهُ لَمَّا أَحَسَّ الْإِنْكِلِيزِيُّ بِنِجَارَةِ التِّجَارَةِ الْأَلْمَانِيَّةِ صَاحَتْ جَرَائِدُهُمْ بِأَصْوَاتِ التَّحْذِيرِ ، كَمَا هُوَ الْوَاجِبُ عَلَى كُلِّ حَارِسٍ أَشَدَّ تَيَقُّظًا مِنْ حُرَّاسِنَا ، وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى شِدَّةِ حَذَرِهِمْ وَقُوَّةِ التَّفَاتِهِمْ لِمَا عَسَاهُ يُهْدَدُ — وَلَوْ مِنْ بَعِيدٍ — أَفْضَلِيَّتِهِمْ الْعَظِيمَةَ فِي التِّجَارَةِ وَالصَّنَاعَةِ . وَلَقَدْ أَخْطَأْنَا فِي فَهْمِنَا أَنَّ ذَلِكَ الصَّوْتِ نَذِيرٌ الدَّمَارِ ، صَاحُوا بِهِ لِكِيْ يَنْجُو مَنْ يَتِمَكَّنُ مِنَ النَّجَاةِ ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَجُولَ هَذَا بِنِجَالِنَا لِأَنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ مَائَتَيْنِ وَسِتِّينَ مَرَكَبًا أَلْمَانِيَّةً تَعْرُ

(١) الإلزمة جمع زمام وهو هنا استعارة

فِي السَّنَةِ بِقَنَالِ السَّوَيْسِ وَبَيْنَ الْفَيْنِ وَمِائَتَيْنِ وَاثْنَتَيْنِ وَسِتِّينَ مَرَكَبًا
إِنْكَلِيزِيَّةً لَا يَخْفَى عَلَى مَنْ تَأَمَّلَ .

عَلَى أَنَّ الصَّنَاعَةَ الْأَلْمَانِيَّةَ لَمْ تَتَقَدَّمْ فِي الْأَسْوَاقِ عَلَى الصَّنَاعَةِ
الْإِنْكَلِيزِيَّةِ، كَمَا قَدَّمْنَا، إِلَّا فِي السِّلْعِ الْإِعْتِيَادِيَّةِ ذَاتِ الشَّمَنِ الزَّهِيدِ . وَمَلَّا
رَأَى الْإِنْكَلِيزِيُّ أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُهُ صُنْعٌ مِثْلَهَا بِمِثْلِ ثَمَنِهَا فِي بِلَادِهِ، حَيْثُ
الْأَجُورُ مُرْتَفِعَةٌ، حَوْلَ نَظَرِهِ إِلَى صُنْعِهَا فِي بِلَادٍ أُخْرَى تَقَلُّ فِيهَا
حَاجَاتُ الْأَهَالِي فَاتَّخَذَ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ يُبُوتًا تِجَارِيَّةً، وَلَا يَخْفَى مَا لِلْإِنْكَلِيزِيِّ
مِنْ سُهُولَةِ التَّوَطُّنِ فِي الْبِلَادِ الْأَجْنَبِيَّةِ . وَإِنِّي أَوَدُّ أَنْ يَرْتَاحَ ضَمِيرِي
فَتَلِينَ تِجَارَةً فَرَسًا وَصِنَاعَتُهَا كَمَا لَانَ الْإِنْكَلِيزِيُّ فِيهِمَا .

وَيَفْضَلُ الْإِنْكَلِيزِيُّ الْأَلْمَانِيَّ بِأَمْرَيْنِ مُهِمَّيْنِ لَا بُدَّ أَنْ يَتَغَلَّبَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ :
الْأَوَّلُ أَنَّ الْأَلْمَانِيِّينَ عَلَى الْعُمُومِ ^(١) — مَا عَدَا سُكَّانَ (هَنْفِرَ وَوَسْتَفَالِي)،
الَّذِينَ يَلْحَقُونَ بِجَنَسِ الْإِنْكَلِيزِيِّ السَّكْسُونِيِّينَ — قَلِيلُوا الْهِمَّةَ فِي الزَّرَاعَةِ .
فَهُمْ حَضَرِيُّونَ يُفْضَلُونَ الْمَهْجَرَةَ لِلتِّجَارَةِ عَنْهَا لِلِاسْتِعْمَارِ وَالزَّرَاعَةِ فَلَا
يَتَأَصَّلُ نَوْعُهُمْ فِي الْبِلَادِ كَمَا يَفْعَلُ الْإِنْكَلِيزِيُّ السَّكْسُونِيُّ . وَمِنْ هُنَا
جَاءَ أَهْمُهُمْ كَمَا التَّقْوَا بِهِ يَتَلَعَّهُمْ ^(٢)، هَكَذَا يَصِيرُ الْمُهَاجِرُونَ مِنْ
الْأَلْمَانِ فِي أَمْرِيكَا الشَّمَالِيَّةِ سَكْسُونِيِّينَ بِسُرْعَةٍ عَجِيبَةٍ فَلَمْ يَتَكَلَّمْ

(١) يريد جميعا (٢) أى كما تلاقى الالمانى والانكليزى ابتلع الانكليزى الالمانى ، أى
حواله اليه كما بين ذلك بعد

الجيل الثاني منهم إلا الإنكليزية ويصحبون انكليزا في عاداتهم وطبائعهم، إنهم يتعجلون في هذا التحول فيختارون حتى من الأسماء ما يوافق أسماء الإنكليز، وهذا هو السبب في أن الجرائد التي تصدر بالألمانية لا تثبت قدمها في الولايات المتحدة إلا قليلا لأن قراءها ينحصرون في المهاجرين الوافدين قريبا من البلاد الألمانية. وبينما طلاب المصنوعات الإنكليزية يكثرُونَ، لزيادة عدد المستعمرين منهم في جميع أنحاء المسكونة وانتشار جنسهم في الأصقاع كلها، يقل عدد طالبي المصنوعات الألمانية لتحويل الألمان عن الزراعة واستحالتهم^(١) إلى إنكليز سكسونيين طوعا لما في هؤلاء من شدة المقاومة وقوة التغلب.

وثانيتها شكل الحكومة التي وجدت في البلاد الألمانية عقب قيام الإمبراطورية لأننا ذكرنا فيما سبق كيف أن ألمانيا القديمة توصلت على فقرها بعملها واقتصادها إلى بث روح الانتشار الصناعي والتجاري في هذه الأزمان وقلنا إن ذلك راجع إلى ما فطرت عليه تلك الأمة من المزايا الحقيقية التي بقيت كامنة^(٢) فيها إلى أن ساعدت الظروف على نموها نموا فجائيا، وتلك الظروف هي اتساع نطاق وسائل النقل وتسهيل طرق المواصلات. فتقدم الأمة الجرمانية في

(١) أي تحولهم (٢) مستتر

عَصْرِنَا هَذَا نَاتُجُّ عَنْ أَلْمَانِيَا الْقَدِيمَةِ. أَمَّا الْإِمْبِرَاطُورِيَّةُ الْأَلْمَانِيَّةُ
الْجَدِيدَةُ فَإِنَّهَا لَا تَنْتُجُّ. غَيْرَ انْتِشَارِ الْجُنْدِيَّةِ وَالْإِدَارَةِ وَمَذَاهِبِ
الْإِشْتِرَاكِيِّينَ، كَمَا هُوَ مُشَاهَدٌ الْآنَ مَا دَاءَتْ عَلَى نِظَامِهَا الْحَالِي.
وَلَا يَخْفَى أَنَّ تِلْكَ النِّتَائِجَ لَا تَقْتَرِنُ بِسَعَادَةِ الْأُمَّمِ الَّتِي تُوجَدُ فِيهَا
وَتُرَوِّتُهَا، أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ دِنْدَنَا أَيَّامَ لُؤِيْزِ الرَّابِعِ عَشَرَ
وَنَابُلْيُونِ غَيْرِ الدَّائِيْنِ الْأَوَّلَيْنِ، وَقَلَدُ ذَهَبًا بِنَا إِلَى أَسْوَأِ
الْأَحْوَالِ، وَكَذَلِكَ كَانَ شَأْنُ الْبِلَادِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ أَيَّامَ الْمَلِكِ شَارِ لِكَانَ
وَفِيلِيْبِ الثَّانِي.

وَمِنْ لُؤَازِمِ تِلْكَ النِّظَامَاتِ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ أَنَّهَا تُثَمِّلُ الْأُمَّةَ بِعَظْمِ
الْقُوَّةِ السِّيَاسِيَّةِ وَالْإِجْمَاعِيَّةِ لِأَنَّهَا تَجْمَعُ بِسُرْعَةٍ جَمِيعَ الْعُنَاصِرِ
الْحَيَّةِ الَّتِي تَكُونَتْ شَيْئًا فَشَيْئًا تَحْتَ ظِلِّ النِّظَامَاتِ السَّابِقَةِ فِي
قَبْضَةِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، وَذَلِكَ هُوَ الزَّمَنُ الْمَجِيدُ الَّذِي كَانَ لِلْبُرُوسِيَا
أَخِيرًا كَمَا كَانَتْ عَلَيْهِ الْأَنْدَلُسُ وَبِلَادُنَا فِي الْأَزْمَانِ الْغَابِرَةِ^(١). غَيْرَ
أَنَّ اجْتِمَاعَ قُوَى الْأُمَّةِ الْحَيَّةِ فِي يَدٍ وَاحِدَةٍ يُؤَدِّي، مَعَ الزَّمَنِ، إِلَى
ضَعْفِهَا كَمَا هُوَ تَعْطِيلُ مَنْفَعَتِهَا فَتَنْجَلُّ وَتَصِيرُ عَقِيمَةً^(٢) وَحِينَئِذٍ يَسْتَوَلِي
الدَّمَارُ وَالْإِنْحِطَاطُ عَلَى الْأُمَّةِ. وَإِذَا اسْتَمَرَّتْ الْإِمْبِرَاطُورِيَّةُ الْأَلْمَانِيَّةُ
فِي الطَّرِيقِ الَّتِي وَصَلَتْ مِنْهَا — وَالظَّاهِرُ أَنَّهَا تَسْتَمِرُّ — فَإِنَّهَا لَا تَنْجُو مِنْ

(١) الغابر من أسماء الأضداد فيكون بمعنى الماضي كما هنا، وبهني الآذ.

(٢) يريد غير مشمرة، وصوابها عقيما من قولهم امرأة عقيم أى لا تلد.

نَتَأَجِّبُهَا . وَعَلَى الْأَلْمَانِيِّينَ أَنْ يُعَجِّلُوا الْإِسْتِفَادَةَ مِنْ فَضَائِلِهِمُ الْأُولَى
 فَيَنْشُرُوا تِجَارَتَهُمْ وَيَكْفُوا عَنْ مَلَامِنَا عَلَى تَأْخُرِنَا فَإِنَّمَا نَحْنُ
 السَّابِقُونَ وَهُمْ بِنَا لِحِقُونِ . وَأُخْلَاصَةُ أَنَّ الْأُمَّةَ الْإِنْكَلِيزِيَّةَ
 السَّكْسُونِيَّةَ تَعْظُمُ وَتَتَقَدَّمُ بِمَا لِأَفْرَادِهَا مِنَ الْأَعْمَالِ الْمُفِيدَةِ
 الْمُتَجَدِّدَةِ عَلَى الدَّوَامِ . وَبِمَا لَهَا مِنْ حُكُومَةٍ نَفْسِهَا بِنَفْسِهَا ، وَالْأُمَّةُ
 الْأَلْمَانِيَّةُ الْقَدِيمَةُ تَفْقِدُ كُلَّ يَوْمٍ فَضَائِلَهَا الْأُولَى الَّتِي كَانَتْ أَسَاسَ
 قُوَّتِهَا الْاجْتِمَاعِيَّةِ ، وَلَا تَزَالُ تَفْقِدُهَا إِلَى الْآنَ ، وَسَبَبُهُ الْإِفْرَاطُ فِي
 السُّلْطَةِ السِّيَاسِيَّةِ . وَقَدْ تَوَخَّيْتُ تَمْيِيزَ الْمَانِيَا الْقَدِيمَةِ مِنَ الْمَانِيَا
 الْجَدِيدَةِ فِي هَذِهِ الْمُتَقَدِّمَةِ لِأَنَّ كَلَامِي فِي الْفَصْلِ الثَّانِي مِنْ هَذَا
 الْكِتَابِ رَاجِعٌ كُلُّهُ إِلَى هَذِهِ الْأَخِيرَةِ ، وَأُرِيدُ أَلَّا يَلْتَبَسَ الْأَمْرُ
 عَلَى الْقُرَّاءِ . وَسَنَبِّينُ فِي هَذَا الْفَصْلِ كَيْفَ يَسْعَى امْبْرَاطُورُ الْمَانِيَا —
 كَمَا اعْتَرَفَ هُوَ بِنَفْسِهِ — إِلَى إِعْدَامِ الْمَانِيَا الْقَدِيمَةِ وَإِجْمَادِ الْمَانِيَا
 الْجَدِيدَةِ بِوَسِطَةِ تَنْظِيمِ التَّعْلِيمِ عَلَى مِثَالِ الْأُمَّةِ الْبُرُوسِيَانِيَّةِ .

الباب الأول

﴿الفرنساويون والانكليز السكسونيون في المدرسة﴾

يُظهِرُ الْفَرْقُ بَيْنَ انْكِتَابِهَا وَالْأُمَّمِ الْغَرْبِيَّةِ الْأُخْرَى مِنْذُ عَهْدِ الْمَدْرَسَةِ ، وَهُوَ فَرْقٌ كَبِيرٌ إِذَا عَرَفْنَا سَهْلَتِ عَلَيْنَا مَعْرِفَةَ السَّبَبِ فِي أَفْضَالِيَّةِ الْإِنْجِلِيزِ السَّكْسُونِيِّينَ .

كُلُّ أُمَّةٍ تَنْظُمُ التَّرْبِيَّةَ عَلَى حَسَبِ طَبِيعَتِهَا وَعَلَى مُقْتَضَى أَخْلَاقِهَا وَعَوَائِدِهَا ، ثُمَّ التَّرْبِيَّةُ نَفْسَهَا تُؤَثِّرُ فِي الْهَيْئَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ . وَسَيَقِفُ الْقَارِئُ عَلَى بَيَانِ ذَلِكَ بِمَا تَقَدَّمَهُ لَهُ مِنْ الشَّرْحِ عَلَى التَّرْبِيَّةِ فِي فَرَنْسَا وَالْمَانِيَا وَإِنْجِلْتِرَا ، وَبَعْدَ ذَلِكَ نَخْصُّ مُطَلَبًا رَابِعًا نُبَيِّنُ فِيهِ تَغْيِيرَ الْأَحْوَالِ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ وَنَأْتِي عَلَى ذِكْرِ الطَّرِيقَةِ الَّتِي يَجِبُ أَنْ نَتَّبِعَهَا فِي تَرْبِيَةِ أَبْنَائِنَا حَتَّى يَكُونُوا عَلَى دَرَجَةِ مِنَ الْإِسْتِعْدَادِ تُنَاسِبُ الْأَزْمَانَ الْحَاضِرَةَ الَّتِي أَصْبَحَتْ تُخَالِفُ الْأَزْمَانَ الْقَدِيمَةَ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ .

الفصل الأول

﴿ فِيمَا إِذَا كَانَ نِظَامُ التَّعْلِيمِ بِالْمَدَارِسِ الْفَرَنْسَاوِيَّةِ يُرْتَبَى رِجَالًا ﴾

إِذَا سَأَلْتَ مِائَةَ شَابِّ فَرَنْسَاوِيِّ عَقِبَ خُرُوجِهِمْ مِنَ الْمَدْرَسَةِ
أَيَّ صِنْعَةٍ يُرِيدُونَ أَنْ يَشْتَغَلُوا بِهَا؟ أَجَابَكَ ثَلَاثَةٌ أَرْبَاعِهِمْ: إِنَّهُمْ
يَتَطَلَّعُونَ إِلَى التَّوْظُفِ فِي الْحُكُومَةِ فَأَغْلَبَهُمْ يَطْمَعُ فِي الْإِنْتِظَامِ
فِي الْجُنْدِيَّةِ أَوْ الْقَضَاءِ أَوْ النِّظَارَاتِ أَوْ الْمُدِيرِيَّاتِ أَوْ السِّفَارَاتِ
أَوْ الْمَصَالِحِ الْأُخْرَى كَمَصْلَحَةِ الْقَنَاظِرِ وَالْجُسُورِ وَالْمَعَادِنِ وَالذُّخَانِ
وَالْمِيَاهِ وَالنَّغَابَاتِ وَالْمَعَارِفِ وَالْمَكَاتِبِ الْعُمُومِيَّةِ وَدُورِ الْمَحْفُوظَاتِ
وغيرِهَا، وَلَا يَمِيلُ إِلَى الصَّنَائِعِ^(١) الْحِرَّةِ فِي الْعَادَةِ مِنْهُمْ إِلَّا الَّذِينَ
لَمْ يَتِمَّكَنُوا مِنَ الْإِلْتِحَاقِ بِإِخْدَى الْمَصَالِحِ الْأَمِيرِيَّةِ .

وَلَمَّا كَانَتْ الْوِظَائِفُ فِي الْحُكُومَةِ مَعْدُودَةً عَمَدَتْ إِلَى طَرِيقَةِ
الِاخْتِيَارِ بِقَدْرِ مَالِدِيَّهَا مِنَ الْوِظَائِفِ الْخَالِيَةِ . وَطُرُقُ الْإِخْتِيَارِ
ثَلَاثَةٌ: الْأَمْتِحَانُ، وَالْوَسَائِطُ^(٢)، وَمُرَاعَاةُ الْأَنْسَابِ وَالْأَحْسَابِ . إِلَّا
أَنَّ الْوَسَائِطَ وَالْأَنْسَابَ لَا يُعْمَلُ عَلَيْهَا إِلَّا نَادِرًا، وَالْأَمْتِحَانُ هُوَ
الْقَاعِدَةُ الْعُمُومِيَّةُ . لِذَلِكَ أَصْبَحَ النِّجَاحُ فِيهِ الشُّغْلَ الشَّاعِلَ لِجَمِيعِ

(١) الأحسن الاعمال الحرة ليكون أعم (٢) يريد الوسايط : جمع وساطة أي التوسط بين طالب التوظيف وبين من يبدع الأمر ، يعنون الشفاعة .

شَبَانًا فَإِنَّ مُسْتَقْبَلَهُمْ مُتَوَقَّفٌ عَلَيْهِ وَانْحَصَرَ فِكْرُ الْعَائِلَاتِ فِي
 إِجْبَادِ الْوَسَائِلِ الَّتِي تُمْكِّنُ أَبْنَاءَهَا مِنْ هَذَا النَّجَاحِ ، وَهَكَذَا
 تَوَلَدَتْ فِي أَذْهَانِ الْفَرَنْسَاوِيِّينَ أَهْمِيَّةُ الْمَدَارِسِ لِأَنَّهَا الْوَاسِطَةُ
 الْوَحِيدَةُ الَّتِي تُوصِلُ إِلَى تِلْكَ الْمَطَامِعِ وَتَجْعَلُ لِلْإِنْسَانِ مَرَكَزًا
 فِي أُمَّتِهِ ، وَعَنِ الْقَاعِمُونَ بِأَمْرِهَا إِلَى جَعْلِ نِظَامِهَا بِحَيْثُ يُسَاعِدُ عَلَى
 هَذَا النَّجَاحِ . وَهُمْ مَعْدُورُونَ لِأَنَّ أَهْلِي التَّلَامِذَةِ لَا تَعْتَبِرُهَا إِلَّا بِقَدْرِ
 مَنْ يَنْجَحُ مِنْ طَلَبَتِهَا فِي الْإِمْتِحَانَاتِ السَّنَوِيَّةِ ، وَالْمَدْرَسَةُ الَّتِي
 يَقِلُّ عَدَدُ النَّاجِحِينَ مِنْ مُتَخَرِّجِيهَا تَنْحَطُّ دَرَجَتُهَا وَيَهْجُرُهَا
 التَّلَامِذَةُ حَتَّى صَارَ الْفَوْزُ فِي الْإِمْتِحَانِ عِلَّةَ حَيَاةِ الْمَدَارِسِ
 الْفَرَنْسَاوِيَّةِ .

وَلَا سَبِيلَ إِلَى تَهْيِئَةِ الطَّلَبَةِ لِلْإِمْتِحَانِ إِلَّا بِأَهْلِي قُوَى التُّعَلُّمِ
 حَتَّى يَحْضُرَ فِي زَمَنِ يَسِيرٍ عَلَى تَعْلِيمِ سَطْحِيٍّ يَتَنَاوَلُ جَمِيعَ الْعُلُومِ
 الْمَطْلُوبَةِ فِي الْإِمْتِحَانِ .

فَأَمَّا قِلَّةُ الزَّمَنِ فَلِسَبَبَيْنِ : الْأَوَّلُ مُلَاحَظَةُ السَّنِّ الْمُقَرَّرَةِ
 قَانُونًا لِلدُّخُولِ فِي بَعْضِ الْوُظَائِفِ ، وَقَدْ لَاحَظَتِ الْحُكُومَةُ فِي
 تَحْدِيدِهَا تَقْلِيلَ عَدَدِ الطُّلَّابِ الَّذِي يَزْدَادُ كُلَّ يَوْمٍ وَجَعَلَ الْإِمْتِحَانَ
 صَعْبًا ، وَالسَّبَبُ الثَّانِي تَعْجُلُ الشَّبَّانِ التَّوْظُفَ لِكَيْ يَتَرَقَّوْا سَرِيعًا
 قَبْلَ وُضُوعِهِمْ لِسِنِّ الْمُحَدَّدَةِ لِلتَّقَاعِدِ .

وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ التَّسْرِعَ فِي الزَّمَنِ وَالإِكْثَارَ مِنَ الْمَوَادِّ يَجْعَلَانِ
 التَّعْلِيمَ سَطْحِيًّا إِذْ كَمَا زَادَ عَدَدُ الْمُتَعَلِّمِينَ كَثُرَتْ الْعُلُومُ الْوَاجِبُ
 تَعْلُمُهَا وَزَادَتْ صُعُوبَةُ الْإِمْتِحَانِ وَلَمْ يَعْذُ فِي إِمْكَانِ الطَّالِبِ، مَهْمَا بَلَغَ
 مِنَ الْعَقْلِ وَالذِّكَاةِ، أَنْ يُتَقَنَّ تَلَقُّى تِلْكَ الْعُلُومِ كُلِّهَا وَأَصْبَحَ يَكْتَفِي
 مِنْهَا بِتَصَفُّحِ أَوْ رَاقِبِهَا. وَلَوْ أَنَّ الْمُعَلِّمِينَ أَنْفُسَهُمْ تَقَدَّمُوا إِلَى الْإِمْتِحَانِ
 مَعَ طَلَبَتِهِمْ لَعَجَزُوا وَعَنِ الْإِجَابَةِ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الْمَسَائِلِ وَخِيفَ
 عَلَيْهِمْ مِنَ الْخُذْلَانِ (١). وَلَوْ كَانَ الْغَرَضُ مِنْ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ إِيدَاعَ
 الْمَعْلُومَاتِ الْحَقِيقِيَّةِ فِي أَذْهَانِ التَّلَامِيذِ وَتَرْبِيَةَ مَلَكَاتِهِمِ الْعَقْلِيَّةِ
 لَرَسَخَتْ التَّعَالِيمُ عِنْدَهُمْ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا نَتِيجَةَ لَهَا وَلَا يُقْصَدُ بِهَا إِلَّا
 شَحْدُ (٢) الذَّاكِرَةِ. لِذَلِكَ قُلْنَا إِنَّ التَّعْلِيمَ لَا يَدُومُ إِلَّا قَلِيلًا
 فَلَا يَكَادُ التَّلَامِيذُ يَحْتَازُ الْإِمْتِحَانَ إِلَّا وَقَدْ أَدْرَكَهُ النِّسْيَانُ، وَالنَّاسُ
 لَا يَرَوْنَ فِي هَذَا ضَرَرًا لِحُصُولِ الْغَرَضِ الْمَقْصُودِ إِذْ يَكْفِي أَنْ
 يَكُونَ الطَّالِبُ مُسْتَعِدًّا لِجَوَازِ الْإِمْتِحَانِ فَإِنْ وَفَّاهُ حَقُّهُ صَارَ كُلُّ
 مَرْغُوبٍ بَعْدَهُ مِنَ الْكَمَالِيَّاتِ، فِيهِ يَحْصُلُ التَّوَضُّعُ وَهُوَ مُنْتَهَى
 الْأَمَالِ. وَعَلَى هَذَا يَتَبَيَّنُ لَكَ أَنَّ الْإِمْتِحَانَ أَصْبَحَ السَّبَبَ الْوَحِيدَ
 فِي تَكْلِيفِ التَّلَامِيذِ مَا لَا يُطَبِّقُونَ، وَمِنْ أَجْلِهِ أَيْضًا وَجِدَ نِظَامُ

(١) يريد الاخفاق وعدم النجاح، واصل الخذلان من خذله يخذله ترك عونه ونصرته

(٢) من شحذ السكين حده. وهم يقولون شحذ الذهن يعنون ارهفه. ولكن الظاهر أن المترجم يريد هنا مله الذاكرة بالمعلومات وإن يكون استعمال شحذ في غير موضعه وإنما تستبدل بها كلمة شحن.

انْقِطَاعِ الْأَبْنَاءِ عَنِ أَهْلِيهِمْ وَسُكْنَاهُمْ بِالْمَدَارِسِ لَيْلًا وَنَهَارًا وَهُوَ
النِّظَامُ الْمَعْرُوفُ عِنْدَهُمْ (بِالدَّخِيلِيَّةِ)

وَقَدْ اِحْتَأَجُوا إِلَى ذَلِكَ لِاعْتِمَادِ الْفَرَنْسَاوِيِّينَ فِي تَرْبِيَةِ أَبْنَائِهِمْ عَلَى
الْمَدْرَسَةِ تَوْصُلًا إِلَى النِّجَاحِ فِي الْإِمْتِحَانِ حَتَّى يَنَالُوا وَظِيفَةً
فِي الْحُكُومَةِ ، وَصُعُوبَةِ الْإِمْتِحَانِ عَلَى مَا قَدَّمْنَا تَقْتَضِي طَرَفًا مَخْصُوصَةً
فِي التَّعْلِيمِ وَوَسَائِلَ تَجَهُّلُهَا الْعَائِلَاتُ ، وَإِنْ لَمْ تَجَهَّلْهَا فَإِنَّهُ لَا يَتيسَّرُ
لَهَا اسْتِعْمَالُهَا وَلَا أَنْ تُرَاقِبَ الْعَمَلَ بِهَا. وَمِنْ جِهَةِ ثَانِيَةٍ فَإِنَّهُمْ يَخَافُونَ
أَنْ يَضِيعَ الْوَقْتُ وَيَخْشَوْنَ مِنْ اسْتِغْثَالِ أَبْنَائِهِمْ بِمَا يُلْهِمُهُمْ عَنِ الْغَرَضِ
الْمَقْصُودِ إِنْ لَمْ يَبِيْتُوا فِي الْمَدَارِسِ.

وَمِمَّا لَاشْكَ فِيهِ أَنَّ هَذَا النِّظَامَ مُلَائِمٌ لِذَلِكَ الْغَرَضِ كَمَا يَنْبَغِي
أَيُّ أَنَّهُ يَهَيِّئُ الطَّلِبَةَ إِلَى الْوُظَائِفِ الْمَلِكِيَّةِ وَالْعَسْكَرِيَّةِ ، وَبَيَانُهُ
أَنَّ الْمَوْظَفَ الْحَقِيقِيَّ هُوَ الَّذِي يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَنَازَلَ عَنْ إِرَادَتِهِ
وَلِهَذَا وَجَبَ أَنْ يَتَرَبَّى عَلَى الطَّاعَةِ لَيْسَهْلَ عَلَيْهِ تَنْفِيذُ أَوْامِرِ رُؤَسَائِهِ
مِنْ غَيْرِ مُنَاقَشَةٍ وَلَا نَظَرٍ فِيهَا ، لِأَنَّ الْمَطْلُوبَ مِنْهُ أَنْ يَكُونَ آلَةً
فِي يَدِ غَيْرِهِ ، وَالدَّخِيلِيَّةُ مِنْ أَعْظَمِ الْبَوَاعِثِ عَلَى هَذِهِ التَّرْبِيَةِ
لِأَنَّ الْمَدْرَسَةَ نَظَّمَتْ عَلَى نَسَقِ ثُكْنَةِ (١) عَسْكَرِيَّةٍ يَقُومُ الطَّلِبَةُ

(١) ثكنة كلمة فارسية واحدة تكن الجنده وهي مراكزهم

فِيهَا مِنْ نَوْمِهِمْ عَلَى صَوْتِ البُوقِ ^(١) أَوْ رَنَّةِ الجَرَسِ وَيَنْتَقِلُونَ
مُصْطَفَيْنَ بِالنِّظَامِ مِنْ عَمَلٍ إِلَى آخَرَ، وَرِيَاضَتِهِمْ تُشْبِهُ الإِسْتِعْرَاضَ
العَسْكَرِيَّ فَهُمْ لَا يَخْرُجُونَ مِنَ الدَّرْسِ إِلَّا فِي رَحَبَاتِ دَاخِلِ البِنَاءِ
عَالِيَةِ الأَسْوَارِ وَيَتَمَشَّوْنَ فِيهَا جَمَاعَاتٍ جَمَاعَاتٍ كَأَنَّهُمْ لَا يَلْعَبُونَ،
وَلَيْسَ لَهُمْ مِنَ الزَّمَنِ مَا يَسْتَرِيحُونَ فِيهِ مِنْ عَنَاءِ الدَّرْسِ وَالْمُطَالَعَةِ
فَلَهُمْ نِصْفُ سَاعَةٍ فِي الصَّبَاحِ وَسَاعَةٌ بَعْدَ طَعَامِ الظُّهْرِ وَنِصْفُ
سَاعَةٍ بَعْدَ العَصْرِ وَمُعَدَّلُ خُرُوجِهِمْ مِنَ المَدْرَسَةِ يَوْمٌ وَاحِدٌ فِي الشَّهْرِ.
وَلَا يَتَيَسَّرُ للعَائِلَاتِ زِيَارَةُ أَبْنَائِهِمْ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّتَيْنِ فِي الأُسْبُوعِ
مُدَّةَ سَاعَةٍ عَلَى الأَكْثَرِ فِي مَكَانٍ مُخْصُوصٍ مُزْدَحِمٍ بِالمَوْجُودِينَ
بِحَيْثُ يَسْمَعُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا. وَمِنْ الوَاضِحِ أَنَّ هَذَا النِّظَامَ يُضْعِفُ
فِي الشَّبَابِ قُوَّةَ العَمَلِ الإِخْتِيَارِيِّ وَيُوْهِنُ الهِمَّةَ وَالإِقْدَامَ، كَمَا أَنَّ
مِنْ شَأْنِهِ أَيْضًا إِزَالَةَ مَا قَدْ يُوجَدُ بَيْنَ الطَّلَبَةِ مِنْ تَفَاوُتِ الأَنْسَابِ
لِأَنَّ الدَّائِرَةَ الَّتِي تَدُورُ عَلَى الجَمِيعِ وَاحِدَةٌ فَتَجْعَلُهُمْ فِي الحَقِيقَةِ
آلَاتٍ مُعَدَّةً لِلْعَمَلِ الَّذِي يُقْصَدُ مِنْهَا. وَمِمَّا يَزِيدُ فِي سُهُولَةِ
انْقِيَادِهِمْ وَحُسْنِ طَاعَتِهِمْ كَوْنُ النِّظَامِ الَّذِي تَرَبَّوْا عَلَيْهِ لَا يُؤَدِّي
إِلَى تَرْبِيَةِ الفِكْرِ وَالتَّعَقُّلِ بَلِ الطَّالِبُ يَتَنَاوَلُ مُسْرَعًا كَثِيرًا مِنْ
المَوَادِّ سِوَايَ الأَحْكَمِ تَعَلَّمَهَا أَمْ لَا وَلَا تَشْغُلُ مِنْ مَلَكَاتِهِ إِلَّا

(١) البوق : الآلة التي ينفخ فيها

الذَّاكِرَةُ . فَكَمَا أَنَّهُ يَتَلَقَّى التَّعْلِيمَ مِنْ دُونِ نَظَرٍ فِيهِ تَرَاهُ
يُنْحَى مِنْ غَيْرِ تَرَدُّدٍ أَمَامَ الْأَوَامِرِ الَّتِي تَصْدُرُ لَهُ مِنْ رُؤَسَائِهِ
فِي الْمَصَالِحِ الَّتِي يُؤَدِّفُ فِيهَا ، وَلَا غَرَابَةَ فِي هَذَا فَإِنَّ مَصْدَرَ
ذَلِكَ التَّعْلِيمِ وَتِلْكَ الْأَوَامِرِ وَاحِدٌ فِي الْحَقِيقَةِ وَهِيَ الْحُكُومَةُ ،
وَكَأَنِّي بِهِمْ يَقُولُونَ لَهُ : أَيُّهَا التَّمِيدُ إِنَّ الْحُكُومَةَ قَدْ عَلَّمْتِكُمْ مَبَادِيهَا
فَصِرْتُمْ الْيَوْمَ مُوظَّفًا تَتَلَقَّى أَوَامِرَهَا ، وَمَرَجِعُ الصِّفَتَيْنِ وَاحِدٌ
كَمَا تَرَى .

وَأَوَّلُ مَنْ التَّمَتَ إِلَى جَعْلِ الْمَدَارِسِ أَمَاكِنَ لِتَرْبِيَةِ الْمُوظَّفِينَ
نَابُولِيونُ الْأَوَّلُ ، فِي الْقَرْنِ السَّابِعِ عَشَرَ وَالثَّامِنِ عَشَرَ كَانَتْ
« الدَّاخِلِيَّةُ » نَادِرَةً وَلَمْ تُعَمَّمْ إِلَّا أَيَّامَ الْأَمْبِرَاطُورِيَّةِ الْأُولَى ، فَلَمَّا
أَسَّسَ نَابُولِيونُ الْأَوَّلُ مَدَارِسَ الْحُكُومَةِ جَعَلَهَا قَاعِدَةً عُمُومِيَّةً
لِأَنَّهُ مَا كَانَ يَتَيَسَّرُ لَهُ أَنْ يَدِيرَ السُّلْطَنَةَ الْكُلِّيَّةَ الَّتِي جَمَعَهَا فِي يَدِهِ
إِلَّا بِكَثْرَةِ عَدَدِ الْمُوظَّفِينَ ، وَوَجَبَ مِنْ ذَلِكَ الْحِينِ عَلَى الْحُكُومَةِ
أَنْ تُلَاحِظَ تَرْبِيَةَ الشَّبَّانِ الَّذِينَ تُضْطَرُّ إِلَى اسْتِخْدَامِهِمْ فَمَالَتْ
بِالطَّبَعِ إِلَى تَقْرِيرِ الْمَبَادِي الَّتِي تُوَافِقُ مَصْلَحَتَهَا وَتَعْوِيدِ الطَّلَبَةِ عَلَيْهَا
قَبْلَ نُمُوِّ الْأِدْرَاكِ الْحَقِيقِيِّ فِيهِمْ حَتَّى تَتَوَصَّلَ بِذَلِكَ إِلَى الْغَرَضِ
الْمَقْصُودِ وَهُوَ إِضْعَافُ هِمَّتِهِمْ وَتَعْوِيدُهُمْ الطَّاعَةَ وَالِاشْتِرَاكَ
فِي الْإِحْسَاسَاتِ وَالتَّجَانُّسِ فِي الْأَفْكَارِ . وَبِالْجُمْلَةِ فَإِنَّهُمْ يَنْشُتُونَ

عَلَى مَآمِنَ شَأْنِهِ مَحْوُ الْأَنَانِيَةِ فِي الْإِنْسَانِ . وَقَدْ سَرَتِ الْحُكُومَاتُ
الَّتِي جَاءَتْ بَعْدَ الْأَمْبِرَاطُورِيَّةِ الْأُولَى عَلَى اخْتِلَافِ أَشْكَالِهَا فِي
ذَلِكَ النَّهْجِ وَهُوَ الَّذِي تُبْنَى عَلَيْهِ الْيَوْمَ سِيَاسَةُ الْبِلَادِ فَلَمْ يَنْقُصْ
عَدَدُ الْمُوظَّفِينَ وَلَمْ يَضْعُفْ جَمْعُ السُّلْطَةِ فِي الْيَدِ الْعُلْيَا بَلْ زَادَ
ذَلِكَ مِنْ أَوَّلِ هَذَا الْقَرْنِ وَنَشَأَ عَنْهُ اتِّسَاعُ نِطَاقِ التَّعْلِيمِ السُّطْحِيِّ
كَمَا انْتَشَرَ نِظَامُ الدَّخْلِيَّةِ فِي الْمَدَارِسِ .

ذَلِكَ هُوَ النِّظَامُ الَّذِي يَتَرَبَّى عَلَيْهِ السَّوَادُ الْأَعْظَمُ مِنْ
الْفَرَنْسَاوِيِّينَ رَجَاءَ الْفَوْزِ فِي الْإِمْتِحَانِ الَّذِي يَفْتَحُ لَهُمْ بَابَ الْوظَائِفِ
فِي الْحُكُومَةِ ، غَيْرَ أَنَّ نَجَاحَهُمْ لَيْسَ عَلَى قَدَرِ أَمَلِهِمْ فَكُلُّهُمْ آمِلٌ
وَلَيْسَ الْكُلُّ مُوظَّفِينَ ، وَيُصْبِحُ الَّذِينَ سُدَّتْ أَبْوَابُ الْحُكُومَةِ
فِي وُجُوهِهِمْ مُضْطَرِّينَ إِلَى طَلَبِ الْعَيْشِ مِنْ بَابٍ آخَرَ ، وَهُنَا يَجِبُ
النَّظَرُ فِيمَا إِذَا كَانَ نِظَامُ الْمَدَارِسِ الْحَالِي وَافِيًا بِالْغَرَضِ الْمَقْصُودِ
مِنْ تَرْبِيَةِ الرِّجَالِ عَلَى مَبَادِي الْأِرْتِزَاقِ مِنْ غَيْرِ الْحُكُومَةِ أَمْ لَا
كَمَا أَنَّهُ صَارَ وَافِيًا بِتَرْبِيَةِ الْمُوظَّفِينَ ، وَهَذِهِ مَسْأَلَةٌ كُبْرَى يَنْبَغِي
الِاتِّفَاتُ إِلَيْهَا .

وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ لَا يَتَيَسَّرُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُحْصَلَ مَعِيشَتُهُ إِلَّا إِذَا
كَانَ ذَا إِرَادَةٍ وَهَمَّةٍ وَكَانَ مُتَعَوِّدًا لِإِعْتِمَادِ عَلَى نَفْسِهِ ، وَالنِّظَامُ
الَّذِي شَرَحْنَاهُ لِأَيُّسَاعِدِ عَلَى تَرْبِيَةِ هَذِهِ الْمَلَكَاتِ بَلْ إِنَّهُ يُضْعِفُهَا

وَيَمِيهًا وَيُعَوِّدُ الْعَقْلَ أَنْ تَنْظُرَ الْمَرَكَزَ الْمُجَهَّزَةَ مِنْ قَبْلِ حَيْثُ لَا يُكَلِّفُهُ
التَّقَدُّمَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَكُونَ صَبُورًا لِأَنَّ يَكُونَ صَاحِبَ عَمَلٍ إِذِ التَّرَقَّى
فِي الْجَيْشِ وَفِي مَصَالِحِ الْحُكُومَةِ إِنَّمَا يَحْصُلُ بِالْأَقْدَمِيَّةِ وَالِاسْتِصْنَاعِ (١)
وَكَلُّ الَّذِي يَجِبُ عَلَى الطَّالِبِ أَنْ يَعْمَلَهُ هُوَ الدُّخُولُ فِي الخِدْمَةِ ،
وَمَتَى اسْتَقَرَّ فِي وَظِيفَتِهِ يَتْرُكُ نَفْسَهُ فَيَنْتَقِلُ بِحُكْمِ الْعَادَةِ مِنْ
وَظِيفَةٍ إِلَى أُخْرَى ، وَمَنْ كَانَ هَذَا شَأْنُهُ قَلَّ أَنْ يَكُونَ شُجَاعَ
النَّفْسِ ذَا قَلْبٍ يَمِيلُ إِلَى التَّعَبِ حُبًّا فِي الْحَيَاةِ . وَيَنْبَغِي أَيْضًا لِمَنْ
يَطْلُبُ الرِّزْقَ بِنَفْسِهِ أَنْ يَكُونَ شَابًّا لِأَنَّ الشُّبُوبِيَّةَ (٢) تُسَهِّلُ
لِلْإِنْسَانِ اجْتِيَازَ الْعَقَبَاتِ الَّتِي تُصَادِفُهُ بِالطَّبَعِ فِي بَدَايَةِ الْعَمَلِ
أَيًّا كَانَ ، ثُمَّ هِيَ لِأَزْمَةٍ عَلَى كُلِّ حَالٍ لِمَنْ يُرِيدُ أَنْ يَتَعَلَّمَ صَنَعَةً
مِنَ الصَّنَاعَاتِ ، وَطَالِبُ التَّوْظُفِ فِي الْحُكُومَةِ مُضْطَرٌّ إِلَى الْبُقَاءِ
بِغَيْرِ كَسْبٍ حَتَّى يَبْلُغَ الْحَادِيَةَ وَالْعِشْرِينَ أَوْ الْخَامِسَةَ وَالْعِشْرِينَ
وَرُبَّمَا كَانَتْ الثَّلَاثِينَ وَأَكْثَرَ ، فَإِذَا ضَاعَ أَمَلُهُ فِي الْإِسْتِخْدَامِ
أَمْسَى وَقَدْ سُدَّتْ أَمَامَهُ أَبْوَابُ حِرْفٍ كَثِيرَةٍ وَلَاتَ حِينَ اعْتِنَاقِهَا
لِفَقْدِ وَسَائِلِهَا ، ثُمَّ الْحِرْفُ فِي الْغَالِبِ صَعْبَةٌ الْمَنَالِ قَلِيلَةٌ النَّفْعِ

(١) لعله يريد أن يكون الموظف صنعة أحد الرؤساء يعني « محسوبه » والفصيح في
هذا الاصطلاح، يقولون : اصطاعه لنفسه فهو صنيعته اذا أدبه وخرجه ورباه ويقولون
صانعه أى داراه وداهنه ولعله يريد هذا لأن المقام يحتمله

(٢) الفصيح الشباب والشبية

فِي أَوَائِلِهَا ، وَلَا تَنْسَ أَنَّ الطَّمَعِ يَشْتَدُّ فِي الْإِنْسَانِ كُلَّمَا تَقَدَّمَ
فِي الْعُمُرِ ^(١) ، وَكُلَّمَا زَادَ الطَّمَعُ صَعِبَ نَيْلُ الْمَطْلُوبِ ، وَهَكَذَا يَفُوتُ
الْوَقْتُ وَتَتَعَاقَبُ الْأَعْوَامُ وَتَزْدَادُ الصُّعُوبَاتُ وَالْمَرْءُ وَاقِفٌ بَيْنَ
الْإِقْدَامِ وَالْإِحْجَامِ .

وَلَيْسَتْ الشُّبُوبَةُ ^(٢) بِكَافِيَةٍ وَحْدَهَا بَلْ لَا بُدَّ مَعَهَا مِنْ أَنْ
يَكُونَ فِي الشَّابِّ اسْتِعْدَادٌ وَمَيْلٌ لِلصَّنَاعَةِ الَّتِي يَطْلُبُهَا وَأَنْ يَكُونَ
عَلَى مَعْلُومَاتٍ تَلِيقُ بِهَا ، إِذْ لَا يَصِيرُ الْمَرْءُ مِنْ أَرْبَابِ الزَّرَاعَةِ
أَوِ الصَّنَاعَةِ أَوِ التِّجَارَةِ دَفْعَةً وَاحِدَةً بَلْ كُلُّهَا أَعْمَالٌ تَمْتَضِي
الدَّرَجَةَ ^(٣) وَلَا تُنَالُ إِلَّا بِالْعَمَلِ وَاقْتِفَاءِ أَثَرِ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ

وَنِظَامِ مَدَارِسِنَا لَا مِهْنِيٍّ إِلَى مِثْلِ تِلْكَ الْأَعْمَالِ بَلْ إِنَّهُ يُبْعَدُ
الْمُتَعَلِّمِينَ عَنْهَا لِأَنَّهُ يَغْرِسُ فِيهِمْ اعْتِقَادَ أَفْضَلِيَّةِ الْوُظَائِفِ فِي
الْحُكُومَةِ ، وَكَثِيرٌ مِمَّنْ لَا حَيَاةَ لَهُمْ إِلَّا بِالزَّرَاعَةِ أَوِ الصَّنَاعَةِ
أَوِ التِّجَارَةِ يَدْهَشُونَ عِنْدَ مَا يَسْمَعُونَ أَبْنَاءَهُمْ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنْ
الْمَدْرَسَةِ يَقُولُونَ إِنَّا لَا نُرِيدُ أَنْ نَحْذُوَ حَذْوَ آبَائِنَا ، وَمَا لِلدَّهْشَةِ
مُوجِبٌ فَإِنَّ الْمَدْرَسَةَ قَدْ بَغَضَتْ إِلَيْهِمْ حِرْفَ آبَائِهِمْ حَتَّى صَارَ
النَّاسُ لَا يَلُومُونَ الشُّبَانَ عَلَى فِرَارِهِمْ مِنَ الْمِهْنِ وَالصَّنَاعَاتِ الْجَارِيَةِ

(١) يريد تقدم به العمر (٢) يريد الشباب (٣) الدرجه العاده والمران

مَعَ كَوْنِهَا أَشْرَفَ الْأَعْمَالِ وَأَنْفَعَهَا ، وَمَنْ يَرْجِعُوا مِنْهُمْ إِلَيْهَا بَعْدَ خِذْلَانِهِمْ فِي الْإِمْتِحَانِ لَا يَعْمَلُوا فِيهَا إِلَّا عَنْ قَهْرٍ وَاضْطِرَارٍ عَلَى غَيْرِ اسْتِعْدَادٍ وَلَا مَيْلٍ ، فَهُمْ يَدْخُلُونَهَا وَشُرُوطُ النِّجَاحِ غَيْرُ مُتَوَافِرَةٍ لَدَيْهِمْ .

وَمَعَ مَا تَقَدَّمَ فَإِنَّ نِظَامَ الْمَدَارِسِ عِنْدَنَا يَهَيِّئُ الْمُتَخَرِّجِينَ مِنْهَا إِلَى عَمَلِينَ آخَرِينَ غَيْرِ التَّوْظُفِ فِي الْحُكُومَةِ وَهُمَا الْإِسْتِخْدَامُ فِي الْمَصَالِحِ الْحُرَّةِ وَاعْتِنَاقُ الْجِرْفِ الْأَدَبِيَّةِ ، فَأَمَّا كَوْنُهُ يَهَيِّئُ إِلَى الْإِسْتِخْدَامِ فِي الْمَصَالِحِ الْحُرَّةِ فَظَاهِرٌ لِمَا بَيْنَ مَصَالِحِ الْحُكُومَةِ وَالْمَصَالِحِ الْحُرَّةِ مِنْ الشَّبَهِ فَإِنَّ هَذِهِ لَا تَطْلُبُ مِنْ مُسْتَخْدِمِيهَا اسْتِقْلَالًا فِي الْعَمَلِ وَلَا قُوَّةً فِي الْإِرَادَةِ وَلَا اجْتِهَادًا أَكْثَرَ مِنْ تِلْكَ ، وَهِيَ مِثْلُهَا فِي ضَمَانِ الْمَعِيشَةِ ، وَالتَّقَدُّمُ فِيهَا مُحَقَّقٌ بِطَبِيعَةِ نِظَامِهَا وَإِنْ كَانَ بِطَبِيعَتَا ، فَإِنْ لَمْ يَنْجَحْ فِي الْإِمْتِحَانِ رَكَضَ (١) نَحْوَ تِلْكَ الْمَصَالِحِ حَتَّى كَثُرَ عَدَدُ الطَّلَابِ وَتَعَذَّرَ عَلَيْهَا أَنْ تَسْتَخْدِمَهُمْ جَمِيعًا ، وَكَذَلِكَ كَثُرَ الْمَيْلُ إِلَى الْإِحْتِرَافِ بِالْجِرْفِ الْأَدَبِيَّةِ لِأَنَّ نِظَامَ الْمَدَارِسِ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُحْدِثَ عِنْدَ الطَّلَبَةِ مَعْلُومَاتٍ عَامَّةً لِكثَرَةِ عَدَدِ الْمَوَادِّ الَّتِي يَدْرُسُونَهَا فَيَخْرُجُ الطَّالِبُ مِنْهَا وَهُوَ عَلَى اعْتِقَادٍ تَامٍّ بِأَنَّهُ عَالِمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ لِأَنَّهُ

مَرَّ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَفِي وَسْعِهِ أَنْ يَتَكَلَّمَ عَنْهُ أَوْ يَكْتُبَ فَيَصِيرَ رَجُلًا
 أَدِيبًا مِنْ أَىِّ صِنْفٍ كَانَ ، عَلَىٰ أَنَّهُ مُضْطَّرٌّ لِلِالْتِجَاءِ إِلَىٰ تِلْكَ الْحِرْفَةِ
 فَإِنَّ الْمَدْرَسَةَ لَمْ تُحَسِّنْ تَرْبِيَّتَهُ أَوْ أَمَّهَا جَعَلَتْهُ غَيْرَ صَالِحٍ لِأَنَّ
 يَكُونُ ذَا صِنْعَةٍ مُسْتَقِلَّةٍ غَيْرِهَا . وَمِمَّا هُوَ مُشَاهِدٌ لِلْعِيَانِ أَنَّ نِظَامَ
 التَّعْلِيمِ عِنْدَنَا يُرَبِّي أَدَهَانَ الَّذِينَ يَحْتَرِفُونَ تِلْكَ الْمِهْنَةَ عَلَىٰ كَيْفِيَّةٍ
 مَخْصُوصَةٍ وَهِيَ ضَعْفُهُمْ فِي الْبَحْثِ فَلَا يَكَادُ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ يُجِيدُ النَّظَرَ
 فِي مَسْأَلَةٍ إِلَّا قَلِيلًا ، لَكِنَّهُمْ مِنْ ذَوِي الْإِقْتِدَارِ التَّامِّ فِي التَّخْيِيلَاتِ
 وَالْحُكْمِ بِالِاسْتِقْرَاءِ النَّاقِصِ ^(١) مِمَّا يَقْرُبُ إِلَىٰ الْخَطِئِ أَكْثَرَ مِنْهُ إِلَىٰ
 الصَّوَابِ . وَمِنْ أَحْسَنِ مَا يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَىٰ ذَلِكَ مُطَالَعَةُ (جَرِيدَةُ
 الْمَطْبُوعَاتِ) الَّتِي تَنْشُرُ كُلَّ يَوْمٍ مَا يُؤَلَّفُ مِنَ الْكُتُبِ الْأَدَبِيَّةِ
 فِي فَرَنَسَا إِذْ يَتَبَيَّنُ أَنَّ الْمُؤَلَّفَاتِ الَّتِي تَقْتَضِي وَقْتًا وَعِنَاءً ثَقُلَ يَوْمًا
 فَيَوْمًا ، وَالَّذِي يُؤَلَّفُ مِنْهَا هُوَ فِي الْغَالِبِ نَقْلٌ ^(٢) مِنْ كُتُبِ
 مُتَعَدِّدَةٍ عَلَىٰ شَكْلِ كُتُبِ دَائِرَةِ الْعُلُومِ لِامُؤَلَّفَاتِ شَخْصِيَّةٍ وَضَعَهَا

(١) جاء في التعريفات : الاستقراء هو الحكم على كل شيء لوجوده في أكثر جزئياته وإنما قلنا في أكثر جزئياته لأن الحكم لو كان في جميع جزئياته لم يكن استقراء بل قياسا مقسما ويسمى هذا استقراء لأن مقدماته لا تحصل إلا بتبع الأجزاء أقولنا كل حيوان يحرك فكذلك الأسفل عند المضع لأن الإنسان والبهائم والسيب كذا وهو استقراء ناقص لا يفيد اليقين لجواز وجود جزئي لم يستقرأ ويكون حكمه مخالفا لما استقرى كالتساح فإنه يحرك فكذلك الأعلى عند المضع (٢) نقل على صيغة المصدر أي منقول ولا أن تقرأه بالبناء للمجهول

صاحِبِهَا بَعْدَ إِطَالَةِ الْفِكْرِ وَإِنْعَامِ النَّظَرِ ، بَلْ تِلْكَ رَسَائِلٌ مُطَوَّلَةٌ
 سَهْلَةٌ التَّنَاوُلِ ، وَالغَرَضُ مِنْهَا جَمْعُ عِدَّةِ مَسَائِلٍ بِكَيْفِيَّةٍ تُسَهِّلُ الْوُقُوفَ
 عَلَيْهَا وَلَمْ يَعُدَّ يُوجَدُ فِي فَرَنَسَا مِنْ مُؤَلَّفِي الْكُتُبِ الشَّخْصِيَّةِ وَقَرَأَهَا
 إِلَّا عَدَدٌ يَسِيرٌ ، وَمِنْ هُنَا جَاءَ أَنَّ مُلْتَمِزِي طَبَعِ الْكُتُبِ يُحْجَمُونَ عَنْ
 طَبْعِهَا إِذَا زَادَتْ عَلَى مُجَلَّدٍ وَاحِدٍ أَوْ مَا يَقْرُبُ مِنْهُ ، وَتُيْلَاحَظُ أَنَّ هَذَا
 الضَّعْفَ وَعَدَمَ الْقُدْرَةَ عَلَى دَرْسِ الْمَسَائِلِ كَمَا يَتَّبَعِي لَيْسَ نَاشِئًا مِنْ
 طَبِيعَةِ الْأُمَّةِ الْفَرَنَسَاوِيَّةِ بِدَلِيلِ الْفَرْقِ بَيْنَ مُؤَلَّفَاتِ الْقَرْنَيْنِ السَّابِقَيْنِ
 وَأَوَّلِ الْقَرْنِ الْحَالِيِّ وَبَيْنَ الْمُؤَلَّفَاتِ الَّتِي ظَهَرَتْ مُنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً ،
 بَلْ مَرَجِعُ هَذَا الضَّعْفِ صَيْرُورَةُ التَّعْلِيمِ سَطْحِيًّا فِي الْمَدَارِسِ لِعِلَّةِ
 الْإِمْتِحَانِ ، وَمَتَى تَعَوَّدَ الْفِكْرُ الْأَخَذَ بِظَوَاهِرِ الْأَشْيَاءِ ،
 وَالْأَيُّ طَالَعَ الْإِنْسَانُ إِلَّا فِي كُتُبٍ صَغِيرَةٍ ، وَأَنَّ يَكُونَ سَرِيعَ الْفَهْمِ
 لَا قَوِيمَ الْحُكْمِ ^(١) وَأَنَّ يُكْثِرَ مِنَ الْإِحَاطَةِ بَعْدَدِ كَبِيرٍ مِنَ الْمَسَائِلِ
 فِي أَقْرَبِ وَقْتٍ تَشْبَهًا بِوَضْعِيهَا مِنْ غَيْرِ تَأَمُّلٍ اسْتِحَالَ عَلَيْهِ أَنْ يُجِيدَ
 الْبَحْثَ لِيَصِيرُ وَرْتَهُ غَيْرَ قَادِرٍ عَلَيْهِ ، وَيَزْدَادُ هَذَا الضَّعْفُ بِعِقْدَارِ زَمَنِ
 ذَلِكَ التَّعْلِيمِ السَّطْحِيِّ ، وَأَشَدُّهُ عِنْدَ طَلَبَةِ الْمَدَارِسِ الْعَالِيَةِ فَهَمُّ يَفْضُلُونَ
 غَيْرَهُمْ بِقُوَّةِ الذَّاكِرَةِ وَسُرْعَةِ الْخَاطِرِ وَسَهُولَةِ فَهْمِ الْمُرَادِ وَهِيَ

(١) أى مستقيم الحكم مسدده

الْمَلَكَاتُ^(١) الَّتِي عُنِيَ بِتَرْبِيَتِهَا فِيهِمْ وَكَانَتْ سَبَبًا لِنَجَاحِهِمْ
 فِي الْإِمْتِحَانِ ، إِلَّا أَنَّ عَجْزَهُمْ يُظْهَرُ إِذَا طُلِبَ مِنْهُمْ أَنْ يَعْمَلُوا عَمَلًا
 مِنْ وُظَائِفِ تِلْكَ الْمَلَكَاتِ الَّتِي ارْتَفَعَتْ صُورَةٌ وَأَنْحَطَتْ حَقِيقَةٌ .
 وَالْخُلَاصَةُ أَنَّ وُظِيفَةَ الْمَدَارِسِ عِنْدَنَا فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ قَدْ انْحَصَرَتْ
 فِي تَرْبِيَةِ الْمُوظَّفِينَ وَلَمْ تَعُدْ صَالِحَةً لِعَيْبِهَا وَبَعُدَتْ الشُّقَّةُ^(٢) بَيْنَهَا
 وَبَيْنَ مَا يَجِبُ لِتَرْبِيَةِ رِجَالٍ حَقِيقِيَّينَ .

الفصل الثاني

﴿ فِيمَا إِذَا كَانَ نِظَامُ التَّعْلِيمِ فِي الْمَدَارِسِ الْأَلْمَانِيَّةِ يُرَبِّي رِجَالًا ﴾
 مِنْ نَكْدِ الطَّالِعِ^(٣) أَنَّهُ لَا يَدُومُ لَنَا مَوْضِعُ رِجَاءٍ ، كَأَنَّمَا رُوحُ
 خَبِيثَةٌ^(٤) سُلِّطَتْ عَلَى كُلِّ عَمَلٍ نَرْجُو الْفَلَاحَ مِنْهُ ، وَقَدْ حَانَ حِينُ
 الْمَدَارِسِ .

مَضَى عَلَيْنَا زَمَنٌ لَمْ نَدْخِرْهُ ثَمِينًا إِلَّا بَدَلْنَاهُ فِي سَبِيلِهَا حَتَّى بَلَغَ

(١) جاء في تعريفات الجرجاني : المَلَكة هي صفة راسخة في النفس ، وتحقيقه أنه تحصل
 للنفس هيئة بسبب فعل من الافعال ويقال لتلك الهيئة كيفية نفسانية وتسمى حالة مادامت
 سريعة الزوال ، فإذا تكررت ومارستها النفس حتى رسخت تلك الكيفية فيها وصارت
 بطيئة الزوال صارت ملكة (٢) الشقة بضم الشين وقد تكسر : المسافة البعيدة
 (٣) الطالع ما يتفال به من السعد أو النحس بطلوع الكواكب . والطالع النكد المشؤم
 (٤) الروح تذكر وتؤنث وتأنثها على معنى النفس .

اعْتَنَوْنَا بِهَا دَرَجَةَ الْعِبَادَةِ ، وَالسَّبَبُ فِي هَذَا الْإِهْتِمَامِ أَنَّهُ لَمَّا انْتَصَرَ
عَلَيْنَا الْأَلْمَانِيُّونَ ظَنَنَّا أَنَّ عِلَّةَ انْتِصَارِهِمْ تَقَدُّمُ مَدَارِسِهِمْ فَأَكْثَرْنَا
مِنْ مَوَادِّ التَّعْلِيمِ وَزِدْنَا عِدَدَ الْمَدَارِسِ وَبَدَلْنَا النَّفِيسَ حَتَّى أَصْبَحَتْ
أَمَا كُنُ التَّعْلِيمِ قُصُورًا عَالِيَةً وَتَمَّ الْإِهْتِمَامُ جَمِيعَ أَفْرَادِ الْأُمَّةِ ثُمَّ
صَيَّرْنَا التَّعْلِيمَ مَجْبَاطًا ثُمَّ إِجْبَارِيًّا عَلَى جَمِيعِ النَّاسِ ، فَدَخَلَ الْمَدْرَسَةَ
ابْنُ الْفَلَاحِ وَابْنُ الْحَضْرِيِّ ^(١) وَمَقْتَنَّا ^(٢) كُلٌّ مِنْ ارْتَابِ ^(٣) فِي نَفْعِهَا ،
وَكَانَتْ الْأَفْكَارُ مُتَّجِهَةً إِلَى تَقْلِيدِ الْأَلْمَانِيِّينَ فِي كُلِّ شَيْءٍ فَأَخَذْنَا
عَنْهُمْ نِظَامَهُمُ الْعَسْكَرِيَّ وَجَارَيْنَاهُمْ فِي أَسَالِبِ التَّعْلِيمِ وَطُرُقِ
التَّرْبِيَةِ وَعَلَّمَ أُصُولَ اللُّغَاتِ الَّتِي اشْتَهَرُوا فِيهِ بِتَعَمُّقِهِمْ وَسَفْسَاطَتِهِمْ ^(٤)
اعْتِقَادًا مِنَّا بِأَنَّهُ لَا تَقُومُ لَنَا قَاعَةٌ إِلَّا إِذَا تَعَلَّمَ أَطْفَالُنَا مُتُونَ اللُّغَةَ
اللاتينية ، هَكَذَا كَانَ رَأْيُ الْمُدْرَسِينَ وَفِي آثَرِهِمْ جَمِيعُ الْفَرَنْسَاوِيِّينَ .
وَلَمْ يَمُضْ زَمَنٌ طَوِيلٌ حَتَّى انْقَلَبَ هَذَا الْإِعْتِقَادُ وَقَالَ أَهْلُوهُ
إِنَّهُمْ كَانُوا فِي رَأْيِهِمْ مُخْطِئِينَ ، وَأَجْمَعُوا فِي الْبَلَدَيْنِ عَلَى عَدَمِ فَائِدَتِهِ كَمَا
كَانُوا عَلَى اسْتِحْسَانِهِ مِنْ قَبْلُ مُجْمِعِينَ .

أَمَّا عِنْدَنَا فَبَدَأَ الْمُتَأَمِّلُونَ يَهْمِسُونَ بِرَأْيِهِمْ فَأَمَّا وَضَحَ الْأَمْرُ جَهْرًا وَ

(١) الحضري: المقيم بالحواضر — المدن — (٢) مقتنا: أبغضنا (٣) شك
(٤) السفطة: قياس مركب من الوهميات الغرض منه تغليط الخصم واسكاته
كقولنا الجوهر موجود في الذهن وكل موجود في الذهن قائم بالذهن عرض لينتج
أن الجوهر عرض

بأن المدارس لم تأت بالفائدة التي كانت تُنتظرُ منها ، وأنَّ الأيَّ كُثَّارَ
 مِنْ مَوَادِّ التَّعْلِيمِ قَدْ أُوجِبَ ضَعْفَ المَعْلُومَاتِ ، وَأَنَّ عَدَدَ النَّاجِحِينَ
 فِي الامْتِحَانِ يَمِيلُ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى النُّقْصَانِ ، وَاشْتَشَهَدُوا بِالْوَقَائِعِ
 وَالْأَرْقَامِ ، وَقَالَ الْمُتَطَرِّفُونَ: إِنَّ تَوْسِيعَ نِطَاقِ المَدَارِسِ كَانَ سَبَبًا فِي
 كَثْرَةِ مَنْ لَا صِنَاعَةَ لَهُمْ وَمَنْ لَا قُدْرَةَ فِيهِمْ عَلَى العَمَلِ ، وَإِنَّ فِي ذَلِكَ
 خَطْرًا عَظِيمًا . وَصَدَرَتْ هَذِهِ الأَقْوَالُ فِي مَبْدَأِ الأَمْرِ عَنْ قَوْمٍ لِأَعْلَاقَةٍ
 لَهُمْ بِجَمَاعَةِ المَعْلَمِينَ وَرِجَالِ الحُكُومَةِ فَلَمْ يَلْتَفِتْ أَحَدٌ إِلَيْهَا وَظَنَّتْهَا
 النَّاسُ تَحَامُلًا عَلَى المَعْلَمِينَ ، وَمَا كَانَ إِلا قَلِيلٌ حَتَّى قَامَ رِجَالُ التَّعْلِيمِ
 فِي فِرَاسَاتِهِمْ الرُّؤْسَاءُ العِظَامُ كَوُزَرَءِ المَعَارِفِ وَرَفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ
 بِتِلْكَ الشَّكْوَى وَصَاحَ بَعْضُهُمْ فِي صَحْنِ مَدْرَسَةِ السُّرْبُونِ (١) أَنَّهُ
 لَا بُدَّ مِنْ إِدْخَالِ الإِصْلَاحِ عَلَى نِظَامِ التَّعْلِيمِ ، وَإِنَّ الحَالِ تَقْتَضِي
 التَّعْجِيلِ بِلَا مَهْلٍ ، وَلَوْ لَا أَنَّ الأَلْمَانِيَّيْنَ كَانُوا يَضِحُّونَ فِي بَرَّالَيْنِ
 عَاصِمَةٍ بِأَدِيمِ بِيئِلِ هَذِهِ الشَّكْوَى لَظَنَّ النَّاسُ أَنَّ صُرُوحَنَا مِنْ قَبِيلِ
 مَا عُرِفْنَا بِهِ مِنْ حُبِّ التَّغْيِيرِ وَسُرْعَةِ الإِنْتِقَالِ بَيْنَ حَدَيِ التَّفْرِيطِ
 وَالْإِفْرَاطِ ، وَنَاهِيكَ أَنَّ صَاحِبَ الشَّكْوَى الأَلْمَانِيَّةِ هُوَ الأَمِيرُ الحُورُ
 نَفْسُهُ ، وَكَانَتِ النَّتِيجَةُ أَنَّ اتَّفَقَ البَلَدَانِ عَلَى الجُهرِ بِأَنَّ نِظَامَ المَدْرَسَةِ

(١) هي أكبر مدرسة جامعة وفيها مركز الجمعية الكبرى للتعليم

لَمْ يَأْتِ بِمَا كَانَ يُنْتَظَرُ مِنْهُ بَعْدَ أَنْ كَانَا يُطْنَطِنَانِ (١) بِأَنَّهُ لَا فَضْلَ
فَوْقَ فَضْلِهِ .

وَلِإِفَادَةِ الْقُرَاءِ نَذَرُ لَهُمْ خِطَابَ إِمْبَرَاتُورِ أَلْمَانِيَا (٢) لِيَعْرِفُوا
السَّبَبَ فِي شَكْوَاهُ وَيَقْفُوا عَلَى الَّذِي يُرِيدُ مِنَ الْمَدَارِسِ فِي بِلَادِهِ ،
وَطَرِيقَةَ التَّعْلِيمِ الَّتِي يَمِيلُ إِلَيْهَا ، وَيَتَبَيَّنُوا إِنْ كَانَ فِي الْإِمْكَانِ
تَحْقِيقُ أَمَانِيهِ .

خَصَّ الْإِمْبَرَاتُورُ الْقِسْمَ الْأَوَّلَ مِنْ خِطَابِهِ بِشَرْحِ هَذِهِ الْجُمْلَةِ
« إِنَّ الْمَدَارِسَ لَمْ تُعْطِنَا مَا كُنَّا نَرْجُوهُ مِنْهَا » وَمِنْ رَأْيِهِ « أَنَّ الْمَدْرَسَةَ
لَمْ تَجْعَلْ فِي التَّعْلِيمِ نَفْسَهُ أَيْ فِي إِجْحَادِ الْمَعَارِفِ فِي الْأَذْهَانِ »
قَالَ « مَا كُنْتُ فِي احْتِيَاجٍ لِإِصْدَارِ الْأَمْرِ الَّذِي تَفَضَّلَ حَضْرَةَ
الْوَزِيرِ بِذِكْرِهِ لَوْلَا أَنَّ الْمَدَارِسَ لَمْ تَصِلْ إِلَى الدَّرَجَةِ اللَّائِقَةِ بِهَا ،
وَلِيَعْلَمَ عَنِّي أَيُّ مَا قَصَدْتُ بِالشَّدَّةِ وَاحِدًا مِنَ النَّاسِ ، وَلَسَكِنَّ
فِكْرِي مُوجَّهٌ إِلَى نِظَامِ التَّعْلِيمِ نَفْسِهِ ، وَأَقُولُ إِنَّ الْمَدْرَسَةَ لَمْ تَأْتِ
بِمَا كُنَّا نَنْتَظَرُهُ مِنْهَا ، وَسَبَبُهُ الْخَطَأُ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ ثُمَّ أَخَذَ يَنْدُدُ (٣)
بِالتَّعْلِيمِ وَبِالْمَوَادِّ الَّتِي يَجْرِي فِيهَا وَالطَّرِيقَةَ الْمُتَّبَعَةَ وَبَدَأَ بَفَنِّ تَعْلُمِ
اللُّغَاتِ الَّذِي كَانُوا يَبْنُونَ عَلَيْهِ أَمَّا لَأَكْثَرِ مُعْتَقِدِينَ أَنَّهُ سَيَصِيرُ

(١) الطنطنة : كثرة الكلام والتصويت به (٢) هو خطاب القاه الامبراطور غليوم الثاني
على جمعية المعارف الالمانية منذ سنوات (٣) يقال ندد بالرجل اذا شبر به وصرح بعبوبه

عَامًّا يَكُونُ مِنْ أَكْبَرِ الْأَسْبَابِ قِي تَضَلُّعِ^(١) الطَّلَبَةِ مِنْ عُلُومِ
الْأَدَبِ فَقَالَ: «إِنَّ الْأَمْرَ الْمُهِمَّ الَّذِي يَجِبُ الْإِلْتِفَاتُ إِلَيْهِ هُوَ أَنَّ
مُدْرِسِي اللُّغَةِ وَجَهْوِ اجْلِ اِهْتِمَامِهِمْ إِلَى مَادَّةِ التَّعْلِيمِ وَإِلَى التَّعْلِيمِ نَفْسِهِ
مُنْذُ سَنَةِ ١٨٧٠ لَسَكْنِهِمْ لَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَى تَرْبِيَةِ الْأَخْلَاقِ وَالنَّفُوسِ
عَلَى مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي هَذِهِ الْأَوْقَاتِ وَإِنَّكَ يَا حَضْرَةَ الْمُسْتَشَارِ هُنْزِيَّتْرَ —
وَأَسْأَلُكَ الْعَفْوَ فِيمَا أَقُولُ — مِنْ عُلَمَاءِ اللُّغَاتِ ذَوِي الْأَخْيَالِ ، غَيْرَ
أَنِّي أَرَى الْأَمْرَ وَصَلَ إِلَى حِدٍّ لَا يَجُوزُ أَنْ تَعْدَاهُ».

وَيَرَى الْقَارِئُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْأَمْبِرَاطُورَ شَدِيدَهُ عَلَى النِّظَامِ
اشْتِدَادَهُ عَلَى مَوْضُوعِ التَّعْلِيمِ وَهُوَ اللُّغَةُ اللَّاتِينِيَّةُ الَّتِي اعْتَبِرَتْ^(٢) إِلَى
الآنَ أَسَاسًا لِكُلِّ تَعْلِيمٍ فَإِنَّ الْأَلْمَانِيِّينَ يَفْتَخِرُونَ بِعُلَمَاءِ تِلْكَ اللُّغَةِ
مِنْهُمْ اِفْتِخَارَهُمْ بِعُلَمَاءِ اللُّغَاتِ الْأُخْرَى، وَقَدْ آوَانُ أَنْصَرَافِهِمْ عَنْ
هَذَا الْأَخْيَالِ قَالَ مَلِكُهُمْ: «مَيْكْتُرُ النَّاسُ أَيُّهَا السَّادَةُ مِنَ الْاِعْتِرَاضِ
فَيَقُولُونَ إِنَّ اللَّاتِينِيَّةَ لَأَزْمَةٌ لِتَعْوِيدِ الْمَرْءِ مُطَالَعَةَ اللُّغَاتِ
الْأَجْنَبِيَّةِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَقْوَالِ ، عَلَى أَنِّي أَيُّهَا السَّادَةُ كُنْتُ
أَيْضًا أَعْلَمُ اللَّاتِينِيَّةَ وَأَعْرِفُ كَيْفَ كَانَ يَكْتَبُ التَّمْلِيذُ دَرْسَهُ فِيهَا ،
كَانَ الْوَأَحِدُ مِنْنَا يَنْالُ الدَّرَجَةَ الرَّابِعَةَ فِي دَرْسِهِ الْأَلْمَانِيَّ وَهِيَ الدَّرَجَةُ

(١) هذا من قولهم شرب فلان حتى تضلع أى انتفخت أضلعه من كثرة الشرب
فتكون تضلع هنا استعارة والمراد امتلا من علوم الادب ويقال فلان مضطلع بهذا الامر
أى قوى عليه متمكن منه (٢) يريد عدت

الْمُتَوَسِّطَةُ فِي الْعَالِبِ وَيَنَالُ الدَّرَجَةَ الثَّانِيَةَ فِي اللُّغَةِ اللَّاتِينِيَّةِ وَهِيَ
 دَرَجَةٌ عَالٍ ، وَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ بِيَدِي لَعَاقَبْتُهُ بِدَلِّ الْمَدْحِ وَالشَّانِءِ ، إِذْ مِنْ
 الْوَاضِحِ أَنَّهُ لَيْسَ هُوَ الَّذِي كَتَبَ دَرْسَهُ اللَّاتِينِيَّ بِنَفْسِهِ بَلْ إِنَّهُ
 لَمْ يُوجَدْ وَاحِدٌ فِي الْإِثْنَيْ عَشَرَ كَتَبَ دَرْسَهُ بِغَيْرِ مُعِينٍ ، وَمَعَ ذَلِكَ
 كَانَتْ كُلُّهَا مَلْحُوظَةً بِعَيْنِ الْقَبُولِ وَالرِّضَا ، هَكَذَا كَانَ يَتَعَلَّمُ الشَّبَّانُ
 تِلْكَ اللُّغَةَ . عَلَى أَنَّهُ لَمَّا كُنَّا فِي الْمَدْرَسَةِ الْإِبْتِدَائِيَّةِ مَا كَانَ الْوَاحِدُ
 مِنْهَا يَنَالُ الدَّرَجَةَ الْمُتَوَسِّطَةَ فِي كِتَابَتِهِ عَلَى (مِينَا بَرْنِهلم) أَوْ عَلَى
 (لَيْسِنج) ^(١) إِلَّا بِالْمَشَقَّةِ وَالْعَنَاءِ ، لِهَذَا أَقُولُ: تَبَّا لِلدَّرْسِ ^(٢) اللَّاتِينِيِّ إِنَّهُ
 يُضَايِقُنَا وَيُضِيعُ عَلَيْنَا وَقَتْنَا »

ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى السِّكْلَامِ عَلَى خِيْبَةِ التَّعْلِيمِ مِنَ الْجِهَةِ الْعَمَلِيَّةِ أَعْنِي
 مِنْ جِهَةِ تَكْوِينِ الرِّجَالِ وَإِعْدَادِهِمْ لِلنَّجَاحِ ، وَهُوَ أَهْمُ قِسْمٍ فِي
 خِطَابِهِ ، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَإِنَّهُ تَوَسَّعَ فِيهِ كَثِيرًا وَكَانَ نَاطِرُ الْمَعَارِفِ
 شَرَحَ فِي خِطَابِهِ الْإِفْتِتَاحِيَّ فِكْرَةَ الْأُمْبِرَاطُورِ وَبَحَثَ فِيهَا إِذَا كَانَ
 يَنْبَغِي لِلأُمَّةِ الْأَلْمَانِيَّةِ « أَنْ تَبْتَنِي أُمَّةً تَفَكَّرُ ^(٣) وَتَصَوِّرَاتٍ تَبْحَثُ
 عَنْ رَاحَتِهَا فِي مُحْيَلَتِهَا مَعَ مَا حَصَلَ مِنَ التَّغْيِيرِ فِي حَالَةِ الْبُرُوسِيَا
 وَالْأَلْمَانِيَا » وَقَالَ بَأَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَعْذُ فِي الْإِمْكَانِ « إِذْ قَدْ اتَّجَهَتْ أَنْظَارُ

(١) اثنان من رجال الادب الالمانيين ولد الاخير سنة ١٧٢٩ وتوفي سنة ١٧٨١

(٢) قولهم: تبا له منصوب على المصدر بأضمار فعل أى أزره الله هلاكا وخسرانا

(٣) يريد تخيل

الأُمَّةِ إِلَى الْخَارِجِ بَلْ وَمَالَتْ إِلَى الْإِسْتِعْمَارِ « وَهُوَ قَوْلٌ وَاضِحٌ لَا إِيْهَامَ فِيهِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْغَرَضَ مُسَاعَدَةُ انْتِشَارِ الْأُمَّةِ الْأَلْمَانِيَّةِ وَإِعْدَادُ أَهْلِهَا إِلَى مُشَارَكَةِ الْأُمَّةِ الْأُورُوبِيَّةِ فِي الْإِسْتِيلَاءِ عَلَى الْعَالَمِ . لِذَلِكَ أَشَارَ الْوَزِيرُ إِلَى وَجُوبِ الْعُدُولِ عَنْ طَرِيقَةِ التَّعْلِيمِ فِي الْمَدَارِسِ الْعَالِيَةِ الْمُتَّبَعَةِ الْآنَ ، وَاشْتَدَّ الْأَمْبِرَاطُورُ فِي الْكَلَامِ عَلَى كَيْفِيَّةِ التَّعْلِيمِ فَقَالَ : « الْأَحْظُ أَوْلًا أَنَّ الْغَرَضَ مِنْ كَلَامِي تَوْجِيهُ الْأَفْكَارِ خَاصَّةً إِلَى طَرِيقَةِ التَّعْلِيمِ وَالتَّرْبِيَةِ الَّتِي يَجِبُ عَلَيْنَا اتِّبَاعَهَا فِي تَهْدِيَةِ شَبَابِنَا ^(١) حَتَّى تَكُونَ مُطَابِقَةً لِلضَّرُورَاتِ الْحَالِيَّةِ الَّتِي أَوْجَدْنَا فِيهَا مَرَكْزَنَا بَيْنَ الْأُمَّةِ وَقَادِرَةً عَلَى احْتِمَالِ مَتَاعِبِ التَّرَاحُمِ فِي الْحَيَاةِ . » هَاقِدٌ نَطَقَ الْأَمْبِرَاطُورُ بِمَا كَانَ مَكْتُوبًا يُرِيدُ إِعْدَادَ الْأَلْمَانِيِّينَ إِلَى التَّرَاحُمِ فِي الْحَيَاةِ وَجَعَلَهُمْ رِجَالَ عَمَلٍ قَادِرِينَ عَلَى التَّحْصِيلِ وَمُقَاوِمَةِ مُزَاحِمِيهِمْ مِنَ الْأُمَّةِ الْأَجْنِبِيَّةِ فِي الْبِلَادِ الْخَارِجِيَّةِ ، وَقَدْ أَخْفَقَتْ مَسَاعِي الْمَدَارِسِ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ لِأَنَّهُ لَا يُخْرَجُ مِنْهَا إِلَّا قَوْمٌ لَا حِرْفَةَ لَهُمْ أَوْ لَا أَهْلِيَّةَ فِيهِمْ ، أَوْ أَنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى غَيْرِ الْإِسْتِغَالِ بِتَحْرِيرِ الْجَرَائِدِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَنَّهُكَ الدَّرْسُ قُوَاهُ فَصَارَ أَعْشَى ^(٢) وَأَمْسَى ضَعِيفَ الْقَلْبِ فَاتَرَ الْعَزْمَ فِي أَيِّ عَمَلٍ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ ،

(١) يريد شابنا أما الشبية فصدر (٢) الاعشى : هو الذي لا يبصر بالليل ويصير

ذَلِكَ مَا صرَّحَ بِهِ الْأَمْبِرَاطُورُ فِي كَلَامِهِ . قَالَ مُبْتَدَأًا بِتَكْلِيفِ التَّلَامِذَةِ فِي التَّعْلِيمِ فَوْقَ طَاقَتِهِمْ مِمَّا أضعَفَ أَبْدَانَهُمْ وَحَطَّ مِنْ قُوَّةِ الْإِرَادَةِ فِيهِمْ مَا يَأْتِي : « وَإِذَا رَجَعْنَا إِلَى أَوْقَاتِ التَّعْلِيمِ رَأَيْنَا مِنَ الضَّرُورِيِّ تَغْيِيرِ سَاعَاتِ الْعَمَلِ الَّذِي يُكَلِّفُهُ التَّلْمِيزُ فِي بَيْتِهِ إِذْ يَذْكُرُ حَضْرَةَ الْمُسْتَشَارِ (هِينزِيتر) أَنَّ شَكْوَى الْعَائِلَاتِ وَعَدَمَ رِضَاهُمْ عَنِ الطَّرِيقَةِ الْمُتَّبَعَةِ الْآنَ مَوْجُودَانِ مُنْذُ كُنْتُ أَنَا بِمَدْرَسَةِ (كَاسْتِيل) الْإِبْتِدَائِيَّةِ ، وَأَنَّ تِلْكَ الشَّكْوَى بَلَغَتْ مَسَامِعَ الْحُكُومَةِ فَأَمَرَتْ بِتَحْقِيقِهَا وَتَبَيَّنَ مِنْهَا أَنَّهُ كَانَ يَجِبُ عَلَى كُلِّ تَلْمِيزٍ أَنْ يُقَدِّمَ لِنَاطِرِ مَدْرَسَتِهِ فِي كُلِّ صَبَاحٍ شَهَادَةَ بِمَقْدَارِ السَّاعَاتِ الَّتِي قَضَاهَا فِي تَحْضِيرِ دُرُوسِ الْيَوْمِ الثَّانِي بِمَنْزِلِهِ ، أَمَا أَنَا فَكُنْتُ أَشْتَغَلُ سَبْعَ سَاعَاتٍ كَمَا يَشْهَدُ بِهِ حَضْرَةُ الْمُسْتَشَارِ ، يُضَافُ إِلَيْهَا سِتُّ سَاعَاتٍ فِي الْمَدْرَسَةِ وَسَاعَتَانِ فِي الْأَكْلِ وَالْبَاقِي مِنَ الْيَوْمِ مَعْلُومٌ . »

وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ تَكْلِيفٌ شَدِيدٌ لَمْ يَنْبَغِ الْإِمْبِرَاطُورُ مِنْ ضَرَرِهِ إِلَّا بِاسْتِعْمَالِ طُرُقٍ لَا تَتَيْسَّرُ لِجَمِيعِ النَّاسِ . كَمَا قَالَ : « لَوْ لَا أَنِّي كُنْتُ أَرْكَبُ جَوَادِي وَأَنْطَلِقُ حُرًّا فِي غَيْرِ الْأَوْقَاتِ لَمَا عَرَفْتُ شَيْئًا مِنْ أَحْوَالِ الدُّنْيَا . »

نَعَمْ رُكُوبُ الْخَيْلِ يُخَفِّفُ ضَرَرَ الْإِفْرَاطِ فِي الدَّرْسِ وَلَكِنَّهُ

لَا يَكْفِي مَعْرِفَةَ أَحْوَالِ الدُّنْيَا». وَمَهْمَا كَانَ فِي قَوْلِهِ مِنْ مَوَاضِعِ
الِإِنْتِقَادِ فَإِنَّهُ أَصَابَ مَنْشَأَ الضَّرَرِ وَحَثَّ عَلَى وُجُوبِ تَلَاْفِيهِ فَقَالَ :
« وَأَرَى مِنْ الْوَاجِبِ مُدَاوَاةَ هَذَا الدَّاءِ فَقَدْ بَلَغَ السَّيْلُ الزُّبِّيَ ^(١)
أَيْهَا السَّادَةُ وَلَا قِبَلَ لَنَا بِتَرْكِ الْحَالِ كَمَا هِيَ إِذْ جَاوَزْنَا الْحَدَّ
الَّذِي يَنْبَغِي لَنَا الْوُقُوفُ عِنْدَهُ وَأَتَتْ الْمَدَارِسُ بِمَا هُوَ فَوْقَ طَاقَةِ
البَشَرِ وَتَخَرَّجَ مِنْهَا مِنَ الْمُسْتَنْبِرِينَ مَنْ زَادَ عَلَى الْمَطْلُوبِ زِيَادَةً
لَا تَحْتَمِلُهَا الْأُمَّةُ وَلَا تُطِيقُهَا الْأَفْرَادُ ». هَذَا كَلَامٌ مُخَالِفٌ رَأَى
الَّذِينَ يَزِنُونَ عَظَمَةَ الْأُمَّمِ وَقُوَّتَهَا بِقَدْرِ عَدَدِ الْمُسْتَنْبِرِينَ مِنْ رِجَالِهَا.
قال الامبراطور : « وَقَدْ أَصَابَ الْبِرْنَسُ بِسِمَارِكُ فِي قَوْلِهِ إِنَّ لَنَا مِنْ
حَائِزِي الشَّهَادَاتِ صَعَالِيكَ ^(٢) ، لِأَنَّ السَّوَادَ الْأَعْظَمَ مِمَّنْ رَشَّحَهُمُ
الْجُوعُ - وَعَلَى الْخُصُوصِ حَضْرَاتِ أَرْبَابِ الْجَبَرِ أَيْدٍ - مِنْ مُتَخَرِّجِي
الْمَدَارِسِ الَّذِينَ لَمْ يُفْلِحُوا ». أَمَا قَوْلُهُ : « مِمَّنْ رَشَّحَهُمُ الْجُوعُ » فَجَافٌ
وَأَمَا قَوْلُهُ : « لَمْ يَنْجَحُوا » فَصَوَابٌ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ . قَالَ :
« وَفِي هَذَا مِنَ الْخَطَرِ مَا لَا يَخْفَى ، لِأَنَّ هَذَا الْإِفْرَاطَ الَّذِي بَلَغَ حَدَّهُ
قَدْ جَعَلَ بِلَادَنَا شَبِيهَةً بِأَرْضِ غَصْتِ ^(٣) بِالْمِيَاهِ فَلَمْ تُعَدَّ تَحْتَمِلِ السَّقَى

(١) الزبني: جمع زبية وهي الراية التي لا يعلوها الماء، وقولهم بلغ السيل الزبي أو الزبني،

مثل بلغت الروح التراقي. مثل يراد به بلغ الأمر أشده (٢) الصعلوك الفقير

(٣) غصت: امتلأت

مِنْ جَدِيدٍ ، لِذَلِكَ لَنْ أَسْمَحَ مِنْ الْآنَ بِزِيَادَةِ عَدَدِ الْمَدَارِسِ الْعَالِيَةِ إِلَّا إِذَا قَامَ الدَّلِيلُ عَلَى ضَرُورَةِ تِلْكَ الزِّيَادَةِ ، أَمَا الْآنَ فَعِنْدَنَا مِنْهَا عَدَدٌ يَكْفِينَا . وَهَذَا الْقَوْلُ أَيْضًا يُخَالِفُ رَأْيَ الَّذِينَ يَزِنُونَ عَظَمَةَ الْأُمَّمِ وَقُوَّتَهَا بِقَدْرِ عَدَدِ مَدَارِسِهَا . وَمِمَّا هُوَ جَدِيرٌ بِالنَّظَرِ أَنَّ الَّذِي يُقِيمُ هَذِهِ الْقِيَامَةَ عَلَى الْمَدَارِسِ لَيْسَ مُتَبَرِّرًا وَلَا جَهُولًا خَرَجَ مِنْ غَابِلَاتِ جَرْمَانِيَا ، بَلْ هُوَ ثَمَرَةٌ مِنْ ثَمَارِ أَكْبَرِ تَقَدُّمٍ وَصَلَتْ إِلَيْهِ الْمَدَارِسُ فِي الدُّنْيَا وَنَاشَى فِي الْبِلَادِ الْأَلْمَانِيَةِ الَّتِي اشْتَهَرَتْ بِالْإِجْتِهَادِ وَالتَّمَكُّنِ مِنَ الْعُلُومِ وَالتَّعَمُّقِ فِيهَا .

رَدَّدَ الْإِمْبْرَاطُورُ الْكَلَامَ فِي آخِرِ خِطَابِهِ عَلَى مَضَارِّ طَرِيقَةِ التَّعْلِيمِ الْحَالِيَةِ بِأَجْسَامِ التَّلَامِيذَةِ فَقَالَ : « وَمَا الَّذِي نَرَجُوهُ مِنْ رَجُلٍ لَا يَرَى الْأَشْيَاءَ بِعَيْنِيهِ ؟ فَقَدْ قَلَّ الْإِبْصَارُ بَيْنَ تَلَامِيذَةِ الْمَدَارِسِ حَتَّى بَلَغَ الْأَعْشُونَ مِنْهُمْ أَرْبَعًا وَسَبْعِينَ فِي كُلِّ مِائَةٍ ، وَمَعَ أَنَّ غُرْفَ التَّدْرِيسِ فِي مَدْرَسَةِ كَاسِيلٍ — مُذْ كُنْتُ فِيهَا — كَانَتْ نَقِيَّةَ الْهَوَاءِ إِجَابَةً لِرَغْبَةِ وَالِدَتِي ؛ وَلَمْ يَزِدْ عَدَدُنَا عَلَى وَاحِدٍ وَعَشْرِينَ تَلْمِيذًا كَانَ مِنْهَا ثَمَانِيَةَ عَشَرَ يَلْبَسُونَ الْعِيُونَ الصِّنَاعِيَّةَ (نَظَارَاتٍ) وَقَدْ تَوَلَّانِي الْفَزَعُ مِنْ ذَلِكَ ، وَأَوْكُدُ لَكُمْ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْعَائِلَاتِ قَدَّمَتْ عَرَائِضَ لَا تُحْصَى شَاكِيَةً مِنْ تِلْكَ الْحَالِ وَرَاجِيَةً تَوْجِيهَ أَنْظَارِي إِلَيْهَا ، وَلَمَّا كَانَ أَمْرُ ذَلِكَ رَاجِعًا إِلَيَّ لِأَنِّي أَبُو الْوَطَنِ

فَمِنَ الْوَاجِبِ عَلَىَّ أَنْ أُعْلِنَ النَّاسَ بِأَنَّ تِلْكَ الْحَالَةَ لَنْ تَدُومَ .
 أَيُّهَا السَّادَةُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَنْظُرَ النَّاسُ إِلَى الدُّنْيَا بِعُيُونِ مِنَ الزُّجَّاجِ
 بَلْ بِأَعْيُنِهِمُ الطَّبِيعِيَّةِ ، وَأَنَا أَعِدُّكُمْ بِأَنِّي سَأُوجِّهُ الْأَفْكَارَ
 نَحْوَ مَا ذُكِرَ .»

وَالَّذِي يَتَلَخَّصُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ أَنَّ الْمَدَارِسَ لَمْ تَنْجَحْ فِي
 التَّعْلِيمِ الْعَمَلِيِّ كَمَا حَبِطَتْ مَسَاعِيهَا مِنَ الْجِهَةِ الْعَمَلِيَّةِ .
 ثُمَّ إِنَّهَا لَمْ تَأْتِ بِالْمُرَادِ أَيْضًا مِنْ جِهَةٍ ثَالِثَةٍ وَهِيَ الْجِهَةُ السِّيَاسِيَّةُ
 وَهِيَ أَهْمُ الْجِهَاتِ الَّتِي تَلَامُ عَلَى النَّقْصِ فِيهَا ، إِذْ لَا يَخْفَى أَنَّهُ كَانَ
 يَنْظُرُ مِنَ الْمَدَارِسِ تَوْجِيهَ أَفْكَارِ الشُّبَّانِ إِلَى الْخُطَّةِ السِّيَاسِيَّةِ الْمَطْلُوبَةِ ،
 وَهَذَا الْأَمَلُ هُوَ الَّذِي مَالَ بِالْأَحْزَابِ عُمُومًا وَالْحُكُومَاتِ خُصُوصًا
 إِلَى رِيَاسَةِ الْمَدَارِسِ وَالْقَبْضِ عَلَى زِمَامِ التَّعْلِيمِ فِيهَا لِاعْتِقَادِ الْكُلِّ
 يَقِينًا أَنَّهَا أَنْجَحُ الْوَسَائِلِ فِي الْوُصُولِ إِلَى الْغَرَضِ الْمَقْصُودِ فَلَا
 يَخْتَلِفُ فِي ذَلِكَ اثْنَانِ ، تِلْكَ هِيَ الْعِلَّةُ فِي اشْتِدَادِ انْخِصَامِ بَيْنَ
 الْأَحْزَابِ عَلَى الْمَدَارِسِ وَطُرُقِ التَّعْلِيمِ فِيهَا وَمَا يَجِبُ تَعْلِيمُهُ حَتَّى
 صَارَتْ فِي الْبَلَدَيْنِ - فِرَنْسَا وَالْمَانِيَا - مِنْ أَهْمِ الْوَسَائِلِ الَّتِي تُسْتَعْمَلُ لِلْفَوْزِ
 فِي الْإِتِّخَابَاتِ ، وَقَدْ كَثُرَ اخْتِلَافُ الْأَحْزَابِ عَلَى قَوَائِدِهَا حَتَّى
 سَنَّتْ كُلُّ بَلَدٍ قَانُونًا مَخْصُوصًا تَحَرَّتْ فِيهِ حُكُومَتُهَا تَأْيِيدَ النِّظَامِ
 الَّذِي يُوَافِقُ مَصْلَحَتَهَا فَأَصْبَحَتْ فِي يَدِ الْحُكُومَةِ تُقَلِّبُهَا كَيْفَ تَشَاءُ

وَلَعِبَ الْإِمْبِرَاطُورُ بِالْمَدَارِسِ الْأَلْمَانِيَّةِ كَمَا لَعَبْنَا بِالْمَدَارِسِ الْفَرَنْسَاوِيَّةِ
مِنْ غَيْرِ مُعَارِضٍ وَلَا مُنَازِعٍ .

وَمِنْ الْمُسْتَعْرَبَاتِ بَعْدَ هَذَا أَنَّ يَقُولَ الْإِمْبِرَاطُورُ نَفْسَهُ الْيَوْمَ :
إِنَّ الْمَدَارِسَ لَمْ تَأْتِ بِمَا كَانَ يَنْتَظَرُهُ مِنْهَا سِيَاسِيًّا وَهُوَ أَعْلَمُ مِنْ غَيْرِهِ
بِمَا يَقُولُ .

وَلَقَدْ بَدَأَ رِجَالُ السِّيَاسَةِ عِنْدَنَا يَقُولُونَ مِثْلَ ذَلِكَ الْقَوْلِ لِأَنَّ
عَدَدًا غَيْرَ قَلِيلٍ مِنَ الْأَعْلِيَّةِ ، وَهُوَ الْأَكْثَرُ فِطْنَةً وَذَكَاءً ، يُجَاهِرُونَ
بِأَنَّهُمْ لَمْ يَسْتَفِيدُوا مِنَ الْمَدَارِسِ مَا كَانُوا يَرْجُونَ ، وَيُشِيرُونَ بِالْعُدُولِ
عَنْهَا وَيُلَاحِظُونَ أَنَّ عَدَدَ الَّذِينَ نَفَرُوا مِنْهُمْ بِسَبَبِ الْقَوَانِينِ الَّتِي
سَنَوَهَا لَهَا أَكْثَرُ مِنَ الَّذِينَ اسْتَمَالُوهُمْ بِوِاسِطَتِهَا .

ثُمَّ أَفْصَحَ الْإِمْبِرَاطُورُ عَنِ الَّذِي كَانَ يَرْجُوهُ مِنَ الْمَدَارِسِ
سِيَاسِيًّا فَقَالَ : « وَلَوْ أَتَتِ الْمَدَارِسُ بِالْفَائِدَةِ الْمُتَقَوِّدَةِ مِنْهَا لَقَاوَمْتُ
أَحْزَابَ الْجُمْهُورِيَّةِ ، أَقُولُ هَذَا عَنْ خُبْرَةٍ وَعِلْمٍ لِأَنِّي كُنْتُ
فِي الْمَدَارِسِ وَعَالِمٌ بِمَا يَجْرِي فِيهَا » . وَقَوْلُهُ هَذَا يُطَابِقُ قَوْلَ الْفِئْتَةِ
الْقَلِيلَةِ فِي مَجْلِسِ النَّوَابِ الْفَرَنْسَاوِيِّ بِالتَّمَامِ أَيَّامَ كَانَ الْأَمْرُ بِيَدِهَا
فِي الْبِلَادِ ، وَيُطَابِقُ أَيْضًا قَوْلَ الْأَعْلِيَّةِ الْحَاضِرَةِ لِأَنَّهَا كَانَتْ تَرَى وَجُوبَ
الِاسْتِظْهَارِ^(١) عَلَى الْحِزْبَيْنِ الْمُلُوكِيِّ وَالِدِّيْنِيِّ بِوِاسِطَةِ الْمَدَارِسِ . وَهَذِهِ

(١) يقال ظهر على فلان أى غلبه وأظهره الله على عدوه .

المطابقة تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْأَفْكَارَ وَاحِدَةً فِي الْجِهَتَيْنِ وَصِيغُ الْقَوْلِ مُتَّحِدَةٌ،
وَالْغَرَضُ وَاحِدٌ هُوَ اتِّخَاذُ الْمَدَارِسِ سُلْطَةً لِلتَّسَلُّطِ السِّيَاسِيِّ . وَلَنَرَجِعُ
إِلَى خِطَابِ الْأَمِيرِ أَطُورٍ لِنَتَبَّيْنُ حَقِيقَةَ مُرَادِهِ ، قَالَ : « كَانِ مِنَ الْوَاجِبِ
عَلَى الْمَدَارِسِ أَنْ تَلْتَفِتَ إِلَى الْمَطْلُوبِ مِنْهَا كَمَا يَنْبَغِي فَتَنْشُرَ فِي الْأُمَّةِ
تَعْلِيمًا يَجْعَلُ الشَّبَانَ الَّذِينَ مِنْ سِنِّي ، أَيْ الَّذِينَ قَارَبُوا الثَّلَاثِينَ ، عَلَى
صِفَاتٍ تُسَهِّلُ لَهُمْ أَنْ يَهَيِّئُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ مَا أَنَا مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ مِنَ الْمَعْدَّاتِ
وَالْوَسَائِلِ فِي خِدْمَةِ الدَّوْلَةِ فَاتَمَكَّنْ مِنَ الْإِشْرَافِ عَلَى حَرَكَةِ
الْبِلَادِ فِي وَقْتٍ قَرِيبٍ » . وَالْحَقُّ يُقَالُ إِنَّ الْمَلِكَ لَمْ يَسْلُكْ فِي خِطَابِهِ
سَبِيلَ الْإِيهَامِ بَلْ قَوْلُهُ وَاصِحٌ صَرِيحٌ ، يُرِيدُ أَنْ تُعَدِّلَهُ الْمَدَارِسُ
عُمَالًا وَأَعْوَانًا يَتَمَكَّنُ بِهِمْ مِنَ الْإِسْتِيلَاءِ عَلَى زِمَامِ الْحَرَكَةِ فِي بِلَادِهِ .
هَذَا هُوَ رَأْيُهُ فِي التَّعْلِيمِ ، وَهَذَا هُوَ الشَّأْنُ الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ
لِلْمَدَارِسِ ، وَلَيْسَ لَنَا أَنْ نَبْحَثَ فِيمَا إِذَا كَانَ رَأْيُهُ مَقْبُولًا عِنْدَ الْمُدْرَسِينَ
وَالْعَائِلَاتِ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ . ثُمَّ أَشَارَ إِلَى أَنَّ الْمَدَارِسَ لَمْ تَقُمْ بِالْوَاجِبِ
فَقَالَ : « وَلَمْ تَأْتِ الْمَدَارِسُ بِمَا ذُكِرَ وَلَيْسَ مِنْ زَمَنِ نَجَحَتْ فِيهِ
مَدَارِسُنَا فِي جَمِيعِ أَدْوَارِ حَيَاتِنَا الْوَطَنِيَّةِ وَسَاعَدَتْ عَلَى تَقْدُمِنَا إِلَّا
سَنَةَ ١٨٦٤ وَسَنَةَ ١٨٦٦ وَسَنَةَ ١٨٧٠ فِي ذَلِكَ الْحِينِ كَانَتْ الْمَدَارِسُ
الْبُرُوسِيَّاتِيَّةُ وَالْمَكَاتِبُ مَوْدِعَ فِكْرِ الْوَحْدَةِ الْأَلْمَانِيَّةِ ثُمَّ سَرَى هَذَا
الْفِكْرُ مِنْهَا فِي جَمِيعِ النَّاسِ وَشَخَّصَ الْكُلُّ إِلَى غَرَضٍ وَاحِدٍ هُوَ إِعَادَةُ

الإمبراطورية الألمانية واسترداد بلاد الأناضول واللورين، غير أن تلك الحركة بطلت من سنة ١٨٧١ لما أعيدت الإمبراطورية ونلنا ما كنا نرجوه فوقنا عنده وكان من اللازم علينا الآن أن نعلم الشبان طريق المحافظة على ما كسبنا، ولكننا لم نعمل شيئاً بل أخذت الأفكار منذ حين تتحول عن هذا المبدأ. أقول هذا لأنني في مركز يمكنني من النظر فيه وقد اشتغلت به وعلمت أنه ناشئ عن التربية. ثم بحث الإمبراطور عن السبب في ذلك وقال إنه ناشئ من طرق التعليم ومواده وشدد النكير، كما تقدم ذكره، على أحزاب اللغات — وبالأخص اللغة اللاتينية فوجه قوارص الكلام إلى المدارس — الذين يقولون بأن وظيفة المدرسة إنما هي تدريب العقول: وأردف تعنيفه بقوله، «وليس من الممكن أن يستمر العمل على هذا المنوال» ولو التفتنا إلى أن الإمبراطور أمير يروسياني ساد قومه بقوة السلاح وأن أمة البروسيا لم تتوصل إلى ابتلاع ألمانيا كلها وتنظيم القوة العسكرية التي بيدها الأمر في (برلين) بواسطة ذلك التدريب العقلي، وأنه لا يكفيتها وحده في حفظ ما نالته، حكمنا بأن الإمبراطور مُصِيب في قوله وسأمننا له اعتباراً تدريب العقول آلة ضعيفة في الحكم والسيادة وجاريناه في أن المدارس لم تعطه ما كان يرجوه منها سياسياً

كَمَا خَابَتْ مِنَ الْجَهْتَيْنِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ .

وَعَلَى هَذَا يَكُونُ الْإِخْفَاقُ ^(١) فِي الْمَدَارِسِ حَاصِلًا مِنْ جَمِيعِ
الْوُجُوهِ وَلَا بُدَّ مِنْ إِصْلَاحِ هَذِهِ الْحَالِ ، فَأَلِمْ بِرِاطُورٍ مُصَمَّمٍ عَلَى
ذَلِكَ وَمِنَ الْوَاجِبِ أَنْ تَنْثَنِي ^(٢) بِجَمِيعِ الْإِرَادَاتِ أَمَامَ إِرَادَتِهِ
لِأَنَّهُ الْمَلِكُ .

فَأَمَّا رَأْيُهُ فِي إِصْلَاحِ التَّعْلِيمِ مِنْ الْجِهَةِ الْعِلْمِيَّةِ فَبَسِيطٌ يَرْجِعُ
إِلَى إِبْطَالِ اللُّغَةِ اللَّاتِينِيَّةِ مِنْ جَمِيعِ الْمَدَارِسِ إِلَّا الْخُصُوصِيَّةَ ، وَهِيَ الَّتِي
لَا يَمِيلُ إِلَى الْإِكْثَارِ مِنْهَا ، لِقَوْلِهِ : « لَنْ أَسْمَحَ مِنَ الْآنَ بِزِيَادَةِ
عَدَدِ الْمَدَارِسِ الْعَالِيَةِ إِلَّا إِذَا قَامَ الدَّلِيلُ عَلَى ضَرُورَةِ تِلْكَ الزِّيَادَةِ
أَمَّا الْآنَ فَعِنْدَنَا مِنْهَا عَدَدٌ يَكْفِينَا » . وَالْمَدَارِسُ الْخُصُوصِيَّةُ هِيَ الَّتِي
يَتَعَلَّمُ فِيهَا أَبْنَاءُ الطَّبَقَةِ الْعَالِيَةِ فِي الْأُمَّةِ أَوِ الْمُدْرَسُونَ ، وَرَغْبَتُهُ
فِي إِبْطَالِ اللُّغَةِ اللَّاتِينِيَّةِ صَرِيحَةٌ لَا تَقْبَلُ التَّأْوِيلَ كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ :
« تَبَا لِلدَّرْسِ اللَّاتِينِيِّ إِنَّهُ يُضَايِقُنَا وَيُضِيعُ عَلَيْنَا وَقَتْنَا ، وَمِنَ الْوَاجِبِ
أَنْ نَبْحَثَ لِلتَّعْلِيمِ عَنْ أَسَاسٍ غَيْرِ هَذَا الْأَسَاسِ الَّذِي عَاشَ عِدَّةَ
قُرُونٍ ، لِأَنَّهُ إِنَّمَا كَانَ يُفِيدُ فِي تَعْلِيمِ الْقُسُوسِ وَالرُّهْبَانِ أَيَّامَ الْقُرُونِ
الْوَسْطَى مَعَ قَلِيلٍ مِنَ اللُّغَةِ الْيُونَانِيَّةِ » .

وَلَيْسَ مِنْ غَرَضِنَا أَنْ نُطِيلَ الْقَوْلَ فِي اللُّغَةِ اللَّاتِينِيَّةِ وَكَوْنِهَا

(١) عدم النجاح (٢) ثقتي تمنعط وتنهزم

لأزمنة في المدارس أم لا ، وفي استحسان الطريقة المتبعة في تعليمها
 أو تقييحها وكونها لا تنتج فائدة كبرى وانهم أفرطوا فيها إلى حد
 يستغرق من الزمن ما يزيد على الحد الذي لا ينبغي ، ونكتفي
 هنا بأن نلاحظ للقراء أن الإصلاح الذي يقصده الإمبراطور
 سلبى مرجعه حذف شيء موجود في المدارس الآن .

وأما رأيه في الإصلاح من الجهة العملية فعلى خلاف ما تقدم
 وهو الذي وجه إليه كل اهتمامه لأنه يريد تربية الشبان على
 المبادئ التي تمكنهم من احتمال متاعب التزاحم في الحياة
 وتساعد على انتشار الأمة الألمانية في أنحاء المسكونة وتعينها على
 أن تسبق في ذلك الأمم المنتشرة في الدنيا . وبالجملة فإنه يريد
 تربية العقل على العمل والاجتهاد حتى يكون المتخرج من المدارس
 عالماً بما يجري في الوجود . وقد تقدم أن الإمبراطور آسف على كونه
 لم يصل إلى معرفة ذلك إلا وهو راكب جواده .

أما الطريقة التي يراها لازمة للوصول إلى غايته فمما لا يخطر
 على بال أحد . ومثله في رأيه مثل رجل يحاول تعليم الطفل المشي
 فيشد ساقيه شداً متيناً ؛ أو كالذي يريد أن يطلع تلميذه على
 مشاهد الكون كلها فيجسسه في مكان ضيق مسدود المنافذ بحيث
 لا تبصر عيناه من خارجه شيئاً ، فلا فرق بين هذين المعلمين في
 تعليمهما وبين الإمبراطور فيما يريده من النظام لمدارسه وهو من

المُسْتَعْرَبَاتِ . لَكِنْ ، حَتَّى أَكُونَ صَادِقًا فِيمَا أَقُولُ ، أَذْكَرُ لِلْقُرَاءِ نَصَّ
عِبَارَتِهِ فِي هَذَا الْمَطْلَبِ . قَالَ : « يَجِبُ أَنْ تَكُونَ اللُّغَةُ الْأَلْمَانِيَّةُ هِيَ
الْأَسَاسَ لِجَمِيعِ التَّعَالِيمِ الْأُخْرَى ، وَمَتَى نَجَحَ التَّلَامِيذَةُ فِي امْتِحَانِهَا
التَّحْرِيرِيِّ كَانَ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى ذِكَائِهِمْ وَمِقْدَارِ اسْتِعْدَادِهِمْ . أَمَّا
تَعَلُّمُ اللُّغَةِ اللَّاتِينِيَّةِ فَإِنَّهُ يُضَيِّعُ عَلَيْنَا مِنَ الْوَقْتِ مَا نَحْنُ مُحْتَاجُونَ
إِلَيْهِ مِنَ اللُّغَةِ الْأَلْمَانِيَّةِ »

وَلِيُلاحِظَ أَنَّ الْأَمْبِرَاطُورَ لَا يُرِيدُ بِهَذَا تَعْلِيمَ الْأَلْمَانِيِّينَ لِعَتَمِهِمْ
الْأَلْمَانِيَّةَ فَقَطْ بَلْ هُوَ يُرِيدُ أَلَّا يَتَعَلَّمَ الْأَلْمَانِيُّونَ شَيْئًا إِلَّا مَا كَانَ
أَلْمَانِيًّا حَتَّى لَا يَدْخُلَ بَيْنَهُمْ شَيْءٌ أَعْجَبِيٌّ مِنْ أَىِّ نَوْعٍ كَانَ ، قَالَ :
« وَلَقَدْ يُفْرِحُنِي أَنْ لَوْ اسْتَعْمَلْنَا كَلِمَةَ الْأَلْمَانِيَّةِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى مُدَاوَلَاتِنَا
هَذِهِ بِشَأْنِ الْمَدَارِسِ بَدَلِ الْكَلِمَةِ الْفَرَنْسَاوِيَّةِ الَّتِي نَسْتَعْمِلُهَا الْآنَ
فَلَنَقْتَصِرَ عَلَى اللَّفْظِ الْأَلْمَانِيِّ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْنَا » . وَلَقَدْ يُحْمَلُ هَذَا الْعِدَاءُ
حَتَّى فِي الْأَلْفَاظِ عَلَى شِدَّةِ وَطَنِيَّةِ الْأَمْبِرَاطُورِ .

ثُمَّ إِنَّهُ أَفْصَحَ عَنْ غَرَضِهِ مِنَ الْمَدَارِسِ بِقَوْلِهِ : « إِنِّي أُرِيدُ أَنْ
يَعْرِفَ الْأَلْمَانِيُّونَ تَارِيخَ بِلَدَانَا وَخُطَطِهَا وَقِصَصَهَا مَعْرِفَةً حَقِيقِيَّةً
إِذْ يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَبْتَدِيَ بِمَعْرِفَةِ الدَّارِ الَّتِي نَسْكُنُهَا » ، وَالدَّارُ الَّتِي يَعْنِيهَا
لَيْسَتْ الْبِلَادُ الْأَلْمَانِيَّةُ الْمَعْرُوفَةُ مِنْذُ الْقِدَمِ بَلْ هِيَ الدَّارُ الَّتِي شَادَهَا
مُلُوكُ الْبُرُوسِيَا وَضَمُّوا إِلَيْهَا ، طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ، جَمِيعَ الْأُمَّةِ الْأَلْمَانِيَّةِ .

وَعَلَيْهِ فَالتَّارِيخُ الَّذِي يُشِيرُ إِلَيْهِ هُوَ تَارِيخُ الزَّمَنِ الَّذِي نَهَضَتْ فِيهِ
 الأُمَّةُ البرُوسِيَانِيَّةُ فَأَدْخَلَتْ تَحْتَ سُلْطَنَتِهَا رُويِدًا رُويِدًا جَمِيعَ البِلَادِ
 الأَلْمَانِيَّةِ حَتَّى يَتَسَرَّرَ للشَّبَّانِ الَّذِينَ يَتَلَقَّوْنَهُ أَنْ يَتَرَ بَوًا مُنذُ نُعُومَةٍ
 أَظْفَارِهِمْ^(١) عَلَى مَحَبَّةِ النِّظَامِ الحَالِيِّ وَالإِعْجَابِ بِهِ . هَذَا هُوَ مُرَادُ
 الإِمْبَرِ أَطُورِ كَمَا صرَّحَ بِهِ فِي قَوْلِهِ : « لَمَّا كُنْتُ فِي المَدْرَسَةِ مَا كَانَ
 التَّلَامِيذَةُ يَذْكُرُونَ (المُنْتخَبَ الكَبِيرَ) إِلاَّ كَالْحِيَالِ وَلَمْ يَكُنْ
 الحَرْبُ السَّبْعَ السِّنِينَ ذِكْرًا فِي دَرَسِ التَّارِيخِ كَمَا أَهْمَلَتْ حَرْبُ سَنَةِ ١٨١٣
 مَعَ أَنَّ مَعْرِفَتَهَا لَازِمَةٌ لِكُلِّ شَابِّ المَانِيِّ ، وَلَوْ لَ الدَّرُوسِ الخُصُوصِيَّةُ
 خَارِجَ المَدْرَسَةِ لَمَّا عَرَفْتُ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ، إِلى أَنْ قَالَ : « مَعَ أَنَّ فِي
 تَعَلِيمِ ذَلِكَ أَهْمِيَّةٌ عَظْمَى وَلَا مُوجِبَ لِلتَّضْلِيلِ عَلَى شَبَّانِنَا بِتَوَجِيهِ
 المَلَامِ إِلَى حُكُومَتِنَا وَالإِعْجَابِ بِمَا عِنْدَ الأَجْنَبِيِّ » .

هَذَا غَايَةٌ فِي الصَّرَاحَةِ فَيُحْرَزُهُ السَّامِعُونَ^(٢) يُرِيدُ الإِمْبَرِ أَطُورُ
 إِلاَّ تَشْتَغَلَ أَفْكَارُ أُمَّتِهِ بِأَجْنَبِيِّ عَنْهَا فَلَا تَعْرِفُ مَا يَجْرِي فِي البِلَادِ
 الأُخْرَى وَأَنْ تَصِيرَ مُعْجَبَةً بِالْحُودِثِ الَّتِي أَوْجَدَتْ وَحَدَّةَ المَانِيَا
 إِذْ هِيَ الأَمْرُ المُهِمُّ ، وَبِهَذَا التَّضْيِيقِ عَلَى الأَفْكَارِ يَنْقَطِعُ التَّنْذِيدُ
 بِالحُكُومَةِ وَتَتَغَيَّرُ أَفْكَارُ الشَّبَّانِ فِي الزَّمَنِ الحَاضِرِ إِلى أَحْسَنِ مَنِهَا
 كَمَا يَشَاءُ الإِمْبَرِ أَطُورُ . وَلَا شُبُهَةٌ فِي أَنَّ أَفْكَارَهُمْ تَتَغَيَّرُ إِذَا لَمْ يَتَعَلَّمُوا

(١) أى منذ الصغر (٢) أحرز الشيء صانه، والمراد هنا فليعرفه السامعون ويعوه

مِنَ التَّارِيخِ إِلَّا مَا اخْتَصَّ بِشَجَاعَةِ الْبُرُوسِيَا ، لِأَنَّ فِي ذَلِكَ إِبْعَادًا لَهُمْ عَنِ الْإِشْتِغَالِ بِالْمَانِيَا الْقَدِيمَةِ وَمَاضِيهَا الطَّوِيلِ . وَلِكِنِّي لَا تَبْقَى شُبُهَةٌ فِي مُرَادِ الْأَمْبِرَاطُورِ مِنَ التَّرْبِيَةِ الْعَمَلِيَّةِ قَالَ : « أَيُّهَا السَّادَةُ إِنِّي فِي حَاجَةٍ إِلَى الْجُنْدِ فَلَا بَدَّ لِي مِنْ نَسْلِ قَوِيٍّ قَادِرٍ عَلَى خِدْمَةِ الْبِلَادِ ، وَهَذَا يَنْبَغِي إِذْ خَالَ نِظَامِ الْمَدَارِسِ الْحَرْبِيَّةِ فِي الْمَدَارِسِ الْعَالِيَةِ » . وَلَعَمْرِي إِنَّ هَذِهِ التَّرْبِيَةَ لَا تَجْعَلُ الشَّبِيهَةَ ^(١) الْأَلْمَانِيَّةَ قَادِرَةً عَلَى أَحْمَالِ الْحَيَاةِ الْحَقِيقِيَّةِ وَكَسْبِ عَيْشِهَا الْيَوْمِيٍّ حَيْثُ لَا مُوجِبَ لِلْقِتَالِ وَلَا مَحَلَّ لِلنَّزَالِ ، بَلِ الْغَرَضُ الْإِرْتِزَاقُ . وَمَا ذَلِكَ النَّظَامُ هُوَ الَّذِي يُرَبِّي الرِّجَالَ وَيَهَيِّئُهُمْ إِلَى الْأَعْمَالِ الْمُفِيدَةِ وَيُولِّدُ فِيهِمْ قُوَّةَ الْإِرَادَةِ الَّتِي تُنَاسِبُ حَرَكَةَ التَّرَقِّيِّ الشَّدِيدِ فِي عَصْرِنَا هَذَا ، وَكَيْفَ تَكْبَرُ عِزَّتُهُمْ وَهُمْ لَمْ يَتَعَلَّمُوا غَيْرَ النَّظَامِ الْأَلْمَانِيِّ حَيْثُ يُسَوِّدُ النَّظَامُ الْعَسْكَرِيُّ فِي الْمَدَارِسِ ، إِنَّمَا الْوَاجِبُ تَتَقِيفُ عُقُولَهُمْ وَتَوْسِيعُ نِطَاقِ تَهْذِيبِهِمْ وَتَدْرِيْبُهُمْ عَلَى جَمِيعِ الْأَعْمَالِ النَّافِعَةِ الَّتِي تُسَاعِدُ الْأُمَّةَ عَلَى نَشْرِ سِيَادَتِهَا الْاجْتِمَاعِيَّةِ لَا الْعَسْكَرِيَّةِ حَتَّى تَسْبِقَ غَيْرَهَا مِنَ الْأُمَمِ الَّتِي لَمْ تَبْلُغْ شَأْنَهَا ^(٢) فِي التَّقَدُّمِ ، وَلَكِنَّهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يَضَعُوا فَوْقَ أَعْيُنِهَا عَيْوُنًا لَا تُمْكِنُهَا مِنَ النَّظَرِ فِي أَحْوَالِ الْأُمَّةِ الْمَاضِيَّةِ وَلَا فِي حَرَكَةِ الْأُمَّةِ الْحَاضِرَةِ إِلَّا مَا كَانَ الْمَانِيَا ، فَلَا تَرَى مِنْ هَذَا الْمَشْهَدِ الْعَظِيمِ الْمُفِيدِ إِلَّا تَارِيخَ الْبُرُوسِيَا ، وَهُوَ يَسِيرٌ ^(٣) . وَلَا

(١) يريد الشبان (٢) الشاؤ : الغاية والامد (٣) قليل

تَعْرِفُ لِلْفَوْزِ مَعْنَى إِلَّا مَا كَانَ بِحَدِّ الْمُرْهَفَاتِ^(١) وَأَفْوَاهِ الْمَدَافِعِ
لَا الَّذِي يُكْتَسَبُ بِالْجِدِّ وَالْمُثَابَرَةِ^(٢) وَالْهِمَّةِ وَالْإِرَادَةِ ، وَكَأَنِّي
بِالْإِمْبِرَاطُورِ يُرِيدُ أَنْ يَجْعَلَ جَمِيعَ الْأُمَّةِ الْأَلْمَانِيَّةِ فِي حَالَةِ بَعْضِ
فُقَرَاءِ الْهِنْدِ الَّذِينَ يَقْضُونَ حَيَاتَهُمْ فِي مُشَاهَدَةِ مَا دُونَ بَطُونِهِمْ
مُعْتَقِدِينَ أَنَّهُمْ يَتَالُونَ بِذَلِكَ تَمَامَ السَّعَادَةِ ! إِذْ هُوَ يُرِيدُ أَنْ يَتَعْرِفَ
أُمَّتَهُ غَيْرَ طَرَفٍ وَاحِدٍ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ الشَّاسِعِ وَأَنْ يُجَبَّ عَنْهَا
كُلُّ شَيْءٍ سِوَى ذَلِكَ .

وَأَنَا نَتْرُكُ الْفَصْلَ فِي إِمْكَانِ تَحْقِيقِ هَذَا الْخِيَالِ إِلَى الْأُمَّةِ الْأَلْمَانِيَّةِ
نَفْسِهَا، غَيْرَ أَنَّا نَسْتَفِيدُ مِنْهُ لِنَعْرِفَ مَوْضِعَ النَّقْصِ عِنْدَنَا . وَمَا مِنَّا مَنْ
يَجْهَلُ إِعْجَابَنَا بِنَفْسِنَا وَاعْتِقَادَنَا بِأَنَّ أُمَّتَنَا أَكْبَرُ الْأُمَمِ وَفِي مُقَدِّمَتِهَا
حَضَارَةٌ وَتَمَدُّنٌ وَأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ لَدَيْنَا أَصْلُهُ الثَّوْرَةُ الْفَرَنْسَاوِيَّةُ ، ثُمَّ
نَنْقُلُ هَذَا الْإِعْتِقَادَ إِلَى أَبْنَائِنَا غَيْرِ شَاعِرِينَ بِاسْتِمْرَارِ الزَّمَانِ فِي تَقَدُّمِهِ
مِنْ دُونِ اشْتِرَاكِ كِنَانَا فِي حَرَكَتِهِ .

تَبَّتْ إِذْنُ أَنْ الْإِصْلَاحَ الَّذِي يُشِيرُ إِلَيْهِ الْإِمْبِرَاطُورُ عَقِيمُ الْفَائِدَةِ
مِنَ الْجِهَةِ الْعَامِيَّةِ قَلِيلُ النِّفْعِ مِنَ الْجِهَةِ الْعَمَلِيَّةِ ؛ فَلَنْبَحَثَ عَنْ فَائِدَتِهِ
مِنَ الْجِهَةِ السِّيَاسِيَّةِ عَالِمًا نَرَاهُ يُودِّي إِلَى الْغَرَضِ الْمَقْصُودِ وَالْإِذْهَبَتْ
أَمَانِي الْإِمْبِرَاطُورِ أَدْرَاجَ الرِّيَّاحِ ؛ خُصُوصًا إِذَا لُوْحِظَ أَنَّهُ لَا يَقْصِدُ

(١) السيوف المرهفة (٢) الجِدُّ بكسر الجيم : الاجتهاد، والمثابرة : المداومة

مِنْ سَعِيهِ كُلِّهِ فِي الْحَقِيقَةِ وَنَفْسِ الْأَمْرِ إِلَّا إِلَى الْمَنْفَعَةِ السِّيَاسِيَّةِ — أَوْ مَا يَتَصَوَّرُهُ كَذَلِكَ — بِدَلِيلِ قَوْلِهِ : « وَمِنْ الْوَاجِبِ عَلَيْنَا الْآنَ أَنْ نُعَلِّمَ الشُّبَّانَ طَرِيقَ الْمُحَافِظَةِ عَلَى مَا أَحْرَزْنَاهُ وَلَكِنَّا لَمْ نَعْمَلْ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ بَلْ أَنَا أَشَاهِدُ مُنْذُ حِينٍ فِي الْأُمَّةِ جُنُوحًا إِلَى الْمَيْلِ عَنْهُ »

وَعَلَى هَذَا يَكُونُ غَرَضُ الْأِمْبْرَاطُورِ مِنْ ذَلِكَ النِّظَامِ هُوَ التَّغْلِبُ عَلَى هَذَا الْمَيْلِ الَّذِي يَخْشَاهُ وَلَكِنْ أَمَّا يَبُغِيهِ لَا يُمَكِّنُ تَحَقُّقَهَا إِلَّا إِذَا كَانَتْ الْمَدَارِسُ كَمَا يُرِيدُهَا ، وَهِيَ لَيْسَتْ كَذَلِكَ ، لِأَنَّ غَايَةَ مَا يُرِيدُ اسْتِحْدَاثَهُ هُوَ الزِّيَادَةُ فِيمَا جَرَتْ عَلَيْهِ أُمَّتُهُ مِنْ قَبْلِهِ تَحْتَ رِعَايَةِ أَسْلَافِهِ وَبِأَمْرِهِمْ ، وَهُمْ أَيْضًا كَانُوا يَقْصِدُونَ الْغَايَةَ الَّتِي يَرْمِي إِلَيْهَا وَهِيَ إِكْبَارُ شَأْنِ الدَّوْلَةِ الْبُرُوسِيَانِيَّةِ وَإِعْلَاءُ كَامَتِهَا وَقَدْ جَرَّبَ ذَلِكَ بِنَفْسِهِ .

لِذَلِكَ نَدَدَ رِجَالُ الْمَدَارِسِ فِي بَرْلِينَ بِخُطَابِهِ وَأَجْمَعُوا عَلَى إِظْهَارِ أَسْفِهِمْ وَاسْتِيَابَتِهِمْ مِنَ اللَّوْمِ الَّذِي وَجَّهَهُ إِلَيْهِمْ وَقَالُوا : « إِنَّهُمْ كَانُوا يَعْتَبِرُونَ ^(١) عَلَى الدَّوَامِ أَنْ أَقْدَمَ وَاجِبٌ عَلَيْهِمْ هُوَ غَرَسُ مَحَبَّةِ الْوَحْدَةِ الْأَلْمَانِيَّةِ فِي قُلُوبِ تَلَامِيذَتِهِمْ وَإِعْدَادُهُمْ لِحِفْظِ النِّظَامِ الْاجْتِمَاعِيِّ الْحَاضِرِ وَمُقَاوَمَةِ أَهْلِ الثَّوْرَةِ وَمَنْ يَسْعَى بِالْفَسَادِ » . وَمَعَ

(١) يعتبرون هنا في معنى يعدون ذلك . معتبرا أي مبعجلا مقدسا واستعمال الاعتبار بهذا المعنى غير صواب .

كَوْنِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ لَمْ تُجَدِ نَفْعًا — بِاعْتِرَافِ الإِمْبِرَاطُورِ نَفْسِهِ — تَرَاهُ
يَمِيلُ إِلَى تَعَزُّزِهَا ^(١) وَالزِّيَادَةَ فِيهَا ، وَلَنْ يَنَالَ مَا يَرْجُوهُ مِنْهَا ؛ بَلْ مِنْ
الْمُحْتَمَلِ الْقَرِيبِ جَدًّا أَنَّهَا تُودَى إِلَى عَكْسِ مَا يَتَمَنَّى لِأَنَّهَا تَزِيدُ
فِي ضَعْفِ أَهْلِيَّةِ الْأَوَاسِطِ مِنَ النَّاسِ وَفِي عَدَمِ قُدْرَتِهِمْ عَلَى تَحْصِيلِ
عَيْشِهِمْ مِنَ الْحَرْفِ الْحُرَّةِ ، فَتَضَعُ فِيهِمْ قُوَّةَ التَّرَاحُمِ فِي الْحَيَاةِ
وَالِانْتِشَارِ فِي الْخَارِجِ وَمُبَارَاةِ غَيْرِهِمْ مِنَ الْأُمَّمِ الَّتِي سَبَقَتْهُمْ
فِي مَعْرِفَةِ مُقْتَضَى أَحْوَالِ الْمُجْتَمَعِ الْإِنْسَانِيِّ . وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمَدَارِسَ
الَّتِي يُرِيدُ الإِمْبِرَاطُورُ تَنْظِيمَ طُرُقِ التَّعْلِيمِ فِيهَا هِيَ الَّتِي يَدْخُلُهَا
أَبْنَاؤُ الْأَوَاسِطِ فِي الْمَانِيَا ، أَمَّا عَدَمُ أَهْلِيَّةِ تِلْكَ الطَّبَقَةِ مِنَ النَّاسِ
فِي الْأُمَّةِ الْأَلْمَانِيَّةِ فَقَدْ بَرَهَنَ عَلَيْهِ مُوسِيو (بُوَانْسَارُ) فِي الْجُزْءِ
التَّاسِعِ مِنْ مَجَلَّةِ (الْعِلْمِ الْاجْتِمَاعِيِّ) صَفْحَةَ ٤٦٨ تَحْتَ عُنْوَانِ
(الْأَلْمَانِيُونَ خَارِجَ بِلَادِهِمْ وَطُمُوحُ الْحُكُومَةِ الإِمْبِرَاطُورِيَّةِ
إِلَى الْإِسْتِعْمَارِ) وَأَبَانَ أَنَّ أَهْلَ الطَّبَقَةِ الْمَذْكُورَةِ يُفَضِّلُونَ الْوِظَائِفَ
الْعَسْكَرِيَّةَ وَالْإِدَارِيَّةَ وَالْحَرْفَ الْأَدَبِيَّةَ عَلَى الْحَرْفِ الْحُرَّةِ
الْمُفِيدَةِ أَيِ الَّتِي تَسْتَفِيدُ مِنْهَا الْأُمَّةُ وَالْأَفْرَادُ كَسَبًّا كَبِيرًا ، فَإِذَا زِيدَ
أَيْضًا فِي ضَعْفِ تِلْكَ الطَّبَقَةِ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ زَادَ الضَّنْكَ ^(٢) وَعَظُمَ
اِشْتِدَادُ الْحَالِ ، إِذْ لَيْسَ فِي قُدْرَةِ الْحُكُومَةِ الْأَلْمَانِيَّةِ أَنْ تَكْفَلَ

بِعَيْشَةٍ جَمِيعِ الَّذِينَ يَخْرُجُونَ مِنْ مَدَارِسِهَا بَعْدَ أَنْ أَبْعَدَهُمْ ذَلِكَ
النِّظَامُ عَنْ وَسَائِلِ الْكَسْبِ الْحَقِيقِيَّةِ فَتَضَيَّقُ دُونَهُمْ تُكْنَنَاتُ
الْعَسَاكِرِ وَمَصَالِحِ الْحُكُومَةِ مَهْمَا تَشَعَّبَتْ فُرُوعُهَا، ثُمَّ هُمْ
يَرْجِعُونَ طَبَعًا بِاللَّوْمِ عَلَيْهَا وَيَنْسُبُونَ خِيْبَتَهُمْ إِلَيْهَا. تِلْكَ سُنَّةُ الْأُمَمِ
لَا يَشِدُّ عَنْهَا وَلَا يَنْفِرُ مِنْ حُكُومَتِهَا إِلَّا الْخَائِبُونَ، وَحِينَئِذٍ يَزْدَادُ
النُّفُورُ وَيَشْتَدُّ حَرَجُ النُّفُوسِ الَّذِي تَظْهَرُ عَلَامَاتُهُ الْآنَ لِلْإِمْبِرَاطُورِ.
وَفِي مَا تَقَدَّمَ أَكْبَرُ بُرْهَانٍ عَلَى فِسَادِ نِظَامِ الْحُكُومَاتِ الَّتِي
يَتَوَلَّى الْمَلِكُ فِيهَا النِّيَابَةَ عَنِ الْأَفْرَادِ فِي جَمِيعِ الْأَعْمَالِ حَتَّى الَّتِي هِيَ
مِنْ خِصَائِصِهِمْ، وَأَعْظَمُ عَمَلٍ تَخْتَصُّ بِهِ الْأُمَّةُ وَالْأَفْرَادُ دُونَ
الْحُكُومَةِ هُوَ التَّرْيِيَةُ، وَمَا مِنْ مَرَّةٍ تَوَلَّتْهُ الْحُكُومَةُ إِلَّا سَاءَتِ
الْعَاقِبَةُ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ. تِلْكَ حَقِيقَةٌ سَيَعْلَمُهَا الْإِمْبِرَاطُورُ كَمَا عَرَفَهَا
قَوْمٌ سَابِقُونَ.

هَذَا؛ وَفِي يَقِينِي أَنَّ الْإِمْبِرَاطُورَ يَسْتَعْرِبُ كَثِيرًا إِذَا قَرَأَ مَا تَقَدَّمَ
مِنْ كَلَامِي لِمَا هُوَ عَلَيْهِ، أَوْ مَا عَلِمَ عَنْهُ، مِنْ اعْتِقَادِهِ بِأَنَّ النَّظَامَ الَّذِي
يُرِيدُ إِدْخَالَهُ فِي الْمَدَارِسِ هُوَ الَّذِي يَفْتَحُ لِلْأُمَّةِ الْأَلْمَانِيَّةِ بَابَ
التَّقَدُّمِ الَّذِي اتَّجَهَتْ نَحْوُهُ الْأُمَمُ فِي هَذَا الْعَصْرِ وَأَنَّهُ هُوَ النَّظَامُ
الَّذِي يَلِيْقُ بِمُسْتَقْبَلِ الْأَيَّامِ. وَلَا يَحْسَبُنِي الْقَارِيُّ مُبَالِغًا فِيمَا أُسْنِدُهُ
إِلَيْهِ فَهَذَا خِتَامُ خِطَابِهِ قَالَ: « نَحْنُ فِي زَمَنِ انْتِقَالِ الْأُمَمِ مِنْ حَالَةٍ

إِلَى أُخْرَى وَفِي اسْتِمْبَالِ جِيلٍ جَدِيدٍ^(١) وَقَدْ كَانَ مِنْ خُصُوصِيَّاتِ
الْقِيَّاصِرَةِ أَسْلَافِي عَلَى الدَّوَامِ أَنْ يَسْتَبِقُوا إِلَى مَعْرِفَةِ تَقَلُّبِ الزَّمَانِ
وَيَتَبَصَّرُوا الْحَوَادِثَ الْمُقْبِلَةَ وَيَنْهَضُوا فِي مُقَدِّمَةِ الْكُلِّ رَغْبَةً فِي
تَوْجِيهِ حَرَكَةِ الْأُمَّةِ نَحْوَ الْغَرَضِ الْجَدِيدِ ، وَإِنِّي قَدْ عَرَفْتُ مُسِيرَ
الْأَفْكَارِ الْجَدِيدَةِ وَأَدْرَكْتُ الْغَايَةَ الَّتِي يَرْمِي إِلَيْهَا هَذَا الْقَرْنُ
الْمُنْصَرِمُ ، لِذَلِكَ حَوَّلْتُ عَزِيمَتِي كَمَا فَعَلْتُ أَيَّامَ اسْتِغَالِي بِالنِّظَامَاتِ
الْعُمُومِيَّةِ إِلَى تَرْبِيَةِ الشَّبَابِ الْأَلْمَانِيِّ عَلَى نِظَامٍ جَدِيدٍ يَفْتَحُ أَمَامَهَا
أَبْوَابًا لَا بَدَّ لَنَا مِنْ الدُّخُولِ مِنْهَا لِنَصِلَ إِلَى التَّقَدُّمِ الْمَقْصُودِ لِأَنَّ إِذَا لَمْ
تَفْعَلْ ذَلِكَ الْيَوْمَ الْجَاءَتْنَا الضَّرُورَاتُ إِلَيْهِ بَعْدَ عِشْرِينَ عَامًا .

وَمِنَ الْمُدْهَشَاتِ أَنْ يَنْطِقَ بِهَذَا اللِّسَانِ مَلِكٌ عَرَفْنَاهُ يَقِفُ بِالتَّعْلِيمِ
فِي الْمَدَارِسِ عِنْدَ مَعْرِفَةِ الْوَقَائِعِ الْحُرِّيَّةِ الَّتِي انْتَصَرَ أَسْلَافُهُ فِيهَا
وَيَقْضِي عَلَى التَّرْبِيَةِ الْعِلْمِيَّةِ الْحَقِيقِيَّةِ قَضَاءَهُ الْمُبْرَمَ وَيَجْعَلُ جَمِيعَ
الْأَجْيَالِ الْمُسْتَقْبَلَةِ مِنْ أُمَّةٍ كَبِيرَةٍ غَيْرِ قَادِرَةٍ عَلَى احْتِمَالِ التَّرَاحُمِ
فِي الْحَيَاةِ الَّتِي طَنَطَنَ بِذِكْرِهِ وَأَطْنَبَ فِي الْكَلَامِ عَلَيْهِ .

عَلَى أَنَّهُ لَا مُوجِبَ لِلدَّهْشَةِ لِأَنَّ الْقَائِلَ رَجُلٌ بُرُوسِيَانِيٌّ وَبِلَادُ
الْبُرُوسِيَا قِسْمٌ صَغِيرٌ مِنَ أَلْمَانِيَا وَقَدْ تَكَادُ تَكُونُ كَأُمَّمِ الْمَشْرِقِ فَهِيَ
آخِرُ أُمَّةٍ دَخَلَتْ فِي عِدَادِ الدُّوَلِ الْأُورُوبِيَّةِ الْعُظْمَى كَمَا فِي اصْطِلَاحِ

(١) الجيل هو الصنف من الناس وهو يريد الزمن هنا

السِّيَاسِيِّينَ ، وَمَا صَارَتْ أُمَّةٌ كَبِيرَةً إِلَّا بَعْدَ جَمْعِ الْأُمَمِ الْأُخْرَى
 فَهِيَ أَشْبَهُ بِرَجُلٍ وُلِدَ مُتَأَخِّرًا عَنْ أَقْرَانِهِ بِرُبْعِ سَاعَةٍ وَلَيْسَ فِي إِمْكَانِهِ
 أَنْ يَسْتَعِضَّ عَنْ هَذَا التَّأخِيرِ ، فَالْبُرُوسِيَا مُتَأَخِّرَةٌ عَنْ غَيْرِهَا مِنْ أُمَّمِ
 الْغَرْبِ بِقَرْنَيْنِ كَامِلَيْنِ وَلَا يَزَالُ أَهْلُ نَهْرٍ (سِيرى) عَلَى بَعْضِ
 الْعَوَائِدِ الَّتِي كَانَتْ مَالُوفَةً أَيَّامَ الْمَلِكِ (فِيلِب) الثَّانِي (لُويز) ،
 الرَّابِعَ عَشَرَ كَانَهُمْ لَمْ يَشْعُرُوا بِأَنَّ الْأَرْضَ قَدِ ضَمَّتْ أَجْسَامَ أَوْلِيكَ
 الْمُلُوكِ الْفِخَامِ مِنْ زَمَنِ مَدِيدٍ فَبَادُوا وَبَادَتْ حُكُومَتُهُمْ وَانْطَوَتْ
 سِيَاسَتُهُمْ كَمَا أَنَّهُمْ لَا يَزَالُونَ يَعُدُّونَ مَاضَى مُسْتَقْبَلًا يَرْجُونَهُ

وَإِذْ أَنَّ الْبَحْثَ دَارَهُ عَلَى الْمُسْتَقْبَلِ وَالتَّرَاحُمِ فِي الْحَيَاةِ
 وَمُسَاعَدَةِ الْأُمَّةِ الْأَلْمَانِيَّةِ عَلَى الْإِنْتِشَارِ فِي الْخَارِجِ وَالْمُنَافَسَةِ مَعَ
 الْأُمَّمِ الَّتِي تَسْتَوْلِي عَلَى الدُّنْيَا فَمِنْ الْمَفِيدِ أَنْ نَعْرِفَ الطَّرِيقَةَ الَّتِي
 اتَّخَذَتْهَا تِلْكَ الْأُمَّمُ فِي تَرْبِيَةِ أَبْنَائِهَا وَإِعْدَادِهِمْ لِهَذِهِ الْحَرْبِ الْجَمِيلَةِ
 حَتَّى تَكُونَ لَهَا الْأَرْجَحِيَّةُ فِي جَمِيعِ الْبِلَادِ عَلَى غَيْرِهَا وَسِيرَى الْقُرَاءِ
 أَنَّ السَّبِيلَيْنِ مُخْتَلِفَانِ

وَبَيْنَمَا أَنَا أَكْتُبُ هَذِهِ السُّطُورَ إِذْ دَخَلَ عَلَيَّ أَحَدُ الْأَصْدِقَاءِ
 زَائِرًا وَهُوَ رَجُلٌ لَهُ وَلَدٌ يُرِيدُ أَنْ يُرَبِّيَهُ تَرْبِيَةً تُمْكِنُهُ مِنَ التَّرَاحُمِ
 فِي الْحَيَاةِ وَكَسْبِ عَيْشِهِ بِنَفْسِهِ فَلَا يَمُودُ لَهُ أَنْ يَكُونَ مُوظَّفًا فِي أَحَدَى
 مَصَالِحِ الْحُكُومَةِ وَهُوَ نَادِرٌ عِنْدَنَا وَالْخُلَاصَةُ أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُرَبِّيَ ابْنَهُ

تَرْبِيَّةً عَمَلِيَّةً إِرَادَةً صَحِيحَةً^(١) لَا كَمَا يُرِيدُ الْإِمْبِرَاطُورُ ، وَهِيَ
 التَّرْبِيَّةُ الَّتِي يَسْتَحْسِنُهَا كُلُّ إِنْسَانٍ وَلَا يَعْمَلُ بِهَا إِلَّا الْقَلِيلُ ، وَكَانَ
 لِهَذِهِ الْغَايَةِ حَصَلَ عَلَى نِظَامَاتٍ عَدَدٍ مِنَ الْمَدَارِسِ الْأَجْنِبِيَّةِ فَأَعْجَبَهُ
 وَاحِدٌ مِنْهَا وَهُوَ الَّذِي قَدَّمَهُ إِلَيَّ ، فَلَمَّا تَصَفَّحْتُهُ رَأَيْتُ مِنَ الْفَائِدَةِ
 تَلْخِيصَهُ لِلْقُرَاءِ مُسْتَعِينًا فِي ذَلِكَ بِمَا عَلمْتُهُ بِنَفْسِي عَنِ الْمَدْرَسَةِ الْمُتَعَلِّقِ بِهَا
 الْمَدْرَسَةَ الْإِنْكَلِيزِيَّةَ أَنْشَأَهَا صَاحِبُهَا لِتَعْلِيمِ الشُّبَّانِ طُرُقَ الْإِرْتِزَاقِ
 فِي غَيْرِ بِلَادِهِمْ وَالتَّمَكُّنِ مِنْ إِجْرَاءِ تِلْكَ الْأَعْمَالِ الزَّرَاعِيَّةِ الَّتِي مَهَّدَتْ
 لِلْأُمَّمِ الْإِنْكَلِيزِيَّةِ السَّكْسُونِيَّةِ سُبُلَ الْإِسْتِيْلَاءِ عَلَى الْعَالَمِ شَيْئًا
 فَشَيْئًا وَجَعَلَتْهَا تَفْضُلُ مَنْ سِوَاهَا ، وَهِيَ تُوَافِقُ غَرَضَ الْإِمْبِرَاطُورِ
 إِلَّا أَنَّهَا لَا تَنْسَجُ فِي التَّعْلِيمِ عَلَى مَنَوَالِهِ

وَأَمَّا النِّظَامُ الْمَذْكُورُ فَهُوَ رِسَالَةٌ صَغِيرَةٌ يُطَالَعُ الْقَارِئُ فِي أَوَّلِهَا
 قَوْلَيْنِ حَكِيمَيْنِ أَحَدُهُمَا عَنَ (جُونِ سِتِيوَارْتِ مِيلٍ) وَهُوَ « مِمَّا
 لَا شَبْهَةَ فِيهِ الْآنَ بِالنَّظَرِ إِلَى أَحْوَالِ الْأُمَّمِ الْحَاضِرَةِ أَنَّ الْإِسْتِعْمَارَ
 هُوَ أَنْجَحُ الْوَسَائِلِ فِي اسْتِعْمَالِ الْأَمْوَالِ الْمُدْخَرَةِ فِي خَزَائِنِ الْأُمَّمِ
 الْغَنِيَّةِ الْقَدِيمَةِ » وَالثَّانِي عَنَ (فُوسْتَر) وَهُوَ : « تَزْدَادُ حَاجَةُ النَّاسِ
 إِلَى الْهَجْرَةِ كُلِّ يَوْمٍ وَلَا فَرْقَ فِي ذَلِكَ بَيْنَ الْغَنِيِّ وَالْفَقِيرِ »

وَيَتَبَيَّنُ مِنْهُ أَنَّ الْغَرَضَ مِنَ الْمَدْرَسَةِ تَمِيمُ مَا نَقَصَ مِنَ التَّعْلِيمِ

(١) إرادة صحيحة مفعول مطلق لقوله يريد

في المدارس الأخرى للشبان الذين يحتاجون إلى تربيةٍ خصوصيةٍ ،
 ولا يعيننا عنّا أن التربية في المدارس الإنكليزية على العموم
 هي تربيةٌ عمليةٌ كما ينبغي ، وأن النزاحم في الحياة الذي قرأناه
 في خطاب الإمبراطور هو الغاية من تلك التربية ، وأن ابن رؤساء
 المدرسة وجميع المستعمرات الإنكليزية مراسلات يقفون بواسطتها
 على ما يحتاج إليه التلامذة في المستقبل فلا يقدمون على أمرٍ إلا
 وهم به عالمون ، وقد أفادت تلك التربية كثيرًا من مخرجي المدرسة
 فساعدهم على تحصيل رزقهم في البلاد الأخرى ، ثم بين وأرضع
 الرسالة موقع المدرسة وألحتم برسم بنائها تكميلاً للفائدة ، وهي
 موجودة في الريف وكان ذلك من قبيل تحصيل الحاصل ،
 لولا أن جمعية الزراعة العلمية الفرنسية تسكن في وسط مدينة
 باريس الجميلة ، وبنائها قائم على مرتفع - نشز - يحيط به
 البحر وأحد الأنهار من جهة ويمتد من الجانب الآخر سهل
 مزروع ، وهذان شرطان يعودان التلامذة الهجرة والاستعمار ،
 وتحمل أعباءهما أكثر من جمعهم في المدارس بالمدن الألمانية ،
 وذلك السهل منقسم إلى أجزاء تسهيلًا لتجربة طرق الزراعة وغرس
 جميع المزروعات على اختلاف أنواعها فهذا قسم العربة ، ثم قسم
 بالألبان ، فكان تربية الطيور المنزلية ، فالعامل ، ومخازن

الْمَرَآكِبِ وَغَيْرَهَا، وَلِكِنِّي حَافِظُ التَّلَامِذَةِ عَلَى دِينِهِمْ مُبْنِي لَهُمْ
مَعْبَدَانِ عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنَ الْمَدْرَسَةِ

أَمَّا مَوْضُوعُ التَّعْلِيمِ فَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمَدْرَسَةَ عَمَلِيَّةٌ مُحَضَّةٌ وَأَنَّه
لَا اسْتِغَالَ لِأَصْحَابِهَا بِالسِّيَاسَةِ بَلْ هُمْ مُنْصَرَفُونَ إِلَى تَسْلِيحِ
التَّلَامِذَةِ بِجَمِيعِ الْمَعَارِفِ الْعِلْمِيَّةِ الَّتِي يُحْتَاجُ إِلَيْهَا، وَأَنَّ أَعْظَمَ مَكَانٍ
فِي الْمَدْرَسَةِ مُخَصَّصٌ بِتَطْبِيقِ الْعِلْمِ عَلَى الْعَمَلِ لِأَنَّهَا هُوَ حَاصِلُ فَيْضِ جَمْعِيَّتِنَا
الْعِلْمِيَّةِ الزَّرَاعِيَّةِ، وَأَنَّ الْغَرَضَ مِنْ تَدْرِيسِ الْعُلُومِ هُوَ شَرْحُ
مَا يَشْتَعَلُ بِهِ التَّلَامِذَةُ مِنَ الْأَعْمَالِ وَلَدَى الْمَدْرَسَةِ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ
الزَّرَاعَةِ وَالصَّنَائِعِ لِتَعْلِيمِ طُرُقِ الاسْتِعْمَارِ، وَأَنَّ أَهَمَّ عَمَلٍ هُوَ
الزَّرَاعَةُ، لِذَلِكَ يَأْتِي التَّلَامِذَةُ بِأَنْفُسِهِمْ جَمِيعَ أَعْمَالِهَا وَعِنْدَهُمْ
مِنْ آلَاتِهَا مَا كَمَلَ صُنْعُهُ، وَبِاسْتِعْمَالِهَا تُعْرَفُ قُوَّةُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ،
وَهُنَاكَ دَوْحَةٌ ^(١) تَبْلُغُ أَرْبَعِينَ أَلْفَ مِثْرٍ مَرْبَعٍ تُزْرَعُ فِيهَا الْفَوَاحِ كُهُ
الْمُخْتَلِفَةُ الْأَنْوَاعِ وَالْخَضِرُ بِأَجْنَاسِهَا وَتُشَاهَدُ فِيهَا التَّجَارِبُ لِإِنْعَاءِ
الزَّرْعِ بِقَدْرِ مَا يَصِلُ إِلَيْهِ الْإِمْكَانُ، وَلَهُمْ اعْتِنَاءٌ خُصُوصِيٌّ بِتَرْبِيَةِ
النَّحْلِ لِمَا فِيهِ مِنَ الْفَوَائِدِ فِي الْمُسْتَعْمَرَاتِ إِذْ يُخْرَجُ مِنْهُ الْعَسَلُ وَالشَّمْعُ
وَهُمَا سِلْعَتَانِ نَادِرَتَانِ فِي تِلْكَ الْجِهَاتِ وَرَقِيمَتُهُمَا عَالِيَةٌ، وَفِي هَذَا السَّبَلِ
قِسْمٌ تُعْرَسُ فِيهِ أَنْوَاعُ الْأَشْجَارِ وَيَتَعَلَّمُ التَّلَامِذَةُ كَيْفِيَّةَ تَغْذِيَّتِهَا

(١) الدوحة الشجرة العظيمة وهو يريد هنا مزرعة واسعة

وَطُرُقَ تَرْبِيَّتِهَا وَهُوَ عَمَلٌ لَازِمٌ لِمَنْ يُرِيدُ اسْتِطْطَانَ ^(١) (كَنْدَا) أَوْ
 (أَسْتِرَالِيَا) وَكَلَّمَهُمْ عِنَايَةً لَا مَزِيدَ عَلَيْهَا بَرِّيَّةِ الْمَتَاشِيَةِ لِضُرُورَتِهَا
 فِي أَغْلَابِ الْمُسْتَعْمَرَاتِ لِأَنَّهُ يَبْدَأُ عَادَةً فِي الْإِسْتِعْمَارِ بَرِّيَّةِ الْمَوَاشِي
 فَعِنْدَهُمْ سَبْعُونَ حِصَانًا وَمُهْرًا مِنْ أَحْسَنِ الْأَنْوَاعِ وَكُلُّهَا مِنْ الْخَيْلِ
 الْمُسْتَعْمَلَةِ فِي الْمُسْتَعْمَرَاتِ ثُمَّ أَنْوَاعٌ مِنَ الثَّيْرَانِ وَالْغَنَمِ وَالْخِزِيرِ
 وَالطَّيُورِ ، وَيَتَعَلَّمُ التَّلَامِذَةُ طِبَائِعَهَا وَفَائِدَةَ كُلِّ نَوْعٍ مِنْهَا وَيَقْضُونَ
 حُلُولَ السَّنَةِ فِي اخْتِبَارِ أَحْوَالِهَا وَتَنْوِيعِ اسْتِعْمَالِهَا مَعَ الْمُسْكَلَفِينَ
 خِدْمَتِهَا ، وَفِي مَعْمَلِ اللَّبَنِ خَمْسُونَ بَقْرَةً مِنْ أَجْوَدِ نَوْعٍ ،
 وَالْعَمَلُ عَلَى أَحْسَنِ طَرِزٍ ^(٢) تُشَاهَدُ فِيهِ أَنْوَاعُ طَرِيقَةٍ صُنِعَ
 اللَّبَنِ ، وَمَا يُخْرَجُ مِنْهُ بِحَسَبِ الْبِلَادِ الْبَارِدَةِ وَالْحَارَةِ ، وَفِي
 الْمَدْرَسَةِ مُدْرَسُونَ لِلطَّبِّ الْبَيْطَرِيِّ حَتَّى لَا يَحْتَاجُ الْمُسْتَعْمِرُ فِي خُرْبَتِهِ
 إِلَى غَيْرِهِ لِتَمَرِيضِ مَاشِيَّتِهِ ، وَيَتْلُو الْعِلْمَ تَطْبِيقَهُ عَلَى الْعَمَلِ ، وَيَقْضُونَ
 وَقْتًا كُلَّ يَوْمٍ فِي رُكُوبِ الْخَيْلِ وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا فِي حَاجَةٍ مِثْلَ إِمْبَرِاطُورِ
 الْمَانِيَا إِلَى هَذِهِ الرِّيَاضَةِ لِيَقْفُوا عَلَى مَجْرَى الْأَحْوَالِ فِي الدُّنْيَا ،
 وَإِنَّمَا هُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ الْخَيْلَ أَحْسَنُ وَاسِطَةٌ لِلْمُوَاصَلَةِ فِي الْبِلَادِ
 الْجَدِيدَةِ وَأَنَّهَا أَحْسَنُ طَرِيقَةٍ لِتَفْقُدِ الْأَمْلَاقِ الْوَاسِعَةِ ، كَذَلِكَ لَهُمْ
 وَقْتُ لَتَعْلَمَ فَنَّ مِسَاحَةِ الْأَرَاضِي وَأَخْذَ مَوَازِينِهَا وَطُرُقِ إِصْلَاحِهَا

(١) اتخاذاها وطنا (٢) الطرز والطرارز واحد وهو الازى والمراد على احسن حال

وَرِيَّهَا وَصَرَفَ الْمِيَاهِ الْفَاضِلَةَ عَنْهَا ، وَلِتَمَامِ اسْتِقْلَالِ كُلِّ وَاحِدٍ تَرَاهُمْ
فَوْقَ ذَلِكَ يَتَعَامُونَ بَعْضَ الصَّنَاعَاتِ الْعَادِيَّةِ فَاتَّخَذَتِ الْمَدْرَسَةُ مَعَامِلَ
عِدَّةً ، هَذَا لِلْبِنَايَةِ وَطَرُقِ الْحَدِيدِ وَفِيهِ تُصْنَعُ آلَاتُ الزَّرَاعَةِ كُلُّهَا
وَإِصْلَاحُ مَا فَسَدَ مِنْهَا وَتَطْبِيقُ الْخَيُْولِ ، وَذَلِكَ مَعْمَلُ النِّجَارَةِ وَصُنْعُ
الْعَرَبَاتِ وَإِصْلَاحِهَا وَصِنَاعَةُ الْخَشَبِ وَإِقَامَةُ الْمَسَاكِنِ وَالنُّيُوتِ مِنْهُ
وَذَلِكَ مَعْمَلُ الْبَرَاذِعِ وَالسُّرُوجِ ، وَالتَّلَامِيذَةُ يَتَعَلَّمُونَ كُلَّ ذَلِكَ
كَمَا يَتَعَلَّمُونَ الْعُومَ فِي الْبَحْرِ وَالسِّبَاحَةَ فِي النَّهْرِ وَالتَّجْدِيفَ^(١) وَالْمِلَاحَةَ
وَصُنْعَ الْقَنَاظِرِ الْقَائِمَةِ وَاتِّخَاذَ الرِّوَامِصِ^(٢) وَغَيْرَ ذَلِكَ ، وَفِي الْمَدْرَسَةِ
أَحَدُ رِجَالٍ خَفَرَ السَّوَاخِلَ مَنُوطٌ بِهِ حِفْظُ الْمَرَآكِبِ وَتَعْلِيمُ التَّلَامِيذَةِ
مَا يَتَعَلَّقُ بِهَا حَتَّى إِنَّهُ يُعَلِّمُهُمْ كَيْفَ يَجْمَعُونَ بَيْنَ طَرَفِي الْجَبَلَيْنِ مِنْ
دُونِ أَنْ يَعْقِدُوهُمَا ، وَلَقَدْ يَلِدُ لِي هَذَا الْبَيَانُ لِأَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى شِدَّةِ
التَّفَاتِهِمْ إِلَى مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ عَمَلًا وَاعْتِنَائِهِمْ بِتَعْلِيمِهِ كُلِّ شَيْءٍ ،
وَتَعْرِيفِهِ بِأَنَّهُ لَا شَيْءَ غَيْرَ مُفِيدٍ

وَيَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَعْرِفُوا طَرَفًا مِنْ فَنِّ الطَّبِّ عَلَى قَدْرِ مَا يَحْتَاجُ
إِلَيْهِ فِي الْمُسْتَشْفِيَّاتِ النَّقَالَةِ الْمَعْرُوفَةِ بِشَرِكَةِ (صَانُ جَان) وَجَمْعِيَّةِ
مُسَاعَدَةِ الْعَرَقِيِّ وَكَيْفَ يُرْبَطُ الْعَضْوُ الْمَكْسُورُ وَالْعَرُضُوسُ وَيُرَدُّ

(١) التجديف بالبدال والذال لغتان فصيحتان ومنه مجداف السفينة (٢) هكذا في الاصل ولعله يريد الارماث جمع رمث وهو الطوف من خشب يضم بعضه إلى بعض ثم يركب عليه في البحر

المخلوعُ ويوقَفُ النزيفُ^(١)، وتضمَدُ الجروحُ، وتعالجُ الحروقُ
وغيرُ ذلكِ مِنَ العوارِضِ الاعتياديةِ حتى يكونوا على علمٍ بتمريضِ
انفسِهِمْ ومعالجةِ غيرِهِمْ

ولقد توسَّعَ صاحبُ المدرسةِ في شرحِ ما بيناهُ مِنَ الأعمالِ
الزراعيةِ والعمليةِ لكونها الشاغلُ المهمُّ فيها ولأنَّ الغرضَ منها
تربيةُ رجالٍ يعملونَ في الخارجِ لا لتعليمِ أناسٍ يتربَّعونَ في مقاعدِ
المصالحِ، لذلكِ جعلَ الكلامَ على القسمِ العلميِّ في آخرِ الكراسةِ
واختصرَ فيه لانهُ كما قدمنا عبارةً دَنَ شرحِ ما يشغلُ به التلامذةُ
مِنَ الأعمالِ، فلا يطلبونَ العلمَ وحدهُ إلا ساعتينِ اثنتينِ في اليومِ
(وليسَ في هذا إفراطٌ كما ترى) يُلقَى فيهما ناظرُ المدرسةِ
ومعلموها دُرُوساً في علمِ الزراعةِ وعلمِ طبقاتِ الأرضِ والمعادنِ
والنباتاتِ وفنِّ الغاباتِ والمساحةِ والعمارةِ والطبِّ البيطريِّ وغيرِ
ذلكِ، ثمَّ يُتلى عليهمُ مِنَ الكتبِ الواردةِ مِنْ حُكُومَاتِ
المستعمراتِ ما تهمُّ معرفتهُ

ويجدُ المطالعُ في آخرِ الكراسةِ خمساً وعشرينَ صورةً تمثلُ
مباني المدرسةِ والطلبةِ يشتغلونَ فيها بالأعمالِ التي سردناها، وإني
لأسِفُّ على عدمِ تمكُّني مِنْ تَقْلِيبِها في هذا الكتابِ لأنَّ صورةً

أُولَئِكَ الطَّلَبَةُ وَهُمْ يَعْمَلُونَ بِتِلْكَ الْمَدْرَسَةِ تُدَلِّقِي فِي النَّفْسِ شُعُورًا
بأنهم من أمة ذات همة وإقدام مبالغة إلى العمل الحقيقي قد تعودت
احتمال المتاعب فلا تخشى العناء ، فهي تعمل بجد في عمل جيد^(١)
لا يعتمد الإنسان فيه إلا على نفسه بعد الله

وَمَا يَزِيدُ الْفَائِدَةَ مِنْ مُشَاهَدَةِ أُولَئِكَ الشَّبَّانِ أَنَّهُمْ لَيْسُوا مِنَ
الْفُقَرَاءِ الَّذِينَ قَدْ لَفَظَتْهُمْ الْأَيَّامُ فَالتَّجَّجُوا إِلَى الْهَجْرَةِ بِدَافِعِ الْفَقْرِ ،
وَلَكِنَّهُمْ كَمَا جَاءَ فِي الرَّسَالَةِ نَفْسَهَا أَبْنَاءَ عَائِلَاتٍ غَنِيَّةٍ أَوْ تَقَرُّبُ مِنْ
الغنى أغنى من أواسط الناس الذين يريد إمبراطور ألمانيا إدخال
الإصلاح بينهم ، على أن أجره التعليم في تلك المدرسة كافية في
إثبات ذلك لأنها ألفان ومائتان وخمسون فرنكا في السنة إلى
أن يبلغ الطالب سبع عشرة سنة ، وألفان وسبعمئة فرنكا إلى
عشرين سنة ، وثلاثة آلاف ومائة وخمسون فرنكا إلى ما زاد
على ذلك ، وقد كان في قدرة أولئك الشبان أن يطلبوا الرزق في
بلدِهِمْ بلا تعب ولا عناء غير أنهم لم يرضوا لأنفسهم مثل هذا
العيش بل فضلوا عليه ما يقتضى الكد واستعدوا إلى معالمة
الصعاب فطرحوا بأنفسهم في المستعمرات ، ونزحوا إلى البلاد
الأقصى^(٢)

(١) الجدل الأولى الاجتهاد والثاني ما قبل الهزل (٢) الأبعد

وَلِلرَّسَالَةِ مُلْحَقٌ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ أَوْلِيكَ الشُّبَّانَ إِنَّمَا يَعْتَمِدُونَ عَلَى
 أَنفُسِهِمْ بِالْإِنْصَاتِ إِلَى خُطْبِ كِبَارِ الْقَوْمِ الَّذِينَ حَضَرُوا حَفْلَةَ
 تَوْزِيعِ الْجَوَازِ فِي السَّنَةِ الْمَاضِيَةِ بِتِلْكَ الْمَدْرَسَةِ الَّتِي هِيَ مِنْ
 مُبْتَكِرَاتِ ^(١) الْهَمَمِ الشَّخْصِيَّةِ ^(٢) كَمَا هُوَ الشَّأْنُ فِي أَغْلِبِ الْمُنْشَأَتِ
 الْإِنْكِلِيزِيَّةِ، وَقَدْ جَعَلَ أَوْلِيكَ الْكِبَرَاءِ هَذِهِ الْمَدْرَسَةَ تَحْتَ حِمَايَتِهِمْ
 وَأَكْثَرُهُمْ مِنَ الَّذِينَ اشْتَغَلُوا بِالِاسْتِعْمَارِ أَوِ الْمُشْتَغَلِينَ بِهِ إِلَى الْآنَ،
 وَيَجِدُ الْقَارِئُ فِي خُطْبِهِمْ تَحْذِيرًا لِلشُّبَّانِ مِنَ الصُّعُوبَاتِ الَّتِي هُمْ
 قَادِمُونَ عَلَيْهَا وَتَنْبِيهًا لَهُمْ إِلَى وُجُوبِ مُعَالَجَتِهَا بِقُوَّتِهِمِ الذَّائِمَةِ وَمِنْ
 الْغَرِيبِ أَنَّ قَوْلَهُمْ هَذَا لَا يَثْنَى مِنْ هَمَمِ أَوْلِيكَ الطَّلَبَةِ بَلْ إِنَّهُ
 يَزِيدُ فِيهَا رُوحَ الْغَيْرَةِ . ذَلِكَ لِأَنَّ تَصَوُّرَ الصُّعُوبَةِ يُشِيرُ عَزِيمَةً
 الْأَقْوِيَاءِ كَمَا يُبْطِئُ هِمَّةَ الضَّعَفَاءِ وَمِنْ كَلَامِ اللُّورْدِ « كُنُونِسْفَرْدِ »
 إِلَيْهِمْ مَا يَأْتِي : « يَجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَقْسُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَإِنَّ أَمَامَكُمْ
 مِنْ الْمُتَعَابِ مَا لَا بَدَّ لَكُمْ مِنَ التَّغْلِبِ عَلَيْهِ وَرُبَّمَا هَلَكَ زَرْعُكُمْ
 وَمَاتَتْ مَا شِئْتُمْ فَلَا تَنْحَلُّ عَزَائِمِكُمْ أَمَامَ الْمُصِيبَةِ بَلْ قَوْمُوا كَمَا
 يَقُومُ الشُّجَاعُ وَعَا لِبُوا تِلْكَ الْحَوَادِثِ وَاسْعَوْا فِي تَعْوِيضِ مَا خَسِرْتُمْ »
 ذَلِكَ حَقًّا هُوَ التَّرَاحُمُ فِي الْحَيَاةِ . وَكَأَنِّي بِهِذَا الْقَوْلِ نَشِيدًا تَتَرَنَّمُ
 بِهِ الْجُمُوعُ يَوْمَ تَقُومُ الْأُمَّةُ سَائِرَةً نَحْوَ افْتِتَاحِ الْعَالَمِ لَا كَفَتْحِ

البروسيا، وقال السير «جراهام برى» وهو الوكيل العام في مستعمرة
 فيكتوريا: «إنكم تجدون في جميع أنحاء المسكونة أرضاً يخفق
 عليها العلم البريطاني، فلکم أن تسيروا من إقليم كندا الباردة
 إلى نواحي إفريقيا الحارة أو إلى بلاد أستراليا، وحيثما وجدتم ترون
 العلم الذي يقاوم الحروب وعواصف الرياح منذ ألف عام، واليوم
 يومكم، فافقهوا الخطاة التي يجب عليكم اتباعها، وتبينوا ما أردتم
 من الأعمال قبل الشروع فيها، واتخذوا لكم في ذلك سبيلاً
 معروفاً، ولا تترددوا في أمركم بل كونوا شجعاناً ذوي إقدام
 وجدٍ واحتمال، على أني لا أضن أن شاباً إنكليزياً تقعد به الحاجة
 وأمأمته مستعمرات كثيرة كلها مفتوحة الأبواب له، ومعول
 نجاحه فيها عليها، لست الآن شاباً مثلكم فقد مضى أربعون عاماً
 من يوم أن سافرت وما كنت أملك من المزايا ما أنتم تملكون،
 كنت غريباً قليل المال لا خبرة لي بالمسائل الفنية ولا صديق
 في البلاد التي قصدتها، ومع ذلك قد وصلت إلى رتبة الوزير الأول
 في تلك المستعمرة وترأست ثلاث مرات على سلطة التشريع فيها»
 هذا وإذا ذكر القارئ أن ذلك التعليم ليس مقصوداً على شبان
 مدرسة واحدة، بل هو عام في الأمة بتامها، والغرض منه
 الاستعداد لذلك التزاحم في الحياة، وعلم أن الذي ينتشر في الخارج

هُوَ تِلْكَ الْأُمَّةُ بِتَمَامِهَا صَاحِبَةٌ تِلْكَ التَّرْبِيَّةِ الْقَوِيَّةِ الْفَعَّالَةِ ، تَجَلَّتْ
 الْأَحْوَالُ كَمَا يَنْبَغِي ، وَعَلِمَ لِمَنِ الْمُسْتَقْبَلُ وَلِمَنِ الدُّنْيَا ، وَاخْتَارَ
 لِأَبْنَائِهِ التَّرْبِيَّةَ الْإِنْكِلِيزِيَّةَ السَّكْسُونِيَّةَ لَا التَّرْبِيَّةَ الْأَلْمَانِيَّةَ
 إِنْ أَرَادَ أَنْ يَدْرَأَ عَنْهُمْ ^(١) طَوَارِيءَ الْأَيَّامِ ، وَكَيْفَ يَتَأَنَّى أَنْ يَعِيشَ
 الشَّابُّ الْأَلْمَانِيُّ بِجَانِبِ ذَلِكَ الرَّجُلِ الْجَبَّارِ الَّذِي تَرَبَّى تِلْكَ التَّرْبِيَّةَ
 الَّتِي شَرَحْنَاهَا وَهُوَ إِنَّمَا تَلَقَّى فِي إِحْدَى الْمَدَارِسِ الْأَلْمَانِيَّةِ تَعْلِيمًا
 مَقْصُورًا عَلَى تَمْجِيدِ الْحُكُومَةِ الْبُرُوسِيَانِيَّةِ وَالْجُنْدِيَّةِ الْبُرُوسِيَانِيَّةِ فَلَا
 يَعْرِفُ مِنْ تَخْطِيطِ الْأَرْضِ إِلَّا الْبُرُوسِيَا ، وَلَا مِنْ التَّارِيخِ إِلَّا
 الْبُرُوسِيَا أَوْ تَارِيخَ مُلُوكِهَا ، وَلَا يَعْرِفُ شَيْئًا مِنْ حَالَةِ الدُّنْيَا الْخَارِجَةِ
 لِاحْتِجَابِهِ عَنْهَا ، وَلَا كَيْفَ تَكُونُ مُزَاوَلَةُ الْأَعْمَالِ الْحُرَّةِ
 ثُمَّ الْقِيَّ بِهِ فَجَاءَتْ بَعْدَ هَذَا فِي إِحْدَى الْأَقَاصِي كَأَنِّي بِكَ أَيُّهَا
 الْقَارِئُ وَقَدْ عَرَفْتَ أَيَّ الرَّجُلَيْنِ أَعَدَّ لِلْمُسْتَقْبَلِ الَّذِي قَضَتْ بِهِ
 حَالَةَ الدُّنْيَا الْجَدِيدَةَ عَلَى الْأُمَّمِ الْجَدِيدَةِ وَأَيُّمَا يَكُونُ ذَا الْهِمَّةِ
 فِي الْأَعْمَالِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي لَمْ تَعُدْ مِنْ خِصَائِصِ الْمُلُوكِ بَلْ مِنْ لَوَازِمِ
 الْأُمَّمِ كَمَا قَالَ إِمْبِرَاطُورُ الْأَلْمَانِيَا

هَاقِدْ يَنْتُ لَكَ نِظَامَيْنِ أَحَدُهُمَا صَادِرٌ مِنْ أَقْوَى مَلِكٍ ، وَيُعْزَى ^(٢)

الثَّانِي إِلَى بَعْضِ الْأَفْرَادِ ، وَلَعَلَّ الْمَلِكَ الْعَظِيمَ لَمْ يَفْطُنْ إِلَى أَنْ أَحْسَنَ

(١) يدرأ يدفع (٢) يعزى ينسب

طَرِيقٍ فِي تَشْجِيعِ الْأُمَّةِ وَتَحْرِيضِهَا عَلَى الْعَمَلِ الذَّاتِيِّ إِنَّمَا هُوَ أَنْ
يَنْسَجِبَ الْمَلِكُ لِأَنَّ الْهَيْمَةَ الشَّخْصِيَّةَ تَبْتَدِي حَيْثُ يَنْتَهِي تَدَخُّلُ
الْحُكُومَاتِ

الباب الثالث

﴿ فِيمَا إِذَا كَانَ نِظَامُ التَّعْلِيمِ بِالْمَدَارِسِ الْأَنْكَلِيزِيَّةِ يُرَبِّي رِجَالًا ﴾
لَوْ أَرَدْنَا تَلْخِيصَ الْمَسْئَلَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ فِي صِيغَةٍ صَغِيرَةٍ لَقُلْنَا إِنَّ
مَرْجِعَهَا التَّرْبِيَّةُ إِذِ الْمُرَادُ بِحَلِّ الْمَسْئَلَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ هُوَ تَعْوِيدُ
الشَّخْصِ حُبَّ الْأَحْوَالِ الْجَدِيدَةِ فِي الْعَالَمِ وَكَأَنَّهَا تَطْلُبُ أَنْ يَصِيرَ
الْمَرْءُ قَادِرًا عَلَى الْإِرْتِزَاقِ بِنَفْسِهِ لِأَنَّ الْوَسَائِلَ الْقَدِيمَةَ الَّتِي اعْتَادَ
النَّاسُ اسْتِعْمَالَهَا صَارَتْ غَيْرَ مُفِيدَةٍ وَلَا وَافِيَةٍ بِالْمُرَادِ وَلَا شُبْهَةً
فِي أَنْصَائِرُونَ إِلَى زَمَنِ يَتِمُّ فِيهِ التَّغْيِيرُ الَّذِي تُبَدُّونَا إِشَارَاتُهُ^(١) سِوَاهُ
أَنَّ كَانَ فِيهِ سَعَادَةٌ لِنَاظِمِ شِقَاءٍ وَكَيْسَ الْخُرْجِ الَّذِي نَشْعُرُ بِهِ آتِيًا إِلَّا
مِنَ التَّنَاقُضِ بَيْنَ وَسَائِلِ تَرْبِيَّتِنَا الْمَوْسَسَةِ عَلَى طَرِيقَةٍ تَقَادِمَ عَهْدِهَا
وَبَيْنَ مَا تَقْتَضِيهِ ظُرُوفُ الْحَيَاةِ الْجَدِيدَةِ ، فَإِنَّا لَا نَزَالُ نُرَبِّي رِجَالًا
لَا يَصْلُحُونَ إِلَّا لْجَمْعِيَّةٍ قَدْ قَضَتْ نَجْبَهَا^(٢) ، وَمِنَ الصَّعْبِ أَنْ نَعْدِلَ

(١) يريد انذاراته وما يشير به اليها (٢) قضى نجبها مات والكلام هنا استعارة

عَنْ تِلْكَ التَّرْبِيَةِ ، وَ لَسْتُ أَدْرِي إِنْ كَانَ الْقُرَاءُ يَشْعُرُونَ بِمَا أَقُولُ
 بِالنَّظَرِ لِأَنْفُسِهِمْ ، غَيْرَ أَنِّي شَاعِرٌ بِهِ فِي نَفْسِي فَأَحْسِبُ أَنِّي رَجُلَانِ ،
 رَجُلٌ دَرَسَ عِلْمَ الْإِجْتِمَاعِ وَرَأَى مَا يَجِبُ فِعْلُهُ ، وَرَجُلٌ حُبَسَ فِي دَائِرَةِ
 تَرْبِيَتِهِ الْأُولَى ، وَرَزَحَ تَحْتَ أَثْقَالِ (١) مَاضِيهِ فَهُوَ غَيْرُ قَادِرٍ عَلَى الْعَمَلِ
 بِمُقْتَضَى عِلْمِ الْأَوَّلِ وَإِنْ أَتَى عَمَلًا فَهُوَ صَعْبٌ وَنَاقِصٌ ، كَأَنَّ رَأْسِي
 دَخَلَ فِي نِظَامِ التَّرْبِيَةِ الْإِسْتِقْلَالِيَّةِ الَّتِي تُقَوِّى الْهِمَّةَ الذَّاتِيَّةَ وَظَلَّ
 جِسْمِي مَحْجُورًا عَلَيْهِ فِي نِظَامِ التَّرْبِيَةِ الْإِتِّكَالِيَّةِ الَّتِي تَضْعُفُهُ ،
 وَمِنْ هُنَا جَازَ عَلَيْنَا قَوْلُ (فِيرَجِل) الشَّهِيرِ « إِنْ مِنْ الصَّعْبِ أَنْ
 يَتَحَوَّلَ الْإِنْسَانُ عَنْ تَرْبِيَتِهِ الْأُولَى » ذَلِكَ لِأَنَّ الْأُمَّمَ قَسَمَانِ : فَمِنْهَا
 مَنْ تَرَبَّتْ عَلَى الْإِتِّكَالِ وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ مِيلِ أَفْرَادِهَا إِلَى الْإِعْتِمَادِ
 عَلَى الْهَيْئَةِ أَوْ الْحِزْبِ مِنْ عَائِلَةٍ وَعَشِيرَةٍ وَقَبِيلَةٍ وَحُكُومَةٍ وَغَيْرِهَا
 لَا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، وَأَكْبَرُ مِثَالٍ لِتِلْكَ الْأُمَّمِ هُوَ الشَّرْقُ ، وَمِنْهَا مَنْ
 تَرَبَّتْ عَلَى النِّشْأَةِ الْإِسْتِقْلَالِيَّةِ أَيْ أَنْ كُلَّ فَرْدٍ مِنْهَا يَعْتَمِدُ عَلَى
 نَفْسِهِ لَا عَلَى الْجَمَاعَةِ ، وَأَعْظَمُ مِثَالٍ فِيهَا هِيَ الْأُمَّمُ الْإِنْكِلِيزِيَّةُ
 السَّكْسُونِيَّةُ

إِلَّا أَنْ مَا صَارَ صَعْبًا عَلَيْنَا وَغَيْرُ مُمَكِّنٍ فِي السَّنِّ الَّتِي وَصَلْنَا إِلَيْهَا
 لَيْسَ كَذَلِكَ بِالنَّظَرِ إِلَى أَبْنَائِنَا لِأَنَّهُمْ لَا يَرَالُونَ كَالْعُودِ الْأَخْضَرِ

(١) من قولهم رزح البعير اذا سقط من الاعياء ولم يستطع نهوضا

يَسْهُلُ تَقْوِيمُهُ وَالتَّعْلِيمُ فِي الصِّغَرِ كَالنَّقْشِ فِي الْحَجَرِ ، وَإِذْ قَدْ مُحْكِمَ عَلَيْنَا بِالْإِقَامَةِ عَلَى شَاطِئِ النَّهْرِ وَجَبَ أَنْ نَمُدَّ إِلَيْهِمْ يَدَ الْمُسَاعَدَةِ كَيْ يَعْزُبُوهُ ، ذَلِكَ هُوَ أَكْبَرُ الْأَعْمَالِ بِالنَّظَرِ لِلآبَاءِ فِي هَذِهِ الْأَوْقَاتِ ، فَمَنْ لَمْ يَفْعَلْهُ فَقَدْ أَهْمَلَ أَوَّلَ وَاجِبٍ عَلَيْهِ ، وَلَا بُدَّ أَنْ يُعَاقَبَ عَلَى إِهْمَالِهِ فِي أَبْنَائِهِ ، أَمَا أَنَا فَقَدْ عَقَدْتُ النِّيَّةَ عَلَى أَدَائِهِ بِالنِّسْبَةِ لِأَبْنَائِي ، وَلِهَذَا انْتَهَزْتُ فُرْصَةَ وُجُودِي الْمَرَّةَ الْأَخِيرَةَ بِبِلَادِ الْإِنْكَلِيزِ ، وَاخْتَبَرْتُ أَحْوَالَ التَّرْيِيَةِ هُنَاكَ مِنْ جِهَتَيْهَا الْعَمَلِيَّةِ ، وَهَذَا أَنَا إِذَا أَرْضُ نَتِيجَةِ اخْتِبَارِي عَلَى إِخْوَانِي آبَاءِ الْعَائِلَاتِ الْفَرَنْسَاوِيِّينَ لَعَلَّهُمْ يَسْتَفِيدُونَ مِنْهُ كَمَا أَفَادَنِي

يَجْتَهِدُ الْإِنْكَلِيزُ أَكْثَرَ مِنَّا فِي إِصْلَاحِ تَرْيِيَةِ شِبَانِهِمْ عَلَى الدَّوَامِ مَعَ أَنَّ التَّرْيِيَةَ الْإِنْكَلِيزِيَّةَ تُوَافِقُ حَالَةَ الْحَيَاةِ الْحَاضِرَةِ أَكْثَرَ مِنْ تَرْيِيَتِنَا وَالنَّجَاحِ فِيهَا عِنْدَهُمْ أَكْثَرُ مِنْ النَّجَاحِ عِنْدَنَا ، لِذَلِكَ تَرَى فِيهِمْ رِجَالًا أَكْبَرَ هِمَّةً وَأَقْدَرَ فِي الْإِعْتِمَادِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَهُمْ مُتَقَدِّمُونَ عَلَيْنَا فِي التَّمَشُّيِ مَعَ تَقَلُّبَاتِ الْعَصْرِ الْجَدِيدَةِ ، فَيَشْعُرُونَ أَكْثَرَ مِنَّا بِوُجُوبِ الْإِسْتِعْدَادِ لِمَا تَقْتَضِيهِ ، وَهِيَ تَقْتَضِي عَلَى الْخُصُوصِ تَرْيِيَةَ شِبَانِ قَادِرِينَ عَلَى الْإِرْتِزَاقِ بِأَنْفُسِهِمْ مَهْمَا صَعِبَتْ مَتَاعِبُ الْحَيَاةِ وَتَنَوَّعَتْ ظُرُوفُهَا ، وَمِنْ أَجْلِ هَذَا كَانَ مِنْهُمْ رِجَالٌ ذَوُو دَعْمٍ وَعَزِيمَةٍ لَا مَوْظِفُونَ أَوْ أَدِيثُونَ لَا يَعْرِفُونَ مِنَ الْحَيَاةِ إِلَّا

مَا تَعَلَّمُوهُ فِي الْكِتَابِ^(١) وَهُوَ فِي الْوَاقِعِ شَيْءٌ يَسِيرٌ، أَمَّا الثَّمَرَةُ الَّتِي
يَطْلُبُهَا الْإِنْكَلِيزُ فَإِنَّهَا تُوَافِقُ كُلَّ الْمَوَافِقَةِ ظُرُوفِ التَّقَلُّبَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ
فِي عَصْرِنَا هَذَا، وَتِلْكَ الثَّمَرَةُ هِيَ الرَّجَالُ

دَارَ الْحَدِيثِ ذَاتَ يَوْمٍ فِي (ادمبرج) بَيْنِي وَبَيْنَ أَحَدِ الْمُعَلِّمِينَ
فِي مَدْرَسَةِ (دونديه) عَلَى التَّعْلِيمِ فِي إِنْكَلِتْرَا فَقَالَ لِي : « غَدًا
سَيَخْطُبُ رَجُلٌ لَعَلَّكَ تَسْتَفِيدُ مِنْهُ فِي مَدْرَسَةِ (صوميد ميتنج) وَهُوَ
مُؤَسَّسُ مَدْرَسَةٍ فِي دَاخِلِيَّةِ الْبِلَادِ وَمُدِيرُهَا وَاسْمُهُ الدُّكْتُورُ
(سسل ريدي) وَقَدْ دُهَشْتُ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي لَمَّا تَعَارَفْنَا ، فَعَهْدِي
بِنِظَارِ الْمَدَارِسِ وَالْمُعَلِّمِينَ عِنْدَنَا أَنَّ لَهُمْ زِيًّا مَخْصُوصًا : يُنْمَقُونَ
لِبَاسَهُمْ وَيَخْتَارُونَ الْأَلْوَانَ الدَّاكِنَةَ^(٢) وَيُفَضِّلُونَ الرِّدَاءَ الطَّوِيلَ
حَتَّى تَلُوحَ عَلَيْهِمْ عَلَائِمُ الْإِحْتِفَالِ وَالتَّرْفُعِ كَرَجُلٍ مُقْتَسِعٍ بِأَنَّهُ
ذُو سُلْطَةِ رُوحِيَّةٍ يُرِيدُ أَنْ يُظْهِرَهَا ، يَمْشُونَ بِبِطْءٍ مُتَجَهِّمِينَ^(٣) ،
وَيُكْثِرُونَ فِي حَدِيثِهِمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ وَالْجُمَلِ الَّتِي تَلِيقُ بِرَبِيَّةِ عَقْلِ
الشَّبَّانِ وَلِبَهُمْ ، وَقَدْ بَلَغَتْ مِنْهُمْ الْأَنَفَةُ^(٤) مِنْهَاهَا ، لَكِنِّي وَجَدْتُ
الرَّجُلَ الَّذِي قَبَضَ عَلَى يَدِي بِشِدَّةٍ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ بِالْمَرَّةِ ، فَهُوَ

(١) الكتاب واحد الكتب أى إلاماتعلموه من الكتب (٢) الداكنة لون يضرب

إلى السواد (٣) عبوسين (٤) يريد العجرفة والعطرسية

أشبهه برجل يزاول الأعمال الشاقة، طويل القامة، نحيف الجسم، قوى العضلات، تركيب يوافق جميع الأعمال التي تقتضى سرعة الحركة واللين والإقدام، بلباس يوافق تلك الصفات كأنه سائح إنجليزي، فتمد ارتدى ثوباً (سترة) صغيرة من الجوخ رمادية اللون في وسطها حزام، ثم سراويل قصيرة^(١)، وجوزباً طويلاً ينثنى تحت الركبة، وحذاء متيناً، وعلى رأسه قلنسوة صغيرة^(٢) وقد وصفته لأن هيئته تمثل المدرسة التي سأشرح حالها للقراء، فالرجل مثل العمل بالتمام.

ولما كان^(٣) اليوم الموعود وهو يوم السبت حيث الدروس معطلة ركب مع الدكتور (ريدى) في إحدى العربات المخصصة بنزهة أعضاء تلك المدرسة، وقضى مسافة الطريق ووقفاً كبيراً من النهار يشرح لي حالتها ونظامها ويخبرني عما كنت أسأل عنه ويسألني عما أريد، ومما قاله لي: (إن التعليم الحالي لم يعد موافقاً لظروف الحياة العصرية فإنه يربي رجالاً هم أليق بالماضى منهم بالزمن الحاضر، وأكثر شباناً يقتلون قسماً كبيراً من وقتهم في درس اللغات المندثرة^(٤) ولن يستعملها النزر اليسير منهم في حياتهم

(١) السراويل كلفه فارسية معناها اللباس الذي يستر النصف الأسفل من الجسم والمراد هنا « بنطلون » (٢) يريد قبعة « برنيطة » (٣) كان هنا تامه (٤) المندثرة من دثر الرسم درس وعفا

الأقليلًا ، وعلى العكس من ذلك يكادون يَمُرُّونَ كَالْحَيَالِ فِي تَعَلُّمِ اللُّغَاتِ العَصْرِيَّةِ وَالْعُلُومِ الطَّبِيعِيَّةِ ، ثُمَّ يَمْضُونَ عَلَى جَهْلٍ تَامٍ بِجَمِيعِ مَا تَجِبُ مَعْرِفَتُهُ فِي الْحَيَاةِ الْحَقِيقِيَّةِ ، أُرِيدُ اسْتِعْمَالَ الْأَشْيَاءِ وَالْوُقُوفَ عَلَى مَنَفَعَتِهَا فِي الْهَيْئَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ ، كَذَلِكَ تَحْتَاجُ الْعَابِنَاءُ إِلَى الْإِصْلَاحِ كَمَا يَجِبُ إِصْلَاحُ طُرُقِ الشُّغْلِ فَإِنَّ الْإِفْرَاطَ فِي الْعَمَلِ حَاصِلٌ كَالْإِفْرَاطِ فِي الدَّرْسِ ، غَيْرَ أَنَّ الْإِصْلَاحَ صَعْبٌ لِخُضُوعِ مَدَارِسِنَا إِلَى تَأْثِيرِ الْمَدَارِسِ الْكَلِمِيَّةِ الَّتِي تَأْخُذُ طَلِبَتِهَا مِنْ تَلَامِيذِنَا ، وَتِلْكَ الْمَدَارِسُ الْكَلِمِيَّةُ غَيْرُ مُتَمَكِّنَةٍ مِنْ نَفْسِهَا شَأْنًا جَمِيعِ الْمُجْتَمَعَاتِ الْقَدِيمَةِ ، كَأَنَّ عَامِلًا خَفِيًّا يُحُومُ^(١) فَوْقَ رُءُوسِ نُظَّارِهَا وَمُعَلِّمِيهَا وَلَا أَرَاهُ إِلَّا تَمَسَّكَهُمْ بِالتَّقَالِيدِ الْقَدِيمَةِ وَالْعَوَائِدِ السَّابِقَةِ وَهِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنَ الْقُوَّةِ نَفْسِهَا (وَلَمَّا سَأَلْتُهُ وَكَيْفَ حِينئِذٍ يَتَأْتَى لِمَدْرَسَتِكُمْ أَنْ تُغَيِّرَ هَذَا التَّعْلِيمَ أَجَابَنِي (إِنَّ غَرَضَنَا هُوَ الْوُصُولُ إِلَى تَرْبِيَةِ جَمِيعِ الْمَلَكَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ عَلَى نِسْبَةٍ وَاحِدَةٍ إِذْ يَجِبُ أَنْ بَصِيرَ الطِّفْلِ رَجُلًا كَامِلًا حَتَّى يَكُونَ قَادِرًا عَلَى الْوُصُولِ إِلَى الْغَرَضِ الْمَقْصُودِ مِنَ الْحَيَاةِ ، لِذَلِكَ يَنْبَغِي أَلَّا تَكُونَ الْمَدْرَسَةُ وَسَطًا صِنَاعِيًّا لَا يُخَالِطُ فِيهِ الطَّلَابُ الْحَيَاةَ إِلَّا بِالْكِتَابِ^(٢) ، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ وَسَطًا عَمَلِيًّا يُقَرِّبُ بَيْنَ الطِّفْلِ وَطَبِيعَةِ

(١) حاه الطاهر وغيره حول اشياء دار (٢) أى بواسطة الكتاب أى الكتب

الأشياءَ وَحَقِيقَتِهَا بِقَدْرِ الإِمْكَانِ، فَلَا يَتَعَلَّمُ العِلْمَ وَحْدَهُ بَلْ يَقْرِنُ العِلْمَ بِالْعَمَلِ إِذْهُمَا أَمْرَانِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَا مُتَلَازِمَيْنِ فِي المَدْرَسَةِ كَتَلَازِمِهِمَا فِي الخَارِجِ حَتَّى إِذَا دَخَلَ الشَّابُّ فِي الحَيَاةِ لَا يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَدْخُلُ فِي عَالَمٍ جَدِيدٍ لَمْ يَتَأَهَّبْ لَهُ وَحَتَّى لَا يُصْبِحَ فِي حَيْرَةٍ لَا يَدْرِي أَيْنَ قِبْلَةُ^(١) الأَعْمَالِ، ذَلِكَ لِأَنَّ الإِنْسَانَ لَيْسَ عَقْلاً مُجَرِّداً عَنِ المَادَّةِ بَلْ هُوَ عَقْلٌ مُبَازِمٌ لِجِسْمِهِ، فَيَجِبُ أَنْ تَعْمَلَ التَّرْبِيَةُ هِمَّتَهُ وَإِرَادَتَهُ وَقُوَّتَهُ المَادِيَّةَ وَمَهَارَتَهُ اليَدَوِيَّةَ وَخِفَتَهُ فِي حَرَكَاتِهِ (وَكَلَّمَا أَوْغَلَ^(٢) الدكتور ريدى فِي حَدِيثِهِ أَزْدَدْتُ الإِمَاماً^(٣) بِالغَرَضِ الَّذِي قَصَدَهُ مِنْ مَدْرَسَتِهِ، غَيْرَ أَنِّي لَمْ أَقِفْ عَلَيْهِ تَمَاماً لِذَلِكَ طَلَبْتُ مِنْهُ أَنْ يُبَيِّنَ لِي كَيْفَ يَشْتَغِلُ الطَّلَبَةُ فِي يَوْمِهِمْ سَاعَةً فَسَاعَةً، وَلَمَّا أَحْرَزْتُ^(٤) جَوَابَهُ وَوَعَيْتُ بَيَانَهُ وَضَحَّ لِي المُرَادُ وَأَدْرَكْتُ حَقِيقَةَ نِظَامِ تِلْكَ المَدْرَسَةِ وَسَأَدُّ كُرُهُ فِيمَا بَعْدُ ثُمَّ انْتَهَى بِنَا المَسِيرِ إِلَى كَنِيسَةِ (دُونفرملين) وَخَرَجْنَا مِنْهَا إِلَى مَنْزِلِ أَحَدِ المَوْسِرِينَ^(٥) لِتَنَاوُلِ الشَّيْءِ اسْمُهُ موسيو (هنرى بيفردج) وَهُوَ مِنْ قُرَاءِ مَجَلَّتِنَا (العِلْمِ الإِجْتِمَاعِيِّ) وَمِنْ المَوْاطِبِينَ عَلَى سَمَاعِ دَرَسِنَا مِنْذُ ثَلَاثِ سِنِينَ وَقَدْ رَغِبَ إِلَيَّ أَنْ أَقِيمَ عِنْدَهُ إِلَى مَوْعِدِ

(١) يريد لا يدرى أين يتجه (٢) أى أمعن وازداد وأصل الأفعال السير السريع
والأمعان فيه وتوغل فى الأرض سار فيها وأبعد (٣) أصل الإمام المقاربة من الشيء
والأحسن ازددت علما (٤) يريد وعيت (٥) الموسرين أى الأغنياء

شُرُوعِي فِي الْقَاءِ خُطْبِي يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ صَبَاحًا ، فَسَأَلْتُهُ هَلْ يَعْرِفُ
 شَيْئًا عَنْ مَدْرَسَةِ الدُّكْتُورِ (رِيدِي) فَأَجَابَنِي أَنَّهُ زَارَهَا وَأَنَّهُ سَيُرْسِلُ
 ابْنَهُ الْأَوَّلَ إِلَيْهَا بَعْدَ شَهْرَيْنِ وَعُمُرُهُ الْآنَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً وَأَنَّهُ
 لَمْ يَكْتَفِ بِزِيَارَتِهَا بَلْ كَتَبَ إِلَى كَثِيرِينَ يَسْأَلُهُمْ عَنْ رَأْيِهِمْ
 فِي تَعْلِيمِ أَبْنَائِهِمْ فِيهَا فَاجْمَعُوا عَلَيَّ اسْتِحْسَانِهَا وَفَوَائِدِهَا ، ثُمَّ قَدَّمَ
 إِلَيَّ رِسَالَتِهِمْ وَإِلَيْكَ نَصَّهَا

سَيِّدِي الْعَزِيزُ

مَكَتَ ابْنِي سَنَةً وَنِصْفَ سَنَةٍ فِي مَدْرَسَةِ (أَبُو تَصُولِمْ)
 وَكَانَ عُمُرُهُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً ، وَقَدْ اِزْدَادَ عَقْلُهُ فِيهَا أَكْثَرَ
 مِمَّا نَالَهُ فِي الْمَدَارِسِ الْأُخْرَى وَتَرَعَّرَ عَ جِسْمِهِ^(١) ، وَرَكَتْ أَخْلَاقُهُ^(٢)
 وَسُرُرْتُ جِدًّا مِنْ نَتِيجَةِ تَعْلَمِهِ ، أَمَّا الدُّكْتُورُ (رِيدِي) فَرَجُلٌ قَوِيٌّ
 الْاِسْتِقْلَالِ ، وَوَلَدٌ مُرَبِّيًا ، وَعِنْدِي^(٣) أَنَّ طَرِيقَةَ التَّعْلِيمِ فِي تِلْكَ
 الْمَدْرَسَةِ وَمَبَادِئُهَا جَيِّدَةٌ ، وَكَانَ ابْنِي يُحِبُّهَا وَيَعْمَلُ إِلَى أَعْمَالِهَا
 وَأَظُنُّ أَنَّ جَمِيعَ التَّلَامِيذَةِ مِثْلُهُ ، وَهِيَ كَامِلَةٌ مِنَ الْجِهَةِ الْأَدَبِيَّةِ ،
 وَفِي اعْتِقَادِي أَنَّكُمْ لَا تَجِدُونَ أَحْسَنَ مِنْهَا لِتَرْبِيَةِ نَجْلِكُمْ
 وَهَذَا كِتَابٌ آخَرٌ

(١) يريد نما (٢) أي ظهرت (٣) أي وفي رأي واعتقادي

سيدي العزيز

رَدًّا عَلَى خِطَابِ حَضْرَتِكُمْ الْمُتَعَلِّقِ بِمَدْرَسَةِ (ابوتصولم) أَعَدُّ
نَفْسِي سَعِيدًا بِإِجَابَتِكُمْ عَن مَسْأَلَتِكُمْ

لَنَا فِي (ابوتصولم) وَلَدَانِ قَدْ حَسُنَتْ صِحَّتُهُمَا جَدًّا فِيهَا، وَجَاءَنَا
مِنْهُمَا خِطَابٌ يُخْبِرَانِي فِيهِ أَنَّ الثَّلَاثَةَ الْأَشْهُرَ الْأُولَى انقَضَتْ بِهَدْوٍ
وَأَنَّهُمَا مُتَمَعَّانَ بِالرَّاحَةِ وَالْهِنَاءِ، وَقَدْ تَوَفَّرَتْ فِيهَا شُرُوطُ الصِّحَّةِ
فِي الْمَعِيشَةِ، وَيَتَعَلَّمُ التَّلَامِذَةُ كِفَايَةَ حَاجَاتِهِمْ بَأَنْفُسِهِمْ، وَأَنَّ
يَكُونُوا عَلَى اسْتِقْلَالٍ تَامٍ، وَأَرَى أَنَّ التَّرْبِيَةَ الْأَدَبِيَّةَ فِي تِلْكَ الْمَدْرَسَةِ
رَفِيعَةٌ، وَأَنَّ التَّلَامِذَةَ يُنْتَجَبُونَ بِاعْتِنَاءٍ وَبَيْنَ الْمُعَلِّمِينَ وَالطَّلَبَةِ
حُرِّيَّةٌ تَامَةٌ فِي الْمَعَامَلَاتِ، وَاتَّفَقَ أَنَّ أَحَدَهُمْ أَقَامَ عِنْدَنَا فُسْحَةً
الْعِيدِ فَدَهَشْنَا مِنْ عَدَمِ التَّكْلِيفِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أُنْجَالِنَا، وَلِهَوَاهُ
شَغَفٌ بِأَسَانِدَتِهِمْ وَقَدْ تَقَدَّمَ نَجْلُنَا الْبِكْرُ تَقَدُّمًا سَرِيعًا فِي التَّعْلِيمِ
أَمَّا الثَّانِي فَمَتَأَخَّرَ إِلَّا أَنَّهُ ذُو تَيْقُظٍ أَكْبَرَ مِنْ ذِي قَبْلُ وَصَارَ الْإِثْنَانِ
أَكْثَرَ نَشَاطًا، فَنِي الْمَدْرَسَةِ مَجَالٌ فَسِيحٌ لِتَرْبِيَةِ الْأَنَانِيَّةِ

الشَّخْصِيَّةِ (١)

وَلَيْسَ فِيهَا تَعْلِيمٌ دِينِيٌّ مُخْصُوصٌ وَإِنَّمَا تُتْلَى الصَّلَوَاتُ فِي الصَّبَاحِ
وَالْمَسَاءِ وَفِيمَا خِلَا ذَلِكَ يَذْهَبُ التَّلَامِذَةُ إِلَى كَنِيسَةِ الْأَبْرَشِيَّةِ إِذْ

(١) يريد الاستقلال وعدم الاعتماد على أحد

نَحْنُ مِنْ مَذْهَبِ الْجَمَاعَةِ ، وَيَرْتَأَى أَوْلَادُنَا بِذَهَابِهِمْ إِلَى مَعْبَدِهِمْ
وَفِي عَزْمِنَا أَنْ نَدْخُلَ نَجْلُنَا الثَّالِثَ تِلْكَ الْمَدْرَسَةَ لَكِنَّهُ لَا يَزَالُ
صَغِيرًا لِأَنَّ عُمُرَهُ ثَمَانِي سِنِينَ وَنِصْفُ سَنَةٍ

وَهَذَا خِطَابٌ آخَرَ

سَيِّدِي الْعَزِيزُ

أَجِيبُ حَضْرَتَكُمْ بِكُلِّ ارْتِيَاحٍ عَنِ سُوءِ الْكَمِّ عَنِ مَدْرَسَةِ
(ابوتصوالم) لِأَنَّ ابْنِي فِيهَا مُنْذُ سَنَةٍ ، وَحَالَتُهُ مَرْضِيَّةٌ وَهُوَ يَسْتَفِيدُ
كَثِيرًا ، وَلَا بَدَأَ أَنْ كَمَّ عَرَفْتُمْ شَأْنَ الْمَدْرَسَةِ مِنْ نِظَامِهَا ، وَهِيَ
لَا تَهْتَمُّ بِالتَّعْلِيمِ الْمَدْرَسِيِّ الْمَشْهُورِ ؛ إِلَّا أَنَّهَا تَعْتَنِي بِاللُّغَاتِ الْعَصْرِيَّةِ
وَبِكُلِّ مَا يُفِيدُ الشَّبَانَ فِي حَيَاتِهِمْ ؛ وَلَهَا اِهْتِمَامٌ عَظِيمٌ بِالصِّحَّةِ وَتَرْبِيَةِ
الْأَخْلَاقِ ، وَأَطْعَمَتِهَا جَيِّدَةٌ مُنَوَّعَةٌ تُخَالِفُ الْأَطْعِمَةَ الَّتِي تُقَدَّمُ عَادَةً
فِي الْمَدَارِسِ ، وَالْمَبَادِيءُ الَّتِي ذُكِرَتْ فِي النِّظَامِ يُعَلِّمُهَا بِغَايَةِ الضَّبْطِ
وَالْإِحْكَامِ رَجُلٌ أَمْتَّازَ بِالْعَقْلِ وَالْإِقْدَامِ ، ذُو مِيلٍ خَاصٍّ إِلَى
تَرْبِيَةِ الشَّبَانَ ، أَمَّا عِدَدُ طَلَبَتِهَا فَخَمْسُونَ ، وَلِذَلِكَ يُعْتَنَى بِكُلِّ وَاحِدٍ
مِنْهُمْ عَلَى حَدِيثِهِ ، وَلَمْ أَمْكُثْ فِيهَا سِوَى يَوْمَيْنِ ، غَيْرَ أَنِّي أُعْجِبْتُ
كَثِيرًا بِمَا شَاهَدْتُهُ مِنَ الْمَعِيشَةِ الرَّاضِيَةِ ، وَلَمْ أَجِدْ فِيهَا نَقْصًا إِلَّا
عَدَمَ تَعْلِيمِ التَّوَرَاتِ الْمُتَمَدِّسَةِ وَلَعَلَّكَ لَا تَرَى ذَلِكَ عَيْبًا ، أَمَّا مَوْقِعُهَا
فَصِحْحِي قَدْ كَمَلْتُ فِيهِ وَسَائِلُ الرَّاحَةِ وَمُدْرَسُوهَا عَلَى جَانِبٍ مِنْ

الظرفِ وَالْعِلْمِ الْوَافِرِ لِأَنَّ الدَّكْتُورَ « ريدى » يَخْتَارُهُمْ مِنْ ذَوِي
 الْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ وَالْفَضَائِلِ الْكَامِلَةِ لِكَيْ يَدْشُوا حُبَّ الْخَيْرِ
 فِي التَّلَامِيذِ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ مَاهِرُونَ فِي فنِّ الْمَوْسِيقِ اه
 فَلَمَّا قَرَأْتُ هَذِهِ الرَّسَائِلَ وَأَخَذْتُ حِطِّي مِنْ مُحَادَثَةِ مُوسِيو
 « بيرفردج » عَوَّلْتُ عَلَى اخْتِبَارِ الْأَمْرِ بِنَفْسِي وَإِلَيْكَ مَا وَصَلْتُ إِلَيْهِ
 افْتَتَحَتْ مَدْرَسَةُ الدَّكْتُورِ « ريدى » فِي شَهْرِ اَكْتُوبَرِ سَنَةِ ١٨٨٩
 بِمَدِينَةِ « ابوتصولم » مِنْ اِقْلِيمِ « ديريزير » وَهِيَ وَاقِعَةٌ فِي الْخَلَاءِ
 وَسَطِ حَقْلِ^(١) زِرَاعِيٍّ هُوَ مِنْ أَعْظَمِ وَسَائِلِ التَّرْبِيَةِ فِيهَا وَلَيْسَ
 حَوْلَهَا مَدُنٌ كَبِيرَةٌ وَمَعَ كَوْنِهَا قَرِيبَةَ الْعَهْدِ فَإِنَّ أَحَدَ الْمُتَخَرِّجِينَ
 مِنْهَا وَهُوَ مُوسِيو « بادلى » أَنْشَأَ مَدْرَسَةً عَلَى مِثْلِهَا فِي جَنُوبِي
 اِنْسْكَاتْرَا بِاِقْلِيمِ « صوصكص » فِي مَدِينَةِ « بيدال » وَبَيْنَ
 يَدَيَّ الْآنَ مَقَالَةٌ نُشِرَتْ فِي « مَجَلَّةِ الْمَجَلَاتِ » تَحْتَ عُنْوَانِ « تَجْرِبَتَانِ »
 « ابوتصولم » وَ « بيدال » وَصَفَ فِيهَا صَاحِبَيْهَا هَاتَيْنِ الْمَدْرَسَتَيْنِ
 وَأَضَافَ إِلَى الْوَصْفِ صُورًا تُمَثِّلُ مَا احْتَوَتَا عَلَيْهِ وَقَدْ تَوَجَّهْتُ إِلَى
 مَدْرَسَةِ بِيْدَالِ مَرَّتَيْنِ وَشَاهَدْتُ بِنَفْسِي نِظَامَ التَّعْلِيمِ وَحَرَكَةَ
 الْأَعْمَالِ فِيهَا

لَيْسَ مِنْ شَبَهِ بَيْنَ هَاتَيْنِ الْمَدْرَسَتَيْنِ وَمَدَارِسِنَا الْكَبِيرَةِ

(١) الحقل الارض الطيبة يزرع فيها « الغيط »

الكثيرة المجرّدة عن المظاهر بل هما أشبه شئ بيّتين خلويّين من
 بيوت الانكليز يشعر فيهما الإنسان بالحياة الحقيقيّة لا الصناعيّة
 وعليهما سماء البيوت العائليّة لا مظاهر الشكن^(١) العسكريّة أو
 ديار السجون يكتنفهما الهواء والضوء والخلاء والخضرة لا الرحاب
 الضيقة المحصورة بين المباني العالّية، وهذه الهيئة الخارجيّة تحدث
 في الإنسان شعوراً بأنّ المقام هناك لذيذ، إذ ليس من موجب
 يقتضى أن تكون المدرّسة في بناء خشن ثقيل، فإذا دخل
 الإنسان في تلك الدار طاب شعوره الواقع، فغرفة الأكل عائليّة
 صرفة ذات منظر بهيج مقبول، آنيّتها لطيفة، ومائدتها مفروّشة
 بالقماش الأبيض، وآثاثها نقي مزخرف، وفيها آلة طرب «يانو»
 وصوره وتماثيل وكراسي ممّا يدلّ على الاعتناء بالجمع بين النافع
 والمقبول، ومن يقابل بينها وبين عنابر الطعام القبيحة في مدارسنا
 يتبين له من هذه المقارنة وحدها الفرق بين طريقة التعلّم
 في المدرّستين

ومما يزيد هذا الشعور حسناً وقبولاً مشاركة المعلمين وناظر
 المدرّسة وزوجته وبناته للطلبة على المائدة كأنهم جميعاً عائلة

(١) جمع تنكنة وهي مقام الجند

وَاحِدَةٌ وَبِهَذِهِ الْوَاسِطَةِ لَا يَشْعُرُ الطِّفْلُ بِأَنَّهُ انْتَزَعَ مِنَ الْحَيَاةِ
الْحَقِيقِيَّةِ لِأَنَّهُ لَمْ يَنْتَقِلْ إِلَى عَالَمٍ صِنَاعِيٍّ جَدِيدٍ بَلْ خَرَجَ مِنْ مَنْزِلٍ
إِلَى مَنْزِلٍ مِثْلِهِ بِلا تَغْيِيرٍ ، وَصَحِيحٌ مَا جَاءَ فِي كُرَاسَةِ نِظَامِهَا مِنْ أَنَّهَا
« مَنْزِلٌ كَامِلٌ لَا مَكَانٌ يُقْتَصَرُ فِيهِ عَلَى التَّعْلِيمِ » وَإِذْ قَدْ عَرَفْتَ
الظَّرْفَ فَلنَشْرَحِ الْمَظْرُوفَ وَارَى أَنَّهُ يَنْبَغِي الْإِبْتِدَاءَ بِذِكْرِ سَاعَاتِ
الْعَمَلِ فِي الْيَوْمِ ثُمَّ نَرْجِعُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى التَّفْصِيلِ

دقيقة ساعة

١٥	٦	قيامٌ مِنَ النَّوْمِ «وَفِي الشِّتَاءِ حَيْثُ السَّاعَةُ ٧» وَفُطُورٌ خَفِيفٌ
٣٠	٦	رِيَاضَةٌ جِسْمِيَّةٌ وَاسْتِعْمَالُ السَّلَاحِ
٤٥	٦	الدَّرْسُ الْأَوَّلُ
٣٠	٧	صَلَاةٌ
٤٥	٧	فُطُورٌ وَهُوَ غِذَاءٌ كَامِلٌ مِنْ بَيْضٍ وَلَحْمٍ وَغَيْرِهِ يُعْقَبُهُ إِصْلَاحٌ أَمَا كِنِ النَّوْمِ وَكُلُّ تَأْمِيذٍ يُعَدُّ سَرِيرَهُ بِنَفْسِهِ
٣٠	٨	الدَّرْسُ الثَّانِي
٤٥	١٠	طَعَامٌ خَفِيفٌ ، فَإِنْ كَانَ الْوَقْتُ صَحْوًا اشْتَغَلَ التَّلَامِيذَةُ بِالرِّيَاضَةِ الْجِسْمَانِيَّةِ فِي الْخَلَاءِ عَارِينَ عَنِ الْمَلَابِسِ بِطَنًا وَضَهْرًا
١٥	١١	الدَّرْسُ الثَّلَاثُ

دقيقة ساعة

٤٥ ١٢ أَلْحَانٌ أَوْ عَوْمٌ فِي النَّهْرِ عَلَى حَسَبِ الْفُصُولِ

١ طَعَامُ الْغَدَاءِ

١ ٣٠ تَمْرِينَ بِآلَاتِ الطَّرَبِ

١ ٤٥ أَلْعَابٌ وَأَشْغَالٌ فِي الْبُسْتَانِ وَالزَّرْعَةِ أَوْ رِيَاضَةٍ بِالْمَشَى

عَلَى الْقَدَمِ أَوْ الدَّرَاجَةِ

٤ اشْتِغَالٌ فِي الْمَصَانِعِ وَالْمَعَامِلِ

٦ تَنَاوُلُ الشَّايِ

٦ ٣٠ غِنَاءٌ وَمُذَاكِرَةٌ رِوَايَاتٍ مُضْحِكَةٍ وَمُوسِيقَى وَرَقْصٌ

وغير ذلك

٨ ٣٠ طَعَامُ الْعِشَاءِ ثُمَّ الصَّلَاةُ

٩ نَوْمٌ

وَأَوَّلُ شَيْءٍ يُبَالِغُهُ الْقَارِيءُ فِي هَذَا الْبَيَانِ تَنَوُّعُ الْأَعْمَالِ فِي سَاعَاتِ النَّهَارِ، وَيُوْخِذُهُ مِنْهُ أَنَّ إِدَارَةَ الْمَدْرَسَةِ تَخْشَى تَكْلِيفَ الطَّلَبَةِ فَوْقَ جُهْدِهِمْ، وَتَرْغَبُ فِي تَرْبِيَةِ جَمِيعِ الْمَلَكَاتِ عَلَى السَّوَاءِ، لِذَلِكَ يَقْتَرِنُ التَّعْلِيمُ الْعِلْمِيُّ بِالتَّعْلِيمِ الْيَدَوِيِّ وَالتَّعْلِيمِ الصَّنَاعِيِّ، وَيَنْقَسِمُ بَيْنَ الْأَعْمَالِ كَمَا يَأْتِي:

دقيقة ساعة

٥	أَشْغَالٌ عَقْلِيَّةٌ	
٤	تَمْرِينَاتٌ جَسْمِيَّةٌ وَأَشْغَالٌ يَدَوِيَّةٌ	٣٠
٢	أَشْغَالٌ صِنَاعِيَّةٌ وَرِيَاضَاتٌ عَادِيَّةٌ	٣٠
٩	نَوْمٌ	

٣ أَكْلٌ وَخُلُوعٌ عَنِ الْعَمَلِ

فَالْمَجْمُوعُ أَرْبَعٌ وَعِشْرُونَ سَاعَةً

وَلَيْسَ فِي يَوْمِ الْأَحَدِ عَمَلٌ مَّا بَلْ يَتَضَيِّهِ الطَّلَبَةُ كَمَا يَشَاءُونَ
وَبِالْجُمْلَةِ فَإِنَّ الْيَوْمَ يَنْقَسِمُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: الصَّبَاحِ وَعَمَلِهِ عَقْلِيٌّ
وَبَعْدَ الظُّهْرِ وَعَمَلُهُ يَدَوِيٌّ فِي الْغَيْطِ أَوِ الْمَصَانِعِ، وَالْمَسَاءِ وَعَمَلُهُ الْفُنُونُ
وَالْمُوسِيقَى وَالرِّيَاضَاتُ الْعَادِيَّةُ وَلِنَبِّحَتْ فِي كَيْفِيَّةِ اسْتِعْمَالِ كُلِّ
قِسْمٍ مِنْ هَذِهِ الْأَقْسَامِ الثَّلَاثَةِ لِنَقِفَ عَلَى نَتَائِجِهِ

أَمَّا التَّعْلِيمُ الْعَقْلِيُّ فَمَدَارُهُ عَلَى الْقَوَاعِدِ الْأَتِيَّةِ (تَقْرِيْبُ الْمُسَمِّيَّاتِ
مِنْ أَسْمَائِهَا بِحَيْثُ يَتَعَوَّدُ الْفِكْرُ الْإِنْتِقَالَ مِنَ الْمَادَّةِ إِلَى مَعْقُولِهَا
وَتَرْبِيَةُ الطَّلَبَةِ عَلَى اسْتِعْمَالِ مَا تَعَلَّمُوهُ وَالرَّغْبَةَ فِي التَّعَلُّمِ لِفَائِدَةٍ
أَنْفُسِهِمْ مِنْ دُونِ تَحْرِيزٍ عَلَيْهِ بِمُكَافَأَةٍ أَوْ امْتِيَازٍ) وَمِمَّا اشْتَهَرَ
فِي انْجِلْتْرَا وَفِي الْوَلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ بِأَمْرِيكََا أَنْ طَرِيقَةَ التَّعْلِيمِ الَّتِي
يُحْتَضَرُ فِيهَا التَّلْمِيذُ عَلَى الْعَمَلِ بِالْمُكَافَأَةِ وَالتَّمْيِيزِ مَعِيَّةً لِأَنَّهَا تَجْعَلُ

الغيرة أساس التقدم بدل تأسيسه على محبة الواجب وهى طريقة تولد في الإنسان احدى الرذائل ، والواجب في تربية الأطفال وجعلهم رجالاً أن يعاملوا معاملة الرجال ؛ فيستفزههم المرئي بمخاطبة وجدانهم على قدر الامكان ، وقد أخبرني الدكتور (ريدى) أن هذه الطريقة لا تضعف من رغبة الأطفال في العمل بل تقويها لأنها ليست متعلقة بكفاة أو امتياز بل راجعة إلى العمل نفسه اذ يجب الا يفهم الطفل أن المكافاة أو الامتياز هو الغرض النهائى من التربية وأن الحياة مقامرة أو ارضاء لشهوة التفاخر والاعجاب

وإني أخشى أن يدهش الفرنسيون من مطالعة ما تقدم لأن طريقة التعلم عندنا مناقضة لتلك الطريقة على خط مستقيم ، غير أن الطريقة التي شرحناها مقول بها من كثير من معلمى الانكليز الذين وصلوا في تربية الرجال إلى درجة عالية ، والأمريكانيون على هذا الرأى أيضاً كما أخبرني به موسيو (بول ييرو) في خطاب أرسله إلى جأء فيه أن مدير مدرسة القديس (بول) في مدينة (مينيزونا) كتب إليه ضمن رسالة ما يأتى : (إننا لا نعطي جوائز لتلاميذنا ، ولا نطلب منهم أن يكتبوا مقالات أبداً نعم قد يتفق أنهم يبحثون جميعاً في موضوع واحد غير أنى عند

ما أتى عليهم نتيجة عملهم أجعل كلامي بحيث لا يتبين واحد منهم
 من هو أحسنهم عملاً بل أقول له إن عمالك هذه المرة أحسن من
 عمالك في يوم كذا أو أقل منه لأنني أعتقد أنه لا يليق أن
 يرى الطفل نفسه أرقى من غيره بل ينبغي أن يعرف أنه يتقدم
 عما كان عليه هو منذ أسبوع) ولهم في تعليم اللغات العصرية
 اعتناء عظيم وطريقة تخالف ما جرى عليه غيرهم، وليس من
 المدهشات أن أقول إننا نتعلم اللغات ولکننا لا نعرفها، فمن
 البديهي أن طريقة التعليم عندنا سيئة ويظهر لي أن طريقة موسيو
 (ريدى) أضمن للوصول إلى الغرض المقصود فيبدأ في التعليم باللغة
 الإنكليزية مدى السنتين الأوليين أي من العاشرة إلى الحادية
 عشرة، ثم يختار الكلام السنتين الثانيةين بالفرنساوية، ثم تستعمل
 اللغة الألمانية سنتين، ولا تقرأ اللغة اللاتينية إلا بعد ذلك، وكذلك
 اللغة اليونانية لمن أرادها من الطلبة ومن الواضح أن هذا التعليم
 بتلك اللغات المختلطة لا ينتج الثمرة المقصودة إلا إذا كانت الطريقة
 المستعملة عملية ترجع بالنظر إلى اللغات الحية إلى التكلم
 أولاً وحفظ النحو ثانياً على قدر اللازم في الاستعمال؛ وهي طريقة
 جهلها مدرسو اللغات غالباً مع أنها طبيعية لأن الطفل يبدأ
 بتقليد أبويه في الكلام من غير عمد ولا التفات ويتمكن من

اسْتَعْمَالِهِ وَهُوَ شَيْءٌ غَيْرُ يَسِيرٍ ، فَلَإِربَعَةَ أَطْفَالٍ سِنَّهُ أَكْبَرَهُمْ
تَسَعُ سِنِينَ ، وَكَأَنَّهُمْ يَتَعَلَّمُونَ الأَلْمَانِيَّةَ عَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ بِوَأَسْطَةِ
السُّكْلَامِ مَعَ إِحْدَى المُرَبِّياتِ ، وَأَرَاهُمْ يَتَقَدَّمُونَ فِيهَا تَقَدُّمًا سَرِيعًا
فَإِنَّهُمْ بَعْدَ اربَعَةِ أَشْهُرٍ صَارُوا يَتَكَلَّمُونَ بِتِلْكَ اللُّغَةِ فِي العَالَمِ ، وَمِنْ
العَجِيبِ أَنَّهُمْ صَارُوا يَسْتَعْمِلُونَهَا فِي خِصَامِهِمْ وَهُمْ يَوْمَ يَتَعَلَّمُونَ
نَحْوَهَا بِوَأَسْطَتِهَا كَمَا يَقْرَأُونَ النُّجُومَ الفَرَنْسَاوِيَّةَ بِاللُّغَةِ الفَرَنْسَاوِيَّةِ
وَقَدْ أَتَيْتُ بِهَذَا المِثَالِ الحَاضِرِ بَيْنَ يَدَيَّ لِأَبْرَهِنَ عَلَى طَرِيقَةِ حُسْنِ
التَّعْلِيمِ فِي المَدْرَسَةِ الجَدِيدَةِ إِنْ كَانَ هُنَاكَ اِحْتِيَاجٌ لِلدَّلِيلِ ، وَإِسْكَى
لَا يَنْسَى التَّلَامِيذُ اللُّغَةَ الَّتِي تَعَلَّمُوهَا فِي اسْتِغَالِهِمْ بِغَيْرِهَا وَجَبَ أَنْ
يَتَكَلَّمُوا بِهَا سَاعَاتٍ مَعْدُودَةٍ فِي النِّهَارِ كَذَلِكَ هُمْ يَتَعَلَّمُونَ عِلْمَ
الحِسَابِ فَبَعْدَ أَنْ يَقْرَأُوا القَوَاعِدَ يُطَبِّقُونَهَا عَلَى العَمَلِ كَأَنْ يُكَلِّفُوا
صُنْعَ شَيْءٍ يُحْتَاجُ إِلَى التَّنْسِيبِ بَيْنَ أَجْزَائِهِ ، وَمِنْ ذَلِكَ اسْتِغَالِهِمْ
بِالمِسَاحَةِ وَنُعْطَى إِلَيْهِمْ مَصَارِيفُ العِزْبَةِ وَالبُسْتَانِ وَالمَصْنَعِ وَالأَلْعَابِ
وَأَدْوَاتِ الكِتَابَةِ وَالمَعْمَلِ الكِيمِيَاءِيِّ وَالرَّسْمِ وَالمَأْكَلِ وَحَطَبِ
التَّدْفِئَةِ لِيَحْسُبُوهَا وَيَفْصِلُوهَا كُلَّ شَيْءٍ عَنِ الآخِرِ ، وَمِنْ الظَّاهِرِ
أَنَّ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ تَجْعَلُ الدَّرْسَ مَقْبُولًا إِذْ تَتَبَيَّنُ فَائِدَتُهُ لِكُلِّ
طَالِبٍ ، فَيَتَعَلَّمُونَ مِنَ الأَرْقَامِ كَيْفَ يُدِيرُونَ حَرَكَةَ المَنْزِلِ ،
وَيَتَوَلَّوْنَ إِدَارَةَ المَصْنَعِ أَوْ المَتَّجِرِ .. وَهَكَذَا يَصِيرُونَ رِجَالًا عَامِلِينَ

مُتَّصِفِينَ بِمَا تَقْتَضِيهِ مَعِيشَةُ الْجَمَاعِ

وَيُنِي تَعْلِيمُ الْعُلُومِ الطَّبِيعِيَّةِ عَلَى النَّظَرِ الذَّاتِيِّ (١) وَهُوَ سَهْلٌ
لِأَنَّ الْمَدْرَسَةَ قَائِمَةٌ فِي الْخَلَاءِ فَلَا يَتَعَبُ الطَّلَبَةُ فِي جَمِيعِ الْعُنَاصِرِ
مِنْ جَمَادٍ وَنَبَاتٍ وَحَيَوَانَ وَتَتَعَلَّمُونَ كَيْفَ يَعِيشُ الْحَيَوَانُ كَمَا
يَتَعَرَّفُونَ عَادَاتِهِ وَيُفَرِّقُونَ بَيْنَ أَجْزَائِهِ الْخَارِجِيَّةِ قَبْلَ أَنْ يَعْرِفُوا
أَعْضَاءَهُ الدَّاخِلِيَّةَ وَهَيْكَلَهُ الْخَفِيِّ؛ وَيَعْرِفُونَ شَكْلَ النَّبَاتِ وَتَرَكِيْبَهُ
قَبْلَ مَعْرِفَةِ أَقْسَامِهِ وَأَنْوَاعِهِ، وَأَسْمَاءِ النُّجُومِ وَمَظَاهِرِهَا قَبْلَ قَوَائِنِ
حَرَكَاتِهَا، وَيَتَوَصَّلُونَ إِلَى ذَلِكَ كَأَنَّهِ بِالرِّيَاضَاتِ الَّتِي قَدَّمْنَا ذِكْرَهَا
وَبِهَذِهِ الْوَاسِطَةِ يَصِيرُ الْعِلْمُ طَبِيعِيًّا عِنْدَهُمْ فَيَقْفُونَ عَلَيْهِ كَمَا
يَنْبَغِي وَيَقْبَلُونَ عَلَيْهِ إِفْبَالًا وَيَدْخُلُ أَذْهَانَهُمْ بِسُهُولَةٍ ثُمَّ يَرْتَسِمُ فِيهَا
ارْتِسَامًا، وَيَخْرُجُ الطَّالِبُ مِنَ الدَّرْسِ مَيَّالًا إِلَى الْإِكْتِسَابِ مِنْ مَعْلُومَاتِهِ
حَتَّى بَعْدَ خُرُوجِهِ مِنَ الْمَدْرَسَةِ لِأَنَّ فَائِدَتَهُ ظَاهِرَةٌ لَدَيْهِ لَا كَالْمِلِّ
الَّذِي يَشْعُرُ بِهِ الْمُتَعَلِّمُ عَلَى طَرِيقَتِنَا إِذْ يَتَوَلَّاهُ الْمَلَلُ خَالِبًا

وَتَقْرُبُ طَرِيقَةُ تَعْلِيمِ التَّارِيخِ مِنَ الطَّرِيقَةِ الْمُتَّبَعَةِ عِنْدَنَا فِي تَعْلِيمِ
الْعِلْمِ الْجَمَاعِيِّ، فَيَجْتَهِدُ الْمُعَلِّمُ فِي بَيَانِ الْفَائِدَةِ مِنْهُ بِتَقْرِيْبِ الْعِلَلِ
مِنْ مَعْلُومَاتِهَا وَيَبَيِّنُ مَدْلُولَاتِ الْوَقَائِعِ لِأَنَّ تَعْبِئَةَ الذَّاكِرَةِ بِالْحَوَادِثِ
وَالتَّوَارِيخِ كَمَا يَجْتَهِدُ فِي بَيَانِ النَّسَبِ بَيْنَ طَبِيعَةِ الْبِلَادِ وَسِيَاسَتِهَا وَتَقَدِّمِ

تجارتها، ويبدأ بتعلم التاريخ الإنجليزي، ثم بمقتطفات من التاريخ العام، فيتعلم الطلبة من تاريخ اليونان أصول الأمم الحاضرة، ومن تاريخ الرومان مثال حكومة عظمت فيها السلطة وكانت من أكبر المساعِدات على انتشار الأمة في الخارج، ثم التعليم واحد لجميع الطلبة حتى يبلغوا الخامسة عشرة وبعد ذلك يختف لكل واحد بحسب العمل الذي يتوخاه بعد اتمام درسه، وهم يريدون أن يكونوا مدرسين أو من أرباب الحرف الأدبية أو موظفين أو من الزراع أو الصناع أو التجار أو المستعمرين وكل واحد يجهد في العلم الذي يوافق إرادته، وفي ذلك من التسهيل واللين في التعليم ما تعظم فائدته مما لا يضطر معه جميع المتعلمين إلى قراءة درس واحد لا يفيدهم أجمعين، وهنا يقال إن التعليم مقصود لمنفعة الطلبة لا أن الطلبة خاضعون للتعليم.

وخالصة القول يدور محور التعليم على الجمع بين العلم والعمل والغرض منه تحصيل المعارف النافعة في الحياة.

ولتلقي الدروس التي بينها ثلاثه أوقات كلها في الصباح وما بعد الظهر من النهار مخصص بالأعمال اليدوية والرياضات الجسمية، هكذا يرَبى الجسم بعد العقل، ولا شك في أن الآباء من الفرنسيين يدهشون كثيرا من القسم الأخير لأن تربية

الجِسْمِ عِنْدَنَا فِي غَايَةِ الْإِهْمَالِ ، فَقَدْ رَأَيْتُ أُخِيرًا تَلْمِيزًا عُمُرُهُ تِسْعُ سِنِينَ مِنْ طَلَبَةِ مَدْرَسَةِ « سَايسِلَس » الْخَارِجِينَ يَشْتَغَلُ طُولَ النَّهَارِ فِيهَا ثُمَّ يَذْهَبُ إِلَى الْبَيْتِ مُنْكَبًا فِي الْمَسَاءِ عَلَى دَرَسِهِ إِلَى السَّاعَةِ التَّاسِعَةِ أَوِ الْعَاشِرَةِ ، وَهُوَ تَكْلِيفٌ مُضِرٌّ بِالصِّحَّةِ وَغَيْرُ مُفِيدٍ فِي تَحْصِيلِ الْعِلْمِ ، وَسَبَبُهُ وَهُمْ الْبَعْضُ بَأَنَّ التَّلْمِيزَ يُحْصَلُ مِنَ الْعُلُومِ عَلَى قَدْرِ الزَّمَنِ الَّذِي يَشْتَغَلُ فِيهِ

وَيَقْضِي الطَّلَبَةُ مِنَ السَّاعَةِ الْأُولَى وَالذَّقِيقَةِ الْخَامِسَةِ وَالْأَرْبَعِينَ إِلَى السَّاعَةِ السَّادِسَةِ بَعْدَ الظُّهْرِ مُشْتَغِلِينَ فِي الْبُسْتَانِ وَالزَّرَاعَةِ وَالْمَصَانِعِ وَالرِّيَاضَةِ بِالنَّمَشِيِّ عَلَى الْقَدَمِ أَوْ الدَّرَاجَةِ ، وَالغَرَضُ مِنْ ذَلِكَ كَمَا هُوَ مَذْكَورٌ فِي الْكُرَّاسَةِ « إِنَّمَا هُوَ التَّرْيِيبَةُ الْجِسْمِيَّةُ وَالْإِحَاطَةُ بِالأَشْغَالِ الصَّنَاعِيَّةِ وَفَائِدَتِهَا وَتَشْجِيعُ الْعَزِيمَةِ عَلَى الْمَشْرُوعَاتِ وَتَقْدِيرُ الْعَمَلِ الَّذِي تَمَّتْ مُبَاشَرَتُهُ لِيَكُونَ كُلُّ وَاحِدٍ عَارِفًا مَا يَأْتِيهِ بِنَفْسِهِ أَوْ مَا يُكَلِّفُ مِلَاحَظَتَهُ مِنَ الْأَعْمَالِ ، وَلَمَّا كَانَ فُتُورُ الْعَزِيمَةِ عَنِ الْعَمَلِ اللَّازِمِ فِي الْحَيَاةِ نَاشِئًا فِي الْغَالِبِ مِنْ ضَعْفِ الْجِسْمِ وَجَبَ أَنْ يَرْتَضَى التَّلْمِيزُ فِي كُلِّ يَوْمٍ عَلَى الْأَعْمَالِ الْجُسْمَانِيَّةِ ، وَالْأَشْغَالِ الْيَدَوِيَّةِ ، فَإِنَّهَا تَزِيدُ فِي تَقْوِيَةِ الْهِمَّةِ ، وَإِنْعَاشِ الْجِسْمِ وَالتَّخْفِيفِ مِنْ تَأْتُرِهِ مِمَّا هُوَ لَازِمٌ لِلْإِفْرَاطِ فِي الدَّرْسِ وَعَدَمِ الْحَرَكَةِ »

وَقَدْ لَاحَظُوا فِي ذَلِكَ اخْتِيَارَ الْأَعْمَالِ ذَاتِ الْفَائِدَةِ الْعَامِيَةِ حَتَّى
يَكُونَ الطَّالِبُ غَيْرَ بَعِيدٍ عَنِ شَوَاغِلِ الْحَيَاةِ الْحَقِيقِيَّةِ فَكَادَ أَنْ
يَكُونَ الطَّلَبَةُ هُمُ الَّذِينَ بَنَوْا مَدْرَسَتَهُمْ وَنَظَّمُوهَا وَهُمْ الَّذِينَ صَنَعُوا
الْقِسْمَ الْأَكْبَرَ مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يَتَمَتَّعُونَ بِهَا فِيهَا كَمَا فَعَلَ
« رُوبَانْسُونُ » ^(١) فِي جَزِيرَتِهِ

كَانَ الْبُسْتَانُ أَيَّامَ افْتِتَاحِ الْمَدْرَسَةِ مَمْلُوءًا بِالْحَشَائِشِ الرَّدِيئَةِ ،
وَالْعِزْبَةِ مُفْعَمَةً بِالْآتِقَاضِ ، فَأَصْلَحَ الطَّلَبَةُ كُلَّ شَيْءٍ ، ثُمَّ أَحْدَثُوا
الطَّرِيقَ ، وَنَظَّمُوا الْمَصَارِفَ ، وَطَلَّوْا الْحَوَاجِزَ بِالْقَطْرِانِ ، وَدَهَنُوا
الْأَخْشَابَ وَالْمَحَلَّاتِ بِالْأَلْوَانِ ، وَاتَّخَذُوا مِيدَانًا فَسِيحًا لِلْأَلْعَابِ ،
وَصَنَعُوا كَثِيرًا مِنْ أَثَاتِ الْبَيْتِ بِمَا تَعَلَّمُوهُ فِي الْمَصَانِعِ مِنْ أَنْوَاعِ
النَّجَارَةِ ، وَاتَّفَقَ أَنَّ رَجُلًا مِنْ رِجَالِ الْعِزْبَةِ مَرَضَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فَقَامَ
الطَّلَبَةُ بِأَعْمَالِهِ وَمُلاحَظَةِ الْمَاشِيَةِ ، وَمَالَ بَعْضُهُمْ إِلَى اقْتِنَاءِ جَوَادٍ
فَلشْتَرَوْهُ مِنَ السُّوقِ وَعَامَهُمُ الْمُتَقَدِّمُونَ عَنْهُمْ رُكُوبَهُ وَقِيَادَتَهُ

ويزدادُ العملُ مُدَّةَ الصَّيْفِ فِي الْبُسْتَانِ وَالْعِزْبَةِ ، كَمَا تَتَغَيَّرُ
الْأَلْعَابُ ، وَلَا يَتَلَهَّى التَّلَامِيذَةُ بِأَخْذِ صُورِ الْأَشْيَاءِ بِوَاسِطَةِ الْأَلَّةِ
« الْفُوتُوغْرَافِيَّةِ » أَوْ بِالرِّيَاضَةِ عَلَى الدَّرَاجَةِ إِلَّا فِي أَوْقَاتِ الْفَرَاغِ ،
وَقَدْ شَاهَدْتُ مِنْ صَنْعِهِمْ مَائِدَةً وَدُولَابًا وَآلَةً لِلنُّزُولِ فِي جَوْفِ الْمَاءِ

(١) يرید روبانسون کروز و

وَبَيْتًا لِلْبَطِّ ، وَآخَرَ لِلْحَمَامِ ، وَمِظْلَةً كَبِيرَةً مِنْ الْخَشَبِ « عَنبرًا »
 وَمَرَّ كَبْتَيْنِ تَامَتَيْنِ وَثَالِثَةً غَيْرَ تَامَةٍ وَغَيْرَ ذَلِكَ
 وَبَيْنَمَا أَنَا أَكْتُبُ هَذِهِ السُّطُورَ وَرَدَّ عَلَيَّ كِتَابٌ مِنْ مُوسَى
 « بيفردج » يُخْبِرُنِي بِأَنَّهُ ذَهَبَ بِابْنِهِ إِلَى الْمَدْرَسَةِ وَيَحْكِي مَا رَأَاهُ
 فِيهَا فَاقْتَطَفْتُ مِنْ كِتَابِهِ مَا يَأْتِي : « لَمَّا وَصَلْتُ إِلَى الْمَدْرَسَةِ وَجَدْتُ
 عَدَدًا مِنْ الْأَطْفَالِ مُشْتَغِلِينَ بِطَلَاءِ آلَةِ لَعِبٍ صَنَعُوهَا بِأَنْفُسِهِمْ
 فِي السَّنَةِ الْمَاضِيَةِ ، وَقَدْ شَرَعَتِ الْمَدْرَسَةُ فِي إِقَامَةِ قَنْطَرَةٍ عَلَى النَّهْرِ
 الْمُجَاوِرِ لَهَا وَعَرْضُهُ مِنْ ثَلَاثِينَ مِترًا إِلَى أَرْبَعِينَ قَوَائِمَهَا مِنَ الْبِنَاءِ
 حَتَّى تَصِيرَ مَتِينَةً وَسَيَقُومُ التَّلَامِذَةُ بِجَمِيعِ تِلْكَ الْأَعْمَالِ وَشَاهَدْتُ
 وَادِيًا صَغِيرًا مَغْرُوسًا بِالْأَشْجَارِ يَمْتَدُّ مِنْ أَرْضِ الْمَزَارِعِ إِلَى مَبَانِي
 الْمَدْرَسَةِ الْمَوْجُودَةِ عَلَى مُرْتَفَعٍ عَظِيمٍ يَعْلُو النَّهْرَ بِمِائَةِ قَدَمٍ
 تَقْرِيبًا ، وَفِي وَسَطِ ذَلِكَ الْوَادِي غَدِيرٌ صَغِيرٌ مِنَ الْمَاءِ قَدْ اتَّخَذَ
 التَّلَامِذَةُ فِيهِ حِيَاضًا صَغِيرَةً جَمَعُوا بِيَدَيْهَا بِطُرُقٍ ضَيِّقَةٍ وَقَامُوا بِجَمِيعِ
 مَا اسْتَوْجَبَتْهُ مِنَ الْأَعْمَالِ وَلَمْ يَسْتَعِينُوا بِبِنَاءِ إِلَّا فِي حَالَةِ الضَّرُورَةِ
 الْمُطْلَقَةِ ، وَعَوَّلَتِ الْمَدْرَسَةُ عَلَى تَوْسِيعِ بِنَائِهَا حَتَّى يَسَعَّ مِائَةَ تَامِيذٍ
 وَهُوَ أَكْبَرُ عَدَدٍ يَرَى الدُّكْتُورُ « رِيدِي » إِمْكَانَ قَبُولِهِ لِيَتِمَّ كَنْ
 مِنْ إِدَارَتِهِ كَمَا يَنْبَغِي ، وَقَدْ شَرَعَ التَّلَامِذَةُ تَمْهِيدًا لِذَلِكَ فِي مَقَاسِ
 الْأَرْضِ وَتَخْطِيطِ الْبِنَاءِ ، وَيُوجَدُ عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنَ الْمَدْرَسَةِ مَعْمَلٌ

كيميائيٌّ وَمَصْنَعٌ لِلنَّجَارَةِ يَشْتَغَلُ فِيهِمَا الطَّلَبَةُ تَحْتَ إِدَارَةِ مُوسِيو
« هيرنومان » الَّذِي رَأَيْتُمُوهُ فِي « ادِنْبُورَج » بِأَعْمَالٍ مُنَوَّعَةٍ لِأَنفُسِهِمْ
وَلِلْمَدْرَسَةِ ، وَمِنْ بَنِيهِمْ فِي الثَّلَاثَةِ الْأَشْهُرِ الْقَابِلَةِ أَنْ يُعَامُوا التَّلَامِذَةَ
صِنَاعَةَ الْخَشَبِ عَلَى طَرِيقَةِ « لَوِيد » الَّتِي شَاهَدْتُمُوهَا مُدَّةَ وُجُودِكُمْ
هُنَا ، وَلَيْسَ فِي دَاخِلِ الْمَكَانِ شَيْءٌ مِنَ الزَّخَارِفِ التَّافِهَةِ غَيْرِ اثْنِ
الْفُرْفِ قَدْ اسْتَجْمَعَ مُوجِبَاتِ الرَّاحَةِ كَالهَاثِمِ إِنِّي شَاهَدْتُ عَلَى وُجُوهِ
الطَّلَبَةِ وَهُمْ يَتَنَاوَلُونَ طَعَامَ الضُّحَى عِلَائِمَ الْمَنَاءِ وَالْعَيْشَةِ الرَّاضِيَةِ
فاجْتَمَعُوا حَوْلَ سِتِّ مَوَائِدَ صَغِيرَةٍ يَرَأْسُ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا أَحَدُ
الْمُعَلِّمِينَ وَأَنْشَدُوا دُعَاءَ الطَّعَامِ بِهَيْمَةٍ وَاشْتِيَاقٍ وَرَأَيْتُ بِيَدِهِمْ وَبَيْنَ
مُعَلِّمِيهِمْ حُرِّيَّةً تَامَةً وَأَطْمِئْنَانًا كَامِلًا وَمِنْ عَادَةٍ هُوَ لِأَنَّ يَمْشُوا مَعَ
الطَّلَبَةِ وَقْتَ الْإِرْتِيَاضِ وَيُعَامِلُوهُمْ كَأَنَّهُمْ إِخْوَةٌ أَكْبَرَ سِنًا لِابْتِعَارِ
أَنْفُسِهِمْ قَوْمًا مُتَمَازِينَ وَهُمْ يَتَحَرَّوْنَ عَلَى الدَّوَامِ اسْتِعْمَالَ الْأَلْفَاظِ
الْمَأْلُوفَةِ عِنْدَهُمْ وَقَدْ يَنْطِقُونَ أحيانًا بِمَا يَأْلَفُهُ الطَّلَبَةُ عَادَةً مِنْ كَلِمَاتِ
الْعَامَّةِ وَلَا فَرْقَ بَيْنَهُمْ وَيَبْدَهُمْ إِلَّا رِدَائِهِمْ يَلْبَسُونَهُ عِلَامَةً عَلَى أَنْفُسِهِمْ
مِنَ الْعُلَمَاءِ ، وَلِلدَّكْتُورِ « رِيدِي » شَغْفٌ بِتَعْوِيدِ التَّلَامِذَةَ
الْأَشْغَالَ الْخَارِجِيَّةَ لِذَلِكَ يَنْدُبُهُمْ فِي مُهِمَّاتٍ جَسِيمَةٍ كَأَن يُرْسِلَهُمْ
إِلَى الْبُيُوتِ الْمَالِيَّةِ لِيَأْتُوا لَهُ بِالنَّقُودِ مِنْهَا وَغَيْرِ ذَلِكَ وَظَاهِرٌ أَنَّ غَرَضَ
مُوسِيو « رِيدِي » مِنْ هَذِهِ الْأَعْمَالِ الْجَارِيَةِ وَالْأَشْغَالِ الْيَدْوِيَّةِ لَيْسَ

مَقْصُورًا عَلَى تَعْلِيمِ الطَّلَبَةِ مَا لَا يَكْتَسِبُونَهُ بِالدَّرْسِ وَالْمُطَالَعَةِ بَلْ
يَتَنَاوَلُ تَرْبِيَةَ أَجْسَامِهِمْ وَتَقْوِيمَ صِحَّتِهِمْ وَإِعْدَادَهُمْ لِلتَّغْلِبِ عَلَى
مَتَاعِبِ الْحَيَاةِ ، وَلَهُ اعْتِنَاءٌ بِالْوُقُوفِ بِنَفْسِهِ عَلَى مَا يُحْصَلُونَ مِنْ
ذَلِكَ كَمَا هُنَّ كَلَامُهُ مَا يَأْتِي « لَقَدْ أَرَدْنَا أَنْ نَقِفَ عَلَى تَقَدُّمِ الْأَطْفَالِ
وَتَرَعْرُعِ أَجْسَامِهِمْ حَتَّى نَعْرِفَ جَوْدَةَ غِذَائِهِمْ ، وَمُوَافَقَةَ أَحْوَالِ
مَعِيشَتِهِمْ لِصِحَّتِهِمْ ، لِذَلِكَ تَقَارَنُ بَيْنَ تَقَدُّمِ جِسْمِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ
مُدَّةَ وُجُودِهِ فِي الْمُسَامَحَةِ وَلَوْ أَنَّا رَأَيْنَا تَقَدُّمَهُ فِي الْمُدَّةِ الثَّانِيَةِ أَعْظَمَ
مِنْهُ فِي الْأُولَى لَتَبَيَّنَّا أَنَّ حَالَةَ الْمَعِيشَةِ عِنْدَنَا سَيِّئَةٌ ، نَعَمْ إِنَّ الْمَوَازِينَ
الَّتِي نَزِنُهُمْ بِهَا لَا تَدُلُّ عَلَى مِقْدَارِ مَا اكْتَسَبُوهُ مِنَ الْخِفَّةِ وَسُهُولَةِ
الْحَرَكَةِ ، غَيْرَ أَنَّهُ يَهْمُنَا أَلَّا يَكُونَ كَسْبُهُمْ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ
مُضْعَفًا لِأَجْسَامِهِمْ ، وَقَدْ دَلَّتْنَا تَجَارِبُنَا عَلَى أَنَّ النَّتِيجَةَ حَسَنَةٌ » وَيَلِي
هَذَا بَيَانَانِ أَحَدُهُمَا فِي الْوِزْنِ وَالثَّانِي فِي الطُّولِ يَعْلَمُ مِنْهُمَا الْقَارِي
مَا كَسَبَهُ التَّلْمِيذُ فِي الْمُدَّتَيْنِ ، وَيَرَى أَنَّ مُدَّةَ الْمَدْرَسَةِ رَاجِحَةٌ عَلَى
زَمَنِ الْإِجَارَةِ ، وَلَا غَرَابَةَ فِي هَذَا فَإِنَّ نَوْعَ الْمَعِيشَةِ فِي الْمَدْرَسَةِ
مِنْ أَحْسَنِ مَا يُطَلَبُ لِتَرْبِيَةِ الْأَجْسَامِ قَالَ مُوسِيُو « رِيدِي » « وَتَدُلُّ
هَذِهِ الْأَرْقَامُ مِنْ أَوَّلِ الْأَمْرِ عَلَى أَنَّ مَدْرَسَتَنَا تُعَدُّ مِنْ جِهَةِ تَغْذِيَّتِهَا
وَمَلْبَسِهَا وَحَالَةِ مَعِيشَتِهَا مَعْمَلًا يَتَخَرَّجُ مِنْهُ رِجَالٌ أَشْدَّاءُ أَقْوِيَاءُ ،
فَالْأَمْرَاضُ عِنْدَنَا قَلِيلَةٌ حَتَّى دُورَ الرَّأْسِ وَالزُّكَّامِ إِذْ مِنْ طَرِيقَتِنَا

تَعْلِيمُ الشَّبَانِ أَنَّ الرَّجُلَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ فِي صِحَّةٍ تَامَةٍ ، وَأَنَّ
 الْأَمْرَاضَ إِتِمًا تَنْشَأُ عَنِ الْخَطَا وَالْجَهْلِ وَالْإِفْرَاطِ فِي الشَّغْلِ وَعَدَمِ
 تَرْتِيبِهِ أَوْ مِنَ الْفَسَادِ ، وَلِذَلِكَ نَجْتَهِدُ كَثِيرًا فِي تَعْوِيدِهِمْ حُبَّ
 النَّظَافَةِ وَالْتِمَسْكَ بِالْعَوَائِدِ الصَّحِيَّةِ « وَلِكُلِّ طَالِبٍ إِنَاءٌ مَاءٍ بِجَانِبِ
 سَرِيرِهِ ، وَقَدْ ذَكَرْتُ هَذِهِ الْجُزْئِيَّةَ لِأَقَابِلِ بَيْنَ تِلْكَ الْمَدْرَسَةِ وَبَيْنَ
 مَدَارِسِنَا حَيْثُ لَا يُسْتَعْمَلُ الْمَاءُ إِلَّا بِالتَّقْتِيرِ وَالتَّذْقِيقِ السَّكَلِيِّ كَأَنَّهُ
 مِنْ مُجْمَلَةِ الزَّخَارِفِ ، كَذَلِكَ نَحْنُ نَقْتَصِدُ فِي الْهَوَاءِ كَمَا نَقْتَصِدُ فِي الْمَاءِ
 أَمَا فِي « أَبُو تَصُولَم » وَ « بِيْدَال » فَإِنَّ الطَّلِبَةَ يَنَامُونَ فِي غُرْفَةٍ فُتِحَتْ
 مَنَافِذُهَا حَتَّى فِي الشِّتَاءِ

إِلَى هُنَا بَيْنَا كَيْفَ يَقْضَى التَّلَامِذَةُ وَقْتَهُمْ مِنْ الصَّبَاحِ إِلَى
 السَّاعَةِ السَّادِسَةِ بَعْدَ الظُّهْرِ وَهُوَ وَقْتُ تَأْوِيلِ الشَّيْءِ وَبَقِيَ ثَلَاثُ
 سَاعَاتٍ حَتَّى يَأْتِيَ مَوْعِدُ النَّوْمِ وَهَذَا عَمَلُهُمْ فِيهَا

قَالَ « بُونَالْد » فِي تَعْرِيفِ الْإِنْسَانِ « الْإِنْسَانُ عَقْلٌ تَخْدُمُهُ
 الْأَعْضَاءُ » وَقَدْ عَلِمْتَ كَيْفَ أَنَّهُمْ فِي تِلْكَ الْمَدْرَسَةِ اسْتَحْدَمُوا
 الصَّبَاحَ لِتَرْبِيَةِ الْقِسْمِ الْأَوَّلِ وَمَا بَعْدَ الظُّهْرِ لِتَرْبِيَةِ الثَّانِي ، إِلَّا أَنَّ
 الرَّجُلَ يَزِيدُ عَلَى هَذَا التَّعْرِيفِ بِكَوْنِهِ مَدَنِيًّا بِالتَّطَبُّعِ لَا مَحِيصَ لَهُ
 عَنِ الْاجْتِمَاعِ ، فَيَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ تَرْبِيَتُهُ مُؤَافِقَةً لَهُ ، وَالْاجْتِمَاعُ
 يَطْلُبُ مِنَ الْمَرْءِ أَنْ يَكُونَ مَهْدَبَ الْأَخْلَاقِ حَتَّى يَكُونَ أَيْسَرَ

العِشْرَةَ مَقْبُولِ الْمُسَامَرَةِ بَيْنَ أَمْثَالِهِ وَقَدْ خَصَّصَتْ تِلْكَ الْمَدْرَسَةُ
السَّاعَاتِ الثَّلَاثَةَ الْبَاقِيَةَ لِهَذِهِ التَّرْبِيَةِ قَالَ مُوسِيُو « رِيْدِي » مِنْ
غَرَضِنَا أَنْ نَعُوِّدَ الشُّبَّانَ مَا يَنْبَغِي عَنْهُمْ أَنْجَلِ وَسُوءِ الْحَرَاكَةِ
وَيَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِرْتِيَاكِ مِنْ الْإِجْتِمَاعِ بِأَكْبَرَ مِنْهُمْ سِنًا ،
لِذَلِكَ يَجْتَمِعُونَ كُلَّ مَسَاءٍ فِي غُرْفَةٍ وَاحِدَةٍ مَعَ سَيِّدَاتِ الْمَدْرَسَةِ
وَالزَّائِرِينَ ، وَقَدْ نُظِّمَتْ تِلْكَ الْغُرْفَةُ عَلَى مِثَالِ مُنَسَّقٍ تَسْتَرِيحُ إِلَيْهِ
النُّفُوسُ وَاتَّخِذَ أَثَاثُهَا وَالصُّوْرُ وَالْتِمَاثِيلُ الَّتِي فِيهَا لِهَذَا الْغَرَضِ
فَإِذَا أَقْبَلَتِ السَّاعَةُ السَّادِسَةُ تَحَوَّلَتِ الْمَدْرَسَةُ إِلَى بَهْوٍ (١) يَتَسَامَرُ
فِيهِ الْحَاضِرُونَ وَيَلْعَبُونَ بِآلَاتِ الطَّرَبِ وَأَهْمُهَا الْمُوْسِيقِي وَيَتَرَنَّمُونَ
بِالْأَنَاشِيدِ وَيُمَثِّلُونَ الْمُضْحِكَاتِ وَيَقِيْمُونَ الْمَرَاقِصَ وَالْمَلَاهِي ،
جَاءَ فِي الْكُرَّاسَةِ « إِنَّ الْمُوْسِيقِي مِنْ أَهَمِّ اشْتِغَالَاتِنَا فَلَنَّا فِي كُلِّ
أُسْبُوعٍ لَيْلَةٌ مُوسِيقِيَّةٌ وَفِي كُلِّ لَيْلَةٍ أَلْعَابٌ عَلَى الْبِيَانُو وَلِذَلِكَ
تَأْثِيرُهُ عَظِيمٌ فِي التَّلَامِيذَةِ وَلَهُمْ أَيْضًا كَثِيرٌ مِنْ آلَاتِ الطَّرَبِ
الْأُخْرَى وَآلَاتِ الرَّسْمِ وَالتَّصْوِيرِ » وَقَدْ بَنَى التَّلَامِيذَةُ مَلْهُى
لِتَشْخِيصِ الرِّوَايَاتِ لِأَنَّهَمْ لَا يَنْظُرُونَ إِلَى هَذِهِ الْأَلْعَابِ كَأَنَّهَا
رِيَاضَاتٌ بَسِيْطَةٌ بَلْ يَعُدُّونَهَا مِنْ أَعْظَمِ وَسَائِلِ التَّرْبِيَةِ ، وَلَهُمْ
لَيْلَةٌ فِي كُلِّ أُسْبُوعٍ يَقْرَأُونَ فِيهَا مُؤَلَّفَاتِ « شِكْسْبِير » ، وَقَدْ

(١) البهو : قاعة الاستقبال أو ما يسمى اليوم : صالة

تَلَفَّتْ جَمْعِيَّتَانِ مِنْهُنَّ لِلْمُنَاقَشَةِ فِي الْمَسَائِلِ الْمُخْتَلَفِ عَلَيْهَا، وَهَمَّ
 جَرِيدَةٌ تُسَمَّى « مَجَلَّةُ الْمَدْرَسَةِ » يَنْشُرُونَ فِيهَا أَخْبَارَهَا وَحَوَادِثَهَا
 مَصْحُوبَةً بِصُورٍ وَفِيهَا قِسْمٌ لِلْأَدْبِيَّاتِ، وَيَقُولُ صَاحِبُ الْكُرْسِيِّ
 إِنَّ الْعَرَضَ مِنْهَا تَرْبِيَةُ الْمَلَكَاتِ الْأَدْبِيَّةِ وَالْفَنِّيَّةِ وَتَمَثِيلُ الْمَدْرَسَةِ
 فِي أَذْهَانِ التَّلَامِيذَةِ كَأَنَّهَا عَالَمٌ تَامٌ صَغِيرٌ، وَمِمَّا يَزِيدُ فِي أُمُورِ
 الْمَلَكَاتِ الْفَنِّيَّةِ دَارٌ لِلتَّحْفِ شُرِعَ فِي تَأْسِيسِهَا وَقَدْ وُجِدَ فِيهَا
 نُسخٌ مِنْ صُورِ أَكْبَرِ الْمُصَوِّرِينَ وَتَمَاثِيلٌ وَأَثَانَاتٌ حَمِيْلَةٌ وَغَيْرُ
 ذَلِكَ، ثُمَّ يَنْتَهِي الْيَوْمُ بِالصَّلَاةِ كَمَا بَدَأَ إِلَّا أَنَّ الْمَدْرَسَةَ لَيْسَتْ
 تَابِعَةً لِلْمَذْهَبِ مَخْصُوصٍ مِنْ مَذَاهِبِ « البروتستانت » فَهَمَّ
 فِيهَا غَيْرُ مُقَيَّدِينَ بِطَرِيقَةٍ دُونَ أُخْرَى وَلَا هَمَّ لَهُمْ بِمَا يُسْمَوْنَ
 « الاعتراف » وَيَقْتَصِرُونَ فِي صَلَاتِهِمْ فِي الْمَعْبَدِ وَقَبْلَ الطَّعَامِ عَلَى
 تِلَاوَةِ بَعْضِ آيَاتِ التَّوْرَةِ وَنَشِيدِ بَعْضِ الْأَلْحَانِ وَالْأَسْتِغَاثَةِ بِبَعْضِ
 التَّضَرُّعَاتِ الْأَدْبِيَّةِ الدِّيْنِيَّةِ الْعُمُومِيَّةِ

وَلِلتَّلَامِيذَةِ مِنْ يَوْمِ الْأَحَدِ فَسُحَّةٌ يُعْبَدُ فِيهِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فِي
 الْكِنَائِسِ الْقَرِيبَةِ مِنَ الْمَدْرَسَةِ عَلَى حَسَبِ قَوَاعِدِ مَذْهَبِهِ الْخَاصِّ
 وَيَذْهَبُ الْكَاثُولِيكُ مِنْهُمْ لِسَمَاعِ الْقِدَاسِ فِي كَنِيسَةِ قَرِيبَةٍ
 وَإِلَيْكَ مَا جَاءَ فِي الْكُرْسِيِّ مُخْتَصًّا بِالدِّينِ « لِلدِّينِ شَأْنٌ
 خَطِيرٌ فِي الْحَيَاةِ فَوَجِبَ أَنْ تَكُونَ مَمْرُوجَةً بِهِ، غَيْرَ أَنَّا لَا نَعْلَمُهُ

التَّلَامِذَةُ كَأَنَّهُ جُزْءٌ مِنْهَا بَلْ بِاعْتِبَارِهِ كَلَّامًا مُنْتَظَمًا يَنْتَشِرُ فِي الذَّاتِ
كُلِّهَا وَإِنْ اِخْتَلَفَتِ الْمَذَاهِبُ وَتَشَعَّبَتِ الطَّرِيقُ ، فَيَجْتَمِعُونَ رُبْعَ
سَاعَةٍ فِي الصَّبَاحِ ، وَمِثْلَ ذَلِكَ فِي الْمَسَاءِ لِيَسْتَغْلُوا بِالذِّينِ وَيَتَوَجَّهُوا
بِإِشَارَاتٍ ظَاهِرَةٍ «

تِلْكَ هِيَ الْمَدْرَسَةُ وَذَلِكَ هُوَ نِظَامُهَا ، وَهِيَ تَجْرِبَةٌ أَرَاهَا مُفِيدَةً
لِلْغَايَةِ لِأَنَّهَا تَدُلُّ عَلَى مَيْلِ الْأَفْكَارِ إِلَى اخْتِيَارِ طَرِيقَةٍ فِي التَّعْلِيمِ
تُؤَافِقُ مُقْتَضِيَاتِ الْهَيْئَةِ الْأَجْتِمَاعِيَّةِ فِي الْأَعْصُرِ الْحَاضِرَةِ وَهِيَ
تُخَالِفُ كُلَّ الْمُخَالَفَةِ جَمِيعِ الطَّرِيقِ الْمَأْلُوفَةِ فِي غَيْرِهَا لِمَا هِيَ
عَلَيْهِ مِنَ التَّعْلِيمِ الْعَمَلِيِّ وَافْرَاقِ جُهْدِهَا فِي تَرْبِيَةِ الرَّجُلِ مِنْ
جَمِيعِ الْجِهَاتِ وَالْوُصُولِ بِمَلَكَاتِهِ إِلَى الْمُمْكِنِ مِنَ التَّقَدُّمِ وَإِنَّمَا
قُدْرَتِهِ وَعَزِيمَتِهِ وَهَمَّتِهِ إِلَى الْحَدِّ الْمُسْتَطَاعِ ، وَفِي هَذَا مَيْلٌ إِلَى
التَّرْبِيَةِ الْإِسْتِقْلَالِيَّةِ الَّتِي تَنْتَشِرُ الْآنَ فِي جَمِيعِ أَنْحَاءِ الْمَسْكُونَةِ

يَحِبُّ فِي الْعَالَمِ الْجَدِيدِ تَرْبِيَةَ جَدِيدَةً يَشِبُّ الْمَرْءُ فِيهَا
مُعْتَمِدًا عَلَى نَفْسِهِ لَا عَلَى الْجَمْعِيَّةِ أَوْ حِزْبٍ مِنَ الْأَحْزَابِ فَيَنْظُرُ
فِي عَمَلِهِ إِلَى الْمُسْتَقْبَلِ لِيَكُونَ هُوَ قَبْلَةَ حَيَاتِهِ الَّتِي تَشْخَصُ إِلَيْهَا (١)
وَيَهْمِلُ الْمَاضِيَّ فَلَا يَرْتَبِطُ أَعْمَالُهُ بِمَا كَانَ يَقْتَضِيهِ

وَيَبْنِي مَا كُنْتَ ذَاتَ يَوْمٍ أَحَدِثُ صَدِيقًا لِي بِهِذِهِ الْمَدْرَسَةِ قَالَ لِي :

(١) أى ليكون المستقبل الوجهة التي تنجيه إليها حياته

« إِنَّمَا لِتَجْرِبَةٍ مُفِيدَةٍ غَيْرَ أَنِّي أَرَى فِيهَا عَيْبًا هُوَ أَنَّ نِظَامَهَا دَاخِلِيٌّ »
 وَالِدَاخِلِيَّةُ كَمَا هِيَ عِنْدَنَا فِي الْبِلَادِ الْفَرَنْسَاوِيَّةِ نِظَامٌ مُضِرٌّ فِي الْحَقِيقَةِ
 بِالتَّلَامِذَةِ جَسْمًا وَعَقْلًا لِأَنَّهَا تَجْعَلُ الْمَدْرَسَةَ سُكْنَةً تَحْشِدُ الْمِائَاتَ مِنَ
 الْأَطْفَالِ فِي أَمَاكِنَ ضَيْقَةٍ وَفِي نِظَامٍ اشْتَدَّتْ مُقْتَضِيَاتُهُ وَذَلِكَ أَدْعَى
 إِلَى إِضْعَافِ الْهِمَمِ وَأَوْلَى بِتَرْبِيَةِ الْعَسَاكِرِ وَالْمُوظَّفِينَ مِنْهُ بِتَرْبِيَةِ
 عَزِيمَةِ الْأَفْرَادِ وَإِطْلَاقِ السَّرَاحِ لِمَا فِيهِمْ مِنَ الْقُوَى وَمَا فُطِرُوا عَلَيْهِ
 مِنَ الْإِقْتِدَارِ ، لَسَكِنَ مِنَ الْخَطَايَا الْوَاضِحِ عَدَمُ تَمْيِيزِ هَذِهِ
 الْحَالِ مِنَ الَّتِي شَرَحْنَاهَا فَلَا جَامِعَةَ بَيْنَهُمَا إِلَّا فِي الْأَسْمِ ، وَمِنْ
 الْوَاجِبِ التَّحَرُّزُ^(١) مِنَ الْأَلْفَاظِ لِأَنَّهَا تُطْلَقُ غَالِبًا عَلَى مُسَمِّيَاتِ لَاشِبَةٍ
 بَيْنَهَا فَعَدَدُ الطَّلَبَةِ فِي تِلْكَ الْمَدْرَسَةِ مَحْدُودٌ لَا يَزِيدُ الْيَوْمَ عَلَى الْخَمْسِينَ
 وَلَنْ يَزِيدَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ عَلَى الْمِائَةِ كَمَا صَرَّحَ بِهِ الدُّكْتُورُ « رِيدِي »
 الْعَلَمِ أَنَّ الزِّيَادَةَ عَلَى ذَلِكَ تَعْوِقُ سَيْرِ التَّرْبِيَةِ ، ثُمَّ إِنَّهُمْ لَا يَخْرُجُونَ
 مِنْ عَائِلَاتِهِمْ إِلَّا لِيَدْخُلُوا فِي عَائِلَةٍ أُخْرَى وَهِيَ عَائِلَةٌ نَاطِرٌ مَدْرَسَتِهِمْ
 الَّتِي تُقَاسِمُهُمُ الْحَيَاةَ فِي الْمَأْكَلِ وَالْمَقَامِ^(٢) ، فَحَيَاتِهِمْ فِي الْوَاقِعِ حَيَاةُ
 عَائِلِيَّةٍ عَلَى مِثَالِ أَوْسَعِ ، ثُمَّ انْتِطَاعُهُمْ عَنْ عَائِلَاتِهِمْ أَقْلٌ مِنْهُ عِنْدَنَا
 لِأَنَّ إِجَازَاتِهِمْ أَكْثَرُ مِنْ إِجَازَاتِنَا وَمُدَّتْهَا أَطْوَلُ : يُسَاحُونَ سَبْعَةَ
 أَسَابِيعَ فِي الصَّيْفِ وَأَرْبَعَةَ فِي الْمِيلَادِ^(٣) وَثَلَاثَةَ فِي الرَّبِيعِ وَبِذَلِكَ يُقِيمُ

(١) التحرز: يريد التدقيق فيها والتفطن للناسبات التي بينها وبين مسمياتها

(٢) المقام مصدر ميمي بمعنى الإقامة (٣) يريد عيد الميلاد

التَّلاَمِذَةُ بَيْنَ عَائِلَاتِهِمْ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ وَنِصْفَ شَهْرٍ فِي السَّنَةِ عَلَى
مَرَّاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ وَيَظْلُونَ ذَاكِرِينَ عَادَاتِهَا وَتَقَالِيدَهَا
لِكُلِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْجَمْعِيَّاتِ تَأْثِيرٌ خَاصٌّ فِي طَرِيقَةِ التَّرْبِيَةِ
وَهُوَ الَّذِي تَنْزِعُ مِنْهُ الْأُمَّةُ نِظَامَ مَدَارِسِهَا

فَإِنَّهَا الْجَمْعِيَّاتُ الْإِتِّكَالِيَّةُ الْعَائِلِيَّةُ وَتَمْتَازُ بِالنِّضَامِ عَدَدٍ مِنْ
تِلْكَ الْعَائِلَاتِ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ فِي مَنَزِلٍ وَاحِدٍ ، وَهُوَ الْمِثَالُ الَّذِي
تَأَخَّرَتْ بِسَبَبِهِ أَغْلَبُ الْأُمَّمِ الْأَسْيُورِيَّةِ وَأُمَّمِ الشَّرْقِ الْأُورُوبِيَّةِ ،
هُنَاكَ لَا يَتَعَمَّدُ الْأَطْفَالُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ فِي كَسْبِ حَيَاتِهِمْ بَلْ اعْتَمَادُهُمْ
عَلَى جَمْعِيَّتِهِمُ الْعَائِلِيَّةِ حَيْثُ يَبْتَقُونَ فِيهَا لِتَقْوَمِ مَحَاجَاتِهِمْ أَوْ يَرْجِعُونَ
إِلَيْهَا إِنْ أَدْرَكَتْهُمْ الْخَيْبَةُ فِي طَرِيقِهِمْ ، وَمَنْ كَانَ هَذَا شَأْنُهُ ضَعْفَ
شُعُورُهُ بِالْحَاجَةِ إِلَى التَّعْلِيمِ الشَّخْصِيِّ فَيَهْبِطُ ذَلِكَ التَّعْلِيمُ إِلَى أَسْفَلِ
الدَّرَجَاتِ وَرُبَّمَا اقْتَصَرَ فِيهِ عَلَى مَعَارِفِ الْعَائِلَةِ مُسْتَعِينَةً بِنِصَائِحِ
أَحَدِ رِجَالِ الدِّينِ ، وَمِنْ الْمَعْرُوفِ أَنَّ شَأْنَ الْمَدَارِسِ فِي تِلْكَ
الْجَمْعِيَّةِ غَيْرُ خَطِيرٍ فَفِيهَا مِثَالُ التَّرْبِيَةِ الْمَحْصُورَةِ فِي الْعَائِلَةِ وَالْمَوْكُولِ
أَمْرُهَا إِلَى الْعَائِلَةِ

وَمِنْ الْجَمْعِيَّاتِ الْإِتِّكَالِيَّةِ الْحُكُومِيَّةِ ، وَمُمِيزُهَا قِيَامُ الْحُكُومَةِ
مَقَامَ الْعَائِلَةِ الَّتِي انْعَدَمَتْ فَتَنْحَصِرُ آمَالُ الشَّبَابِ فِي وِظَائِفِهَا الْإِدَارِيَّةِ ،
وَالْعَسْكَرِيَّةِ وَهَذَا شَأْنُ أَغْلَبِ الْأُمَّمِ الْغَرْبِيَّةِ الْأُورُوبِيَّةِ وَأَخْصَبُهَا

فَرَنْسَا وَالْمَانِيَا ، وَيَنْبَغِي لِلطَّلَبَةِ فِي نَيْلِ تِلْكَ الْوُضَائِفِ أَنْ يَفُوزُوا
فِي امْتِحَانِ تَزْدَادِ صُعُوبَاتِهِ كُلِّ يَوْمٍ تَخَلُّصًا مِنْ تَكَاثُرِ الطَّالِبِينَ ،
وَإِذْ ذَلِكَ تَحْوُلُ الْمَدَارِسُ وَجْهَهَا إِلَى طَرِيقَةٍ جَدِيدَةٍ فِي التَّعْلِيمِ
فَتُكَلِّفُ الطَّلَبَةَ مَا لَا طَاقَةَ لَهُمْ بِاحْتِمَالِهِ وَتَطْلُبُ مِنَ الذَّاكِرَةِ
حِفْظَ الْمَعْقُولَاتِ مِنْ غَيْرِ تَفَقُّهِ ، فَمَا الْغَرَضُ مِنَ التَّعْلِيمِ تَرْبِيَةَ رِجَالٍ
قَادِرِينَ عَلَى احْتِمَالِ مَتَاعِبِ الْحَيَاةِ بَلِ الْمُرَادُ إِعْدَادُ الطَّلَبَةِ لِلْمُحَاضَرَةِ فِي
الِامْتِحَانِ ، وَأَعْظَمُ الْمَدَارِسِ نَجَاحًا فِي ذَلِكَ هِيَ الَّتِي اخْتَارَتْ نِظَامَ الدَّاخِلِيَّةِ
لِأَنَّهَا تَضْحِي بِكُلِّ فَائِدَةٍ إِلَّا مَا قَصِدَ بِهِ الْإِمْتِحَانُ كَأَنَّهَا حَيَاةُ الْمَرْءِ تَنْتَهِي
بِالِامْتِحَانِ فَيَجْتَهِدُونَ فِي تَوْصِيلِهِ إِلَيْهِ بِتَكْلِيفِهِ مَا لَا قُدْرَةَ لَهُ عَلَيْهِ ، وَمِنْ
فَائِدَتِهِمْ أَنَّهُ يُوجَدُ فِي الْمَدْرَسَةِ الْوَاحِدَةِ خَمْسِمِائَةَ تَلْمِيذٍ أَوْ أَلْفٍ أَوْ
أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ لِأَنَّ الْمُعَلِّمِينَ لَا يُعْنُونَ بِكُلِّ وَاحِدٍ عَلَى انْفِرَادِهِ
كَمَا يَصِيرُ رَجُلًا كَامِلًا يَقُومُ مَقَامَ رَبِّ عَائِلَةٍ ، وَعَلَيْهِ لَيْسَ لِلِاخْتِلَاطِ
فَائِدَةٌ ، وَلَيْسَ أَحْسَنُ الْمُعَلِّمِينَ فِي تِلْكَ الْأَحْوَالِ أَكْثَرُهُمْ عِلْمًا أَوْ
أَكْمَلَهُمْ وَقَارًا أَوْ أَبْعَدَهُمْ نَظْرًا بَلِ أَحَدَقَهُمْ^(١) فِي حَسَبِ رُءُوسِ
التَّلَامِيذَةِ بِكَثِيرٍ مِنَ الْمَوَادِّ فِي أَقْرَبِ وَقْتٍ مُمَكِنٍ ، وَأَكْثَرَهُمْ
خَبِيرَةٌ بِطُرُقِ النِّجَاحِ فِي الْإِمْتِحَانِ ، وَأَدْرَاهُمْ بِطُرُقِ الْمُتَمَحِّنِينَ
وَأَخْلَاقِهِمْ

وَالنَّوعُ الثَّلَاثُ هُوَ الْجَمْعِيَّاتُ الْاِسْتِقْلَالِيَّةُ وَمِثَالُهَا الْأُمَمُ الْاِسْكَنْدِينَاوِيَّةُ وَالْاِنْجِلِيزُ السَّكْسُونِيَّةُ ، وَتَخْتَلِفُ مَدَارِسُ هَذَا النَّوعِ عَنِ مَدَارِسِ النَّوعَيْنِ السَّابِقَيْنِ ، هُنَاكَ لَا يَتَمَدُّ الْمَرْءُ عَلَى الْعَائِلَةِ لِانْحِلَالِهَا وَلَا عَلَى الْحُكُومَةِ لِقِلَّةِ وُظَائِفِهَا وَعَدَمِ انْحِصَارِهَا فِي يَدٍ وَاحِدَةٍ بَلْ كُلُّ اعْتِمَادِهِ عَلَى نَفْسِهِ وَهَمَّتِهِ وَإِقْدَامِهِ

وَمِنْ هُنَا وَجِبَ أَنْ يَكُونَ الْغَرَضُ مِنَ التَّعْلِيمِ تَرْبِيَّةَ تِلْكَ الْمَلَكَاتِ كُلِّهَا حَتَّى يَكُونَ مُفِيدًا لِلرِّجَالِ فِي أَعْمَالِهِمْ وَأَنْ تَكُونَ الْمَدْرَسَةُ قَرِيبَةً الشَّبَهِ فِي نِظَامِهَا مِنَ الْحَيَاةِ الْخَارِجِيَّةِ عَلَى قَدْرِ الْإِمْكَانِ ، وَهِيَ لَا تَصِلُ إِلَى تِلْكَ الدَّرَجَةِ إِلَّا إِذَا كَانَتْ صَغِيرَةً وَعَدَدُ تَلَامِيذِهَا غَيْرَ كَبِيرٍ وَأَوْلَى فِي الْمَدِينَةِ أَنْ يَنَامَ الطَّلَبَةُ فِي بُيُوتِهِمْ لَيْلًا وَفِي الرِّيفِ أَنْ يُقِيمُوا فِي الْمَدَارِسِ عَلَى الدَّوَامِ ، وَيَنْبَغِي فِي هَذِهِ الْحَالَةِ الْأَخِيرَةِ أَنْ تَكُونَ حَالَةُ الْمَعِيشَةِ فِيهَا شَبِيهَةً بِمَعِيشَةِ الْعَائِلَةِ كَمَا لَا يَنْفَصِلُ الطِّفْلُ عَنِ عَادَاتِهِ فِي بَيْتِ أُمِّهِ

وَمِنْ هُنَا يَتَبَيَّنُ أَنَّه لَا يَكْفِي تَقْسِيمُ الْمَدَارِسِ بِحَسَبِ كَوْنِهَا دَاخِلِيَّةً أَوْ خَارِجِيَّةً بَلْ تُلَاحَظُ أَنْوَاعٌ كُلٌّ مِنَ الْقِسْمَيْنِ فَلِكُلِّ نَوْعٍ نِظَامٌ مُخْصُوصٌ وَمَعِيشَةٌ مُمْتَازَةٌ وَنَتَائِجٌ عَلَى حَدِّهَا

وَيُؤْخَذُ مِمَّا قَدَّمْنَاهُ أَنَّ السَّبَبَ فِي عَدَمِ إِمْكَانِنَا إِصْلَاحَ مَدَارِسِنَا عَلَى النَّحْوِ الَّذِي شَرَحْنَاهُ هُوَ حَالَتُنَا الْاجْتِمَاعِيَّةُ أَيْ أَخْلَاقُنَا الَّتِي تَدْفَعُ

الشَّبَّانَ نَحْوَ الْإِمْتِحَانِ وَالْوِظَائِفِ الَّتِي تُؤَدَّى إِلَيْهَا ، وَقَدْ يَظُنُّ الْبَعْضُ
 أَنَّ نِظَامَ تِلْكَ الْمَدْرَسَةِ لَا يُفِيدُنَا إِلَّا مِنْ قَبِيلِ الْعِلْمِ بِهِ وَهُوَ خَطَأٌ
 لِأَنَّ نَعْلَمُ أَنَّهُ لَمَّا كَانَ عَدَدُ التَّلَامِيذِ قَلِيلًا كَانَ أَمَلُ النِّجَاحِ فِي
 الْإِمْتِحَانِ مَعَ الْإِجْتِهَادِ كَبِيرًا ، وَلَكِنَّ الْأَحْوَالَ تَبَدَّلَتْ وَتَزَاوَجَتْ
 الشَّبَّانُ عَلَى الْوِظَائِفِ وَجَرَّتِ الطَّبَقَاتُ الْوَضِيعَةُ مِنَ الْأُمَّةِ عَلَى مِثَالِ
 الطَّبَقَاتِ الْوُسْطَى حَتَّى صَارَ لِكُلِّ وَظِيفَةٍ مَائَةٌ طَالِبٍ فَلَا يَجِدُ الطَّالِبُ
 بَعْدَ الْإِمْتِحَانِ بَابًا يَدْخُلُ مِنْهُ عَلَى الْوِظَائِفِ بَلْ سُورًا مَنِيعًا بَعِيدَ
 الْمَنَالِ ، وَلَيْسَ مِنَ الْحِكْمَةِ حَمْلُ الشَّبَابِ عَلَى مَنَاطِحَةِ السُّورِ ، لِذَلِكَ
 أَخَذَ الْمُتَمَلِّذُونَ يُخَفِّفُونَ مِنْ احْتِقَارِهِمْ لِلْمِهَنِ الْحِرَّةِ غَيْرَ أَنَّهُا يَجِبُ
 لَهَا صِفَاتٌ لَا تُنتِجُهَا تَرْبِيَّتُنَا الْحَالِيَةُ كَمَا هِيَ مِنْ ثَمَرَاتِ تِلْكَ الْمَدْرَسَةِ
 الَّتِي يَدِينَا نِظَامَهَا

الفصل الرابع

﴿ كَيْفَ يَنْبَغِي أَنْ نُزَيِّبَ أَوْلَادَنَا ﴾

اعْتَدْنَا مَعَشَرَ الْفَرَنْسَاوِيِّينَ إِجْمَادَ مُرْتَزَقٍ لِأَبْنَائِنَا عَلَى إِمْهَارِهِمْ
 شَيْئًا مِنَ الْمَالِ نَجْمَعُهُ بِالْإِقْتِسَادِ ثُمَّ نَتَّبِعُ ذَلِكَ بِالْبَحْثِ لَهُمْ عَنْ زَوْجٍ أَوْ
 زَوْجَةٍ مُتَنَاسِبٍ فِي الثَّرْوَةِ ، وَبَعْدَ ذَلِكَ نَجْتَهِدُ فِي إِتْلَائِهِمُ الْوِظَائِفِ

الْعُمُومِيَّةِ مَتَى تَيْسَرَ ، وَقَدْ قَامَتِ الْعُقَبَاتُ هَذِهِ الْأَيَّامَ فِي سَبِيلِ
 النِّجَاحِ بِهَذِهِ الْوَاسِطَةِ لِانْخِفَاضِ فَائِدَةِ النُّقُودِ فَبَعْدَ أَنْ كَانَتْ خَمْسَةً
 فِي الْمِائَةِ صَارَتْ أَرْبَعَةً ثُمَّ ثَلَاثَةً وَصَارَ مِنَ الْمُتَعَذِّرِ جَمْعُ الْمَالِ اللَّازِمِ
 لِلْأَبْنَاءِ ، وَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الصُّعُوبَةُ خَافِيَةً عَلَانًا إِلَى هَذَا الْيَوْمِ لَوْفَرَةِ
 الْمَالِ عِنْدَنَا فَإِنَّكَ تَسْمَعُ النَّاسَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ يَقُولُونَ إِنَّ فَرَنْسَا بِلَدَةٌ
 غَنِيَّةٌ لَدَيْهَا كَثِيرٌ مِنَ الْأَمْوَالِ وَهُوَ صَحِيحٌ بِدَلِيلٍ أَنَّ أَكْبَرَ سُوقِ
 لِلنُّقُودِ يُوجَدُ فِيهَا غَيْرَ أَنَّهُ لِسُوءِ الْحِظِّ لَيْسَتْ وَفَرَةُ الْمَالِ مِنْ عَمَلِ
 الْأُمَّةِ خَاصَّةً بَلْ سَبَبُهُ أَحْوَالُ عَرَضِيَّةٌ لَا تَدُومُ طَوِيلًا وَتِلْكَ الْأَحْوَالُ
 فِي الْحَقِيقَةِ مِنْ أَمَارَاتِ الْإِنْحِطَاطِ لِأَمِنْ عِلَامَاتِ التَّقَدُّمِ وَالرِّخَاءِ
 فَمِنْ تِلْكَ الْأَسْبَابِ الْإِقْتِصَادُ فِي النَّسْلِ إِذْ لَا شُبْهَةَ فِي أَنْ عَدَدَ
 الْفَرَنْسَاوِيِّينَ يَقِلُّ سَنَةً عَنْ سَنَةٍ فَقَدْ ذَلَّ التَّعْدَادُ الْأَخِيرُ عَلَى أَنْ
 الْوَفِيَّاتِ تَزِيدُ عَلَى الْمَوَالِيدِ وَهِيَ حَالَةٌ نَادِرَةٌ إِلَّا أَنَّهَا الْيَوْمَ خَاصَّةً
 بِفَرَنْسَا حَتَّى جَعَلَتْهَا فِي مُؤَخَّرِ الْأُمَمِ وَمِنْ هُنَا أَيْ مِنْ قِلَّةِ عَدَدِ
 الذَّرِّيَّةِ يَكْثُرُ الْمَالُ لِأَنَّ الرَّجُلَ الَّذِي يَصْرِفُ سِتَّةَ آلَافٍ فَرَنْكٍ
 فِي السَّنَةِ لِتَرْبِيَةِ سِتَّةٍ مِنَ الْأَوْلَادِ لَا يَصْرِفُ إِلَّا الْفَأْ فِي تَرْبِيَةِ وَلَدٍ
 وَاحِدٍ وَيَقْتَصِدُ خَمْسَةَ آلَافٍ فِي كُلِّ سَنَةٍ ، وَلِلْفَرَنْسَاوِيِّينَ مَيْلٌ
 شَدِيدٌ إِلَى هَذَا الْإِقْتِصَادِ لِذَلِكَ تَرَاهُمْ أَكْثَرَ مَالًا مِنَ الْأُمَمِ الَّتِي

يَكْثُرُ فِيهَا عَدَدُ أَفْرَادِ الْعَائِلَاتِ ، وَهَذَا مِنْ الْأَسْبَابِ الَّتِي جَعَلَتْ
فِي فَرَنْسَا كَبَرَ سُوقِ لِلنَّقُودِ

ثَبَتَ إِذَا أَنْ لِقِدَّةَ الْأَوْلَادِ دَخَلَ فِي وَفْرَةِ الْمَالِ ، وَهُنَاكَ سَبَبٌ
آخَرٌ هُوَ تَبَاعُدُ الْفَرَنْسَاوِيِّينَ عَنِ الْمِهْنِ الْجَارِيَةِ وَهَرَبُهُمْ مِنَ الزَّرَاعَةِ
وَالصَّنَاعَةِ وَالتَّجَارَةِ فَلَا يَمِيلُ إِلَيْهَا إِلَّا الْقَلِيلُ وَالكَثِيرُ يُفَضِّلُ عَلَيْهَا
الْوِظَائِفَ الْإِدَارِيَّةَ لِهَذَا اجْتَمَعَ الْأَطْفَالُ كُلُّهُمْ حَوْلَ مَدَارِسِ
الْحُكُومَةِ حَيْثُ يُضَيِّعُ مُسْتَقْبَلُهُمْ فِي جَوَانِبِهَا ، فَكُلُّ مَنْ كَسَبَ
دِرْهَمًا أَوْ دِرْهَمَيْنِ مِنَ الزَّرَاعَةِ أَوْ الصَّنَاعَةِ أَوْ التَّجَارَةِ يُسَمَّى وَيُضْبَحُ
مُفَكَّرًا فِي الْخُرُوجِ مِنْ مِهْنَتِهِ وَفِي تَرْبِيَةِ ابْنِهِ لِيَكُونَ ضَابِطًا
فِي الْجَيْشِ أَوْ مُوْظَفًا فِي الْحُكُومَةِ أَوْ مِنَ الْكُتَّابِ وَأَهْلِ الْأَدَبِ
وَعَلَيْهِ فَالْفَرَنْسَاوِيُّ لَا يُدِيرُ مَا جَمَعَ مِنَ الْمَالِ بِنَفْسِهِ بَلْ يَدَّخِرُهُ
حَتَّى يَرْمِي بِهِ فِي أَسْوَاقِ الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ الْمَالِيَّةِ « الْبُورْصَةِ » وَهَكَذَا
كَانَ هَرَبُ الْفَرَنْسَاوِيِّينَ مِنَ الْجِرْفِ وَالصَّنَاعَاتِ مُوجِبًا لِيَزَادَ الْمَالُ
الْمَخْزُونُ ، إِلَّا أَنَّ هَذِهِ الْأَسْبَابَ الَّتِي تَدْعُو الْآنَ إِلَى وَفْرَةِ الْمَالِ
تُؤَدِّي أَخِيرًا إِلَى النِّقْصِ فِيهِ سَنَةً بَعْدَ الْأُخْرَى وَتَنْتَهِي بِضْيَاعِهِ
فِي زَمَنِ يَتَخَيَّلُونَ أَنَّهُ بَعِيدٌ ، فَكَمَا أَنَّ نَقْصَ الْأَطْفَالِ يَزِيدُ فِي الْأَمْوَالِ
فَإِنَّهُ مِنْ جِهَةِ أُخْرَى يُضْعِفُ الْقُدْرَةَ عَلَى الْأَعْمَالِ فَإِنْ كَانَ لِلرَّجُلِ
سِتَّةُ أَوْلَادٍ لَزِمَهُ أَنْ يَشْتَغَلَ كَثِيرًا وَكَثْرَةُ شُغْلِهِ تَزِيدُ فِي ثَرْوَةِ

الأمّة ، فَإِنَّ لَمْ يَكُنْ لَهُ إِلَّا وَلَدٌ وَاحِدٌ قَلَّ عَمَلُهُ وَضَعُفَ تَأْثِيرُهُ
 فِي إِثْمَاءِ الثَّرْوَةِ الْعُمُومِيَّةِ ، وَكَذَلِكَ إِذَا خَرَجَ الطِّفْلُ مِنْ عَائِلَةٍ كَبِيرَةٍ
 الْعَدَدِ قَلَّ أَمَلُهُ فِي ثَرْوَةِ أَبِيهِ ، وَعَوَّلَ فِي رِزْقِهِ عَلَى نَفْسِهِ فَيَزْدَادُ
 إِقْدَامَهُ عَلَى الْعَمَلِ وَتَكَبُّرُهُ فِيهِ الْهَمَّةُ بِخِلَافِ مَا لَوْ خَرَجَ مِنْ عَائِلَةٍ
 هُوَ وَحِيدُهَا فَإِنَّهُ يَجْعَلُ كُلَّ اعْتِمَادِهِ عَلَيْهَا وَلَا يُعْوَلُ عَلَى نَفْسِهِ إِلَّا
 قَلِيلًا . وَزَادَ عَلَى هَذَا أَنَّ نَفُورَنَا مِنَ الصَّنَاعَاتِ ذَاتِ الْمَكْسَبِ ، وَإِنْ
 سَهَّلَ لَنَا أَنْ نُلْتَمَى بِجَمِيعِ مَا اقْتَصَدْنَا مِنَ الْمَالِ فِي الْأَسْوَاقِ الْمَالِيَّةِ ،
 يُبْعِدُنَا عَنْ مَنَابِعِ ^(١) ذَلِكَ الْاِقْتِصَادِ إِذْ لَا مَصْدَرَ لِلثَّرْوَةِ الْعُمُومِيَّةِ إِلَّا
 الزَّرْعَةَ وَالصَّنَاعَةَ وَالتَّجَارَةَ . وَقَدْ نَسِينَا أَنَّ غَيْرَهَا مِنَ الْمِهَنِ وَالْحِرَفِ
 دَخِيلٌ لَيْسَ بِالْأَصِيلِ وَأَنَّ مَرَجِعَهَا كُلُّهَا إِلَى تِلْكَ الْمَنَابِعِ الثَّلَاثَةِ .
 وَرُبَّمَا قَالَ بَعْضُهُمْ : إِنْ تِلْكَ الْحَالَةَ تَدْوُمُ لَنَا بِدَوَامِنَا ، فَجَنِيبٌ بَانَ
 ذَلِكَ غَيْرُ مَأْمُونٍ . وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَمَنْ الْمُحَقِّقُ أَنَّهُ لَا تَدْوُمُ لِأَطْفَالِنَا .
 أَلَا تَرَى أَنَّ كَثِيرًا مِنْ أَوْلَادِكَ الشَّبَّانِ التَّعَسَاءِ لَا يَنْجَحُونَ الْيَوْمَ
 فِي الْاِمْتِحَانِ لِكثْرَةِ عَدَدِ الطَّالِبِينَ مَعَ اِزْدِيَادِ عَدَدِ الْوُظَائِفِ إِلَى
 حَدِّ الْاِفْرَاطِ ، فَهُمْ أَشْبَهُ بِالظَّمَانِ يَرَى السَّرَابَ فَيَطْنُهُ مَاءً حَتَّى

(١) يريد مصادر

إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا . وَلَيْتَ (١) شِعْرِي مَاذَا يَفْعَلُونَ بَعْدَ ذَلِكَ كَمَا
لَسْتُ أَدْرِي مَا الَّذِي فِي إِمْكَانِهِمْ أَنْ يَفْعَلُوهُ ؟ وَمَا الَّذِي أَهْلَتْهُمْ
إِلَيْهِ تَرْبِيَتَهُمْ فِي الْعَائِلَاتِ وَالْمَكَاتِبِ وَالْمَدَارِسِ غَيْرِ الْحِرَفِ
الْأَدَبِيَّةِ وَالْمَصَالِحِ الْعُمُومِيَّةِ وَالْوِظَائِفِ الْحَرَبِيَّةِ ؟ كَمْ قَالُوا
لَهُمْ إِنَّهَا أَشْرَفُ الصَّنَاعَاتِ ، وَأَنَّهُ لَا يَلِيْقُ بِهِمْ سِوَاهَا ، لَا فَرَقَ
فِي ذَلِكَ بَيْنَ عَائِلَاتِ الطَّبَقَةِ الْوُسْطَى وَعَائِلَاتِ الدَّرَجَةِ السُّفْلَى حَتَّى
صَارَ كُلُّ النَّاسِ يَذْكُرُونَ ذَلِكَ فِي الْقُصُورِ وَالْحَوَانِيتِ وَالْمُدُنِ
وَالْأَرْيَافِ وَأَصْبَحَ كُلُّ شَابٍّ يَحْلُمُ بِالْوِظَائِفِ فِي الْحُكُومَةِ وَأَمْسَى
عَلَى بَابِ بَعْضِ الْوِظَائِفِ آآآفٌ مِنَ الطَّالِبِينَ كَمَا تَشْهَدُ بِهِ التَّقَارِيرُ
الرَّسْمِيَّةُ ، وَظَلَّ أَوْلِيَاكَ التُّعْسَاءُ يَتَقَلَّبُونَ عَلَى جَمْرِ الْإِنْتِظَارِ ،
وَقَدْ غَصَّتْ بِهِمْ رِحَابُ الْمَصَالِحِ وَمَلَأُوا جُيُوبَهُمْ مِنْ رَسَائِلِ
التَّوَصِيَّةِ وَجَعَلُوا يَنْدُبُونَ حَالَهُمْ وَيَنْتَجِبُونَ وَلَا يُحْجِمُونَ عَنْ أَمْرِ
إِلَّا اسْتَعْمَلُوهُ اللَّهُمَّ إِلَّا رُجُوعَهُمْ إِلَى أَنْفُسِهِمْ وَطَلْبَهُمُ الرِّزْقَ بِعَامِهِمْ
مِمَّا رُبَّمَا كَانَ أَوْفَرَ حَالًا وَأَعْظَمَ ثَمَرَةً ، وَمِمَّا هُوَ بِلَا شَكٍّ أَدْعَى إِلَى
الِاسْتِقْلَالِ وَأَوْلَى بِحِفْظِ الْكِرَامَةِ ، وَمَا عُدُّوهُمْ عَنْ ذَلِكَ إِلَّا مِنْ
خَوْفِ الْخَيْبَةِ . لِذَلِكَ فَضَلُّوا التَّرَدُّدَ عَلَى الْوِظَائِفِ . هَهُمَا صَغُرَتْ وَإِنْ .

(١) ليت شعري أى ليت علمي بذلك موجود

رُدُّوا وَطَالَ عَلَيْهِمْ أَمَدُ الْإِنْتِظَارِ ، وَظَنُّوْهَا حَالَةً يُحْسَدُونَ عَلَيْهَا ، فَطَالِبُ الْإِسْتِخْدَامِ يُلْحَقُ بِالْمُسْتَخْدَمِينَ فِي رَأْيِ هَذِهِ الْبِلَادِ الَّتِي سَادَتْ فِيهَا الْوِظَائِفُ وَالْأَسْفَاهُ - وَإِنْ ذَابَتْ مَرَارَتُهُ مِنَ الْإِنْتِظَارِ عَلَى مَقَاعِدِ الْحُجَابِ ، وَصَغُرَ الْمَطْلُوبُ وَعَزَّ النَّوَالُ . كَذَلِكَ هُمْ يَعْدِلُونَ لِكُونِهِمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى تِلْكَ الصَّنَاعَاتِ الْمُسْتَقِلَّةِ ، لِأَنَّ تَرْبِيَتَنَا الْفَرَسَاوِيَّةَ ، كَمَا بَلَغَتْ الْمُمْكِنَ مِنْ تَخْرِيجِ الْمُوظَّفِينَ ، قَدْ وَصَلَتْ إِلَى الْعَدَمِ فِي تَرْبِيَةِ الرِّجَالِ الْمُسْتَقِلِّينَ مِمَّنْ لَهُمْ هِمَّةٌ وَقُدْرَةٌ عَلَى مُغَالَبَةِ مَتَاعِبِ الْحَيَاةِ : فَلَا يَلِيقُ شُبَّانَنَا لِغَيْرِ تِلْكَ الْوِظَائِفِ الَّتِي يَكُونُونَ فِيهَا تَابِعِينَ ، وَيَفْرَحُونَ لِكُونِهِمْ يَتَنَاوَلُونَ بِلَا عَنَاءٍ فِي آخِرِ كُلِّ شَهْرٍ رَاتِبًا مَعْدُودًا وَيَعْرِفُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَصِيرَهُ قَبْلَ دُخُولِهِ فِي الْوِظِيْفَةِ ، وَأَنَّهُ إِذَا بَلَغَ مِنَ الْعُمُرِ كَذَا صَارَ وَكِيلًا لِرَّئِيسٍ ، وَإِذَا بَلَغَ كَذَا صَارَ رَّئِيسًا لِأَحَدِ الْأَقْلَامِ ، ثُمَّ إِذَا بَلَغَ كَذَا تَقَاعَدَ وَأَخَذَ الْمَعَاشَ ، وَلَا يَجْهَلُ مِنْ تِلْكَ الْأَزْمَانِ إِلَّا زَمَانَ الْمَوْتِ ، وَظَاهِرٌ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ حَصْرُ دَائِرَةِ الْحَيَاةِ فِي حُدُودٍ أَشَدَّ ضَيْقًا مِنْ هَذِهِ الْحَالَةِ . وَيُسْتَحْلَصُ مِمَّا تَقَدَّمَ أَنَّهُ يَنْبَغِي لَنَا التَّمْوِيعُ فِي تَرْبِيَةِ أَبْنَائِنَا إِذَا أَرَدْنَا أَنْ يَكُونُوا قَادِرِينَ عَلَى حَيَاتِهِمْ فِي الْأَزْمَانِ الَّتِي اسْتَهَلَّتْ (١) مُسْتَعِدِّينَ لِمُقَاوَمَةِ سُوءِ الْحَالِ الْاجْتِمَاعِيِّ الَّذِي قَدْ فَتَحَتْ أَبْوَابَهُ .

الْحَرْجُ الْاجْتِمَاعِيُّ الْيَوْمَ عَامٌ وَلَا بَدْءَ مَعَهُ مِنْ وَضْعِ مَسْأَلَةِ التَّرْبِيَةِ
 مَوْضِعِ النَّظَرِ وَالتَّفَكِيرِ ، وَالْحَقِيقَةُ الَّتِي يَجِبُ أَنْ تَتَّخِذَهَا قَاعِدَةً
 لِلْبَحْثِ فِيهَا هِيَ أَنَّ طَرِيقَةَ التَّرْبِيَةِ الْمُسْتَعْمَلَةَ الْآنَ لَمْ تَعُدْ صَالِحَةً
 لِلْغَرَضِ الْمَقْصُودِ مِنْهَا ، وَأَنَّهُ لَا بَدْءَ مِنَ الْعُدُولِ عَنْهَا لِأَنَّهُ لَا نَجَاحَ
 فِيهَا . أَلَا تَرَى أَنَّ الرَّجُلَ يَأْتِي كُلَّ شَيْءٍ يَعْتَقِدُهُ مُفِيدًا لِأَبْنَائِهِ ،
 وَلَا يَهْمُلُ شَيْئًا مِمَّا أَفَادَهُ هُوَ ، وَمَعَ ذَلِكَ لَا يَصِلُ ابْنُهُ إِلَى مَا وَصَلَ
 إِلَيْهِ ، حَتَّى أَصْبَحَ الْأَبَاءُ الْمُجْدُونَ ذَوُو الْأَفْكَارِ مِمَّنْ حَسَنَتْ تَرَبُّتُهُمْ
 وَاسْتَقَامَتْ عَشْرَتُهُمْ يَتَسَاءَلُونَ وَهُمْ حَيَارَى : كَيْفَ يُرَبُّونَ أَبْنَاءَهُمْ
 وَيَجْعَلُونَ لَهُمْ مَرْتَقًا ! هَذَا خِذْلَانٌ لَا تَخْلَصُ مِنْهُ وَمَهْوَاةٌ (١)
 لَا تَحْرَزُ مِنْهَا إِلَّا بِالْعِلْمِ الْاجْتِمَاعِيِّ . نَقُولُ ذَلِكَ لِأَنَّ الْخِذْلَانَ
 مَوْجُودٌ فَالنَّاسُ تَحْمَارٌ وَجُوهُهُمْ مِنْ هَذِهِ الْحَالِ ثُمَّ يَغْضَبُونَ ثُمَّ
 يَرَوْنَ الْجَوَّ مُظْلِمًا وَيَقُولُونَ إِنَّ رُوحًا خَبِيثَةً انْتَشَرَتْ فِي الْعَالَمِ
 وَإِنَّ النَّاسَ جَبَنُوا فَتَرَكَوا الْمَبَادِيَّ الصَّحِيحَةَ ، ثُمَّ يَشْتَدُّ الْغَضَبُ
 فَيَضْحَبُونَ وَلَسْكَنَهُمْ يَبْقُونَ عَلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ مُعْتَقِدِينَ أَنَّهُ هُوَ
 الَّذِي يَجِبُ الرُّجُوعُ إِلَيْهِ فَيَخَيَّبُونَ خَيْبَةً كَامِلَةً .

أَمَّا الْعِلْمُ الْاجْتِمَاعِيُّ فَهُوَ أَكْبَرُ اعْتِدَالًا وَأَصْدَقُ مَقَالًا يَخْتَبِرُ
 الْحَوَادِثَ وَيُقَارِنُهَا بَعْضُهَا بِبَعْضٍ وَيُمَيِّزُ أَشْكَالَهَا وَيَعْلَمُ النَّاسَ

(١) مهوأة : مكان الهوي والسقوط

أَنَّ الْعَالَمَ مُنْتَقِلٌ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ أَحْسَنَ مِنْهُ غَيْرٌ مَوْقُوفٍ
بَلْ دَائِمٌ ، وَهَذَا الْإِنْتِقَالُ يَفْصِلُ الدَّهْرَ إِلَى قِسْمَيْنِ : مَاضٍ
وَمُسْتَقْبَلٍ ، وَهُوَ الَّذِي يُرِيهِمْ أَسْبَابَ الْحَرَجِ الْحَاضِرِ وَوَجْهَتَهُ
وَغَايَتَهُ وَأَنَّهُ حَرَجٌ لَا يُشَابَهُ غَيْرُهُ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ .

فَمِنْ تِلْكَ الْأَسْبَابِ تَغْيِيرُ طُرُقِ الْكَسْبِ وَالْمُوَاصَلَاتِ عَلَى
الدَّوَامِ أَعْنَى تَغْيِيرِ طُرُقِ الْمَعِيشَةِ لِأَنَّ الْعَامِلَ كَانَ فِي الْمَاضِي يَعْمَلُ
فِي مَصْنَعٍ صَغِيرٍ أَوْ فِي بَيْتِهِ أَوْ بَيْتِ الْمَصْنُوعِ لَهُ ، وَكَانَ الْمُقْبَلُونَ
عَلَى سِلْعِهِ قَلِيلِينَ لَا يَخْرُجُونَ عَنْ أَهْلِ قَرْيَتِهِ وَكَانَ صَنْعُهُ
فِي الْغَالِبِ يَدْوِيًّا أَوْ بِأَلَاتٍ صَغِيرَةٍ وَكَانَتْ طُرُقُ الْعَمَلِ وَاحِدَةً
يَتَلَقَّاهَا الْخَلْفُ مِنَ السَّابِقِ وَكَانَ الْجَدِيدُ فِي الصَّنْعِ مَعْدُومًا
أَوْ نَادِرًا وَلَمْ يَكُنْ مِنْ مُسَابِقَةٍ إِلَّا بَيْنَ الْمُتَجَاوِرِينَ لِأَنَّ طُرُقَ
الْمُوَاصَلَاتِ كَانَتْ قَاصِرَةً لَا تُسَاعِدُ عَلَى تَسْفِيرِ الْمَصْنُوعَاتِ إِلَى الْبِلَادِ
الْقَاصِيَةِ وَجَلَبَ ذَيْرَهَا مِنْهَا وَكَانَتْ الْمُنَافَسَةُ ضَعِيفَةً لِمَا أَلْفُوهُ فِي
ذَلِكَ الزَّمَنِ مِنْ وَضْعِ النِّظَامَاتِ الَّتِي لَا تَجْعَلُ لِلتَّرَاحِمِ مَحَلًّا حَيْثُ
تَقَرَّرَتْ طُرُقُ الْعَمَلِ وَتَحَدَّدَ عَدَدُ الْمُعَامِلِينَ وَالْمُتَعَلِّمِينَ وَذَيْرُ ذَلِكَ .
وَبِالْجُمْلَةِ كَانَتْ الْأَفْكَارُ مُتَّجِهَةً إِلَى الْمُحَافَظَةِ عَلَى طُرُقِ الْمَعِيشَةِ الْمَأْلُوفَةِ .
وَمِنْ أَجْلِ هَذَا كَانَتْ التَّرْبِيَةُ مُوَافِقَةً لِمُقْتَضِيَاتِ الزَّمَانِ تَعَلَّمَ الشَّبَّانُ
مِمَّا تَعَلَّمَهُ آبَاؤُهُمْ وَهَيَّؤُهُمْ إِلَى مَا عَرَفَهُ الْمَاضِي مِنَ الْأَعْمَالِ وَبَقِيَتْ

كَذَلِكَ تُنتِجُ النَّاتِجَ الْحَسَنَةَ زَمَانًا طَوِيلًا ، أَمَّا الْآنَ فَقَدْ تَغَيَّرَتْ
الْأَزْمَانُ وَتَبَدَّلَتْ أَحْوَالُ الْأَجْمَاعِ الْإِنْسَانِيِّ وَصَارَ الْعَامِلُ يُشْتَغَلُ
فِي مَصَانِعَ كَبِيرَةٍ بِآلَاتٍ ضَخْمَةٍ وَيَبْدِعُ سِلْعَهُ فِي طَرَفِ الْمَسْكُونَةِ
وَكَلَّ يَوْمٍ يَزِدُّ أَدْعَدُّ الطُّلَّابِ وَطُرُقُ الْعَمَلِ تَتَغَيَّرُ فِي كُلِّ حِينٍ
تَبَعًا لِتَقَدُّمِ الْعُلُومِ ، وَقَامَ الْجَدِيدُ مَقَامَ التَّقْلِيدِ وَالِاتِّبَاعِ وَاشْتَدَّتْ
الْمُزَاحِمَةُ وَوَجَبَ عَلَى الصُّنَّاعِ ، تَفَادِيًا مِنْ شَرِّهَا ، أَنْ يَبْحَثُوا دَائِمًا
عَنْ طُرُقٍ تُمْكِنُهُمْ مِنْ إِكْثَارِ سِلْعِهِمْ أَوْ تَخْسِينِهَا أَوْ تَخْفِيفِ
أَثْمَانِهَا وَتَحَوَّلَتْ الْمَعِيشَةُ مِنْ هُدُوٍّ وَاسْتِقْرَارٍ إِلَى حَرَكَةٍ وَتَجْدِيدٍ
وَاخْتِرَاعٍ ، وَمِنْ أَهَمِّ مَا تَجِبُ مُلَاحَظَتُهُ أَنَّهُ لَيْسَ فِي وَسْعِنَا اخْتِيَارُ
إِحْدَى الْحَالَتَيْنِ لِأَنَّ الْحَالَةَ الْجَدِيدَةَ صَارَتْ ضَرْبَةَ لَازِبٍ (١)
لَا مَفْرَ مِنْهَا .

وَمَعْلُومٌ أَنَّ تَغْيِيرَ طُرُقِ الْمَعِيشَةِ يَسْتَلْزِمُ تَغْيِيرَ حَالَةِ الْعَالَمِ
بِأَجْمَعِهِ ، وَمِنْ هُنَا تَوَلَّدَتِ الْمَسْأَلَةُ الْمَعْرُوفَةُ الْآنَ بِالْمَسْأَلَةِ
الْأَجْتِمَاعِيَّةِ وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنِ الْبَحْثِ فِي وَسَائِلِ الْحَيَاةِ .

وَالسَّبَبُ فِي ظُهُورِ هَذِهِ الْحَالَةِ الْجَدِيدَةِ ظُهُورُ الْعُلُومِ الطَّبِيعِيَّةِ
الَّتِي لَمْ يَقِفِ الْعُلَمَاءُ عِنْدَ مُنْتَهَاهَا ، بَلْ هِيَ لَا تَرَالُ فِي مَبَادِيهَا كَمَا يَرَاهُ
وَيَشْهَدُ بِهِ كُلُّ إِنْسَانٍ ، فَمِنْ ذَلِكَ الْحِينِ انْحَدَرَ الْمُجْتَمَعُ الْإِنْسَانِيُّ

(١) اللازب: بمعنى اللازم أى الثابت وهو أفصح من اللازم

فِي طَرِيقِ تَبَدُّلِ أَحْوَالِهِ الْمَادِّيَّةِ انْجِدَارًا لَا يُقَاوَمُ وَانْحَلَّتِ الْجَامِعَةُ
 بَيْنَ الْحَاضِرِ وَالْمَاضِي لِمَا اعْتَادَ هَذَا مِنْ الْبَقَاءِ عَلَى حَالَتِهِ الْأُولَى
 وَلِمَا اضْطُرَّ إِلَيْهِ ذَلِكَ مِنْ إِيجَادِ الْوَسَائِلِ الَّتِي تُمْكِنُهُ مِنْ اسْتِخْدَامِ تِلْكَ
 التَّقْلِبَاتِ فِي فَائِدَتِهِ وَرَفَعِ مَضَارِّهَا عَنْهُ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ الزَّمَنِ كَالْفَرْقِ بَيْنَ
 الْجُنْدِيِّ الَّذِي يُحَارِبُ مِنْ دَاخِلِ الْحِصْنِ وَالْجُنْدِيِّ الَّذِي يُحَارِبُ
 فِي الْبَيْدَاءِ وَهُوَ فَرْقٌ جَسِيمٌ كُلِّيٌّ، وَلَيْسَ بِصَحِيحٍ أَنَّهُ نَتِيجَةٌ مِثْلُ
 النَّاسِ إِلَى الشَّرِّ فِي هَذِهِ الْأَزْمَانِ وَجِبْنَ طِبَاعِهِمْ كَمَا هُوَ رَأَى مِنْ لَمْ
 يَتَدَبَّرَ الْحَوَادِثَ وَيَتَفَقَّهَ الْأَحْوَالَ، بَلْ هَذِهِ حَالَةٌ مَادِّيَّةٌ جَدِيدَةٌ
 فِي الْعَالَمِ قَضَتْ بِهَا الْقُدْرَةُ الْإِلَهِيَّةُ بِمَا هَدَتْ إِلَيْهِ مِنَ الْعُلُومِ الطَّبِيعِيَّةِ
 الَّتِي مِنْ خِصَائِصِهَا التَّقَدُّمُ وَالتَّرَقِّيُّ، وَمَا عَلَى الْمَرْءِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ
 بِحَالٍ تُطَابِقُ هَذَا التَّقَدُّمَ فَإِنَّ فِي ذَلِكَ مَصْلَحَتَهُ بَلْ إِنَّ هَذَا صَارَ
 مِنْ وَاجِبِهِ .

قُلْنَا إِنَّ الْعِلْمَ الْاجْتِمَاعِيَّ يُوضِحُ أَسْبَابَ الْانْحِطَاطِ كَمَا أَنَّهُ يُبَيِّنُ
 الْغَايَةَ الَّتِي يَسُوقُ النَّاسَ إِلَيْهَا وَهِيَ وَاضِحَةٌ .

يَسُوقُ الْانْحِطَاطِ النَّاسَ إِلَى حَالَةٍ جَدِيدَةٍ غَيْرِ الَّتِي هُمْ فِيهَا ،
 فَلَنْ يَتَأْتِيَ لِمَرِيٍّ أَنْ يَعِيشَ مُحْضُورًا فِي دَائِرَةِ مَحْدُودَةٍ وَلَا أَنْ يَعْتَمِدَ
 فِي مَعِيشَتِهِ عَلَى غَيْرِهِ مِمَّنْ تَعَوَّدَ الْأَنْ مَسَاعَدَتِهِمْ وَلَا عَلَى الْإِسْتِرْسَالِ
 مَعَ الْعَادَاتِ الَّتِي أَلْفَهَا بَيْنَ قَوْمِهِ لِأَنَّ الْوَسْطَ الَّذِي يَعِيشُ فِيهِ

مَائِلٌ أَيْضًا إِلَى التَّمَزُّقِ وَالْإِنْجِلَالِ بِتَأْثِيرِ ذَلِكَ التَّغْيِيرِ الْمُسْتَمِرِّ فِي حَاجَاتِهِ الْمَادِّيَّةِ كَمَا أَشْرْنَا إِلَيْهِ . وَالرَّجُلُ إِذَا تَرَبَّى فِي وَسْطِ مَخْصُوصٍ حَتَّى صَارَ يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ لَا يَسْتَطِيعُ الْبَقَاءَ إِذَا فَسَدَ ذَلِكَ الْوَسْطُ ، بَلْ إِنَّهُ يَتَغَيَّرُ بِتَغْيِيرِهِ . وَمِنْ هُنَا وَجَبَ أَنْ يَكُونَ الْغَرَضُ مِنَ التَّرْبِيَةِ تَعْوِيدَ الْإِنْسَانَ الْإِعْتِمَادَ عَلَى نَفْسِهِ فِي حَيَاتِهِ فَلَا يَحْتَاجُ فِي طَلَبِ الرِّزْقِ لِغَيْرِهِ وَأَنْ يَكُونَ قَادِرًا عَلَى أَنْ يَدُورَ مَعَ الزَّمَانِ كَيْفَ يَدُورُ ، وَهِيَ الْآنَ لَا تُنْتِجُ إِلَّا التَّمَسُّكَ بِالْوَسْطِ الَّذِي نَشَأَ فِيهِ وَالِاسْتِعَانَةَ بِعَائِلَتِهِ وَطَلَبَ الْمُسَاعَدَةَ مِنْ مُعَاشِرِيهِ ، وَالِاتِّكَالَ عَلَى بَعْضِ الصَّنَاعَاتِ الْعَرَضِيَّةِ كَالْتَوْظُّفِ فِي مَصَالِحِ الْحُكُومَةِ أَوْ الْإِحْتِرَافِ بِالْأَعْمَالِ الْهَيْئَةِ الَّتِي لَا تُكَلِّفُهُ جِدًّا وَلَا كَدًّا .

وَبِالْجُمْلَةِ لَا فَايْدَةَ الْيَوْمَ مِنَ التَّرْبِيَةِ إِذَا اقْتَصَرَتْ عَلَى تَعْلِيمِ الْمَرْءِ أَنْ يَعِيشَ فِي وَسْطِ مَخْصُوصٍ كَالْعَائِلَةِ أَوْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ أَوْ السِّيَاسَةِ ، وَإِنَّمَا هِيَ تَنْفِيدُ إِذَا عَامَّتْهُ أَنْ تَكُونَ ذَاتَهُ الْوَسْطَ الَّذِي يَتَّكِلُ عَلَيْهِ فَيَتِمَّكَنَّ مِنْ اسْتِعْمَالِ قُوَاهُ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ كَمَا خَلَقَهُ اللَّهُ .

وَهَذِهِ التَّرْبِيَةُ مُخَالَفَةٌ لِمَا جَرَتْ عَلَيْهِ الْأُمَّةُ الْفَرَنْسَاوِيَّةُ مِنْ أَوَّلِ هَذَا الْقَرْنِ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا ، فَتَرَى الْأَبَاءَ إِذَا تَكَلَّمُوا عَنْ أَبْنَائِهِمْ

يُكْرَرُونَ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ : « مَا عَلَيْهِمْ إِلَّا أَنْ يَعْمَلُوا عَمَلَنَا - كَفَى
 الْمَرْءَ شَرَفًا أَنْ يَتَقَدَّمَ وَيَتَرَقَّى فِي الْحَيَاةِ - يَبْزُمُ أَوْلَادَنَا أَنْ يَنَالُوا
 وَظِيفَةً فِي الْحُكُومَةِ كَانَ يُعِينُوا فِي الْمَحَاكِمِ أَوْ الْجَيْشِ أَوْ الْإِدَارَةِ ،
 لِأَنَّ الرِّزْقَ هُنَاكَ مَعْرُوفٌ مَأْمُونٌ ، فَلَا نَخْشَى عَلَيْهِمْ مِنَ الْمِحَنِ ^(١) فِيهَا
 - لَنَا مِنَ الثَّرْوَةِ مَا يَدْرَأُ ^(٢) الْحَيْرَةَ عَنْ أبنَائِنَا فَسَتَرَكَ لَهُمْ كِفَايَتَهُمْ
 مَتَى عِينُوا فِي وَظِيفَةٍ بِمُرْتَبٍ مَضْمُونٍ وَتَزَوَّجُوا بِمَنْ يَأْتِيهِمْ بِمَهْرٍ
 جَزِيلٍ ^(٣) » وَمِثْلُ ^(٤) ذَلِكَ مِنَ الْأَفْكَارِ الَّتِي نَعْرِفُهَا كَلْنَا وَرُبَّمَا وَرَدَتْ
 عَلَيَّ أَلْسِنَتِنَا . غَيْرَ أَنَّهُمَا لَمْ يَعُدْ لَهَا فِي الْخَارِجِ مَعْنَى صَحِيحٌ . وَلَنْ
 تَكْفِيَ الْعَائِلَةَ وَلَا تَنْفَعُ الْأَصْحَابُ وَالْوُظَّائِفُ وَالْمَهْرُ النَّاسَ لِأَنْفُسِهِمْ
 وَالْأَوْلَادِهِمْ ، وَلَيْسَ لِلنَّسَاءِ إِلَّا مَا سَعَى وَأَنْ يَكُونَ قَادِرًا بِنَفْسِهِ
 عَلَى كِفَايَةِ نَفْسِهِ مُسْتَعِدًّا بِذَاتِهِ لِاقْتِحَامِ ^(٥) مَصَاعِبِ الْعَيْشِ وَمُغَالَبَةِ
 صُرُوفِ ^(٦) الْحَيَاةِ ، وَهُنَا الصُّعُوبَةُ كُلُّ الصُّعُوبَةِ لِأَنَّ النَّاسَ لَمْ
 يَتَعَوَّدُوا ذَلِكَ وَيَجْهَلُونَ أَيَّ طَرِيقٍ فِيهِ يَسْلُكُونَ . عَلَى أَنَّ الْفَائِدَةَ
 عَظِيمَةً فَلَا يَنْبَغِي إِفْلَاتُهَا إِذِ التَّرِييَةُ الْجَدِيدَةُ الَّتِي يَسْتَصْعِبُهَا النَّاسُ

(١) المحن : الشدائد (٢) يدرأ : يدفع (٣) جزيل : كثير (٤) ومثل معطوف

على « هذه الكلمات » من قوله يكررون هذه الكلمات (٥) اقتحم الأمر : رمى

بنفسه فيه من غير روية ، والمراد هنا الدخول مطلقا (٦) صروف الحياة : تصاريفها

تُرَبَّى الرَّجُلَ عَلَى فَضِيلَةِ الْإِعْتِمَادِ عَلَى نَفْسِهِ، وَتَخَلَّقُ فِيهِ مِنَ الشَّجَاعَةِ مَا يُسَاعِدُهُ عَلَى مُقَاوَمَةِ تَقَلُّبَاتِ الْأَعْصُرِ الْحَاضِرَةِ . وَالْفَرْقُ بَيْنَنَا مِنْ جِهَةِ اعْتِمَادِنَا عَلَى أَهْلِنَا وَأَصْدِقَائِنَا وَبَيْنَ الْأُمَّمِ الَّتِي تَرَبَّى أَفْرَادُهَا عَلَى الْقِيَامِ بِشُؤْنِ أَنْفُسِهِمْ بِجِدِّهِمْ وَعَمَلِهِمْ كَالْفَرْقِ بَيْنَنَا مِنْ جِهَةِ قُوَّةِ التَّغَلُّبِ وَقَابِلِيَةِ الْإِسْتِظْهَارِ وَبَيْنَ تِلْكَ الْقَبَائِلِ الْمُتَوَحَّشَةِ الَّتِي تَدْخُلُ فِي دِينِنَا تَبَعًا لِدُخُولِ رُؤَسَائِهِمْ فِيهِ .

تِلْكَ هِيَ أَسْبَابُ الْإِنْحِطَاطِ فِي التَّرْبِيَةِ وَغَيْرِهَا ، وَهَذِهِ وَجْهَتُهُ وَغَايَتُهُ ، وَلَا بُدَّ لَنَا مِنْ تَخَطُّي هَذِهِ الْعُقْبَةَ طَائِعِينَ أَوْ مُكْرَهِينَ ، وَلَا بُدَّ مِنَ الْعَمَلِ عَلَى تَقْيِضِ مَا نَحْنُ فِيهِ الْآنَ .

فِي التَّجَارِبِ هَادٍ يُرْشِدُ إِلَى الطَّرِيقَةِ الْمُثَلِّيِ^(١) لِئَيْلِ الْغَرَضِ الَّذِي نَدْعُو إِلَيْهِ ، فِيهَا أَمَانٌ مِنَ التَّخْبُطِ وَالزَّلَالِ^(٢) ، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَا تَجَارِبَ عِنْدَنَا لِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ فِي بَلَدِنَا يَجْرِي عَلَى تَقْيِضِ الْمَطْلُوبِ . وَجَبَ إِذْنُ أَنْ نَسْتَعِيرَ تَجَارِبَ غَيْرِنَا مِنَ الْأُمَّمِ الَّتِي اجْتَازَتْ هَذِهِ الْعُقْبَةَ وَصَارَتْ تُرَبَّى شُبَّانًا قَادِرِينَ عَلَى الْعَمَلِ بِأَنْفُسِهِمْ مِنْ دُونِ احْتِيَاجِ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَوْ أَصْدِقَائِهِمْ أَوْ حُكُومَتِهِمْ ، وَتِلْكَ الْأُمَّمُ مَوْجُودَةٌ لَا يُنْكَرُهَا إِلَّا الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ، وَهِيَ الَّتِي أَصْبَحَتْ تُغَيِّرُ عَلَى الدُّنْيَا وَتَسْتَخْرِجُ مَجْهُولَاتِهَا وَتَسْتَعْمِرُهَا وَتُقْصِي

(١) المثلي: الفضلي (٢) الزلل: الخطأ

عناصرها الدنيا القديمة في تقدمها، وتأتي هذه المعجزات كلها بقوة الهمة الشخصية وسُلطان رجال لا يعتمدون في عملهم إلا على أنفسهم. ولنا في المقابلة بين ما فعله رجل التربية الجديدة في أمريكا الشمالية وما فعله رجل التربية القديمة التي لا تزال تربيتنا من سوء حظنا في أمريكا الجنوبية ما يكفي للإقناع بصحة قولنا.

الفرق عظيم كما بين الأبيض والأسود، فأهل الشمال قد بلغوا في الزراعة منتهاها، وحازوا من الصناعة والتجارة أقصى المراتب، وفي الجنوب أمة أقعدتها الخمول واستولى عليها الارتخاء وفترت عزائمها داخل المدن وفي مصالح الحكومة وفي الاستغلال بالثورة السياسية. في الشمال ترى المستقبل مشرقاً، وفي الجنوب ترى الماضي مولياً. نعم قد تولى ذلك الماضي وأصبح رجال الشمال الأشداء الأقوياء يهبطون أمريكا الجنوبية التي ساء حظها، وجعلوا يضعون أيديهم على أعظم مواقع الزراعة التي أماتها الكسل الأندلسي أو البرتغالي، فأصبحوا قابضين على السكك الحديدية والبيوتات المالية، ومعامل الصناعة الكبرى ومحال التجارة العظمى.

كنت أتحدث في هذا الأيام المعرض العمومي في باريس مع رئيس قسم جمهورية «ارجنتين» نخبرني بغارة الانسكيزي وأخيه

« اليانكى » وَكَانَ مَحْزُونًا يَتَأَسَّفُ وَيَشَدُّ النَّسْكَيرَ عَلَى غَيْرِهِ شَأْنَ
الضَّعِيفِ عَلَى الدَّوَامِ لِأَنَّ الْقَوْلَ أَسْهَلُ مِنْ حَمْلِ النَّفْسِ عَلَى الْجِدِّ
حَتَّى تُسَاوِيَ الْأَقْوِيَاءَ . عَلَى أَنَّ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ يُنَافِسُونَهُمْ لَمْ يَتَعَوَّدُوا
غَيْرَ هَذَا الْجَهْدِ وَالِدَّابِّ الْمُسْتَمِرِّ فِيهِمْ أُمَّمٌ لَا يَخَافُ فِتْيَانَهُمْ عِيشَةَ
التَّزَاهُمِ وَالتَّنَافُسِ ، وَمَا حَفِظَتْ تِلْكَ الْأُمَّمُ قُوَّتَهَا الْأَدَبِيَّةَ وَالِدِينِيَّةَ
إِلَّا بِتَمَسُّكِهَا بِأَنَانِيَّتِهَا وَعِظَمِهَا عَلَى نَفْسِهَا . نَعَمْ لَيْسَ الدِّينُ مَتِينًا
فِيهِمْ كَمَا هُوَ فِي الْكَنِيسَةِ مَثَلًا ، غَيْرَ أَنَّهُمْ أَقَلُّ عِدَاءَ لِلدِّينِ بِكَثِيرٍ
مِنَّا مَعَشَرَ الْفَرَنْسَاوِيِّينَ ، وَالسَّرُّ فِي ذَلِكَ شُعُورُ كُلِّ فَرْدٍ مِنْهُمْ بِأَنَّ
تَبَعَةَ عَمَلِهِ رَاجِعَةٌ إِلَيْهِ دُونَ سِوَاهُ .

وَلَيْسَ هَذَا بَغَرِيبٍ لِأَنَّ الْمَرْءَ فِي الْجُمُعِيَّاتِ الْقَدِيمَةِ كَانَ يَعْتَمِدُ
عَلَى وَسَطِهِ وَيَتَّبِعُهُ قُوَّةً وَضَعْفًا وَسَعَةً وَضَيْقًا أَكْثَرَ مِمَّا كَانَ يَعْتَمِدُ
عَلَى نَفْسِهِ وَهَمَّتِهِ وَإِرَادَتِهِ الْخَاصَّةِ ، وَذَلِكَ الْوَسَطُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ
الْعَائِلَةَ أَوْ الدَّاخِلِيَّةَ فِي الْمَدَارِسِ أَوْ الْفِرْقَةَ الْعَسْكَرِيَّةَ (أَلَاي)
أَوْ الْمَصْلَحَةَ الَّتِي هُوَ مَوْظَفٌ فِيهَا أَوْ السِّيَاسَةَ وَهَكَذَا ، وَكَانَتْ اللَّحْمُ (١)
الَّتِي تُرْبَطُ بِهَا حَيَاتُهُ فِي الْأَفْكَارِ وَالْمَعْتَقَدَاتِ وَالتَّقَالِيدِ السِّيَاسِيَّةِ
وَالْعَادَاتِ الْأَجْمَاعِيَّةِ وَالِدِينِيَّةِ خَارِجَةً عَلَى ذَاتِهِ لَا مُسْتَمَدَّةً مِنْهَا ،
فَهُوَ يُفَكِّرُ أَوْ يَعْمَلُ عَلَى هَذَا النَّحْوِ أَوْ عَلَى ذَلِكَ لِأَنَّهُ رَأَى الْوَسَطَ

(١) اللحم : جمع لحمة وهي القرابة

الَّذِي عَاشَ فِيهِ يُفَكِّرُ هَكَذَا ، وَمَتَى انْفَرَطَ عَقْدُ نِظَامِ هَذَا
الْوَسْطِ ذَهَبَ كُلُّ فَرْدٍ عَلَى أُمٍّ^(١) رَأْسِهِ لَا يَدْرِي أَيْنَ يَضَعُ قَدَمِيهِ
لِأَنَّهُ إِنَّمَا كَانَ يَقُومُ بِذَلِكَ الْوَسْطُ فِي الْهَيْئَةِ الْقَدِيمَةِ قَوِيًّا مَتِينًا
مُقَوِّمًا لِجَمِيعِ الْأَفْرَادِ وَإِنْ ضَعُفَتْ مِنْهُمْ الْعَزَائِمُ وَانْحَلَّتْ الْإِرَادَةُ ،
وَكَانَ بَيْنَ الْوَسْطِ وَأَفْرَادِهِ تَفَاعُلٌ هَذَا يُقَوِّي ذَاكَ فَكَانَ
الْمَجْمُوعُ مُتَمَكِّنًا فِي وُجُودِهِ كَالْبَيْتِ الْعَتِيقِ^(٢) لَا يَزَالُ قَائِمًا لِارْتِكَازِهِ
عَلَى الْمَنَازِلِ الَّتِي تُجَاوِرُهُ ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَلْبَثُ أَنْ يُبَلِّغِي دَاعِيَ السَّقُوطِ
إِذَا هُدِمَتْ تِلْكَ الْمَنَازِلُ ، وَعَلَيْهِ يَنْبَغِي الْحَذَرُ مِنْهَا .

هَذَا هُوَ الَّذِي كَانَ مِنْ أَمْرِ وَسْطِنَا الْأَجْتِمَاعِيِّ الْقَدِيمِ فَإِنَّكَ
تَرَى الْيَوْمَ بَقَايَاهُ ، بَعْدَ أَنْ تَهَدَّمْ ، مَنشُورَةً فِي جَمِيعِ الْأَرْجَاءِ^(٣) ، وَمَا
كُنَّا مُسْتَعِدِّينَ لِخُرُوجِ مِنْهُ وَنَسْتَعِيضَ غَيْرَهُ عَنْهُ ، لِذَلِكَ ضَلَّ
رَشْدُنَا وَبَقِينَا نَطْلُبُ الْمَعُونَةَ مِنَ الْمَلَاحِيءِ الَّتِي تَعَوَّذْنَا الْحَيَاةَ تَحْتَ
حِمَايَتِهَا كَالْعَائِلَةِ وَالطَّائِفَةِ وَالْحُكُومَةِ الْجُمْهُورِيَّةِ فِي نَظَرِ قَوْمٍ
أَوِ الْمُلُوكِيَّةِ الْمُقَيَّدَةِ فِي نَظَرِ آخَرِينَ وَمِنَ الْكَنِيسَةِ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ
إِلَّا مِنْ أَنْفُسِنَا وَقَدْ مَلَأْنَا الْفَضَاءَ بِالْعَوِيلِ^(٤) بَدَلًا أَنْ نَنْظُرَ إِلَى
الْأُمَّمِ الَّتِي لَا تَعْتَمِدُ عَلَى غَيْرِ هِمَّةِ الْأَفْرَادِ الذَّاتِيَّةِ فَنُتَقَلِّدُهَا وَنَحْذُو
حَذْوَهَا كَمَا يَفْعَلُ الرَّجَالُ .

(١) أم الرأس: الدماغ أو الجلدة الرقيقة التي عليها ، يريد ذهب هائماً (٢) العتيق :

القديم (٣) الأرجاء : النواحي (٤) العويل : الصياح والبكاء

وَإِذَا أَرَدْتَ الْوُقُوفَ عَلَى مُعَامَلَةِ تِلْكَ الْأُمَّمِ لِأَبْنَائِهَا فَإِيَّاكَ
الْبَيَانَ :

أَوَّلًا : لَا يُعْتَبَرُ الرَّجُلُ فِيهَا أَنَّ الْأَبْنََاءَ مَلَكَ لَهُ وَجْزُهُ مِنْ مَالِهِ
مُتَمِّمٌ لِذَاتِهِ كَانَ الْأَبُ يَعِيشُ فِي بَيْتِهِ بَعْدَ وَفَاتِهِ ، بَلْ يَنْظُرُونَ
إِيَّاهُمْ بِاعْتِبَارِ كَوْنِهِمْ أَفْرَادًا مَصِيرُهُمْ إِلَى الْإِسْتِقْلَالِ عَنْهُمْ ، وَلِذَلِكَ
لَاهُمْ لِلْآبَاءِ إِلَّا تَعْجِيلُ هَذَا الْإِطْلَاقِ الْمُحْتَمِّ عَلَى النَّحْوِ الْأَكْمَلِ
وَلَا مَرَجَ لِأَبْوَتِهِمْ إِلَّا هَذَا ، فَلَا يَحْمِلُهُمْ حُبُّهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ عَلَى ابْتِلَاعِ
أَبْنَائِهِمْ وَالصَّاقِهِمْ بِجَانِبِهِمْ وَتَعْوِيدِهِمْ مَا عَتَادُوا وَاتَّخَذَهُمْ حَاشِيَةً
يَتَلَذَّذُونَ بِالنَّظَرِ إِلَيْهَا وَيَرْتَاخُونَ لِطَاعَتِهَا وَقِلَّةِ مَتَاعِهَا . أَمَا نَحْنُ
فَفِي مِيلِنَا لِأَبْنَائِنَا جُزْءٌ عَظِيمٌ مِنْ حُبِّ الذَّاتِ وَإِنْ كَانَ مَسْتُورًا
بِسِتْرِ جَمِيلٍ فَإِنِّي رَأَيْتُ - وَكَلَّمْنَا رَأَى - كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ رَغِبُوا عَنْ
الزَّوْجِ بَعْدَ مَا رَغِبُوا فِيهِ لِأَنَّ الزَّوْجِينَ لَا بَدَّ أَنْ يُقِيمَا فِي مَدِينَةٍ
غَيْرِ الَّتِي يَسْكُنُهَا الْوَالِدَانُ ! وَمَا ظَنُّكَ بِمَا لَوْ وَجَبَ أَنْ يُقِيمَا فِي بِلَادِ
أَجْنَبِيَّةٍ ؟! وَالسَّبَبُ فِي هَذَا شِدَّةُ حُبِّ الْوَالِدَيْنِ . وَلِعَمْرِي لَسْتُ أُدْرِي
إِنْ كَانَ يُرَادُ بِهَذَا الْحُبِّ مَنَفْعَةُ الْآبَاءِ أَوْ مَصْلَحَةُ الْأَبْنَاءِ .

ثَانِيًا : مِنْ عَادَةِ أَوْلِيَاكَ الْقَوْمِ أَنْ يُعَامِلُوا الْأَبْنََاءَ مِنْذُ نُعُومَةِ
الْأَظْفَارِ كَانَهُمْ رِجَالٌ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ قَائِمٌ بِذَاتِهِ مُسْتَقِلٌّ عَنْ سِوَاهُ
وَبِهَذِهِ الْوَاسِطَةِ يَصِيرُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ رَجُلًا كَبِيرًا وَذَاتًا حَقِيقِيَّةً ،

إذ لِكُلِّ امْرِيٍّ مِنْ دَهْرٍ وَمَا عَوَّدَ. أَمَا نَحْنُ فَنُعْمَلُ أِبْنَاءَنَا كَالْأَطْفَالِ
وَهُمْ صِغَارٌ وَهُمْ كِبَارٌ وَبَعْدَ أَنْ يَصِيرُوا رِجَالًا لِأَنَّنا تَعَوَّدْنَا أَنْ
نَعْتَبِرَهُمْ أَطْفَالًا لِعِلَّةِ أَنَّهُمْ أَطْفَالُنَا.

ثالثًا: يلاحظُ الآباءُ في التَّربِيَةِ حاجاتِ الأُمَّةِ المُستَقْبَلَةِ في الحَيَاةِ
غَيْرِ مُلْتَفِتِينَ إِلَى مَا اقْتَضَاهُ الْمَاضِي وَدَرَجَ عَلَيْهِ الْجِيلُ الْمُتَقَدِّمُ، فَلَا
يَنْصَبُونَ^(١) أَنْفُسَهُمْ أَمَامَ أِبْنَائِهِمْ مِثْلًا يَمْشُونَ عَلَيْهِ وَلَا يُشَخَّصُونَ
الْوَسْطَ الَّذِي عَاشُوا فِيهِ لِيَتَّبِعُوا خَطْوَاتِهِمْ فِيهِ. أَمَا نَحْنُ فَنَجْرِي
فِي التَّربِيَةِ عَلَى نَسَقِ أَشْرَافِ السِّنِينَ الْأَخِيرَةِ مِنَ الْقَرْنِ الْمَاضِي حَيْثُ
كَانُوا فِي أَوَّلِ الْقَرْنِ الْحَالِي يُرْبُونَ أَوْلَادَهُمْ عَلَى تَقَالِيدِ الزَّمَنِ الْقَدِيمِ
وَعَلَى مَا كَانَ لَهُمْ فِيهِ مِنَ الْمَنْزِلَةِ الْمُتَمَازَةِ وَالثَّرْوَةِ الَّتِي فَرَّتْ مِنْ بَيْنِ
أَيْدِيهِمْ وَابْتِلَاطِ الْمُلُوكِيِّ الَّذِي كَانُوا يَمْرُحُونَ فِي جَوَانِبِهِ وَأَثَارِ لَيْسَ
فِيهَا الْيَوْمَ فَائِدَةٌ لِكُونِهَا عَفَتْ^(٢) وَأَصْبَحَتْ خِيَالًا.

رابعًا: لَتِلْكَ الْأُمَّمِ عِنَايَةٌ كَلِيَّةٌ بِصِحَّةِ الْأِبْنَاءِ وَتَرْبِيَةِ قُوَّتِهِمْ
الْجِسْمِيَّةِ إِلَى الْحَدِّ الْمُمْكِنِ إِنْماءً لَهُمَّتِهِمِ الْمَادِّيَّةِ لَا كَمَا نَفَعَلُ نَحْنُ مِنْ
الِاقْتِصَارِ عَلَى الْإِعْتِنَاءِ بِالصِّحَّةِ ثُمَّ نَضْحَى بِهَا فِي الدَّرْسِ وَالْمُطَالَعَةِ
وَنَهْكِهَا بِالْإِمْتِحَانَاتِ وَلَوَازِمِهَا وَالْإِقَامَةِ فِي الْمُدُنِ وَمَا يَتَّبِعُهَا ،
وَهُمْ لَا يَطْلُبُونَ تِلْكَ الْقُوَّةَ بِالْإِفْرَاطِ فِي الرِّيَاضَةِ الْبَدَنِيَّةِ أَوْ إِجْهَادِ

(١) ينصبون: يقيمون (٢) عفت: درست وانجحت

الجِسْمِ بِمَا يُوَدَّى فِي الْحَقِيقَةِ إِلَى ضَعْفِهِ أَوْ التَّفَنُّنِ فِي الْحَرَكَاتِ
 الْجُمْسْتِيكِيَّةِ وَإِنَّمَا هُمْ مِنْ ذَوِي الْحَذَقِ فِي مَعْرِفَةِ لَوَازِمِ الْأَجْسَامِ .
 عَلَيَّ أَنَا الْيَوْمَ نَحَاوِلُ إِدْخَالَ طُرُقِ الرِّيَاضَةِ الْجِسْمِيَّةِ الْإِنْكَلِيزِيَّةِ
 فِي مَدَارِسِنَا لِنَعْتَاضَ بِهَا عَنِ الْجُمْنَاسِ الضَّرِّ عِنْدَنَا وَلَيْسَ هُوَ إِلَّا آثَرًا
 مِنْ آثَارِ التَّفَنُّنِ الْجَدِيدِ فِي التَّرْبِيَةِ لَا فَائِدَةَ فِيهِ وَلَيْسَ مِنْ حَاجَةِ
 صَحِيحَةٍ إِلَيْهِ وَلَكِنَّا نَحْفَظُ دَوَامًا عَلَى الْوَسْطِ الَّذِي يُحْدِقُ بِنَا أَنِّي
 وَجِدْنَا^(١) ، وَلَا نَجْهَلُ أَنْ قَوْمَنَا لَمْ يَنْجَحُوا عَلَى الدَّوَامِ فِي اسْتِعْمَالِ
 الرِّيَاضَةِ الْإِنْكَلِيزِيَّةِ عِنْدَنَا لِأَنَّهُمْ يُضِيفُونَ إِلَيْهَا ، كَمَا هِيَ عَادَتُهُمْ
 فِي كُلِّ شَيْءٍ ، كَثِيرًا مِنَ الْخَلَاعَةِ وَالْإِعْجَابِ . كَمَا لَا نَجْهَلُ أَنَّهُمْ يَنْظُرُونَ
 إِلَيْهَا كَأَنَّهَا وَظِيفَةٌ إِدَارِيَّةٌ تُشَدِّدُونَ فِي تَنْظِيمِهَا ، وَتَرْتِيبِ أَوْقَاتِهَا
 وَأَعْمَالِهَا ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ التَّلَامِذَةِ يَمِيلُونَ إِلَيْهَا هَرْبًا مِنَ الدَّرْسِ
 وَالْمُطَالَعَةِ ، غَيْرَ أَنَّ هَذَا الْمِثَالَ النَّاقِصَ يَدُلُّ عَلَى أَصْلِهِ . وَمِمَّا لَا شَكَّ
 فِيهِ أَنَّ تِلْكَ الْأَلْعَابَ تَلَاثُمُ نَمُوَّ الْجِسْمِ كَمَا يَنْبَغِي وَتُسَاعِدُ كَثِيرًا
 عَلَى تَعْوِيدِ النَّفْسِ السُّكُونِ فَيَصِيرُ صَاحِبَهَا مُتَمَكِّنًا مِنْ ذَاتِهِ ، وَهَذَا
 شَرْطٌ لَا بُدَّ مِنْهُ لِمَنْ طَلَبَ النَّجَاحَ .

خَامِسًا : يُعَوِّدُ الْأَبَاءُ أَبْنَاءَهُمْ فِي تِلْكَ الْأُمَّةِ مِنْذُ الصَّغَرِ عَلَى
 الْإِسْتِغَالِ بِالْأَعْمَالِ الْمَادِّيَّةِ ، فَلَا يَخَافُونَ أَنْ يَتْرُكُوهُمْ وَحَدَّهُمْ

(١) أى في أى مكان وجدنا

يَعْدُونَ وَيَرْوَحُونَ وَيُكَلِّفُونَهُمْ بَعْضَ الْأَعْمَالِ أَوْ بَعْضَ الْمَأْمُورِيَّاتِ
الَّتِي تَلِيقٌ بِسِنِّهِمْ وَيَقْصِدُونَ أَحْيَانًا أَنْهَا تَسْكُونُ فَوْقَ ذَلِكَ ، وَهِيَ
عَادَةٌ يَسْتَعْرِبُ مِنْهَا الْفَرَنْسَاوِيُّونَ إِذَا ذَهَبُوا إِلَى بِلَادٍ انْكَثَرًا أَوْ
الْوِلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ كَمَا يَسْتَعْرِبُ الْإِنْكَلِيزِيُّونَ مِنْ اسْتِعْرَابِنَا إِذْ يَرَوْنَ أَنَّ
الْأَمْرَ الَّذِي يُدْهِشُنَا طَبِيعِيٌّ وَهُوَ فِي اعْتِبَارِهِمْ أَحَدُ عَوَامِلِ التَّرْبِيَةِ
وَالتَّعْلِيمِ وَأَنَّ الْغَرَضَ مِنْهُ أَوَّلًا وَبِالذَّاتِ تَكْوِينُ الرَّجَالِ لَا مُجَرَّدُ
الْمُسْتَعْرِبِينَ وَالْمُوظَّفِينَ ، وَلَوْ لَا أَنِّي أَخْشَى مِنْ خَجَلِ الْقُرَاءِ عِنْدَنَا
لَجَبَّ بِهُمْ أَنَّهُمْ لَا يَفْرَقُونَ فِي هَذِهِ التَّرْبِيَةِ بَيْنَ الْبَنِينَ وَالْبَنَاتِ إِلَّا
قَلِيلًا . فَالدَّوَاعِي ^(١) وَاحِدَةٌ بِالنَّظَرِ إِلَى الْفَرِيقَيْنِ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ
تَقْلِيدَهُمْ فِي هَذَا الْبَابِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْتَعِدَّ الْوَسْطُ لِقَبُولِهِ يَضُرُّ
أَكْثَرَ مِمَّا يَفِيدُ فَهُوَ عِنْدَهُمْ أَكْثَرُ فَائِدَةٍ وَأَقْلُ ضَرَرًا مِمَّا هُوَ
عِنْدَنَا ، وَالْمَقَامُ لَا يَحْتَمِلُ أَنْ أَوْفِيَ الْبَيَانَ حَقَّهُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ ،
فَرُبَّمَا جَرَّ الْإِيضَاحُ إِلَى أَكْثَرَ مِمَّا يُرَادُ

سادسًا : يُعَلِّمُ الْآبَاءُ عَادَةَ أَبْنَاءِهِمْ صَنْعَةَ يَدَوِيَّةٍ لِأَنَّ تِلْكَ الْأَمْرَ
لَا تَحْتَقِرُ تِلْكَ الصَّنَاعَاتُ ذَلِكَ الْإِحْتِقَارَ الْعَظِيمَ الَّذِي نَجِدُهُ مِنْ نَفْسِنَا
بَلْ إِنَّهُمْ تَخَلَّصُوا مِنْذُ زَمَنِ طَوِيلٍ مِنْ هَذَا الْوَهْمِ الَّذِي أَضْرَبْنَا أَكْثَرَ

(١) الدواعي : الأسباب الداعية

مِنْ مِائَةِ كَسْرَةٍ^(١) فِي مَوَاقِفِ الْقِتَالِ ، فَلَا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ مِنَ الصَّنَاعَاتِ مَا هُوَ شَرِيفٌ وَمِنْهَا مَا هُوَ وَضِيعٌ ، بَلْ يَرَوْنَ - كَمَا هُوَ الْأَصَحُّ - أَنَّ النَّاسَ رَجُلَانِ : كُفُوٌ وَغَيْرُ كُفُوٍ ، وَأَنَّهُمْ عَامِلٌ وَكَسُولٌ ؛ وَهَكَذَا يَصِيرُ ابْنُ (اللُّورْدِ) زَرَاعًا أَوْ صَاحِبَ مَصْنَعٍ أَوْ تَاجِرًا ، وَلَا يَنْقُصُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ شَرَفِهِ وَمَنْزِلَتِهِ لِأَنَّ الْأَمْرَ عَامٌ فِي أُمَّتِهِ ، أَجَلٌ^(٢) هُنَاكَ صِنْعَةٌ يَحْتَقِرُونَهَا وَيَعْدُونَهَا أَذْنَى مِنَ الْبَقِيَّةِ إِلَّا وَهِيَ صِنَاعَةُ الْمُوظَّفِ وَالْمُشْتَغَلِ بِالسِّيَاسَةِ وَهُمْ يَنْتَقِدُونَهَا مِنْ جِهَتَيْنِ : الْأُولَى أَنَّهَا صِنَاعَةٌ لَا يَرِبُحُ صَاحِبُهَا كَثِيرًا إِلَّا فِي الْوظَائِفِ الْكُبْرَى ، الثَّانِيَةُ أَنَّهَا تَسْلُبُ الرَّجُلَ حُرِّيَّتَهُ . وَمِنْ هُنَا يَرَى الْقَارِئُ أَنَّ التَّرْبِيَةَ الْإِنْكِلِيزِيَّةَ السَّكْسُونِيَّةَ تَمِيلُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ بِالْإِنْسَانِ إِلَى الْحُرِّيَّةِ وَالْإِسْتِقْلَالِ ، لِذَلِكَ قَلَّتْ تِلْكَ الصَّنَاعَةُ فِي بِلَادِهِمْ وَهِيَ فِي بِلَادِ أَنْكَرَتِهَا مَوْكُولَةٌ فِي الْغَالِبِ إِلَى الَّذِينَ مِنْ أَصْلِ (سَلْتِي) أَوْ إِيرْلَنْدِي أَوْ إِيْقُوسِي أَوْ مِنْ بِلَادِ الْغَالِ ، وَيَشْغَلُهَا الْإِرْلَنْدِيُّونَ وَالْأَلْمَانِيُّونَ أَصْلًا فِي الْوِلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ . وَقَدْ قَرَّرَ صَدِيقِي مُوسِيُو (بُولِ رُوسِيَه) هَذِهِ الْحَقِيقَةَ بِأَجْلِي بَيَانٍ فِي كِتَابِهِ (الْحَيَاةُ الْأَمْرِيكِيَّةُ) الَّذِي أَلْفَهُ بَعْدَ زِيَارَتِهِ لِلْوِلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ لِاسْتِطْلَاعِ أَحْوَالِهَا عَلَى طَرِيقَتِنَا .

وَلِسِدَّةِ الْمَيْلِ إِلَى تَعْلِيمِ الْأَطْفَالِ صِنَاعَةً يَدَوِيَّةً تَجِدُهُمْ يَتَعَامُونَ
 الْكَثِيرَ مِنْهَا بِالتَّدْرِبِ وَالِاسْتِعْمَالِ ، وَذَلِكَ لَا يَتَأْتِي عِنْدَنَا بِغَيْرِ
 الْمَدَارِسِ . مِثَالُهُ أَنَّ الرَّجُلَ عِنْدَهُمْ يُصِيرُ مُهَنْدِسًا بِالشُّغْلِ فِي الْمَصَانِعِ
 لَا بِالدَّرْسِ فِي الْمَدْرَسَةِ ، وَلَيْسَتْ النُّظَرِيَّاتُ لَدَيْهِمْ إِلَّا مُتَمِّمَةٌ لِلْعَمَلِ
 فِي جَمِيعِ الصَّنَاعَاتِ وَالْحِرَفِ ، وَنَحْنُ عَلَى الْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ نَحْتَقِرُ
 بِالْعِلْمِ الْعَمَلِ ، وَدَلِيلُهُ أَنَّ جَمْعِيَّةً تَقْدُمُ الزَّرَاعَةَ عِنْدَنَا تُقِيمُ فِي مَدِينَةِ
 بَارِيسَ ، وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ لَا يَتَخَرَّجُ مِنْهَا إِلَّا مُوظَّفُونَ نِظَارَةَ الزَّرَاعَةِ
 وَإِنَّ مِنَ الْمُتَمَنِّيَّاتِ أَنْ تَنْتَقِلَ أَيْضًا مَدْرَسَةُ الْبَحْرِيَّةِ فِي تِلْكَ الْمَدِينَةِ

سَابِعًا : يَسْبِقُ الْأَبَاءُ أَبْنَاءَهُمْ عَلَى الدَّوَامِ فِي مَعْرِفَةِ جَمِيعِ
 الْبَدَائِيَّاتِ النَّافِعَةِ شَأْنِ الْأُمَّةِ الَّتِي تَهْتَمُّ دَائِمًا بِالْمُسْتَقْبَلِ وَتُهْمِلُ
 الْمَاضِيَ وَتَلْتَفِتُ إِلَى الصَّنَاعَاتِ الْجَارِيَةِ الَّتِي يَتَقَدَّمُ التَّفَنُّ فِيهَا كُلَّ
 يَوْمٍ لَا إِلَى الْوُظَائِفِ الْإِدَارِيَّةِ الَّتِي لَا تَغْيِيرَ فِيهَا وَلَا تَبْدِيلَ ،
 وَتَبْنِي آمَالَهَا فِي النَّجَاحِ عَلَى قُوَّتِهَا الذَّاتِيَّةِ لَا عَلَى الْوَسَطِ بِأَنْوَاعِهِ
 وَهَذَا هُوَ الْإِسْتِعْدَادُ الَّذِي وُلِدَ فِي الْإِنْكَلِيزِيِّ السَّكْسُونِيِّ
 اشْتِغَالُهُ الْمُسْتَدِيمِ بِمِلَاحَظَةِ الْوَقَائِعِ الْمَادِيَّةِ بَعْدَ تَحْقِيقِهَا تَحْقِيقًا
 صَحِيحًا ، وَقَدْ يُرْتَبِّهَا كَمَا يَنْبَغِي وَإِنَّمَا عَرَضَهُ أَنْ يَجْتَمِعَ إِلَيْهِ مِنْهَا
 مَا عَسَاهُ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي كُلِّ شَأْنٍ مِنْ شُؤْنِهِ ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي

يَطْلُبُهُ مِنْ قِرَاءَةِ جَرَائِدِهِ الَّتِي تُشْبِهُ جَرَائِدِنَا كَمَا يُشْبِهُ النَّهَارُ اللَّيْلَ (١)
لَاِنَّ الْغَرَضَ مِنْ جَرَائِدِنَا تَسْلِيَةُ النَّفْسِ كَمَا يَقُولُونَ وَالْجَدِيدَةُ مِنْهَا
تَتَوَخَّى إِثَارَةَ الزَّرْعَاتِ السِّيَاسِيَّةِ ، وَهِيَ طَرِيقَةٌ أُخْرَى لِلتَّسْلِيَةِ ،
وَالنَّيْجَةُ وَاحِدَةٌ هِيَ قَتْلُ الْوَقْتِ بِلَا جَدْوَى . أَمَا جَرَائِدُهُمْ فَإِنَّهَا
تَقْصِدُ الْإِفَادَةَ مَعَ الْإِخْتِصَارِ وَالْإِجَادَةِ ، وَهِيَ قَلِيلَةٌ الْخَوْضِ فِي
النَّظَرِيَّاتِ وَالْإِكْثَارِ مِنَ الْعُمُومِيَّاتِ ، وَكَأَنَّهَا مَحْشُوءَةٌ وَقَائِعٌ تَحْكِي (٢)
وَقَائِعٌ وَتُخْبِرُ عَنْ وَقَائِعٍ

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَدَيْنَا مِنَ الْمَعْلُومَاتِ إِلَّا مَا عَلَيْهِ الصَّحَافَةُ فِي الْأُمَّتَيْنِ
لَكُنِيَ ذَلِكَ مُوضَّحًا لِلْفَرْقِ بَيْنَهُمَا

إِذَا عَامَتِ هَذَا عَامَتِ مِنْ غَيْرِ دِهْشَةٍ أَنَّ مُحَادَثَةَ الرَّجُلِ لِابْنِهِ تَدُورُ
عِنْدَهُمْ عَلَى الْأُمُورِ الْحَقِيقِيَّةِ النَّافِعَةِ ، فَلَا يَقْضُونَ وَقْتَهُمْ فِي ذِكْرِ
مَنْ يَتَحَرَّى الْجَدِيدَ فِي لِبَاسِهِ وَزَيَّهِ وَإِعَادَةَ مَا مَلَأَتْ بِهِ الْمَجَالِسُ الْبَارِيسِيَّةُ
وَتَكَرَّرَ حَوَادِثِ الزَّمَنِ الْقَدِيمِ زَمَنِ الْهِنَاءِ وَالصَّفَاءِ ، بَلْ حَدِيثُهُمْ
الْتِرَاحُومُ فِي الْحَيَاةِ وَقُدْرَةُ كُلِّ فَرْدٍ عَلَى كِفَايَةِ حَاجَاتِهِ لِنَفْسِهِ .

ثَامِنًا : لَا يَسْتَعْمَلُ أَوْلِيَاكَ الْأَبَاءُ سُلْطَتَهُمْ عَلَى أَبْنَائِهِمْ فِي الظَّاهِرِ
إِلَّا قَلِيلًا بَلْ يَدْخِرُوهَا لِلْأَحْوَالِ الْعَظِيمَةِ الْإِسْتِثْنَائِيَّةِ ، ذَلِكَ
لِأَنَّهُمْ يَعْتَبِرُونَهُمْ مُسْتَقْلِلِينَ عَنْهُمْ كَأَنَّهُمْ رِجَالٌ كَمَا قَدَّمْنَا وَلَا

(١) يريد أنه في الواقع لاشبه بينهما (٢) تحكي تماثل

يَتَأْتِي أَنَّ رُبِّي الرَّجُلُ مَقْهُورًا عَلَى الدَّوَامِ تَحْتَ سُلْطَةِ غَيْرِهِ وَلَوْ
كَانَتْ سُلْطَةُ أَبِيهِ ، وَعَايِهِ فَيَنْهَمُ يَرُونَ أَنَّ التَّرْبِيَةَ الْحَقِيقِيَّةَ الْمُثْمِرَةَ
هِيَ الَّتِي تَكُونُ بِالتَّدْرِيبِ وَالتَّدْرِيجِ ، لِذَلِكَ تَرَاهُمْ يَسْتَعْمِلُونَ
الْإِيمَاءَ وَالنُّصْحَ أَكْثَرَ مِمَّا يَسْتَعْمِلُونَ الْقَسْرَ وَالْأَمْرَ مُظْهِرِينَ فِي
إِيمَائِهِمْ وَنُصْحِهِمْ أَنَّهُمْ مُجْرَدُونَ عَنِ الْمَنْفَعَةِ وَلَا يَجْعَلُونَ إِمْرَتَهُمْ بَاعِثًا
إِلَى الْعَمَلِ بِمُقْتَضَاهُمَا بَلْ يَتْرُكُونَ الْوَلَدَ يُفَكِّرُ فِيهِمَا وَيَتَدَبَّرُهُمَا
حَتَّى يَعْتَقِدَ أَنَّهُمَا صَوَابٌ فَيَجْرِي عَلَيْهِمَا .

تَاسِعًا : وَهُوَ أَهْمُ الْوَسَائِطِ وَأَنْجَحُهَا وَقَدْ اخْتَرْنَا هُنَا خِتَامًا — عِلْمُ
الْأَبْنَاءِ بِأَنَّ الْأَبَاءَ لَا يَتَحَمَّلُونَ نَفَقَتَهُمْ بَعْدَ تَرْبِيَتِهِمْ ، أَمَّا الْفَرَنْسَاوِيُّونَ
فَكُلُّهُمْ يَسْأَلُ صَاحِبَهُ : مَاذَا تُرِيدُ أَنْ يَكُونَ وَلَدُكَ ؟ فَيُجِيبُهُ : سَأَجْعَلُهُ
قَاضِيًا أَوْ مُوظَّفًا إِدَارِيًّا وَهَكَذَا ، وَمَا هَذَا إِلَّا لِإِعْتِقَادِهِ أَنَّهُ يَكُونُ
وَالِدًا حَقِيرًا إِذَا لَمْ يَتَدَبَّرْ مُسْتَقْبَلَ ابْنِهِ وَيَهْتَمَّ بِاسْتِنْبَاطِ الْحِرْفَةِ
الَّتِي يُحْتَرَفُ بِهَا عَلَى حَسَبِ مَا يَرَاهُ صَوَابًا نَافِعًا ثُمَّ يُبَالِغُ فِي حُنُوِّهِ
فَيَتَجَرَّدُ عَنْ قِيَمٍ مِنْ مَالِهِ لِيَمَهَّرَ أَوْلَادَهُ ، لَكِنَّ الْأَبَاءَ مِنْ
الْإِنْكِلِيزِ وَالْأَمْرِيكَانِ لَا يَمِيلُونَ أَبْنَاءَهُمْ بَلْ عَلَى كُلِّ جِيلٍ أَنْ
يُحْصَلَ حَاجَاتُ نَفْسِهِ بِنَفْسِهِ ، وَعَلَى الْعَكْسِ مِنْهُمْ يُجِبُّ عَلَى كُلِّ جِيلٍ
سَابِقٍ عِنْدَنَا أَنْ يُوجِدَ أَسْبَابَ الرِّزْقِ لِلَّذِي يَلِيهِ . وَإِلَيْكَ مَا يَتَرْتَّبُ
عَلَى ذَلِكَ مِنَ النَّتَائِجِ :

لَزِيدٍ مِنَ النَّاسِ ثَلَاثَةٌ أَوْلَادٍ أَوْ أَرْبَعَةٌ أَوْ خَمْسَةٌ فَيَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ
 مِيهِيَّ ثَلَاثَةَ أَمْوَالٍ أَوْ أَرْبَعَةً أَوْ خَمْسَةً بِخِلَافِ ثَرَوْتِهِ الْخُصُوصِيَّةِ
 قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ الْأَوْلَادُ رُشْدَهُمْ أَغْنَى فِي مَدَى عِشْرِينَ سَنَةً حَتَّى
 لَا يَهْزَأَ بِهِ النَّاسُ وَلَا يَسْقُطَ الْأَبْنَاءُ عَنْ دَرَجَتِهِمْ فِي الْهَيْئَةِ الْأُجْتِمَاعِيَّةِ
 وَالْإِلْمَا وَجَدَ سَبِيلًا لِرُؤُوسِهِمْ فَلَيْسَ لِيَتَزَوَّجُونَ إِلَّا بِأَمْوَالِهِمْ،
 وَهُوَ فِي عَمَلِهِ هَذَا يُشْبَهُ أَهْلَ اللَّيْمَانَاتِ (١) الَّذِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْأَشْغَالِ
 الشَّاقَّةِ أَوْ كَمَنْ يُقَدِّمُ الذَّنْبَ قَبْلَ الرَّأْسِ، وَلَيْسَ مَنْ يَجْهَلُ أَنَّ
 الْأَبَاءَ الْفَرَنْسَاوِيِّينَ قَدْ أَهْمَلُوا الرَّأْسَ وَالذَّنْبَ مَعًا وَعَدَّ الْوَاحِدُ
 مِنْهُمْ نَفْسَهُ مِنَ السُّعْدَاءِ بَوْلَدٍ وَاحِدٍ أَوْ اثْنَيْنِ .

كُنْتُ أَقْرَأُ آخِرَ رِسَالَةٍ فَرَنْكِلَانَ فَوَجَدْتُهُ فِي خِطَابِ لَوْلَادَتِهِ
 يَتَكَلَّمُ عَنْ أَحَدِ أَوْلَادِهِ وَكُونِهِ غَيْرِ مُهْتَمٍّ بِتَحْصِيلِ مَا يَقُومُ بِرِزْقِهِ
 مُعْتَمِدًا عَلَى ثَرْوَةِ أَبِيهِ فَقَالَ : « سَأَزِيلُ عَنْهُ هَذَا الْخِيَالَ وَسَيَعْلَمُ
 مِنْ حَاتِي وَمَا أَنْفَقَهُ كُلَّ يَوْمٍ أَنِّي لَنْ أَتْرُكَ لَهُ شَيْئًا » لَكِنَّ
 الرَّجُلَ مَنَّا يَرْتَعِدُ إِذَا رَأَى أَنَّهُ لَنْ يَتْرُكَ مَا يَرْتَعِدُ عَنْهُ الْأَبْنَاءُ وَيَعْضَبُ
 رَحْمَةً وَإِسْفَاقًا وَنَسَى أَنَّ الْأَبَّ الْإِنْكِلِيزِيَّ السَّكْسُونِيَّ الَّذِي
 لَا يَتْرُكُ شَيْئًا لِأَوْلَادِهِ يُعْطِيهِمْ فِي الْحَقِيقَةِ أَكْثَرَ مِمَّا يُعْطِي الْوَالِدُ
 الْفَرَنْسَاوِيَّ لِأَوْلَادِهِ ، يُعْطِيهِمْ مَا نَهْتُمْ بِهِ نَحْنُ وَلَا نَصِلُ إِلَى

تَحْقِيقِهِ: يُعْطِيهِمْ هِمَّةً فِي الْعَمَلِ وَقُدْرَةً عَلَى طَلَبِ الرِّزْقِ وَعَزِيمَةً يَلْتَقِي بِهَا زَمَانَهُ رَابِطُ الْجَأَشِ (١) وَهُوَ مَالٌ وَجَدْنَاهُ لِأَشْرَيْنَاهُ بِأَعْلَى الْأَثْمَانِ وَمَالًا يُفِيدُ الْمَالَ الَّذِي نَجْمَعُهُ بِالْكَدِّ وَالنَّصَبِ إِلَّا لِأَطْفَانِهِ وَإِمَاتَتِهِ فِي نُفُوسِ أِبْنَانِنَا لَأَنَّآ فِي الْحَقِيقَةِ نُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ الْاِقْتِصَادِ وَنَعْمِشُ كَالصَّعَالِيكِ وَنَتَّخِذُ الْعُقْمَ (٢) شِعَارًا لِكَيْ نُسَهِّلَ عَلَى أَوْلَادِنَا أَلَّا يَعْمَلُوا شَيْئًا وَلِكَيْ لَا يَعْمَلُوا إِلَّا الْقَلِيلَ مَا اسْتَطَاعُوا، وَنُظُنُّ بِهَذَا أَنَّا جَعَلْنَاهُمْ عَلَى الْمُسْتَقْبَلِ آمِنِينَ، غَيْرَ أَنَّنَا إِذَا التَّفَقْنَا إِلَى مَا حَوَّلْنَا رَأَيْنَا أَنَّ تِسْعَةَ أَعْشَارِ الَّذِينَ يَتَقَدَّمُونَ عَلَى غَيْرِهِمْ وَيَحْزُونَ قَصَبَ (٣) السَّبْقِ فِي كُلِّ شَيْءٍ وَيَنْجَحُونَ النَّجَاحَ الْحَقِيقِيَّ فَيَمُزُّونَ مِنْ الْأَعْمَالِ يَخْرُجُونَ مِنْ صُفُوفِ الْأَوَّالِينَ بِأَنْفُسِهِمْ، أَوْلِيَاءُ الَّذِينَ غَالَبُوا الزَّمَانَ فَغَلَبُوهُ وَنَاجَزُوا كُلَّ صَعْبٍ حَتَّى اسْتَظْهَرُوا عَلَيْهِ (٤) وَأَنْسَابُوا بِهِمَّتِهِمْ فِي الْمَجْتَمَعِ الْإِنْسَانِيِّ فَنَالُوا فِيهِ مَكَانًا عَلِيًّا، وَإِذْ كُرُّ أِبْنَاءِ الْعَائِلَاتِ (وَمَا سَمُوا كَذَلِكَ إِلَّا لِإِعْتِمَادِهِمْ عَلَى عَائِلَاتِهِمْ وَأَمْوَالِ عَائِلَاتِهِمْ أَكْثَرَ مِنْ رُكُونِهِمْ إِلَى عَمَلِهِمْ) تَرَهُمْ يَسْقُطُونَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى أَسْفَلِ الدَّرَجَاتِ لِأَنَّهُمْ أَقَلُّ مِنْ غَيْرِهِمْ فِي كُلِّ شَيْءٍ مَعَ أَنَّهُمْ تَرَبَّوْا (تَرْبِيَّةً

(١) أى قوى القلب (٢) يريد عدم الاكثار من النسل (٣) أى استولى على الأئمة والغاية، وأصله أن الغاية التى يسبق اليها تدرع بالقصب وتركز تلك القصبه عند منتهى الغاية فن سبق اليها حازها واستحق الشرف (٤) قهره

جَمِيلَةً) كَمَا يُقَالُ، وَقَدْ فَقَدُوا فِي هَذِهِ الْبِلَادِ مَا كَانَ لَهُمْ مِنَ النُّفُوزِ
 كُلِّهِ وَفَرَّتْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ زَعَامَتُهُمْ، فَأَصْبَحَتْ الْمُلُوكِيَّةُ لَا حَيَاةَ
 لَهَا وَأَمْسَتْ لَا رَجَاءَ فِي إِعَادَتِهَا، ثُمَّ إِنَّهُمْ صَارُوا غَيْرَ قَادِرِينَ عَلَى
 نَيْلِ الْمَنْزِلَةِ وَاكْتَسَابِ الْجَاهِ بِكَدِّهِمْ وَعَمَلِهِمْ، فَبَاتُوا يَرْجُونَ
 الْبَقَاءَ مِنْ عَدَمِ وُجُودِ شَرِيكَ لَهُمْ فِي الْمِيرَاثِ وَمِنَ الْمَالِ الَّذِي
 تُقَدِّمُهُ إِلَيْهِمْ زَوْجَاتُهُمْ.

أَمَّا الشُّبَّانُ الَّذِينَ تَرَبَّوْا تِلْكَ التَّرْبِيَةَ الَّتِي شَرَحْنَاهَا فِيهِمْ أَقْوِيَاءَ
 الْأَجْسَامِ مُتَعَوِّدُونَ مَزَاوِلَةَ الْأَعْمَالِ الْحَقِيقِيَّةِ وَمُمَارِسَةَ الْأَشْيَاءِ
 الْمَادِيَّةِ، تَرَبَّوْا عَلَى اعْتِبَارِهِمْ رَجَالًا وَتَمَرَّنُوا عَلَى الْإِعْتِمَادِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ
 يَرُونَ الْحَيَاةَ كَحَرْبٍ وَنِزَالٍ^(١) (وَهُوَ مُوَافِقٌ لِمَا جَاءَ بِهِ الدِّينُ
 الْمَسِيحِيُّ كُلِّ الْمَوَافِقَةِ) لِذَلِكَ يَقْتَحِمُونَ مَتَاعِهَا بِشَبِيهَةِ مُتَجَدِّدَةٍ
 وَعِزْمٍ أَكِيدٍ بَلْ إِنَّهُمْ يُحِبُّونَ تِلْكَ الْمَتَاعِ بِوَشْعُرُونَ بِالْحَاجَةِ
 إِلَيْهَا، وَيَسْتَظْهِرُونَ عَلَيْهَا، وَلَدَيْهِمْ مِنْ وَسَائِلِ مُقَاوَمَتِهَا مَا يُجْعَلُهُمْ
 يَرْتَاخُونَ لِمَلَاقَاتِهَا وَيَتَرَقَّوْنَ فِي مُجَاهَدَتِهَا

وَعَلَى الْقَارِئِ أَنْ يُقَارَنَ بَيْنَ الْإِثْنَيْنِ، وَيَحْكُمَ عَلَى نَتِيجَةِ
 التَّرْبِيَتَيْنِ، أَمَا أَنَا فَقَدْ كَشَفْتُ لَهُ الْقِنَاعَ عَنِ الْعَوَامِلِ الَّتِي تُحْرِكُ
 تِلْكَ الْأُمَّةَ الَّتِي تُغَيِّرُ الْيَوْمَ عَلَى جَمِيعِ الشُّعُوبِ الْقَدِيمَةِ وَيُهْدِدُ

وَجُودَهَا ، أَغَارَتْ تِلْكَ الْأُمَّةَ عَلَى الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا وَمُعْجَزَتُهَا هِيَ تِلْكَ
الْفَارَةُ نَفْسَهَا مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهَا مِنْ سُلْطَةِ الْحُكُومَاتِ إِلَّا النَّزْرُ
الْقَلِيلُ ، إِلَّا أَنَّ لَدَيْهَا مِنَ الْقُوَّةِ الْإِجْمَاعِيَّةِ أَعْظَمَهَا ، وَالْقُوَّةِ الْإِجْمَاعِيَّةِ
أَشَدُّ بَأْسًا وَأَكْبَرُ فِعْلًا مِنْ الْحُكُومَاتِ الْمُنْظَمَةِ وَالْجُنُودِ
الْمُحْتَشِدَةِ

مَا عَدُونَا وَمَا الْخَطَرُ الَّذِي نَخَافُ مِنْهُ وَمَا الْبَلَاءُ الَّذِي نَخْشَاهُ
بِأَتِيَّةٍ لَنَا مِنْ جَانِبِ نَهْرٍ (الرين) الثَّانِي كَمَا يَظُنُّ قَوْمُنَا لِأَنَّ الْمَغَالَاةَ
فِي تَجْنِيدِ الْعَسَاكِرِ وَتَقَدُّمِ مَذَاهِبِ الْإِشْتِرَاكِيِّينَ وَالْفَوْضَوِيِّينَ
تَكْفِينًا مَوْوَنَةً (٢) ذَلِكَ الْعَدُوُّ وَلَيْسَ الصُّبْحُ بِبَعِيدٍ .

إِنَّمَا الْعَدُوُّ وَالْخَطَرُ وَالْبَلَاءُ آتِيَةٌ مِنَ الْجَانِبِ الْآخِرِ مِنْ بَحْرِ
الْمَآئِشِ ، وَالْجَانِبِ الثَّانِي مِنَ الْمُحِيطِ الْإِتْلَانُطِيِّ فَهِيَ تُوجَدُ حَيْثُ
يُوجَدُ الْإِنْكَلِيزِيُّ السَّكْسُونِيُّ عَلَى اخْتِلَافِ مُسَمِّيَاتِهِ وَصِفَاتِهِ ،
ذَلِكَ الرَّجُلُ الَّذِي يَحْتَقِرُهُ النَّاسُ لِأَنَّهُ لَا يَفِدُ عَلَيْهِمْ كَالْأَلْمَانِيِّ
بِحَيْشِهِ الْجُرَّارِ وَسِلَاحِهِ الْمَصْقُولِ بَلْ يَأْتِيهِمْ بِمُفْرَدِهِ غَيْرَ مُسْتَضْعَبٍ
إِلَّا لِمُخْرَآئِهِ لَكِنِّهِمْ جَهَلُوا قِيَمَةَ ذَاكَ الْمُخْرَآئِ وَقِيَمَةَ ذَلِكَ الرَّجُلِ ،
وَمَتَى عَلِمُوا ذَلِكَ عَرَفُوا مِنْ أَيْنَ يَأْتِيهِمُ الْخَطَرُ وَوَقَفُوا عَلَى السَّبِيلِ
الَّذِي يَسْلُكُونَهُ لِلْخَلَاصِ مِنْهُ .

البَابُ الثَّانِي

﴿ الْفَرَنْسَاوِيُّ وَالْإِنْكَلِيزِيُّ السَّكْسُونِيُّ ﴾

﴿ فِي حَيَاتِهِمَا الْخُصُوصِيَّةِ ﴾

آثَارُ الْفَرْقِ الَّذِي يَبْنَاهُ فِي التَّرْبِيَّتَيْنِ تَظْهَرُ أَوَّلًا فِي الْحَيَاةِ
الْخُصُوصِيَّةِ وَالْعَرَضِ مِنْ هَذَا الْقِسْمِ إِيرَادُ بَعْضِ الْأَمْثَلَةِ الَّتِي اخْتَرْنَاهَا
فِي فَرَنْسَا وَأِنْكَلِتْرَا

أَمَّا التَّرْبِيَّةُ الَّتِي يَنْشَأُ عَلَيْهَا أَبْنَاؤُنَا فَإِنَّهَا تُؤَدِّي إِلَى فُتُورٍ هَمَّتَنَا
وَضَعْفِ قُوَّتِنَا الْأَجْمَاعِيَّةِ وَهُمَا سَبَبَانِ مِنْ أَسْبَابِ انْحِطَاطِنَا بِالنَّظَرِ
إِلَى أَنْكَلِتْرَا بِخِلَافِهَا عِنْدَهُمْ فَإِنَّهَا هِيَ وَالْوَسْطُ الَّذِي يَعِيشُونَ
فِيهِ يُؤَدِّيَانِ إِلَى إِنْمَاءِ الْقُدْرَةِ عَلَى مُغَالَبَةِ الْحَيَاةِ إِلَى الدَّرَجَةِ الْقُصْوَى
فِي الْأُمَّةِ بِتَامِهَا

الفصل الأول

﴿ فِي أَنَّ طَرِيقَةَ التَّرْبِيَةِ عِنْدَنَا تُقَلِّلُ الْمَوَالِيدَ فِي فَرَنْسَا ﴾

لَيْسَ الْغَرَضُ هُنَا أَنْ نُثَبِّتَ نَقْصَ الْمَوَالِيدِ فِي فَرَنْسَا فَإِنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ
أَثْبَتَتْهُ الْأَحْصَائِيَّاتُ كُلُّهَا وَاشْتَغَلَ بِهِ عُلَمَاءُ الْأَخْلَاقِ وَالِاِقْتِصَادِيُّونَ
وَالسِّيَاسِيُّونَ وَاتَّفَقُوا فِي إِثْبَاتِهِ ، إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يَتَّفِقُوا فِي بَيَانِ سَبَبِهِ
وَكَلٌّ يَنْحُو نَحْوَهُ مِنْ غَيْرِ مُرْشِدٍ يَهْدِيهِ وَلَا طَرِيقَةَ مُنْتَظِمَةٍ ،
وَيَبَيِّنُ السَّبَبَ هُوَ الْغَرَضُ الَّذِي نَتَوَخَّاهُ مُسْتَعِينِينَ فِيهِ بِنُورِ
الْعِلْمِ الْاجْتِمَاعِيِّ

قُلْنَا إِنْ نَقَّصَ الْمَوَالِيدُ فِي فَرَنْسَا أَمْرٌ ثَابِتٌ لَا يَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ
وَيَكْفِي صِحَّةَ قَوْلِنَا إِيْرَادُ بَعْضِ الْأَرْقَامِ
كَأَنَّ حَالَةَ الْمَوَالِيدِ لِكُلِّ عَشْرَةِ آلَافٍ نَسْمَةٍ ^(١) فِي مَدَى أَكْثَرَ
مِنْ قَرْنٍ كَمَا يَأْتِي :

مَوَالِيدِ

سِنِينَ

مِنْ إِلَى

٣٨٠

١٧٨٠ ١٧٧٠

٣٢٥

١٨١٠ ١٨٠١

مَوَالِيد

سِنِينَ

مِنْ إِلَى

٣١٦	١٨٢٠	١٨١١
٣٠٩	١٨٣٠	١٨٢١
٢٨٩	١٨٤٠	١٨٣١
٢٧٤	١٨٥٠	١٨٤١
٢٦٧	١٨٦٠	١٨٥١
٢٦٤	١٨٦٨	١٨٦١
٢٤٥	١٨٨٠	١٨٦٩
٢٢٠	١٨٩٦	١٨٨١

وَيُرَى مِنْ هَذَا أَنَّ نِسْبَةَ الْمَوَالِيدِ بَيْنَ سَنَةِ ١٧٧٠ وَسَنَةِ ١٨٩٦ سَقَطَتْ مِنْ ٣٨٠ إِلَى ٢٢٠ فِي كُلِّ عَشْرَةِ آلَافِ نَسْمَةٍ وَهِيَ أَكْثَرُ مِنْ الثُّلُثِ

وَقَدْ كَانَ عَدَدُ الْمَوَالِيدِ فِي فِرَنْسَا سَنَةَ ١٨٨١ : ٩٣٧٠٥٧ وَلَمْ يُبْلَغْ فِي سَنَةِ ١٨٩٠ إِلَّا ٨٣٨٠٥٧ فَالْتَقْصُ هُوَ ١٠٠٠٠٠٠ وَلِيُلاحَظَ أَنَّ هَذَا الْعَدَدَ أَقَلُّ مِنْ عَدَدِ الْوَفِيَّاتِ بِمَقْدَارِ ٣٨٤٤٦ وَأَنَّ انْتِصَارَ الْمَوْتِ عَلَى الْحَيَاةِ كَمَا تَرَى حَاصِلٌ فِي زَمَنِ السَّلَامِ أَعْنَى أَنَّ هَذِهِ هِيَ حَرَكَةُ الْمَوَالِيدِ وَالْوَفِيَّاتِ الْإِعْتِيَادِيَّةِ فِي فِرَنْسَا وَهِيَ تَزْدَادُ عَامًا فَعَامًا

فَنَقَصَ عَدَدُ الْمَوَالِيدِ فِي سَنَةِ ١٨٩٠ عَنِ سَنَةِ عَدَدِ

٤٢٥٢٠	١٨٨٩
٤٤٥٨٠	١٨٨٨
٦١٢٧٥	١٨٨٧
٧٤٧٧٩	١٨٨٦
٨٦٤٩٩	١٨٨٥
٩٩٦٩٩	١٨٨٤
٩٩٨٨٥	١٨٨٣

وَكَذَلِكَ يَنْقُصُ الزَّوْاجُ سَنَةً فَسَنَةً إِلَّا أَنَّ نَقْصَهُ غَيْرُ مُحَسَّسٍ

كَنَقْصِ الْمَوَالِيدِ

كَانَ عَدَدُ الزَّوْاجِ فِي سَنَةِ عَدَدِ

٢٨٩٥٥٥	١٨٨٤
٢٨٣١٧٠	١٨٨٥
٢٨٣٢٠٨	١٨٨٦
٢٧٧٠٦٠	١٨٨٧
٢٧٦٨٤٨	١٨٨٨
٢٧٢٩٣٤	١٨٨٩
٢٦٩٣٣٢	١٨٩٠

فِيكُونُ النَّقْصُ فِي السَّنَةِ الْأَخِيرَةِ قَدْ بَلَغَ ٢٠٢٢٣ فِي مَدَى

السَّتِّ السِّنِينَ الَّتِي قَبْلَهَا أَيَّ سَنَةِ ١٨٨٦ وَكَانَتْ النِّسْبَةُ عَلَى الدَّوَامِ.

بِالنَّاقِصِ وَإِنْ لَمْ تَخْتَلِفْ سَنَةَ ١٨٨٤ إِلَّا بِيَعْضِ الْأَحَادِ وَعَلَى عَكْسِ
ذَلِكَ نَجِدُ عَدَدَ الْوَفِيَّاتِ فِي أَرْذِيَادٍ
قَدْ بَلَغَ فِي سَنَةِ وَفَاةِ

١١٨١ ٨٢٨٨٢٨

١٨٨٢ ٨٣٣٥٣٩

١٨٨٣ ٨٤١١٤١

١٨٨٤ ٨٥٨٧٨١

١٨٨٦ ٨٦٠٢٢٢

١٨٩٠ ٨٧٦٥٠٥

وَعَلَيْهِ زَادَ عَدَدُ الْوَفِيَّاتِ سَنَةَ ١٨٩٠ بِمِقْدَارِ ٤٧٦١٧ عَلَى مَا كَانَ
عَلَيْهِ سَنَةَ ١٨٨١ وَبِمِقْدَارِ ٣٥٣٦٤ عَلَى سَنَةِ ١٨٨٣ مَعَ أَنَّ عَدَدَ الْمَوَالِيدِ
كَانَ قَدْ نَقَصَ بِمِقْدَارِ ١٠٠٠٠٠ فِي تِلْكَ السَّنَةِ فَتَكُونُ النَّتِيجَةُ
وُجُودَ ١٣٥٠٠٠ خُلُوفٍ فِي الْأُمَّةِ

وَإِذَا قَابَلْنَا بَيْنَ حَرَكَةِ الْمَوَالِيدِ فِي فَرَنْسَا وَيَنْهَاهَا فِي الْبِلَادِ
الْأُخْرَى نَجِدُ مَا يَأْتِي :

تَضَاعَفَ عَدَدُ سُكَّانِ النُّرْوِيَجِ فِي ٥١ عَامًا وَعَدَدُ سُكَّانِ اسْتُرِيَا
فِي ٦٢ وَأَنْكَلِتِرَا فِي ٦٣ وَالْدَانِيمَرْكِ فِي ٧٣ وَالسُّوَيْدِ فِي ٨٩
وَالْمَانِيَا فِي ٩٨ وَفَرَنْسَا فِي ٣٣٤

وَلَمْ نَأْتِ بِيَمَانِ الْأِحْصَائِيَّاتِ الْأَجْنَبِيَّةِ لِعَدَمِ اتِّفَاقِ سِنِيهَا وَلَكِنَّهَا

تَنْطِقُ كُلُّهَا بِأَنَّ فَرَنْسَا مُتَأَخِّرَةٌ فِي مَوَالِيدِهَا تَأْخِرًا عَظِيمًا عَنِ
جَمِيعِ الْأُمَمِ.

ثَبَتَ أَنَّ ضَعْفَ النَّسْلِ أَمْرٌ حَقِيقِيٌّ فِي فَرَنْسَا فَنَبِحَتْ إِذْنُ عَنْ عِلَّتِهِ
وَلَنْ يَنْفَعَنَا الْإِحْصَاءُ فِي هَذَا الْبَحْثِ إِلَّا يَسِيرًا فَقَدْ نَأْخُذُ مِنْهُ
الْأَرْقَامَ وَالْمُتَوَسِّطَاتِ وَالْعُمُومِيَّاتِ ، وَلَكِنَّهُ لَا يَكْفِينَا فِي بَيَانِ
نَامُوسِ (١) تِلْكَ الْحَرَكَةِ

وَقَدْ ذَهَبَ الْبَاحِثُونَ فِي بَيَانِ تِلْكَ الْعِلَّةِ مَذَاهِبَ شَتَّى فَذَكَرَ
حَضْرَةُ الْمَرْكِزِ (نَادِيَاكِ فِي رِسَالَةِ ضَعْفِ الْمَوَالِيدِ فِي فَرَنْسَا) سَبْعَةَ
عَشَرَ سَبَبًا جَاءَ بَعْضُهَا مُكْرَّرًا وَإِذَا أُنْعَمْنَا النَّظَرَ فِيهَا رَأَيْنَاهَا تَفْتَرِقُ
إِلَى قِسْمَيْنِ :

الْأَوَّلُ : الْأَسْبَابُ الْبَاطِلَةُ

الثَّانِي : الْأَسْبَابُ الثَّانَوِيَّةُ أَيِ الَّتِي يَرْجِعُ كُلُّ مِنْهَا إِلَى سَبَبٍ أَوْلَى .
وَسَتَبْحَثُ فِي هَذَيْنِ الْقِسْمَيْنِ بَحْثًا نَظْرِيًّا مَعَ الْمُقَارَنَةِ ثُمَّ نَجْتَهِدُ
فِي اسْتِنْبَاطِ السَّبَبِ الْحَقِيقِيِّ بَعْدَ ذَلِكَ

﴿ الْأَسْبَابُ الْبَاطِلَةُ ﴾

مِنْهَا ضَعْفُ قُوَّةِ التَّنَاسُلِ الطَّبِيعِيَّةِ فِي الْأُمَّةِ الْفَرَنْسَاوِيَّةِ ، قَالَ
مُوسِيُو (نَادِيَاكِ) : « وَلَيْسَتْ قُوَّةُ التَّنَاسُلِ الطَّبِيعِيَّةِ وَاحِدَةٌ فِي جَمِيعِ

الْأُمَمِ فَلِلْمُنَاحِ وَالْأَحْوَالِ الْإِجْتِمَاعِيَّةِ وَالْاِقْتِصَادِيَّةِ وَمَعْدِنِ الْإِقْلِيمِ
 دَخَلَ حَقِيقٌ فِيهَا، وَإِنْ كَانَ لَا يَزَالُ غَيْرَ مُعَيَّنٍ تَمَامًا . وَقُوَّةُ التَّنَاسُلِ
 عَظِيمَةٌ عِنْدَ الصِّينِيِّاتِ وَلَكِنَّهَا ضَعِيفَةٌ عِنْدَ نِسَاءِ (الْبِيرِينِيهِ)
 وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ إِنَّ الْأُمَّمَ اللَّاتِينِيَّةَ - وَخُصُوصًا الْأُمَّةَ الْفَرَنْسَاوِيَّةَ -
 أَضْعَفُ تَنَاسُلًا مِنْ الْأُمَّمِ السَّلَافِيَّةِ وَالْإِنْكَلِيزِيَّةِ السَّكْسُونِيَّةِ
 وَعَلَيْهِ فَلَاشِكُّ فِي أَنَّ دَرَجَتَنَا أَحْطُّ مِنْ غَيْرِنَا بِالنَّظَرِ إِلَى قُوَّةِ التَّنَاسُلِ
 وَمِنْ الْمُحَقِّقِ أَنَّ قُوَّةَ التَّنَاسُلِ أَشَدُّ عِنْدَ بَعْضِ الْأُمَّمِ مِنْهَا عِنْدَ
 الْبَعْضِ الْآخَرَ ، وَمِنْ السَّهْلِ الْوُقُوفُ عَلَى سَبَابِ هَذَا التَّفَاوُتِ
 بِالْبَحْثِ فِي الْأَحْوَالِ الطَّبِيعِيَّةِ وَالْإِجْتِمَاعِيَّةِ لِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا، لَكِنْ
 لَا نُسَلِّمُ بَأَنَّ ضَعْفَ التَّنَاسُلِ فِي فَرَنْسَا أَمْرٌ لَا زِمَ لِطَبِيعَةِ الْأُمَّةِ إِذْ لَوْ
 صَحَّ ذَلِكَ لَتَعَدَّرَ بَيَانُ السَّبَبِ فِي نُمُوِّهَا الْعَظِيمِ إِلَى قِيَامِ الثَّوْرَةِ فَقَدْ
 انْتَشَرَتْ فِي (كَنْدَا) وَفِي (لُوِيْزِيَان) وَفِي (الْهِنْدِ) وَ(صَانْ دُوْمِينِجِ)
 وَ(جَزِيرَةِ فَرَنْسَا) وَ(بُوْرْبُونِيَا) وَ(إِيتَالِيَا) وَغَيْرِهَا وَلَا يَزَالُ
 فَرْعُهَا الْمَوْجُودُ فِي (كَنْدَا) يَزْدَادُ وَيَنْمُو بِقُوَّةٍ عَظِيمَةٍ حَتَّى إِنَّهُ أَصْبَحَ
 يُزَاحِمُ الْعُنْصَرَ الْإِنْكَلِيزِيَّ السَّكْسُونِيَّ نَفْسَهُ ، وَالذَّلِيلُ عَلَيْهِ
 أَنَّ سُكَّانَ (كَنْدَا) يَتَضَاعَفُونَ عَدَدًا فِي كُلِّ ثَمَانٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً
 مَرَّةً مَعَ أَنَّ سُكَّانَ فَرَنْسَا لَا يَتَضَاعَفُونَ إِلَّا فِي كُلِّ ثَلَاثِمِائَةٍ وَأَرْبَعٍ
 وَثَلَاثِينَ سَنَةً مَرَّةً وَاحِدَةً . وَظَاهِرٌ أَنَّ ذَلِكَ الْفَرْقَ لَا يَرْجِعُ إِلَى سَبَبِ

طَبِيعِيٍّ فِي الْأُمَّةِ بَلْ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ سَبَبٍ خَارِجِيٍّ لَمْ يُوجَدْ إِلَّا مِنْ
زَمَنٍ غَيْرِ بَعِيدٍ .

وَمِمَّا تَجِبُ ملاحظتهُ أَيضًا أَنَّ التَّنَاسُلَ لَا يَزَالُ نَامِيًا فِي بَعْضِ
الْأَقَالِمِ الْفَرَنْسَاوِيَّةِ كَأَقْلِيمِ (بُرُوتُون) . قَالَ مُوسِيُو (ناديالك):
« بَلَغَتْ زِيَادَةُ الْمَوَالِيدِ عَلَى الْوَفَايَاتِ مِنْ سَنَةِ ١٨٨٠ إِلَى سَنَةِ
١٨٨٣ فِي الْأَقَالِمِ الْبُرُوتُونِيَّةِ الْخُمْسَةَ ٧٤٩٩٠ وَهِيَ تُسَاوِي زِيَادَةَ
الْمَوَالِيدِ فِي فَرَنْسَاكُلَّهَا عَلَى التَّقْرِيبِ ، وَلَوْ كَانَ التَّنَاسُلُ فِي جَمِيعِ
الْأَقَالِمِ بِمَقْدَارِ هَذِهِ النِّسْبَةِ لَمَا حَسَدْنَا جِيرَانَنَا إِذْ كُنَّا نُسَاوِيهِمْ
فِي عَدَدِ الْمَوَالِيدِ إِنْ لَمْ نَزِدْ عَلَيْهِمْ »

وَكذَلِكَ عَدَدُ الْمَوَالِيدِ لَا يَتَغَيَّرُ فِي الْأَقَالِمِ الَّتِي يَكثُرُ الْفَعْلَةُ فِيهَا
كَمَا سَنَبِينَهُ فِيمَا بَعْدُ ، أَمَّا فِي غَيْرِهَا فَأِنَّهُ يَنْقُصُ سَنَةً بَعْدَ سَنَةٍ مِنْ مَبْدَأِ
هَذَا الْقَرْنِ بَدُونَ أَنْ يَحْدُثَ تَغْيِيرٌ فِي النُّوعِ يُمَكِّنُ اتِّخَاذَهُ سَبَبًا
فِي هَذَا النِّقْصِ الْمُسْتَمَرِّ .

وَعَلَى مَا تَقَدَّمَ يَكُونُ الْإِسْتِدْلَالُ فِي نَقْصِ عَدَدِ الْمَوَالِيدِ بِطَبِيعَةِ
النُّوعِ بَاطِلًا لِأَنَّ الْإِسْتِقْرَاءَ يُكَذِّبُهُ وَالْإِسْتِقْرَاءُ يُبْطِلُ أَيضًا
الدَّلِيلَ فِي هَذَا النِّقْصِ الَّذِي انْتزَعُوهُ مِنَ الْمُسْكِرَاتِ . نَعَمْ
لَا شُبُهَةَ فِي أَنَّ الْمَشْرُوبَاتِ الرُّوحِيَّةَ قَدْ تَغَيَّرَتْ مُنْذُ خَمْسِينَ عَامًا

إلى أَرْدَا الأَحْوَالِ لِاسْتِعْمَالِ التَّقْطِيرِ فِي تَحْضِيرِهَا بَدَلَ التَّخْمِيرِ
وَلِكَثْرَةِ اسْتِعْمَالِ العَرَقِ وَالْمِسْتِكَ عَمَّا كَانَا عَلَيْهِ ، إِذِ المِقْدَارُ الَّذِي
كَانَ يُشْرَبُ مِنْهُمَا فِي فَرَنْسَا سَنَةَ ١٧٨٨ لَمْ يَزِدْ عَلَى ٣٧٠٠٠٠ هِكْتُولْتِرْ
وَقَدْ بَلَغَ فِي سَنَةِ ١٨٨٢ ١٧٦٦٠٠٠ هِكْتُولْتِرْ

غَيْرَ أَنَّهُ مِنَ المُحَقِّقِ أَيضًا أَنَّ اسْتِعْمَالَ تِلْكَ المَشْرُوبَاتِ لَمْ يَبْلُغْ
فِي البِلَادِ الفَرَنْسَاوِيَّةِ مِقْدَارَ مَا بَلَغَهُ فِي غَيْرِهَا ، وَخُصُوصًا فِي جِهَةِ
الشَّمَالِ مِنْ أَوْرُبَا ، مَعَ أَنَّ عَدَدَ المَوَالِيدِ فِي تِلْكَ الجِهَةِ لَا يَزَالُ نَامِيًا
حَتَّى فِي فَرَنْسَا نَفْسِهَا فَأَ كَثُرَ البِلَادِ اسْتِعْمَالًا لِتِلْكَ المَشْرُوبَاتِ هُوَ
إِقْلِيمُ « بَرُوتَانِيَا » الَّذِي كَثُرَ نَسْلُهُ ؛ وَعَلَى العَكْسِ مِنْ ذَلِكَ فِي الجَنُوبِ
حَيْثُ لَا يُسْتَعْمَلُ المَشْرُوبُ إِلَّا قَلِيلًا تَرَى بَعْضَ الأَقَالِيمِ يَزِيدُ فِيهَا
عَدَدُ الوَفِيَّاتِ عَلَى عَدَدِ المَوَالِيدِ مِثْلَ إِقْلِيمِ « الفَار » . وَحِينَئِذٍ يَأْزِمُ
التَّسْلِيمُ بَأَنَّ تَأْثِيرَ المَشْرُوبَاتِ الرُّوحِيَّةِ عَلَى عَدَدِ الأَهَالِي غَيْرُ مُحْسِّنٍ
فِي فَرَنْسَا .

قَالُوا : إِنَّ مِنْ أَسْبَابِ تَقْصُرِ المَوَالِيدِ ثِقَلُ الخِدْمَةِ العَسْكَرِيَّةِ .
وَلَكِنَّا نَشَاهِدُ أَنَّ الخِدْمَةَ العَسْكَرِيَّةَ عَامَةٌ أَيضًا وَوَاجِبَةٌ عَلَى كُلِّ
فَرْدٍ فِي البِلَادِ الأَلْمَانِيَّةِ وَعَدَدُ المَوَالِيدِ فِي تِلْكَ البِلَادِ غَيْرُ مُتَأَثِّرٍ بِهَذَا
السَّبَبِ ، نَعَمْ إِنَّ الوَفِيَّاتِ فِي الجَيْشِ أَكْثَرُ مِنْهَا فِي غَيْرِهِ لَكِنَّ
ذَلِكَ لَا يُوَثِّرُ فِي النَتِيجَةِ العُمُومِيَّةِ لِلأُمَّةِ .

وَقَالُوا: إِنَّ مِنْ أَسْبَابِ ذَلِكَ أَيْضًا ثِقَلِ الضَّرَائِبِ عَلَى النَّاسِ ، وَلَا شُبْهَةَ فِي أَنَّ الضَّرَائِبَ الْفَرَنْسَاوِيَّةَ بِأَهْضَةً^(١) جِدًّا فَالَّذِي كَانَ يَدْفَعُ أَيَّامَ الإِمْبْرَاطُورِيَّةِ الثَّانِيَةِ ٥٩ فَرَنْكًا فِي السَّنَةِ صَارَ يَدْفَعُ سَنَةً ١٨٧٢ (٨٥) فَرَنْكًا وَهُوَ الْآنَ يُؤَدِّي ١٠٩ فَرَنْكَاتٍ وَقَدْ زَادَتْ الضَّرَائِبُ الْعُقَارِيَّةُ بَيْنَ سَنَةِ ١٨٢٠ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا مِنْ ٢٤٣.٠٠٠.٠٠٠ فَرَنْكٍ إِلَى ٣٥٧.٠٠٠.٠٠٠ وَزَادَتْ الضَّرَائِبُ الشَّخْصِيَّةُ وَالَّتِي تُجْبَى عَلَى الْمَنْقُولَاتِ مِنْ ٢٧.٠٠٠.٠٠٠ إِلَى ١٢٠.٠٠٠.٠٠٠ كَمَا زَادَتْ عَوَائِدُ الْأَبْوَابِ وَالشَّبَائِكِ مِنْ ٢٩.٠٠٠.٠٠٠ إِلَى ٤١.٠٠٠.٠٠٠ وَبَلَّغَتْ عَوَائِدُ الْبَاطِنِطَا « الْحَرْفِ وَالصَّنَاعَاتِ » ١٦٣.٠٠٠.٠٠٠ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ ٤٠.٠٠٠.٠٠٠ فَقَطُّ

إِلَّا أَنَّهُ لَوْ كَانَتْ زِيَادَةُ الضَّرَائِبِ مِنَ الْأَسْبَابِ الْمُؤَثِّرَةِ حَقِيقَةً فِي عَدَدِ السُّكَّانِ لَوَجِبَ أَنْ يَكُونَ عَدَدُ الْمَوَالِيدِ تَابِعًا لِفَقْرِ الْأَقَالِيمِ وَثَرَوَتِهَا: فَتَقِلُّ فِي الَّتِي رَزَحَتْ تَحْتَ أَثْقَالِ الضَّرَائِبِ وَتَكْثُرُ فِي الَّتِي وَجَدَتْ مِنْ ثَرَوَتِهَا مَا يُسَهِّلُ عَلَيْهَا احْتِمَالَهَا ، لَكِنَّا نَرَى الْحَالَ بِالْعَكْسِ فَلَيْسَ لِأَغْنِيَاءِ بِلَادِ « نُورْمَانْدِيَه » وَ « بِيكَارْدِيَه » إِلَّا وُلْدًا أَوْ وُلْدَانًا مَعَ مَا جَمَعُوهُ مِنَ الثَّرْوَةِ الطَّائِلَةِ قَبْلَ انْحِطَاطِ الزَّرَاعَةِ عِنْدَهُمْ ، مَعَ أَنَّ الْمَوَالِيدَ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ فِي الْأَقَالِيمِ الْفَقِيرَةِ مِثْلِ

(١) بهظه الحمل: أثقله وعجز عنه

اقليم « بروتانيا » و « آرديش » و « لوزير » و « أفيرون »
 و « هوتوار » و « كوريز » وغيرها. وقد تصفحت خريطة المواليد
 في فرنسا سنة ١٨٨١ فوجدت أن أقل البلاد مواليداً أكثرها غنى،
 وعلى هذا يسقط دليل ثقل الضرائب.

إلى هنا تبين أن تلك الأسباب كلها لا تأثير لها في المواليد
 أو أنها لا تؤثر فيها إلا قليلاً. وهناك أسباب أخرى نراها أشد فعلاً
 مما تقدم.

❖ الأسباب الثانوية ❖

لهذه الأسباب بعض التأثير في ضعف المواليد عندنا وهي
 ليست عرضية إذ لا يسلم أن حادثاً يحدث في بلد معين وفي زمان
 معين من دون أن يكون له سبب أدى إليه من أحوال هذا البلد
 في ذلك الزمان، فإذا تكرر وقوعه لزم أن يكون ناشئاً عن سبب
 عام عظيم، كما أننا إذا رأينا رجلاً قد تكرر منه الخطأ وكثرت
 غلطاته حكمنا بأن في عقله نقصاً أو في إرادته عيباً هو الذي يحمله
 على ارتكاب تلك الأعمال الناقصة. وسنبين لك أن جميع الأسباب
 التي نسبوا إليها ضعف المواليد في فرنسا لا يصح الارتكان عليها
 إلا إذا رجعت هي الأخرى إلى سبب أعظم. ومن تلك الأسباب
 ما يأتي:

أولاً - قال موسيو « نادياك »: « إن لا رادة الرجل دخلاً في ضعف المواليد في فرنسا » وفي الواقع لو أراد الفرنسيون أن يكون لهم من الذرية ما لغيرهم من الأمم لحصلوا مرادهم، إلا أن السر هو في معرفة السبب الذي يحملهم على عدم الإرادة. ومن هنا يتبين أن ما قاله موسيو « نادياك » لا يفيد شيئاً في موضوعنا.

ثانياً - قالوا: إن من الأسباب كثيرة تجزئة الملكية، وهنا تفصيل يلزمنا بيانه، فإن كان مرادهم بكثرة تجزئة الملكية أن حالة الاجتماع في الأمة استلزمت من ذاتها تقسيم العقارات إلى أجزاء صغيرة تنتقل من الرجل إلى غيره بحسب ما يعرض له من الاحتياجات التي هو حر في تقديرها، قلنا بأن هذا لا يستلزم البتة ضعف المواليد في بلد ذلك شأنه أكثر من بلد تكون فيه الملكية كبيرة الأجزاء، إذ يشاهد أن عدد المواليد في « انكلترا » لا يزيد على عدد لها في بلاد « الترويج » و « لونيورج » التابعة إلى « هانوفر » وأقاليم « سويسره » وغيرها مع أن الأملاك في الأولى عظيمة غير مجزأة الأقبلا، وهي في الثانية مقسمة أقساماً صغيرة جداً، وإذا أرادوا بكثرة التجزئة استعمار تقسيم الأراضي إلى أجزاء صغيرة مهما كانت مساحتها تقسيماً قهرياً، ففي قولهم نظر سناتي عليه. ونكنتي الآن أن نلاحظ أن مرادهم هذا حاصل

فِي الْبِلَادِ الْفَرَنْسَاوِيَّةِ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَعَدَّدُ الْمَوَالِدِ ضَعِيفٌ فِي الْأَقَالِمِ
ذَاتِ الْأَمْلَآكِ الْوَاسِعَةِ مِثْلَ « نُورْمَانْدِيَا » وَ « بِيكَارْدِيَا » كَمَا هُوَ
ضَعِيفٌ فِي الْأَقَالِمِ ذَاتِ الْأَمْلَآكِ الصَّغِيرَةِ مِثْلَ إِقْلِيمِ « شَمْبَانِيَا » .

ثَالِثًا — ابْتِعَادُ الْفَرَنْسَاوِيِّينَ عَنِ الزَّوْاجِ وَانْحِطَاطُ عَزَائِمِهِمْ لِمَا الْفُوهُ
مِنْ حُبِّ الزَّخَارِفِ وَالْحَاجَاتِ الصَّنَاعِيَّةِ وَالْمَلَاذِّ الْمُخْتَرَعَةِ وَغَيْرِ
ذَلِكَ . وَمِنَ الْمَشَاهِدِ حَقِيقَةً أَنَّ عَدَدَ الزَّوْاجِ يَقِلُّ آنَا فَآنَا فَإِذَا
نَظَرْنَا إِلَى الْأَشْخَاصِ الَّذِينَ يَصِحُّ الْأَقْتِرَانُ بَيْنَهُمْ فِي جَمِيعِ الْأُمَمِ
كَانَتْ فَرَنْسَا الْحَادِيَةِ عَشْرَةَ فِي الرَّثْبَةِ مِنْ بَيْنِهِمْ إِذْ يَتَقَدَّمُ عَلَيْهَا
« الْأَنْكِلِزُ » وَ « الْبُرُوسِيَانِيُّونَ » وَ « الْهَوْلَانْدِيُّونَ » وَ « النَّمْسَاوِيُّونَ »
وَغَيْرُهُمْ . وَلِضَعْفِ الْعَزَائِمِ الْمُسْتَمِرِّ دَخَلَ فِي هَذَا الْإِنْحِطَاطِ ، غَيْرُ
أَنَّ الَّذِي يُحَوِّجُنَا هُوَ مَعْرِفَةُ السَّبَبِ الَّذِي سَمَّلَ الْفَرَنْسَاوِيِّينَ مِنْ
مَبْدَأِ هَذَا الْقَرْنِ عَلَى الْإِبْتِعَادِ عَنِ الزَّوْاجِ وَالْمَوْجِبِ لِتَثْبِيْطِ الْعَزَائِمِ
بَيْنَهُمْ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِمْ .

رَابِعًا — الْمَيْلُ إِلَى الْأَسْتِثْنَاءِ بِأَكْبَرِ مَا يُمَكِّنُ مِنَ اللَّذَاتِ
وَهُوَ مُسَلَّمٌ ؛ لَكِنْ بَقِيَ عَلَيْنَا أَنْ نَعْرِفَ السَّبَبَ فِي أَنْصِبَابِ الْفَرَنْسَاوِيِّينَ
عَلَى اللَّذَاتِ فَجَاءَ أَنْصِبَابًا لَا حَدَّ لَهُ وَكَيْفَ أَنَّ ذَلِكَ الْمَيْلَ بَعَيْنِهِ لَمْ
يُوجَدْ عِنْدَ الْأَنْكِلِيزِيِّ أَوْ الْأَلْمَانِيِّ أَوْ الرَّوْسِيِّ وَغَيْرِهِمْ ، إِذْ لَيْسَ مِنْ
الْمَعْقُولِ إِلَّا يَكُونَ أَوْلَئِكَ الْقَوْمُ مِمَّنْ يَمِيلُونَ بِالطَّبَعِ إِلَى الزِّيَادَةِ

فِي لَدَاتِهِمْ؛ فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ سَبَبٌ مَنَعَهُمْ عَنِ الْإِقْلَالِ
مِنَ النَّسْلِ طَلَبًا لَلدَاتِهِمْ وَأَنَّ ذَلِكَ السَّبَبَ غَيْرٌ مَوْجُودٌ فِي الْبِلَادِ
الْفَرَنْسَاوِيَّةِ .

خامساً - زِيَادَةُ السَّعَةِ فِي الْمَعِيشَةِ وَمُوجِبَاتِ الرَّاحَةِ نَظَرًا
لِلرُّتْفَاعِ الْأَجُورِ، ذَلِكَ أَيْضًا أَمْرٌ عَامٌّ . وَحِينَئِذٍ لَا يُمْكِنُ الْإِعْتِمَادُ
عَلَيْهِ فِي تَعْلِيلِ حَالَةِ فَرَنْسَا الْخُصُوصِيَّةِ ، وَقَدْ اعْتَرَفَ بِذَلِكَ
مُوسِيُو « نَادِيَاك » حَيْثُ قَالَ : « زَادَتْ بَسْطَةُ الْعَيْشِ فِي كُلِّ
مَكَانٍ زِيَادَةً كُبْرَى فَتَرَى فِي الْأَرْيَافِ ، كَمَا نَشَاهِدُ فِي الْمُدُنِ ،
أَنَّ الْأَجُورَ قَدْ ارْتَفَعَتْ كَثِيرًا وَتَحَسَّنَ الْمَلْبَسُ وَالْمَطْعَمُ وَصَارَتْ
الْمَسَاكِينُ أَقْرَبَ إِلَى الصَّحَّةِ وَأَوْفَى بِحَاجَاتِ الْمَائِلَاتِ وَتَقَدَّمَ
النَّاسُ فِي مَعْرِفَةِ لَوَازِمِ حِفْظِ الصَّحَّةِ ، وَعِنْدِي أَنَّ لِهَذِهِ الْأَحْوَالِ
تَأْثِيرًا حَسَنًا فِي النَّسْلِ وَلَكِنَّا لَا نَدْرِي مَا السَّبَبُ فِي أَنَّهَا آدَّتْ
فِي الْبِلَادِ الْفَرَنْسَاوِيَّةِ إِلَى عَكْسِ مَا ذُكِرَ » ! كَذَلِكَ نَحْنُ نَبْحَثُ
مَعَهُ عَنْ تِلْكَ الْعِلَّةِ .

سادساً - زِيَادَةُ الْحَضَارَةِ أَغْنَى كَثْرَةَ الْمُدُنِ الْمَتَرَفِيَّةِ حَيْثُ
يَقِلُّ النَّسْلُ . وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ أَهْلَ الزَّرْعَةِ يَقِلُّونَ وَأَهْلَ الْمُدُنِ
يَكْثُرُونَ ، فَبِئْسَ سَنَةٌ ١٨٤٦ كَانَ عَدَدُ أَهْلِ بِلَادِ الرِّيفِ يَبْلُغُ ثَلَاثَةَ
أَرْبَاعِ سُكَّانِ فَرَنْسَا وَهُوَ الْيَوْمَ لَا يَكَادُ يَبْلُغُ خَمْسَةَ وَسِتِّينَ فِي الْمِائَةِ

وَلَا يَزَالُ آخِذًا فِي النُّقْصَانِ . وَيُمْكِنُ تَقْدِيرُ زِيَادَةِ عَدَدِ سُكَّانِ
 الْمُدُنِ بِخُمْسِ عَدَدِ الْأَهَالِي أَجْمَعِينَ . وَحَيْثُ إِنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ ثَابِتٌ ،
 وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ فَهُوَ عَامٌّ ، لَزِمَ الْقَوْلُ بِأَنَّ تِلْكَ الْعِلْمَةَ السَّادِسَةَ
 لَا تُثَبِّتُ شَيْئًا ؛ إِذْ يُشَاهَدُ أَنَّ زِيَادَةَ عَدَدِ سُكَّانِ الْمُدُنِ عَظِيمَةٌ جَدًّا
 فَيَقْطُنُهَا مِنَ التَّسْعَةِ خَمْسَةَ ، وَالْأَرْبَعَةَ يُسْكُنُونَ الْأَرْيَافَ . كَذَلِكَ
 زَادَ عَدَدُ سُكَّانِ الْمُدُنِ فِي الْمَائِيَا مِنْ أَرْبَعَةِ عَشَرَ إِلَى خَمْسَةِ عَشَرَ
 فِي الْمِائَةِ : فَكَانَ فِي بَرَلِينَ مِنْذُ قَرْنَيْنِ سَبْعَةَ عَشَرَ أَلْفًا وَأَرْبَعِمِائَةَ نَسَمَةٍ
 وَصَارَ فِيهَا الْيَوْمَ مِليُونٌ وَثَلَاثِمِائَةٍ وَسِتَّةَ عَشَرَ أَلْفًا وَمِائَتَانِ وَاثْنَتَانِ
 وَثَمَانُونَ نَسَمَةً ، وَهَكَذَا الْحَالُ فِي إِيطَالِيَا وَإِسْبَانِيَا وَأُسْتُورِيَا وَغَيْرِهَا
 وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَنْقُصِ النَّسْلُ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ كَمَا هُوَ حَاصِلٌ فِي فِرَنْسَا .
 وَعَلَيْهِ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ سَبَبٌ خَاصٌّ بِهَا .

سابعاً— تَكْلِيفُ التَّلَامِيذَةِ فَوْقَ طَاقَتِهِمْ فِي الْمَدَارِسِ ، إِذْ لَمْ يَبْلُغْ
 هَذَا التَّكْلِيفُ فِي أَيِّ بَلَدٍ مِنَ الْبِلَادِ مَبْلَغُهُ فِي الْأُمَّةِ الْفِرَنْسَاوِيَّةِ ،
 يُزَادُ عَلَيْهِ اسْتِمْرَارُ إِقَامَةِ الطَّلِبَةِ بِدَاخِلِ الْمَدَارِسِ الْإِبْتِدَائِيَّةِ زَمَانًا
 طَوِيلًا مِمَّا يَدْعُو إِلَى ضَعْفِ الشَّخْصِ فِي نَفْسِهِ وَفِي نَسْلِهِ . وَقَدْ يَظْهَرُ أَنَّ
 ذَلِكَ السَّبَبَ قَوِيَّ التَّأثيرِ لَكِنَّهُ لَا يُؤَثِّرُ إِلَّا فِي طَبَقَةِ الْمُسْتَنِيرِينَ ،
 وَلَا بُدَّ لَنَا عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنَ الْبَحْثِ عَنْ عِلَّةِ ذَلِكَ الْعَيْلِ لِأَنَّهُ لَيْسَ
 نَاشِئًا عَنْ طَبِيعَةِ الْإِقْلِيمِ الْفِرَنْسَاوِيِّ .

ثَبَّتْ إِذْنًا أَنَّ الْأَسْبَابَ الَّتِي يَبْدَأُهَا لَا تَنْتَجِجُ الْمَعْلُولَ بِذَاتِهَا، وَأَنَّهٗ لَا بَدَأَ فِيهَا مِنْ سَبَبٍ أَكْبَرَ وَأَعَمَّ، وَمَهْمَا كَانَ ذَلِكَ السَّبَبُ الَّذِي نَبَحَثُ عَنْهُ فَهُوَ لَا بَدَأَ أَنْ يَكُونَ مُؤَثِّرًا فِي الْعَائِلَةِ مُبَاشِرَةً تَأْثِيرًا قَوِيًّا إِذِ الْعَائِلَةُ هِيَ مَرْجِعُ التَّنَاسُلِ فِي الْأُمَّةِ، وَلَا بَدَأَ أَنْ تَكُونَ الْعَائِلَاتُ فِي الْبِلَادِ الْفَرَنْسَاوِيَّةِ عَلَى حَالَةٍ صَعْبَةٍ مُؤَثِّرَةٍ فِيهَا مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ، خُصُوصًا إِذْ لُوْحِظَ أَنَّ الْعَائِلَةَ تَمِيلُ عَلَى الدَّوَامِ إِلَى الْخُلُودِ : فَالرَّجُلُ يُحِبُّ أَنْ يَسْتَمِرَّ وَجُودُهُ بِوِاسِطَةِ أَبْنَائِهِ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مِنْ الْمَوَارِعِ مَا يَتْنِيهِ عَنْ تِلْكَ الرَّغْبَةِ فَإِنَّهُ يَنْسَابُ إِلَيْهَا فِيكَثْرٍ نَسْلَهُ وَيَفْرَحُ بِمَوْلِدِهِمْ. وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْأَطْفَالَ يَعْذُونَ فِي تِلْكَ الْحَالِ مِنْ مُوجِبَاتِ الْقُوَّةِ وَوَسَائِلِ الْإِرْتِزَاقِ لَا كَلَّا^(١) عَلَى آبَائِهِمْ. وَمَا فَرَحَهُمْ بَاتٍ إِلَّا مِنْ سَهْوَةٍ تَعْيِشُ الْأَبْنَاءُ وَعَدَمِ الْحَيْرَةِ فِي تَرْبِيَّتِهِمْ طَوْعًا لِحَرَكَةِ الْهَيْئَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الَّتِي يُوَلِّدُونَ فِيهَا كَمَا يُشَاهِدُ ذَلِكَ عِنْدَ الْأُمَّمِ الَّتِي لَمْ تَتَفَرَّقْ عَائِلَاتُهَا بَعْدُ إِذْ تَرَى الْأَبَاءَ يَرْتَكِنُونَ فِي تَرْبِيَّةِ أَبْنَائِهِمْ عَلَى الْمَجْمُوعِ. وَمِنْ هُنَا كَانَ الشَّرْقُ كَثِيرَ النَّسْلِ، حَتَّى لَقَدْ ظَهَرَ شُعُورُ الشَّرْقِيِّينَ بِتِلْكَ الْحَالَةِ فِي أُمَّلَتِهِمْ الْعَامَّةِ كَقَوْلِهِمْ: «إِنَّ اللَّهَ يُبَارِكُ فِي الْعَائِلَاتِ كَثِيرَةِ الْعَدَدِ»، وَكَقَوْلِهِمْ: «مَا تَعَسَّ الْمَرْأَةُ الْعَقِيمِ». وَمِمَّا يُوَيِّدُهُ أَنَّ كَثْرَةَ النَّسْلِ

لَا تَوْجِدُهُ كَمَا كَانَتْ فِي الْأَصْلِ عِنْدَ الْفَرَنْسَاوِيِّينَ ، إِلَّا فِي الْجِهَاتِ الَّتِي
بَقِيَتْ فِيهَا الْعَائِلَاتُ مُجْتَمِعَةً عَلَى نَفْسِهَا وَهِيَ قَلِيلَةٌ كَقَلِيمِ بُرُوتَانِيَا
وَالْبِيرِنِيِّ وَالْأَقَالِيمِ الْجَبَلِيَّةِ الْوُسْطَى .

وَعَلَى خِلَافِ مَا تَقَدَّمَ نَرَى النِّسْلَ نَامِيًا عِنْدَ الْأُمَّةِ الْإِسْتِقْلَالِيَّةِ
لِأَنَّ مَصِيرَ الْأَطْفَالِ مَكْفُولٌ بِمَا لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مِنَ الْهِمَّةِ الدَّائِمَةِ
الَّتِي بَلَغَتْ مُنْتَهَاهَا ، وَلِمَا رُبِّيَ عَلَيْهِ الشَّبَانُ مِنَ الْقُدْرَةِ عَلَى تَحْصِيلِ
عَيْشِهِمْ بِأَنْفُسِهِمْ فَلَا يَتَكَلَّفُ الْآبَاءُ إِيجَادَ مَرْتَزَقٍ لِأَبْنَائِهِمْ ، وَلَا
يَجْمَعُونَ لَهُمْ مَالًا يُمِدُّونَهُمْ بِهِ . غَيْرَ أَنَّ كَثْرَةَ أَعْضَاءِ الْعَائِلَةِ الْوَاحِدَةِ
يَزِيدُ فِي ثِقَلِ الْعِبَاءِ ^(١) عَلَى الْآبَاءِ زِيَادَةً لَيْسَ لَهُمْ طَاقَةٌ بِهَا مَهْمًا
أَرَادُوا فَلَا مَلْجَأَ لَهُمْ إِلَّا الْهَرَبُ مِنْ تِلْكَ الزِّيَادَةِ ، وَهَذَا هُوَ السَّبَبُ
فِي أَنَّ مُعْظَمَ الْفَرَنْسَاوِيِّينَ لَا يَحْسُدُونَ الَّذِينَ كَثُرَ أَبْنَاؤُهُمْ بَلْ هُمْ
يَرْتُونُ ^(٢) حَالِهِمْ ، وَلِهَذَا أَيْضًا كَانَ كُلُّ مَا يَتَمَنَّهُ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ هُوَ
أَلَّا يَكُونَ لَهُ إِلَّا وَلَدٌ وَابْنَةٌ أَوْ وَلَدٌ وَاحِدٌ حَتَّى يُقَالَ كَمَا اصْطَلَحُوا
عَلَيْهِ : « وَلَدٌ وَحِيدٌ » وَلَيْسَ لِأَوْلِيَاكِ الْآبَاءِ أَنْ يَعْتَمِدُوا فِي تَحْصِيلِ
مَرْتَزَقِ أَبْنَائِهِمْ عَلَى الْعَائِلَةِ لِأَنَّهَا قَدْ انْحَلَّتْ أَوْ عَلَى هِمَّةِ الْآبَاءِ
أَنْفُسِهِمْ لِأَنَّ التَّرْبِيَّةَ قَدْ أَضَاعَتْهَا وَرَجَعَ الْآبَاءُ إِلَى آبَائِهِمْ يَطْلُبُونَ
الْعَيْشَ مِنْهُمْ ، وَأَصْبَحَ هُوَ لَاءٌ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا إِذَا أَمْهَرُوا

(١) العبه : الحمل (٢) يرحمونهم ويعطفون عليهم

أَبْنَاءَهُمْ ، وَهُمْ مُضْطَّرُونَ فِي ذَلِكَ إِلَى إِجْبَادِ ثُرُوءٍ مُتَعَدِّدَةٍ بِقَدْرِ
مَالِدِيهِمْ مِنَ الْأَبْنَاءِ قَبْلَ أَنْ يَتَزَوَّجَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَى فِي مُدَّةٍ
تَخْتَلِفُ مِنْ ثَمَانِي عَشْرَةَ إِلَى ثَلَاثِينَ سَنَةً

وَإِذَا تَزَوَّجَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ وَجَاءَ لَهُ بَعْدَ سَنَةٍ مَوْلُودٌ تَرَاهُ لَا يَنْظُرُ
إِلَيْهِ نَظَرَ مَنْ يَفْرَحُ بِشَعْرِهِ الْأَصْفَرِ وَتَبَسُّمِهِ اللَّطِيفِ بَلِ الَّذِي
يُفَكِّرُ فِيهِ الْوَالِدُ عِنْدَ مَا يَقَعُ نَظَرُهُ عَلَيْهِ هُوَ وَجُوبُ تَحْصِيلِ
الْمَهْرِ لَهُ ، فَإِذَا مَضَى ثَمَانِيَّةَ عَشَرَ شَهْرًا أَوْ سَنَتَانِ وَجَاءَهُ مَوْلُودٌ ثَانٍ
كَانَ ذَلِكَ عِنْدَهُ عِبَارَةً عَنَ وَجُوبِ تَحْصِيلِ مَهْرٍ ثَانٍ ، ثُمَّ يَرَى أَنَّهُ
لَا بُدَّ مِنْ تَحْصِيلِ الْمَهْرَيْنِ فِي مَدَى خَمْسِ وَعِشْرِينَ سَنَةً ، وَيُحْسِ
مِنْ نَفْسِهِ أَنَّ الْعِبَاءَ صَارَ ثَقِيلًا ، وَأَنَّهُ لَا طَاقَةَ لِلزِّيَادَةِ فِيهِ ؛
لِذَلِكَ لَا يَرَى مُلْجَأً إِلَّا الْعَمَلَ عَلَى مَا يُوقِفُ النَّسْلَ .

تِلْكَ هِيَ الْعِلَّةُ فِي قِلَّةِ عَدَدِ أَبْنَاءِ الْفَرَسَاوِيِّينَ ، فَالْعَادَةُ الَّتِي
تَأَصَّلَتْ بِحُكْمِ طَبِيعَةِ الْاجْتِمَاعِ فِيهِمْ تُكَلِّفُهُمْ عَمَلًا يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِمْ
الْقِيَامُ بِهِ فِيصِيرُونَ كَالَّذِينَ يَشْتَغِلُونَ فِي الْإِيمَانِ وَهُمْ غَيْرُ قَادِرِينَ عَلَى
إِبْطَالِ الْعَادَةِ فَيَرَكُونُونَ^(١) إِلَى إِبْطَالِ النَّسْلِ . وَهُنَاكَ سَبَبٌ آخَرُ
يَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِقْلَالِ مِنْهُ : ذَلِكَ أَنَّ حَالَةَ مَعِيشَتِهِمْ تَنْقُصُ بِمِقْدَارِ كُلِّ

(١) أَى يميلون إليه ويسكنون

مَهْرٍ يَأْخُذُهُ أَحَدُ الْأَبْنَاءِ، وَأَنَّهُ بِقَدْرِ مَالِهِمْ مِنَ الشَّرَفِ وَالِادْتِبَارِ يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يُكْثِرُوا مِنْ قِيمَةِ الْمَهْرِ، وَالنَّاسُ يُقَدِّرُونَهَا مِنْ قَبْلِ فَيَقُولُونَ: إِنَّ فَلَانًا خَصَّصَ كَذَا مَهْرًا لِابْنِهِ أَوْ لِابْنَتِهِ، وَحِينَئِذٍ لَا بَدَّ لِلآبَاءِ مِنْ ثَرْوَةٍ خُصُوصِيَّةٍ يَنْتَهَبُونَ مِنْهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ كُلَّمَا كَانَ لَهُمْ وَلَدٌ يَسْتَحِقُّ الزَّوْاجَ .

وَقَدْ جَاءَ الْأَحْصَاءُ مُوَيَّدًا لِتَأْثِيرِ الْمَهْرِ فِي النَّسْلِ تَأْثِيرًا حَقِيقِيًّا فَأَقْلَبَ النَّاسَ نَسْلًا أَكْثَرَهُمْ مَالًا وَأَكْبَرَهُمْ تَبَصْرَةً، أَيْ الَّذِينَ يُبَالِحُونَ وَجُوبَ إِمْهَارِ أَبْنَائِهِمْ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَأَكْثَرُ النَّاسِ نَسْلًا أَقْلَهُمْ مَالًا وَأَبْعَدَهُمْ عَنِ التَّبَصُّرِ وَهُمْ الْفَعْلَةُ، أَيْ الَّذِينَ يَتْرَكُونَ النَّسْلَ يَنْمُو كَمَا يَتْرَكُونَ رِزْقَهُ عَلَى اللَّهِ .

هَكَذَا نَشَاهِدُ فِي إِقْلِيمِ الشَّمَالِ، حَيْثُ تَكْثُرُ الْمَعَامِلُ وَيَكْثُرُ الْفَعْلَةُ، أَنَّ الْمَوَالِيدَ تَزِيدُ عَلَى الْوَفِيَّاتِ بِكَثِيرٍ فَتَبْلُغُ الْأُولَى فِي السَّنَةِ « ٥١١٩٧ » وَلَا تَبْلُغُ الثَّانِيَةَ إِلَّا « ٣٥٠٨٩ » وَعَلَى الْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ يَزِيدُ عَدَدُ الْوَفِيَّاتِ عَلَى عَدَدِ الْمَوَالِيدِ فِي الْأَقَالِيمِ الْغَنِيَّةِ: فِي إِقْلِيمِ « أَوْر » يَبْلُغُ عَدَدُ الْمَوَالِيدِ « ٦١٤٢ » وَعَدَدُ الْوَفِيَّاتِ « ٨١٢٨ » وَفِي إِقْلِيمِ « وَان » يَبْلُغُ عَدَدُ الْمَوَالِيدِ « ٨٨٥١ » وَالْوَفِيَّاتِ « ٩٠٦٨ » وَفِي إِقْلِيمِ « أَوْرَن » تَبْلُغُ الْمَوَالِيدُ « ٦٨٥١ » وَالْوَفِيَّاتُ « ٨٥٣٤ » وَهَكَذَا .

وَمِنْ هُنَا يَنْسَاقُ التَّأْمُلُ إِلَى اسْتِخْلَاصِ تِلْكَ النَّتِيجَةِ الْغَرِيبَةِ
 وَهِيَ أَنَّ مَدَارَ الدَّسَلِ مَعَ قَلَّتِهِ فِي فِرْنَسَا عَلَى قَلِيلِ التَّبَصُّرِ وَعَدِي مِ
 الْكِفَايَةِ (١) وَلَسْتُ أَدْرِي مَا الَّذِي يَدْخِرُهُ الْمُسْتَقْبَلُ لِفِرْنَسَا
 وَهَذِهِ حَالَةُ التَّنَاسُلِ فِيهَا .

وَلَنْبَيِّنَ حِينَئِذٍ أَنَّ هَذِهِ الْحَالَةَ الَّتِي اخْتُصَّتْ بِهَا الْعَائِلَةُ هِيَ
 الْعِلَّةُ الْأُولَى فِي الْأَسْبَابِ الَّتِي سَبَقَ بَيَانُهَا: فَأِرَادَةُ الْآبَاءِ فِي الْإِقْلَالِ
 مِنَ الْآبْنَاءِ مَعْلُومَةٌ بِاسْتِحَالَةِ تَحْصِيلِ مَهْرٍ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ إِذَا
 كَثُرُوا . وَمِنْ هُنَا كَانَ الزَّوْجُ حَمَلًا ثَقِيلًا عَلَى النَّاسِ فَهُمْ يَجْتَهِدُونَ
 فِي الْهَرَبِ مِنْهُ، وَمَتَى خَلَصَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ مِنْ وَاجِبِ الْقِيَامِ بِشُؤُونِ
 عَائِلَةٍ كَبِيرَةٍ وَعَلِمَ أَنَّهُ لَا يَتَحَمَّلُ إِلَّا الْقَلِيلَ مِنَ الْأَثْقَالِ كَأُمَّمٍ وَوَلَدٍ
 أَوْ وَلَدَيْنِ مَالٍ بِالطَّبَعِ إِلَى تَحْصِيلِ قِسْمٍ أَكْبَرَ مِنَ اللَّذَائِطِ
 الشَّخْصِيَّةِ، إِذْ مَثَلُ الْآبَاءِ الَّذِينَ لَا آبْنَاءَ لَهُمْ أَوْ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ مِنْهُمْ
 إِلَّا الْعَدَدُ الْقَلِيلُ كَمَثَلِ الْأَعْزَابِ الَّذِينَ تَمَكَّنَ مِنْهُمْ حُبُّ الذَّاتِ
 لِذَلِكَ تَرَاهُمْ غَيْرَ مُنْدَفِعِينَ إِلَى الْاِقْتِصَادِ وَلَا مِيَالِينَ إِلَى حِرْمَانِ
 أَنْفُسِهِمْ مِمَّا يَشْتَهُونَ فَلَيْسَ عِنْدَهُمْ عَائِلَةٌ كَبِيرَةٌ يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ
 يَقُومُوا بِشُؤُونِهَا .

وَمِمَّا يَسْتَوْفِقُ النَّظَرَ أَنَّ حَالَتَنَا الْاجْتِمَاعِيَّةَ تُنْتَجِجُ مَعِيشَتَيْنِ

مُخْتَلِفَتَيْنِ : فِينَا آبَاءُ كَثُرَ دَدُّ أبنَائِهِمْ فَضَاقَ الرِّزْقُ فِي وَجْهِهِمْ
وَعَاشُوا عَيْشَةَ الْحِرْمَانِ، وَهُنَاكَ آبَاءُ قَلَّ عَدْدُ أبنَائِهِمْ فَعَاشُوا فِي رَغَدٍ
وَهَنَاءٍ يَتَوَسَّعُونَ فِي مَعِيشَتِهِمْ وَيُحْصِلُونَ جَمِيعَ لَذَائِطِهِمْ كَأَنَّهِمْ
لَيْسُوا بِمُتَزَوِّجِينَ . وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى تَرَى الأبنَاءَ قَدْ تَعَوَّدُوا
الإِعْتِمَادَ عَلَى المَهْرِ أَكْثَرَ مِنْ اعْتِمَادِهِمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ فَالْوَاعِنُ
طَلَبَ عَيْشِهِمْ بِجِدِّهِمْ، سِوَاكَ أ كَانَ فِي فِرْنَسَا أَمْ فِي البِلَادِ الأَجْنِبِيَّةِ،
وَفَضَّلُوا الإِنكِسَابَ عَلَى التَّوْظُفِ فِي الحُكُومَةِ وَرَأَتْ هَذِهِ أَنَّهُ
لَا بُدَّ لَهَا مِنْ دَفْعِ تِلْكَ الغَارَةِ عَنْهَا فَأَكْثَرَتْ مِنْ أَنْوَاعِ
الامْتِحَانَاتِ ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَنْجَحْ بَلْ تَكَثَّرَ العَدْدُ وَرَأَى كُلُّ وَاحِدٍ
مِنَ الطَّالِبِينَ أَنَّهُ لَا بُدَّ لَهُ مِنَ الأَنهَمَاكِ ^(١) فِي الدَّرُوسِ فَاضْطَرَّتْ
المَدَارِسُ إِلَى تَكْلِيفِ التَّلَامِيذَةِ فَوْقَ طَاقَتِهِمْ .
وَالخُلَاصَةُ أَنَّ جَمِيعَ الأَسْبَابِ الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا الإِقْتِصَادِيُّونَ
رَاجِعَةٌ إِلَى سَبَبٍ وَاحِدٍ أَوَّلِيٍّ وَهُوَ حَالَةُ العَائِلَةِ الَّتِي وَجِدَتْ بِحُكْمِ
طَبِيعَةِ الإِجْتِمَاعِ الفِرْنَسَاوِيِّ

بَقِيَ عَلَيْنَا أَنْ نَعْرِفَ إِنْ كَانَتْ قَلَّةُ النِّسْلِ فِي فِرْنَسَا مُفِيدَةً أَوْ مُضِرَّةً .
أَمَّا الإِقْتِصَادِيُّونَ فَغَيْرُ مُتَّفِقِينَ فِي هَذَا المَوْضُوعِ أَيضًا : فَذَهَبَ
مُوسِيُو « مَوريسُ بُلُوكِ » فِي جَرِيدَةِ « الدِّيَبَا » وَفِي مَجَلَّةِ « العَالَمِينَ

(١) انهمك الرجل في الأمر جد وج

الجديدة « إلى أن زيادة النسل زيادة سريعة من موجبات ضعف الأمم لأن الفقر من لوازمها. ووافقهُ مُوسِيُو « دِي مُولينَارِي » في جريدة « الإقتصاديين » التي هو مُديرُها .

ولكن الاستقراء لا يُؤدِّي إلى هذه النتيجة ، إذ ليس من المسلم أولاً أن قلة النسل تُفيد الأمة الفرنسية . نعم لو كنا مُحاطين بسور كسور الصين فلا يتخلل أمتنا عنصر أجنبي من أي نوع كان لأصبحنا في معيشة راضية في بلاد قل عدد سكانها ، إذ قلة العدد تُسهل لكل فرد مصادر العيش وتجعله يستفيد مما يجعل الأمة أغنى مما لو كانت كثيرة العدد . غير أن الأحوال لا تجري كذلك ، والنقص في النسل يُستعاض على الدوام بتهافت القُصَادِ مِنَ الأَجَانِبِ . فالوافدون على البلاد الفرنسية كثيرة من جميع مجاورها البلجيكين والألمانيين والسويسريين والباسكيين^(١) والأندلسيين ، ولا يزال عددهم يزداد يوماً بعد يوم فكان عدد الأجناب في فرنسا سنة ١٨٥١ (٣٦٩٠٠٠) نسمة وبلغ سنة ١٨٦١ (٤٩٩٠٠٠) وسنة ١٨٧٢ (٧٩٩٠٠٠) وسنة ١٨٧٦ (٨٠١٠٠٠) وسنة ١٨٨١ (١٠٠١٠٠) فتكون النسبة واحداً من الأجناب في كل ثلاثة وسبعين فرنسائياً .

(١) هم سكان أطراف جبال الپيرنيه الغربية

قَالَ مُوسِيُو « فوفيل » : « إِنَّ كَثْرَةَ وُرُودِ الْأَجَانِبِ إِلَى فَرَنْسَا
 أَمْرٌ خَطِيرٌ إِذْ لَوْ لَا هُمْ لَمَا تَغَيَّرَ عَدَدُ الْفَرَنْسَاوِيِّينَ وَفَرَنْسَا هِيَ
 الْبَلَدُ الَّذِي قَلَّ عَدَدُ الْمُهَاجِرِينَ مِنْهُ وَكَثُرَ عَدَدُ الْمُهَاجِرِينَ إِلَيْهِ
 وَالَّذِينَ يَقُولُونَ بِمَنْفَعَةِ قِلَّةِ النَّسْلِ يَعْلَمُونَ هَذَا وَلَكِنَّهُمْ
 لَا يَتَطَيَّرُونَ^(١) مِنْهُ بَلْ يَفْرَحُونَ بِهِ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ مُوجِبٌ لِلِاِقْتِصَادِ
 فِي فَرَنْسَا لِأَنَّهَا بِوَاسِطَةِ الْغُرَبَاءِ تَجِدُ عُمَالًا لَمْ تَتَكَفَّفْ تَرْبِيَتَهُمْ .
 قَالَ مُوسِيُو « مولينالى » : « لَوْ فَرَضْنَا أَنَّ الْأُمَّةَ الْفَرَنْسَاوِيَّةَ اضْطُرَّتْ
 إِلَى تَرْبِيَةِ ذَلِكَ الْمَلِيُونِ مِنَ الْعُمَالِ الَّذِينَ يَفِدُونَ إِلَيْهَا مِنَ الْخَارِجِ
 لَكَفَّوْهَا مِنَ النَّفَقَاتِ مَالًا جَزِيلًا إِذِ الْحُصُولُ عَلَى مَلِيُونِ رَجُلٍ
 كَأْهُمْ فِي سِنِّ الْعِشْرِينَ لَا يَتَأْتِي إِلَّا مِنْ مَلِيُونٍ وَثَلَاثِمِائَةٍ أَلْفِ
 نَسْمَةٍ ، وَمَتَوَسَّطُ النَّفَقَاتِ لِتَرْبِيَةِ مَلِيُونٍ مِنَ الشُّبَّانِ ثَلَاثَةُ مِليَارَاتٍ
 وَخَمْسَمِائَةِ مَلِيُونٍ . وَعَلَيْهِ فَفَرَنْسَا تَقْتَصِدُ مِثْلَ ذَلِكَ الْمَبْلَغِ بِاسْتِعْمَالِهَا
 الْعُمَالِ الْأَجَانِبِ ، وَهَذَا الْمَالُ يُسَاعِدُ كَثِيرًا عَلَى امْتِدَادِ تَرْوِيَتِهَا الْعَامَّةِ
 وَالْخَاصَّةِ ، وَلَا يَشُكُّ أَحَدٌ فِي أَنَّهُ لَوْ جَاءَنَا مِنَ الْبِلَادِ الْأَجْنِبِيَّةِ مَلِيُونٌ
 مِنَ الثَّيْرَانِ لِنَسُدَّ بِهِ نَقْصَ مَوَاشِينَا لَكَانَتْ فَائِدَتُنَا مِنْهَا مُسَاوِيَةً
 لِمَا صَرَفْتُهُ الْبِلَادُ الَّتِي أَرْسَلْتَهَا إِلَيْنَا فِي تَرْبِيَتِهَا »
 وَلَا نَخَالُ هَذَا الْقَوْلَ صَحِيحًا ؛ اللَّهُمَّ إِلَّا إِذَا كَانَ الرَّجُلُ ثَوْرًا

وَلَسَكَنَهُ لَمَّا كَانَ إِنْسَانًا لَزِمَ عَلَيْهِ أَنْ قَلَّةَ أَبْنَائِنَا وَعَدَمَ تَرْبِيَتِهِمْ كَمَا
يَتَرَبَّى أَبْنَاءُ الْعَائِلَاتِ كَثِيرَةِ الْعَدَدِ وَعَدَمَ تَعَوُّدِهِمْ مِنْ صِغَرِهِمْ
الاعتمادَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ فِي تَحْصِيلِ عَيْشِهِمْ وَإِهْمَالَهُمْ جَانِبَ الْمَهْرِ الَّذِي
يَأْخُذُونَهُ مِنْ آبَائِهِمْ أَوِ الَّذِي تَأْتِيهِمْ بِهِ نِسَاؤُهُمْ وَعَدَمَ اعْتِقَادِهِمْ
بِأَنَّ النِّجَاحَ إِنَّمَا هُوَ لِمَنْ قَوِيَتْ فِيهِ الْقُدْرَةُ عَلَى الْعَمَلِ وَكَانَ ذَا عَزِيمَةٍ
وَإِقْدَامٍ لَا يُودَى إِلَى تَرْبِيَةِ الرَّجَالِ عِنْدَنَا، وَلَزِمَ عَلَيْهِ أَنْ أَبْنَائِنَا
بِتَعَوُّدِهِمْ مَا الْفُوهُ مِنَ التَّرْبِيَةِ الَّتِي تَجْعَلُهُمْ يَعِيشُونَ فِي حُجُورِ
أُمَّهَاتِهِمْ وَيَأْكُلُونَ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْرِفُونَ إِذَا احْتَكُّوا بِأَوْلِيَّكَ
الْأَطْفَالَ الَّذِينَ نَشَأُوا بَيْنَ عَائِلَاتٍ كَثِيرَةٍ الْعَدَدِ، وَتَرَبَّوْا عَلَى نِظَامٍ
شَدِيدٍ مِنْ جِهَةِ الْعَمَلِ وَالْاجْتِهَادِ يُخْسِرُونَ عَلَى الدَّوَامِ وَيَتَقَهَّرُونَ
خَجَلِينَ. أَلَا تَرَى أَنَّ تِجَارَنَا وَمُهَنْدِسِينَا يُفَضِّلُونَ الْعَمَالَ الْأَلْمَانِيِّينَ
أَوِ السُّوَيْسِيِّينَ وَالصَّنَاعَ الْبَلْجِيكِيِّينَ أَوِ التَّلِيَانِيِّينَ عَلَى أُمَّثَلِهِمْ
مِنْ الْفَرَنْسَاوِيِّينَ إِذْ يَجِدُونَهُمْ أَشَدَّ إِطَاعَةً وَأَكْثَرَ عَمَلًا وَأَكْبَرَ
اِقْتِصَادًا وَأَقَلَّ طَمَعًا، وَالْوَاقِعُ أَنَّ أَوْلِيَّكَ الْأَجَانِبَ يَقْتَصِدُونَ مِنْ
أَجُورٍ لَا تَفِي بِحَاجَاتِ الْفَرَنْسَاوِيِّينَ وَلَوْ لَا مَعُونَتُهُمْ لَنَا لَمَا زَادَتْ قِيَمَةُ
مَتَاجِرِنَا الضَّعْفَ وَلَا شَتَدَّ عَجْزُنَا عَنْ مُقَاوَمَةِ الْمُنَافَسَةِ الْأَجْنَبِيَّةِ،
وَالصَّنَاعَ الْأَجَانِبَ هُمْ الَّذِينَ عَلَيْهِمْ مَدَارُ صِنَاعَتِنَا وَزِرَاعَتِنَا بِنَاءِ تَوْهٍ

مِنْ سَلَامَةِ الْعَقْلِ وَقُوَّةِ الْجِسْمِ، غَيْرَ أَنَّهُمْ لَا يُنْقِذُونَنَا مِنْ هَذَا
الْإِنْحِطَاطِ إِلَّا بِأَرْفَعِ الْأَثْمَانِ؛ إِذْ وَجُودُهُمْ يَبْنِيْنَا يُضْعِفُ مِنْ قُوَّةِ
إِرَادَتِنَا وَيَقْلِلُ مِنْ هِمَّتِنَا وَيُنْقِصُ مِنْ انْتِشَارِنَا وَيُثَبِّطُ هِمَّتِنَا فِي
الِاسْتِعْمَارِ وَيَذْهَبُ بِنُفُوزِنَا فِي الْعَالَمِ بَلْ هُوَ يُؤَثِّرُ أَيْضًا فِي جَنَسِيَّتِنَا
لَمَّا يَعْرِوْهَا ^(١) مِنَ التَّغْيِيرِ طَبَعًا لِاخْتِلَاطِهِمْ بِنَا.

الفصل الثاني

﴿ فِي أَنَّ طَرِيقَةَ التَّرْبِيَةِ عِنْدَنَا مُضِرَّةٌ بِثَرْوَةِ الْأُمَّةِ الْفَرَنْسَاوِيَّةِ ﴾

يَقُولُ النَّاسُ فِي كُلِّ مَكَانٍ: إِنَّ هَذَا الْجِيلَ ^(٢) جِيلُ الْمَالِ، وَمِنْهُمْ
مَنْ يَفْرَحُ بِذَلِكَ وَمِنْهُمْ مَنْ يَحْزَنُ لَهُ، وَالْوَاقِعُ أَنَّ الْأَعْمَالَ الْمَالِيَّةَ
وَصَلَتْ فِي زَمَنِنَا هَذَا إِلَى حَدٍّ لَا يَكَادُ الْعَقْلُ يَتَصَوَّرُهُ؛ وَلَيْسَ هَذَا
أَمْرًا غَرِيبًا إِذْ لَيْسَ شَيْءٌ فِي الْوُجُودِ مُسَبَّبًا عَنِ الْمَصَادِفَةِ بَلْ سَبَبُهُ
اِكْتِشَافُ مَنَاجِمِ الْفَحْمِ فَهُوَ الَّذِي أَوْجَدَ فِي الْمَالِ تِلْكَ الْقُوَّةَ
الْعَظِيمَةَ الَّتِي امْتَازَ بِهَا فِي زَمَنِنَا هَذَا. فَبِوَسِطَةِ الْفَحْمِ تَمَكَّنَتْ
الْأُمَّمُ مِنْ إِجْرَاءِ أَعْمَالٍ كَثِيرَةٍ تَقْتَضِي مِنَ الْمَالِ مَا يَفُوقُ ثَرْوَةَ
أَغْنَى الْعَائِلَاتِ مِمَّا لَا يُمْكِنُ الْقِيَامُ بِهِ لِغَيْرِ الشَّرَكَاتِ. وَأَوَّلُ تِلْكَ

(١) بصيها (٢) الجيل: الصنف من الناس وامله يقصد أناس هذا العصر

الأعمال هُوَ اسْتِغْلَالُ الْمَنَاجِمِ عَيْنِهَا لِأَنَّ الْفَحْمَ لَا يُوجَدُ فِي الْأَرْضِ
مَحْتَلِطًا بِغَيْرِهِ كَمَا تُوجَدُ الْمَعَادِنُ الْأُخْرَى ، بَلْ هُوَ طَبَقَاتٌ مُتَكَاثِفَةٌ
بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ لَا تَكَادُ تَنْتَهِي ، وَلِهَذَا فَإِنَّهُ يَقْتَضِي فِي اسْتِخْرَاجِهِ
عُمَالًا كَثِيرِينَ وَعَمَلًا عَظِيمًا . ثُمَّ الْإِكْثَارُ مِنَ الْاسْتِغْلَالِ فِي الْمَنَاجِمِ
ذُو فَايِدَةٍ عَظِيمَةٍ لِأَنَّ الْفَحْمَ لِأَزْمٍ فِي كَثِيرٍ مِنَ الصَّنَاعَاتِ فَبَيْعُهُ سَهْلٌ
وَمَأْمُونٌ ، وَمِثْلُ هَذَا الْعَمَلِ الْعَظِيمِ يَقْتَضِي مِنَ النِّفَقَاتِ مَا لَا يُمَكِّنُ
جَمْعُهُ إِلَّا بِوَسِطَةِ الشَّرَكَاتِ . وَلَمْ تَنْتَصِرْ مَنَفَعَةُ الْفَحْمِ عَلَى كَوْنِهِ
صَارَ مَحَلًّا لِتِجَارَةٍ كَبِيرَةٍ مِنْ حَيْثُ هُوَ ؛ بَلْ إِنَّهُ غَيْرَ حَالَةِ الصَّنَاعَةِ تَغْيِيرًا
كُلِّيًّا ، فِيهِ أَصْبَحَ الْمَصْنَعُ الصَّغِيرُ مَعْمَلًا كَبِيرًا لِأَنَّ قُوَّتَهُ عَظِيمَةٌ
يَحْصُلُ الْإِنْسَانُ بِوَسِطَتِهَا عَلَى أَعْوَافٍ مَا كَانَ يَعْمَلُهُ بِدُونِهَا ، وَزِيَادَةُ
الْإِنْتِاجِ تَسْتَدْعِي زِيَادَةَ الْعُمَالِ . ثُمَّ إِنْ أَكْثَرَ الْمَصْنُوعَاتِ
تَسْتَلْزِمُ مَا لَا كَثِيرًا لَا يَتَأْتَى جَمْعُهُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْوَالِ إِلَّا
بِوَسِطَةِ الشَّرَكَاتِ .

وَمِنْ فَوَائِدِهِ أَيْضًا تَغْيِيرُ طُرُقِ النَّقْلِ وَالتَّسْفِيرِ فِيهِ امْتَدَّتْ
السُّكَّاتُ الْحَدِيدِيَّةُ وَجَرَتْ سَفُنُ التِّجَارَةِ فِي عُرْضِ الْبَحَارِ ، وَهَذِهِ
الْأَعْمَالُ أَيْضًا تَطْلُبُ مِنَ الْأَمْوَالِ مَا لَا بُدَّ فِي جَمْعِهِ مِنَ الشَّرَكَاتِ ،
وَالْفَحْمُ هُوَ السَّبَبُ فِي تَأْلِيفِ شَرَكَاتِ الْمُسَاهَمَةِ الْكَبِيرَةِ الَّتِي
تَشْتَغَلُ بِإِنَارَةِ الْمُدُنِ بِالْغَازِ وَاسْتِعْمَالِ الْكَبْرُ بَاءً وَفَتْحَ قَنَاةِ السُّوَيْسِ

وغير ذلك، وهو الذي حمل الدول على إجراء الأعمال العظيمة ذات المنفعة العامة. وكما زادت قوة الفحم عظم اتساع تلك الأعمال حتى أصبحت أموال الخزان لا تنفي بالمطلوب وعمدت الحكومات إلى الاقتراض، فتألف لإقراضها شركات أكبر من التي سبق القول عنها.

هكذا عظم سلطان المال إلى حد لم يكن في الحسبان، حتى أصبح ذا ثمره ذاتية أي من دون أن يأتي صاحبه عملاً من الأعمال. وتغير الاستثناء إلى قاعدة كلية، فبعد أن كان الغني هو الذي له رأس مال يأتيه الربح اشترك معه في ذلك الحقيق الذي يقتصد المال اليسير بالكثرة الكثير. ومن تأمل هذا التغيير الذي أحدثه الفحم وحده علم أنه تغيير لازم جاء من طبيعة الحال. ومقتضى الحال أشد قوة من همم الرجال، ومن طلب مقاومة هذا التيار فقد ضلّ رُشده إذ لا بد له من الخذلان.

وليسَت الأسباب التي جعلت الناس يتهافون على اقتناء السندات المالية إلا أسباباً جوهرية جاءت من مقتضى الأحوال التي ذكرناها: فأول مزية في تلك السندات سهولة حيازتها وهي سهولة الحيازة لكونها تنجزاً إلى ما لا نهاية له، وقابليتها للتجزؤ وتسهل لأحقر الناس اكتسابها، وربحها لا يقتضي كلفة ولا عناء. فكل الناس

مِنْ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ يَمِيلُ إِلَيْهَا ، ثُمَّ الرَّبْحُ الَّذِي يَأْتِي مِنْهَا يَأْتِي بِانْتِظَامٍ فِي أَوْقَاتٍ مُتَّحِرَةٍ ، وَذَلِكَ لَا يَتَأْتِي لِمَنْ يُزاولُ الزَّرَاعَةَ مَثَلًا أَوْ الصَّنَاعَةَ أَوْ التِّجَارَةَ . وَظَاهِرٌ أَنَّهُ لَا مَوْجِبَ لِلنَّاسِ يَدْعُوهُ إِلَى تَرْكِ هَذِهِ الْمَزَايَا .

وَتَائِيهَا — لِلْمَلِكِ السَّنَدَاتِ أَمَلٌ فِي زِيَادَةِ قِيمَتِهَا ، أَوْ تَسَدِيدِ مَا عَلَيْهِ مِنْهَا بِطَرُقٍ مُفِيدَةٍ أَوْ فِي نَيْلِ رِبْحٍ كَبِيرٍ ، وَمَنْ أَصَابَهُ حَظٌّ مِمَّا ذُكِرَ فَقَدْ اغْتَنَى وَهُوَ نَائِمٌ ، وَالكَثِيرُ يَعْتَمِدُ عَلَى مَا يَرْجُو كَسْبَهُ مِنْ هَذَا السَّبِيلِ ، فَأَصْحَابُ السَّنَدَاتِ وَالْأَسْهُمِ الَّذِينَ حَصَلُوا ثَرْوَةً طَائِلَةً كَثِيرُونَ ، وَمِمَّنْ أَحَدٌ إِلَّا وَيَغْبِطُ مُسَاهِمِي شَرِكَةِ « إِنْزَان » الَّتِي اشْتَهَرَتْ بِوَفْرَةِ أَرْبَاحِهَا وَمُسَاهِمِي شَرِكَةِ قَنَاةِ السُّوَيْسِ وَشَرِكَةِ الْغَازِ فِي بَارِيسَ وَغَيْرِهَا ، فَقَدَأْتِ تِلْكَ الشَّرَكَاتُ وَأَمْثَالُهَا بِالْأَرْبَاحِ الَّتِي لَا تُعَدُّ فِي زَمَنِ يَسِيرٍ لِأَنَّهَا تَكُونَتْ فِي زَمَنِ كَثُرَتْ فِيهِ حَاجَةُ النَّاسِ إِلَيْهَا وَقَلَّ الْمُتَنَافِسُونَ مَعَهَا وَأَقْبَلَ النَّاسُ عَلَيْهَا وَلَا يَزَالُونَ مُقْبِلِينَ إِقْبَالَ الظَّمْآنِ عَلَى الْمَاءِ . نَعَمْ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَخْسِرُونَ فِيهَا إِلَّا أَنْ الْخَسَارَةَ غَيْرُ ظَاهِرَةٍ بِجَانِبِ الْكَسْبِ الْوَفِيرِ .

وَتَائِيهَا — سُهولةُ شِرَاءِ هَذِهِ السَّنَدَاتِ فِي الْأَسْوَاقِ الْمَالِيَّةِ « الْبُورْصَةِ » وَبَيْعِهَا وَمَا يَتَخَلَّلُ ذَلِكَ فِي كُلِّ وَقْتٍ مِنْ هُبُوطِ الْأَسْعارِ وَارْتِفَاعِهَا يَحْمِلُ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَلَى الْإِسْتِغَالِ بِهَا رَجَاءَ الرَّبْحِ

فِي الْمُضَارَبَاتِ فَضْلًا عَمَّا يَجِدُونَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ اكْتِفَاءِ الْعَنَاءِ^(١) فِي حِفْظِ
أَمْرِ الْهَيْمِ وَالزِّيَادَةِ فِيهَا إِلَى الْحَدِّ الْأَقْصَى .

هَذِهِ هِيَ الْأَسْبَابُ الَّتِي تَدْعُو إِلَى اقْتِنَاءِ الْأُورَاقِ الْمَالِيَّةِ بِوَجْهِ
الْإِجْمَالِ ، وَهِيَ حَرَكَةٌ أَوْجَبَتْ تَغْيِيرًا دَخْلِيًّا فِي الْأَفْكَارِ مِنْ جِهَةِ
الْعَمَلِ ، وَرَفَعَتْ شَأْنَ النُّقُودِ إِلَى الْمَقَامِ الْأَعْلَى ، وَفَتَحَتْ أَمَامَ كُلِّ
طَالِبٍ بَابًا لِلْكَسْبِ فَسِيحًا ، وَارْتَمَتْ بِالْمَالِيِّينَ إِلَى ذِرْوَةِ الْهَيْمَةِ
الْإِجْتِمَاعِيَّةِ ، فَأَصْبَحُوا مُلُوكَ الْعَصْرِ وَقِيَاصِرَةَ الزَّمَانِ .

غَيْرَ أَنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ فِي الْوُجُودِ ضِدًّا ، وَالذَّهْرُ قَلْبٌ ! وَهُنَا يَصْدُقُ
تَشْبِيهُهُ السَّعْدِ بِعَجَلَةٍ تَدُورُ فَمَا أَكْثَرَ تَمَلُّبَاتِ الثَّرْوَةِ الْمُنْمُولَةِ لِأَهْلِهَا
عَلَى الدَّوَامِ تَحْتَ رَحْمَةٍ تَغْيِيرِ الْأَسْوَاقِ عَلَى الدَّوَامِ ، تَحْتَ رَحْمَةِ
السِّيَاسَةِ وَالْمُضَارَبَاتِ ، وَلَسْنَا فِي حَاجَةٍ إِلَى سَرْدِ مَا تُحَدِّثُهُ الْأَسْوَاقُ
الْمَالِيَّةُ كُلَّ يَوْمٍ مِنَ التَّخْرِيْبِ وَالتَّدْمِيرِ لِأَنَّ عِلْمَهُ حَاصِلٌ لِكُلِّ
وَاحِدٍ مِنَّا ، وَإِنَّمَا الَّذِي نُرِيدُ تَوْجِيهَ الْأَفْكَارِ إِلَيْهِ هُوَ أَنَّ الْخُسَارَةَ
الْمَالِيَّةَ قَدْ تَشْتَدُّ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ فَتُصِيبُ أَنْاسًا كَثِيرِينَ حَتَّى تَكُونَ
طَامَةً^(٢) كَبْرَى ، وَتُشْبَهُ الْبِنَاءَ إِذَا تَدَاعَى^(٣) . هُنَالِكَ يَصِيحُ الْقَوْمُ
بِأَصْوَاتِ الْفَزَعِ ، وَيَنْطِقُ كُلُّ وَاحِدٍ بِمَا تُثْمَلِيهِ عَلَيْهِ مَنَافِعُهُ ،
فَيَسَابِقُونَ فِي تَعْنِيفِ الْمَالِيِّينَ وَرَمِيهِمْ بِمَرِّ الْمَلَامِ وَسَمِّ الْكَلَامِ ،

(١) المشقة (٢) الطامة : الداعية تغلب ما سواها (٣) أراد أن ينقض وبسقط

وَقَدْ يَكُونُ اللَّامِمُ نَفْسَهُ مُسْتَحِقًّا لِلزَّجْرِ وَالتَّعْنِيفِ ، وَمِنْ الغَرِيبِ أَنَّ
 كُلَّ مُسَاهِمٍ يَسْتَعِدُّ لِاقْتِضَاءِ^(١) الأَرْبَاحِ ، وَلاَ كُنْهَ يَكْرَهُ تَحْمَلَ
 الخَسَارَةَ ، وَالوَاقِعُ أَنَّ كِلَيْهِمَا نَتِيجَةٌ لِأَزْمَةٍ لِطَبِيعَةِ العَمَلِ الوَاحِدِ :
 فَالْأَوْرَاقُ المَالِيَّةُ تُرْبِحُ وَتَخْسِرُ أَيُّ ثَمَرِ التَّقَلُّبِ كَمَا يُثْمَرُ الكَرْمُ عِنْبًا
 وَشَجَرَةَ التُّفَاحِ تُفَاحًا ، وَالَّذِي يَجِبُ الإِهْتِمَامُ بِهِ وَالبَحْثُ عَنْهُ هُوَ
 مَعْرِفَةُ مَا إِذَا كَانَ فِي الإِمْكَانِ تَلَافِي الضَّرَرَ الَّذِي يَنْجُمُ عَنْ
 تَقَلُّبِ الأَسْوَاقِ المَالِيَّةِ وَالتَّقَادِي مِنْ سُلْطَةِ المَالِيينَ . وَمِنْ المُشَاهِدِ
 أَنَّ ذَلِكَ فِي الإِمْكَانِ بَلْ إِنَّ بَعْضَ الأُمَمِ قَدْ اتَّخَذَتْ مِنَ الوَسَائِلِ
 مَا اتَّقَتْ بِهِ تِلْكَ المِحْنَ .

وَبَيَانُهُ أَنَّ انْتِشَارَ الأَوْرَاقِ المَالِيَّةِ لَمْ يُؤَثِّرْ فِي جَمِيعِ البُلْدَانِ
 بِدَرَجَةٍ وَاحِدَةٍ ، إِذْ مِنْ المُشَاهِدِ أَنَّ البِلَادَ الَّتِي أَصَابَهَا الضَّرُّ لَيْسَتْ هِيَ
 الَّتِي كَثُرَ فِيهَا الأَخْذُ وَالعَطَاءُ بِتِلْكَ الأَوْرَاقِ ، وَمِنْ البِلَادِ مَا تَحْمَلُ
 مِنْ المُضَارِبَاتِ مَا لَوْ حَصَلَ فِي غَيْرِهَا لِأَضْرَبِهَا كَثِيرًا ، وَيُمْكِنُنَا
 أَنْ نُشَبِّهَ الحَالَةَ المَالِيَّةَ بِكَرْمِ العِنْبِ وَهُوَ يُقَاوِمُ فِعْلَ الدُّودَةِ فِي
 أَمْرِيكَأ كَثَرَمْنُهُ فِي فَرَنْسَا .

وَلَوْ أَحْصَيْنَا الكُتُبَ وَالرَّسَائِلَ الَّتِي نُشِرَتْ حَدِيثًا فِي البِلَادِ
 الفَرَنْسَاوِيَّةِ لِتَنْبِيهِ الأُمَّةِ إِلَى مَا هُوَ مُحْدِقٌ بِهَا مِنَ الأَخْطَارِ بِفِعْلِ

اليهود وتأثير المضاربات لملاّت خزائن بتامهما ، إلا أن العقل ليس هو الذي أملى تلك المؤلفات كما أن التوادة لم تُرافق الكتاب في تأليفها ، وإنما الداعى إليها هو الشهوة والهوى وقد تخطى أكثرها الحد الذي ينبغي وتلك أفسد الوسائل في الوصول إلى الغرض المطلوب . ثم إن الذين كتبوا كلهم لم ينظروا إلا إلى ظاهر المسألة فجاءت أدويتهم التي أشاروا بها غير مفيدة أو متعذرة الاستعمال ، ومع هذا فإن تلك القيامة تدل على أمر صحيح لا شك فيه وهو الحرج^(١) الذي استولى على الأمة الفرنساوية في هذه الأيام .

وليس منشا هذا الضيق أن الفرنسيين تهافتوا^(٢) على استعمال الأوراق المالية أكثر من غيرهم ؛ إذ الحال واحد في إنكلترا والبلاد الإسكندنافية ، وألمانيا ، والولايات المتحدة ، وإنما السبب اختلاف طرق الاستعمال :

فأما الأمم التي تمكنت من مفاداة^(٣) الضرر الذي ينجم عادة من الاستعمال بالأوراق المالية فإنها اتخذت سبيلا واحدا ، ذلك أنهم لم يضعوا جميع أموالهم في تلك الأوراق بل فرقوا بين رأس المال وما اقتصدوه من غلته^(٤) واشتغلوا في الأوراق بالثاني دون الأول . أما الفرنسيون فقد فرطوا في الكل وأسأموا إلى الأسواق المالية

(١) الشدة والضيق (٢) اقبلوا (٣) انقاه (٤) ثمرته

أصل الثروة وما اقتصدوه، وهذا هو السبب في قوتهم عادة: إن فرنسا هي البلد الذي كثرت فيه وفرة المال وهو قول صحيح لميل الفرنساوي إلى جعل ثروته كلها منقولة، والكثير منهم يود أن لو جمع ثروته كلها في دفتر جيبه^(١)

وهذا هو السبب أيضا في أن أغلب القروض التي تحصل يقع الإكتتاب فيها بفرنسا فهي أكبر سوق للأموال وهي أحسن بلد يستفيد منه المالى لو كان من الماهرين. وترى اليوم الأموال الفرنساوية تجرى إلى الخارج في جداول^(٢) مختلفة ولكنها لا ترجع إليها إلا قليلا؛ فكم ضاعت النقود الفرنساوية في تركيا و«هوندوراس» و«فنزويلا» ومعادن بلاد الأندلس وجنهورية «أرجنتين» و«البيرو» وغيرها. والمال الفرنساوي هو الذي كان له الحظ الأوفر في ذنبك العاملين العظيمين الذين لا نظير لهما في زمننا هذا. أريد فتحة قناة السويس وخليج بناما لكن كونهما فتحًا بمال الفرنساويين لا يستلزم بقاءهما في حيازتهم!!! فأما قناة السويس فقد صارت ملكا للإنكتر، ومن المحتمل جدا أن يصير بناما ملكا للأمرىكان، ومعناه استيلاء العنصر الإنكليزي السكسوني.

(١) الجيب من القميص طوقه ويراد به هنا ذلك الكيس الذى يخاط فى جانب الثوب من الداخل ويجعل فى من الخارج وهو استعمال غير فصيح (٢) الجدول فى الأصل النهير ويراد هنا: فى طرق مختلفة

عَلَى كُلِّ شَيْءٍ . فَأَلْفَرَنْسَاوِيُّونَ يَزْرَعُونَ وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْأُمَّمِ يَخْصِدُونَ
وَالْفَرَنْسَاوِيُّونَ يَتَعَرَّضُونَ إِلَى الْأَخْطَارِ حَتَّى إِذَا وَجَبَتِ الْفَائِدَةُ
جَنَاهَا غَيْرُهُمْ وَهُمْ إِلَيْهِ يَنْظُرُونَ .

تَبَّتْ إِذْنًا أَنْ فَرَنْسَاهِيَ الْبَلَدُ الَّذِي صَارَتْ الثَّرْوَةُ فِيهِ مَنقُولَةً
أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهَا

وَالسَّبَبُ فِي هَذَا إِهْمَالُ الْفَرَنْسَاوِيِّينَ عَلَى تَمَادِي الْأَيَّامِ مَنَابِعِ
الثَّرْوَةِ الْعُمُومِيَّةِ الثَّلَاثَةِ : وَهِيَ الزَّرَاعَةُ وَالصَّنَاعَةُ وَالتَّجَارَةُ . وَلَسْنَا
فِي حَاجَةٍ إِلَى إِعَادَةِ مَا سَطَّرَهُ الْغَيْرُ مِنْ إِضْرَارِ مُلُوكِنَا وَخُصُوصًا
لِوَيْزِ الرَّابِعِ عَشَرَ عَلَى حَمْلِ الشَّرْفَاءِ عَلَى تَرْكِ أَرْضِيهِمْ وَجَلْبِهِمْ إِلَى
دَائِرَةِ الْحَشْمِ وَالْمَعِيَّةِ وَأَنَّ الطَّبَقَةَ الْعُلْيَا تَنَاسَتِ شَيْئًا فَشَيْئًا سَكَنَى
الْأَرْيَافِ وَأَعْمَالَ الْفِلَاحَةِ وَاخْتَارَتْ الْإِقَامَةَ فِي الْمُدُنِ الْكَبِيرَةِ ،
وَصَارَتْ فَرَنْسَا الْيَوْمَ هِيَ الْبَلَدُ الَّذِي تَطُولُ فِيهِ غَيْبَةُ كِبَارِ الْأَغْنِيَاءِ
عَنْ أَمْلَاكِهِمْ وَتَحَوُّلُهُمْ عَنِ الْإِسْتِعْمَالِ بِاسْتِعْلَالِ أَرْضِيهِمْ ، وَأَصْبَحَتْ
الْأَمْوَالُ الَّتِي كَانَتْ يَنْبَغِي اسْتِعْمَالُهَا فِي الزَّرَاعَةِ وَتَحْسِينِ طُرُقِهَا
مُعْطَلَةً لَا تَقْمِدُ الزَّرَاعَةَ ، وَكَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ اسْتِعْمَالِهَا فِي الصَّنَاعَةِ أَوْ
التَّجَارَةِ إِلَّا أَنَّهُمَا مُعْتَبَرَانِ عِنْدَ كُلِّ مُلْتَصِقٍ بِتِلْكَ الطَّبَقَةِ مِنَ
الْأَعْمَالِ الدَّيْنِيَّةِ جَرِيًّا عَلَى ذَلِكَ الْوَهْمِ الْمُتَّصِلِ فِي الْأَفْكَارِ مِنْ
قَدِيمٍ حَتَّى إِنَّ الْمُشْتَغِلِينَ بِهِمَا لَا يُفَكِّرُونَ إِلَّا فِي الْكَسْبِ بِأَسْرَعِ

مَا يُمَكِّنُ وَلَا غَرَضَ لَهُمْ مِنْ جَمْعِ الْأَمْوَالِ الطَّائِلَةِ إِلَّا التَّقَاعُدُ
عَنْ صِنَاعَتِهِمْ أَوْ تِجَارَتِهِمْ وَإِدْخَالَ أِبْنَائِهِمْ فِي الْمِهَنِ الَّتِي تَطَلَّعَتْ إِلَيْهَا
الطَّبَقَةُ الَّتِي انْفَقُوا الْيَوْمَ عَلَى تَسْمِيَتِهَا بِالْعُلَمَاءِ وَهِيَ الْوُظَائِفُ الْإِدَارِيَّةُ.
فَمُنْتَهَى أَمَلِ كُلِّ فَرَنْسَاوِيٍّ أَنْ يَلْتَحِقَ بِوِظِيفَةٍ فِي الْإِدَارَةِ أَوْ الْجَيْشِ!
وَهِيَ الطَّرِيقَةُ الَّتِي يَكُونُ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ بِهَا مُكْرَمًا مُحْتَرَمًا، وَهِيَ الَّتِي
تُوَهِّئُهُ لِأَنْ يَتَزَوَّجَ بِامْرَأَةٍ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ، وَتَجْعَلُهُ مَقْبُولًا بَيْنَ الْقَوْمِ
الْمُتَمَازِينَ. إِذَنْ فَالْفَرَنْسَاوِيُّ إِمَّا مُوْظَفٌ وَإِمَّا مَرْشِحٌ^(١) لِلتَّوْظُفِ وَلَهُ
مِنْ ذَلِكَ رَاتِبٌ يُقْبِضُهُ وَهُوَ يَقْتَصِدُ مِنْ رَاتِبِهِ مَا زَادَ عَلَى حَاجَتِهِ؛ وَلَا
شَكَّ أَنَّهُ لَا يَمِيلُ إِلَى اسْتِعْمَالِ مَا اقْتَصَدَ فِي الزَّرَاعَةِ أَوْ الصَّنَاعَةِ
أَوْ التِّجَارَةِ لِلسَّبَبِ الَّتِي قَدَّمَ نَاهَا وَهِيَ الْحَطُّ مِنْ قَدْرِهِ؛ عَلَى أَنَّهُ
يَجْهَلُ سَبَبِيَّهَا بِالْمَرْءِ. وَعَلَيْهِ فَلَمْ يَبْقَ لِاسْتِغْلَالِ ذَلِكَ الْمَالِ إِلَّا شِرَاءُ
الْأُورَاقِ الْمَالِيَّةِ فَهُوَ الْبَابُ الْوَحِيدُ الَّذِي يُمَكِّنُ الدُّخُولَ مِنْهُ وَإِلَيْهِ
يَمِيلُ كُلُّ ذِي مَالٍ لَا يُرِيدُ أَنْ يَشْتَغَلَ لِاسْتِغْلَالِهِ وَإِنَّمَا هُوَ أَوْ غَيْرُ
قَادِرٍ عَلَى ذَلِكَ، وَهُنَاكَ سَبَبٌ آخَرٌ فِي كَثْرَةِ النُّقُودِ الْمُتَوَفَّرَةِ لَدَى
الْعَائِلَاتِ الْفَرَنْسَاوِيَّةِ وَهُوَ قَلَّةُ الْأَبْنَاءِ كَمَا قُلْنَا، فَالْمَالُ الَّذِي تُنْفِقُهُ
الْأُمَّمُ الْآخَرَى فِي تَرْبِيَةِ أِبْنَائِهَا الْكَثِيرِينَ يَقْتَصِدُهُ الْفَرَنْسَاوِيُّونَ
وَيَبْقَى هَكَذَا تَحْتَ طَابِ الشَّرَكَاتِ الْمَالِيَّةِ، فَإِصْرَارُهُمْ عَلَى تَقْلِيلِ

النَّسْلِ يُوجِبُ ضَعْفَ قُوَّتِهِمُ الْاجْتِمَاعِيَّةَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ ، وَلَكِنَّهُ
يَدْعُو إِلَى زِيَادَةِ الْأَمْوَالِ حَالًا فِي خَزَائِنِهِمْ ، وَلَا شَكَّ فِي أَنَّهُ لَوْ
حَصَلَ هُبُوطٌ فِي أَسْعَارِ تِلْكَ الْأُورَاقِ الْمَالِيَّةِ الَّتِي جَمَعَتِ أَمْوَالَ
الْكَثِيرِ مِنَ الْفَرَنْسَاوِيِّينَ كَالهَا لَسَكَتَ مُصِيبَةٌ كُبْرَى وَلَخَسِرُوا
خَسَارَةً لَا عِوَضَ لَهَا .

وَلَيْسَ هَذَا حَالَ الْأُمَّمِ الْإِنْكِلِيزِيَّةِ السَّكْسُونِيَّةِ فَلَا يَزَالُ
كُبْرًا وَهَهَا وَعَامَّتُهَا مُشْتَغَلِينَ بِالزَّرْعَةِ ، وَلِلْوَرْدَاتِ الْإِنْكِلِيزِ أَمْلَاكٌ
وَإِسْعَةٌ يَسْكُنُونَ بَيْنَهَا وَهُمْ يُدَبِّرُونَهَا بِأَنْفُسِهِمْ . وَمَنْ عَمَدَ إِلَى
الِاسْتِعَانَةِ بِالْغَيْرِ فِي اسْتِغْلَالِ أَرْضِيهِ فَإِنَّهُ يَحْفَظُ عَلَى الدَّوَامِ قِسْمًا
يُبَاشِرُهُ بِنَفْسِهِ ، وَمَنْ أَجَلَ ذَلِكَ تَرَاهُمْ وَاقِفِينَ عَلَى أَحْوَالِ الزَّرْعَةِ
وَمُهْتَمِينَ بِشُؤْنِهَا وَمُسْتَعِدِّينَ لِاسْتِعْمَالِ أَمْوَالِهِمْ فِيهَا ، وَلَا يَكَادُ
الْفَرَنْسَاوِيُّ يَقْدِرُ الْمَالَ الَّذِي يُنْفِقُهُ أَحَدُ أَغْنِيَاءِ الْإِنْكِلِيزِ فِي تَحْسِينِ
طُرُقِهَا وَالتَّفْنُنِ فِي آسَالِيهَا « رَاجِعْ كِتَابَ تَدْبِيرِ الزَّرْعَةِ عِنْدَ
الْإِنْكِلِيزِ لِمُوسِيُو لَفَارْجِ » ، وَاسْتِعْمَالِ الْأَمْوَالِ فِي الزَّرْعَةِ هُوَ أَكْبَرُ
بَاعِثٍ عَلَى اعْتِبَارِ (١) ذَوِي الْحَيْثِيَّاتِ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ « رَاجِعْ مُذْ كَرَاتٍ
عَلَى إِنْكَلْتَرَا لِمُوسِيُو تَاينِ » . وَمِنَ الْإِنْكِلِيزِ عَائِلَاتٌ كَثِيرَةٌ تُهَاجِرُ
إِلَى أَمْرِيكَا وَأَوْسْتْرَالِيَا وَزِيلَنْدَةَ الْجَدِيدَةِ وَكُلَّهَا تَشْتَغِلُ بِالزَّرْعَةِ ،

وَلَهَا أَمْلاكَ كَبِيرَةٌ فِيهَا لِأَنَّ الزَّرْعَةَ وَحِيَازَةَ الْأَرَاضِي هُمَا أَقْصَى
أَمَانِيهَا، وَبِذَلِكَ سَهْلٌ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ شُبَّانِ الْإِنْكَلِيزِ أَنْ يَرْتَزِقُوا
فِي الْبِلَادِ الْأَجْنَبِيَّةِ. وَمَتَى اتَّجَهْتَ الْهَمَمُ إِلَى هَذَا السَّبِيلِ لَمْ يَبْقَ إِلَّا
يَسِيرٌ مِنَ الْمَالِ لِشِرَاءِ الْأَوْرَاقِ الْمَالِيَّةِ.

وَعَلَى الضَّدِّ مِنْهُمْ لَا يَهَاجِرُ مِنَ الْفَرَنْسَاوِيِّينَ إِلَّا النَّزْرُ الْقَلِيلُ، وَمَنْ
تَكَلَّفَ الرَّحِيلَ عَنْ وَطَنِهِ فَإِنَّمَا يَقْصِدُ بِرِحْلَتِهِ أَنْ يَكُونَ مُوَظَّفًا
فِي الْبِلَادِ الَّتِي يَقْصِدُهَا إِلَّا نَادِرًا، وَهُمْ بِذَلِكَ يَعُوقُونَ تَقَدُّمَ الْإِسْتِعْمَارِ
أَكْثَرَ مِمَّا يُسَاعِدُونَ عَلَيْهِ.

هَذَا وَلَمْ يَقْتَصِرِ الْإِنْكَلِيزِيُّ السَّكْسُونِيُّ عَلَى الزَّرْعَةِ بَلْ هُوَ
يَهْتَمُّ أَيْضًا بِالصَّنَاعَةِ وَالتَّجَارَةِ حَتَّى الْكِبَرَاءُ مِنْهُمْ وَالْأَمْرَاءُ وَابْنَاءُ
اللُّورْدَاتِ الَّذِينَ يَذْهَبُونَ لِغَيْرِ بِلَدِهِمْ طَلَبًا لِحِيَازَةِ الْأَرَاضِي
وَزَرَعِهَا يُنْشِئُونَ فِي وَطَنِهِمْ مَعَامِلَ لِلصَّنَاعَةِ أَوْ يَتَّجِرُونَ، وَلَا يَخْطُرُ
بِبَالِهِمْ فِيمَا يَعْمَلُونَ أَنَّهُمْ خَرَجُوا عَنْ تَقَالِيدِ آبَائِهِمْ، كَمَا أَنَّ هَذَا
الْخَطَرُ لَا يَجُولُ بِفِكْرٍ أَحَدٍ مِنْ أُمَّتِهِمْ. وَهَذَا هُوَ السَّبَبُ الْوَحِيدُ
فِي اتِّسَاعِ نِطَاقِ الصَّنَاعَةِ وَالتَّجَارَةِ فِي إِنْكَلِتْرَا وَالْوَلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ
بِدَرَجَةٍ تَكَادُ تَبْلُغُ حَدَّ الْأَعْجَازِ. وَمَعْلُومٌ أَنَّ ذَلِكَ يَقْتَضِي مَالًا
كَثِيرًا فَلَمْ يَبْقَ لِلْأَوْرَاقِ الْمَالِيَّةِ إِلَّا يَسِيرٌ.

وَمِمَّا يَزِيدُ أَوْلِيَاكَ الْقَوْمَ رَغْبَةً فِي الزَّرْعَةِ وَالصَّنَاعَةِ وَالتَّجَارَةِ

عَدَمُ اَعْتِبَارِ الوَظَائِفِ عِنْدَهُمْ كَمَا هِيَ عِنْدَ الفَرَنْسَاوِيِّينَ ، فَلَا نَرَى فِي اِنْكَلْتِرَا مِثْلًا مِنَ المُوَظَّفِينَ اِلَّا مَا لَبَدَّ مِنْهُ وَمِنْ هُنَا طَلَبَ النَّاسُ رِزْقَهُمْ مِنَ الحِرْفِ النَّافِعَةِ الاُخْرَى وَهُمْ فِي مَا مَنَّ مِنَ المَخَافِ لِمَا هُوَ مُقَرَّرٌ فِي شَرَائِعِهِمْ مِنْ اَنْ تَرَكَهَ الرَّجُلُ لَا تُقَسَّمُ بَيْنَ جَمِيعِ وِرَثَتِهِ ؛ فَالرَّجُلُ يَعْمَلُ وَيَجْمَعُ اَلْاَمْوَالَ وَلَهُ اَلْخِيَارُ فِي تَأْسِيسِ اَلْاَعْمَالِ البَاقِيَةِ عَلَى الدَّوَامِ بَعْدَ مَمَاتِهِ .

وَمِنَ المُسَلِّمِ اَنَّ الَّذِي يَجْعَلُ مَدَارَ ثَرَوَتِهِ عَمَلَهُ الذَّاتِيَّ وَكَسْبَهُ الشَّخْصِيَّ لَا يَكُونُ عُرْضَةً لِلاَخْطَارِ كَالَّذِي يَتَّكِلُ عَلَى تَقَلُّبَاتِ اَلْاَوْزَاقِ المَالِيَّةِ لِاَنَّ اَلْاَوَّلَ لَا يَشْتَرِي تِلْكَ اَلْاَوْزَاقَ اِلَّا مِنْ فَضْلَةِ مَالِهِ وَيَشْتَرِيهَا وَهُوَ غَيْرُ جَازِمٍ بِاَلْكَسْبِ كَمَنْ يَدْخُلُ بَيْتَ القِمَارِ فَيَرْمِي فِيهِ بَبَعْضِ دُرِيَهَمَاتٍ مِنْ نَفَقَةِ نِزْهَتِهِ فَاِنْ اَصَابَ رَجُلًا فِيهَا وَاِنْ اَضَاعَ مَا اَنْفَقَ فَالضَّرْرُ مُحْتَمَلٌ وَرَأْسُ المَالِ مَحْفُوظٌ مَصُونٌ .

اَلْفَ مُوسِيُو « رُوْزِيَه » كِتَابًا سَمَّاهُ « عَيْشَةُ اَلْاَمْرِيكَانِ » تَلَدُ قِرَاءَتُهُ خُصُوصًا الفِصْلَ الثَّلَاثَ عَشَرَ الَّذِي عُنْوَانُهُ « كَيْفَ يَسْتَعِلُّ اَلْاَمْرِيكِيُّ مَالَهُ » فَقَدَّ وَرَدَ فِيهِ مَا يَأْتِي : « رَأَيْتُ فِي نِيُو يُوْرِكْ وَفِي بُوْصْتِنُ رِجَالًا يَشْتَغِلُونَ فِي الحِرْفِ اَلْاَدْبِيَّةِ وَمَعَ ذَلِكَ يَضَعُونَ فِي الزَّرَاعَةِ اَوْ غَيْرِهَا قِسْمًا مِنْ اَمْوَالِهِمْ وَلَهُمْ عِلْمٌ بِالجِهَاتِ

الَّتِي يَضَعُونَ نَقُودَهُمْ فِيهَا ، وَلَكِنَّهُ لَا يَتَأَلَّفُ مِنْ ذَلِكَ شَرِكَاتٌ
كَبِيرَةٌ بَلْ جَمْعِيَّاتٌ صَغِيرَةٌ خُصُوصِيَّةٌ ، وَمِنْ هَمِّهِمْ أَنْ يَقْفُوا عَلَى
كَيْفِيَّةِ الاسْتِغْلَالِ وَطُرُقِهِ ، وَلِذَلِكَ لَا يُقَسِّمُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَضَعُوا كُلَّ
قِسْمٍ فِي جِهَةٍ مَخْصُوصَةٍ كَمَا يَفْعَلُ بَعْضُ الْفَرَنْسَاوِيِّينَ احْتِفَاطًا بِهَا
بَلْ يَجْمَعُونَهَا كُلَّهَا فِي جِهَةٍ وَاحِدَةٍ وَكُلُّهُمْ حُرَّاسٌ عَلَيْهَا . وَمِنْ
هُنَا تَجِدُ الْجَرَائِدَ الْأَمْرِيَّةَ مَشْحُونَةً بِالْأَخْبَارِ الْعَمَلِيَّةِ أَيْ الْمَخْتَصَّةِ
بِالزَّرَاعَةِ وَالصَّنَاعَةِ وَالتَّجَارَةِ ، وَلَا يَنْشُرُ أَسْعَارَ الْأَوْرَاقِ الْمَالِيَّةِ
إِلَّا الْقَلِيلُ مِنْهَا لِأَنَّ الْكَثِيرَ مِنْ قُرَائِمِهَا لَا يَلْتَفِتُونَ إِلَيْهَا وَهُوَ
مَعْتُوقٌ إِذْ لَوْ كَانَ عِنْدَهُمْ مَالٌ لَمَا اسْتَعْلَوْهُ فِيهَا بَلْ جِهَاتُ الاسْتِغْلَالِ
عِنْدَهُمْ هِيَ الْهَيْمُ وَالْعَمَلُ فَيَتَّخِذُ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ مَصْنَعًا يَشْتَغِلُ
بِإِدَارَتِهِ أَوْ يَقْصِدُ التَّجَارَةَ وَلَكِنَّهُ لَا يَرْضَى أَنْ يَنَامَ عَلَى أَوْرَاقٍ
مَالِيَّةٍ يَشْتَرِيهَا .

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ تَجِدُ التَّعَامُلَ فِي الْأَسْوَاقِ الْمَالِيَّةِ عِنْدَهُمْ يَحْصُلُ
عَلَى الدَّوَامِ بِالنَّقْدِ فَوْرًا ؛ فَكُلُّ بَيْعٍ أَوْ شِرَاءٍ تُدْفَعُ قِيَمَتُهُ بِتَحَاوِيلٍ
يَقْبِضُهَا الْمُحَوَّلُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي وَمَنْ اشْتَرَى وَرَقًا لَزِمَهُ أَنْ
يَأْخُذَهُ مِنْ مَكَانِ ابْتِيَاعِهِ ^(١) وَذَلِكَ مِنْ أَكْبَرِ الْبَوَاعِثِ عَلَى
الْإِفْلَاقِ مِنْ أَعْمَالِ تِلْكَ الْأَسْوَاقِ فَلَا يَقْدُمُ عَلَى الْعَمَلِ فِيهَا إِلَّا

مَنْ كَانَ الْمَالُ حَاضِرًا فِي يَدِهِ وَلَا يَجِدُ مَنْ يَتَّبِعِي الْكَسْبَ بِالذَّيْنِ
إِلَيْهِ سَبِيلًا.

وَعَلَى هَذَا يُمَكِّنُنَا أَنْ نَقُولَ بِأَنَّ هُبُوطَ الْأَسْعَارِ عِنْدَ الْأُمَمِ
الْإِنْكِلِيزِيَّةِ لَا يَضُرُّهَا كَمَا لَوْ حَصَلَ عِنْدَ الْفَرَنْسَاوِيِّينَ إِذِ الْأُولَى
أَقَلُّ مِنَ الثَّانِيَةِ فِي اسْتِعْمَالِ الْأَوْزَاقِ الْمَالِيَّةِ .

إِنَّ الْإِنْصِبَابَ عَلَى تِلْكَ الْأَوْزَاقِ فِي الْبِلَادِ الْفَرَنْسَاوِيَّةِ هُوَ الَّذِي
جَعَلَهَا كَعَبَةِ الْقُصَادِمِ مِنْ ذَوِي الْأَمْوَالِ، وَمَا الْيَهُودُ إِلَّا بِذُرَّةٍ لَا تَنْبَتُ إِلَّا
فِي أَرْضٍ تَنْسَبُهَا وَإِلَّا لَا تَنْشُرُ زَرْعَهُ فِي إِنْكَلْتْرَا وَالْبِلَادِ الْإِسْكَانْدِينَاوِيَّةِ
وَالْوَالِيَّاتِ الْمُتَّحِدَةِ وَأَوْسْتْرَالِيَا وَغَيْرِهَا، وَلَسْكَنَهُ لَمْ يَهْبِطُ تِلْكَ
النَّوَاحِي لِأَنَّ الْمَالَ فِيهَا غَيْرُ مَوْجُودٍ فِي الْأَسْوَاقِ وَلِأَنَّ كُلَّ مَنْ
كَانَ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهُ فِيهَا يَسْتَعْلَهُ بِنَفْسِهِ فِي أَرْضِهِ أَوْ صِنَاعَتِهِ أَوْ تِجَارَتِهِ .
فَحَيْثُ لَا يَجِدُ الْيَهُودِيُّ مَا لَا يَقْتَنِصُهُ^(١) وَحَيْثَا يَجِدُ قَوْمًا يَعْرِفُ
كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ طَرِيقَ الدَّفَاعِ عَمَّا اقْتَنَى تَرَاهُ يَنْسَحِبُ مِنْ نَفْسِهِ
أَوْ أَنَّهُ يَفْقِدُ مَا فِي بَدْوَرِهِ مِنَ الْفَسَادِ .

(١) يصطاده ويسلبه

الفصل الثالث

﴿ فِي أَنْ التَّرْبِيَّةَ الْإِنْكَلِيزِيَّةَ السَّكْسُونِيَّةَ تُسَاعِدُ عَلَى التَّزَاحُمِ فِي الْحَيَاةِ ﴾

« النَّوْعُ وَالْأَخْلَاقُ »

جاءني في شهر مايو سنة ١٨٩٢ دَعَوَتَانِ إِلَى بِلَادِ الْإِنْكَلِيزِ :
 الْأُولَى مِنْ جَمْعِيَّةِ تَقَدُّمِ الْعُلُومِ الْبَرِيْطَانِيَّةِ لِمُنَاسِبَةِ احْتِفَالِهَا بِالْمُوْتَمَرِ
 الثَّانِي وَالسَّيْنِ لَهَا مِنْ ٤ إِلَى ١٠ أَوْغُسْطُسَ سَنَةِ ١٨٩٢ بِمَدِينَةِ
 أَيْدِنْبُورْجَ، وَقِيلَ لِي فِي وَرَقَةِ الدَّعْوَةِ « إِنَّ لَجَنَةَ الْإِدَارَةِ تَرْجُو أَنْ
 تُشَرَّفُوها بِبَقَائِكُمْ ضَيْفًا عَلَيْهَا مُدَّةَ إِقَامَتِكُمْ فِي هَذِهِ الْمَدِينَةِ ،
 وَكُونُوا عَلَى يَمِينٍ مِنْ أَنْهَذَا لَنْ تُهْمَلَ شَيْئًا مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَجْعَلَ لَكُمْ
 الْمَقَامَ حُلُومًا مَرْضِيًّا ». فَلَمَّا قَرَأْتُهَا أَحْسَسْتُ أَنَّي غَيْرُ قَادِرٍ عَلَى
 عَدَمِ الْإِجَابَةِ ، وَالثَّانِيَّةُ مِنَ الْأَسْتَاذِ «جِيدِيس» مُؤَسَّسِ جَمْعِيَّةِ عَامِيَّةِ
 يُقَالُ لَهَا « جَمْعِيَّةُ الصَّيْفِ » فِي الْمَدِينَةِ ذَاتِهَا، وَكَانَ يُطَلَّبُ مِنِّي أَنْ
 أَلْقِيَ بَعْضَ الدَّرُوسِ فِي أَعْلَمِ الْإِجْتِمَاعِيِّ عَلَى أَصْحَابِهِ.

وَفِي الْيَوْمِ الثَّانِي مِنْ شَهْرِ أَوْغُسْطُسَ سَنَةِ ١٨٩٢ قَصَدْتُ مَدِينَةَ

ايدنبورج فراقى مرآها ، وهكذا صرت اترددعليها اربع سنوات
متواليات ، وشاهدت تلك الجمعية الصيفية فاذا بها مدرسة علوم
وفنون غريبة في بابها. وهى فى الواقع حقيقة^(١) بالانكليز وينبغى
ان يعرفها القراء : لذلك نذكر طرفا من موضوعها.

اشتغلت الافكار بنشر التعليم فى البلاد الانكليزية حتى انتهى
القائمون به الى تاسيس دروس متعددة فى أنحاء البلاد على الخصوص
حول كل مدرسة من المدارس السكلمية . وتدوم تلك الدروس
فى الغالب شهرا واحدا من العطلة الصيفية ويجمع اليها الطلبة من
رجال ونساء رغبة فى توسيع معلوماتهم ، وكل طالب او طالبة يدفع
جعلا^(٢) معلوما . وقد نجح هذا المشروع جدا فى تلك البلاد لكثرة
الذين يميلون الى زيادة التحصيل علما بان العلم اكبر مساعدا
للانسان فى حياته ، فاذا جاء الصيف وحان زمان تلك الدروس رأت
الناس يكتبون فيها مئات مئات فى انكلترا والوفا الوفا فى
الولايات المتحدة .

ولقد تولانى الدهش اول مرة جلست فيها للاقاء الدرس
فى مدينة ايدنبورج لما رأت ان عدد الطلاب يبلغ الستين الى
السبعين ، اذ ما كان يخطر بالبال انهم يبلغون هذا المقدار فى درس

(١) جديرة بهم (٢) الجمل : ماجمل للانسان من شىء على فعل. ومثله الجمالة

يُلقَى باللُّغَةِ الْفَرَنْسَاوِيَّةِ وَيَسُوا كَثُرُهُمْ مِنْ طَبَقَةٍ وَاحِدَةٍ بَلْ مِنْ
 طَبَقَاتٍ وَأَجْنَاسٍ مُخْتَلِفَةٍ مِمَّا يُفِيدُ الْمُتَمَلِّلَ فِي أَحْوَالِ التَّرْبِيَةِ وَأَحْوَالِ
 الْاجْتِمَاعِ: فَفِيهِمْ بَعْضُ ذَوِي الْأَمْلَاكِ الْعِظَامِ، وَفِيهِمْ الْكَثِيرُ مِنَ
 الْمُدْرَسِينَ وَالْكِتَابِ وَمُدِيرِ جَمْعِيَّةِ الْبَحْثِ فِي أَحْوَالِ الْأُمَمِ بِلِنْدُرِهِ
 وَعَدَدٌ مِنْ طَلَبَةِ الْمَدَارِسِ، وَفِيهِمْ مِنَ الشُّبَّانِ الَّذِينَ يَتَلَقَّوْنَ دُرُوسَنَا
 فِي الْعِلْمِ الْاجْتِمَاعِيِّ بِيَارِيسَ— وَقَدْ أَصَابُوا بِمَجْبِيئِهِمْ إِلَى إِيدَنْبُورْجَ—
 وَمِنْهُمْ بَعْضُ الْفَتَيَاتِ وَبَعْضُ الْمُشْتَغَلِينَ بِالتَّرْبِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ وَالْأَعْمَالِ
 الْخَيْرِيَّةِ مِنْ رِجَالٍ وَنِسَاءٍ، وَبَعْضُ الْمُعَلِّمِينَ وَالْمُعَلَّمَاتِ، وَهُوَ لِأَنَّ
 أَكْثَرَهُمْ بِالطَّبِيعَةِ عَدَدًا. وَاتَّفَقَ أَنِّي قُلْتُ لِإِحْدَى الْمُعَلَّمَاتِ
 إِنَّ زَمِيلَاتِي فِي فَرَنْسَا لَا يُرِدْنَ ضِيَاعَ زَمَنِ الْعَطْلَةِ الْمُدْرَسِيَّةِ
 عَائِينَ فِي تَلَقِّي دُرُوسٍ جَدِيدَةٍ، وَعَلَى الْخُصُوصِ بِمُقَابِلِ يَدْفَعْنَهُ، فَبَانَتْ
 عَلَى وَجْهِهَا عِلَامَةُ الْاسْتِغْرَابِ، وَأَجَابَتْ: إِنَّ اسْتِعْمَالَ زَمَنِ الْعَطْلَةِ
 فِي الْاسْتِفَادَةِ أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ. وَالْوَاقِعُ أَنَّ عَدَدَ الطَّالِبِينَ وَالطَّالِبَاتِ
 لِتِلْكَ الدُّرُوسِ بِجَوَارِ كَلِّيَّاتِ « اِكْسُفُورْد » وَ « كِمْبِرِيدِج » وَغَيْرِهِمَا
 قَدْ يَبْلُغُ السِّتْمِائَةَ كُلَّهُمْ يَدْفَعُونَ الْمَقْرَرَّ الْمَفْرُوضَ.
 وَلَيْسَ لِهَذَا الْإِنْصِبَابِ سَبَبٌ غَيْرُ رَغْبَةٍ كُلِّ وَاحِدٍ فِي التَّحْصِيلِ
 لِيَكُونَ لَهُ بِذَلِكَ قِيَمَةٌ ذَاتِيَّةٌ تَعْظُمُ وَتَتَرَفَّى عَلَى الدَّوَامِ.

وَقَدْ يَدِنَا فِي مَجَلَّةِ « الْعِلْمِ الْاجْتِمَاعِيِّ » كَيْفَ أَنَّ تِلْكَ الرَّغْبَةَ
تَنْمُو بِالترِّيَةِ .

ثُمَّ زُرْتُ ضَيْعَةً فِي ضَوَاحِي إِيْدِنْبُورْجِ فَشَاهَدْتُ أَنَّ الْمَيْلَ وَاحِدَهُ
عِنْدَ أَهْلِ الزَّرَاعَةِ كَمَا هُوَ عِنْدَ غَيْرِهِمْ ، وَلَمَّا وَصَلْنَا إِلَى الْمَحْطَّةِ وَجَدْنَا
صَاحِبَ الضَّيْعَةِ فِي انْتِظَارِنَا ، وَإِذَا بِهِ رَجُلٌ لَا يُمَكِّنُ التَّفْرِيقَ بَيْنَهُ
وَبَيْنَ أَحَدِ أَصْحَابِ الْبُيُوتِ الْمَالِيَّةِ أَوْ أَحَدِ السِّيَاسِيِّينَ أَوْ أَحَدِ أَغْنِيَاءِ
النَّاسِ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ ، لِأَنَّهُ قَدْ جَمَعَ شَمَائِلَ الظُّرْفَاءِ مِنْ كُلِّ وَجْهِ
فَلِبَاسُهُ حَسَنُ التَّفْصِيلِ كَأَنَّهُ خَرَجَ مِنْ يَدِ خِيَّاطِ شَهِيرٍ ، وَلِهَذَا
التَّحَرَّى فِي الْبَيَانِ كَمَا لغيرِهِ مِمَّا يَبْلِي فَايْدَةً تُظْهَرُ لِلْقُرَاءِ فِيمَا بَعْدُ .

أَمَّا الضَّيْعَةُ فَكَائِنَةٌ عَلَى مَسَافَةِ كِيلُومِترٍ وَاحِدٍ مِنَ الْمَحْطَّةِ ،
وَمُقَامُ صَاحِبِهَا مُلَاصِقٌ لِلْمُحَقَّاتِهَا ، يَصِلُ الزَّائِرُ إِلَيْهِ فِي طَرِيقٍ مُنْتَظِمٍ
تَحْفُهُ الْأَزْهَارُ مِنَ الْجَانِبَيْنِ ، وَفِي الْمَدْخَلِ بَاقَةٌ ^(١) مِنْهَا ، وَمَنْظَرُ
الْبَيْتِ مِنَ الْخَارِجِ مَنْظَرٌ دَارٍ لَطِيفَةٍ مِنْ تِلْكَ الدُّورِ الْإِنْكَلِيزِيَّةِ .
وَلَمَّا دَخَلْنَا وَجَدْنَا الدَّهْلِيْزَ مَفْرُوشًا بِالْبُسْطِ وَكَذَلِكَ السُّلْمُ وَالطُّرُقَاتُ
حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى قَاعَةِ الْإِسْتِقْبَالِ حَيْثُ كَانَتْ سَيِّدَةُ الْبَيْتِ فِي انْتِظَارِنَا
فَقَابَلَتْنَا بِلَا تَحَمُّشٍ ^(١) كَمَا تَتَقَابَلُ السَّيِّدَاتُ الْمُتَعَوِّدَاتُ الْاجْتِمَاعِ .
وَاسْتَمَرَّ الْحَدِيثُ بَيْنَنَا بِلَا فُتُورٍ ، وَأَخَذْنَا حِظَّنَا مِنْ كُلِّ مَوْضُوعٍ ،

(١) الباقية من الزهر: الحزمة منه (٢) يريد بلا احتشام ولا تقبض

وَقَدْ أَلْفَيْتُهَا تَعْرِفُ اللُّغَةَ الْفَرَنْسَاوِيَّةَ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا أَخَذَتْ
نَصِيْبَهَا مِنَ التَّرْبِيَةِ ، ثُمَّ قَدِمَ الشَّيْءُ عَلَى أَحْسَنِ تَرْتِيبٍ ، وَشَاهَدْتُ
الْخَادِمَةَ لَيْسَتْ بِتِلْكَ الْمَرْأَةِ السَّمِينَةِ الْمُتَخَشِّصَةِ فِي هَيْئَتِهَا ، الْبُطِيئَةِ
فِي حَرَكَتِهَا ، اللَّابِسَةِ لِبَاسِ الرَّيْفِ الْمُنتَقِلَةِ فَجْأَةً مِنْ عَافِ الْمَاشِيَةِ إِلَى
خِدْمَةِ الظُّرْفَاءِ ، بَلْ هِيَ خَادِمَةٌ تَدُلُّ أَعْمَالُهَا عَلَى عِلْمِهَا بِوِاجِبَاتِهَا ، وَقَدْ
اتَّسَحَتْ بِفُوطَةٍ (١) بِيَضَاءٍ مَحْبُوكَةِ الْأَطْرَافِ مَكْوِيَّةٍ بِإِتْقَانٍ ، وَعَلَى رَأْسِهَا
تِلْكَ الطَّاقِيَّةُ الْحَسَنَاءُ الَّتِي تَتَقَلَّدُهَا الْخَادِمَاتُ الْإِنْكَلِيزِيَّاتُ فِي بُيُوتِ
الْكِبْرَاءِ . وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الرَّجُلَ يَعِيشُ
عَيْشَةَ هَنَاءٍ وَرَخَاءٍ ، إِذْ لَا يَتَأَتَّى أَنْ يَكُونَ قَدْ أَعَدَّ كُلَّ مَا رَأَيْنَا لِاسْتِقْبَالِنَا
وَلَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ مِنْ قَبْلُ . وَلَقَدْ أَثَّرَ فِي نَفْسِي هَذَا الْمَنْظَرُ تَأْثِيرًا
جَعَلَنِي عَلَى الدَّوَامِ أَفْكَرُ فِيهِ وَأَقَارِنُ بَيْنَ تِلْكَ الْحَالِ وَمَا شَاهَدْتُ
فِي غَيْرِ تِلْكَ الْبِلَادِ مِنْ نَظَائِرِهِ ، فَبِالْمُقَارَنَةِ تَتَبَّنُ الْأَشْيَاءُ . وَكَأَنِّي بِالْقُرْءَاءِ
وَقَدْ أَدْرَكُوا أَنِّي لَمَّا رَأَيْتُ صَاحِبَ ذَلِكَ الْمَكَانِ الْإِنْكَلِيزِيَّ وَتَفَقَّدْتُ
مُقَامَهُ ، وَخَبَرْتُ نَوْعَ مَعِيشَتِهِ ، تَذَكَّرْتُ أَمْثَالَهُ مِنْ أَهْلِ الزَّرَاعَةِ
الْفَرَنْسَاوِيِّينَ . وَمَعْلُومٌ أَنَّ أَحْسَنَ أَهْلِ الزَّرَاعَةِ عِنْدَنَا هُمْ سُكَّانُ
الشَّمَالِ فِيهِمُ الَّذِينَ نَرَى مِنْ بَيْنِهِمُ الْمُتَعَلِّمَ الْمُسْتَعِيرَ أَوْ الْحَاظِرَ لِلشَّهَادَةِ
الثَّانَوِيَّةِ ، وَالَّذِي أَحَبَّ التَّرَفُّهُ وَجَمَعَ فِي بَيْتِهِ كَثِيرًا مِنْ مُوجِبَاتِ

(١) الفوطة: إزار يتزر به الخدم ونحوهم ، قال بعض أهل اللغة : ليس يدرى أعربى هوأم

الرَّاحَةَ ، وَاتَّخَذَ لَهُ قَاعَةً مَخْصُوصَةً يَسْتَقْبِلُ الزُّوَارَ فِيهَا وَارْتَدَى رِدَاءَ
 الْحَضَرِ لَرِدَاءِ الصُّنَّاعِ ، وَوَلَّاحَتْ عَلَيْهِ أَمَارَاتُ رَبِّ الْمَالِ الَّذِي يُدِيرُهُ
 بِنَفْسِهِ وَعَاشَ فِي سَعَةٍ وَطَابَ طَعَامُهُ وَوَلَدَتْ شَرَابُهُ . غَيْرَ أَنَّ كُلَّ النَّاسِ لَيَسُوا
 كَهَوْلَاءَ . وَلَسْتُ أَقْصِدُ أَهْلَ الْجَنُوبِ أَوْ الْوَسْطِ أَوْ مُسْكَانَ (بَرُوتَانِيَا)
 مِمَّنْ لَا فَرْقَ فِي الْمَعِيشَةِ الْمَادِّيَّةِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْأَجْرَاءِ بَلْ أَتْرُكُ هَؤُلَاءِ
 لِأَتَكَلَّمَ عَنْ أَهْلِ (نُورْمَانْدِيَّةِ) الَّتِي هِيَ مِنَ الْأَقَالِيمِ الْمُوَسَّرَةِ . وَأَنَا
 الْآنَ أَتَذَكَّرُ وَاحِدًا مِنْهُمْ زُرْتُهُ مَرَّاتٍ مُتَعَدِّدَةً وَ لَهُ مِنْ الْأَطْيَانِ
 مِائَةٌ وَخَمْسُونَ هِكْتُومِترًا أَيْ كَالَّذِي يَمْلِكُهُ صَاحِبُنَا الْأَنْكَلِيزِيُّ
 وَهُوَ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ ، بِدَلِيلِ أَنَّهُ جَعَلَ لِابْنِهِ — ذَلِكَ الْوَلَدُ الْوَحِيدُ^(١) —
 مَهْرًا قَدْرُهُ مِائَةٌ أَلْفِ فَرَنْكٍ وَفِي قُدْرَتِهِ أَنْ يَعِيشَ الْعَيْشَةَ الرَّاضِيَةَ^(٢)
 وَلَكِنَّهُ لَا يَمِيلُ إِلَيْهَا بَلْ هُوَ لَا يُذْرِكُهَا . تَرَاهُ لَابَسًا لِبَاسِ الْعَمَلَةِ
 وَهُوَ الْقَمِيصُ الْأَزْرَقُ الْقَصِيرُ الَّذِي يُبَلَسُ مِنْ فَوْقِ الْإِفِي أَيَّامَ
 الْأَسْوَاقِ وَالْمَوَالِدِ فَإِنَّهُ يَلْبَسُ رِدَاءَ رِثَاءً^(٣) مِنْ جَمِيعِ الْجَوَانِبِ
 وَلَيْسَ فِيهِ مَحَلٌّ لِلنِّظَافَةِ قَطُّ ، وَامْرَأَتُهُ عَلَى مِثَالِهِ تَذْهَبُ بِنَفْسِهَا
 لِتَغْسِلَ الثِّيَابَ مِنْ حَنْفِيَّةٍ عُمُومِيَّةٍ وَلَا فَرْقَ بَيْنَهَا فِي لِبَاسِهَا وَحَرَكَاتِهَا
 وَحَدِيثِهَا وَبَيْنَ بَنَاتِ الضَّيْعَةِ كُلِّهنَّ وَيَتَّبِعُهُنَّ مِنَ الدَّخْلِ يُشْبِهُهُ
 السَّاكِنِينَ فِيهِ : فَكُلُّهُمْ يَقْضِي حَيَاتَهُ فِي قَاعَةٍ كَبِيرَةٍ لَهَا

(١) أى أغنى ذلك الولد الوحيد (٢) الراضية : المرضية (٣) الرث : البالى ووبريد

بَابُ مُطْلَقٌ عَلَى فِنَاءِ الضِّيْعَةِ، وَحِيطَانُهَا مُبَيِّضَةٌ بِالْجَيْرِ تَلْطِيخًا وَهِيَ عَارِيَةٌ عَنْ كُلِّ زَخْرَفَةٍ وَزِينَةٍ وَفِيهَا مِنَ الْأَثَاثِ كُلِّهِ مَائِدَةٌ كَبِيرَةٌ عِبَارَةٌ عَنْ الْوَاحِ سَطَّحَتْ فَوْقَ أَعْمَدَةٍ تَحْمِلُهَا وَعَلَيْهَا يَأْكُلُ الْأَسْيَادُ وَالنَّخْدَمُ بِلَا فَرْشٍ وَلَا غِطَاءٍ، وَحَوْلَهَا مَقَاعِدُ مِنْ خَشَبٍ تَنْسَبُهَا وَهِيَ أَرْبَعَةٌ كَرَّاسِي كُلُّ وَاحِدٍ عَلَى شَكْلِ مَخْصُوصٍ مَصْنُوعَةٍ مِنَ الْبُرْدِيِّ ^(١) صُنْعًا رَدِيئًا، ثُمَّ كَانُونَ ^(٢) الطَّبِيخِ وَمَا جُورُ تُغْسَلُ فِيهِ الْأَنِيبَةُ !! هَذَا كُلُّ أَثَاثِ تِلْكَ الْقَاعَةِ؛ وَلَمْ أَخْتَرُهُ مِنَ الْمُسْتَشْنِيَّاتِ بَلْ ذَلِكَ هُوَ الْحَالُ الْغَالِبُ عِنْدَ الْفَرَنْسَاوِيِّينَ أَجْمَعِينَ. وَرُبَّمَا شَاهَدَ ذَلِكَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْقُرَّاءِ مِائَةَ مَرَّةٍ إِلَّا أَنَّهَا حَالَةٌ لَا تَشْمَرُ مِنْهَا نَفُوسُنَا لِأَنَّهَا عَادِيَةٌ طَبِيعِيَّةٌ وَتَفْهَمُ أَنَّ الْفَلَاحَ لَا يُمَكِّنُهُ أَنْ يَعِيشَ إِلَّا هَكَذَا لِأَنَّ الزَّرَاعَةَ مِنْ لَوَازِمِهَا فَقَدْ مُوجِبَاتِ الرَّاحَةِ وَالنِّظَافَةِ .

وَأَعْلَى الْفُرَّاءِ يَحْسَبُونَ أَنَّ الزَّارِعَ الْإِنْكَلِيزِيَّ الَّذِي زُرْتُهُ يُعَدُّ اسْتِثْنَاءً، كَذَلِكَ كَانَ ظَنِّي بِأَدَى الْأَمْرِ وَلَسَكِنِي اعْتَقَدْتُ الْعَكْسَ لَمَّا دَخَلْتُ بُيُوتَ الْفَعْلَةِ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ فِي أَرْضِهِ. وَلَا حَاجَةَ بِي لِأَنَّ أَشْرَحَ كَيْفَ يَعِيشُ الْفَعْلَةُ عِنْدَنَا! فَالْوَاحِدُ مِنْهُمْ إِمَّا أَنْ يَنَامَ فِي الْجُرْنِ عَلَى الْقَشِّ أَوْ الْحَشِيشِ أَوْ فِي الْفِنَاءِ عَلَى أَرْدَاٍ سَرِيرٍ، أَوْ أَنْ لَهُ

(١) البردي نبات كالقصب كان قدماء المصريين يستخدمون قشوره للكتابة

(٢) الموقف المعروف

حُجْرَةٌ حَقِيرَةٌ يَأْوِي إِلَيْهَا . وَلَمَّا أَذِنَ لِي صَاحِبُ الضَّيْعَةِ بِزِيَارَةِ
 مَسَاكِنِ عُمَّالِهِ رَأَيْتُ عَلَى بُعْدِ مِائَةِ مِثْرٍ مِنْ مَنْزِلِهِ خَمْسَةَ يُمُوتٍ
 أَوْسَتَةٍ تَمْتَدُّ عَلَى الطَّرِيقِ وَهِيَ ذَاتُ مَنَازِلٍ تُعْجِبُ النَّوَظِرَ ^(١) يَتَقَدَّمُ
 كُلُّ بَيْتٍ مِنْهَا بُسْتَانٌ صَغِيرٌ كُلُّهُ أَزْهَارٌ وَلَهُ طُرُقٌ فِي غَايَةِ
 الْإِنْتِظَامِ ، وَمِنْ الْخَلْفِ بُسْتَانٌ آخَرَ تُزْرَعُ فِيهِ أَنْوَاعُ الْخَضِرِ .
 وَعِنْدَ وُصُولِنَا إِلَى تِلْكَ الْمَنَازِلِ رَأَيْنَا فَتَاةً عَلَيْهَا سِمَاءُ الْأَوَاسِطِ
 مِنْ النَّاسِ جَالِسَةً أَمَامَ أَحَدِهَا وَأَمَامَهَا رَضِيعٌ عَلَيْهِ الْمَلَابِسُ الْبَيْضَاءُ
 الْمُتَقَنَّةُ فِي عَرَبَةٍ لَطِيفَةٍ فِي حَالَةٍ جَيِّدَةٍ ذَاتِ أَرْبَعِ عَجَلَاتٍ مِنَ النَّوْعِ
 الَّذِي يُقَالُ لَهُ إِنْكَلِيزِي ، وَهُوَ رَفِيعُ الثَّمَنِ كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ ، وَكَانَ مَعِيَ
 حَضْرَةٌ زَمِيلِي فِي مَجَلَّةِ الْعِلْمِ الْاجْتِمَاعِيِّ مُوسِيُو « يوانسار » فَسَأَلَ
 صَاحِبَنَا إِنْ كَانَتْ تِلْكَ السَّيِّدَةُ مِنْ نِسَاءِ الْمَدِينَةِ أَقْبَلَتْ تَرْتَاضُ فِي
 هَذَا الْمَكَانِ ؟ فَأَجَابَنَا وَالْعَجَبُ يُأْخِذُ مِنْ كُلِّ مَا خِذٍ كَمَا لَا يَخْفَى - أَنَّهَا
 زَوْجَةُ ذَلِكَ الْعَامِلِ الَّذِي يَسْكُنُ الْبَيْتَ الَّذِي تَقِفُ مِنْحُنْ أَمَامَهُ . ثُمَّ سَأَلَهَا
 سَيِّدُ الْمَكَانِ إِنْ كَانَتْ تَسْمَحُ لَنَا بِزِيَارَةِ بَيْتِهَا ؟ فَأَجَابَتْ بِالْإِذْنِ
 وَأَدْخَلْتُنَا فَوَجَدْنَا أَمَامَ الْبَيْتِ مَسْحَةً لِلْأَرْجُلِ وَفِي الدَّهْلِيزِ
 بَسَاطًا مِنَ الْجِبَالِ لِهَذَا الْغَرَضِ بَعِيْنِهِ ، وَوُجُودُ الدَّهْلِيزِ فِي الْمَنَازِلِ
 مِنْ مُوجِبَاتِ نِظَاقَتِهَا وَرَاحَةِ سُكَّانِهَا فَلَا يَدْخُلُ الْإِنْسَانُ فِي

الغُرفِ مِنَ الخِلاَّءِ مُباشِرَةً . ثُمَّ الدَّهْلِيْزُ يُوجِبُ حِمَايَةَ مَنْ فِي البَيْتِ مِنْ البَرْدِ أَكْثَرَ مِمَّا لَمْ يَكُنْ مَوْجُودًا . وَعَلَى اليَمِينِ قَاعَةٌ صَغِيرَةٌ جُعِلَتْ لِغَسِيلِ آيَةِ الطَّبَّخِ وَالْمَلَابِسِ ، وَوُجُودُهَا يُوجِبُ نِظَافَةَ حُجْرَةِ الأَكْلِ وَالطَّبَّخِ ، لِعِزْلِ الغَسِيلِ فِي مَكَانٍ مَخْصُوصٍ . وَحُجْرَةُ الأَكْلِ هِيَ أَيْضًا حُجْرَةُ المَطْبَخِ ، وَهِيَ كَبِيرَةٌ يَبْلُغُ مُرَبَّعُهَا أَرْبَعَةَ أمتارٍ فِي أَرْبَعَةٍ تَقْرِيبًا ، وَفِيهَا مِنَ الأَثاثِ مَا تَرْتاحُ النَّفْسُ لَوُجُودِهِ . وَكَانُونُ الطَّبَّخِ يَغِيبُ نِصْفَهُ فِي الحَائِطِ وَلَا يَظْهَرُ مِنْهُ إِلَّا نِصْفُهُ ، وَتِلْكَ عَادَةٌ مألُوفَةٌ كَثِيرًا عِنْدَهُمْ ، وَهُوَ فِي غَايَةِ النِّظَافَةِ ، نُحَاسُهُ بَرَّاقٌ . وَلَا عَجَبَ مِنْ هَذِهِ النِّظَافَةِ لِأَنَّ طَبَّاخَاتِ الإنكليزِ أَكْثَرُ مَهَارَةٍ فِي نِظَافَةِ الآيَةِ مِنْهُنَّ فِي طَهْيِ (١) الأَطْعَمَةِ ، فَهِنَّ يُنْظِفْنَ عَلَى الدَّوامِ ، وَيَسْتَعْمِلْنَ نُشَارَةَ الرِّصَاصِ وَماءَ النُّحَاسِ فِي تَنْظِيفِ المَطْبَخِ ، كما يَسْتَعْمِلْنَ الطَّبَّاشِيرَ فِي نِظَافَةِ الحِيطانِ وَالْحِجَرِ ، حَتَّى يُخَيَّلَ لِلإنسانِ أَنَّ الطَّبَّاخَةَ الإنكليزيةَ تَجشُّو عَلَى رُكْبَتَيْهَا زَمَنًا أَطْوَلَ مِنَ الَّذِي تَقِفُ فِيهِ عَلَى قَدَمَيْهَا . وَيُوجَدُ فِي تِلْكَ الحُجْرَةِ قِطْعَةٌ مِنَ الأَثاثِ النُّخَشِيِّ ذِي الصَّنْعِ الجَمِيلِ أَشْبَهَ بِكُرْسِيِّ كَبِيرٍ ، عَلَيْهَا أَنْواعٌ عِدَّةٌ مِنَ المَصنُوعَاتِ الدَّقِيقَةِ مُرْتَبَةً تَرْتِيبًا جَمِيلًا ، وَهَذَا وَحْدَهُ يَكْفِي بَيانَ

مِقْدَارِ اعْتِنَاءِ عَائِلَةٍ ذَلِكَ الْفَاعِلِ بِمَنْزِلِهَا . وَلَا يَغِيْبَنَّ عَنِ الذَّهْنِ أَنَّنَا
نَصِفُ يَتَّ فَاعِلٍ مِنْ فَعَلَةِ الزَّرَاعَةِ . ثُمَّ دَخَلْنَا حُجْرَةَ النَّوْمِ فَإِذَا
فِيهَا سَرِيرٌ مِنْ الْحَدِيدِ ، لَهُ أَكْرُ مِنْ النُّحَاسِ ، لَمَاعَةٌ مِنَ النَّظَافَةِ ،
وَبِجَانِبِهِ صُنْدُوقٌ ذُو أَدْرَاجٍ « كَوْمُوْدِيْنِه » وَفِي مَقَابِلِهِ مَجْلِسٌ « كَنْبِه »
ثُمَّ مَائِدَةٌ النَّظَافَةِ « تَوَالِيْت » عَلَيْهَا أَحْقَاقٌ مِنَ الْوَرَقِ ، وَزُجَاجَاتُ
الْمِيَاهِ الْمُخْتَلِفَةِ الْأَلْوَانِ ، مَصْفُوفَةٌ عَلَى أَكْمَلِ نِظَامٍ ، وَهَذَا يَدُلُّ
عَلَى مَيْلِ أَوْلِيَاكَ الْبُسْطَاءِ إِلَى الْأَشْيَاءِ الْجَمِيَلَةِ وَحُسْنِ التَّرْتِيْبِ ،
وَتَنْظِيمِ الْمَأْوَى .

لِكُلِّ النَّاسِ مِنْ هَذِهِ الطَّبَقَةِ مِثْلُ هَذَا الْإِهْتِمَامِ لِأَنَّهُ يُوجَدُ عَلَى
مَقْرُبَةٍ مِنَ الضِّيْعَةِ مَعْدِنٌ فَحْمٍ ، وَقَدْ شَاهَدْتُ أَغْلَبَ بُيُوتِ الْفَحَّامِيْنَ
عَلَى هَذَا الْمِثَالِ : مِنْ بُسْتَانٍ صَغِيرٍ أَمَامَ الْمَسْكَنِ ، وَمَدْخَلٍ نَظِيْفٍ
وَسِتَارَاتٍ بَيْضٍ ، أَوْ ذَاتِ الْوَانِ جَمِيَلَةٍ مُخْتَلِفَةٍ فَوْقَ النَّوَافِدِ وَغَيْرِ
ذَلِكَ . وَمَعَ هَذَا فَقَدْ شَاهَدْتُ بَعْضَ مَحَلَّاتِ الْفَعْلَةِ مُحْفُوفَةً بِمَنَازِلِ
قَدْرَةٍ مُهْمَلَةٍ ، وَكُلُّ مَا يَرَى فِي الدَّخْلِ يَدُلُّ عَلَى هَيْئَةٍ رَدِيئَةٍ ،
وَالْأَطْفَالُ يَغْدُونَ وَيَرُوْحُونَ حِفَاةَ الْأَقْدَامِ بِمَلَابِسٍ رَثَّةٍ خَسَنَةٍ ،
وَقَدْ سَأَلْتُ مُدِيرَ الْمَصْنَعِ عَنْ هَذَا التَّفَاوُتِ فَقَالَ لِي : « إِنَّ الْفَعْلَةَ
الْإِرْلَنْدِيَّيْنَ لَا يَهْتَمُّونَ بِنِظَافَةِ الْبُيُوتِ وَمُوجِبَاتِ الرَّاحَةِ فِيهَا ، لِذَلِكَ
يُعْطُونَ الْمَسَاكِنَ الْعَتِيْقَةَ أَجْرَةً زَهِيْدَةً كَأَفِيَّةٍ لِحَاجَاتِهِمْ ، أَمَّا الْبُيُوتُ

الجديدة فقد بُنيت للفعلة الايقوسيين الذين يعتنون بها ويرينوونها بما يصل اليه الامكان^(١) . وقد أكد لي ذلك صاحب الضيعة ، قال : إنه يستعمل الايرلنديين في زمن الحصاد على الخصوص ويعطيهم منازل يسكنونها كيف كانت لأن السكنى لا تهمهم .

ومن هنا يتبين الفرق بين النشأة الاستقلالية التي هي نشأة الإنكليز السكسونيين ، وبين النشأة الاتكالية التي هي نشأة الايرلنديين فيما يتعلق باستعداد كل فريق منهما لنظام المعيشة وحسن الترتيب في المسكن ، وهو فرق محسوس تأكدت منه في زيارتي بعد أيام قلائل لأحد صناعات الآلات الميكانيكية ببلدة « ينكويك » :

ذهبنا في الساعة الخامسة بعد الظهر لتناول الشاي عند ذلك الصانع ، فوجدناه يسكن بيتا هو ملكه ، وهو طبقتان : أرضية وعلوية ، وقدم لنا الشاي في حجرة معدة للأكل والاستقبال معا ، وفيها مجلس « كنبه » وآلة موسيقى « بيانو » وبساط يستر أغلبها ، وفوقه بساط أصغر منه وأقل ثمنا لجمائته مما يدل على أن سيدة البيت ذات اعتناء به وبنظافته . أما الشاي فقد تناولناه على مائدة مرتبة في آنية تكاد تكون من الزخارف ، فغطاء المائدة من نسيج التيل الدقيق

وَالَا كُوَابٌ مِّنَ الْخَزَفِ الْجَمِيلِ، وَخَمْسَةٌ أَطْبَاقٍ أَوْ سِتَّةٌ مِّلَاءٍ بِأَنْوَاعِ
 الْأَفْطَرَةِ، وَعَيْشٌ مُّتَدَدٌ مَّدْهُونٌ بِالزُّبْدَةِ، وَلَمَّا شَرِبْتَ أَوَّلَ مَرَّةٍ طَلَبَ
 مِنِّي أَنْ أَتِيَّ ^(١) فَرَضِيْتُ؛ وَإِذَا بِهِمْ غَسَلُوا كُوبِي قَبْلَ أَنْ يَصُبُّوا الشَّايَ فِيهَا
 مِنْ جَدِيدٍ وَأَوْدَعُوا الْمَاءَ صَحْفَةً مَوْجُودَةً فَوْقَ الْمَائِدَةِ لِهَذَا الْغَرَضِ
 بَعِيْنِهِ، وَلَا أَظُنُّ أَنَّي مَخْطِي إِذَا قُلْتُ إِنَّ الْفَرَنْسَاءِ يَكْتَفُونَ غَالِبًا بِأَنْ
 يَصُبُّوا الشَّايَ مَرَّةً ثَانِيَةً لِضَيْفِهِمْ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةِ احْتِفَاءٍ وَاحْتِفَالٍ.
 وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَهَذَا هُوَ الَّذِي أَعْلَمُهُ عَنْ بَلَدِي وَمَنْ جَاوَرَنِي.
 وَالْخُلَاصَةُ أَنَّ ذَلِكَ الْعَامِلَ الْبَسِيطَ يَتَأَنَّقُ فِي تَنَاوُلِ الشَّايِ وَتَقْدِيمِهِ
 تَأَنَّقًا لَوْ أُدْخِلَ فِي كَثِيرٍ مِنْ أَيُّوتِنَا لَعُدَّ تَقْدَمًا.

ثُمَّ سَأَلْتُ صَاحِبَ الضَّيْعَةِ عَنْ أَجْرَةِ الرَّجُلِ عِنْدَهُ؛ فَأَجَابَنِي: خَمْسَةٌ
 وَتِسْعُونَ فَرَنْكًا فِي كُلِّ شَهْرٍ وَمَسْكَنٌ وَبُسْتَانٌ لِلْخُضْرِ تَبْلُغُ
 مِسَاحَتَهُ «اكرين» وَنَصِيبٌ مِنَ الْبَطَاطِسِ كَبِيرٍ، وَهَذَا هُوَ الْإِيرَادُ
 الَّذِي يَتِمَّكَنُ بِهِ أَوْلِيَاكَ الْفِعَالَةُ مِنْ تَحْصِيلِ الْعَيْشِ بِالْكَيفِيَّةِ الَّتِي
 شَرَحْنَاهَا لِأَنَّ نِسَاءَهُمْ لَا يَشْتَعِلْنَ فِي الْخَارِجِ إِلَّا قَلِيلًا، وَمَنْ يَقُمْ
 دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ النِّظَافَةَ وَحُسْنَ نِظَامِ الْمَنْزِلِ تَقْتَضِي مِنَ النِّفَقَاتِ أَكْثَرَ
 مِنْ اخْتِلَالِ الْحَالِ وَالْوَسَاخَةِ وَالِاضْطِجَاعِ عَلَى الْمَكْسَلِ فِي الْمَقَاهِي
 وَالْحَانَاتِ.

وَلْيَلْحَظْ أَيْضًا أَنَّ الْعَامِلَ الْإِنْكَلِيزِيَّ لَا يَقْتَصِدُ إِلَّا قَلِيلًا
بِخِلَافِ رَفِيقِهِ الْفَرَنْسَاوِيِّ ، فَلِأَوَّلِ يُنْفِقُ مَا يَكْسِبُهُ كُلَّهُ تَقْرِيْبًا
وَاعْتِمَادُهُ فِي تَحْصِيلِ عَيْشٍ أَوْسَعٍ إِنَّمَا هُوَ عَلَى مَا يَرْجُوهُ مِنْ زِيَادَةِ
الرَّاتِبِ بِانْتِقَالِهِ مِنْ دَرَجَةٍ إِلَى أَرْفَعٍ مِنْهَا لَعَلِّي مَا يَدَّخِرُهُ مِنْ أَجْرِهِ
الْيَوْمِيِّ ، وَلَهُ فِي الْوَأَقِعِ فِرَاسَةٌ وَحَذَقٌ فِي الْإِرْتِقَاءِ فَلَا يُضِيعُ فُرْصَةَ
التَّرَقِّيِّ مَتَى سَنَحَتْ ، وَهَذَا هُوَ السَّبَبُ فِي أَنَّهُ لَا يُجْجِمُ عَنِ التَّغْرُبِ
وَلَا يَخَافُ الْهَجْرَةَ عَنْ بَلَدِهِ إِذَا رَأَى الضَّرُورَةَ الْقَائِمَةَ ، كَمَا يَدُلُّ
عَلَيْهِ عَدَدُ الَّذِينَ يَهَاجِرُونَ إِلَى جَمِيعِ الْأَقْطَارِ مِنَ الْإِنْكَلِيزِ
السَّكْسُونِيِّينَ ، وَلَيْسَ يَهْمُهُ مُسْتَقْبَلُهُ إِلَّا إِذَا خَارَ بَعْضُ الشَّيْءِ
لِأَرْمَلَتِهِ ^(١) بَعْدَ وَفَاتِهِ ، لِذَلِكَ يَمِيلُ الْإِنْكَلِيزِيُّ إِلَى التَّأْمِينِ عَلَى الْحَيَاةِ
كَثِيرًا ، وَهَذَا هُوَ السَّرُّ فِي انْتِشَارِ شَرِكَاتِ التَّأْمِينِ الْمَذْكُورَةِ فِي
إِنْكَلِتْرَاوَالْوَلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ انْتِشَارًا كَبِيرًا .

وَفِي مَا تَقَدَّمَ بُرْهَانٌ جَدِيدٌ عَلَى مَا لِأَصْحَابِ هَذِهِ الذِّشَاءِ مِنْ
الْإِسْتِعْدَادِ لِلتَّقَدُّمِ وَالتَّرَقِّيِّ

وَأَهْمُ مِنْهُ أَنَّ الرَّجُلَ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ - مَهْمًا صَغُرَ وَكَانَ حَقِيرًا -
يَعِيشُ عَيْشَةً أَحْسَنَ مِنْ مَعِيشَةِ أَهْلِ الْقَارَةِ الْأُورُبِيَّةِ وَفِي رَاحَةٍ مِنْ
جِهَةِ نِظَامِ الْبَيْتِ أَوْ فِي كَرَامَةٍ - كَمَا يَقُولُ الْإِنْكَلِيزِيُّ - أَوْفَرُ ،

(١) الأرملة المرأة المتوفى عنها زوجها

وَبِالْجُمْلَةِ فَإِنَّهُ لَا يَنْقُصُ عَامِلٌ هَذِهِ الْبِلَادِ فِي الرَّيْفِ أَوْ الْحَضَرِ إِلَّا
يَسِيرًا جِدًّا لِيُصْبِحَ فِي الظَّاهِرِ ، بَلْ وَيَجُوزُ أَنْ يُصْبِحَ فِي الْحَقِيقَةِ
أَيْضًا ، مِنْ ذَوِي الْحَيْثِيَّاتِ الَّذِينَ عَرَفُوا النِّعْمَةَ مِنْذُ نُعُومَةِ الْأَظْفَارِ . (١)
فَبذُورُ التَّعَمُّرِ مَعْرُوسَةٌ عِنْدَهُ وَحَالَتُهُ فِي الظَّاهِرِ تَدُلُّ عَلَى مِثْلِهِ إِلَيْهِ
وَطَمَعِهِ فِيهِ لِأَنَّهُ يُفَضِّلُ أَنْ يُنْفِقَ لِيَعِيشَ فِي سَعَةٍ عَلَى أَنْ يُقْتَرَّ
وَيَعِيشَ شَقِيًّا .

أَمَّا عِنْدَنَا فَالْفُضِيلَةُ الْكُبْرَى هِيَ التَّوْفِيرُ وَالْإِدْخَارُ وَلَا تَقْدُمُ
لَنَا إِلَّا بِالتَّقْتِيرِ وَالْحِرْمَانِ ، لِذَلِكَ يَرْضَى الرَّجُلُ مِنَّا بِمَا يَعَافُهُ (٢)
الْأَنْكِلِيزِيُّ ، فَمُرْتَبَاتُ مُوَظَّفِي الْحُكُومَةِ عِنْدَنَا مِنْ كُلِّ الطَّبَقَاتِ أَدْنَى
مِنْ مُرْتَبَاتِ الْأَنْكِلِيزِ وَمَعَ ذَلِكَ فَكَثِيرٌ مِنَ الْمُوَظَّفِينَ الْفَرَنْسَاوِيِّينَ
يَدْخَرُونَ جَانِبًا مِنْ مُرْتَبِهِمُ الزَّهِيدِ . لَكِنَّ الرَّجُلَ مِنَ الْأَنْكِلِيزِ
سَخِيٌّ فِي الْإِنْفَاقِ عَلَى نَفْسِهِ حَتَّى يُحْصَلَ أَكْبَرَ حِظِّ مَيْسُورٍ مِنَ
الْعَيْشِ وَالرَّغْدِ ثُمَّ يَسْتَعْلِ مَا فَاضَ عِنْدَهُ بِنَفْسِهِ .

وَلَقَدْ ظَهَرَتْ فِيْنَا آثَارُ تَعَوُّدِنَا التَّوْفِيرِ وَالْمَعِيشَةِ الْمُضَيِّقَةِ
فَلَا نَزَالَ نَحَافِظُ عَلَى تِلْكَ الْعَادَاتِ وَلَوْ بَلَغَ الْوَاحِدُ مِنَّا مَبْلَغًا
مِنَ الثَّرْوَةِ وَالْمَالِ ، ذَلِكَ لِأَنَّ الْعَادَةَ لَا تَزُولُ فَانْكَتَفَى بَيْتٌ لَهُ
مِنَ النَّظَامِ الْيَسِيرِ وَنَرَضَى بِالزَّيْنَةِ الْعَرَضِيَّةِ الْقَلِيلَةِ اللَّهُمَّ إِنْ لَمْ

نُفُضَّ مَعِيشَةَ أَهْلِ « نُورْمَانْدِيَه » الَّذِينَ لَا يَبْتَغُونَ الْخُرُوجَ مِنْ تَعْسِهِمْ مَهْمًا كَسَبُوا .

إِنَّ فِي طَبَقَاتِ الْعَمَلَةِ مِنَّا اسْتِعْدَادًا لِتَحْصِيلِ الْمَالِ بِالِاِقْتِصَادِ وَالتَّوْفِيرِ وَلَسْكَنِهِمْ لَا اسْتِعْدَادَ فِيهِمْ لِلارْتِقَاءِ مِنْ جِهَةِ الْأَحْوَالِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، أَيْ أَنَّهُمْ لَا يَذُوقُونَ حَلَاوَةَ عَيْشَةِ السَّعَةِ الرَّاضِيَةِ وَلَا يُدْرِكُونَ لَذَّةَ نِظَامِ الْمَنْزِلِ وَكَمَالِ مُوجِبَاتِ الرَّاحَةِ فِيهِ .

بَعْدَ الْفَرَاغِ مِنْ قِرَاءَةِ الدَّرْسِ ذَاتَ يَوْمٍ رَكِبْتُ مَعَ بَعْضِهِمْ عَرَبَةً وَقَصَدْنَا زِيَارَةَ عَائِلَةٍ تَسْكُنُ ضَوَاحِي إِيدِنْبُورْجِ حَيْثُ أُعِدَّ لَنَا طَعَامُ الظُّهْرِ وَكُنْتُ مِيَالًا كَثِيرًا لِيَزِيَارَةَ تِلْكَ الْعَائِلَةِ لِأَنَّهَا مِنْ قُرَاءَةِ مَجْلَدَةِ الْعِلْمِ الْاجْتِمَاعِيِّ إِذْ وَجَدْتُهَا فُرْصَةً أَقْفُ بِهَا عَلَى تَأْثِيرِ تَعَالِمِنَا فِي أَذْهَانِ الْإِنْكَلِيزِ . فَلَمَّا قُرْبْنَا مِنَ الْمَنْزِلِ وَجَدْنَاهُ مُشِيدًا عَلَى مُرْتَفَعٍ عَظِيمٍ وَقَدْ جَمَعَ مِنَ الزُّخْرُفِ وَحُسْنِ التَّرْتِيبِ شَيْئًا كَثِيرًا أَوَّالِ الْعَائِلَةِ تَتَأَلَّفُ مِنْ زَوْجَيْنِ فِي رَيْعَانِ الشَّبَابِ وَوَالِدِ الزَّوْجِ وَثَلَاثَةِ أَوْلَادٍ ، فِيمَا أَظُنُّ ، وَكُلُّهُمْ يَسْكُنُونَ السَّنَةَ بِأَكْمَلِهَا فِي الْخَلَاءِ عَلَى مَسَافَةِ سِتَّةِ كِيلُومِترَاتٍ مِنْ إِيدِنْبُورْجِ . وَقَدْ شَاهَدْتُ فِي الطَّرِيقِ مَسَاكِينَ كَثِيرَةً قِيلَ لِي إِنَّهَا مَسْكُونَةٌ عَلَى الدَّوَامِ وَسَكَنُ الْخَلَاءِ عَلَى الدَّوَامِ ، حَتَّى فِي الشِّتَاءِ ، عَادَةٌ مِنْ عَادَاتِ الْإِنْكَلِيزِ فَقَدْ أَخْبَرْتَنِي فَتَاةٌ عَلَى وَشَكِّ الزَّوْاجِ أَنَّهَا سَتَسْكُنُ الضَّاحِيَةَ وَإِنَّ

كَانَتْ أَشْغَالُ زَوْجِهَا تَسْتَدْعِيهِ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى الْمَدِينَةِ . وَمِمَّا
 يُدْهِشُنَا نَحْنُ الْفَرَنْسَاوِيِّينَ قَوْلُهَا : إِنَّهَا تَرَى ذَلِكَ الذَّوَاهُنَا إِذْ
 يَخْلُصُ الْإِنْسَانُ مِنْ جَمِيعِ الْفِيُودِ وَيَجِدُ مُعَدَّاتِ الرَّاحَةِ وَلَوَازِمَ
 الرَّغَدِ كَامِلَةً . وَفِي ظَنِّي أَنَّ الْإِسْتِقْلَالَ وَرَعْدَ الْمَعِيشَةِ هُمَا الْقُطْبُ
 الَّذِي تَرْمِي إِلَيْهِ أَفْكَارُ الْإِنْكِلِيزِ وَتَتَّجِهُ نَحْوَهُ أَعْمَالُهُمْ كُلُّهَا
 فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ، لِذَلِكَ تَرَاهُمْ يَرْتَاخُونَ فِي الْعِزَّةِ وَالِاِقْتِصَارِ
 عَلَى مَا قَلَّ مِنَ الْأَصْحَابِ ، وَفِي ذَلِكَ لِلْأُمَّةِ مِنَ الْقُوَّةِ مَا لَا يَخْفَى .
 وَمَلَّا دَنَوْنَا مِنَ الْمَنْزِلِ قُوبِلْنَا بِحِفَاوَةٍ وَإِكْرَامٍ أَثْرًا فِي نَفْسِي أَيْ تَأْثِيرِ
 كَأَنِّي كُنْتُ لَهُمْ صَدِيقًا عَرَفُوا مَبَادِيئَهُ وَوَأَقَفُوهُ . وَالْوَاقِعُ أَنَّ الْعِلْمَ
 الْإِجْتِمَاعِيَّ لَا يَدْخُلُ أَمْخَاحُ الْإِنْكِلِيزِ كَمَا يَمْلُقُ بِأَذْهَانِ الْفَرَنْسَاوِيِّينَ .
 وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْأُمَّتَيْنِ فِي إِدْرَاكِهِ يَرْجِعُ إِلَى أَنَّ الْفَرَنْسَاوِيَّ يَقْرَؤُهُ
 لِيَبْحَثَ فِيهِ عَنْ طَرِيقَةٍ تَنْتَظِمُ بِهَا أَحْوَالُ الْمُجْتَمَعِ الْإِنْسَانِيَّ بِأَكْمَلِهِ .
 وَأَمَّا الْإِنْكِلِيزِيُّ فَإِنَّهُ يَسْتَهْدِيهِ طَرِيقَةٌ يَسِيرٌ هُوَ عَلَيْهَا بَيْنَ النَّاسِ ، وَمَيْلٌ
 كُلُّ أُمَّةٍ يُنَاسِبُ نَشَاتَهَا فَنَحْنُ أَهْلُ النَّشَاةِ الْإِتْسَاكِيَّةِ نَصُبُ (١) إِلَى
 الْأَفْكَارِ الْعُمُومِيَّةِ وَالْإِنْكِلِيزِيُّ أَهْلُ النَّشَاةِ الْإِسْتِقْلَالِيَّةِ يَمِيلُونَ
 إِلَى الْأُمُورِ الْعَمَلِيَّةِ الْمُفِيدَةِ . هَكَذَا فَهْمُ أَهْلِ الدَّارِ الَّتِي نَحْنُ فِيهَا
 الْعِلْمَ الْإِجْتِمَاعِيَّ وَالْمَسْوَإِ مِنْهُ بَابًا لِلْمَعِيشَةِ وَهُمْ مِنْ أَرْبَابِ الْأَمْلَاقِ

الْوَاسِعَةَ أَجْرُوهَا لِأَخْرِينِ إِلَى زَمَنِ يَنْتَهِي هَذَا الْعَامَ . وَقَدْ عَوَّلُوا عَلَى عَدَمِ تَجْدِيدِ الْإِيجَارِ وَأَنْ يَتَّخِذُوا أَرْضَهُمْ مُقَامًا لِأَنَّ الرَّجُلَ يُرِيدُ أَنْ يُدِيرَ أَمْلَاكَهُ بِنَفْسِهِ ، وَحَتَّى يَأْتِيَ الْأَجَلَ الْمَعْلُومُ تَرَاهُ مُشْتَعِلًا بِالِاسْتِعْدَادِ وَأَخَذِ الْأَهْبَةَ ^(١) لِمُزَاوَلَةِ الْعَمَلِ فَيَقْضِي يَوْمَهُ طُولَ النَّهَارِ فِي ضَيْعَةِ صَدِيقٍ يُجَاوِرُهُ حَيْثُ يُشَاهِدُ أَعْمَالَ الزَّرَّاعَةِ وَيَتَعَرَّفُ طُرُقَهَا وَالْكِتَابُ فِي يَدِهِ وَالتَّطْبِيقُ بَيْنَ يَدَيْهِ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْإِنْكِلِيزِيَّةِ الَّتِي هِيَ الْمَثَلُ ^(٢) . وَقَدْ شَاهَدْتُ أَنَّ الْإِنْكِلِيزِ ، حَتَّى الَّذِينَ يَشْتَغَلُونَ بِالتَّجَارَةِ وَالصَّنَاعَةِ وَيَقْضُونَ نَهَارَهُمْ فِي الْمَدْنِ ، أَكْثَرُ اسْتِعْدَادًا لِلزَّرَّاعَةِ مِنْ صُنَاعِنَا وَتُجَّارِنَا ، فَهَمُّ أَقْرَبُ إِلَيْهَا مِنَّا ، وَيَسْتَسْهَلُونَ الدُّخُولَ فِيهَا عَنَّا : فَقَدْ أَخْبَرَنِي أَحَدُ الْأَصْدِقَاءِ مُوسِيُو « بِيَامَش » - وَكَانَ يُرَافِقُنِي - أَنَّهُ زَارَ أَحَدَ مُسْتَأْجِرِي الضِّيَاعِ فَعَلِمَ أَنَّهُ كَانَ وَكِيلًا لِأَحَدِ الْبُيُوتِ الْمَالِيَّةِ فِي نَاحِيَةِ وَأَصَابَتِ الْبَيْتَ جَائِحَةٌ ، فَأَقْفَلَ أَبْوَابَهُ وَتَخَلَّى عَنْهُ ذَلِكَ الْوَكِيلُ ، فَاسْتَأْجَرَ أَرْضًا فَمَسِيحَةً وَأَقَامَ فِي فِلَاحَتِهَا . وَإِنِّي لِأِخْلَانِي ^(٣) أَجِدُ كَثِيرًا مِنْ أَمْثَالِ هَذَا الرَّجُلِ فِي الْبِلَادِ الْفَرَنْسَاوِيَّةِ .

وَقَدْ بَحَثْتُ عَنْ عِلَّةِ اسْتِعْدَادِ الْإِنْكِلِيزِ لِلزَّرَّاعَةِ فَوَجَدْتُهَا التَّرْبِيَّةَ

(١) العدة (٢) الفضلى (٣) لا أظنني

الَّتِي تَكَادُ تَكُونُ رِيْفِيَّةً لِكثْرَةِ مَا يُوجَدُ مِنَ الْجِنَانِ فِي مَسَاكِنِهِمْ ،
يُضَافُ إِلَى ذَلِكَ مَا هُوَ لِأَزْمٍ لِنَشَاتِهِمْ اِِسْتِقْلَالِيَّةٍ مِنَ الشَّغْفِ بِمَعْرِفَةِ
الْأَشْيَاءِ الَّتِي تَقَعُ تَحْتَ نَظَرِهِمْ أَكْثَرَ مِنْ شَغْفِهِمْ بِمَعْرِفَةِ النَّاسِ
فَيَشْبُونُ عَلَى تَعْرِفِ تِلْكَ الْكَائِنَاتِ ، وَتَسْهُلُ عَلَيْهِمْ عَيْشَةُ الرِّيفِ
لِمُطَابَقَتِهَا أَيْضًا لِرَغْبَتِهِمْ فِي تَحْصِيلِ رِزْقِهِمْ بِأَنْفُسِهِمْ ، فَلَا يَبْلُغُ
الْوَاحِدُ مِنْهُمْ إِبَّانَ ^(١) الشَّبَابِ إِلَّا وَقَدْ مَارَسَ غَرْسَ الْأَشْجَارِ وَزَرْعَ
الْبُقُولِ وَتَرْبِيَةَ بَعْضِ الْحَيَوَانَاتِ الْمُنَزَلِيَّةِ . كُلُّ ذَلِكَ يُدْرِكُهُ الْكَثِيرُ
مِنْ شُبَّانِ الْإِنْكِلِيزِ بِمَحْضِ الْفِطْرَةِ مِنْ غَيْرِ تَعَبٍ وَلَا عَنَاءٍ ،
وَهَذِهِ مَعْلُومَاتٌ لَا يَحْصِلُهَا عِنْدَنَا إِلَّا الْفَلَاحُونَ وَمَنْ أَقَامُوا عَلَى
إِدَارَةِ أَمْوَالِهِمْ بِأَنْفُسِهِمْ ، وَقَدْ شَاهَدَ أَحَدُ زَمَلَانَا مُوسِيُو « بِيرو »
آثَارَ هَذِهِ التَّرْبِيَةِ بَادِيَةً حَتَّى فِي مَدَارِسِ الْمُدُنِ بِالْوَالِيَّاتِ الْمُتَّحِدَةِ
الْأَمْرِيكِيَّةِ عِنْدَ مَا ذَهَبَ إِلَيْهَا لِعَرَضٍ يَتَعَلَّقُ بِبَحْوثِنَا الْاجْتِمَاعِيَّةِ
فَرَأَى أَنَّ الْإِهْتِمَامَ بِالْعُلُومِ الطَّبِيعِيَّةِ خُصُوصًا مَا يَتَعَلَّقُ مِنْهَا بِالنَّبَاتَاتِ
وَالْحَيَوَانَاتِ هُنَاكَ أَكْثَرُ مِنْهُ عِنْدَنَا ، وَأَنَّهُمْ لَا يَقْتَصِرُونَ عَلَى
تَعْلِيمِهَا فِي الدَّرْسِ ، بَلْ يَقْرَأُونَ الْعِلْمَ بِالْعَمَلِ وَالْمَشَاهِدَاتِ . وَكَثِيرًا
مَا تَدَوَّرُ بِجُوهِهِمْ عَلَى مَوْضُوعٍ حَتَّى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ، وَالْمُدَّرْسُ يَطْلُبُ
مِنْ تَلَامِيذِهِ أَنْ يَأْتُوهُ فِي الدَّرْسِ الْقَابِلِ بِفَرْعٍ مِنْ شَجَرَةٍ أَوْ وَرَقَةٍ

لِيُلْقِيَ عَلَيْهِمُ الدَّرْسَ بِمُشَاهَدَتِهَا حَتَّى يَكُونَ إِذْرَاكُهُمْ لِشَيْءٍ حَاصِلًا
بِوَاسِطَةِ ذَلِكَ الشَّيْءِ الْمَأْخُوذِ مِنْ مَكَانِهِ الطَّبِيعِيِّ . وَظَاهِرٌ أَنَّ هَذِهِ
طَرِيقَةٌ أُثْبِتَتْ فِي التَّعْلِيمِ وَأَبْقَى لِلْعِلْمِ فِي الْأَذْهَانِ ، فَيَسْأَلُ التَّامِيذَ عَنِ
الْمَكَانِ الَّذِي تَنَاوَلَ مِنْهُ الشَّيْءُ ، وَالْأَرْضَ الَّتِي كَانَ مَوْجُودًا بِهَا ، وَعَمَّا
إِذَا كَانَ لَأَحْظَ نُمُوَّهُ وَأَنْعَمَ النَّظَرَ فِي شَكْلِهِ وَهَيْئَتِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ .

وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ هَذَا التَّعْلِيمَ غَيْرُ مَيْسُورٍ إِلَّا إِذَا سَكَنَ التَّلَامِيذَ
أَوْ بَعْضَهُمُ الْخَلَاءَ أَوْ كَانُوا بِهِ مُتَّصِلِينَ ، كَأَنَّ يَكُونُ فِي مَدَارِسِهِمْ
أَوْ عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْهَا بِسَاتِينَ يُأْخُذُونَ مِنْهَا مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ فِي دَرَسِهِمْ .
لَا حَظَّ « تَيْن » فِي الْإِنْكَلِيزِ هَذَا الْإِسْتِعْدَادَ لِمُزَاوَلَةِ أَعْمَالِ
الزَّرَاعَةِ وَالْمِيلِ إِلَى الْمَعِيشَةِ فِي الْأَرْيَافِ ، وَأَذْكَرُ عَنْهُ أَنَّهُ كَتَبَ
فِي بَعْضِ مَوْلَفَاتِهِ أَنَّ الزَّرَاعَةَ مِنَ الْمَسَائِلِ الَّتِي تَجْرِي الْمُسَامَرَةُ فِيهَا
فِي الْبُيُوتِ بَيْنَ الْمُجْتَمِعِينَ مِنْ أَهْلِ زُورَارٍ ، حَيْثُ يَدُورُ الْبَحْثُ
فِي طُرُقِ إِصْلَاحِ الْأَرْضِ ، وَيَسْرَى الْحَدِيثُ إِلَى الْجُزْئِيَّاتِ ،
وَالِاسْتِشْهَادِ بِالْأَمْثَلَةِ ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ يَمِيلُ إِلَى هَذَا الْحَدِيثِ
وَلِلنِّسَاءِ فِيهِ حَظُّ الرَّجَالِ .

وَعَلَيْهِ فَلَا يُسْتَعْرَبُ أَنَّ زَوْجَةَ صَاحِبِنَا الَّذِي أَشْرْنَا إِلَيْهِ تَكُونُ
مُسْتَعِدَّةً بِكَمَالِ الرِّضَا لِمُصَاحَبَتِهِ فِي سُكْنَى أَرْضِيهِ الَّتِي يُرِيدُ

أَنْ يَتَوَلَّى إِدَارَتَهَا بِنَفْسِهِ ، وَقَدْ حَدَّثْتَنِي فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ مِثْلًا (١)
فَرَأَيْتُ مِنْهَا الْعَزِيمَةَ صَادِقَةً وَأَنَّهَا عَوَّلَتْ عَلَى مَا عَزَمَتْ بِرَوِيَّةٍ بَعْدَ أَنْ
أَحَاطَتْ بِأَطْرَافِهِ وَتَبَيَّنَتْ وَجْهِي الضَّرَرَ وَالنَّفْعَ مِنْهُ . وَلَوْ أَنَّ فِي
زَوْجِهَا تَرَدُّدًا لَوَجَدَ مِنْهَا مُسَاعِدًا لِهِمَّتِهِ وَمُعِينًا لَهُ فِي مُهِمَّتِهِ . وَلَا
شَكَّ فِي أَنَّ مَعُونَةَ الْمَرْأَةِ لِلرَّجُلِ مِمَّا يَشُدُّ أَرْزَهُ (٢) وَيَزِيدُهُ قُوَّةً
وَإِقْدَامًا ، وَإِنِّي أَعْرِفُ كَثِيرًا مِنْ أَصْدِقَائِي فِي فِرَاسَا يُوَدُّونَ أَنْ
يَتَوَلَّوْا إِدَارَةَ أَطْيَابِهِمْ بِأَنْفُسِهِمْ لِثِقَلَةِ الْمُسْتَأْجِرِينَ ، وَلَكِنَّهُمْ
لَا يَسْتَطِيعُونَ ذَلِكَ لِإِبَاءِ نِسَائِهِمْ مُرَافَقَتَهُمْ ، فَالْمَرْأَةُ الْفِرَاسَاوِيَّةُ
أَبْعَدُ عَنْ مَعِيشَةِ الرَّيْفِ مِنَ الرَّجَالِ وَيَشُقُّ عَلَيْهَا أَكْثَرَ مِنْهُ أَنْ
تَتَخَلَّى عَنْ صَاحِبَاتِهَا وَزِيَارَاتِهَا وَالْاجْتِمَاعَاتِ الَّتِي اعْتَادَتْهَا ، وَرُبَّمَا كَانَتْ
هِيَ حَجَرِ الْعَثْرَةِ (٣) الْوَحِيدِ فِي طَرِيقِ تَقَدُّمِ زِرَاعَتِنَا وَصِنَاعَتِنَا وَتِجَارَتِنَا
بِمَا ارْتَكَزَ فِي ذَهْنِهَا مِنَ الْوَهْمِ بِأَنَّ تِلْكَ حِرْفٌ دَنِيئَةٌ . لِذَلِكَ يَتَزَوَّجُ
الرَّجُلُ أَحْسَنَ زَوْجٍ أَيْ أَعْنَى امْرَأَةٍ « وَبَيْنَ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي فَرْقٌ
بَعِيدٌ » إِذَا كَانَ فِي الْجَيْشِ أَوْ مَوْظَفًا فِي الْحُكُومَةِ ، وَيُقَالُ إِنَّ
لِلرُّؤَسَاءِ الرُّوحَانِيِّينَ تَأْثِيرًا فِي النِّسَاءِ وَلَكِنِّي أَوْدَأُ لَا يَكُونُ
ذَلِكَ كَذَلِكَ حِفْظًا لِشَرَفِهِمْ وَاسْتَبْقَاءَ حُسْنِ السَّمْعَةِ عَنْهُمْ .

لَمْ يَكُنْ عِنْدِي دَرَسٌ يَوْمِي السَّبْتِ وَالْأَحَدِ لِأَنَّهُمَا يَوْمَا عَطْلَةٍ

فِي انْكِلتَرِهٖ ، فَمِنْ ظُهُورِ السَّبْتِ تَقِفُ حَرَكَةُ الْأَعْمَالِ وَتُقْفَلُ
 الْمَعَامِلُ وَالْحَوَانِيتُ إِلَى صَبِيحَةِ يَوْمِ الْاِثْنَيْنِ . وَرُبَّ سَوْفُسْطَانِيٍّ (١)
 يَجُولُ بِخَاطِرِهِ أَنَّ الْاِنْكِلِيزِ هُمْ أَكْثَرُ الْأُمَمِ عِلْمًا وَأَقْدَمُهُمْ عَمَلًا !
 وَالْوَاقِعُ أَنَّهُ لَا نَظِيرَ لِلْاِنْكِلِيزِيِّ فِي قُدْرَتِهِ عَلَى الْعَمَلِ وَلَا فِي قُدْرَتِهِ
 عَلَى الْاِسْتِرَاحَةِ مِنْهُ لِأَنَّهُ يَعْمَلُ أَكْثَرَ مَا يُمَكِّنُ فِي أَقَلِّ مَا يُمَكِّنُ
 مِنَ الزَّمَنِ لِيَسْتَرِيحَ مَا أَمَكَّنَ . وَقَدْ شَاهَدْتُ فِي لُنْدُرِهٖ أَنَّ بَعْضَ
 الْمَخَازِنِ لَا تُفْتَحُ قَبْلَ السَّاعَةِ التَّاسِعَةِ صَبَاحًا ثُمَّ هِيَ تُقْفَلُ فِي الْمَسَاءِ
 مُبَكَّرَةً أَكْثَرَ مِنْ عِنْدِنَا ، وَكَذَلِكَ شَأْنُ الْمَصَالِحِ وَدَوَائِرِ الْأَعْمَالِ .
 وَالْخُلَاصَةُ أَنَّ يَوْمَ الْعَمَلِ الصَّحِيحِ أَقْصَرُ عِنْدَ الْاِنْكِلِيزِيِّ مِنْهُ عِنْدِنَا .
 وَمِنْ هُنَا سَهْلٌ عَلَى الْاِنْكِلِيزِيِّ أَنْ يَذْهَبَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى بَيْتِهِ فِي
 ضَوَاحِي الْمَدِينَةِ ، وَأَنْ يَعُودَ فِي الصَّبَاحِ لِأَنَّهُ لَا يَسْكُنُ حَيْثُ
 يَسْتَعْمَلُ ، كَمَا قَدَّمْتُ ، إِلَّا نَادِرًا . وَقَدْ أَكْثَرْتُ لِي بَعْضُهُمْ أَنَّ كَثِيرًا مِنْ
 أَرْبَابِ الْحَوَانِيتِ فِي إِيْدِنْبُورْجَ يَسْكُنُونَ الْخَلَاءَ ، وَيَقْطَعُونَ كُلَّ
 يَوْمٍ صَبَاحَ مَسَاءٍ مَسَافَةً كَبِيرَةً ، أَمَّا عِنْدِنَا فَالْأَكْثَرُونَ يَسْكُنُونَ
 خَلْفَ مَحَالِّ تِجَارَتِهِمْ أَوْ فَوْقَهَا ، لِذَلِكَ يَسْهُلُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَفْتَحُوا أَبْوَابَ
 أَشْغَالِهِمْ مُبَكَّرِينَ وَيَقْفَلُوهَا مُتَأَخِّرِينَ . ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ

(١) السفسطة : قياس مركب من الوهميات والغرض منه تغليط الخصم وإسكانه كقولنا:
 الجوهر موجود في الذهن وكل موجود في الذهن قائم به عرض لينجز أن الجوهر عرض

لَا يُعْطَلُونَ يَوْمَ الْأَحَدِ . وَمَا مِنْ أَحَدٍ يَسْتَرِيحُ يَوْمَ السَّبْتِ بَعْدَ الظُّهْرِ
 أَبَدًا ، وَلَوْ اقْتَصَرَ الْمُتَأَمِّلُ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ لَقَالَ إِنَّ الْفَرَنْسَاوِيَّ
 أَكْثَرَ عَمَلًا مِنَ الْأَنْكَلِيزِيِّ غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي الْوُقُوفُ عِنْدَ عَدَدِ
 سَاعَاتِ الْعَمَلِ بَلِ الْوَأَجِبُ زَنْتُهَا ؛ وَزِنَةُ عَمَلِ الْأَنْكَلِيزِيِّ أَكْبَرُ
 بِكَثِيرٍ : فَهُوَ يَعْمَلُ كَثِيرًا فِي وَقْتٍ يَسِيرٍ وَلَا يَكَادُ يَسْتَرِيحُ هُنَيْهَةً
 يَتَنَاوَلُ فِيهَا شَيْئًا مِنَ الطَّعَامِ وَسَطَ النَّهَارِ وَقَدْ يَتَنَاوَلُهُ وَهُوَ عَلَى قَدَمَيْهِ
 مِنْ دُونَ أَنْ يَتَخَلَّى عَنِ الْعَمَلِ .

انْتَهَزَتْ فُرْصَةَ الْفَرَاغِ صَبِيحَةَ يَوْمِ السَّبْتِ وَذَهَبَتْ لَزِيَارَةِ أَحَدِ
 مَنَاجِمِ الْفَحْمِ عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْ مَدِينَةِ « هَاوْتِر ندين » وَهُنَاكَ تَعَرَّفَتْ
 بِابْنِ عَمِّ مُدِيرِ الْمَنَجْمِ وَهُوَ شَابٌّ أَنْكَلِيزِيٌّ يُشْتَغَلُ بِتِجَارَةِ الْأَغْنَامِ
 فِي زِيلَانْدَةَ الْجَدِيدَةِ وَيَأْتِي فِي كُلِّ سَنَتَيْنِ مَرَّةً لِيَقْضَى شَهْرَيْنِ فِي
 أَنْكَلِيتْرَةَ وَهُوَ رَاضٍ عَنْ حَالَتِهِ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ وَقَدْ اخْتَارَهَا مُقَامًا
 أَبَدِيًّا وَقَالَ لِي : « هُنَاكَ الْحَيَاةُ الْحَقِيقِيَّةُ ! » فَسَأَلْتُهُ عَنْ مُوجِبِ إِعْجَابِهِ
 بِهَا فَوْتَالَ : « الْإِسْتِقْلَالُ ! » وَهُوَ بُرْهَانٌ جَدِيدٌ عَلَى أَنَّ مَحَبَّةَ الْإِسْتِقْلَالِ
 هِيَ الَّتِي تُحَرِّكُ الْأَنْكَلِيزِيَّ وَتَدْفَعُهُ إِلَى الْعَمَلِ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ . وَمَهْمَا
 قَلْبْنَا أَوْ أَلْهَمُ وَبِحُشْنَا فِي عَادَاتِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ وَسَبْرُ نَاغُورِ^(١) مَقْصَادِهِمْ
 وَمَرَامِيهِمْ فَلَا نَهْتَدِي إِلَى نَتِيجَةٍ غَيْرِ أَنَّهُمْ يُحِبُّونَ الْإِسْتِقْلَالَ .

(١) من سبر الجرح نظر ما غوره، والمراد حاول معرفة الحقيقة

سَأَلَتْهُ عَنْ أَنْجَحِ الطَّرِيقِ لِلْمَعِيشَةِ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ فَقَالَ: « أَنْ
يَتَدَبَّرَ الْإِنْسَانُ كَعَامِلٍ بَسِيطٍ يَرَعَى الْأَغْنَامَ » هَكَذَا بَدَأَ
ذَلِكَ الشَّابُّ! وَلَا تَنْسَ أَنْ عَائِلَتَهُ مِنْ خِيَارِ الْعَائِلَاتِ الْوَسْطَى
غَيْرَ أَنَّ الْإِنْكِلِيزِيَّ لَا يَحْتَقِرُ مِنَ الصَّنَاعَةِ إِلَّا مَا قَلَّ كَسَبَهَا
لَكِنَّ رِعَايَةَ الْأَغْنَامِ كَثِيرَةٌ الْفَوَائِدُ لِأَنَّهَا أَحْسَنُ وَسِيلَةٍ تُمْكِنُ
صَاحِبَهَا مِنْ مَعْرِفَةِ أَحْوَالِ الْبِلَادِ الَّتِي نَزَلَ بِهَا وَمِنْ الْوُقُوفِ عَلَى
جَمِيعِ مَا يَلْزَمُ الْإِتِّجَارَ بِالْأَغْنَامِ، وَأَكْبَرُ صُعُوبَةٍ عَلَى النَّفْسِ فِيهَا
وَجُودُ الْإِنْسَانِ مَعَ قَوْمٍ خَسَنَتْ طِبَاعُهُمْ غَيْرَ مُتَّقِفِينَ^(١). قَالَ صَاحِبُنَا:
(وَلَكِنْ إِذَا كَانَ الرَّجُلُ مِمَّنْ حَسُنَتْ تَرْبِيَّتُهُ فَلَا يَلْبَثُ أَنْ يَصِيرَ
مَحَلَّ احْتِرَامٍ أَوْلِيكَ الْقَوْمِ، عَلَى أَنْ مِنَ السَّهْلِ اجْتِنَابَ رِذَائِلِهِمْ بِالسُّكْنَى
بَعِيدًا عَنْهُمْ) فَإِذَا تَمَّ الْاِخْتِبَارُ وَكَمُلَ الْعِلْمُ بِمَاجَاتِ الصَّنْعَةِ الَّتِي
اخْتَارَهَا أَقْدَمَ عَلَى شِرَاءِ قِطْعٍ مِنَ الْغَنَمِ. أَمَّا إِذَا أَرَادَ الْقَادِمُ فِي تِلْكَ
الْبِلَادِ أَنْ يَبْدَأَ بِالتَّجَارَةِ مُبَاشَرَةً فَإِنَّهُ يُصْبِحُ الْعُوبَةَ فِي أَيْدِي السَّمَاوِيَّةِ
فَيَقَعُ فِي أَرْضٍ قَلِيلَةَ الْإِتِّجَارِ وَمَاشِيَةَ مَعْدُومَةَ النَّتَاجِ. وَفِي ظَنِّي أَنَّ
شَبَابَنَا لَا يَرْضَوْنَ أَنْ يَبْدُؤُوا بِالْعَمَلِ عَلَى هَذَا الْمِثَالِ عَلَى أَنَّهُ الْمِثَالُ
الْأَقْوَمُ وَبِهِ يَنْجَحُ الْكَثِيرُ مِنْ شُبَّانِ الْإِنْكِلِيزِ السَّكْسُونِيِّينَ.

وَجَهَّتْ الْعِنَايَةَ إِلَى زِيَارَةِ كَثِيرٍ مِنَ الْمَنَازِلِ الْخَلَوِيَّةِ فَكُنْتُ أَذْهَبُ

إليها كل يوم بعد الظهر، وأول ما تأثرت به كون تلك العائلات قد اتخذت الريف مقاماً أصلياً يدل عليه ما يشاهده الزائر لتلك المنازل من كثرة الصور التي تمثل أفراد العائلة والمقتنيات الفنية الثمينة، وقد يحتوي بعض هاتيك القصور على مدخرات تتفاخر بها المدائن الكبيرة لو كانت في دور تحفها، ومع ذلك اتصل بي أن بعض تلك العائلات أصبحت في حالة عسر اضطررها إلى بيع أرضها ومنها صاحبة قصر وبستان كنت أزورها وهي من أشرف إيقوسياً لأقدمين من سلالة «السلتيين» ومن الاستقصاء^(١) علمت أنها تقلبت في أدوار الحياة كتقلبات الشرفاء في فرنسا بمعنى أنها ابتعدت عن مزاولة الأعمال وما حفظت مقامها بين أترابها إلا بانتقال ثروتها من الأرشد إلى الأرشد، وكثيراً ما كانت التوارث يحصل بطريق الإيصاء^(٢) مما يشبه الوقف، ومع هذه الحيطة فقد أختى الزمان على الكثير من تلك العائلات وأمسّت يحدق بها الزوال والاندثار.

ولا غرابة في هذا فإن طبقة أشرف الإنكليز ليست في الحقيقة من نتاج الاجتماع الإنجليزى السكسونى لأن الجمعيات الاستقلالية لا تلد مثل الطبقة المذكورة، فلا يجد الباحث في أحوال الأمم

(١) التبغ والبحث (٢) من الوصية

طَبَقَةٌ مُتَمَازَةٌ يُتَوَارَثُ شَرَفُهَا مِنْ الْخَلْفِ إِلَى السَّلَفِ فِي الْبِلَادِ
الَّتِي نَشَأَ فِيهَا رَجُلٌ الْإِسْتِقْلَالَ بَعِيدًا عَنِ الْمُوَثَّرَاتِ الْأَجْنِبِيَّةِ أَيْ
عَلَى حَالَتِهِ الْأَصْلِيَّةِ. هَكَذَا الْحَالُ فِي بِلَادِ « نَرْوِيج » وَفِي بَعْضِ
جِهَاتِ السَّكْسُونِ الْمُسَمَّاةِ « بَلِين » حَيْثُ يُشَاهِدُ الزَّارِعُ
السَّكْسُونِيَّ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْذُ الْقَدِيمِ بِدُونِ أَنْ يَخْتَلِطَ بِهِ
غَيْرُهُ. كَذَلِكَ لَا تَجِدُ أَثْرًا لِطَبَقَةِ الْأَشْرَافِ الْوَرَاثِيَّةِ فِي الْبِلَادِ
الْجَدِيدَةِ الَّتِي يَسُودُ فِيهَا الْآنَ الْعُنْصُرُ الْإِنْجِلِيزِيُّ السَّكْسُونِيُّ
فَلَا أَثْرَ لَهَا فِي الْوَلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ وَلَا فِي أَوْسْتْرَالِيَا وَلَا فِي زِيلَانْدَه
الْجَدِيدَةِ وَغَيْرِهَا. وَلَا غَرَابَةَ فِي هَذَا لِأَنَّ طَبِيعَةَ ذَلِكَ الْجِنْسِ لَا تَقْتَضِي
ذَلِكَ الْوُجُودَ. وَالَّذِي يُيَمِّزُ النَّشَأَةَ الْإِسْتِقْلَالِيَّةَ عَنْ غَيْرِهَا مِنَ الْمَجْتَمَعَاتِ
الْإِنْسَانِيَّةِ هُوَ قِيَامُ كُلِّ وَوَلَدٍ مُسْتَقِلًّا بِنَفْسِهِ عَلَى مَا أُوْدِعَ فِي شَخْصِهِ
مِنَ الْقُوَّةِ وَالْإِقْتِدَارِ مِنْ دُونِ مَعُونَةِ الَّذِينَ تَرَبَّى فِي حُجُورِهِمْ وَهِيَ
الْحَالَةُ الَّتِي يُعَبَّرُ عَنْهَا الْإِنْجِلِيزِيُّ بِقَوْلِهِمْ : « مُسَاعَدَةُ الْمَرْءِ لِنَفْسِهِ »
وَ « التَّرَاحُمُ فِي الْحَيَاةِ ». وَمِنْ الْمُحَقِّقِ أَنَّ طَبَقَةَ أَشْرَافِ الْإِنْجِلِيزِ
وَمَا يَتَّبِعُهَا مِنْ حُقُوقِ الْأَرْشِدِيَّةِ وَالْإِبْصَاءِ بِالنَّقَالِ الْمِلْكِيَّةِ مِنْ
الْوَالِدِ إِلَى الْوَلَدِ آتِيَةٌ مِنْ مَبْدَأٍ يُخَالِفُ مَا تَقَدَّمَ فِيهِ أَثْرٌ مِنْ آثَارِ
الْجَمْعِيَّاتِ الْإِتْسَاكِيَّةِ الْقَائِمَةِ عَلَى قَاعِدَةٍ مُسَاعَدَةِ الْعَائِلَةِ لِابْنِهَا، مِمَّا
يَنْزِلُ بِهِمَّتِهِ إِلَى الْحَدِّ الْأَدْنَى، وَيَكْفِيهِ مَوْئِنَةٌ مُسَاعَدَتِهِ لِنَفْسِهِ

وَمُزَاحَمَتِهِ فِي الْحَيَاةِ . فَأَرَشَدُ الْعَائِلَةَ الشَّرِيفَةَ فِي بِلَادِ الْإِنْجِلِيزِ
يَنْشَأُ كَمَا يَنْشَأُ أَهْلُ جَمْعِيَّةِ الْإِتِّكَالِ .

دَخَلَتْ طَبَقَةُ الْأَشْرَافِ الْوَرَاثِيَّةُ بِلَادَ إِنْكِلِتْرَةَ مَعَ «النُّورْمَانِدِ»
الَّذِينَ وَفَدُوا عَلَيْهَا بِتَقْيَادَةِ غُلْيُومِ الْفَاتِحِ وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ الْفَاتِحِينَ مِنَ
النُّورْمَانِدِ هُمْ مِنْ أُمَّمِ الْإِتِّكَالِ ، تَجَمَّعُوا مِنْ كُلِّ الْجِهَاتِ طَمَعًا
فِي الْغَنَائِمِ ، وَأَخْصَصَهُمْ مِنْ فَاسِدِي الطَّبَاعِ وَمَنْ لَا خَلْقَ لَهُمْ وَلَا
أَرْضَ يَطْمَئِنُونَ فِيهَا . وَالتَّارِيخُ يَدُلُّنَا دَلَالَةً وَاضِحَةً عَلَى كَيْفِيَّةِ
اِحْتِشَادِ تِلْكَ الْجُنُودِ ، وَبَيْنَ لَنَا بَيَانًا كَافِيًا كَيْفَ نَزَلُوا إِلَى بِلَادِ
الْإِنْكِلِيزِ ، وَأَنَّهُمْ انْفَرَطُوا بَيْنَ أَهْلِهَا وَقَاسَمُوهُمْ أَرْضَهُمْ ، فَاخْتَصَمُوا
بِأَحْسَنِهَا ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَطْمَئِنُوا إِلَيْهَا كَاطْمِئِنَانِ السَّكْسُونِيِّينَ أَوْ
الْمُهَاجِرِينَ مِنْ أَهْلِ الْأُمَّمِ الْإِسْتِقْلَالِيَّةِ . وَاسْتَمَرَ السَّكْسُونِيُّ الْمَغْلُوبُ
يَزْرَعُ الْأَرْضَ لِمَنْفَعَةِ النُّورْمَانِدِ ؛ وَالنِّزَاعُ الْقَائِمُ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ إِنَّمَا
هُوَ نِزَاعٌ بَيْنَ جَمْعِيَّتَيْنِ مِنْ نَشَأَتَيْنِ مُخْتَلِفَتَيْنِ كُلِّ الْإِخْتِلَافِ .

وَبِعِمْقَادِ ابْتِعَادِ النُّورْمَانِدِ عَنِ الْإِطْمِئِنَانِ إِلَى الْأَرْضِ وَمُزَاوَلَةِ
أَعْمَالِهَا تَمَسَّكُوا كُلَّ التَّمَسُّكِ بِمَا يَرْجِعُ إِلَى نَشَأَتِهِمُ الْإِتِّكَالِيَّةِ
وَهُوَ الشَّرْفُ الْوَرَاثِيُّ الَّذِي يَنْتَقِلُ مِنَ الْوَالِدِ إِلَى الْوَالِدِ وَأَقَامُوا عَلَى
مَا أَوْجَدُوا مِنْ ذَلِكَ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا فَاضْرُوا كَثِيرًا مَدَى قُرُونٍ عِدَّةٍ
بِالْعُنْصُرِ الْإِنْجِلِيزِيِّ السَّكْسُونِيِّ أَوْ الْإِسْتِقْلَالِيِّ فِي إِنْجِلِتْرَةَ . وَلَيْسَ

مِنْ مَطْلَبِي أَنْ أُبَيِّنَ فِي هَذَا الْكِتَابِ كَيْفَ انْتَهَى الْحَالُ بِاجْتِيَاذِ
الْإِنْجِلِيزِيِّ تِلْكَ الْعَقَبَاتِ وَتَغْلِبُهُ عَلَى هَاتِيكَ الْعَوَاقِقِ الَّتِي قَيْدَتُهُ
أَزْمَانًا طَوِيلًا وَصَيْرُورَتِهِ صَاحِبَ الْمَقَامِ الْأَوَّلِ بِمَا أُوْدِعَ فِيهِ مِنَ
الْقُدْرَةِ عَلَى الْمَقَاوِمَةِ وَالِاحْتِمَالِ وَالْحَيَاةِ الَّتِي تَفُوقُ حَيَاةَ غَالِبِهِ كَثِيرًا
وَلَكِنِّي أَشَاهِدُ أَنَّ مِنْ نَتَائِجِ نَصْرِهِ حَصَرَ السُّلْطَةِ الْمُلُوكِيَّةِ فِي أَضْيَقِ
دَوَائِرِهَا ، فَمَنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْإِنْجِلِيزِ انْتَهَوْا بِتَأْسِيسِ نِظَامِهِمْ عَلَى أَنْ
تَحْكُمَ الْأُمَّةُ نَفْسَهَا بِنَفْسِهَا ، وَذَلِكَ مِنْ خُصُوصِيَّاتِ النَّشْأَةِ
الِاسْتِقْلَالِيَّةِ . وَكَانَ وُصُولُهُمْ إِلَى هَذِهِ الْعَالِيَةِ فِي الرَّيْزِ الَّذِي اسْتَوْلَتْ
فِيهِ النَّشْأَةُ الْإِنْجِلِيزِيَّةُ عَلَى أَرْزَمَةِ الْأُمَّةِ الْفَرَنْسَاوِيَّةِ ، فَافْضَى أَمْرُهَا
إِلَى سَيْطَرَةِ لُوِيْزِ الرَّابِعِ عَشَرَ وَاسْتِبْدَادِهِ الْمُطْلَقِ فِي حُكُومَتِهَا .

غَيْرَ أَنَّ الْإِنْجِلِيزِ لَمْ يَتَخَلَّصُوا مِنْ جَمِيعِ آثَارِ النُّورْمَانِدِ فِيهِمْ
بَلْ بَقِيَ لَهُمْ مِنْهَا طَبَقَةُ الْأَشْرَافِ الْوَرَاثِيَّةِ وَاكْتَفَوْا فِي إِبَادَتِهَا
بِأَنْ قَلَّوْا مِنْ شَأْنِهَا وَجَعَلُوهَا كَالْمُلُوكِيَّةِ اسْمِيَّةً لَا فِعْلِيَّةً مَعَ بَعْضِ
الِامْتِيَازَاتِ السِّيَاسِيَّةِ كَوُجُودِ قِسْمٍ مِنْ أَفْرَادِهَا فِي مَجْلِسِ اللُّوردَاتِ
وَلَمْ يُنَاصِأُوْهَا عَلَى هَذَا الْامْتِيَازِ ، لِأَنَّهُمْ وَجَدُوا مَزَايَاهُ رَاجِحَةً عَلَى
مَضَارِّهِ حَتَّى الْآنَ . وَبَيَانُهُ أَنَّ الْإِنْجِلِيزِيِّ - وَأَعْنِي بِهِ الْقِسْمَ السَّائِدَ
مِنَ الْإِنْجِلِيزِ ذَا النَّشْأَةِ الْاسْتِقْلَالِيَّةِ - مَيَّالٌ بِالطَّبْعِ إِلَى الصَّنَاعَاتِ
وَالْحِرَفِ لِمَا قَدَّمَاهُ مِنْ اِحْتِيَاجِ الشُّبَّانِ إِلَى تَحْصِيلِ مُرْتَقِفِهِمْ بَأَنْفُسِهِمْ

مَنْ دُونَ التَّفَاتِ إِلَى ثَرَوَةِ آبَائِهِمْ أَوْ انْتِظَارِ مَهْوَرِ نِسَائِهِمْ ، وَبِمَا
 أُودِعَ فِيهِمْ مِنْذُ طُفُولَتِهِمْ مِنْ مَحَبَّةِ الْعَمَلِ وَالْإِقْدَامِ عَلَيْهِ سَدًّا لِتِلْكَ
 الْحَاجَةِ الَّتِي يَعْرِفُونَهَا ؛ وَمَنْ وَقَفَ عَلَى حَقِيقَةِ هَذَا الْمِيلِ وَضَحَّتْ لَهُ
 الْفَائِدَةُ الَّتِي يَرَاهَا الْإِنْجِلِيزُ فِي طَبَقَةِ الْأَشْرَافِ الَّتِي وَجَدَتْ بَيْنَهُمْ
 بِالْقَهْرِ عَنْهُمْ : يَرُونَ فِيهَا وَسِيلَةً سَهْلَةً تَرْضَى بِهَا نَفْسَهُمْ وَتَرُوقُ فِي
 نَظَرِ الْغَيْرِ لِأَدَاءِ وَظِيفَةٍ لَا بَدَمْنَاهَا وَهِيَ السِّيَاسَةُ الَّتِي هُمْ لَا يَمِيلُونَ إِلَيْهَا
 مِيلًا خُصُوصِيًّا . وَمِنَ الْمُحَقِّقِ أَنَّ طَبَقَةَ الْأَشْرَافِ أَوْجَدَتْ لَهُمْ مَجْمُوعَ
 رِجَالٍ سِيَاسِيِّينَ مِنْ أَرْفَعِ السُّوَاسِ مَقَامًا ، وَزِدْ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ دَوَامَ
 مُصَادَمَةِ التَّرْيِيَةِ الْإِسْتِقْلَالِيَّةِ الَّتِي هِيَ أَصْلٌ فِي السَّكْسُونِيِّ لِلشُّرَفَاءِ
 خَفَّفَ مِنْ تَقَلُّبِ وَطَأَتِهِمْ كَثِيرًا ، وَعَلَى الْأَخْصِ مِنْذُ قَرْنٍ مِنَ الزَّمَانِ
 أَثَرَتِ النَّشَاةُ الْإِسْتِقْلَالِيَّةُ فِي الْأَشْرَافِ مِنْ جِهَتَيْنِ :

الْأُولَى أَنَّهَا انْتَشَلَتْ الْوَلَدَ الثَّانِيَّ مِنَ الْبَطَالَةِ وَأَبْعَدَتْهُ عَنْ خِدْمَةِ
 الْبِلَاطِ وَحَوْلَتْهُ عَنْ وُظَائِفِ الْحُكُومَةِ وَالْجَيْشِ ، وَهَذِهِ الْوُظَائِفُ
 هِيَ الَّتِي كَانَتْ عِنْدَنَا الْمَلْجَأَ الْوَحِيدَ لِأَوْلَادِكَ الْأَبْنَاءِ وَأَدَّتْ بِهِمْ شَيْئًا
 فَشَيْئًا إِلَى الْإِضْمِحْلَالِ وَفَقَدِ الْقُدْرَةَ عَلَى الْعَمَلِ هُمْ وَالْأَرْشُدُونَ سِوَاهِمْ ،
 فَانْحَدَرَ ذَلِكَ الْوَلَدُ مَعَ تَيَّارِ الْحَيَاةِ الْجَدِيدَةِ حَيْثُ يَقُومُ الرَّجُلُ
 فِيهَا بِأَمْرِ نَفْسِهِ مِمَّا هُوَ خَاصٌّ بِالنِّسَاءِ الْإِسْتِقْلَالِيَّةِ . لِذَلِكَ إِذَا
 انْقَرَضَ نَسْلُ الْأَرْشُدِ وَوَقَعَ الْمَالُ إِلَى أَحَدِ أَوْلَادِكَ الْأَبْنَاءِ الثَّوَانِي

رَأَيْتَهُ يَدْخُلُ فِي صَفِّ الشُّرَفَاءِ وَقَدْ تَرَبَّى تَرْبِيَةً مَتِينَةً وَكَتَسَبَ
خِبْرَةً وَهَمَّةً لَمْ تَكُنْ لِعَيْرِهِ مِمَّنْ لَمْ يَعِشْ مَعِيشَتَهُ وَلَمْ يَعْرِفْ شَيْئًا
مِنَ الْحِرْفِ الَّتِي تَرْجِعُ إِلَى الزَّرَاعَةِ وَالصَّنَاعَةِ وَالتِّجَارَةِ فَهَمُّ يُجَدِّدُونَ
حَيَاةَ تِلْكَ الطَّبَقَةِ أَنَا فَأَنَا وَلَوْلَاهُمْ لَأَنْحَلَّتْ وَأَصْبَحَتْ عَفَاءً^(١) .
وَمِنْ مُوجِبَاتِ حَيَاتِهَا أَيضًا مَا يُضَافُ إِلَيْهَا مِنَ الرَّجَالِ السَّكْسُونِيِّ
الْأَصْلِ الَّذِينَ تَرْفَعُ الْحُكُومَةُ رُتَبَهُمْ وَتُنْعِمُ عَلَيْهِمْ بِالْقَابِ
اللُّورْدَاتِ وَمَا يَمَثِلُهَا .

الثَّانِيَةُ : أَنَّهُمَا مَا زَالَتْ بِالْأَشْرَافِ كَمَا فَعَلَتْ بِالْمَلُوكِيَّةِ حَتَّى
انْتَزَعَتْ مِنْ نَفُوسِهِمْ كُلَّ طُمُوحٍ إِلَى الْعِبَثِ بِجُرِيَّةِ الْأَفْرَادِ
وَاسْتِقْلَالِهِمْ ، ذَلِكَ لِأَنَّ رَجُلَ الْإِسْتِقْلَالِ لَا يَهْتَمُّ بِالسِّيَاسَةِ اهْتِمَامَ
رَجُلِ الْإِتِّكَالِ بِهَا ، وَلَا يَعِيشُ مِنْهَا مِثْلَهُ وَلَكِنَّهُ شَدِيدُ الْحِرْصِ
عَلَى اسْتِقْلَالِهِ وَخَلَاصِهِ مِنْ كُلِّ قَيْدٍ يَعُوقُهُ عَنْ عَمَلِهِ الذَّاتِيِّ لِاحْتِيَاجِهِ
إِلَيْهِ فِي تَحْصِيلِ مُرْتَزَقِهِ ، فَلَا يُطِيقُ مَا يَعُوقُ زِرَاعَتَهُ أَوْ يَعْطَلُ صِنَاعَتَهُ
أَوْ يَضُرُّ تِجَارَتَهُ ، وَلَا يَقْبَلُ أَنْ تُضَايِقَهُ الْحُكُومَةُ بِاسْتِبْدَادِهَا
وَلَا أَنْ تُثْقَلَ عَلَيْهِ ضَرَائِبُهَا . وَنَتِيجَةُ تِلْكَ الْحَالِ مِثْلُهُ الدَّائِمُ إِلَى
جَعْلِ الْحُكُومَةِ مَقْصُورَةً عَلَى وَظِيفَتِهَا الضَّرُورِيَّةِ ، وَهِيَ حِفْظُ
الْأَمْنِ الْعَامِّ اللَّازِمِ لِكُلِّ وَاحِدٍ فِي عَمَلِهِ . أَمَّا نَتِيجَةُ حَالِ الْأَمَمِ

الِاتِّسَالِيَّةِ فَهِيَ عَلَى الضَّدِّ مِنْ ذَلِكَ ، الْاِخْلَالَ بِالْأَمْنِ الْعَامِّ بِقَدْرِ
 الْإِمْكَانِ وَالنَّاسُ يَعْمَلُونَ لِذَلِكَ جُهْدَهُمْ رَجَاءً مَا يُسِرُّونَ فِي نَفْسِهِمْ إِذَا
 تَغَلَّبَ حَزْبُهُمْ عَلَى نَيْلِ الْوُظَائِفِ ذَاتِ الرِّوَابِ الْوَافِرَةِ لَهُمْ أَوْ
 لِأَبْنَائِهِمْ إِذِ الثَّابِتُ فِي الْأَذْهَانِ أَنَّ أَحْسَنَ الْعَيْشِ مَا كَانَ ثَمَنُهُ مِنْ
 أَمْوَالِ الْأُمَّةِ الَّتِي تَجْمَعُهَا الْحُكُومَةُ فِي خَزَائِنِهَا ، وَلَيْسَ لِمَا أَحَدُنَا
 مِنْ الْقَلَاقِلِ ، وَمَا أَضْرَمْنَاهُ مِنْ نَارِ الثُّورَاتِ وَالْفِتَنِ الْمُتَعَدِّدَةِ الَّتِي
 لَا يَزَالُ أَهْلُ أَمْرِيكَ الْجَنُوبِيَّةِ يَسْتَخْدِمُوهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ سَبَبٌ
 غَيْرُ مَا تَقَدَّمَ

هَكَذَا كَانَ تَعَوُّدُ الْأُمَّةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ حُكُومَةَ نَفْسِهَا بِنَفْسِهَا ،
 مُقَلِّلاً لِامْتِيَازَاتِ الشُّرَفَاءِ مِنْهُمْ وَهُمْ الَّذِينَ كَانَ يُخْشَى مِنْ ثِقَلِ
 وَطَأْتِهِمْ ، وَصَيْرُورَتِهِمْ مَمْقُوتِينَ بِسَبَبِهَا

وَمَعَ أَنْ طَبَقَةَ الْأَشْرَافِ الْوَرَاثِيَّةَ طَارِئَةً عَلَى إِنْجِلِيزِيَّا فَانْهَارَتْ
 أَضْرَتْ بِرَجُلِهَا الْأَصْلِيِّ وَغَيَّرَتْ مِنْهُ كَثِيراً ، وَإِذَا قَابَلْنَا بَنِي
 مَنَافِعِهَا وَأَضْرَارِهَا وَجَدْنَا الثَّانِيَةَ هِيَ الرَّاجِحَةُ

مَدَارُ النَّشْأَةِ الْاِسْتِقْلَالِيَّةِ عَلَى أَنَّ الرَّجُلَ لَا قِيَمَةَ لَهُ إِلَّا بِنَفْسِهِ
 وَقُدْرَتِهِ عَلَى الْعَمَلِ وَهِمَّتِهِ وَمُشَابَرَتِهِ وَلَا فَرْقَ بَيْنَ بَعْضِ النَّاسِ
 وَبَعْضِهِمْ إِلَّا بِمَا كَانَ رَاجِعاً إِلَى تِلْكَ السِّفَاتِ وَدُخُولِ طَبَقَةِ رَفِيعَةِ
 الْمَقَامِ بِمُقْتَضَى الْوَرَاثَةِ وَالْتِنَاسُلِ قَدْ أَوْجَدَ بِجَانِبِ هَذَا الْأَصْلِ فِكْراً

أَخْرَأْتِكَلِيًّا مَادَّتُهُ أَنَّ الرَّجُلَ لَيْسَ شَيْئًا بِنَفْسِهِ بَلْ قِيَمَتُهُ تَأْتِيهِ
 مِنْ عَائِلَتِهِ وَعَشِيرَتِهِ وَحِزْبِهِ الَّذِي يَنْتَمِي إِلَيْهِ وَظَاهِرُهُ أَنَّ هَذَا
 تَغْيِيرٌ عَظِيمٌ كَمَا أَشْرْتُ إِلَيْهِ لِأَنَّهُ يُعَيِّرُ مِثَالَ الْأُمَّةِ فِي أَصْلِهِ وَنَحْنُ
 أَهْلُ الْقَارَةِ لَا نَشْمَعُ كَثِيرًا مِنْ هَذَا الْفِكْرِ لِأَنَّنَا رُبِينَا كُلَّنَا فِي
 فِكْرَةِ الْإِتْكَالِ عَلَى اخْتِلَافٍ فِي قُوَّةِ تَأْثِيرِهَا عِنْدَ كُلِّ فِرْدٍ بِذَاتِهِ
 وَلِذَلِكَ نَرَى تَقْسِيمَ النَّاسِ إِلَى طَبَقَاتٍ بِحَسَبِ النَّسْلِ وَالْعَشَائِرِ
 أَمْرًا طَبِيعِيًّا. إِلَّا أَنَّ الْأَمْرَ لَيْسَ وَاحِدًا فِي أَنْكَرِ الْأَسِيَامَا عِنْدَ مَجْمُوعِ
 الْأُمَّةِ حَيْثُ النَّشْأَةُ الْإِسْتِقْلَالِيَّةُ ثَابِتَةٌ الدَّعَائِمُ فِي الْأُذْهَانِ وَكَثِيرًا
 مَا شَاهَدْتُ هَذَا الشُّعُورَ عِنْدَهُمْ وَهُوَ ظَاهِرٌ فِي كِتَابِ الْفَهْمِ مَسِيُو
 (شاكيري) وَسَمَاءُ (كِتَابِ الْمُسْتَشْرِفِينَ) فِي التَّنْذِيدِ بِالَّذِينَ
 يُجْبُونَ الشَّرْفَ وَيَمِيلُونَ إِلَيْهِ. وَالْمُسْتَشْرِفُ هُوَ الَّذِي يُعْجَبُ بِالْأَمْرَاءِ
 وَيَقْلُدُهُمْ فِيمَا يَفْعَلُونَ وَمَا يَقُولُونَ وَيَتَّخِذُ كُلَّ وَسِيلَةٍ لِلتَّحَكُّكِ^(١)
 فِيهِمْ وَالِاتِّصَاقِ بِهِمْ وَلَا يَنْظُرُ فِي أَحْوَالِ النَّاسِ وَيَحْكُمُ عَلَى
 أَعْمَالِهِمْ بِرَأْيِهِ وَنَظَرِهِ بَلْ بِمَا يَرَاهُ أَوْ لَيْتَكَ الْأَمْرَاءَ الَّذِينَ جَعَلُوا
 لَهُمْ حَيَاةً عَلَى حِدَةٍ. قَالَ الْمُؤَلِّفُ «لَقَدْ يَسْتَعْرِبُ الْإِنْسَانُ مِنْ
 انْتِشَارِ الْأُورْدِيَّةِ وَالْأَهْمِيَّةِ الَّتِي صَارَتْ لَهَا فِي هَذِهِ الْبِلَادِ وَكَيْفَ

(١) أصل التحكك بالشئ التمرس به والتعرض لشره ولكنه هنا يريد هنا الالتصاق

يَصِحُّ فِي بَلَدِنَا الَّذِي يُقَالُ إِنَّهُ حُرٌّ أَنْ تَعْبُدَ رُبَّةَ الْآبَاءِ (اللوردية)
 حَتَّى لَمْ يَبْقَ فِينَا وَاحِدٌ لَمْ يَنْخَدِعْ بِخِيَلِهَا وَلَمْ يَنْبَطِحْ عَلَى بَطْنِهِ
 إِجْلَالًا لَهَا وَتَعْظِيمًا وَفِي ظَنِّي أَنَّ تَأْثِيرَ الشُّرَفَاءِ فِي الْمُسْتَشْرِفِينَ كَانَ
 تَأْثِيرًا عَظِيمًا فَبَقَاءَهُ هُوَ لَا وَانْتِشَارُهُمْ فَضِيلَةٌ مِنْ فَضَائِلِ الْأَشْرَافِ (١)
 الَّتِي نَحْمَدُهُمْ عَلَيْهَا « وَلِيَلَاحِظْ أَنَّ السَّكَاتِبَ كَانَ يَقُولُ ذَلِكَ سَنَةَ
 ١٨٤٨ أَيَّامَ كَانَ صَوْتُ الْأَشْرَافِ رَفِيعًا وَقَوْلُهُمْ مَسْمُوعًا ثُمَّ أَخَذَ
 الْمُؤَلِّفُ يَدَ كُرْ فَلَانَاوَفَلَانَا مِمَّنْ غَرَّتْهُمْ الظُّوَاهِرُ فَاسْتَشْرَفُوا وَجَعَلَ
 يَصِفُهُمْ بِصِفَاتٍ يَهْرُبُ الْعَاقِلُ مِنْهَا

وَاعْلَمْ أَنَّ الْإِسْتِشْرَافَ مُنْتَشِرًا فِي فِرَنْسَا كَانْتِشَارُهُ فِي إِنْجِلْتِرَا
 نَحَا مِنْهَا إِلَّا مَنْ يُحِبُّ الْأَشْرَافَ وَيَصْبُو إِلَى الشَّرَفِ ، غَيْرَ أَنَّ الْفَرْقَ
 بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ أَنَّ حَالَتَنَا طَبِيعِيَّةٌ تَرْجِعُ إِلَى نَشَاتِنَا الْإِتِّكَالِيَّةِ بِخِلَافِهَا
 عِنْدَ الْإِنْجِلِيزِ فَإِنَّهَا عَرَضِيَّةٌ دَخِيلَةٌ فِي بِلَادِهِمْ مُنَاقِضَةٌ لِنَشَاةِ الْعُنْصُرِ
 السَّائِدِ فِيهَا ، وَلِذَلِكَ يُرْجَى حُصُولُ التَّعْيِيرِ مَتَى قَوِيَتْ النِّشَاةُ
 الْأَصْلِيَّةُ وَتَغَلَّبَتْ عَلَى الدُّخْلَاءِ ، وَهَذَا هُوَ مَا يَجْرِي الْيَوْمَ فِي تِلْكَ
 الْبِلَادِ ، إِذْ مِنَ الْمُحَقَّقِ أَنَّ تَأْثِيرَ الشُّرَفَاءِ يَضْعُفُ يَوْمًا فَيَوْمًا وَهُوَ
 الْآنَ أَقَلُّ بِكَثِيرٍ مِنْهُ فِي زَمَنِ « شَا كِيرِي » عَلَى قُرْبِهِ مِنْهَا وَيَحَالُ أَنْ
 مَرَكِزَهُمْ أَصْبَحَ مُزْعَزَعًا بِدَلِيلِ انْحِطَاطِ سُلْطَةِ مَجْلِسِ اللُّورْدَاتِ

شَيْئًا فَشَيْئًا حَتَّى انْتَهَى النَّاسُ فَبَحَثُوا جَهْرَةً فِي وُجُوبِ إِنْغَائِهِ . وَمِمَّا
لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ إِنْغَاءَهُ لَا يُحْدِثُ تَغْيِيرًا أَبْتَةً^(١) فِي نِظَامِ الْأُمَّةِ
الْإِنْجِلِيزِيَّةِ لِأَنَّهُ مِنَ الْأَصْلِ أَمْرٌ زَائِدٌ فِي ذَلِكَ النِّظَامِ .

عَلَى أَنَّ إِنْجِلِيزِيَّا لَنْ تَعْدَمَ بِفَقْدِ اللُّورْدَاتِ وَجُودِ طَبَقَةِ رَفِيعَةٍ
لِأَنَّ الْعُنْصُرَ الْإِسْتِقْلَالِيَّ يَلِدُ هَذِهِ الطَّبَقَةَ وَإِنْ كَانَ التَّكْوِينُ مُخْتَلِفًا .

وَتِلْكَ الطَّبَقَةُ مَوْجُودَةٌ فِعْلًا فِي بِلَادِ الْإِنْجِلِيزِ وَمُنْتَشِرَةٌ بَيْنَ أَهْلِهَا وَهِيَ
طَبَقَةُ الْمُهَذَّبِينَ . وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْمُهَذَّبِ وَبَيْنَ اللُّورْدِ أَوِ الشَّرِيفِ أَنَّ مَنْزِلَةَ
الْأَوَّلِ لَيْسَتْ وَرَائِيَّةً بَلْ هِيَ ذَاتِيَّةٌ كَسْبِيَّةٌ وَلَا دَخَلَ لِلْحُكُومَةِ
فِي إِقْرَارِهَا ، وَإِنَّمَا النَّاسُ يَعْرِفُونَهَا لِمَنْ أَصْبَحَ جَدِيرًا بِهَا . وَيُقَالُ الْيَوْمَ
عِنْدَهُمْ فَلَانٌ مُهَذَّبٌ أَوْ غَيْرُ مُهَذَّبٍ يُرَادُ بِذَلِكَ أَنَّ لَهُ مِنْ حَمِيدِ
الْصِّفَاتِ وَجَمِيلِ الْأَخْلَاقِ مَجْمُوعًا يَعْسُرُ التَّعْرِيفُ عَنْهُ ، وَرَبَّمَا جَمَعَهَا
الْإِنْكِلِيزِيُّ فِي كَلِمَةِ « الْكِرَامَةِ » أَوْ « الْوَقَارِ » . وَالْمُهَذَّبُ مَوْجُودٌ
فِي جَمِيعِ الْحُرُوفِ وَجَمِيعِ الصَّنَاعَاتِ مَا عَلَا مِنْهَا وَمَا اتَّضَعُ ، كَمَا أَنَّ
النَّاسَ لَا يُطْلِقُونَ هَذَا اللَّقْبَ عَلَى رَجُلٍ كَرِيمٍ الْحَسَبِ إِذَا بَدَأَ مِنْ
أَطْوَارِهِ مَا لَا يَنْطَبِقُ عَلَى مُوجِبَاتِ الْكِرَامَةِ وَالْوَقَارِ . فَالْمُهَذَّبُ هُوَ
مِثَالُ أَعْلَى طَبَقَاتِ السَّكْسُونِيِّ كَمَا أَنَّ اللُّورْدَ أَوْ الْأَمِيرَ مِثَالُ أَعْلَى
طَبَقَاتِ النُّورْمَانْدِ .

وَهُنَاكَ سَبَبٌ آخَرٌ يُسَاعِدُ إِنْكَتِرًا عَلَى التَّخَلُّصِ مِنْ شَرِّ
 الْإِسْتِشْرَافِ: ذَلِكَ أَنَّ الرَّجُلَ عِنْدَنَا يُصْبِحُ فِي صَفِّ الْعُظَمَاءِ مَعْدُودًا
 مِنَ الْأَمْرَاءِ مَتَى احْتَرَفَ بَعْضَ الْحِرَفِ وَابْتَعَدَ عَنِ الْبَعْضِ الْآخَرَ
 فَحَنُّ كَالْهُنُودِ فِي تَعَدُّدِ الطَّبَقَاتِ وَالْمَرَاتِبِ . نَقُولُ إِنَّ مِنَ الْحِرَفِ
 الشَّرِيفَةَ وَالْوَضِيعَةَ ، وَالْأُولَى هِيَ الْجُنْدِيَّةُ وَوُظَائِفُ الْحُكُومَةِ
 وَالِاسْتِعْمَالُ بِالْآدَابِ كَالْكِتَابِ ، وَالثَّانِيَّةُ هِيَ الصَّنَاعَةُ وَالتَّجَارَةُ ،
 وَزِدْ عَلَيْهِمَا الزَّرَاعَةَ لِأَنَّهَا تَرْكَبُ بِالْفِعْلِ وَاخْتَصَّ بِمُزَاوَلَتِهَا
 الْمُسْتَأْجِرُونَ وَالْوُكَلَاءُ وَالنُّظَارُ ، وَلَسْنَا نَشَاهِدُ شَابًّا مِنْ أَهْلِ
 الْحَسَبِ يَسْعَى فِي الْإِسْتِعْمَارِ بِأَيِّ جِهَةٍ كَانَتْ ، هَكَذَا قَوَى عِنْدَنَا
 التَّفْرِيقُ بَيْنَ طَبَقَاتِ الْأُمَّةِ لِتَشْرِيفِنَا بَعْضَ الصَّنَاعَاتِ وَتَحْقِيرِنَا
 الْبَعْضَ ، وَلَيْسَ الْإِسْتِشْرَافُ إِلَّا نَتِيجَةُ ذَلِكَ التَّمْيِيزِ ، لَكِنْ لَا وُجُودَ
 لِهَذَا التَّمْيِيزِ عِنْدَ الْإِنْكَلِيزِ السَّكْسُونِيِّينَ أَوْ أَنَّهُ يَمْحَى شَيْئًا
 فَشَيْئًا . فِي الْوَلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ حَيْثُ يُوجَدُ الْعُنْصَرُ الْإِسْتِقْلَالِي خَالِصًا
 مِنَ الْعَوَائِقِ الَّتِي تَسَكْتَفُهُ فِي إِنْكَتِرَا لَا يَشْعُرُ الْإِنْسَانُ بِوُجُودِ فَرْقٍ
 بَيْنَ صَنَعَةٍ وَآخَرَى ، وَيُحْسُ بِأَنَّ اعْتِبَارَ كُلِّ النَّاسِ رَاجِعٌ إِلَى
 قِيَمَتِهِ الذَّاتِيَّةِ وَهَمَّتِهِ وَثَبَاتِهِ وَإِقْدَامِهِ ، وَالْحَالُ سَائِرٌ إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ
 بِعَيْنِهَا فِي إِنْكَتِرَا وَكُلُّهُ نَتِيجَةُ السَّاعِ نِطَاقِ الصَّنَاعَاتِ وَالْحِرَفِ
 الْجَارِيَةِ بِتَأْسِيسِ الْمَعَامِلِ الْكَبِيرَةِ وَتَسْهِيلِ طُرُقِ النُّقْلِ بَعْدَ

اسْتِكْشَافِ الْفَحْمِ وَاسْتِعْمَالِهِ . وَهَذِهِ النَّهْضَةُ الْجَدِيدَةُ الَّتِي دَوَّخَتْ
الْجَمْعِيَّاتِ الْاِتِّكَالِيَّةَ شَدَّتْ عَزَائِمَ الْجَمْعِيَّاتِ الْاِسْتِقْلَالِيَّةِ لِاسْتِعْدَادِهَا
لِقَبُولِهَا ، فَبَعْدَ أَنْ انْزَوَتْ اِنْكَبَرَتْ وَقْتًا طَوِيلًا بِمَا طَرَأَ عَلَيْهَا مِنْ
تَقَالِيدِ فَاتِحِي النُّورِ مَانِدٍ وَنِظَامَاتِهِمْ قَامَتْ الْيَوْمَ تَنْشِطٌ مِنْ قِيُودِهَا
وَتَمَّا لِكُ قُوَاهَا وَتَرَجِعُ شَيْئًا فَشَيْئًا إِلَى نِظَامِهَا الْاِنْكَلِيزِيِّ
السَّكْسُونِيِّ وَنَشَأَتْهَا الْاِسْتِقْلَالِيَّةَ ، وَلَنْ يَعُوقَ نُهُوضَهَا هَذَا عَاقِبُ
مِنْ بَعْدُ . وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَقِفَ عَلَى نِهَائِيَّةِ تِلْكَ النَّهْضَةِ فَانْظُرْ إِلَى
الْبِلَادِ الْاَمْرِيكِيَّةِ ؛ وَأَعْنِي بِهَا الْوَلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةَ حَيْثُ الْعُنْصُرُ
الْاِنْكَلِيزِيُّ يَرْجِعُ إِلَى نَشَأَتِهِ الْاِحْصَالِيَّةِ وَيَسْتَرُدُّ مَا لِأَصْلِهِ مِنَ الْقُوَّةِ
وَالصَّفَاءِ مُسْتَعِينًا بِمَا هِيَ لَهُ مِنْ فَسِيحِ الْأَقْطَارِ الَّتِي يَبْسُطُ فِيهَا هِمَّتَهُ
وَبِمَا أُتِيحُ^(١) لَهُ مِنْ عَدَمِ وُجُودِ طَبَقَةِ أَشْرَافٍ وَرِاثِيَّةٍ فِي أُمَّتِهِ كَالَّتِي
أَوْجَدَهَا التَّغْلُبُ فِي الْبِلَادِ الْاِنْكَلِيزِيَّةِ .

الفصل الرابع

﴿ فِي أَنْ طَرِيقَةَ الْمَعِيشَةِ الْمَنْزِلِيَّةِ تُسَاعِدُ عَلَى نَجَاحِ ﴾

(الإنكليز السكسونيين)

أَكْبَرُ الْعَقَبَاتِ فِي سَبِيلِ تَرْقِيَةِ الْأَفْرَادِ وَالْهَيْئَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ هِيَ

مَعْرِفَةَ الْغَايَةِ الَّتِي يَجِبُ أَنْ تُقْصَدَ وَالْوَسِيلَةَ الَّتِي تُرَوِّدِي إِلَيْهَا، فَلَا فَايِدَةَ
 فِي مَعْرِفَةِ الْغَايَةِ إِنْ جُهَلَ سَبِيلُهَا؛ وَكَثِيرًا مَا جَاءَتْ النَّتَائِجُ عَلَى
 عَكْسِ الْمُرَادِ لِلْجَهْلِ بِالطَّرِيقِ الْوَاجِبِ اتِّخَاذُهُ أَوْ لِعَدَمِ الْعِلْمِ بِهِ
 كَمَا يَنْبَغِي. وَفِي بَيَانِ مَبْدَأِ هَذَا الطَّرِيقِ وَالِدَّلَالَةِ عَلَى أَوَّلِ مَرَحَلَةٍ
 مِنْهُ هُدَى لِلْقُرَاءِ إِلَى الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ.

لَقَدْ كَانَ مِنْ أَكْبَرِ هَمِّي، كَمَا أَقَمْتُ فِي بِلَادِ الْإِنْكَلِيزِ، أَنْ أُنْحَثَ
 فِي انْتِقَالِ الرَّجُلِ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ آخَرَ وَكَانَ مَوْضِعُ الْبُحْثِ
 مُلَامِعًا لَهُ كُلِّ الْمُلَامِعَةِ لِأَنَّهُ لَا يُوجَدُ فَوْقَ الْبَسِيطَةِ (١) بَلَدٌ
 اجْتَمَعَتْ فِيهِ أَشْكَالُ رَجُلٍ الْاِسْتِقْلَالِ مَعَ أَشْكَالِ رَجُلٍ الْاِتِّكَالِ
 مِثْلُ اِنْكَلِتْرَا فِيهِ يَجْمَعُ أَشْكَالَ مِنَ النَّاسِ كَبِيرٌ. وَقَدْ يُوجَدُ
 هَذَا الْاجْتِمَاعُ فِي الْوَلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ إِلَّا أَنَّ الْبُحْثَ فِيهَا أَصْعَبُ
 بكَثِيرٍ، لِأَنَّ الْأَشْكَالَ الْمَوْجُودَةَ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ غَيْرُ مُقِيمَةٍ فِي
 الْوَسْطِ الَّذِي نَشَأَتْ فِيهِ أَصْلًا. فَسُكَّانُ أَمْرِيكََا لَفَيْفٌ مُجْمَعٌ إِلَيْهَا
 مِنْ كَافَّةِ الْبِلَادِ الْاُورُوبِيَّةِ بِحَيْثُ يَتَعَذَّرُ الْآنَ بَيَانُ بَلَدٍ كُلِّ فَرِيقٍ
 مِنْهُمْ، ثُمَّ انْتِقَالُ أَوْلِيكَ الْقَوْمِ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ حَاصِلٌ فِي بِلَادٍ
 جَدِيدَةٍ وَلَا يَزَالُونَ سَائِرِينَ إِلَى نَشْأَةِ اجْتِمَاعِيَّةٍ قَدْ اسْتَوْلَتْ عَلَيْهِمْ
 فَصَارُوا فِيهَا كَالْمَعْلُوقِينَ بَيْنَ أَصْلِهِمُ الْقَدِيمِ وَوَطَنِهِمُ الْجَدِيدِ.

أَمَا النَّازِلُونَ فِي الْبِلَادِ الْإِنْكِلِيزِيَّةِ فَإِنَّهُمْ قَصَدُوا هَهَا مِنْ زَمَنِ
بَعِيدٍ، فَتَرَى عُنْصُرَ «السَّلْتِ النُّورْمَانْد» وَعُنْصُرَ الْإِنْكِلِيزِ السَّكْسُونِيِّينَ
مُسْتَقَرِّينَ فِي حَالَةٍ طَبِيعِيَّةٍ تُسَهِّلُ عَلَى الْبَاحِثِ مَا يُرِيدُ مِنَ النَّظَرِ
فِي أَحْوَالِهِمْ إِذْ يَجِدُ جَمِيعَ أَشْكَالِ الْأَجْنَاسِ حَاضِرَةً مِنْ السَّلْتِ
الْهَجْلَنْدِيِّينَ فِي إِيْقُوسِيَاوِ إِرْلَنْدَةَ الَّذِينَ لَمْ يَدْخُلْهُمْ دَخِيلٌ إِلَى السَّكْسُونِيِّ
الْحَقِيقِيِّ السَّاكِنِ فِي الْجَنُوبِ أَوْ الْوَسْطِ . وَبَيْنَ هَذَا وَذَلِكَ أَشْكَالُ
مُتَوَسِّطَةٌ شَتَّى . وَمِنْ أَكْبَرِ الْفَوَائِدِ أَنْ يَتَسَنَّى ^(١) تَقْسِيمُ جَمِيعِ
تِلْكَ الْأَشْكَالِ إِلَى فِرْقٍ مُتَّازَةٍ بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ لِيَقِفَ الْإِنْسَانُ
عَلَى كَيْفِيَّةِ انْتِقَالِ السَّلْتِ الْإِتْكَالِيِّ مِنْ حَالَتِهِ الْأُولَى حَتَّى صَارَ
سَكْسُونِيًّا اسْتِقْلَالِيًّا . وَبِرِيطَانِيَا الْعُظْمَى أَشْبَهُ بِبُودَقَةٍ ^(٢) عَظِيمَةٍ
تَتَحَلَّلُ فِيهَا عَلَى الدَّوَامِ عَنَاصِرُ هَيْئَتِهَا الْاجْتِمَاعِيَّةِ فَيَسْتَحِيلُ ^(٣)
السَّلْتِيُّ إِلَى سَكْسُونِيٍّ حَاضِعًا فِي اسْتِحَالَتِهِ إِلَى سُنَّةٍ : مَا تَزَاحَمَ عُنْصُرَانِ
مِنْ عَنَاصِرِ الْاجْتِمَاعِ إِلَّا تَغَلَّبَ الْقَوِيُّ مِنْهُمَا وَحَمَلَ الضَّعِيفَ
عَلَى التَّشْبُهِ بِهِ وَلَا مُشَاحَةَ ^(٤) فِي أَنْ أَقْوَى الْعُنْصُرَيْنِ هُنَا هُوَ السَّكْسُونِيُّ .
ثَبَّتَ إِذَنْ أَنَّ انْكِلتِرَا هِيَ أَحْسَنُ بَلَدٍ يَجِدُ فِيهِ الْبَاحِثُ أَوَّلَ
مَرَحَلَةٍ مِنْ مَرَاحِلِ تَحَوُّلِ الْأَشْكَالِ نَحْوِ الْاسْتِقْلَالِ وَيَقِفُ عَلَى

(١) يتيسر ويسهل (٢) البودقة والبوتقة: الوعاء الذي يذيب الصائغ فيه المعدن

(٣) يتحول (٤) يريد لا تزاغ

مَبْدَأِ انْتِقَالِ السَّلْتِي إِلَى سَكْسُونِي بِوَجْهِ خَاصٍّ، وَعَلَى أَوَّلِ خُطْوَةٍ
يَخْطُوهَا الْإِتْكَالِيُّ نَحْوَ الْإِسْتِقْلَالِيِّ بِوَجْهِ عَامٍّ حَتَّى يَبْلُغَ أَرْقَى
دَرَجَاتِهِ وَيَصِلَ إِلَى آخِرِ شَكْلِ مَنْ أَشْكَالِهِ.

وَلَسْتُ أَخْشَى الزَّلَلَ (١) إِذَا قُلْتُ إِنَّ أَوَّلَ دَرَجَاتِ ذَلِكَ الْإِنْتِقَالِ
هِيَ كَيْفِيَّةُ الْإِقَامَةِ فِي الْمَسْكَنِ.

جَالٌ بِخَاطِرِي هَذَا الرَّأْيِ أَوَّلَ مَرَّةٍ عِنْدَ مَا كُنْتُ فِي أَيْدِ نُبُورِجَ
وَأَنْهَزْتُ الْفُرْصَةَ لَزِيَارَةِ مَنْجَمِ الْفَحْمِ وَالضَّيْعَةِ الْقَرِيبَةِ مِنْ تَلْكَ
الْمَدِينَةِ، كَمَا أَشْرْتُ إِلَيْهِ فِي الْفَصْلِ السَّابِقِ، وَقَدْ بَيَّنْتُ هُنَاكَ الْفَرْقَ
الظَّاهِرَ بَيْنَ مَسَاكِنِ الْفَعْلَةِ الْإِيْقُوسِيِّينَ مِنْ «اللُّولَانْدِ» وَمَسَاكِنِ
السَّلْتِيِّينَ أَوْ الْإِرْلَنْدِيِّينَ. فَالْأُولَى نَظِيفَةٌ فِي غَايَةِ الْإِعْتِنَاءِ، وَالثَّانِيَةُ
قَدْرَةٌ فِي غَايَةِ الْإِهْمَالِ. وَهَذَا الْفَرْقُ هُوَ الَّذِي وَجَّهَ فِكْرَتِي إِلَى أَهْمِيَّةِ
الْمَسْكَنِ مِنْ جِهَةِ انْتِقَالِ الرَّجُلِ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، وَهُوَ هُنَا فِي الْوَاقِعِ
أَوَّلَ خُطْوَةٍ فِي هَذَا السَّبِيلِ لِأَنَّ الْفَعْلَةَ الْإِيْقُوسِيِّينَ مِنْ «اللُّولَانْدِ»
هُمْ فِي الْأَصْلِ مِنْ أَهْلِ النَّشْأَةِ الْإِتْكَالِيَّةِ، وَأَوَّلُ شَيْءٍ يَمْتَّازُونَ بِهِ
عَنِ الْإِتْكَالِيِّينَ الْإِرْلَنْدِيِّينَ أَوْ الْمُهْجَلَنْدِيِّينَ هُوَ اِهْتِمَامُهُمُ الزَّائِدُ
بِتَحْسِينِ مَسْكَنِهِمْ؛ فَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءِ الْإِسْتِقْلَالِيِّينَ الَّذِينَ لَا يَزَالُونَ
فِي مَبْدَأِ انْتِقَالِهِمْ وَلَكِنَّهُمْ صَارُوا فِي حَالَةٍ لَا بُدَّ مَعَهَا مِنْ صَيْرُورَتِهِمْ

اِسْتِقْلَالِيْنَ كَامِلِيْنَ اَوْ مَا يَقْرُبُ مِنْ ذَلِكَ . وَكَيْفِيَّةُ سُكْنَاهُمْ هِيَ
الَّتِي تُمَيِّزُهُمْ عَنْ غَيْرِهِمْ . وَمِنْ هُنَا اسْتَنْتَجَبُ اَنَّ الْاِنْتِقَالَ فِي حَالَةِ
الْمَسْكَنِ هُوَ اَوَّلُ شُخُوصِ (١) الْمَرْءِ نَحْوِ الْاِنْتِقَالِ اِلَى حَالَةِ الْاِسْتِقْلَالِ .
دَلَّ كَثِيرٌ مِنَ الْاِقْتِصَادِيِّينَ ، وَعُلَمَاءِ الْاِجْتِمَاعِ ، وَمُحِبِّي الْاِنْسَانِيَّةِ
عَلَى اَهْمِيَّةِ الْمَسْكَنِ ، وَفِي مُقَدِّمَتِهِمْ مُوسِيُو « لَابِلِي » فَاِنَّهُ كَشَفَ
الْقِنَاعَ عَنْ تِلْكَ الْاَهْمِيَّةِ وَاسْتَدَلَّ عَلَيْهَا بِوَقَائِعَ شَتَّى . وَكَثِيْرًا
مَا ذَكَرَ الْبَاْحِثُوْنَ اَنَّ مِنْ مُجْمَلَةِ اَسْبَابِ تَقَدُّمِ الْاِنْسَانِ وَارْتِقَاءِ الْعَائِلَةِ
وَالْهَيْئَةِ الْاِجْتِمَاعِيَّةِ اسْتِقْرَارُ الْمَسْكَنِ وَكَوْنُهُ مِلْكًَا لِسَاكِنِهِ وَانْتِقَالَهُ
كَمَا هُوَ مِنَ الْوَالِدِ لِبْنِيهِ . وَالْوَقَائِعُ اَنَّ هَذِهِ الْمَزَايَا الْثَلَاثَ مِنْ اَهَمِّ
النِّظَامَاتِ ، وَقَدْ تَدُلُّ عَلَى دَرَجَةِ الْاُمَّةِ الَّتِي تَوَافَرَتْ فِيهَا مِنْ
التَّقَدُّمِ وَالتَّرَقِّيِّ ، اِلَّا اَنَّهَا لَا تَوْثُرُ بِشَيْءٍ فِي اِنْتِقَالِ الْاِتِّكَالِيِّ اِلَى
اِسْتِقْلَالِيِّ . وَاَكْبَرُ بُرْهَانٍ عَلَى ذَلِكَ اَنَّا نَجِدُ عِنْدَ النَّشَاتِيْنَ — عَلَى
مَا بَيْنَهُمَا مِنْ الْاِخْتِلَافِ — مَسَاكِنَ مَمْلُوْكَةً لِاَهْلِهَا ، مُسْتَقَرَّةً
يَتَوَارَثُهَا الْخَلْفُ عَنِ السَّلْفِ ، وَوُجُودُ تِلْكَ الْمَزَايَا عِنْدَ الْاُمَّتِيْنَ يَدُلُّ
عَلَى اَنَّهَا غَيْرُ مُوَثَّرَةٍ فِي تَكْوِيْنِ النَّشْأَةِ الْاِجْتِمَاعِيَّةِ . وَقَدْ يَتَّفِقُ اَنَّ
الْاِعْتِنَاءَ بِهَا يَكُوْنُ اَشَدَّ عِنْدَ بَعْضِ الْاُمَّمِ الْاِتِّكَالِيَّةِ مِنْهُ عِنْدَ بَعْضِ
الْاُمَّمِ الْاِسْتِقْلَالِيَّةِ ، فَمَا لَا شُبُهَةَ فِيهِ اَنَّهُ لَا شَيْءَ فِي الْوُجُودِ اَثْبَتُ

مِنْ مَسَاكِنِ فَلَاحِي الرُّوسِ أَوْ الْبُلْغَارِيِّينَ أَوْ الصَّرْبِيِّينَ ، فَاَلْمَسْكَنُ
 الْوَاحِدُ يَنْتَقِلُ مِنَ الرَّجُلِ لِابْنِهِ وَمِنْ الْعَائِلَةِ إِلَى الَّتِي خَلَقَتْهَا عِدَّةُ
 قُرُونٍ وَأَجْيَالٍ ، وَالْمَسَاكِنُ فِي فَرَنْسَا أَكْثَرُ اسْتِقْرَارًا فِي أَقَالِيمِ
 « أَوْفْرَنْيَا » وَ « وَسِيفِينَ » وَ « بِيرِينِيَه » وَ « إَلْب » وَ « بْرُوتَانِيَا » .
 وَمَعْلُومٌ أَنَّ أَهْلَ تِلْكَ الْأَقَالِيمِ هُمْ أَشَدُّ النَّاسِ مُحَافِظَةً عَلَى النَّشْأَةِ
 الْإِتْكَالِيَّةِ ، وَرُبَّمَا كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِمْ اهْتِمَامًا بِامْتِلَاكِ الْمَسَاكِنِ
 وَالْإِعْنَاءِ بِهَا وَاسْتِبْقَائِهَا لِخَلْفِهِمْ .

وَلِيَبَانَ الْفَرْقَ بَيْنَ النَّشَاتِينَ مِنْ جِهَةِ الْمَسْكَنِ يَجِبُ التَّفْرِيقُ بَيْنَ
 نَظَرِ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا إِلَيْهِ . فَالِإِتْكَالِيَّةُ تَنْظُرُ إِلَى الْمَسْكَنِ مِنْ
 حَيْثُ هُوَ وَجُودُ مَادِيهِ ، وَالِاسْتِقْلَالِيَّةُ تَنْظُرُ إِلَيْهِ مِنْ حَيْثُ هُوَ
 أَمْرٌ مَعْنَوِيٌّ ، وَهُوَ تَمَيِّزٌ لَمْ يَسْبِقْ لِأَحَدٍ الْإِلْتِفَاتِ إِلَيْهِ ، وَبِدُونِهِ
 لَا يُمْكِنُ الْوُقُوفُ عَلَى كَيْفِيَّةِ اعْتِبَارِ الْمَسْكَنِ عِنْدَ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْ
 الْهَيْئَتَيْنِ .

يُرَادُ بِالْبَيْتِ عِنْدَ الْأُمَّمِ الْإِتْكَالِيَّةِ مَجْمُوعُ الْأَثَاثِ وَالْبِنَاءِ
 وَالْأَرْضِ وَالنَّاسِ مِنْ أَهْلِ وَأَحْبَابِ وَجِيرَانِ ، فَالْفِكْرُ مُتَعَلِّقٌ عَلَى
 الدَّوَامِ بِالْأَشْيَاءِ وَالنَّاسِ وَالتَّعَلُّقُ شَدِيدٌ ، لِأَنَّ مِنْ خِصَائِصِ أَهْلِ
 الْإِتْكَالِيَّةِ ، أَنْ يِعْتَمِدُوا عَلَى الْأَشْيَاءِ وَالنَّاسِ ، أَكْثَرَ مِنْ اعْتِمَادِهِمْ
 عَلَى أَنْفُسِهِمْ . وَمِنْ أَقْوَالِ أَهْلِ « أَوْفْرَنْيَا » وَ « بِيرِينِيَه » : « يَجِبُ

أَنَّ يَكُونَ لِلْبَيْتِ دُخَانٌ» وَهُمْ فِي سَبِيلِ اسْتِبْقَاءِ دُخَانِهِ يَسْتَرُ خِصُونَ
 كُلَّ تَمِينٍ : فَيَرْضَى الْأَوْلَادُ الثَّوَانِي بِأَقْلٍ مِنْ نَصِيْبِهِمِ الشَّرْعِيَّ ،
 وَيَعِيشُ الْأَعْمَامُ وَالْعَمَّاتُ غَيْرَ مُتَزَوِّجِينَ كَمَا يَتْرُكُوا لِلْوَارِثِ الَّذِي
 أَوْصَى إِلَيْهِ الْمُتَوَفَّى مِنَ السَّعَةِ مَا يُمَكِّنُهُ مِنْ حِفْظِ الْحَقْلِ وَالدَّارِ ،
 وَقَدْ يَكُونُ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ مَلْجَأٌ يَسْتَفِيدُونَ مِنْهُ أحيانًا . وَالْخِلَاصَةُ
 أَنَّ نَظْرَهُمْ إِلَى الْبَيْتِ نَظْرٌ إِلَى الْمَكَانِ الْمَخْصُوصِ . وَهَذَا هُوَ السَّرُّ
 فِي صُعُوبَةِ تَرْكِهِ وَالْإِبْتِعَادِ عَنْهُ ، كَأَنَّ أَصْحَابَهُ قَدِ اتَّصَقُوا بِأَرْضِهِ
 وَالتَّحَقُّوا بِحَيْطَانِهِ . وَهُوَ أَيْضًا السَّرُّ فِي حُبِّ أَهْلِ الرَّيفِ لِبَيْتِ
 أَجْدَادِهِمْ وَدَارِ أَهْلِيهِمْ وَرَغْبَتِهِمْ الشَّدِيدَةِ فِي صِيَانَتِهَا وَتَرْكِهَا إِرْتِثًا
 لِمَنْ يَأْتِي بَعْدَهُمْ . هَذَا هُوَ نَظْرُهُمْ إِلَى الْبَيْتِ مِنْ الْجِهَاتِ الثَّلَاثِ :
 اسْتِقْرَارِهِ ، وَمِلْكِيَّتِهِ ، وَتَوَارِثِهِ . فَهُمْ يَتَعَلَّقُونَ بِهِ تَعَلُّقَ النَّبَاتِ
 الْمُسَلَّقِ بِالْجِدَارِ الْعَتِيقِ ، وَكَأَنَّهُمْ مِثْلُهُ يَرْتَكِنُونَ عَلَى ذَلِكَ الْوُجُودِ
 الْمَادِّيِّ ، وَمَعَ هَذَا فَإِنَّ أَقْوَامَ النَّشْأَةِ الْإِتْكَالِيَّةِ يَسْكُنُونَ ذَلِكَ
 الْبَيْتَ الْمَوْرُوثَ الَّذِي خَلَفَهُ لَهُمُ الْأَجْدَادُ وَالْآبَاءُ عَلَى أَبْسَطِ مَا يَكُونُ
 مِنَ الْأَحْوَالِ . وَمِمَّا مِنْ شَيْءٍ يَسْتَوْقِفُ الْمُتَمَلِّمَ دَهْشًا فِي تِلْكَ الْبُيُوتِ
 أَكْثَرَ مِنْ اسْتِقْرَارِهَا وَعَدَمِ الْاسْتِقْرَارِ فِيهَا ، وَأَعْنِي بِذَلِكَ
 كَيْفِيَّةَ سُكْنَاهَا الَّتِي تَكَادُ تَكُونُ عَلَى الْفِطْرَةِ الْأُولَى .
 إِذَا دَخَلْتَ بَيْتَ رِيْفِيٍّ مِنَ الرُّوسِ أَوْ الْبُلْغَارِ أَوْ أَهْلِ « أَوْفَرَنِيَا »

أَوْ «إِبْرِيْنِيَه» أَوْ «بُرُوْتَانِيَا» أَوْ «بُرُوْفَانَص» وَسَأَلْتَهُ عَنْ أَصْلِهِ
أَجَابَكَ فِي الْغَالِبِ : إِنَّ عَائِلَتَهُ تَسْكُنُهُ جِيْلًا بَعْدَ جِيْلٍ مِنْ قُرُونٍ
مَاضِيَةٍ ، وَعَامَتَ مِنْ هَذَا أَنَّ الْبَيْتَ مُسْتَقَرٌّ أَيْ اسْتِقْرَارٌ ، وَرَأَيْتَهُ
يُحِبُّهُ حُبًّا لَمْزِيْدَ عَلَيْهِ . ثُمَّ إِذَا نَظَرْتَ إِلَى كَيْفَ يَسْكُنُهُ رَأَيْتَهُ أَشْبَهَ
بِعَائِلَةٍ مَا كَادَتْ تَفْرُغُ مِنْ حَطِّ رِحَالِهَا ! إِذْ يَقَعُ بَصْرَكَ عَلَى أَثَاتٍ
قَدْ أَهْمَلَ شَأْنَهُ ، وَعَلَى مَطْبِخٍ قَدِرٍ ، وَمَخْدَعٍ ^(١) وَسِخٍ قَلَّ فِيهِمَا
الضَّوْءُ ، وَقَدْ تَكُونُ الْعُرْفَةُ الْوَاحِدَةُ مَطْبُخًا وَمَأْكَلًا وَمَنَامًا لِلْعَائِلَةِ
كُلِّهَا ، وَقَدْ يُلَاصِقُهَا الْإِصْطَبْلُ فَلَا يَفْصِلُ بَيْنَهُمَا إِلَّا حَاجِزٌ مِنْ
الْخَشَبِ تَنْبَعُثُ مِنْ خِلَالِهِ الرِّوَاخُ الْكَرِيْمَةُ . هَكَذَا تَجِدُ أَوْلِيَاكَ
الَّذِينَ أَحْبَبُوا بَيْتَهُمْ ذَلِكَ الْحَبَّ كَانَهُمْ لَا يُحِبُّونَ أَنْ يُحْسِنُوا ^(٢)
مُسْكَنَاهُ . أَوْلِيَاكَ قَوْمٌ لَا يُحِبُّونَ الْبَيْتَ مِنْ حَيْثُ هُوَ ، وَلَكِنْهُمْ
يَتَعَلَّقُونَ بِهِ مِنْ جِهَةِ اعْتِمَادِهِمْ عَلَيْهِ ، أَوْ طَلَبًا لِلسَّمْعَةِ ، أَوْ تَظَاهِرًا
وَتَفَاخُرًا : فَيَتَبَاهَوْنَ ^(٣) بِكُونِهِمْ مِنْ سُلَالَةِ تِلْكَ الْعَائِلَةِ الَّتِي تَقَادِمُ
عَهْدُ مُسْكَنَاهَا فِي الْبِلَادِ ، وَظَلَّتْ تَمْلِكُ الْعَيْنَ الْوَاحِدَةَ السَّنِينَ الطُّوَالَ
وَلَهَا قَرَابَةٌ مَعَ عَائِلَةٍ كَذَا الَّتِي اسْتَقَرَّتْ مِنْذُ الْقِدَمِ حَيْثُ تُقِيمُ .
أَوْلِيَاكَ قَوْمٌ لَا يَقْتَنُونَ صَوَانًا (دَوْلَابًا) لَطِيفًا يَمْلَأُونَهُ بِأَنْوَاعِ
الْمَلَابِسِ إِلَّا لِلْمُفَاخَرَةِ وَيَبَيِّنُ أَنَّهُمْ فِي هُنَاءِ أَمَامِ مُجَاوِرِيهِمْ وَالْأَجَانِبِ

(١) البيت الصغير داخل البيت الكبير ، والمراد هنا غرفة النوم (٢) أى أن يجعلوها

حسنة جميلة (٣) المباهاة : المفاخرة

عَنْ بَلَدِهِمْ . هَذَا هُوَ شُغْلُهُمُ الشَّاعِلُ لَا تَحْسِينَ مُسْكِنِهِمْ وَتَنْظِيمُ
 إِقَامَتِهِمْ فِيهِ . وَالْخُلَاصَةُ أَنَّ الرَّجُلَ الْإِتْسَاكِيَّ يَعِيشُ خَارِجَ بَيْتِهِ
 أَكْثَرَ مِمَّا يَعِيشُ فِيهِ وَيُحِبُّهُ لِلتَّظَاهُرِ لَا لِنَفْسِهِ . وَيَكْثُرُ هَذَا
 الْمَيْلُ فِي الْعَائِلَاتِ الْمُتَوَسِّطَةِ الَّتِي تَسْكُنُ الْمَدْنَ الْعَظِيمَةَ ، وَإِنْ كَانَ
 رُوحُ الْإِسْتِقْرَارِ فِي الْبُيُوتِ لَمْ يَعُدْ لَهُ أَثَرٌ فِيهَا . وَيُبُوتُ بَارِيسَ -
 إِلَّا مَا شَدَّ - كُلُّهَا عَلَى نَسَقٍ وَاحِدٍ كَبِيرَةٍ كَثِيرَةِ الطَّبَقَاتِ مُتَعَدِّدَةٍ
 الْمَسَاكِينِ كَالْقُصُورِ الْعَالِيَاتِ ، إِذَا رَأَيْتَهَا مِنَ الْخَارِجِ تَتَرَكَبُ مِنْ
 خَمْسِ طَبَقَاتٍ أَوْ سِتِّ ، وَوَجْهَتُهَا فَسِيحَةٌ ذَاتُ سَبْعِ نَوَافِذٍ أَوْ ثَمَانٍ
 حَسِبْتَ الْعَائِلَاتِ الَّتِي تَسْكُنُهَا عَرَفْتَ كَيْفَ تَتَنَعَّمُ بِبَيْتِهَا ، وَأَنَّهَا
 بَدَلَتْ النَّفِيسَ حُبًّا فِي الْمَعِيشَةِ الدَّاخِلِيَّةِ مَعِيشَةِ الْعَائِلَةِ . فَإِذَا دَخَلْتَ
 إِلَيْهَا ، وَالذُّخُولُ مُبَاحٌ لِكُلِّ وَارِدٍ ، وَجَدْتَ الْمَسَاكِينَ مُتَعَدِّدَةً ، وَكُلَّ
 عَائِلَةٍ تَسْكُنُ طَبَقَةً مِنْهَا ، وَقَدْ تَأْوَى الطَّبَقَةُ الْوَاحِدَةَ عَائِلَاتٌ تَرَاحِمُ
 بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ . ثُمَّ إِذَا دَخَلْتَ أَحَدَ الْمَسَاكِينِ رَأَيْتَ أَوْلَادًا قَاعَةً
 الْإِسْتِقْبَالِ وَغُرْفَةَ الطَّعَامِ مُزَيَّنَتَيْنِ زِينَةً حَسَنَةً ، فَسِيحَتَيْنِ بِالنَّسْبَةِ
 إِلَى الْبَقِيَّةِ ، وَمُطْلَتَيْنِ عَلَى الطَّرِيقِ . أَمَّا بَقِيَّةُ الْغُرْفِ فِي الْجِهَةِ الْخَلْفِيَّةِ
 وَهِيَ ضَيْقَةٌ جَدًّا تُطَلُّ عَلَى فِنَاءٍ كَأَنَّهُ فِي الْغَالِبِ بَثْرٌ لَضِيقِهِ ، قَلِيلَةٌ
 الضَّوءِ ، وَلَا يَدْخُلُهَا الْهَوَاءُ ، وَتِلْكَ الْغُرْفُ هِيَ مَقَرُّ الْعَائِلَةِ ، وَمَخَادِعُ

السُّكَّانِ . أَمَا الْغُرْفُ الْأَمَامِيَّةُ فَإِنَّهَا اتَّخَذَتْ لِلزَّهْوِ وَالْمُبَاهَاةِ لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا الْأَجَانِبُ ، لِأَنَّهَا إِنَّمَا أُعِدَّتْ « لِلِاسْتِقْبَالِ » . وَعَدَمُ الْإِعْتِنَاءِ بِالْبَيْتِ عِنْدَ أَهْلِ هَذِهِ النَّشْأَةِ عَامٌّ بَيْنَ الْأَوَاسِطِ وَأَهْلِ الْأَرْيَافِ وَالْأَجْرَاءِ .

إِلَّا أَنَّ الْإِهْتِمَامَ بِذَلِكَ هُوَ أَوَّلُ شَيْءٍ يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّشْأَةِ الْإِسْتِقْلَالِيَّةِ ، ذَلِكَ لِأَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ لَا يَعْتَمِدُ عَلَى الْعَائِلَةِ أَوِ الْعَشِيرَةِ أَوْ الْعِلَاقَاتِ ، قَلَّتْ أَوْ كَثُرَتْ ، وَإِنْ شِئْتَ فَقُلْ إِنَّهُ لَا اعْتِمَادَ لَهُ عَلَى وَسْطِ صِنَاعِيٍّ بَلْ اعْتِمَادُهُ عَلَى نَفْسِهِ : فَهُوَ يَسْكُنُ الْبَيْتَ لِنَفْسِهِ وَهُوَ مُقِيمٌ لَا نَزِيلٌ وَلَا يُعْطَى الْحَيَاةَ الْخَارِجِيَّةَ إِلَّا يَسِيرًا ، وَكُلُّ الَّذِي فِي امْكَانِهِ مُوجَّهٌ إِلَى حَيَاتِهِ الدَّاخِلِيَّةِ . فَالْبَيْتُ عِنْدَهُ حِصْنٌ اسْتِقْلَالُهُ وَيُسَمِّيهِ اسْمًا لَا يُمَكِّنُ التَّعْبِيرُ عَنْهُ بِغَيْرِ لُغَتِهِ وَقَدْ أُوْدِعَهُ رُوحَهُ وَوُجُودَهُ وَهُوَ (هُومٌ) بِمَعْنَى مَأْوَى أَوْ مَلْجَأٍ ، وَلِهَذَا الْإِسْمُ عِنْدَ الْإِنْكَلِيزِيِّ السَّكْسُونِيِّ مَعْنَى أَكْبَرُ وَأَبْعَدُ عَنِ الْمَادَّةِ مِنَ الْإِسْمِ الْفَرَسَاوِيِّ (فويبه) أَيُ بَيْتٌ ؛ فَهُوَ يَدُلُّ خُصُوصًا عَلَى الْإِقَامَةِ الدَّاخِلِيَّةِ وَالنِّظَامِ الَّذِي يَسْتَرِيحُ لَهُ السَّاكِنُ كُلَّ يَوْمٍ مِمَّا اخْتَصَّ بِهِ ذَلِكَ الْعُنْصُرُ لَا فَرْقَ بَيْنَ الْأَجِيرِ الرَّيْفِيِّ وَمَنْ فَوْقَهُ مِنَ الطَّبَقَاتِ الْوَسْطَى .

وَلَسْتُ أَقْصِدُ الْحُكْمَ عَلَى هَذَا التَّصَوُّرِ عِنْدَهُمْ ، بَلْ أُرِيدُ أَنْ

أَفْ عَلَى حَقِيقَتِهِ وَأَنَّ أَيْدِيَهَا لِلْقُرَاءِ كَمَا هِيَ ، لِأَنَّ الْأُمَّمَ أُمَّتَانِ مُخْتَلِفَتَانِ تَتَمَشَّى كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا فِي طَرِيقٍ يُخَالَفُ سَبِيلَ الْأُخْرَى ، وَمَبْدَأُ الْخُلْفِ مُسْكَنِي الْمَنَازِلِ ، فَمِنَ الْمُفِيدِ جِدًّا تَمَامُ الْعِلْمِ بِأَوَّلِ مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ .

وَيَتَجَلَّى الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا مِنْ جِهَةٍ اعْتِبَارِ الْمَسْكَنِ بِأَمْرَيْنِ :
 الْأَوَّلُ : أَنَّ أَهْمِيَّةَ الْمَسْكَنِ عِنْدَ أُمَّمِ الْإِسْتِقْلَالِ أَقْلُ مِنْهَا عِنْدَ أُمَّمِ الْإِتِّكَالِ ، فَالْمَسْكَنُ الْغَالِبُ عِنْدَ الْأُولَى عِبَارَةٌ عَنْ بَيْتٍ صَغِيرٍ لَا يَحْتَوِي مِنَ الْعُرْفِ إِلَّا عَلَى مَا يَبْنِي بِسُكْنَى عَائِلَةٍ عَادِيَّةٍ بِأَوْلَادِهَا . وَيَتَّبِعُ الْبَيْتُ فِي الْغَالِبِ بُسْتَانٌ يُخْتَلَفُ فِي سَعْتِهِ عَلَى حَسَبِ دَرَجَةِ السَّاكِنِ مِنَ الْغِنَى وَبِاعْتِبَارِ مُسْكَنِي الرَّيْفِ أَوْ الْمَدِينَةِ . وَهَذِهِ الْمَسَاكِينُ مَمْتُورَةٌ فِي جَمِيعِ جِهَاتِ الْأَرْيَافِ الْإِنْكِلِيزِيَّةِ ثُمَّ هِيَ تَكْثُرُ مُتْقَارِبَةً فِي ضَوَاحِي الْمُدُنِ الْكَبِيرَةِ ، لِأَنَّ الْإِنْكِلِيزِيَّ الْمَدَنِيَّ يَمِيلُ كَثِيرًا إِلَى السُّكْنَى خَارِجَ الْأَسْوَارِ وَهِيَ الْمِثَالُ الْغَالِبُ فِي دَاخِلِ الْمَدِينَةِ نَفْسِهَا لِأَنَّهَا تُوَافِقُ مَا يَطْلُبُهُ ذَلِكَ الْجِنْسُ فِي الْبَيْتِ الَّذِي يَأْوِي إِلَيْهِ ، وَهَذَا هُوَ السَّبَبُ فِي عِظَمِ الْمُدُنِ الْإِنْكِلِيزِيَّةِ بِالنَّظَرِ إِلَى عَدَدِ سُكَّانِهَا .

وَبِخِلَافِ ذَلِكَ تَجِدُ الْمَسْكَنَ الْغَالِبَ عِنْدَ أُمَّةِ الْإِتِّكَالِ هُوَ الْبَيْتُ الْعَظِيمُ ذَا الْعُرْفِ الْفَسِيحَةِ ، فَلَيْسَتْ هِيَ مَسَاكِينٌ اتُّخِذَ

كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا لِتَأْوِيِ اِيَّاهِ عَائِلَةٌ عَلَى انْفِرَادِهَا ، بَلْ دَارٌ كَبِيرَةٌ
تَسْكُنُهَا عَائِلَاتٌ عِدَّةٌ يُقِيمُ بَعْضُهَا مَعَ بَعْضٍ فِي عَيْشَةٍ وَاحِدَةٍ .
هَكَذَا الْمَسَاكِينُ فِي اِيْتَالِيَا . وَيُوجَدُ فِي مُدُنِنَا الرَّيْفِيَّةِ كَثِيرٌ مِنْ
تِلْكَ الدُّورِ الْفَسِيحَةِ الَّتِي اَصْبَحَتْ فِيهَا الْعَائِلَاتُ بَعْدَ نَقْصِ عَدَدِهَا
كَالْتَأْتِيَةِ فِي انْزَوَائِمِهَا ، وَتِلْكَ هِيَ الْقُصُورُ الْفَخْمَةُ الْمُشِيدَةُ فِي الْاَرْيَافِ .
وَكَمُ مِنْ عَائِلَاتٍ اَدْرَكَهَا الْفَقْرُ لِكَثْرَةِ اِنْفَاقِهَا فِي حِفْظِ تِلْكَ
الْمَبَانِي ، وَاللَّهْمُ اِلَّا الَّتِي فَطِنَتْ اِلَى الْاِقْتِصَارِ مِنْهَا عَلَى نَاحِيَةِ تَقْيِيمِ فِيهَا
وَتَتْرُكُ الْبَاقِي . وَمِنْ مُقَارَنَةِ هَذِهِ الدُّورِ الْعَظِيمَةِ وَالْقُصُورِ السَّاحِجَةِ
بِتِلْكَ الْمَنَازِلِ الْاِنْكَلِيزِيَّةِ السَّكْسُونِيَّةِ تَبَيَّنَ لَكَ اِحْدَى جِهَاتِ
الْفَرْقِ الْعَظِيمِ بَيْنَ النَّشَاتَيْنِ .

الثَّانِي : اَنَّ الْعَائِلَاتِ الْاِسْتِقْلَالِيَّةَ تَنْتَقِلُ مِنْ مَسْكَنِ اِلَى مَسْكَنِ
بِسُهُولَةٍ اَكْثَرَ مِنْ الْعَائِلَاتِ الْاِتِّكَالِيَّةِ . قُلْتُ اِنْ اَهْلَ الْاِتِّكَالِ
اَشَدُّ التَّصَاقًا بِالْمَسَاكِينِ الْوَرَاثِيَّةِ مِنْ غَيْرِهَا ، فَهِيَ اَبْقَى فِي الْمَسْكَنِ
الْوَاحِدِ لِاسْتِمْدَادِهَا مِنْهُ قِسْمًا كَبِيرًا مِنْ قُوَّتِهَا بَلْ رُبَّمَا
كَانَ جُلُّ اَعْمَادِهَا عَلَى ذَلِكَ الْبِنَاءِ الْمَادِّيِّ اَمَّا الْاِسْتِقْلَالِيُّ
فَلَا شَيْءَ اَسْهَلُ عَلَيْهِ مِنَ الْاِتِّقَالِ ، وَمَتَى سَنَحَتْ لَهُ الْفُرْصَةُ اَسْرَعَ
لَا تَهْتَازُهَا لِيَنْتَقِلَ مِنْ حَالٍ اِلَى اَحْسَنَ مِنْهُ وَبَدَلَ مَسْكَنَهُ ، وَقَدْ
يَتْرُكُ طَرَفًا مِنَ الدُّنْيَا لِيَأْوِيِ اِلَى الطَّرَفِ الثَّانِي لِأَنَّ اَنْظَارَهُ مُتَّجِهَةٌ

عَلَى الدَّوَامِ إِلَى الْمُسْتَقْبَلِ لَا إِلَى الْمَاضِي، وَ لِأَنَّ اعْتِمَادَهُ عَلَى نَفْسِهِ
لَا عَلَى تَقَالِيدِ آبَائِهِ وَرُسُومِ^(١) الْأَجْدَادِ. وَ هَذَا الْحَالُ الَّذِي نَشَأُ
فِيهِ بِحُكْمِ طَبِيعَةِ أُمَّتِهِ هُوَ الَّذِي جَعَلَهُ يَبْتَكِرُ ذَلِكَ الْمَلَجَاءَ الْمُخْتَصِرَ،
لِأَنَّ الرَّجُلَ أَشَدُّ تَعَلُّقًا بِبَيْتٍ صَغِيرٍ مِنْهُ بِبَيْتٍ كَبِيرٍ، فَهُوَ رَبُّهُ
لَا أَسِيرُهُ، وَلَا هَمُّ لَهُ بِالْأَحْجَارِ وَلَا تُمَسِّكُهُ الْأَحْجَارُ. رَبٌّ مُعْتَرِضٌ
يَقُولُ إِنَّهَا حَالٌ لَا اسْتِقْرَارَ لِلْمَسْكَنِ فِيهَا؛ لَكِنَّ هَذَا نَظَرٌ إِلَى
ظَوَاهِرِ الْأُمُورِ، فَالِاسْتِقْلَالِيُّ مُسْتَقَرٌّ فِي مَسْكَنِهِ كَالِاتِّكَالِيِّ سِوَاءِ
بِسْوَاءِ، وَإِنَّمَا الْفَرْقُ فِي الْكَيْفِيَّاتِ. وَ لِتَبَيُّنِهِ يَجِبُ الْإِلْتِفَاتُ إِلَى
مَا قَدَّمَناه مِنْ التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْمَسْكَنِ الْخَارِجِيِّ وَالْإِقَامَةِ الدَّاخِلِيَّةِ :
فَالِاسْتِقْرَارُ عِنْدَ الْإِتِّكَالِيِّ رَاجِعٌ إِلَى الْمَسْكَنِ الْخَارِجِيِّ وَهُوَ يَرْجِعُ
عِنْدَ الْإِسْتِقْلَالِيِّ إِلَى الْإِقَامَةِ الدَّاخِلِيَّةِ، وَ كَانَ الْأَوَّلُ جُنْدِيٌّ لَمْ يَكُدْ
يَنْزِلُ بِمَسْكَنِ الْعَتِيقِ وَ كَانَ الْإِسْتِقْلَالِيُّ رَابِضٌ مُنْذُ الْقَدَمِ وَإِلَى
مَا شَاءَ اللَّهُ فِي مَسْكَنِهِ الْوَقْتِيِّ فَهُوَ يُقِيمُ حَقَّ الْإِقَامَةِ وَلَوْ إِلَى بَضْعَةِ
أَيَّامٍ حَتَّى فِي الْفُنْدُقِ — وَ قَدْ اشْتَهَرَ أَنَّ الْإِنْكَلِيزَ كَانُوا سَبَبًا فِي
تَحْسِينِ الْفُنَادِقِ الْأُورُوبِيَّةِ — وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مُقِيمًا إِلَّا سُوَيْعَاتٍ
مَعْدُودَةً وَلَوْ فِي السِّكَّةِ الْحَدِيدِيَّةِ، وَ لِذَلِكَ أَعْرَفَ عَنْهُ أَنَّهُ رَجُلٌ
لَا يَتَعَمَّدُ مُضَآيِقَةَ نَفْسِهِ فِي شَيْءٍ، وَالِاسْتِقْرَارُ عِنْدَهُ عِبَارَةٌ عَنْ رَاحَتِهِ

وَمُوجِبَاتِهَا . وَلَيْسَ مِنْ مِّنْكَرٍ أَنْ مُوجِبَاتِ الرَّاحَةِ رُكْنٌ مِنْ
أَرْكَانِ السُّكْنَى لَهُ مِنْ الْأَهْمِيَّةِ مَا لِلْأَسْوَارِ وَالْجُدْرَانِ وَأَنْهَا تَوْشُّرُ
فِي الْإِنْسَانِ وَحَيَاتِهِ الْيَوْمِيَّةِ وَأَنْهَا تَفْعَلُ فِي وُجُودِهِ الذَّاتِيَّ وَوُجُودِهِ
فِي أُمَّتِهِ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهَا

تَبْجَ مِنْ هَذَا أَنَّ الْإِسْتِقْرَارَ فِي الْمَسْكَنِ مَادِيٌّ وَمَعْنَوِيٌّ ، وَالثَّانِي
أَهْمٌ وَهُوَ الْبَحْثُ الَّذِي بَقِيَ عَلَيْنَا أَنْ نُبَيِّنَهُ :

أَمَّا كَوْنُ الثَّانِي أَهْمًا فَذَلِكَ حَاصِلٌ بِالضَّرُورَةِ لِأَنَّ تَحْسِينَ
السُّكْنَى وَإِتْقَانَ نِظَامِهَا هُمَا أَوَّلُ حَرَكَةٍ يُشَاهِدُهَا الْإِنْسَانُ فِي الَّذِينَ
شَخَّصُوا إِلَى الْإِنْتِقَالِ مِنْ حَالَةِ الْإِتِّكَالِ إِلَى حَالَةِ الْإِسْتِقْلَالِ ، غَيْرَ
أَنَّهُ لَمَّا كَانَ سَبَبُ ذَلِكَ غَامِضًا لَا يَبْدُو لِأَوَّلِ نَظَرَةٍ وَجَبَ عَلَيْنَا
أَنْ نُوضِّحَهُ :

إِنِّي أَرَى لِكَيْفِيَّةِ السُّكْنَى الْمَذْكُورَةِ ثَلَاثَ نَتَائِجَ فِي
الْإِجْتِمَاعِ ، وَأَنَّ تِلْكَ النَتَائِجَ تُؤَدِّي إِلَى تَحْوِيلِ الْأَفْرَادِ وَجَعْلِهِمْ
إِسْتِقْلَالِيَيْنَ .

الْأَوَّلَى طَرِيقَةُ السُّكْنَى الْمَذْكُورَةِ تُقَوِّى فِي الْإِنْسَانِ شُعُورَهُ
بِعِزَّتِهِ وَإِسْتِقْلَالِهِ .

تَخِيلْ أَيُّهَا الْقَارِئُ مَا اسْتَطَعْتَ مَسَاكِنَ الْإِيرْلَنْدِيِّينَ الرَّدِيئَةَ الَّتِي
وَصَفْنَاهَا لَكَ أَوْ مَنَازِلَ الْفَعْلَةِ فِي مُدُنِنَا وَرِيْفِنَا مِمَّا لَا يَقِلُّ عَنْ تِلْكَ

رَدَايَةٌ وَقُبْحًا. وَلِيَحْضُرَكَ بَعْضُ أَوْلِيَاكَ السُّكَّانِ الَّذِينَ عَرَفْتَهُمْ تَمَامَ
 الْمَعْرِفَةِ، ثُمَّ فَكَّرْ فِي قَوْمٍ شَبُّوا مُنْذُ طُفُولَتِهِمْ فِي ذَلِكَ الْوَسْطِ،
 وَعَاشُوا دَائِمًا فِي ذَلِكَ الْبَيْتِ الَّذِي هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ جُرْمَتَوْحَشٍ دَخَلَهُ
 شَيْءٌ مِنَ التَّحْسِينِ، لِأَنَّكَ تَقْتَنِعُ بِأَنَّهُ وَسَطٌ لَا يَقْوَى عِنْدَ مَنْ
 تَرَبَّى فِيهِ حَاسَةً الْعِزَّةِ وَالِاسْتِقْلَالَ؛ قَالُوا: لَيْسَ الْمَرْءُ بِطَيْلَسَانِهِ،
 وَنَحْنُ نَرَى أَنَّ لِلطَّيْلَسَانَ^(١) شَأْنًا فَوْقَ مَا يَظُنُّونَ؛ فَكَمْ مِنْ رَجُلٍ
 لَا قِيَمَةَ لَهُ إِلَّا بِلِبَاسِهِ الَّذِي يَرْتَدِيهِ، هَذَا شِعَارُ قَاضٍ يَحْكُمُ
 بَيْنَ النَّاسِ، وَذَلِكَ زِيُّ الْجُنْدِ، وَآخِرُ وَسَامٍ كَذَا، وَتِلْكَ شَارَاتُ
 كَذَا، وَلَهَا كَلِمَاتٌ ثَبِيرٌ كَبِيرٌ فِي عُقُولِ النَّاسِ. وَقَدْ تَحْمِلُ السُّكَّانُ
 عَلَى النَّظَرِ إِلَى أَنْفُسِهِمْ بَعِينَ الرَّفْعَةِ وَالِاعْتِبَارِ، فَيَنْبَغِي الْأَيْهَمَلَ
 مَا تُحَدِّثُهُ الظَّوَاهِرُ مِنَ التَّأثيرِ.

وَأَهْمُ تِلْكَ الظَّوَاهِرِ تَأثيرًا هُوَ الْبَيْتُ لِأَنَّهُ يَسْتَوِي عَلَى الْإِنْسَانِ
 وَهُوَ فِي عَيْشَتِهِ الذَّاتِيَّةِ، وَحَيَاتِهِ الشَّخْصِيَّةِ، وَلِأَنَّهُ ثَابِتٌ مُسْتَمِرٌّ
 فِي كُلِّ يَوْمٍ. وَلَا شُبْهَةَ فِي أَنَّ الْعَامِلَ الَّذِي زُرْتُ مَسْكَنَهُ
 فِي « هوتردين » وَالصَّانِعَ المِيكَانِيكِي الَّذِي تَنَاوَلْتُ عِنْدَهُ الشَّيْءَ
 فِي « ينكويك » كَانَا شَاعِرِينَ بِتَأثيرِ مَسْكَنَيْهِمَا فِيهِمَا مُبَاشَرَةً،

(١) الطيلسان في الأصل: كساء أخضر يلبسه الخواص من المشايخ والعلماء، وهو من لباس

وَبِمَا فِيهِمَا مِنَ النَّظَامِ وَحُسْنِ التَّرْتِيبِ ، وَكَانَا بِذَلِكَ يَرِيَانِ نَفْسَيْهِمَا
 أَرْقَى وَأَرْفَعَ مِنْ غَيْرِهِمَا ، وَكَانَا يُعْمِرَانِ تَمَامَ التَّمْيِيزِ مَا هُمَا فِيهِ مِنْ
 رَفَعَةِ النَّفْسِ وَالِاسْتِقْلَالِ ، وَكَانَ الْوَاحِدُ مِنْهُمَا إِذَا دَخَلَ بَيْتَهُ يُحْسِئُ
 مِنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ إِنْسَانٌ شَاعِرٌ بِكَرَامَتِهِ كَمَا يَقُولُ الْإِنْكَلِيزُ . وَالرَّجُلُ
 إِذَا عَرَفَ مِنْ نَفْسِهِ الْكَرَامَةَ يَكُونُ مَيَّالًا إِلَى الزِّيَادَةِ مِنْهَا ،
 لِأَنَّهُ يَكُونُ قَدْ اجْتَازَ الْعَقَبَةَ الْأُولَى فِي سَبِيلِ الْارْتِقَاءِ ، وَهِيَ
 الْخُطْوَةُ الْأُولَى .

الثَّانِيَةُ — طَرِيقَةُ السُّكْنَى الْمَذْكُورَةُ تَخْفِزُ^(١) الْمَرْءَ إِلَى الْعَمَلِ
 وَتَقْوِيهِ عَلَى السَّكْدِ وَالِاجْتِهَادِ .

إِنَّ الْأُمَّمَ الَّتِي اعْتَادَتِ الْمَعِيشَةَ الْبَسِيطَةَ وَالسُّكْنَى السَّادِجَةَ تَكْتَفِي
 بِالْقَلِيلِ ، وَلَا تَلِدُ إِلَّا أَفْرَادًا يَقْفُونَ عِنْدَ الْكَسْبِ الْيَسِيرِ ،
 فَطَأْمَعُهُمْ مَحْدُودَةٌ وَبِالْقَلِيلِ يَقْنَعُونَ . وَتَرَى الْوَاحِدَ مِنْهُمْ يَعْشَى
 رَاضِيًا مَتَى حَصَلَ مَا يُخْرِجُهُ عَنْ دَرَجَةِ الْخُمُولِ وَالِانْزَوَاءِ ، لَكِنْ
 لَيْسَ الْحَالُ كَذَلِكَ عِنْدَ الْأُمَّمِ الْأُخْرَى ، فَالْمَعِيشَةُ الْأَيْقَةُ وَالْمَسْكَنُ
 الْمُنْتَظَمُ يُقْتَضِيَانِ السَّكْدَ وَيُسَاعِدَانِ عَلَيْهِ ، خُصُوصًا إِذَا كَانَ الرَّجُلُ
 يَعْمَلُ لِيُنَالِ الْفَائِدَةَ الْعَاجِلَةَ الْمَحْسَةَ . وَلَقَدْ يَحْضُرُنِي ذَلِكَ الصَّائِعُ
 الْمِكَانِيكِيُّ فِي « بِنكويك » وَهُوَ يَطْلُبُ اقْتِنَاءَ اثْنَاتِ قَاعَةِ طَعَامِهِ أَوْ

آلة طَرَبِهِ « بيانو » أَوْ بِسَاطِهِ الْكَبِيرِ الَّذِي تَحَاتَّ بِهِ غُرْفَةٌ
 اسْتَقْبَالَهُ ، فَأَرَاهُ يَزِيدُ فِي هِمَّتِهِ تَحْتَ تَأْثِيرِ مَا اتَّجَهَتْ إِلَيْهِ رَغْبَتُهُ ،
 وَيَتَفَنَّنُ فِي أَسَالِبِ الْعَمَلِ بِمَا يَسَعُهُ لِاسْتِرَادَةِ رَاتِبِهِ . وَمَا الْوَفُ
 الْعَمَلَةِ الَّذِينَ يُحْضِرُونَ دُرُوسَ جَمْعِيَّةٍ تَوْسِيعِ نِطَاقِ التَّعْلِيمِ فِي إِنْكَاتِرَا
 وَالْوَالِيَّاتِ الْمُتَّحِدَةِ بِشَمَنِ يَدْفَعُونَهُ مِنْ كَسْبِهِمْ إِلَّا أَمْثَلَةَ حَيَّةٌ نَدَلُ
 عَلَى ذَلِكَ الْمَيْلِ نَحْوَ الْكَدِّ وَالْعَمَلِ ، فَهَمُّ لَا يُجْجَمُونَ أَمَامَ ذَلِكَ
 الْإِسْتِعَالَ الزَّائِدِ عَلَى مَا هُمْ فِيهِ لَطَمَعِهِمْ فِي نَيْلِ حَالٍ أَحْسَنَ ،
 وَعَيْشَةٍ أَرْضَى .

رُبَّ قَائِلٍ يَقُولُ : إِنَّ رُوحَ الْاِقْتِصَادِ الَّذِي اِمْتَاَزَ بِهِ الْكَثِيرُ
 مِنْ عُمَّالِنَا هُوَ أَيْضًا مِنْ مُوجِبَاتِ الْحَثِّ عَلَى الْعَمَلِ وَالْاجْتِهَادِ ، وَهُوَ
 مُسَلِّمٌ ، إِلَّا أَنَّهُ بَادِثٌ أَقْلٌ ذَمًّا وَأَصْغَرُ تَأْثِيرًا ، لِأَنَّ الرَّجُلَ الَّذِي
 يَدَّخِرُ لِأَوْلَادِهِ يَعْمَلُ لِأَجْلِ بَعِيدٍ وَلِغَيْرِهِ ، وَذَلِكَ الْغَيْرُ لَا يَجْنِي
 ثَمْرَةَ الْعَمَلِ إِلَّا بَعْدَ وَفَاةِ صَاحِبِهِ ، وَلَا يُقَدِّمُ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا مَنْ بَلَغَتْ
 الشَّجَاعَةُ مِنْ نَفْسِهِ حَدَّ الْاِسْتِقْلَالِ ، وَتِلْكَ فَضِيلَةٌ قَلَّمَا تُوجَدُ بَيْنَ
 النَّاسِ ، فَإِنْ اِدَّخَرَ الرَّجُلُ لِنَفْسِهِ كَثْرًا يَسْتَعْلَى (١) مَا اِدَّخَرَ اِدَّرَكَهُ
 الْمَلَلُ سَرِيعًا ، خُصُوصًا إِذَا كَانَ مِنَ الْعُمَّالِ ، بِمَا يَتَصَوَّرُهُ مِنْ جَسَامَةِ
 مَا يَجِبُ اِدَّخَارُهُ حَتَّى يَزِيدَ فِي اِيرَادِهِ زِيَادَةً مُحَسَّةً ؛ فَكَمْ مِنَ الْاَيَّامِ

يُنْبَغِي لَهُ أَنْ يَمْعَلَ لِيَكُنْ مِائَةً مِنَ الْفَرَنْكَاتِ ، عَلَى أَنَّ ذَلِكَ الْمَبْلَغَ لَا يُفِيدُهُ مِنَ الرَّبْحِ إِلَّا ثَلَاثَةَ فَرَنْكَاتٍ فِي السَّنَةِ ، وَهِيَ نَتِيجَةُ تَظَهَّرُ أَمَامَ عَيْنَيْهِ صَغِيرَةً بَعِيدَةً الْأَمَدِ ، وَيَرَاهَا لَا تُسَاوِي الْمَتَاعِبَ الَّتِي تُبَدَلُ فِي سَبِيلِهَا . أَنْظُرْ إِلَى النُّظَامَاتِ الَّتِي تُخْتَرَعُ كُلَّ يَوْمٍ لِأَنْمَاءِ حَرَكَةِ الْاِقْتِصَادِ عِنْدَ الْفَعْلَةِ وَتَأْمَلْ كَيْفَ أَنَّ الرَّبْحَ مِنْهَا يَسِيرٌ . وَأَنْظُرْ إِلَى الْفَاعِلِ الْاِنْكَلِيزِيِّ السَّكْسُونِيِّ تَرَهُ يَدْخِرُ فِي تَنْظِيمِ بَيْتِهِ وَتَوْفِيرِ مُوجِبَاتِ الرَّاحَةِ فِيهِ مَا لَّا أَكْثَرَ كَثِيرًا مِنْ دُونَ أَنْ يَسْتَعِينَ بِالْحُكُومَةِ أَوْ يَكُونَ لَهُ مِنْ اخْتِفَائِهَا بِهِ بَاعِثٌ أَوْ مُشْجَعٌ . لَا تَقُلْ إِنَّ ذَلِكَ مَالٌ مَصْرُوفٌ لَّا مَدْخَرٌ لِأَنَّهُ وَإِنْ صُرِفَ فَلَيْسَ بِضَائِعِ سُدَى ، وَإِنَّمَا هُوَ يُسْتَغَلُّ بِرَبْحٍ جَزِيلٍ لَا يَقْدَرُ بِثَلَاثَةِ فِي الْمِائَةِ بَلْ بِمِائَةٍ فِي الْمِائَةِ لِكَوْنِهِ يُسْتَعْمَلُ فِي زِيَادَةِ الْقُوَّةِ عَلَى الْعَمَلِ . أَلَا تَرَى أَنَّ ذَلِكَ الصَّانِعَ الَّذِي اشْتَرَى اثْنًا عُرْفَةَ الطَّعَامِ أَوْ آلَةَ الطَّرْبِ أَوْ الْبَسَاطَ يَتَمَتَّعُ بِمَا اقْتَنَى مِنْ سَاعَتِهِ وَكُلَّ يَوْمٍ ، ثُمَّ فَرَقَ بَيْنَ تَمَتُّعِ رَجُلَيْنِ اقْتَصَدَ أَحَدُهُمَا مِائَةً مِنَ الْفَرَنْكَاتِ وَلَا يَرْبِحُ إِلَّا ثَلَاثَةَ فِي كُلِّ عَامٍ وَاقْتَصَدَ الْآخَرُ مِثْلِهَا فَاقْتَنَى بِهَا مَا تَأَقَّتْ نَفْسُهُ إِلَيْهِ لِيَجْعَلَ بَيْتَهُ مَحْبُوبًا لَدَيْهِ وَلِيَتَمَتَّعَ بِهِ فِي كُلِّ حِينٍ ، ذَلِكَ فَرْقٌ عَظِيمٌ ، ذَلِكَ فَوْزٌ يُشْجَعُ عَلَيْهِ عَلَى كَدِّ جَدِيدٍ لِيَسْكُنَ بَيْتًا أَوْسَعَ وَلِلرَّاحَةِ أَدْعَى ، أَوْ لِيَزِيدَ فِي نِظَامِ مَسْكَنِهِ

وَتَجْمِيلِهِ ، وَهُوَ كَمَا حَسَّنَ فِي مَسْكَنِهِ دَبَّ وَرَاءَ تَحْسِينِ جَدِيدِ
 أَرْفَعَ ذَوْقًا وَأَحْكَمَ صُنْعًا ، وَأَصْبَحَ يَتَأَنَّقُ فِي الرَّغَائِبِ وَهِيَ تَزْدَادُ
 فِي كُلِّ حِينٍ وَلَا سَبِيلَ لَهُ إِلَى إِرْضَائِهَا إِلَّا بِعَمَلِهِ فَيَعْمَلُ بِجِدِّ لِيَسْتَرَقِيَ .
 وَلَمَّا كَانَتْ الْقُدْرَةُ عَلَى الْجِدِّ الْمُتَنَاهِي مِنْ خِصَائِصِ رَجُلِ الْإِسْتِقْلَالِ
 وَهِيَ الَّتِي تُمَيِّزُهُ عَنِ رَجُلِ الْإِتِّكَالِ ، كَانَ هَذَا الَّذِي شَرَحْنَا حَالَهُ
 يَتَقَدَّمُ نَحْوَ النَّشْأَةِ الْإِسْتِقْلَالِيَّةِ ، وَثَبَتَ أَنَّ طَرِيقَةَ السُّكْنَى هِيَ أَوْلَى
 بِإِدْرَاقِهِ مِنْ بَوَادِرِ (١) التَّرَقِّيِّ الْمَذْكُورِ .

الثَّالِثَةُ : طَرِيقَةُ السُّكْنَى الْمَذْكُورَةُ تُهَيِّئُ الرَّجُلَ لِأَنَّ يَصِيرَ
 مُهَذَّبًا . إِنِّي أَلْفِتُ الْقُرَّاءَ بِنَوْعٍ خَاصٍّ إِلَى هَذِهِ النَّتِيجَةِ الثَّالِثَةِ لِأَنَّهَا
 أَهَمُّ فِي تَمْيِيزِ النَّشْأَةِ الْإِسْتِقْلَالِيَّةِ وَالتَّفْرِيقِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ النَّشْأَةِ
 الْإِتِّكَالِيَّةِ وَلَمْ نَبْدَأْ بِذِكْرِهَا لِأَنَّ تَقْرِيرَهَا كَانَ مُتَوَقِّفًا عَلَى مَا تَقَدَّمَ
 مِنْ الْكَلَامِ فِي مَلْجَأِ (٢) الْأَنْكِلِيزِيِّ السَّكْسُونِيِّ .

مِنْ لَوَازِمِ النَّشْأَةِ الْإِتِّكَالِيَّةِ وَجُودِ طَبَقَاتٍ فِي الْأُمَّةِ تَمْتَازُ كُلُّ
 وَاحِدَةٍ مِنْهَا عَلَى الْبَقِيَّةِ امْتِيَازًا تَامًا . وَمِنْ الصَّعْبِ أَنْ يَنْتَقِلَ الْإِنْسَانُ
 فِي تِلْكَ الْأُمَّةِ مِنْ مَرْتَبَةٍ وَضِيعَةٍ إِلَى أُرْفَعٍ مِنْهَا . فَلَا يَسْهُلُ عَلَى
 الْأَجِيرِ أَنْ يَصِلَ إِلَى دَرَجَةِ الْأَوَاسِطِ ، وَإِذَا وَصَلَ إِلَيْهَا بِمَا كَسَبَ
 مِنَ الْمَالِ فَإِنَّهُ يَبْسُقُ أَجِيرًا فِي أَرْيَانِهِ وَعَادَاتِهِ وَأَذْوَابِهِ وَكَيْفِيَّةِ

(١) يريد تبشير (٢) يعني بيته الذي يلجأ إليه

مَعِيشَتِهِ فَمَوْ لَا يَتَرَفَّهُ^(١) بِالسَّهُولَةِ ، وَالسَّرُّ فِي هَذَا أَنَّ ارْتِنَاءَهُ مُسَبَّبٌ
عَنْ اِقْتِصَادِهِ ، وَقَدْ بَيَّنْتُ فِيمَا سَبَقَ عِلَّةَ هَذَا اِلِقْتِصَادِ ، وَزِدْ عَلَيْهِ
أَنَّ اِلِقْتِصَادًا لَا يَتَأْتَى إِلَّا لِمَنْ يَعِيشُ فِي مَسْكَنِهِ عَيْشَةً ضَيِّقَةً مُحْرَمٌ
فِيهَا نَفْسَهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فَيَقْتَصِدُ مِنْ مَسْكَنِهِ وَيُقْتَرُّ فِي مَلْبَسِهِ ،
وَيُقَلِّلُ مِنْ اثَاثِ بَيْتِهِ ، وَيُنْقِصُ مِنْ مَصَارِيفِ رِيَاضَتِهِ ، وَالَّذِي يُحْرِزُ
الثَّرْوَةَ عَاجِلًا هُوَ الَّذِي يَقْتَصِدُ كَثِيرًا أَيْ يَعِيشُ حَقِيرًا ، وَمَتَى وَصَلَ
إِلَى الثَّرْوَةِ رَأَيْتُهُ اسْتَمَرَ عَلَى الْعَيْشَةِ حَقِيرًا لِأَنَّ الْعَادَةَ صَارَتْ حَاجَةً ؛
بَلْ أَقُولُ صَارَتْ مَطْلَبًا .

رَأَيْتُ فِي الْأَقَالِمِ رَجُلًا يُمَثِّلُ هُوَ لَاءَ الْقَوْمِ بَدَأَ مُنْذُ أَرْبَعِينَ
عَامًا بِصَنْعَةِ بَائِعِ جَوَالِ ، وَكَانَ يَبِيعُ السِّيَاطَ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِالسُّرُوجِيَّةِ
عَلَى عَرَبِيَّةٍ يَدٍ يَنْتَقِلُ بِهَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَى أُخْرَى ، فَلَمَّا اجْتَمَعَ فِي يَدِهِ
مَبْلَغٌ مِنَ الْمَالِ اشْتَرَى مَسْبَكًا صَغِيرًا يُدَارُ بِقُوَّةِ الْمَاءِ وَجَعَلَ يَصْنَعُ
بِنَفْسِهِ اللُّجْمَ وَالْمَشَابِكَ وَجَمِيعَ الْأَنْوَاءِ الَّتِي تُصْنَعُ مِنَ الْحَدِيدِ أَوْ
مَا شَابَهَ لِلسُّرُوجِ ، وَقَدْ عَرَفْتُهُ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ فَوَجَدْتُ عِنْدَهُ
أَرْبَعِينَ صَانِعًا وَاشْتَرَى مِنَ الْأَطْيَانِ مَا يَبْلُغُ مِائَةَ هِكْتُولِترٍ وَثَلَاثَةَ
بُيُوتٍ أَوْ أَرْبَعَةَ فِي الْقَرْيِ الْمَجَاوِرَةِ لِمَسْكَنِهِ وَصَارَ لَدَيْهِ مَالٌ عَظِيمٌ
لِإِدَارَةِ حَرَكَةِ الْمَسْبَكِ . وَقَدْ تَوَفَّى قَرِيبًا وَتَبَعَتْهُ زَوْجَتُهُ وَلَمْ يَرَ كَا

عَقْبًا (١) وَقُدِّرَتْ ثَرْوَتُهُ بِأَرْبَعِمِائَةٍ أَوْ خَمْسِمِائَةِ أَلْفِ فِرَانِكٍ قُسِّمَتْ
 بَيْنَ أَبْنَاءِ إِخْوَتِهِ . وَعَاشَ هَذَا الرَّجُلُ إِلَى آخِرِ يَوْمٍ مِنْ حَيَاتِهِ
 كَالْأَجْرَاءِ (تِلْكَ طَرِيقَةٌ مُثَلًى (٢) فِي اسْتِعْمَالِ الثَّرْوَةِ وَالْمَالِ) فَبَقِيَ
 عَلَى لَهَجَتِهِمْ فِي الْكَلَامِ وَأَزْيَاءِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ وَكَانَ فِي الْأَصْلِ
 ذَا لَهْجَةٍ عَامِيَّةٍ وَزِيٍّ وَضِعٍ وَهَيْئَةٍ رَثَةٍ (٣) وَلَا أَقُولُ أَكْثَرَ
 مِمَّا ذُكِرَ . شَاهَدْتُهُ مِرَارًا يَبْرُدُ بِنَفْسِهِ بَعْضَ الْمَصْنُوعَاتِ فِي
 مَسْبَكِهِ كَأَجِيرٍ بَسِيطٍ اسْتُخْدِمَ لِيُدِيرَ آلَةً مِنَ الْأَلَاتِ . وَعَلَيْهِ
 فَقَدْ بَلَغَ هَذَا الرَّجُلُ مَا بَلَغَ مِنَ الثَّرْوَةِ وَالْغِنَى وَلَكِنَّهُ لَمْ يَرْتَقِ فِي
 طَبَقَاتِ الْاجْتِمَاعِ . وَمَا سَبَبُ عَدَمِ ارْتِقَائِهِ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَتَعَوَّذْ فِي
 بَيْتِ أَبِيهِ مِنْذُ الصَّغَرِ الْهَيْئَةَ الْحَسَنَةَ وَلَمْ يَعْرِفْ نِظَامَ الْمَعِيشَةِ
 وَمُوجِبَاتِ الرَّاحَةِ فِي السُّكْنَى وَمَا يَتَّبِعُ ذَلِكَ مِنْ لُطْفِ الشَّمَائِلِ (٤)
 وَظَرْفِ الْأَزْيَاءِ .

يُوجَدُ بَيْنَ الْأَهَالِي فِي فِرَنْسَا قَوْمٌ لَهُمْ اسْتِعْدَادٌ كَبِيرٌ لِلتَّجَارَةِ
 وَهُمْ أَهْلُ (أُوفَرِينَا) كَمَا أَنَّ لَهُمْ تَفَنُّنًا عَظِيمًا فِي الْاِقْتِصَادِ، وَلَسْتُ
 أَتَعَرَّضُ لِبَيَانِ السَّبَبِ فِي هَذَا الْاِسْتِعْدَادِ وَلَكِنِّي أَكْتَفِي بِالذَّلَالَةِ
 عَلَيْهِ، وَالرَّجُلُ مِنْهُمْ قَدْ يَبْلُغُ دَرَجَةً مُعْتَبَرَةً (٥) مِنَ الثَّرْوَةِ وَلَكِنَّهُ
 لَا يَخْرُجُ عَنْ حَالَةِ التَّاجِرِ الصَّغِيرِ وَلَا يَتَخَلَّى عَنْ عَادَاتِهِ وَمَا أَلْفَ

(١) يريد أولادا (٢) فضلى (٣) الرث: البالى، ويريد هنا أن هيئته فذرة (٤) الشمائل :
 الطباع والأخلاق (٥) يريد عظيمة

بَلْ يَبْقَى عَلَى عَادَاتِ فَلَاحِي بَلَدِهِ وَهِيَ لَا تَسْتَحْسِنُ مِنْ جِهَةِ
 الْهَيْئَةِ أَوِ النَّظَافَةِ أَوِ الْأَزْيَاءِ. وَكُلُّ مَنْ زَارَ تِلْكَ الْبِلَادَ يَعْلَمُ مَا تَقُولُ
 وَأَنَّهُ لَيْسَ فِي الْوُجُودِ أَقْرَبُ إِلَى الطَّبِيعَةِ مِنْ مَسَاكِنِ فَلَاحِي
 (أوفرينا) وَلَا أَقْدَرُ مِنْهَا، وَلَا أَزَالَ أَدْكُرُ مَا قَاسَيْتُهُ مَعَ مُوسِيو
 (روسية) مِنَ الصُّعُوبَاتِ فِي تَنَاوُلِ الطَّعَامِ بِضَعِّ مَرَّاتٍ بِتِلْكَ
 الْبِلَادِ وَمَا كَانَ يَقُومُ بِنُفُوسِنَا مِنَ الْإِشْمِزَارِ مِمَّا هُوَ طَبِيعِيٌّ عِنْدَ
 رَجُلٍ ذَاقَ لِلتَّمَدُّنِ طَعْمًا، وَأَنَا مَا تَغْلَبْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا إِلَّا بِشِدَّةِ رَغْبَتِنَا
 فِي اسْتِطْلَاعِ أَحْوَالِ أَوْلَئِكَ الْقَوْمِ وَمَعْرِفَةِ كَيْفَ يَعِيشُونَ.

نَشَأَةُ النَّاسِ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ هِيَ الَّتِي تَعَطَّلُ صِفَاتِهِمْ فِي التَّجَارَةِ
 وَتَعَوُّقُهُمْ عَنِ الْإِرْتِقَاءِ أَدْبِيًّا بَيْنَ الَّذِينَ يُحَالِطُونَهُمْ مَعَ مَا هُمْ عَلَيْهِ
 مِنَ الْقَنَاعَةِ وَتَعَوُّدِ الْاِقْتِصَادِ وَالتَّوْفِيرِ. وَهَذِهِ الْحَالُ ظَاهِرَةٌ فِي
 وَصْفِ الْبَيْعِ الشَّرَاءِ الْأَوْفَرَنِيِّ فِي بَارِيسَ «رَاجِعْ كِتَابَ الصَّنَاعِ
 فِي الدُّنْيَا جُزْءَ رَابِعِ صَحِيفَةِ ٣١١ وَ ٣١٢» حَيْثُ جَاءَ فِيهِ: «تَنْقَسِمُ
 تِلْكَ الْفِئَةُ إِلَى قِسْمَيْنِ أَهْلِ أَوْفَرِينَا وَأَهْلِ نُورْمَانْدِيهِ وَكِلَاهُمَا قَنُوعٌ
 مِيَالٌ إِلَى الْاِقْتِصَادِ يَهْرَبُ مِنْ مُخَالَطَةِ الْعَمَلَةِ الْبَارِيسِيَّةِ خَشِيَّةٌ مِنْ
 كَثْرَةِ انْفَاقِهِمْ «مَا أَجْمَلُ» وَيَشْتَرِي الْأَوْفَرَنِيُّ الْمَلَابِسَ الْبَالِيَّةَ
 وَبِالْأَخْصِ الْقُبْعَاتِ وَالْأَحْذِيَةَ الَّتِي لَمْ تَعُدْ صَالِحَةً لِلِاسْتِعْمَالِ وَلَكِنَّهُ
 غَيْرُ مَاهِرٍ فِي ذَلِكَ كَمَا حَمَاهُ، لِذَلِكَ يُتَخَوَّفُ مِنْهُ عَلَى الدَّوَامِ إِذَا

اجتمع الاثنان في يَدْتِ لِمَسَاوِمَةٍ مَبِيْعٍ مَا ، فَتَرَى النَّاسَ يَرُ كُنُوْنَ
إِلَى النُّورِ مَا نَدِيٍّ لِمَا اِمْتَاَزَ بِهِ عَلَى رَفِيْقِهِ مِنَ الْمُوَادَعَةِ وَالْأَدَبِ ، وَهُوَ
أَحْسَنُ مِنْهُ لِبَاسًا وَأَعْدَبُ مِنْهُ لِسَانًا وَبِمَهَارَتِهِ يَتَغَلَّبُ عَلَى صَاحِبِهِ
فِي جَمِيْعِ الْأَحْوَالِ عَلَى التَّقْرِيْبِ . وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ يَتْرُكُ الْأَوْفَرَنِيَّ
مَعَ مَا اخْتَصَّ بِهِ مِنَ الثَّبَاتِ وَالْمَقَاوِمَةِ ، الْاِتِّجَارَ فِي الْمَلَابِسِ الْعَتِيْقَةِ
عَلَى كَثْرَةِ رُبْحِهِ مِنْهَا إِلَى مُزَاجِهِ النُّورِ مَا نَدِيٍّ لِبِشْتِغَلٍ فِي اِخْرَاقِ
الْبَالِيَةِ وَالْحَدَائِدِ الْعَتِيْقَةِ وَالْعِظَامِ وَجُلُوْدِ الْأَرَابِ »

وَيَعْرِفُ الْقَارِيءُ مِمَّا تَقَدَّمَ كَيْفَ أَنَّ التَّرْبِيَةَ الْخَشِنَةَ النَّاتِجَةَ
عَنْ حَالَةِ مُسْكَنِ الْبَيْتِ تَمْنَعُ الْأَوْفَرَنِيَّ مِنَ الْاِرْتِقَاءِ حَتَّى فِي تِجَارَةِ
لَا تَقْتَضِي تَرْبِيَةً عَالِيَةً . وَلَا شَكَّ فِي أَنَّهُمْ لَوْ حَسَنُوا مُسْكَنَهُمْ
لَاِسْتِفَادُوا مِمَّا يَصْرَفُونَ فِي هَذَا السَّبِيلِ رِبْحًا جَزِيْلًا ، وَذَلِكَ الرَّبْحُ
هُوَ الَّذِي يَسْتَفِيْدُهُ الْاِنْكَلِيزِيُّ السَّكْسُونِيُّ مِنْ تَنْظِيْمِ مَلَجَتِهِ .

وَلنَرْجِعَ إِلَى عُمَالِ ضَوَاحِي اِيْدِنْبُورْجِ فَهْمُ تَرَبُّوا وَيُرَبُّونَ
أَوْلَادَهُمْ فِي مَلَجَأٍ يُعَوِّدُهُمْ شَيْئًا مِنَ التَّحْسِينِ فِي الشُّكْنَى وَإِنْ
كَانَ بَيْتًا صَغِيرًا ، كَمَا يُعَوِّدُهُمْ لِبَاسًا مُخْصُوصًا ، وَلِهَجَّةٍ مُخْصُوصَةً ،
وَشَمَائِلَ مُخْصُوصَةً ، فَيَصِيرُونَ بِذَلِكَ مُتَرْفِهِينَ ، وَمُسْتَعِدِّينَ لِأَنَّ
يَتَرَفَّهُوا إِنْ لَمْ يَكُونُوا كَذَلِكَ مِنْ قَبْلُ ، فَإِذَا سَنَحَتْ لَهُمْ فُرْصَةٌ
اِرْتِقَاءً - وَقَدَّرْتُهُمْ عَلَى الْعَمَلِ مِمَّا يَخْلُقُهَا - رَأَيْتَهُمْ يَدْتَهِنُونَهَا وَيَجِدُونَ

مِنْ حَالِهِمِ الشَّخْصِيَّ مَا يَجْعَلُهُمْ جَدِيرِينَ بِهَا ، إِذْ لَيْسَ فِيهِمْ مَا يَمْنَعُ مِنْ نَيْلِ ذَلِكَ الْإِرْتِقَاءِ . وَأَخْلَاصُهُ أَنْ نِظَامَ الْبَيْتِ عِنْدَهُمْ ، حَتَّى يُيَوِّتِ الْأَجْرَاءَ ، يَجْعَلُ الْأَفْرَادَ قَابِلِينَ لِأَنْ يَصِيرُوا مِنْ طَبَقَةِ الْمُهَذَّبِينَ ، فَلَا يَظْهَرُ عَلَيْهِمْ فِي الْمَرَاتِبِ الَّتِي يَرْتَقُونَ إِلَيْهَا أَنَّهُمْ لَيْسُوا مِنْ أَهْلِهَا .

هَذَا وَإِنِّي أَجِدُ مِنْ نَفْسِي دَافِعًا إِلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ النَّشَأَةَ الْإِسْتِقْلَالِيَّةَ لَا تَلِدُ طَبَقَةَ ذَنْبِيَّةٍ وَرَائِيَّةٍ كَمَا هُوَ الْحَالُ عِنْدَ أَهْلِ النَّشَأَةِ الْإِتِّكَالِيَّةِ إِذِ الْمَشَاهِدَةُ ظَاهِرَةٌ الْوُضُوحِ ، وَالْوَقَائِعُ الَّتِي تَحْضُرُ الذَّاكِرَةَ تُؤَدِّي إِلَى تِلْكَ النَّيْجَةِ وَتُبْرِزُهَا فِي صُورَةٍ قَاعِدَةٍ عُمُومِيَّةٍ . وَمِنْ أَجْلِ هَذَا أَصْبَحَ أَهْلُ النَّشَأَةِ الْأُولَى فِي مُقَدِّمَةِ الْمُتَقَدِّمِينَ نَحْوَ حَلِّ الْمَسْأَلَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ ، وَعَلَى الْخُصُوصِ مَسْأَلَةِ الْأَجْرَاءِ . وَإِنِّي أَكْتَفِي بِإِيرَادِ ثَلَاثِ مُشَاهَدَاتٍ لِلدَّلَالَةِ عَلَى قَابِلِيَّةِ تِلْكَ الْأُمَمِ لِلتَّرَقِّي :

الأولى — قِلَّةُ عَدَدِ الْخُدَامِ مِنَ الْإِنْكَلِيزِ السَّكْسُونِيِّينَ .
فَعَالِبُ الْخُدَمِ فِي إِنْكَلِتْرَا ، وَفِي الْوَلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ ، إِمَّا سَلْتِيُونَ أَصْلًا ، أَوْ جِرْمَانِيُونَ ، أَوْ لَاتِينِيُونَ ، وَلَا تَجِدُ خَدَمًا مِنَ الْجِنْسِ الْإِنْكَلِيزِيِّ السَّكْسُونِيِّ إِلَّا مِنْ نَوْعٍ مَخْصُوصٍ كَالْمُرَبِّيَاتِ اللَّاتِي هُنَّ طَبَقَةٌ أَرْفَى مِنَ الْخُدَمِ الْإِعْتِيَادِيِّينَ ، وَكَالْخَادِمَاتِ مُؤَقَّتًا وَهُنَّ بَنَاتُ الْفَعَلَةِ اللَّاتِي يَخْدُمْنَ وَقْتًا مُخَدُودًا لِإِتِّعَامَنْ بَيْنَ قَوْمٍ أَرْفَعَ مِنْهُنَّ رُتَبَةً كَيْفِيَّةً إِدَارَةَ الْبَيْتِ قَبْلَ أَنْ يَتَرَوَّجْنَ .

الثَّانِيَّةُ — وَجُودُ تِلْكَ الْأَلْفِ الْمُؤَلَّفَةِ مِنَ الْفَعْلَةِ الَّذِينَ مَارَسُوا الْعَمَلَ بِأَيْدِيهِمْ وَارْتَقَوْا بِكُدِّهِمْ إِلَى أَرْفَعِ الْمَقَامَاتِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا فِيهَا خَارِجِينَ عَنْ صَفِّهَا ، بَلْ لَا فَرْقَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُهَذَّبِينَ مِنْ أَهْلِ الطَّبَقَةِ الَّتِي وَصَلُوا إِلَيْهَا ، وَهَذَا أَمْرٌ مَعْرُوفٌ وَمَشْهُورٌ . وَقَدْ تَكَلَّمْنَا عَنْهُ فِي مَجَلَّةِ (الْعِلْمِ الْاجْتِمَاعِيِّ) عِنْدَ ذِكْرِ رُؤَسَاءِ أَحْزَابِ الْفَعْلَةِ الَّذِينَ أَصْلَهُمْ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا الْيَوْمَ مُتَرَبِّعِينَ فِي مَجْلِسِ النُّوَابِ « مَجَلَّةُ أُكْتُوبِرِ سَنَةِ ١٨٩٣ وَدَيْسَمْبِرِ سَنَةِ ١٨٩٤ وَيُولْيُو وَنُوفَمْبِرِ سَنَةِ ١٨٩٥ » .

كَانَ مُوسِيُو كَافِلْمَنْدَ رَئِيسُ مُجْمُورِيَّةِ الْوَلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ صَبِيًّا عِنْدَ أَحَدِ الْبَقَالِيْنَ بِوِظِيْفَةِ سَاعٍ يَقْضِي الطَّلَبَاتِ مِنْ أَخَارِجِ وَكَانَ يَكْنُسُ الْمَسْكَانَ وَيَكْسِرُ الْخَشَبَ وَيُوقِدُ النَّارَ ، وَكَانَ اللَّوْرْدُ جَلَسْكَو حَكَمْدَارُ بِلَادِ زِيلَنْدَا الْجَدِيدَةِ صَبِيًّا نُوتِيًّا (١) فِي أَحَدِ الْمَرَآكِبِ مِنْذُ كَانَ عُمُرُهُ ثَلَاثَ عَشْرَةِ سَنَةٍ ، كَذَلِكَ كَانَ فَرَنْكَلَانُ الَّذِي طَارَ صَيْتَهُ فِي الْآفَاقِ فَاءِئَلًا . وَلَيْسَ فِي ارْتِقَائِهِمْ مِنْ ذَلِكَ الْحَضِيضِ إِلَى هَذَا النِّعَمِ مَا يَسْتَوْجِبُ الْعَجَبَ ، وَلَكِنَّ الَّذِي يُدْهَشُ لَهُ الْإِنْسَانُ هُوَ كَثْرَةُ عَدَدِ الْوَأَصِلِينَ ، وَأَنَّ أَصْلَهُمُ الصَّغِيرَ لَمْ يَتْرُكْ فِيهِمْ أَثْرًا مِنْ الْآثَارِ الَّتِي نَشَاهِدُهَا فِي قَوْمِنَا الَّذِيْنَ يَرْتَقُونَ . قُلْتُ إِنَّ هَذِهِ

مُشَاهِدَةٌ غَرِيبَةٌ ، وَأَنَا أَحْبَبُ (١) كُلَّ إِنْسَانٍ يُعَلِّمُنِي بِغَيْرِ طَرِيقَةٍ
الْإِنْكَلِيزِيَّ السَّكْسُونِيَّ الْأَجِيرِيَّ فِي السُّكْنَى .

الثَّالِثَةُ — وَهِيَ مُهِمَّةٌ فِي بَابِهَا : مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ يُوجَدُ مِنْ قَطْرِ
السَّكِّكَ الْحَدِيدِيَّةِ بِلَادِ الْإِنْكَلِيزِ عَدَدٌ كَبِيرٌ لَيْسَ فِيهِ عَرَبَاتٌ لِلدَّرَجَةِ
الثَّانِيَةِ لِأَنَّ النَّاسَ أَهْمَدُوهَا ، وَمِنْ جِهَةٍ ثَانِيَةٍ أَرَى الْإِخْصَائِيَّاتِ
تَدُلُّ عَلَى أَنَّ عَدَدَ مُسَافِرِي الدَّرَجَةِ الْأُولَى فِي تِلْكَ الْبِلَادِ أَقَلُّ مِنْ
مِثْلِهِ فِي أَوْرُبَا ، وَبَيْنَمَا أَنَا كُتِبْتُ هَذِهِ السُّطُورَ عَلِمْتُ أَنَّ إِحْدَى
شَرَكَاتِ السَّكِّكَ الْحَدِيدِيَّةِ الْإِنْكَلِيزِيَّةِ عَرَضَتْ الْغَاءَ الدَّرَجَةِ الْأُولَى
وَأَنَّ اللَّجْنَةَ الَّتِي تَشَكَّلَتْ لِلنَّظَرِ فِي طَلِبِهَا وَافَقَتْ عَلَيْهِ مُحْتَجَّةً بِقِلَّةِ
عَدَدِ مُسَافِرِيهَا ، وَاسْتَدْلَوْا عَلَى رَأْيِهِمْ بِأَنَّ الدُّوقَ « كَامْبِرْلَانَ » صِهْرَ
الْمَلِكَةِ يُسَافِرُ دَائِمًا فِي الدَّرَجَةِ الثَّالِثَةِ ، وَلَا يُجُوزُ أَنْ يَكُونَ السَّبَبُ
فِي ذَلِكَ مُحَبَّةَ الْإِقْتِصَادِ إِذِ الْمَعْرُوفُ عَنِ الْإِنْكَلِيزِ وَالْأَمْرِيكَانِيَّيْنَ
أَنَّهُمْ يَتَوَسَّعُونَ فِي عَيْشَتِهِمْ ، وَعَلَى الْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ نَجَدُ عَدَدَ
السِّيَاحِ مِنَ الْفَرَنْسَاوِيِّيْنَ فِي الدَّرَجَةِ الْأُولَى كَبِيرًا مَعَ أَنَّ ثَرْوَتَهُمْ
أَقَلُّ وَمَيْلَهُمْ إِلَى الْإِقْتِصَادِ أَشَدُّ . وَجَبَ إِذَنْ أَنْ نَبْحَثَ عَنْ عِلَّةٍ أُخْرَى
وَلَا أَرَاهَا إِلَّا كَيْفِيَّةَ مَعِيشَةِ الطَّبَقَةِ الْأَخِيرَةِ مِنْ أُمَّةِ الْإِنْكَلِيزِ
السَّكْسُونِيِّيْنَ وَهَيْئَتِهِمْ وَزِيَّتِهِمْ ، فَنَحْنُ نَتَأَفَّفُ (٢) مِنَ السَّفَرِ مَعَ

(١) أى أغلبه بالحجة والبرهان (٢) تأفف: اذا قال أف . يريد نشمئز

رَجُلٍ ذِي هَيْئَةٍ رَثَةٍ وَعَادَاتٍ مُنْحَطَّةٍ خَشِنَةٍ ، وَلَكِنَّ هَذَا التَّافَهُ
 ضَعِيفٌ عِنْدَ الْإِنْكَلِيزِ السَّكْسُونِيِّينَ لِارْتِقَاءِ الطَّبَقَةِ السُّفْلَى بَيْنَهُمْ
 ارْتِقَاءً مُحَسَّنًا ، وَمِنْ أَقْطَعِ الْأَدِلَّةِ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ شَرِكَاتِ السِّكِّكَ
 الْحَدِيدِيَّةِ وَصَلَتْ فِي تَحْسِينِ إِدَارَةِ أَحْوَالِهَا إِلَى إِيجَادِ تَدَاكُرِ
 مُشْتَرَكَةِ لِقَاصِدِي إِنْكَتَرَاتٍ تُبْسِحُ لِلْمُسَافِرِ أَنْ يَرْكَبَ الدَّرَجَةَ الثَّانِيَةَ
 مَا دَامَ سَائِرًا فِي الْبِلَادِ الْفَرَنْسَاوِيَّةِ ، فَإِذَا بَدَأَ السَّيْرَ فِي الْبِلَادِ
 الْإِنْكَلِيزِيَّةِ انْتَقَلَ إِلَى الدَّرَجَةِ الثَّلَاثَةِ . وَلِيُلَاحِظَ أَنَّ الْإِنْكَلِيزِ
 بِاسْتِعْمَالِهِمُ الدَّرَجَةَ الثَّلَاثَةَ لَمْ يَنْسُوا مُوجِبَاتِ رَاحَتِهِمْ ، وَمِنْ أَجْلِ
 ذَلِكَ قَدْ جَعَلَتْ الشَّرِكَاتُ الَّتِي تُلَاحِظُ رَغَبَاتِ النَّاسِ عَرَبَاتِ الدَّرَجَةِ
 الثَّلَاثَةَ أَكْمَلَ نِظَامًا وَأَتَمَّ تَرْتِيبًا مِنْ عَرَبَاتِ الدَّرَجَةِ الثَّانِيَةِ عِنْدَنَا ،
 وَرُبَّمَا ضَارَعَتْ دَرَجَتَنَا الْأُولَى زُخْرُفًا وَحُسْنًا فِي بَعْضِ الْفُرُوعِ ، أَمَّا
 الْإِعْتِنَاءُ بِهَا فَيَفُوقُ الْإِعْتِنَاءَ بغيرِهَا .

وَحِينَئِذٍ يُمَكِّنُنَا أَنْ نَسْتَخْلِصَ مِمَّا تَقَدَّمَ أَنْ حُسْنَ السُّكْنَى وَاسْتِيفَاءِ
 مُوجِبَاتِ الرَّاحَةِ فِي الْبُيُوتِ مِمَّا يَجْعَلُ الطَّبَقَاتِ النَّازِلَةَ فِي الْأُمَّةِ أَهْلًا
 لِبُلُوغِ أَعْلَى الْمَرَاتِبِ بِحَيْثُ لَا يَرَى أَنَّهُمْ دُخْلَاءَ فِيهَا بَمَا يَلُوحُ عَلَيْهِمْ
 مِنَ الشَّمَائِلِ وَالْأَزْيَاءِ ، وَذَلِكَ يُؤَدِّي عَلَى الدَّوَامِ إِلَى مَحْوِ الطَّبَقَةِ السَّافِلَةِ
 الْوَرَائِيَّةِ فِي الْأُمَّةِ الَّتِي هِيَ دَاءُ الْأُمَّةِ الْإِتِّكَالِيَّةِ الْعُظِيمَةِ .

لَيْسَتْ الْمَسْأَلَةُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ عِبَارَةً عَنِ مُسَاعَدَةِ الْأَفْرَادِ ، كَمَا أَنَّ

مَسْأَلَةُ الْحَيَاةِ لَا تَقُومُ بِكَثْرَةِ تَنَاوُلِ الْأَدْوِيَةِ وَالْعَقَاقِيرِ ، اذ لَيْسَتْ
 الْمُسَاعَدَةُ أَوْ الْعَقَاقِيرُ مِنْ وَسَائِلِ الْحَيَاةِ الطَّبِيعِيَّةِ . وَلَيْسَتْ الْحِكْمَةُ
 إِلَّا مَا أَدَّتْ إِلَى الْإِسْتِغْنَاءِ عَنْ تِلْكَ الْوَسَائِلِ الصَّنَاعِيَّةِ ، وَلَيْسَ مِنْ
 حَلِّ الْمَسْأَلَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ إِلَّا جَعْلُ الْأَفْرَادِ بِحَيْثُ يَسْتَطِيعُ كُلُّ
 وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَنْ يَقُومَ بِأَوْدِ نَفْسِهِ ^(١) ، وَأَنْ يَرْتَقِيَ بِجِدِّهِ وَعَمَلِهِ ، لِأَنَّ
 سَلَامَةَ الْجَمَاعِ كَالسَّلَامَةِ الْآخَرِوِيَّةِ كَمَا قَدَّمْنَا - تَقُومُ بِكُلِّ وَاحِدٍ
 عَلَى حِدَّتِهِ وَعَلَى كُلِّ وَاحِدٍ أَنْ يَسْعَى إِلَيْهَا . وَقَوْلِي هَذَا لَا يَرُوقُ ^(٢)
 فِي أَعْيُنِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا السِّيَاسَةَ حِرْفَةً وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ طَلَبُوا رِزْقَهُمْ
 مِنْ انْحِطَاطِ الْأُمَّةِ وَوَضَعْفِ مَدَارِكِ الطَّبَقَاتِ النَّازِلَةِ ، وَكَانَتْ فَأَيْدِيَهُمْ
 فِي بَقَاءِ النَّاسِ دَائِمًا عَلَى حَالَةٍ يُشْبِهُونَ فِيهَا الْقُصْرَ حَتَّى يَتَيَسَّرَ لَهُمْ
 أَنْ يَكُونُوا عَلَيْهِمْ أَوْصِيَاءَ ، غَيْرَ أَنَّ الْعِلْمَ لَا يَلْتَفِتُ إِلَى مِثْلِ تِلْكَ
 الْمُلَاحَظَاتِ ، بَلْ إِنَّهُ يُجْهَلُهَا وَيَسْأَلُكَ الطَّرِيقَ الَّذِي تَدُلُّ الْمَشَاهِدَاتُ
 عَلَيْهِ .

عَلِمْنَا أَنَّ قَابِلِيَّةَ التَّرَقِّي تَنْمُو أَوْلًا بِتَحْسِينِ الْمَسْكَنِ عِنْدَ أَجْنَاسِ
 الْأُمَّمِ الْاِتِّكَالِيَّةِ إِذَا اخْتَلَطَتْ بِالْأُمَّمِ الْاِسْتِقْلَالِيَّةِ ، وَظَاهِرٌ أَنَّ هَذَا
 اخْتِلَاطٌ مَفْقُودٌ عِنْدَنَا إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْمُسْتَحِيلِ أَنْ يُسْتَعَاضَ عَنْهُ
 مَعْرِفَةُ حَقَائِقِ الْأَحْوَالِ كَمَا يَنْبَغِي . فَالْمَعَارِفُ تَوْصَلُنَا إِلَى أَنْ

(١) أى بجمعها (٢) لا يعجب

نَعْمَلْ بِغَيْرِ اخْتِلَاطٍ مَا نَفَعَلَهُ بِلَا تَأْمَلِ بَلْ لِـمُجَرَّدِ الْاِحْتِكَالِ
 بَيْنَ نَخْبَةِ الْعَمَلَةِ الْاَيْقُوسِيِّينَ اَوْ الْاِيرْلَنْدِيِّينَ فِي اِنْكَلِتْرَا، وَمَا نَفَعَلَهُ
 كَذَلِكَ نَخْبَةُ الْمُهَاجِرِينَ مِنْ اُورْبَا الْقَدِيمَةِ اِلَى الْوَلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ
 بِاَمْرِيكََا .

عَلَى الطَّبَقَاتِ الْوُسْطَى مِمَّا اَنْ تَبْدَأَ بِهَذَا التَّرَقِّي بِنَفْسِهَا لِنَفْسِهَا
 فَهِيَ الْاَنَ تَجْهَدُ نَفْسَهَا كَثِيْرًا وَتُنْفِقُ الْمَالَ الْجَزِيْلَ لِتَعِيْشِ خَارِجِ
 الْبَيْتِ وَلِتُكْثِرَ مِنْ عِلَاقَاتِهَا مَعَ الْمُتَطَرِّفِيْنَ وَالْاَصْحَابِ الْعَادِيِيْنَ
 وَتُكْرَهُ الْاِقَامَةَ فِي الْاَرْيَافِ كُرْهًا شَدِيْدًا، لِاَنَّ الْعِلَاقَاتِ وَالْمَعِيْشَةَ
 الْخَارِجَةَ عَنِ الْبَيْتِ هُنَاكَ اَصْعَبُ . وَتَعْتَنِي فِي يَبْتِهَا بِفَرَشِ الْقِسْمِ
 الْمُنْخَصِّ لِلاِسْتِقْبَالِ بِالْاَثَاتِ الْفَاخِرِ وَالزَّخَارِفِ وَتَعْدُوْ مِنْ
 الْفَضَلَاتِ تَنْظِيْمِ الْقِسْمِ الْمُنْخَصِّ بِمَعِيْشَةِ الْعَائِلَةِ نَفْسِهَا وَتَوْفِيْرِ
 مُوْجِبَاتِ الرَّاحَةِ فِيْهِ . وَهِيَ بِذَلِكَ تَجْعَلُ الْبَيْتَ ثَقِيْلًا عَلَيْهَا وَعَلَى
 اَبْنَائِهَا فَلَا تُخَصِّصُ بِهِمْ غُرْفَةً يَشْعُرُوْنَ بِاجْتِمَاعِهِمْ فِيْهَا اَنَّهُمْ
 فِي يَبْتِهِمْ حَقِيْقَةً، وَيَتَعَلَّمُوْنَ مِنْ صِغَرِهِمْ طَرَفًا مِنَ الْاِسْتِقْلَالِ . اَلَا
 اِنَّ الْاَطْفَالَ هُمْ ضَحَايَا الْبُيُوتِ فِي فَرَنْسَا !! وَالْوَاقِعُ اَنْ يُيُوْتَنَا
 اَعْدَتْ لِلْاَجَانِبِ لِاَنَّ نَفْسَنَا، وَهَذَا هُوَ الَّذِي يَجِبُ تَغْيِيْرُهُ لِيَرْجِعَ
 الْمَرْءُ اِلَى الْمَعِيْشَةِ الْخُصُوْصِيَّةِ فَيُقِيْمَ فِيْهَا كَمَنْ يَحْتَلُّ حِصْنًا مَنِيعًا

وَيَجْعَلُهَا بِحَيْثُ تَمِيلُ إِلَيْهَا النَّفْسُ مِيلًا كَلِيمًا فِي الْحَيَاةِ الشَّخْصِيَّةِ قُوَّةٌ عَظِيمَةٌ لَكِنَّهَا مَجْهُولَةٌ؛ وَلَا سَبِيلَ إِلَى الْإِرْتِقَاءِ لِقَوْمٍ لَا يَعْرِفُونَ حَقِيقَةَ مَا ذُكِرَ.

لَكِنْ إِذَا تَسَرَّرَ لَطَبَقْتِنَا الْوُسْطَى أَنْ تَخْطُو هَذِهِ الْخُطُوَّةَ - وَذَلِكَ مُمَكِّنٌ إِذَا أَرَادَتْ فَلَيْسَ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ أَفْرَادِهَا إِلَّا أَنْ يُقَدِّمَ عَلَى الْعَمَلِ لِنَفْسِهِ، فَالْأَمْرُ مُتَعَدِّرٌ عَلَى طَبَقَةِ الْعَمَلِ لِاسْتِحَالَةِ أَنَّهَا تَعْمَلُ بِنُورِ الْعِلْمِ وَخَدُهُ، وَلِأَنَّ الْغَايَةَ الْمَقْصُودَةَ بَعِيدَةٌ عَنْهَا بَعْدًا عَظِيمًا وَلِأَنَّهُ لَا مُسَاعَدَةَ لَهَا مِنَ الْإِحْتِكَالِ الْعَدَمِ وَجُودِهِ فِيهِ مُحْتَاجَةٌ إِلَى مَنْ يُعِينُهَا.

هَذَا أَوْجَهُ الْخُطَابِ عَلَى الْأَخْصِ إِلَى الَّذِينَ جَعَلُوا مِنْ هَمِّهِمُ السَّعْيَ فِي إِجْبَادِ الْوَسَائِلِ لِإِعَانَةِ الْمُحْتَاجِينَ وَهُمْ فِي الْغَالِبِ يُسَاعِدُونَ الْعَامِلَ وَيَتَكَلَّفُونَ حِمَايَتَهُ - وَجَبَ ذَلِكَ أَوْ لَمْ يَجِبْ - وَلَا يُحْصَلُونَ مِنْ أَعْيَابِهِمْ إِلَّا فَوَائِدٌ قَلِيلَةٌ فَضْلًا عَمَّا يَلْحَقُ بِالْعَمَلَةِ مِنْ إِضْعَافٍ قَابِلِيَّتِهِمْ إِلَى الْإِرْتِقَاءِ بِأَنْفُسِهِمْ، وَكُلُّ مُسَاعَدَةٍ لَا يَكُونُ الْغَرَضُ مِنْهَا جَعْلَ الْمُسَاعَدَةِ نَفْسِهَا فَضْلًا^(١) أَيَّ إِعْدَادِ النَّاسِ لِمُسَاعَدَةِ أَنْفُسِهِمْ بِأَنْفُسِهِمْ قَدْ تَصِيرُ مُصِيبَةً عَظِيمًا؛ وَاللَّازِمُ هُوَ مُسَاعَدَةُ تِلْكَ الطَّبَقَةِ عَلَى الْإِرْتِقَاءِ بِنَفْسِهَا بِإِعَانَتِهَا عَلَى تَحْسِينِ مَسَاكِنِهَا وَتَنْظِيمِ الْمَعِيشَةِ الشَّخْصِيَّةِ.

(١) يريد نافلة وأمرًا غير محتم.

إِنِّي الْأَحْظُ الْأَنْ بِكَمَالِ الْعِنَايَةِ مَشْرُوعًا بَدَأُ بِتَنْفِيذِهِ أَحَدُ
أَصْدِقَائِي . ذَلِكَ أَنَّهُ يُوجَدُ عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنْ أَمْلَاكِهِ مَعْمَلٌ صَغِيرٌ
يَسْتَعْمَلُ فِيهِ نَيْفٌ^(١) وَخَمْسُونَ عَامِلًا تَتَأَلَّفُ مِنْهُمْ عِشْرُونَ عَائِلَةً
سَاكِنَةً بِجُورٍ ذَلِكَ الْمَعْمَلُ فِي بُيُوتٍ أُعْطِيَتْ لَهُمْ بِأَجْرَةٍ سَنَوِيَّةٍ
مَا بَيْنَ خَمْسِينَ فَرَنْكًا وَسِتِّينَ ، وَهِيَ فِي الْوَأَقِعِ لِأُنْسَاوِي أَكْثَرُ
مِنْ هَذِهِ الْقِيَمَةِ لِأَنَّهَا عِبَارَةٌ عَنْ عِشَشٍ أَوْ أَكْوَاخٍ أَبْوَابُهَا
وَسَبَائِكُهَا لَا تُقْفَلُ مَتَى فَتِحَتْ ؛ مِمَّا يَجْعَلُ سُكْنَاهَا لَا تَطَاقُ فِي
رَمَنِ الشِّتَاءِ . وَهِيَ عَلَى الدَّوَامِ تُقْصَى^(٢) النَّظَرَ إِلَيْهَا بِمَا عَلَاهَا مِنْ
الْأَوْسَاحِ الَّتِي تَفُوقُ الْوَصْفَ . وَلَا أَذْكَرُ شَيْئًا عَنْ أَثَابِهَا فَإِنَّهُ
دُونَ مَا يَتَصَوَّرُ الْعَقْلُ بِسَاطَةِ وَعَلَى حَالٍ لَا يُمَكِّنُ نَعْتَهَا أَبَدًا ! وَمِنْ تَمَامِ
الشَّقَاءِ أَنَّ قِسْمًا مِنْ تِلْكَ الْعَائِلَاتِ يَنْهَمِكُ فِي الْمُسْكِرَاتِ كَمَا يَحْصُلُ
ذَلِكَ غَالِبًا . تِلْكَ هِيَ الْمَادَّةُ الَّتِي اسْتَعْمَلَ صَاحِبِي بِالْعَمَلِ فِيهَا ، وَظَاهِرٌ
أَنَّهَا مِنْ أَحْسَنِ الْمَوْضُوعَاتِ فِي بَحْثِنَا وَأَنَّهَا تَجْعَلُ الْعَمَلَ مِنْ أَهَمِّ
مَا يُتَلَفَّتُ إِلَيْهِ ، وَلِمَجَاوِرَةِ صَاحِبِنَا لِأَوْلِيكَ الْقَوْمِ وَتَفَرُّغِهِ النَّاشِئِ
عَنِ الْإِقَامَةِ فِي الرَّيْفِ سَهْلِ الْإِجْتِمَاعِ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ وَبَدَأَ الْإِخْتِلَاطُ
إِذْ جَاءَ وَهُوَ يَطْلُبُونَ مِنْهُ دَوَاءً لِأَبْنَائِهِمْ أَوْ لِبَعْضِ الْمَرْضَى ، فَمَمَكَنْتُ

(١) نيف الشيء على كذا: زاد ، يريد خمسين وزيادة (٢) تبعده، إذ لا يطبق النظر

إليها.

زَوْجَتَهُ بِذَلِكَ مِنَ الدُّخُولِ فِي تِلْكَ الْمَسَاكِينِ حَيْثُ قُوْدِلَتْ بِالشُّكْرِ
وَالِإِمْتِنَانِ وَعَادَتْ مُقَشَّعَةً مِنْ تَعَسِ مَاهُمْ فِيهِ ، وَعَلَى الْخُصُوصِ
مِنْ إِهْمَالِ الْأَطْفَالِ وَعَدَمِ الْإِعْتِنَاءِ الْكُلِّيِّ بِمَا احتَاجُوا إِلَيْهِ مِنْ
الْأَوْلِيَّاتِ كَالنِّظَافَةِ وَمُرَاعَاةِ الصِّحَّةِ . وَكَانَ مِنْ أَوَّلِ احتِفَائِهِمْ
أَنْ وَزَعَتْ عَلَيْهِمِ الْمَلَابِسَ عَلَى شَرْطِ الْإِعْتِنَاءِ بِهَا ، وَأَنْ يُنْظَفَ الْأَطْفَالُ
وَتُمَشَّطَ شَعُورُهُمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ ، ثُمَّ جَعَلَتْ لَهُمْ فِي أَرْزَامٍ مَعْلُومَةٍ
طَعَامًا خَفِيفًا وَقَتَ الْعَصْرِ يَجْتَمِعُ حَوْلَهُ أَبْنَاءُ الْعَمَلَةِ كُلِّهِمْ ، وَاشْتَرَطَتْ
أَلَّا يُحْضِرُهُ إِلَّا مَنْ حَسُنَتْ هَيْئَتُهُ . وَبِذَلِكَ أزدَادَ الْإِجْتِمَاعُ بَيْنَ
الْفَرِيقَيْنِ وَتَمَّ تَتْفِيدُ هَذَا الْقِسْمِ مِنْ مَشْرُوعِ صَاحِبِنَا عَلَى مَا يَنْبَغِي .
وَكَانَتْ هَذِهِ أَوَّلَ خُطْوَةٍ نَحْوِ الْغَرَضِ الْمَقْصُودِ وَلَمْ تَكُنْ حَالَةً
مَا حَوْلَ الْمَسَاكِينِ بِأَحْسَنَ مِمَّا شَرَحْنَاهُ عَنْهَا ، فَإِذَا أَمْطَرَتِ السَّمَاءُ
رِذَاذًا (١) اخْتَرَقَتِ الْمِيَاهُ الطَّرِيقَ فَصَارَ وَحِلًا وَهُوَ مَرْمَى الْقَدَارِ عَلَى
الدَّوَامِ ، وَأَوْ كَدَّ أَنَّهُ كَانَ يَحْتَوِي عَلَى كُلِّ صِنْفٍ مِنْ أَوْسَاحِ أَخْسِ
الْأَدِيمِيْنَ . وَلَمْ يَمُضْ شَهْرٌ إِلَّا وَقَدْ أُصْلِحَ الطَّرِيقُ وَفُرِشَ بِالْحِجَارَةِ
وَارْتَفَعَ عَنِ مُسْتَوَى الْأَرْضِ وَاتَّخَذَ عَلَى جَانِبَيْهِ قَنَاَتَانِ لِتَصْرِيفِ
الْمِيَاهِ ، وَزَرَعَ صَاحِبِنَا فِي مَدْخَلِهِ أَمَامَ الْمَسَاكِينِ صِنْفًا مِنَ الْأَشْجَارِ
النَّضْرَةِ ذَاتِ الْأَزْهَارِ فَكَانَتْ تِلْكَ الْأَشْجَارُ أَشْبَهَ بِدَرَمٍ فِي

(١) الرذاذ: المطر الضعيف

الأشياء لدلالته على أنه يجب الاعتناء أيضاً بما حول المساكن كالاعتناء بها، ودلالته أشدُّ فعلاً في النفوس من القاء النصح والإرشاد. ويظهر أن أولئك المساكن أدرُّ كوا هذه الحاجة فتعهد كثيرٌ من منهم بسقيماً الأشجار والاعتناء بها، نعم ذلك شيء يسير إلا أنه جعل فيهم همةً وهيأ لهم عملاً يرتاحون إليه، وهي فائدة كبرى. بقي الهجوم على أبحار^(١) الوحوش التي يأوى إليها أولئك البائسون لجعلها بيوتاً محترمةً وترتيبها بحيث تفي في النفس قيمة الإنسان وتذبه بكرامة المسكن الذي يتمكن صاحبه من الارتياح إليه والراحة فيه حتى تنبعث الهمة إلى ترتيبه وتجميله، وهنا محل الصعوبة كما لا يخفى، وحسن الحظ حدث أن مدير العمل تغير بمدير جديد، ومن رأى هذا الأخير إصلاح تلك المساكن وستكون هذه فرصة مناسبة تتيح^(٢) لصاحبنا أن يحمل أولئك السكان على تحسين مساكنهم، وقد وعد بأنه يراقب ذلك ويتبع حالة العملة المذكورين في التغيير والترقي ويساعدهم عليه جهده، ويسطر النتيجة التي يصل إليها. ولا يتيسر للإنسان أن يقف على مجرى الأحوال كما ينبغي إلا إذا انحصرت في دائرة صغيرة تسهل مشاهدتها.

(١) جمع جحر، والكلام على التشبيه والاستعارة (٢) تهيء

رُبَّمَا يَخْطُرُ بِالْبَالِ أَنَّ أَكْبَرَ عَائِقٍ فِي تَرْقِي الْعَمَلَةِ مِنْ حَالَتِهِمْ إِلَى
 أَحْسَنَ مِنْهَا هُوَ قَلَّةُ ذَاتِ يَدِهِمْ^(١) إِلَّا أَنَّ الْمَشَاهِدَاتِ لَا تُؤَيِّدُهُ هَذَا الظَّنَّ
 لِأَنَّهُ يَوْجَدُ بَيْنَ الْعَائِلَاتِ الَّتِي تَشْتَغَلُ فِي ذَلِكَ الْمَعْمَلِ وَاحِدَةً يُرَى
 أَنَّهَا أَشَدُّهُمْ بَوْسًا فَمَسْكَنُهَا أَسْحَقُ^(٢) الْمَسَاكِنِ وَأَبْنَاؤُهَا السُّتَّةُ
 النَّعْسُ حَالًا وَهِيَ مُفْلِسَةٌ عَلَى الدَّوَامِ لَا تَفْتَأُ تَطْلُبُ مِنَ الْمُدِيرِ
 مُقَدَّمًا جُزْءًا مِنْ أَجْرِهَا، وَقَدْ أَثْقَلَتْهَا الدُّيُونُ وَحُجِرَ عَلَى قِسْمٍ مِنْ
 اسْتِحْقَاقِهَا. وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى مَا هِيَ فِيهِ مِنَ الشَّدَّةِ أَنَّ الْمَرْأَةَ اسْتَعْلَتْ
 يَوْمًا فِي بَيْتِ صَاحِبِنَا فِي نَظِيرِ فَرَكَينَ فَطَلَبْتَهُمَا قَبْلَ أَنْ تَعَادِرَ^(٣)
 الْبَيْتَ وَقَالَتْ إِنَّهَا لَا تَمْلِكُ فَلَسًا وَاحِدًا تَقْتَاتُ بِهِ وَرَوْجُهَا وَأَوْلَادُهُمَا.
 فَمُخَاطَبَةٌ مِثْلَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ فِي تَحْسِينِ مَسَاكِينِهِمْ تَظْهَرُ بِأَدَى
 ذِي^(٤) بَدَى كَانَتْهَا سُخْرِيَّةٌ وَاسْتَهْزَأَ، إِذْ هُمْ لَا يَكَادُونَ يُحْصِلُونَ قُوَّةَ
 يَوْمِهِمْ .

لَسَكِنْ انْظُرْ إِذْنِ إِلَى الرَّائِبِ الشَّهْرِيِّ الَّذِي تَأْخُذُهُ تِلْكَ الْعَائِلَةُ
 كَمَا هُوَ ثَابِتٌ فِي دَفْتَرِ الْمَعْمَلِ :-

(١) أى اقلالهم واقفاره (٢) يريد أحقر المساكن من أسحق النوب أخلق وبلى
 (٣) تفارق (٤) أى أول الأمر

فَرَنكَا

٩٠

أَجْرَةُ الرَّجُلِ

٦٠

» الْمَرْأَةِ

٧٠

» الْوَالِدِ الْبَكْرِ وَعُمُرُهُ ١٩ سَنَةً

٣٠

» الْبِنْتِ الْبَكْرِيَّةِ وَعُمُرُهَا ١٨ سَنَةً

٢٥٠ المَجْمُوعُ

فَيُؤْخَذُ مِنْ هَذَا أَنَّ تِلْكَ الْعَائِلَةَ الَّتِي تَتَأَلَّفُ مِنْ ثَمَانِيَةِ أَشْخَاصٍ أَرْبَعَةٌ مِنْهُمْ قَادِرُونَ عَلَى الْعَمَلِ تَعِيشُ تَعِيشَةً (١) فِي بِلَادِ الرَّيْفِ بِأَجْرَةٍ قَدَرُهَا ثَلَاثَةُ آلَافٍ مِنَ الْفَرَنكَاتِ فِي السَّنَةِ ، وَهِيَ لَا تَدْفَعُ مَعَ ذَلِكَ إِلَّا خَمْسِينَ فَرَنكًا أَجْرَةَ مَسْكَنِهَا ، وَهُوَ مَنْزِلٌ وَبُسْتَانٌ يُمَكِّنُهَا أَنْ تَرَرَعَ الْخُضْرَ فِيهِ . وَمِمَّا يَسْتَعْرَبُ لَهُ الْإِنْسَانُ فِي فَقْرِ تِلْكَ الْعَائِلَةِ الْمُدْفَعِ (٢) أَنَهَا لَمْ تَخْلُ يَوْمًا وَاحِدًا عَنِ الْعَمَلِ ، وَمَضَى عَلَيْهَا خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً تَقْرِيبًا وَهِيَ فِي خِدْمَةِ ذَلِكَ الْمَعْمَلِ ، نَعْمَ زَادَ حَمْلُهَا بِكثْرَةٍ أَوْلَادِهَا ، إِلَّا أَنَّ أَجْرَهَا زَادَ أَيْضًا عَلَى هَذِهِ النِّسْبَةِ . وَلَبَيَانَ الْعِلَّةِ الْحَقِيقِيَّةِ فِي حَالَةِ تِلْكَ الْعَائِلَةِ يَنْبَغِي أَنْ نُسَلِّمَ بِأَنَّ تِلْكَ الْمَسْأَلَةَ الْاجْتِمَاعِيَّةَ لَيْسَتْ مُنْحَصِرَةً فِي أَجُورِ الْفَعْلَةِ كَمَا يَذْهَبُ إِلَيْهِ السَّوَادُ الْأَعْظَمُ (٣) بَلْ رَاجِعَةٌ أَيْضًا إِلَى سَيْرِ الْأَفْرَادِ وَأَخْلَاقِهِمْ .

(١) شقية (٢) فقر مدقع: أى ملصق بالدقعاء أى التراب (٣) أى الجمهور وأكثر الناس .

وَرُبَّمَا عُنَيْتُ^(١) بِهَذَا الْمَوْضُوعِ يَوْمًا مَاءً . إِذْ لَوْ كَانَ الْأَمْرُ دَائِرًا عَلَى
 الْأَجْرَةَ لَزَالَ الْإِشْكَالُ ، وَانْجَلَى الْمُعَمَّى^(٢) بِمَا نَرَاهُ مِنْ حَالِ تِلْكَ
 الْعَائِلَةِ ، لَكِنَّهُ لَيْسَ كَذَلِكَ ! وَإِنَّمَا السَّبَبُ فِي تَعَسُّ أَوْلِيَاكَ الْقَوْمِ
 وَانْتِشَابِ^(٣) مَخَالِبِ الْفَقْرِ فِيهِمْ هُوَ سُوءُ سَيْرِهِمْ وَعُكُوفُهُمْ عَلَى
 الْمُسْكِرَاتِ ، إِذْ هِيَ مُنْتَشِرَةٌ بَيْنَهُمْ أَكْثَرَ مِمَّا يُظَنُّ . وَفِي مِيزَانِيَّةِ
 الْفَعْلَةِ خُرُوقٌ^(٤) تَذْهَبُ مِنْهَا الْأَجُورُ كَمَا هِيَ فِي مِيزَانِيَّةِ الْأَوَاسِطِ
 مِنْ النَّاسِ :

يَعِيشُ الرَّجُلُ الْوَسْطُ مَعِيشَةً ضَيِّقَةً لِيَتِمَّ سَكَنٌ مِنْ إِرْضَاءِ شَهْوَاتِهِ
 فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِمَلْبَسِهِ وَإِعْدَادِ يَدَيْهِ لِلِاسْتِقْبَالِ أَوْ لِيَدْخِرَ الْمَالَ لِبَنِيهِ ،
 وَالْفَاعِلُ يَعِيشُ مُقْتَرًا لِيَتَأْتِيَ لَهُ الصَّرْفُ فِي أُمُورٍ غَيْرِ مُفِيدَةٍ أَوْ
 هُزْنِيَّةٍ^(٥) أَوْ مَمْقُوتَةٍ^(٦) وَالَّذِي يُعَوِّزُهُمَا^(٧) مَعًا إِنَّمَا هُوَ حُسْنُ السَّيْرِ
 لِأَقَلِّ الْمَالِ . وَأَعْظَمُ طُرُقِ اسْتِعْمَالِ الْمَالِ فَائِدَةٌ هُوَ اتِّخَاذُ مَسْكَنِ
 مَقْبُولٍ تَوَافَرَتْ فِيهِ أَسْبَابُ الرَّاحَةِ عَلَى قَدْرِ الْإِسْكَانِ . وَكُلُّ الَّذِي
 قَدَّمَ نَاهُ رَاجِعٌ إِلَى بَيَانِ ذَلِكَ . وَالصَّرْفُ فِي هَذَا السَّبِيلِ هُوَ فِي الْوَاقِعِ
 اسْتِغْلَالٌ بِرِبْحٍ عَظِيمٍ ، لِأَنَّهُ فَضْلًا عَنْ كَوْنِهِ يَثْنَى^(٨) صَاحِبَهُ عَنْ

(١) اهتمت واعتنت (٢) الغامض (٣) يقال أنشب الفقر مخالبه في فلان من نشب
 الشيء في الشيء علق فيه ، والكلام استعارة (٤) ثقب (٥) يريد غير جدية ليست
 من قوام العيش (٦) مكروهة يريد محرمة (٧) أعوزه الشيء: إذا احتاج إليه
 (٨) يصرف ويعدل به عنه

الصَّرْفِ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ لَا فَايْدَةَ مِنْهَا، فَهُوَ يُعْنِي فِيهِ شُعُورُهُ بِمَكَاتِهِ
وَبِاسْتِقْلَالِهِ وَمِيْلِهِ إِلَى الْعَمَلِ وَاسْتِعْدَادِهِ لِلِارْتِقَاءِ .
كُلُّ مَنْ تَوَافَرَتْ فِيهِ هَذِهِ الصِّفَاتُ الْأَسَاسِيَّةُ يَكُونُ قَدْ تَوَصَّلَ،
بِالنَّظَرِ لِدَاتِهِ، إِلَى حَلِّ الْمَسْأَلَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَصَارَ مَالِكًا لِنَفْسِهِ مُسْتَقِلًّا
عَنِ الْآخَرِينَ .

البَابُ الثَّالِثُ

﴿الْفَرَنْسَاوِيُّ وَالْإِنْكِلِيزِيُّ السَّكْسُونِيُّ فِي الْمَعِيشَةِ الْعُمُومِيَّةِ﴾
يُوجَدُ بَيْنَ الْفَرَنْسَاوِيِّ وَالْإِنْكِلِيزِيِّ السَّكْسُونِيِّ فِي الْمَعِيشَةِ
الْعُمُومِيَّةِ مِنَ الْفَرْقِ مَا شَاهَدْنَاهُ بَيْنَهُمَا فِي الْمَدْرَسَةِ وَفِي الْمَعِيشَةِ
الْخُصُوصِيَّةِ ، وَقَدْ خَصَّصْنَا الْبُحُوثَ الْآتِيَةَ لِبَيَانِ ذَلِكَ ، وَأُظْنُ أَنَّنَا
نَكُونُ حِينئِذٍ قَدْ أَتَيْنَا عَلَى ذِكْرِ أَهَمِّ الْأَسْبَابِ الَّتِي تَجْعَلُ الْإِنْكِلِيزِيَّ
السَّكْسُونِيَّ فِي جَمِيعِ طَبَقَاتِ الْهَيْئَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ أَرْقَى مِنْ غَيْرِهِ
ارْتِقَاءً يُمْكِنُهُ مِنَ النَّصْرِ فِي التَّرَاحُمِ فِي الْحَيَاةِ ، وَنَكُونُ أَيْضًا
بَيْنَا السَّبِيلَ الَّذِي يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَسِيرَ فِيهِ لِكَيْ نَقَاوِمَ انْتِشَارَ
ذَلِكَ الْجِنْسِ الَّذِي يَتَهَدَّدُ الْعَالَمَ بِأَسْرِهِ .

الفصل الأول

أهلُ السِّيَاسَةِ فِي فِرَاسَا وَفِي إِنْكَلِتْرَا

إِذَا أَخَذْنَا بِالظُّوَاهِرِ رَأَيْنَا الْمَجَالِسَ النَّظَامِيَّةَ التَّشْرِيْعِيَّةَ
وَاحِدَةً عِنْدَ جَمِيعِ الْأُمَمِ إِلَّا اخْتِلَافًا سَيْرًا، فَالْمُتَفَرِّجُ الَّذِي يُشَاهِدُ
مَجَالِسَ النُّوَابِ فِي الْمَانِيَا وَانْكَلِتْرَا وَإِتَالِيَا وَفِرَاسَا يَتَأَثَّرُ تَأَثُّرًا
وَاحِدًا تَقْرِيْبًا، وَإِذَا مُحْكَمَ بِمُقْتَضَى هَذَا الشُّعُورِ قُضِيَ بِأَنَّ حُكُومَاتِ
تِلْكَ الْبِلَادِ مُتَشَابِهَةٌ، وَأَنَّ نِظَامَ مَجَالِسِهَا النِّيَابِيَّةِ يَكَادُ يَكُونُ
وَاحِدًا؛ وَأَنَّ الْخُلْفَ (١) نَاشِئٌ عَلَى الْخُصُوصِ مِنْ جِهَةِ تَسْكُونِ
الْأَحْزَابِ وَعَدَدِ رِجَالِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا.

(هَذَا مَا ظَهَرَ وَلَكِنْ بَقِيَ مَا اسْتَتَرَ) كَمَا يَقُولُ (بَاسْتِيَا) وَمَا
اسْتَتَرَ هُوَ الَّذِي يَهْمُنَا كَشْفُ الْقِنَاعِ عَنْهُ (٢)

إِنَّ الَّذِي احْتَجَبَ عَنِ الْأَبْصَارِ — لِأَنَّهُ لَيْسَ مِمَّا يُدْرِكُ بِالْأَعْيُنِ
عَادَةً — هُوَ طَبَقَاتُ الْهَيْئَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الَّتِي يُنْتَخَبُ مِنْهَا النَّائِبُونَ عَنِ
الْأُمَمِ، وَنِسْبَةُ عَدَدِ الْمُنتَخِبِينَ مِنْ كُلِّ طَبَقَةٍ وَطَائِفَةٍ إِلَى الْآخَرِينَ.
وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ هَذَا الْبَحْثَ يُؤَدِّي إِلَى مَعْلُومَاتٍ مُهِمَّةٍ فِي مَوْضُوعِنَا.

(١) الاختلاف (٢) يريد الذي يهمننا إيضاحه

فَمَنْ الْبَدِيهِيَّ أَنْ لِيَصْنَعَةَ الرَّجُلِ الَّتِي احْتَرَفَ بِهَا تَأْثِيرًا فِي أَفْكَارِهِ وَقَابَلِيَّتِهِ لِهَذَا الْعَمَلِ دُونَ ذَلِكَ، وَفِي كَيْفِيَّةِ نَظَرِهِ فِي الْأُمُورِ وَالْأَحْوَالِ .
 وَكُلُّ طَبَقَةٍ مِنَ الزَّرْعِ وَالتُّجَّارِ وَأَهْلِ الصَّنَاعَةِ وَالْأَطِبَّاءِ وَالْمُحَامِلِينَ
 وَالْجُنْدِ وَالْمُوظَّفِينَ نَشَأَتْ خَاصَّةً فِيهَا، وَكُلُّهُمْ لَا يَرَوْنَ الشَّيْءَ الْوَاحِدَ
 مِنْ الْجِهَةِ الْوَاحِدَةِ، وَكُلُّهُمْ لَا يَنْوَبُونَ عَنِ الْمَنَافِعِ بَعِيْنِهَا . ثُمَّ إِنَّ
 تِلْكَ الْمَنَافِعَ لَيْسَتْ مُتَسَاوِيَةً مِنْ جِهَةِ ضَرُورَتِهَا فِي الْأُمَّةِ بَلْ بَعْضُهَا
 أَهَمُّ مِنَ الْبَعْضِ . وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَإِنَّهَا لَيْسَتْ مُعْتَبَرَةً بِدَرَجَةٍ وَاحِدَةٍ
 عِنْدَ النَّاسِ، وَقَدْ تَخْتَلِفُ بَلْ رُبَّمَا تَعَارَضَتْ .

نَتَجَّ مِنْ هَذَا أَنَّ عُنَاصِرَ النِّيَابَةِ الْمَلِيَّةِ^(١) تَتَغَيَّرُ تَغْيِيرًا عَظِيمًا تَبَعًا
 لِحَالَةِ الْأُمَّةِ وَباعتبار أن أهل هذه الطائفة أهمُّ من أهل تلكَ
 وأرفعُ قَدْرًا أَوْ أَشَدُّ بَأْسًا . وَيَنْتُجُ مِنْ ذَلِكَ أَيْضًا أَنَّ الْمَجَالِسَ النِّيَابِيَّةَ
 لَا تَبْقَى عَلَى حَالٍ وَاحِدٍ فِي أَعْمَالِهَا وَنَظَرِهَا فِي مَصَالِحِ الْأُمَّةِ بَلْ تَتَغَيَّرُ
 نَزَعَاتُهَا وَتَخْتَلِفُ آرَاؤها تَبَعًا لِرَأْيِ الْفَرِيقِ الَّذِي يَسُودُ الْبَقِيَّةَ مِنْ
 أَعْضَائِهَا .

وَلِنَبِيْنٍ مَا نَقُولُ بَيَانِ كَيْفِيَّةِ تَشْكِيلِ مَجْلِسِ النُّوَابِ عِنْدَنَا .
 وَلَا يُعْيِنَنَّ عَنْ ذِهْنِ الْقُرَّاءِ أَنِّي مَا وَصَلْتُ إِلَى مَعْرِفَةِ عُنَاصِرِ ذَلِكَ
 الْمَجْلِسِ إِلَّا بَعْدَ الْجُهْدِ وَالْعَنَاءِ ، إِذْ لَمْ يَسْبِقْنِي أَحَدٌ إِلَى ذَلِكَ الْبَيَانِ ،

(١) الملية: نسبة للعلة وهي الطريقة أو الشريعة في الدين، ولعله يريد هنا الشعبية

فَالْجَانِّي ضَرُورَةُ الْبَحْثِ إِلَى النَّظَرِ فِي مَاضِي كُلِّ نَائِبٍ عَلَى حَدِّتِهِ
وَمَعْرِفَةِ مَا اِمْتَّازَ بِهِ عَنْ اِخْوَانِهِ وَتَقْسِيمِهِمْ جَمِيعًا بِحَسَبِ صِنَاعَاتِهِمْ
وَحِرَفِهِمْ .

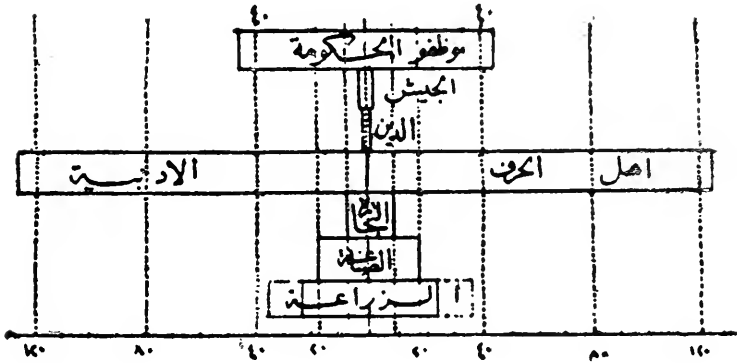
وَقَبْلَ أَنْ نُورِدَ ذَلِكَ التَّقْسِيمَ نَلَاحِظُ اَنَّنا لَمْ نَجِدْ حِرْفَةً يَدْخُلُ
فِيهَا ثَلَاثَةٌ وَاَرْبَعُونَ عُضْوًا لِاَنَّنا لَمْ نَهْتَدِ لَهُمْ إِلَى طَائِفَةٍ مُعَيَّنَةٍ يُمَكِّنُ
اِلْحَاقَهُمْ بِهَا ، فَ مِنْهُمْ سِتَّةٌ مِنَ الْعَمَلَةِ رَبَّمَا صَحَّ اِلْحَاقُهُمْ بِصَفِّ اَرْبَابِ
الصُّحُفِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَعَذَّرَ الْوُصُولُ اِلَى مَعْرِفَةِ حَالِهِمْ . عَلَى اَنَّ
هَذَا النِّقْصَ الْجُزْئِيَّ لَا يُؤَثِّرُ شَيْئًا فِي التَّقْسِيمِ الْعَامِّ ، كَذَلِكَ لَمْ يَتَغَيَّرْ
ذَلِكَ التَّقْسِيمُ فِي الْمَجْلِسِ الْجَدِيدِ الَّذِي اُنْتِخِبَ اَعْضَاؤُهُ بَعْدَ نَشْرِ
هَذَا الْمَبْحَثِ اِلَّا يَسِيرًا ، بَلْ اِنْ النُّوَابِ مِنْ اَرْبَابِ الْحِرْفِ الْاَدْبِيَّةِ
زَادُوا فَبَلَّغُوا ٢٨٦ بَعْدَ اَنْ كَانُوا ٢٧٠ نَائِبًا .

﴿ جَدْوَلُ تَقْسِيمِ مَجْلِسِ النُّوَابِ الْفَرَنْسَاوِيِّ ﴾

إجمال	عدد الأعضاء	عدد الأعضاء	عدد الأعضاء	عدد الأعضاء	مهنة	
	٥٣	٤٣	٢١	٢٢		
٧٥	أهل الفلاحة	٧٥	٢٥	١٧	٠٨	مُلاَكُ أَطْيَانٍ
			٥٠	٣٧	١٣	زَرَاعُونَ
٤١	أهل الصناعة	٤١	٤١	١٤	٢٧	صُنَاعٌ
			١٧	٠٣	١٤	تِجَارَةٌ
٢٢	أهل التجارة	٢٢	٠٥	٠٣	٠٢	أَرْبَابُ بُيُوتٍ مَالِيَةٍ (بنوكه)
			١٢	٠٠	١٢	أَعْضَاءُ جَمْعِيَةِ الْمَعَارِفِ
			٥٠	٠٣	٤٧	أَطِبَاءٌ
			٠٣	٠٠	٠٣	صِيدَلِيُونَ
			٠٧	٠٢	٠٥	مُهَنْدِسُونَ مَلَكيُونَ
٢٧٠	أهل الحرف الادبية	٥٩	٥٩	٠٥	٥٤	أَرْبَابُ جَرَائِدٍ
			٠٦	٠١	٠٥	مُدْرِسُونَ فِي عِلْمِ الْحُقُوقِ
		١٣٩	١٧	٠٣	١٤	مُؤَلِّفُونَ
			٠٩	٠٠	٠٩	وُكَلَاءُ الدَّعَاوَى
٢	أهل الدين	٢	١٠٧	٢٦	٨١	مُحَامِدُونَ
			٠٢	٠١	٠١	رُوحَانِيُونَ
٦	أهل السيف	٦	٠٣	٠٢	٠١	ضَبَّاطُ بَرِّيُونَ
			٠٣	٠٣	٠٠	ضَبَّاطُ بَحْرِيُونَ
			٢٣	١١	١٢	قَضَاةٌ
٩٥	أهل الوظائف الادارية	٩٥	٧٢	٣٣	٣٩	مُوظَّفُونَ
٤٣	بدون حرفة	٤٣	٤٣	٢١	٢٢	بِدُونِ حِرْفَةٍ

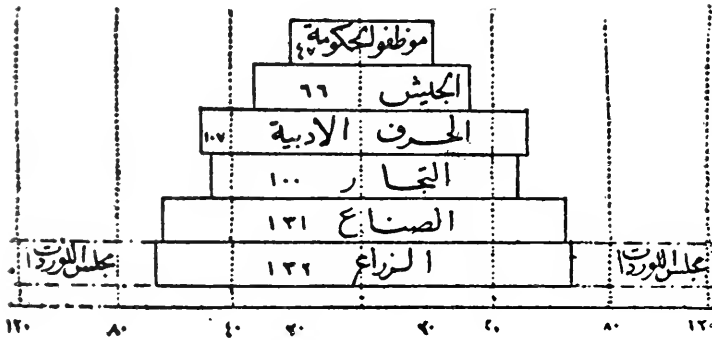
وَلْتَرْجَمْ عَنْ هَذَا التَّقْسِيمِ بِشَكْلِ مَادِيٍّ لِيَتِمَّ كَنْ الْقَارِيءِ
 مِنَ الْإِحَاطَةِ بِحَقِيقَةِ النِّيَابَةِ الْمِلِّيَّةِ تَمَامًا وَتَنْجَلِي النَّسْبَةِ بَيْنَ الطَّوَائِفِ
 وَالطَّبَقَاتِ . وَقَدْ وَضَعْنَا الْجَدُولَ الْآتِيَّ لِذَلِكَ وَقَسَمْنَاهُ بِخُطُوطٍ
 عُمُودِيَّةٍ جَعَلْنَاهَا تَقَطًّا ، وَالْأَرْقَامُ الَّتِي فِيهَا تُدَلُّ عَلَى عَدَدِ النُّوَابِ .
 وَالَّذِي يَلْفِتُ النَّظَرَ أَوَّلًا فِي هَذَا الْجَدُولِ هُوَ عَدَمُ انْتِظَامِهِ
 النَّاشِيءِ مِنْ فَقْدِ التَّنَاسُبِ فَقَدْ أَنَا تَمَامًا بَيْنَ الْأَعْدَادِ الدَّالَّةِ عَلَى الطَّوَائِفِ ،
 وَثَانِيًا هُوَ أَنَّ نَصِيبَ الْحَرْفِ الْعَامَّةِ وَهِيَ الزَّرَاعَةُ وَالصَّنَاعَةُ وَالتَّجَارَةُ
 مِنْ ذَلِكَ الْعَدَدِ قَلِيلٌ ، وَأَنَّ الْحِظَّ الْأَوْفَرَ فِي النِّيَابَةِ عَنِ الْأُمَّةِ
 لِأَرْبَابِ الْحَرْفِ الْأَدَبِيَّةِ وَمُوظَّفِي الْحُكُومَةِ . وَتَتَبَّنَ أَهْمِيَّةُ هَذَيْنِ
 الْأَمْرَيْنِ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ إِذَا قُورِنَ بَيْنَ تَشْكِيلِ مَجْلِسِ نُوَابِنَا
 وَمَجْلِسِ نُوَابِ إِنْكَلِتْرَا . وَقَدْ وَضَعْنَا جَدُولًا ثَانِيًا لِبَيَانِهِ ، وَلَوْ أَنَّا
 أَدْخَلْنَا فِي هَذَا الْجَدُولِ أَعْضَاءَ مَجْلِسِ اللُّوردَاتِ لِزَادَ عَدَدُ النُّوَابِ
 مِنْ أَهْلِ الزَّرَاعَةِ كَثِيرًا ، لِأَنَّ هَذَا الْمَجْلِسَ مُؤَلَّفٌ كُلُّهُ مِنْ هَذِهِ
 الطَّبَقَةِ الْإِقْلِيَالِ . أَمَّا مَجْلِسُ السَّنَاتُو « الْأَعْيَانِ » فِي فَرَنْسَا فَإِنَّهُ
 لَا يَخْتَلَفُ كَثِيرًا فِي تَشْكِيلِهِ عَنِ مَجْلِسِ نُوَابِنَا ، وَقَدْ كَتَبَ مُوسِيُو
 « تَايْنِ » كَلَامًا مُفِيدًا جَدًّا أَثْبَتَ فِيهِ أَنَّ الْإِنْكَلِيزِ يَرَوْنَ أَنَّ النِّيَابَةَ
 الطَّبِيعِيَّةَ عَنْهُمْ رَاجِعَةٌ إِلَى أَهْلِ الزَّرَاعَةِ فَمَالُوا إِلَى انْتِخَابِهِمْ « رَاجِعُ
 كِتَابٍ مُذْكَرَاتٍ عَلَى انْكَلِتْرَا صَحِيفَةٌ ٢١٦ إِلَى ٢٢٤ »

تشكيل مجلس النواب في فرنسا



وَبِهَذَا الْجَدْوَلِ يُمَكِّنُنَا أَنْ نَنْظُرَ إِلَى جَمِيعِ الْحُرُوفِ الَّتِي يَتَأَلَّفُ مِنْهَا مَجْلِسُ نُوابِنَا نَظْرَةً وَاحِدَةً. وَنُفَرِّدِ الْكَلَامَ عَلَى كُلِّ حُرْفَةٍ مِنْهَا: يَرَى الْمُطَّلِعُ عَلَى هَذَا الشَّكْلِ الَّذِي يُشْبِهُ الْهَرَمِ أَنِّي وَضَعْتُ الزَّرَاعَةَ وَالصَّنَاعَةَ وَالتِّجَارَةَ فِي أَسْفَلِهِ لِأَنَّهَا الْأَسَاسُ الْأَوَّلُ فَهِيَ الَّتِي يُحْصَلُ الْمَرْءُ بِوَسَائِطِهَا عَيْشَهُ الْيَوْمِيَّ وَهِيَ الَّتِي تَقُومُ بِهَا جَمِيعُ الْأَعْمَالِ الْأُخْرَى وَهِيَ الَّتِي إِذَا اعْتَلَّتْ أَصْبَحَ جِسْمُ الْأُمَّةِ سَقِيمًا وَإِنْ بَادَتْ بَادَ مَعَهَا كَمَا يَنْعَدِمُ الْجِسْمُ الْإِنْسَانِي لِقَلَّةِ الْغِذَاءِ.

تشكيل مجلس النواب في انكلترة



وَقَدْ يَتَصَوَّرُ الْإِنْسَانُ أَنَّ أُمَّةً تَعِيشُ بِدُونِ مُحَامِينَ وَأَصُولِيِّينَ
 وَوُكَلَاءَ دَعَاوَى وَأَطِبَّاءَ وَمُوظَّفِينَ وَلَكِنَّهُ لَا يُسَلِّمُ أَنَّ تَعِيشَ أُمَّةً
 بِغَيْرِ زُرَّاعٍ يَنْتِجُونَ لَهَا مَادَّةَ غِذَائِهَا الْأُولَى وَصَنَاعٍ يَصْنَعُونَ حَاجَاتِهَا
 الَّتِي لَا بُدَّ مِنْهَا فِي الْحَيَاةِ وَتُجَارٍ يُوزِّعُونَ هَذَا وَذَلِكَ فِي الْأَمَاكِنِ
 الْمُحْتَاجَةِ إِلَيْهَا .

وَجَدَّوْنَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ النِّيَابَةَ عَنِ الْحِرَفِ الثَّلَاثِ الْأَوْلِيَّةِ قَلِيلَةٌ
 جِدًّا، وَهَذَا أَمْرٌ لَا يَخْلُو مِنَ الْخَطَرِ بِذَاتِهِ ، وَيَظْهَرُ لَنَا الْخَطَرُ عَظِيمًا
 إِذَا أُنْعِمْنَا النَّظَرَ فِي كُلِّ حِرْفَةٍ عَلَى حِدَّتِهَا :-

أَمَّا الزَّرَّاعَةُ فَيَجِبُ أَنْ تَسْكُونَهُ هِيَ الْأَسَاسَ الَّذِي يُبْنَى عَلَيْهِ
 مَا عَدَاهُ لِأَنَّهَا أَشَدُّ لُزُومًا فِي الْأُمَّةِ مِنَ الصَّنَاعَةِ وَالتَّجَارَةِ لِأَنَّهَا

أَنَّهَا هِيَ الْقَائِمَةُ بِأَمْرِ الْحَيَاةِ مُبَاشَرَةً بَلْ لِكُونِهَا أَيْضًا أَوَّلًا مِنْ جَمِيعِ
 الْحَرْفِ وَأَثْبَتَهَا قَدَمًا ، وَثَبَاتُهَا مِنْ ثَبَاتِ الْأَرْضِ الَّتِي هِيَ مَحَلُّهَا ، وَلَا
 يَعْتَرِيهَا التَّغْيِيرُ الْفُجْأِيُّ الْكُلِّيُّ كَمَا يَعْتَرِي الصَّنَاعَةَ وَالتَّجَارَةَ .
 فَالزَّرَاعَةُ مُسْتَقَرَّةٌ إِلَى حَدِّ أَنْهَا صَارَتْ طَبِيعِيَّةً فِي الْأُمَمِ ، لِذَلِكَ قِيلَ
 فِي الزَّرَاعِ : هَكَذَا وَجَدْنَا آبَاءَنَا ! وَاسْتَقْرَأُهَا بِجَعْلِهَا الْأَسَّ (١) الْمَتِينِ
 فِي الْأُمَّةِ لِأَنَّهَا تَجَذِبُ قِسْمًا مِنْهَا وَتَجْعَلُهُ مُتَصِقًا بِالْبِلَادِ مُتَمَسِّكًا
 بِتَقَالِيدِهَا ، وَقَلَمًا تَجِدُ النِّظَامَ وَالذَّوَامَ عِنْدَ غَيْرِ الزَّرَّاعِينَ . وَقَدْ تَبَيَّنَ
 أَنَّ هَذَا الْعُنْصَرَ الَّذِي بِهِ حَيَاةُ الْأُمَّةِ لَا يُوجَدُ فِي مُقَدِّمَةِ النِّيَابَةِ
 الْمَلِيَّةِ عِنْدَنَا عَلَى نِسْبَةِ مَا لَهُ مِنَ الْأَهَمِّيَّةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ ؛ فَمَا عَدَدُ الزَّرَّاعِ
 فِي مَجْلِسِ الثُّوَابِ إِلَّا اثْنَانِ وَسَبْعُونَ وَهُوَ قَلِيلٌ جِدًّا بِجَانِبِ الْمَائَتَيْنِ
 وَالسَّبْعِينَ مِنْ أَهْلِ الْحَرْفِ الْأَدَبِيَّةِ ، وَهَذَا الْعَدَدُ عَلَى قَلْتِهِ يَجِبُ
 تَنْقِيصُهُ إِذَا لُوْحِظَ أَنَّي أَدْخَلْتُ فِيهِ أَصْحَابَ الْأَرْضِ الَّذِينَ
 لَا يَحْتَرِفُونَ بِحِرْفَةٍ مَّا ، وَلَيْسُوا كُلُّهُمْ مُشْتَغَلِينَ بِالزَّرَاعَةِ أَوْ مُهْتَمِّينَ
 لَهَا بِأَكْثَرِ مِنْ مَدِّ الْيَدِ لِتَنَاوُلِ الْإِيرَادِ أَوْ الصِّيَاحِ مِنْ سُوءِ
 الْحَالِ وَالْكَسَادِ .

وَمِنْ أَوْلِيكَ الثُّوَابِ اثْنَانِ وَعِشْرُونَ لَا يَصْدُقُ عَلَيْهِمْ مِنَ الزَّرَّاعَةِ
 إِلَّا تَسْمِيَّتُهُمْ بِالزَّرَّاعِ لِأَنَّهُمْ يَسْكُنُونَ فِي بَارِيسَ طَوْلَ السَّنَةِ وَلَا

يَقِيمُونَ فِي الرِّيفِ إِلَّا يَسِيرًا وَيَرْتَبِكونَ فِي جَوَابِ مَنْ يَسْأَلُهُمْ عَنْ
حَرَكَةِ الزَّرْعَةِ وَأَحْسَنِ الطَّرِيقِ فِيهَا وَمِقْدَارِ مَا يَنْتِجُهُ (الْهِكْتَارِ)
وَالْفَرْقِ بَيْنَ مَنْفَعَةِ السَّمَادِ الْمُعْتَادِ وَالسَّمَادِ الْكِيمِيَاءِيِّ وَطَرِيقَةِ صُنْعِهِ
وَهَكَذَا. وَلِهَذَا رَأَيْتُ مِنَ الْوَاجِبِ تَمْيِيزَهُمْ بِعِلْمِهِمْ بِمُخْصُوصَةٍ
حَتَّى يَكُونَ التَّقْسِيمُ مُطَابِقًا لِلْوَاقِعِ. فَدَلَّاتُ عَلَى نِسْبَتِهِمْ بِخَطِّ
مِنَ النُّقْطِ.

إِذَنْ لَا يُوْجَدُ فِي مَجْلِسِ النُّوَابِ مِنْ أَهْلِ الزَّرْعَةِ الْحَقِيقِيِّينَ
إِلَّا خَمْسُونَ عَضْوًا، وَمَعَ ذَلِكَ لَسْتُ عَلَى يَقِينٍ مِنْ أَنَّهُمْ يَسْتَحِقُّونَ
هَذَا الْإِسْمَ جَمِيعًا وَالْأَوْلَى أَلَّا تُدَقِّقَ الْبَحْثَ فِيهِمْ

وَلَيْسَ مِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ تَكُونَ تِلْكَ الْمِهْنَةُ عَلَى مَا قَدْ عَلِمْتَ مِنْ
الْأَهْمِيَّةِ لِمَا يَرْتَبِطُ بِهَا مِنَ الْمَنَافِعِ الْعُمُومِيَّةِ وَالْكَثْرَةِ عَدَدِ الْمُخْتَرِ فِيهِ
بِهَا، وَأَنْ يَكُونَ هَذَا عَدَدَ النَّائِبِينَ عَنْهَا، وَلَا بَدَّ لِهَذَا التَّبَايُنِ فِي
النِّسْبَةِ مِنْ مُؤَثِّرٍ قَوِيٍّ قَدِيمٍ الْعَهْدِ نَشَأَ عَنْهُ عِنْدَنَا هَذَا الْأَثْرُ الَّذِي
لَا يُشَاهِدُ مِثْلَهُ فِي الْأُمَّمِ الْأُخْرَى وَلَا أَرَاهُ إِلَّا هَرَبَ كِبَارِ أَصْحَابِ
الْأَطْيَانِ مِنَ الزَّرْعَةِ وَهَجْرَهُمُ الرِّيفَ بِسُكْنَى الْمُدُنِ وَقَدْ بَدَأَ بِهِذِهِ
الْهَجْرَةَ مِنْذُ قَرْنَيْنِ الْعَدَدِ الْعَدِيدِ مِنَ الْأَشْرَافِ أَصْحَابِ الْأَرْضِ
الْوَاسِعَةِ وَتَكَاثَفُوا بَيْنَ جُدْرَانَ مَدِينَةِ « فِرْسَاي » حَيْثُ أَصْبَحُوا

حَاشِيَةً لِلْمَلِكِ وَاتِّبَاعًا فِي مَعِيَّتِهِ ، وَاتَّبَعَهُمْ فِي ذَلِكَ أَوْاسِطُ أَرْبَابِ
الْأَمْلاَكِ مِنْ أَهْلِ الرَّيْفِ .

لَيْسَ مِنْ بِلَدٍ أَهْمِلَتْ فِيهِ الزَّرَاعَةَ وَاحْتَقَرُ الْإِحْتِرَافُ بِهَا مِثْلَ
مَا أَهْمِلَتْ وَاحْتَقَرَتْ فِي فَرَنْسَا ، حَتَّى إِنْ الرَّجُلَ لَا يَرْضَى أَنْ يَكُونَ
ابْنُهُ زَرَّاعًا إِلَّا إِذَا رَأَاهُ لَا يَلِيقُ لِلْإِحْتِرَافِ بغيرِهَا ، وَأَصْبَحَتْ مَعِيشَةُ
الْمَرْءِ فِي أَرْضِهِ أَشَدَّ وَقَعًا عَلَى النُّفُوسِ مِنْ أَعْسِ الْمَنَافِي (١) ، وَقَدْ
يُفَضِّلُ الْفَرَنْسَاوِيُّ وَطِيفَةً فِي « بَرَسَلُونِيَّتِ » عَلَى الْمَعِيشَةِ فِي أَرْضِهِ
الَّتِي يَمْلِكُهَا ، وَأَرَادَتْ الْجَرَايْدُ الْجُمْهُورِيَّةُ سَنَةَ ١٨٧١ أَنْ تَحُطَّ مِنْ
مَنْزِلَةِ بَعْضِ أَعْضَاءِ الْجَمْعِيَّةِ الْمِلِّيَّةِ الْعُمُومِيَّةِ فَكَتَفَتْ بِأَنْ وَصَفْتَهُمْ
بِأَنَّهُمْ « رَيْفِيُونَ »

أَصْبَحَ التَّبَاعُدُ عَنِ الزَّرَاعَةِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا أَمْرًا عَادِيًّا عِنْدَنَا ، حَتَّى
إِنْ قَسًّا مِنْ قُسُومِ بَارِيْسَ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ لِأَحَدِ أَصْدِقَائِي وَكَانَ مِنْ
مُسْكَنِ وَلَايَتِهِ : (كَيْفَ تُكَلِّفُ نَفْسَكَ أَنْ تَعِيشَ فِي الرَّيْفِ ،
وَفِي إِمْكَانِكَ مَعَ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ سَعَةِ الْمَالِ أَنْ تَعِيشَ عَيْشَةً رَاضِيَةً
فِي بَارِيْسَ ؟)

إِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْأَفْكَارُ مِمَّا تَقَرَّرَ فِي الْأَذْهَانِ حَتَّى عِنْدَ أَعْظَمِ

الرَّجَالِ كَمَا وَوَقَارًا ، لَمْ يَعُدْ مِنَ الْمُسْتَعْرَبِ أَنْ تُفَقَدَ النِّسْبَةُ بَيْنَ
 أَهْلِ الزَّرَاعَةِ وَبَيْنَ عَدَدِ النَّائِبِينَ عَنْهُمْ فِي مَجْلِسِ النَّوَابِ ، وَلَا أَنْ
 يُنُوبَ عَنْهُمْ مَنْ كَانَ أَقْلَهُمْ جِدَارَةً وَاسْتِعْدَادًا . وَلَا حَقَّ لِأَرْبَابِ
 الْأَمْلاَكِ الْوَأَسِعَةِ أَنْ يُلُومُوا إِلَّا أَنْفُسَهُمْ عَلَى سُقُوطِ اعْتِبَارِهِمْ عِنْدَ
 الْمُتَخَيِّبِينَ الَّذِينَ يُفَضِّلُونَ عَلَيْهِمْ غَيْرَهُمْ مِنَ الْأَطِبَّاءِ وَالْمُوثِقِينَ
 وَوُكَلَاءِ الدَّعَاوَى وَالْمَحَامِينَ كَمَا سَنَبِّدُهُ .

لَسْتُ أَنْسَى حَادِثَةً شَهَدْتُهَا فِي مَجْلِسِ « لَابِلِي » وَهِيَ أَنَّهُ جَاءَهُ
 فِي الْيَوْمِ الثَّانِي لِلِاتِّخَابَاتِ الْعُمُومِيَّةِ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ الْأَمْلاَكِ
 الْوَأَسِعَةِ فِي إِقْلِيمِ « صَانْتَر » وَشَكَا إِلَيْهِ مِنْ أَنَّ الْإِتِّخَابَ لَمْ يُصِبْهُ
 وَكَانَ يَتَأَلَّمُ كَثِيرًا مِنْ ذَلِكَ ، لِأَنَّهُ وَأَبَاهُ مِنْ قَبْلِهِ وَجَدَهُ كَانُوا
 نُرَابًا عَنْ أَهْلِ نَاحِيَّتِهِمْ ، وَصَارَ يَصْنَبُ (١) وَيُفَوِّقُ (٢) سِهَامَ الْمَلَامِ
 عَلَى الْمُتَخَيِّبِينَ ، وَيَنْدُبُ فِسَادَ الْأَفْكَارِ وَانْتِشَارَ مَبَادِيءِ الثَّوْرَةِ (٣)
 إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَقْوَالِ ، فَقَطَّاعَهُ « لَابِلِي » سَائِلًا : (سَيِّدِي
 الْكُونَتَ : أَيْنَ كَانَ يَسْكُنُ جَدُّكُمْ ؟ قَالَ : فِي أَرْضِهِ وَكَانَ لَا يَأْتِي
 بَارِيْسَ إِلَّا نَادِرًا ، قَالَ : وَأَيْنَ كَانَ يُقِيمُ وَالِدُكُمْ ؟ قَالَ لَمَّا تَزَوَّجَ أَبِي
 اتَّخَذَ مُقَامَهُ الْحَقِيقِيَّ فِي بَارِيْسَ ، وَأَيْنَ تُقِيمُونَ ؟ قَالَ : وَأَنَا كَذَلِكَ

(١) يصيح صياحا شديدا (٢) فوق السهم وضع فوقته في الوتر ليرمي به ، والكلام
 على التشبيه والمراد لام لوما شديدا (٣) المراد الخروج على التقاليد التي يجب أن تتبع

فَقَالَ لَهُ « لَابَلِي » وَقَدْ أَخَذَ فِي كَلَامِهِ مَا كَانَ يُعْرِفُ عَنْهُ مِنْ
 انْتِهَارِ مُخَاطَبِهِ أَحْيَانًا: إِذَنْ لَأَحَقَّ لَكَ فِي شَكْوَاكَ مِنَ الْمُتَخَبِّينَ .
 هَبْهُمْ^(١) أَقَامُوا عَلَى الْوَلَاءِ لَكَ بَعْدَ وَلَائِهِمْ لِأَبِيكَ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا ،
 مَعَ أَنَّكَ تَرَكْتَ الْإِقَامَةَ بَيْنَهُمْ وَالْإِهْتِمَامَ بِمَصَالِحِهِمْ وَصَرَفَ الْمَالَ
 الَّذِي تَأْخُذُهُ مِنْ بَلَدِهِمْ فِيهِ لَكِنِّهِمْ سَمَّوْا طَوْلَ الْمَدَى فَاخْتَارُوا
 لَهُمْ رَجُلًا أَقَلَّ صِفَاتِهِ أَنَّهُمْ يَرَوْنَهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ ، وَأَنَّهُمْ يَرْجِعُونَ
 إِلَيْهِ كَمَا مَسَّتْهُمْ الْحَاجَةُ لِطَلَبِ الْمَعُونَةِ ، وَاخْتَجُّوا إِلَى الْمَشُورَةِ
 وَقَدْ أَخَذَ ذَلِكَ الرَّجُلُ مَكَانَكَ لِأَنَّكَ تَخَلَّيْتَ عَنْهُ مُنْذُ جِيلَيْنِ)
 وَلَا أَذْكَرُ أَنِّي رَأَيْتُ ذَلِكَ النَّائِبَ الَّذِي اسْتَوَلَى الْيَأْسُ عَلَيْهِ عِنْدَ
 « لَابَلِي » مَرَّةً أُخْرَى .

هَذَا مِثْلُ الْكَثِيرِ مِنْ أَرْبَابِ^(٢) صَاحِبِنَا ، وَرُبَّمَا صَارَ يَوْمًا مِثْلَ
 أَرْبَابِ الْأَمْلَاقِ الْعَظِيمَةِ فِي الْأَقَالِيمِ الْغَرْبِيَّةِ الَّذِينَ لَا يَزَالُ الْأَهَالِي
 يُرْسِلُونَهُمْ إِلَى مَجْلِسِ النُّوَابِ ، وَالسَّبَبُ فِي أَنَّهُمْ لَمْ يَتْرَكُوا إِلَى
 الْآنَ طَوْلَ الزَّمَنِ الَّذِي قَضَاهُ آبَاؤُهُمْ بَيْنَ أَوْلِيَاءِ الْأَهَالِي .

وَأَمَّا الصَّنَاعَةُ وَالتِّجَارَةُ اللَّتَانِ عَلَيْهِمَا مَدَارُ الْعُمَرَانِ بَعْدَ الزَّرَاعَةِ
 فَنَصِيبُهُمَا فِي مَجْلِسِ النُّوَابِ أَقَلُّ مِنْ نَصِيبِهَا لِأَنَّا لَا نَجِدُ فِيهِ إِلَّا
 وَاحِدًا وَأَرْبَعِينَ صَانِعًا وَاثْنَيْ وَعَشْرِينَ تَاجِرًا مَعَ أَنَّ عَدَدَ أَهْلِ

(١) قدرهم وافرضهم (٢) أشباه ونظائر

الصَّنَاعَةِ وَالتَّجَارَةِ عَظِيمٌ وَالْمَنَافِعُ الَّتِي هِيَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ذَاتُ أَهْمِيَّةٍ كُبْرَى وَلَا بُدَّ مِنْ سَبَبٍ أَدَّى إِلَى ضَعْفِ النِّيَابَةِ عَنْهُ ، وَهُنَا لَا يُمَكِّنُ إِتْمَانَهُمْ بِأَنَّهُمْ تَرَ كُوا حِرْفَهُمْ كَمَا فَعَلَ أَهْلُ الزَّرْعَةِ ، لِأَنَّ الصَّنَاعَةَ وَالتَّجَارَةَ تَطْلُبَانِ مُبَاشَرَةَ أَصْحَابِهِمَا كُلَّ يَوْمٍ مَعَ الْعِنَايَةِ وَالِإِهْتِمَامِ ، وَإِذَا ابْتَعَدُوا أَوْ قُتِرَتْ هِمَّتُهُمْ وَلَوْ قَلِيلًا تَقَهَّرُوا لِسَاعَتِهِمْ بِتَغَلُّبِ الْمُتَسَابِقِينَ وَأَفْضَى بِهِمُ الْحَالُ إِلَى الْإِفْلَاسِ ، وَلَكِنْ هَذِهِ الضَّرُورَةُ الَّتِي تُدْجِيهِمْ إِلَى مُبَاشَرَةِ أَعْمَالِهِمْ وَلَا تَمَكِّنُهُمْ مِنْ إِغْفَالِهَا يَوْمًا وَاحِدًا هِيَ الَّتِي لَا تُوَافِقُ نِظَامَ الْمَجَالِسِ النِّيَابِيَّةِ عِنْدَنَا ، لِأَنَّ السُّلْطَةَ فِي بِلَادِنَا مَجْمُوعَةٌ فِي يَدِ الْحُكُومَةِ الْعَالِيَةِ فَالِيَهَا يَرْجِعُ الْفَصْلُ فِي جَمِيعِ الْمَنَافِعِ عَظِيمِهَا وَحَقِيرِهَا ، وَكُلُّهَا يَجِبُ عَرْضُهَا عَلَى الْمَجَالِسِ النِّيَابِيَّةِ لِتُبْدِيَ رَأْيَهَا فِيهَا ، وَلِذَلِكَ تَسْتَعْرِقُ جُلُوسَاتُ هَذِهِ الْمَجَالِسِ أَكْثَرَ أَيَّامِ السَّنَةِ بِتَمَامِهَا . وَمِمَّا يُطِيلُ أَوْقَاتَ الْإِجْتِمَاعِ مَا اعْتَادُوهُ أَثْنَاءَ انْعِقَادِ الْجُلُوسَاتِ مِنْ كَثْرَةِ الْمُقَاطَعَةِ وَحَشْوِ الْمُبَاحِثِ بِالْأُمُورِ التَّافِهَةِ وَالِانْتِقَالِ مِنْهَا إِلَى الشَّخْصِيَّاتِ وَالْجُنُوحِ إِلَى السَّفْسَطَةِ وَالصَّبِيَانِيَّاتِ ، وَلِذَلِكَ أَسْبَابُ سِنَاتِي عَلَى ذِكْرِهَا فِيمَا بَعْدُ . كُلُّ هَذَا لَا يَسْتَعْرِقُ وَقْتًا طَوِيلًا وَيَسْتَلْزِمُ إِدَامَةَ الْجُلُوسَاتِ الْإِقْلِيلًا . وَيَلْسُ فِي اسْتِطَاعَةِ أَهْلِ الصَّنَاعَةِ وَالتَّجَارَةِ أَنْ يَتَرُكُوا أَعْمَالَهُمْ هَذَا الزَّمَنَ كُلَّهُ ، لِذَلِكَ تَرَاهُمْ يُفَضِّلُونَ الْعُزْلَةَ عَنِ الْإِتِّخَابَاتِ ، وَلَا

يُرْسِحُونَ أَنْفُسَهُمْ لِلنِّيَابَةِ . وَمِمَّا يَزِيدُهُمْ رَغْبَةً فِي الْعُزَلَةِ حَالَةُ
التَّرْشِيحِ الَّتِي صَارَتْ بِحَيْثُ لَا تَرُوقُ فِي أَعْيُنِ أَهْلِ الْجِدِّ وَالْكَمَالِ
الَّذِينَ تَعَوَّدُوا الْأَخْذَ وَالْعَطَاءَ فِي الْأُمُورِ الْمُهْمَةِ، إِذْ يَنْبَغِي لِمَنْ يُرْسِحُ
لِعُضُوبِيَّةِ الْمَجَالِسِ أَنْ يُعْرَضَ (١) نَفْسُهُ لِلْمَطَاعِنِ الْفَادِحَةِ (٢) الَّتِي
يُوجِّهُهَا إِلَيْهِ سُوءُ النِّيَّةِ وَاللِّسْتِمَامِ وَالسَّبَابِ الَّتِي تَرْمِيهِ بِهَا الْجَرَائِدُ
الْمُضَادَّةُ لِمَذْهَبِهِ، كَذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ يُحْضَرَ الْاجْتِمَاعَاتِ الْعُمُومِيَّةَ،
وَلَيْسَ الْهُدُوءُ وَسَلَامَةُ الذُّوقِ مِنْ مُمَيِّزَاتِهَا . وَلَيْسَ فِي الْإِسْتِطَاعَةِ
مُقَاوَمَةُ تِلْكَ الْأَمْخَاحِ الْمَائِجَةِ إِلَّا إِذَا كَانَ الرَّجُلُ مُتَعَوِّدًا الْكَلَامَ
عَارِفًا بِطُرُقِ التَّمْلِيْقِ وَالْإِكْثَارِ مِنَ الْوَعُودِ حَتَّى مَا عَزَّ الْوَفَاءُ بِهِ،
عَالِمًا بِأَسَالِيْبِ التَّفْيِيْقِ (٣) وَرَصَّ الْجَمَلَ الطَّنَانَةَ (٤) الَّتِي لَا مَعْنَى فِيهَا،
وَتِلْكَ حَالٌ لَا يُحْسِنُهَا (٥) مَنْ تَفَرَّغَ لِأَعْمَالِ الصَّنَاعَةِ وَالتَّجَارَةِ
الْكُبْرَى، فَإِنَّهَا أَعْمَالٌ لَا تُؤَهِّلُ صَاحِبَهَا إِلَى مِثْلِ ذَلِكَ وَلَا تَجْعَلُهُ
يَرْغَبُ فِيهِ . أَمَّا أَهْلُ الصَّنَاعَةِ وَالتَّجَارَةِ الَّذِينَ يَقْتَحِمُونَ (٦) أخطارَ
الِإِتْخَابِ فَهُمْ وَاحِدٌ مِنْ اثْنَيْنِ : فَإِمَّا رَجُلٌ أَمِنَ عَلَى مَكْسَبِهِ
وَصَارَ بِذَلِكَ قَلِيلَ الْإِهْتِمَامِ بِمَجْرَكَةِ صِنَاعَتِهِ أَوْ تِجَارَتِهِ فَخَرَجَ عَنْ
مَجْرَى الْأَحْوَالِ فِيهَا، وَإِمَّا رَجُلٌ خَابَ فِي صِنَاعَتِهِ أَوْ تِجَارَتِهِ فَلَمْ
يَبْقَ لَدَيْهِ مَا يَخَافُ عَلَيْهِ إِنْ تَرَكَهَا .

(١) يريد يوطن نفسه وبعدها لذلك (٢) الصعبة المنقيلة (٣) يريد الثرثرة

(٤) من الطين وهو صوت الذباب (٥) لا يجيدها (٦) يريد يقدمون عليها ويدخلونها

تِلْكَ هِيَ الْأَسْبَابُ الَّتِي لِأَجْلِهَا أَصْبَحَتِ الْحَرْفُ الْمِلِّيَّةُ الْحَقِيقِيَّةُ
أَعْنِي الزَّرَاعَةَ وَالصَّنَاعَةَ وَالتَّجَارَةَ وَلَيْسَ لَهَا مِنَ النُّوَابِ إِلَّا الْإِنْفِيلُ؛
وَنُوَابُهَا هُمْ فِي الْوَأَقِعِ أَبْعَدُ أَهْلِهَا عَنْهَا .

بَقِيَ عَلَيْنَا أَنْ نَعْرِفَ مِنَ النَّائِبِ عَنَّا :

يَرَى الْقَارِئُ فَوْقَ تِلْكَ الْحَرْفِ الثَّلَاثِ تَجَسُّمًا هَائِلًا حَيْثُ
يَنْبَعِجُ ^(١) الشَّكْلُ وَيَتَمَدَّدُ تَمَدُّدًا كَبِيرًا فَيَكَادُ عَدَدُ أَهْلِ الْحَرْفِ
الْأَدْبِيَّةِ يَبْلُغُ نِصْفَ عَدَدِ النُّوَابِ كُلِّهِمْ ، لِأَنَّهِمْ مَائَتَانِ وَسَبْعُونَ نَائِبًا
أَعْنِي ضِعْفَ أَعْضَاءِ الزَّرَاعَةِ وَالصَّنَاعَةِ وَالتَّجَارَةِ . وَالْعُنْصُرُ الْغَالِبُ
فِيهِمْ هُمُ الْأَطِبَّاءُ وَأَرْبَابُ الْجَرَائِدِ وَالْمُوثِقُونَ وَعَلَى الْخُصُوصِ الْمُحَامِلِينَ .
وَلِنَدْخُلَ بَيْنَ ذَلِكَ الْجَمْعِ لِنَقِفَ عَلَى حَقِيقَةِ تَرْكِيهِ :

يَبْلُغُ الْأَطِبَّاءُ وَالصَّيْدَلِيُّونَ ثَلَاثَةً وَخَمْسِينَ عُضْوًا فَعَدَدُهُمْ كَعَدَدِ
أَهْلِ الزَّرَاعَةِ تَقْرِيبًا وَيَزِيدُ عَلَى أَهْلِ الصَّنَاعَةِ وَالتَّجَارَةِ مَعًا ، وَلَيْسَ
ذَلِكَ لِأَنَّ صِنَاعَةَ الطَّبِّ تُوجَدُ فِي الْإِنْسَانِ اسْتِمْدَادًا مَخْصُوصًا لِمُدَاوَاةِ
الْهِئَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ مِنْ أَمْرَاضِهَا ، فَإِنَّا مَهْمَا اجْتَهَدْنَا لِانْرِي اِرْتِبَاطًا
بَيْنَ الطَّبِّ الْبَاطِنِيِّ فِي الْأَمْرَاضِ وَالْوُقُوفِ عَلَى حَقِيقَةِ مَا تَشْكُو
الْأُمَّةُ مِنَ الْأَلَامِ . كَذَلِكَ لَا تُوجَدُ نِسْبَةٌ بَيْنَ سَعَادَةِ الْأُمَّةِ وَعَدَدِ
الْأَطِبَّاءِ فِيهَا كَالنَّسْبَةِ الْمَوْجُودَةِ بَيْنَ تِلْكَ السَّعَادَةِ وَبَيْنَ عَدَدِ
الزَّرَاعِ وَالصَّنَاعِ وَالتَّجَارِ . وَلَا نَحْسَبُ الْأَطِبَّاءَ أَيضًا يَتَأَثَّرُونَ بِاخْتِلَالِ

سِيَّاسَةِ الْأُمَّةِ وَشُبُوبِ الثَّوْرَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِمْ، وَلَوْ
كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ لَطَنَّنَّاهُمْ أَشَدَّ النَّاسِ إِقْدَامًا عَلَى سَدِّ الْخَلَلِ وَمَنْعِ
الْأَخْطَرِ؛ لَكِنَّا نَرَى الْأَمْرَ عَلَى الْعَكْسِ مِنْ هَذَا. فَبَيْنَمَا الصَّنَاعَاتُ
الْثَّلَاثُ الْأُولَى تُصْبِحُ كَالسِّدَّةِ بَلْ تَقِفُ حَرَكَتُهَا بِمَا يَطْرَأُ عَلَى
السِّيَّاسَةِ مِنَ الْإِخْتِلَالِ نُشَاهِدُ صِنَاعَةَ الطَّبِّ غَيْرَ مُتَأَثِّرَةٍ أَبَدًا لِأَنَّهَا
إِنَّمَا تَتَعَلَّقُ بِسُوءِ حَالِ الْأَجْسَامِ وَالْأَمْرَاضِ الطَّبِيعِيَّةِ فِي الْإِنْسَانِ
لَا بِحُسْنِ حَالِ الْاجْتِمَاعِ. وَبِمَا يُدْهَشُنَا أَنْ يَكُونَ عَدَدُ الْأَطِبَّاءِ
كَثِيرًا إِلَى هَذَا الْحَدِّ فِي مَجْلِسِ النُّوَابِ مَعَ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ تِلْكَ الصَّنَاعَةُ
مِنْ اسْتِمْرَارِ مُزَاوَلَتِهَا وَالْعَمَلِ فِيهَا. وَإِذَا غَابَ الطَّبِيبُ تَرَكَتُهُ
الزَّبَائِنُ، لِأَنَّ الْمَرِيضَ لَا يَقْوَى عَلَى الْإِصْطِبَارِ. وَمِنْ هُنَا جَاءَ أَنْ
أَغْلَبَ الْأَطِبَّاءُ فِي مَجْلِسِ النُّوَابِ لَيْسَ لَهُمْ زَبَائِنُ، أَمَّا الَّذِينَ كَثُرَ
عَمَلُهُمْ فَفَاءَ بَدَنُهُمْ فِي الْإِحْتِفَازِ بِزَبَائِنِهِمْ وَلَا يُفَضَّلُونَ عَلَيْهِمْ
اِقْتِحَامَ مَخَاطِرِ الْإِتِّخَابِ وَطَلَبِ النِّيَابَةِ مِنْ مُوَاطِنِيهِمْ وَلَا يَبِيعُونَ
مُرْتزَقًا مَأْمُونًا كَثِيرَ الرِّبْحِ بِحَالَةٍ قَلَّ كَسْبُهَا وَبَعِيدَةً أَنْ تَدُومَ.
إِذَنْ لَيْسَ أَوْلَثِكَ النُّوَابُ مُجَنَّبَةً بِنِي حِرْفَتِهِمْ، وَعَلَيْهِ فَلَيْسُوا بِعَضُدِ
قَوِيٍّ لِلنِّيَابَةِ الْمَلِيَّةِ.

وَلِكِنِّي تَقِفَ عَلَى سَبَبِ اِتِّخَابِ هَذَا الْعَدَدِ الْعَظِيمِ مِنْهُمْ يَنْبَغِي
أَنْ نَعْرِفَ الْأَمْرَيْنِ الْآتِيَيْنِ :

الأوَّلُ أَنَّ أَوْلِيَّكَ النُّوَابَ هُمْ فِي الْغَالِبِ مِنْ حِزْبِ الشَّمَالِ
فَمِنَ الثَّلَاثَةِ وَالْخَمْسِينَ طَبِيبًا وَصَيْدَلِيًّا خَمْسُونَ مِنَ الْحِزْبِ الْمَذْكَورِ
وَالثَّلَاثَةُ فَقَطْ مِنْ حِزْبِ الْيَمِينِ. وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ صِنَاعَةَ الطَّبِّ
لَيْسَتْ هِيَ الَّتِي غَرَسَتْ فِيهِمْ تِلْكَ الْمُبُولَ حَتَّى ضَاعَتْ النَّسَبَةُ
كَمَا تَرَى، لِأَنَّآ إِذَا رَجَعْنَا إِلَى مَجْمُوعِ الْأَطِبَّاءِ كُلِّهِمْ لَا نَرَى فِيهِمْ هَذَا
الْمِيلَ إِلَى هَذَا الْحَدِّ، وَسَبَبُهُ ظَاهِرٌ لِأَنَّ صِنَاعَتَهُمْ وَرَغْبَتَهُمْ فِي تَكْثِيرِ
عَدَدِ زَبَائِنِهِمْ تَجْعَلَانِهِمْ لَا يَشْتَغِلُونَ بِالسِّيَاسَةِ إِلَّا قَلِيلًا.

وَلَقَدْ نُسِّمُ أَنَّ هَذَا النَّقْدُ لَا يَصْدُقُ عَلَى أَطِبَّاءِ مِنَ النُّوَابِ الَّذِينَ
لَيْسُوا هُمْ مِنْ خِلَاصَةِ أَهْلِ الْفَنِّ وَلَا مِمَّنْ كَثُرَتْ زَبَائِنُهُمْ، وَلَكِنَّا
لَا نُسِّمُ بِأَنَّ تَأَخُّرَهُمْ فِي صِنَاعَتِهِمْ هَاجَ خَوَاطِرَهُمْ وَالْقَوَا الْأَيْمُ^(١)
عَلَى الْهَيْئَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ فَأَلَوْ إِلَى الْمُتَطَرِّفِينَ فِي السِّيَاسَةِ انْتِقَامًا مِنْهَا؛
إِذْ أَنَا لَا نَرَى سَبَبًا يَمْنَعُهُمْ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ مِنَ الْإِنْجِيَازِ لِحِزْبِ الْيَمِينِ
الَّذِي يَلْتَقِ مَعَ حِزْبِ الشَّمَالِ فِي مُحَارَبَةِ نِظَامِ الْهَيْئَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ
الْحَالِي، مَعَ أَنَّ لَهُمْ فِي الْإِنْجِيَازِ إِلَيْهِ مَزِيَّةٌ تُمْكِّنُهُمْ مِنْ اتِّهَامِ
الْحُكُومَةِ بِأَنَّهَا السَّبَبُ فِي إِخْفَاقِهِمْ. وَالَّذِي يُؤَيِّدُ أَنَّ هَذَا الدَّلِيلَ
لَا قِيَمَةَ لَهُ هُوَ تَسَاوِيُ عَدَدِ الْمُحَامِلِينَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَشْغَلُهُمْ
مِنَ الْقَضَايَا فِي حِزْبِ الشَّمَالِ وَحِزْبِ الْيَمِينِ تَقْرِيْبًا، إِذَا لُوْحِظَتْ

النِّسْبَةُ بَيْنَ جَمِيعِ الْأَحْزَابِ فِي الْمَجْلِسِ .
 الْأَمْرُ الثَّانِي أَنَّ أَغْلَبَ هَؤُلَاءِ الْأَطِبَّاءِ يَحْصُلُ انْتِخَابُهُمْ مِنْ
 جِهَاتِ الْأَرْيَافِ ، وَالسَّرُّ فِي هَذَا أَنَّ أَصْحَابَ الْأَمْلاَكِ الْوَاسِعَةِ
 لَا يُقِيمُونَ غَالِبًا فِي الْأَرْيَافِ كَمَا قَدَّمْنَا ، وَأَنَّ عَدَدَهُمْ قَلِيلٌ أَيْضًا
 فِي مَجْلِسِ النَّوَابِ ، فَلَمَّا اخْتَفَوْا عَنْ أَعْيُنِ الْأَهَالِي قَلَّتْ مَعْرِفَتُهُمْ بِهِمْ
 وَضَاعَ مَيْلُهُمْ إِلَيْهِمْ - وَهُمْ فِي ذَلِكَ مُصِيبُونَ - وَرَأَوْا أَنَّهُمْ لَا يَسْتَحِقُّونَ
 أَنْ يَقُومُوا بِالنِّيَابَةِ عَنْهُمْ إِذْ لَمْ يَعُدْ لَهُمْ بَيْنَهُمْ مِنَ الْمَأْثِرِ غَيْرُ جَمْعِ
 الْمَالِ مِنْهُمْ لِيُنْفِقُوهُ فِي الْمُدُنِ الَّتِي يَسْكُنُونَ فِيهَا . وَأَرْبَابُ الْأَمْلاَكِ
 الْوَاسِعَةِ هُمْ فِي الْغَالِبِ مِنَ الْمُحَافِظِينَ ، فَالنَّوَابُ مِنْ أَهْلِ الزَّرَاعَةِ
 فِي الْمَجْلِسِ خَمْسَةٌ وَسَبْعُونَ فِيهِمْ أَرْبَعَةٌ وَخَمْسُونَ مِنْ حِزْبِ الْيَمِينِ
 وَوَأَحَدٌ وَعِشْرُونَ مِنْ حِزْبِ الشَّمَالِ ، وَبِتَرَكِيهِمُ الرِّيفِ يَضِيعُ نَفوذُهُمْ
 بَيْنَ أَهْلِهِ وَيَنْتَقِلُ بِالطَّبِيعَةِ إِلَى أَعْدَائِهِمْ فِي السِّيَاسَةِ الَّذِينَ هُمْ مِنْ
 حِزْبِ الشَّمَالِ فَيُنْتَخَبُونَ بَدَلًا مِنْهُمْ . وَلَا يُوجَدُ فِي الْأَرْيَافِ مَنْ
 يَصِحُّ لَهُ أَنْ يَقُومَ مَقَامَ أَوْلِيكَ الْمُلَّاكِ الْغَائِبِينَ إِلَّا الْأَطِبَّاءُ
 وَالْحَامُونَ وَالْمُوثِقُونَ ، فَلِهَذَا الطَّوَائِفِ الثَّلَاثِ نَفوذٌ طَبِيعِيٌّ بَيْنَ النَّاسِ
 عَظِيمٌ لِكثْرَةِ مَنْ يُخَالِطُونَ وَالْإِفْضَاءِ إِلَيْهِمْ بِأَسْرَارِ الْعَائِلَاتِ وَمَا
 يَقُومُونَ بِهِ مِنْ الخِدْمِ إِمَّا بِالْإِرْشَادِ مَجَانًا وَإِمَّا بِاقْتِرَاضِ الْأَمْوَالِ .
 ثُمَّ هُمْ نُحْبَةُ الثَّلَاةِ فِي الْأَرْيَافِ ، بَعْدَ الْمُلَّاكِ ، فَلَا غَرَابَةَ حِينَئِذٍ إِذَا

أَصَابَهُمُ الْإِتِّخَابُ وَجَلَسُوا فِي مَجَالِسِ النُّوَابِ .
تِلْكَ مُشَاهَدَةٌ صَحِيحَةٌ وَهِيَ الصَّحِيحَةُ وَحَدَّهَا بِدَلِيلٍ أَنَّكَ إِذَا
رَاجَعْتَ عَدَدَ الْأَعْضَاءِ مِنْ كُلِّ طَائِفَةٍ فِي كُلِّ حِزْبٍ فِي مَجْلِسِ النُّوَابِ
رَأَيْتَ الْمُؤْتَقِينَ وَوُكَلَاءَ الدَّعَاوَى يَكْثُرُونَ حَيْثُ يَكْثُرُ الْأَطِبَّاءُ
فَالْمُؤْتَقُونَ سَبْعَةٌ عَشْرَ مِنْهُمْ أَرْبَعَةٌ عَشْرَ فِي الشَّمَالِ وَثَلَاثَةٌ فِي الْيَمِينِ ،
وَوُكَلَاءَ الدَّعَاوَى تِسْعَةٌ كُلُّهُمْ فِي الشَّمَالِ . . ثَبَتَ إِذْنًا أَنَّ أَهْلَ
تِلْكَ الْحِرْفِ لَمْ يَدْخُلُوا مَجْلِسَ النُّوَابِ إِلَّا لِهُرُوبِ أَصْحَابِ
الْأَمْلَاقِ . أَمَّا الْبِلَادُ الَّتِي حَفِظَ كِبَارُ الْمَلَائِكَةِ فِيهَا نَفُوزَهُمْ وَمَكَانَتَهُمْ
فَلَا يَزَالُ أَطِبَّاءُهَا وَمُؤْتَقُوهَا وَوُكَلَاءُ دَعَاوِيهَا يَقُومُونَ بِخِدْمَتِهِمْ
لِلْمَرْضَى وَالْأَرَامِلِ وَالْأَيْتَامِ ، وَكُلُّ النَّاسِ هَادِيٌّ مَسْرُورٌ .
وَلَسْتُ أَذْكَرُ شَيْئًا عَنِ الْمُهَنْدِسِينَ الْمَلَائِكِيِّينَ لِأَنَّهُمْ سَبْعَةٌ
نُوَابٍ وَهُوَ عَدَدُ يَسِيرٍ سَبَبُهُ أَنَّ حِرْفَتَهُمْ لَا يَتَكَنَّنُهُمْ بِطَبِيعَتِهَا
كَالْحِرْفِ السَّابِقَةِ مِنْ اجْتِدَابِ الْقُلُوبِ وَاسْتِمَالَةِ الْإِهَالِي .
وَأَمَّا أَرْبَابُ الصُّحُفِ فَكَثِيرُونَ ؟ إِذْ أَرَاهُمْ تِسْعَةً وَخَمْسِينَ
كَعَدَدِ أَهْلِ الزَّرَاعَةِ عَلَى التَّقْرِيْبِ وَأَكْثَرُ جَدًّا مِنْ أَهْلِ الصَّنَاعَةِ
وَالتَّجَارَةِ ، وَلَا أَظُنُّ أَنَّ أَحَدًا يَدَّعِي أَنَّهُمْ لَازِمُونَ فِي الْأُمَّةِ لَزُومِ
الزَّرَاعِ ، وَأَنَّهُمْ أَشَدُّ لَزُومًا مِنْ أَرْبَابِ الصَّنَاعَةِ وَأَهْلِ التَّجَارَةِ مَعًا .
وَزِدْ عَلَيْهِ أَنَّ أَرْبَابَ الصُّحُفِ لَا يُمْهِمُهُمْ صَلَاحُ أَحْوَالِ فِي الْبِلَادِ وَهُدُوءُ

الافكارِ واستتبابِ النظامِ العامِّ كالزراعةِ والصناعاتِ والتجارةِ، فحياةُ
الجريدهِ من الحوادثِ تزدادُ أعدادُها أيامَ الاضطرابِ ولذلكِ
تتشرُّ بأحرفٍ كبيرةٍ أشدَّ الأخبارِ إقلاقاً للراحةِ العموميةِ وتقلُّ
تلكَ الأعدادُ متى سادَ السكونُ على الناسِ، إلا أنَّ الجرائدَ لا تعدُّ
سبيلاً للرواجِ فتختلقُ الحوادثَ وتعلمُ ما صغرُ منها وتوقِظُ اللاهيةَ
وتحضُّ على تهيجِ الأفكارِ لأنَّها في حاجةٍ إليه، أنظرُ كيفَ يزدادُ
عددُ الجرائدِ في أزمتهِ الاضطرابِ! وكلُّ منْ لمْ يطمسِ اللهُ على
بصيرتهِ يقولُ: إنَّ تقدُّمَ الزراعةِ وارتقاءَ الصناعةِ ورواجَ التجارةِ
إنما يقومُ بقتلِ الصحفِ وموتِ الجرائدِ.

يقالُ إنَّ أربابَ الجرائدِ قد استعدُّوا للبحثِ في المسائلِ السياسيةِ
لأنَّهم يخوضونَ فيها كلَّ يومٍ، نعمَ أسلمَ أنَّهم مُستعدُّونَ للكلامِ
في كلِّ موضوعٍ، إلا أنَّهم يتكلمونَ كما تتكلمُ الجرائدُ، وصاحبُ
الجريدهِ مضطربٌ بطبيعةِ حرقتهِ إلى التفكيرِ عاجلاً والحكمِ على
الأشياءِ عاجلاً والكتابةِ عاجلاً؛ فما لاحَتْ لهُ بارقةُ فكرٍ إلا
كتبَ فيها من حينها! إذ ليسَ عندهُ زمنٌ لينعمَ النظرَ فيها. وكبارُ
أهلِ الجرائدِ يعرفونَ ذلكَ ويشكونَ منه، أمَّا الآخرونَ فلا
يخطرُ لهمُ هذا على البالِ بلْ يعتقدونَ في أنفسهمُ ما شاء اللهُ أنْ

يَعْتَقِدُوا ، وَيَقُولُونَ غَيْرَ هَازِلِينَ : إِنَّهُمْ أَرْبَابُ زَعَامَةٍ فِي الْأُمَّةِ وَأَهْلُ سِيَادَةٍ عَلَى الْأَفْكَارِ .

صَاحِبُ الْجَرِيدَةِ مُحْتَاجٌ إِلَى تَغْلِيظِ صَوْتِهِ لِيُسْمِعَ النَّاسَ وَيُحَوِّلَ الْأَفْكَارَ إِلَيْهِ وَتِلْكَ ضَرُورَةٌ قَضَتْ بِهَا مَهْنَتُهُ وَاسْتَلْزَمَتْهَا حَيَاةُ جَرِيدَتِهِ فَهُوَ يَبَالِغُ بِطَبِيعَةِ الْحَالِ كَمَا أَنَّنَا نَأْكُلُ أَوْ نَنَامُ ، إِنْ قَالَ فِي رَجُلٍ إِنَّهُ نَذْلٌ أَوْ وَغْدٌ^(١) ، فَمَعْنَاهُ لَيْسَ بِأَكْثَرَ مِنْ أَنَّهُ وَإِيَّاهُ فِي الرَّأْيِ مُخْتَلِفَانِ ، وَلَيْسَ لِكَلَامِهِ غَايَةٌ يُقْصِدُهَا وَلَكِنْ هَكَذَا اقْتَضَتْ لِهَجَّةُ الْجَرِيدَةِ فَوَجَبَ الصَّرَاحُ حَتَّى يَسْمَعَ النَّاسُ كَمَا يَقَعُ فِي الْمَوَالِدِ وَالْأَسْوَاقِ حَيْثُ الْوَسِيلَةُ فِي لَفْتِ الْقَوْمِ كَثْرَةُ الْجَلْبَةِ عَلَى الْأَبْوَابِ ، وَذَلِكَ هُوَ مَا يُسَمَّى بِالْمُظَاهَرَةِ .

أَتَظُنُّ يَا صَاحِبُ^(٢) أَنَّ تِلْكَ الْخِلَالَ هِيَ الَّتِي يَنْبَغِي لِلْأُمَّةِ أَنْ تَطْلُبَهَا مِنْ أَوْلِيَّكَ السِّيَاسِيِّينَ وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ الْبَحْثَ فِي مَنَافِعِ الْأُمَّةِ الْعَامَّةِ وَحُكُومَةِ الْبِلَادِ لَا يَتَأْتِي إِلَّا لِقَوْمٍ اتَّصَفُوا بِالْحِكْمَةِ وَبَعْدِ النَّظَرِ وَسَلَامَةِ الْحُكْمِ وَالْمُسَالَمَةِ وَحُسْنِ الذَّوْقِ وَمَعْرِفَةِ الْأَعْمَالِ الْمُفِيدَةِ ؟ لَا أَنْكُرُ أَنَّ بَعْضَ أَهْلِ الْجَرَائِدِ يَعْرِفُونَ ذَلِكَ إِلَّا أَنَّهَا صِفَاتٌ لَيْسَتْ هِيَ الْغَالِبَةُ فِي تِلْكَ الطَّائِفَةِ بِالْبِلَادِ الْفَرَنْسَاوِيَّةِ ، وَلِذَلِكَ نَشَاهِدُ أَنَّ النُّوَابَ مِنْ أَرْبَابِ الْجَرَائِدِ لَمْ يُسَاعِدُوا عَلَى إِجْرَادِ الْهُدُوءِ

(١) الوغد الرجل الذئب (٢) يا صاحبي

فِي الْمُنَاقَشَةِ وَاسْتِعْمَالِ الْحِكْمَةِ فِي مَبَاحِثِ الْمَجَالِسِ النِّيَابِيَّةِ، وَمَا كَثُرَ
عَدَدُهُمْ فِي سَرَايِ الْبُورْبُونِ إِلَّا لِأَنَّ الصُّحُفَ فِي تَصَرُّفِهِمْ (١)
وَالصُّحُفُ هِيَ رُسُلُ الْإِتِّخَابِ .

أَرْبَابُ الصُّحُفِ لَيْسُوا عَلَى نِسْبَةٍ وَاحِدَةٍ فِي الْأَحْزَابِ فَعَدَدُهُمْ
تِسْعَةٌ وَخَمْسُونَ، مِنْهُمْ أَرْبَعَةٌ وَخَمْسُونَ فِي الشَّمَالِ وَخَمْسَةٌ فِي الْيَمِينِ .
وَسَبَبُ هَذَا الْإِخْتِلَافِ أَنَّ حِزْبَ الشَّمَالِ يَعْتَمِدُ عَلَى الْفَعْلَةِ ، وَحِزْبُ
الْيَمِينِ يَعْتَمِدُ عَلَى الْفَلَاحِينَ ، وَأَوْلَئِكَ يَقْرَأُونَ الْجَرَائِدَ أَكْثَرَ مِنْ
هُوَئَلَاءِ ، وَبِهَذِهِ الْوَاسِطَةِ اشْتَدَّ تَقَرُّبُ أَرْبَابِ الْجَرَائِدِ الْجُمْهُورِيَّةِ
مِنْ جَمِيعِ الْمُتَخَبِّينِ فِي الْمُدُنِ أَكْثَرَ مِنْ تَقَرُّبِ إِخْوَانِهِمُ الْمُحَافِظِينَ
إِلَى أَهْلِ الرَّيْفِ . وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الرَّيْفِ قَرَأُوا الْجَرَائِدَ لَتَضَاعَفَ عَدَدُ
الْمُحَامِلِينَ فِي مَجْلِسِ النُّوَابِ . وَبَيْنَمَا السَّبَبُ فِي إِغَارَةِ الْأَطِبَّاءِ
وَالْمُؤَثِّقِينَ وَوُكَلَاءِ الدَّعَاوَى عَلَى الْمَجَالِسِ النِّيَابِيَّةِ هُوَ تَمَنُّعُ كِبَارِ
الْمَلَائِكِ حَتَّى فَقَدَ أَهْلُ الرَّيْفِ رُؤْسَاءَهُمُ الطَّبِيعِيِّينَ ، نَرَى السَّبَبَ
فِي إِغَارَةِ أَرْبَابِ الصُّحُفِ آتِيًا مِنْ أَهْلِ الصَّنَاعَةِ الَّذِينَ تَرَكَوا
الْفَعْلَةَ بَغَيْرِ قَائِدٍ فَأَصْبَحُوا عُرْضَةً لِعَوَايَةِ الْجَرَائِدِ وَلِأَحَامِي يَحْمِيهِمْ
وَلَا دَافِعَ يَرُدُّهَا عَنْهُمْ ، فَالرُّؤْسَاءُ هُمُ الْمَسْئُولُونَ فِي الْحَالِيْنَ :

أَكْثَرُ النُّوَابِ مِنْ أَرْبَابِ الْحِرَفِ الْأَدَبِيَّةِ هُمُ أَهْلُ الْقَانُونِ

(١) يتصرفون بها كيف شاءوا

وَالَّذِينَ بَلَغُوا مِائَةً وَتِسْعَةً وَثَلَاثِينَ عُضْوًا غَيْرَ الْقُضَاةِ وَأَمْثَالِهِمْ
مَنْ هُمْ فِي عِدَادِ الْمُوظَّفِينَ، لِأَنََّّهُمْ وَإِنْ اتَّحَدُوا مَعَهُمْ فِي الصَّنَاعَةِ
لَكِنَّ سَبْقَ وُجُودِهِمْ فِي خِدْمَةِ الْحُكُومَةِ جَعَلَنَا نَفْرُدُ لَهُمْ قِسْمًا
مَخْصُوصًا وَهُوَ قِسْمُ الْمُوظَّفِينَ. وَقَدْ ذَكَرْتُ بَيْنَ أَهْلِ الْقَانُونِ مُدْرِسِي
الْحُقُوقِ السِّتَّةَ لِمَجْرَدِ الْبَيَانِ فَقَطْ ثُمَّ أَشْرَكْتُ مَعَهُمُ الْمُوثَقِينَ وَوُكُلَاءَ
الدَّعَاوَى وَقَدْ سَبَقَ الْكَلَامُ عَلَيْهِمْ. بَقِيَ عِنْدَنَا الْعَدَدُ الْأَكْبَرُ
وَهُمُ الْمُحَامُونَ :

يَبْلُغُ عَدَدُ الْمُحَامِينَ مِائَةً نَائِبٍ وَسَبْعَةً، وَأُرِيدُ بِهِمْ أَوْلِيَاءَ الَّذِينَ
تُوجَدُ أَسْمَاءُهُمْ فِي جَدْوَلِ الْمُحَامِينَ الرَّسْمِيِّ وَلَا يَزَالُونَ يَشْتَغِلُونَ
بِحِرْفَتِهِمْ، أَمَّا عَدَدُ حَائِزِي الشَّهَادَةِ فِي عِلْمِ الْحُقُوقِ فَيَزِيدُ فِي الْمَجْلِسِ
عَلَى ثَلَاثِيئِهِ، وَلَسْنَا نَعْلَمُ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ أَوْ الْحَاضِرَةِ نَشَأَ
فِيهَا مُتَعَلِّمُو عِلْمِ الْحُقُوقِ بِكَثْرَةٍ كَمَا هُوَ حَاصِلٌ عِنْدَنَا فِي الْقَرْنِ
التَّاسِعِ عَشَرَ فَهَمْ غَارَةٌ حَقِيقِيَّةٌ بَلْ طُوفَانٌ وَهُمْ أَصْحَابُ الْكَلِمَةِ
الْحَقِيقِيَّةِ فِي مَجْلِسِ النُّوَابِ وَفِي فَرَسَا كُلِّهَا؛ وَقَدْ وَضَعُوا يَدَهُمْ
تَمَامَ التَّوَضُّعِ عَلَى سَيْرِ الْمَجَالِسِ النِّيَابِيَّةِ مِمَّا لَمْ يَسْبِقْتَهُمْ بِهِ أَهْلُ
حِرْفَةِ أُخْرَى.

كَيْفَ لَا يَكْتُرُ عَدَدُهُمُ وَالْمُحَامَاةُ فَنَيْسَهُلُ تَرَكَهُ كَمَا يَسْهَلُ
الرُّجُوعُ إِلَيْهِ؛ وَلَيْسَ فِي تَرَكَهِ ضَرَرٌ بِرَأْسِ مَالٍ! فَعُدَّةُ الْمُحَامِي.

مَكْتَبُهُ، وَمَكْتَبُهُ فِي الْغَالِبِ قِسْمٌ مِنْ مَسْكَنِهِ! وَالنِّيَابَةُ طَرِيقَةٌ مِنْ طُرُقِ الظُّهُورِ لِأَنَّهَا تُتَبَّحُ لِلْمُحَامِي فُرْصَةً بَيَانِ فَصَاحَتِهِ وَنَشْرِ بَلَغَتِهِ، وَفِي سَرَائِ البُورْبُونِ مِنْبَرٌ أَرْفَعُ مِنْ مِنْابِرِ الْمُحَاكِمِ. مُهْنَاكَ يَتَكَلَّمُ الْوَاحِدُ مِنْ عُلُوِّ عَظِيمٍ وَيُسْمَعُ صَوْتُهُ مِنْ بَعِيدٍ. إِذَنْ فِي وَظِيفَةِ النِّيَابَةِ مَزِيَّةٌ لِلْمُحَامِي تُعْطِيهِ زَبَائِنَ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ - وَقَدْ حَصَلَ - أَوْ تَكْثُرُ عَدَدُهُمْ. ثُمَّ إِنْ ضَرُورَةُ الْكَلَامِ فِي الْأَنْدِيَةِ الْعُمُومِيَّةِ وَالْمُجْتَمَعَاتِ الَّتِي يُحْجِمُ عَنْهَا كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الزَّرَاعَةِ هِيَ مِنَ الْأُمُورِ الْمَقْبُولَةِ عِنْدَ الْمُحَامِي، فَالْكَلَامُ صَنَعْتُهُ وَمِنْ هُنَا كَانَ لَهُ عَلَى الْمُتَسَابِقِينَ مَعَهُ مَزِيَّةٌ كُبْرَى.

غَيْرَ أَنَّ الْمُحَامَاةَ لَا تَهَيِّئُ الْإِنْسَانَ لِإِدَارَةِ مَصَالِحِ الْبِلَادِ كَمَا تُسَهِّلُ لَهُ الدُّخُولَ فِي مَجْلِسِ النُّوَابِ، لِأَنَّهَا لَا تَتَأَثَّرُ بِاعْتِلَالِ الْأَحْوَالِ الْعُمُومِيَّةِ كَمَا هُوَ الْحَالُ فِي الزَّرَاعَةِ وَالصَّنَاعَةِ وَالتَّجَارَةِ بَلِ الظَّاهِرُ أَنَّهَا تَسْتَفِيدُ مِنْ ذَلِكَ الْإِعْتِلَالِ لِأَنَّ قَوَامَهَا الدَّعَاوِي وَهَذِهِ تَكْثُرُ كَمَا كَسَدَتْ الْأَعْمَالُ فَتَتَوَلَّدُ الْقَضَايَا السِّيَاسِيَّةُ فِي أَرْزَمَةِ الْإِضْطِرَابِ وَتَتَوَلَّدُ الْقَضَايَا بَيْنَ الْأَقْرَابِ مَتَى فَسَدَ نِظَامُ الْعَائِلَةِ. وَعَلَى هَذَا فَسُوهُ حَالِ الْمُحَامِي فِي قَضَايَاهُ لَا يَدُلُّ عَلَى مَجْرَى الْأَحْوَالِ السِّيَاسِيَّةِ بَلِ بِالْعَكْسِ.

يُقَالُ إِنَّهُمْ تَعَوَّدُوا الْمُبَاحِثَ الْقَانُونِيَّةَ وَاخْتَبَرُوا الْقَوَائِنَ

فَأَصْبَحُوا قَادِرِينَ عَلَى التَّشْرِيعِ . وَصَحِيحٌ أَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ بِمُقْتَضَى مِهْنَتِهِمْ قَوَائِنَنَا وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ وَوَاقِفُونَ عَلَى الْمَذَاهِبِ الَّتِي ذَهَبَتْ فِي تَفْسِيرِهَا، وَهُمْ بِذَلِكَ يُفِيدُونَ النِّيَابَةَ الْمِلِّيَّةَ، إِلَّا أَنَّهُمْ لِسُوءِ الْحِظِّ مَيَّالُونَ إِلَى تَغْلِيْبِ الْجَانِبِ النَّظَرِيِّ الَّذِي هُوَ مَيْدَانُهُمْ عَلَى الْجَانِبِ الْعَمَلِيِّ وَالْمَنَافِعِ الْحَيَّةِ الَّتِي لَيْسَتْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ .

قَضَوْا حَيَاتَهُمْ بَيْنَ النُّصُوصِ فَكَانَ مِنْهُمْ أَنْ حَسَبُوا لَهَا تَأْثِيرًا الْأَمْرَدَلَهُ، وَالتَّأْثِيرُ فِي الْوَاقِعِ غَيْرُ مَوْجُودٍ وَاعْتَقَدُوا أَنَّ الْأُمَّةَ إِنَّمَا تُسَاسُ بِوَضْعِ الْقَوَائِنِ فَقَلَّمُوا مِنْ تَأْثِيرِ الْقُوَّةِ الْحَيَوِيَّةِ الذَّاتِيَّةِ وَأَضْعَفُوا تَأْثِيرَ الصَّنَاعَاتِ وَالْفُنُونِ الْجَارِيَةِ وَهَذَا الْمَيْلُ هُوَ الَّذِي حَمَلَ أَهْلَ الْقَانُونِ فِي الزَّمَنِ الْقَدِيمِ عَلَى الدِّفَاعِ أَيْ دِفَاعٍ عَنِ حُقُوقِ الْمَلَكَِيَّةِ حَتَّى أَطْلَقُوهَا مِنْ كُلِّ قَيْدٍ إِضْرَارًا بِحُقُوقِ الرَّعَايَا وَحُرِّيَّةِ الْأَفْرَادِ وَاسْتِقْلَالَ الْبِلَادِ، وَهُمْ الَّذِينَ لَمْ تَفْتُرْ لَهُمْ هَمٌّ فِي زَمَنِ هَذَا مِنْ حِزْبِ الْيَمِينِ كَانُوا أَوْ مِنْ حِزْبِ الشَّمَالِ عَنْ جَمْعِ سُلْطَةِ الْبِلَادِ فِي قَبْضَةِ الْحُكُومَةِ الْعُلْيَا فَادْخَلُوا يَدَهَا الثَّقِيلَةَ فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ وَلَمْ يَرْفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ بِالشُّكُوفِ مِنْهَا إِلَّا إِذَا رَأَوْهَا فِي جَانِبِ خُصُومِهِمْ السِّيَاسِيِّينَ، وَهُمْ الْمَسْتُولُونَ قَبْلَ سَوَاهُمْ عَنِ اتِّسَاعِ دَائِرَةِ الْمَصَالِحِ الْأَمِيرِيَّةِ وَالِدَّوَائِينَ الْفَرَنْسَاوِيَّةِ الَّتِي أَضْرَتْ بِمَالِيَةِ الْبِلَادِ وَوَقَفَتْ حَجَرَ عَثْرَةٍ فِي سَبِيلِ انْتِشَارِ هَمِّ الْأَفْرَادِ، وَعَلَيْهِمْ نَصِيبٌ فِي سُقُوطِ

مَنْزِلَةَ النِّظَامِ الشُّورِيِّ ، لِأَنَّ عَادَةَ ارْتِجَالِ الْقَوْلِ فِيهِمْ حَمَلَتْهُمْ عَلَى
 إِطَالَةِ الْمُبَاحِثِ بِكَلَامٍ فَصِيحٍ لَسَكُنَ بغيرِ فائِدَةٍ بَدَلًا مِنَ الْمُدَاوَلَاتِ
 الْمُفِيدَةِ الْعَمَلِيَّةِ الَّتِي تَقْتَضِي مَعَارِفَ مَخْصُوصَةً وَأَصْبَحْنَا نَسْمَعُ النَّاسَ
 يَصِيحُونَ فِي كُلِّ مَكَانٍ طَالِبِينَ مَجْلِسِ نُوَابٍ يَقْصِرُ هَمَّهُ عَلَى الْأَعْمَالِ
 وَوِزَارَةٍ تَتْنِي الْعِنَانَ ^(١) عَنِ النَّظَرِيَّاتِ . أَقُولُ وَزَارَةً لِأَنِّي أَرَى
 الْمُحَامِلِينَ قَدْ شَغَلُوا أُهُمَّ مَرَكِزٍ بَيْنَ النَّظَارِ ، وَالْعَيْبُ فِي هَذَا رَاجِعٌ
 إِلَى نِظَامِ مَجَالِسِنَا لِأَنَّهُ يُطْلَبُ فِي الْوَزِيرِ قَوْلًا رَجِيحًا ^(٢) لَا عَمَلًا مَلِيحًا
 وَيَشْتَرَطُ فِيهِ مِنَ الصِّفَاتِ مَا يَزُوهو ^(٣) بِهِ إِلَّا نَسَانُ لَا مَا تَظْهَرُ فَوَائِدُهُ
 الْحَقَّةُ لِلْعِيَانِ . تَرَى النَّائِبَ إِنْ رَامَ الْكَلَامَ وَجَبَ أَنْ يَرْتَقِيَ مِنْبَرَ
 الْخُطَابَةِ لِأَنَّ يَتَكَلَّمَ مِنْ مَكَانِهِ كَمَا فِي مَجْلِسِ نُوَابِ الْأَنْكَلِيزِ ،
 وَمَتَى تَوَسَّطَ ذَلِكَ الْمَقَامَ لَزِمَهُ أَنْ يُقَدِّمَ مُقَدِّمَةً قَبْلَ الدُّخُولِ فِي
 الْمَوْضُوعِ ، وَيَخْتِمَ بِخَاتِمَةٍ إِذَا انْتَهَى فَيُضَيِّعُ جُزْءًا ثَمِينًا مِنَ الْوَقْتِ
 فِي فِيهِتَةٍ وَرِصِّ الْأَفَاطِضِ خَامٍ وَيُقْصَى مِنَ الْمُنَاقَشَةِ جَمِيعُ النُّوَابِ الَّذِينَ
 لَا قُدْرَةَ لَهُمْ عَلَى مُطَالَوَةِ ^(٤) اللِّسَانِ ، وَأَوْلَائِكَ هُمُ الَّذِينَ فِي الْغَالِبِ
 يَعْرِفُونَ حَقِيقَةَ الْأَحْوَالِ الْخَيْرِيَّةِ وَنَبِحَاتِ الْبِلَادِ ، بِدَلِيلِ مَا هُوَ

(١) تنزي: تصرف يريد تعدل والعنان الزمام (٢) رجيجا: أى راججا، يريد قولاً

بليغاً خلافاً (٣) الزهو: الكبر والفخر وهو أيضاً المنظر الحسن (٤) الطلاوة بضم الطاء

وقد تفتح: الحسن

مُشَاهِدٌ فِي اللَّجَانِ حَيْثُ يُظَهَرُ فَضْلُهُمْ، وَكَانَ الْوَاجِبُ أَنْ يَبْقَى الْقَوْلُ
قَوْلَهُمْ فِي الْجَلْسَاتِ الْعُمُومِيَّةِ . فَمَنْ الْمُقَرَّرُ أَنَّ أَكْثَرَ النُّوَابِ عَمَلًا
أَقْلَهُمْ كَلَامًا ، وَنِظَامُنَا يُبْعِدُهُمْ فِي زَوَايَا الْخُمُولِ وَيُصَدِّرُ لِلنَّظَائِرِينَ
كُلَّ ذِي مَنْطِقٍ فَصِيحٍ !!

وَالْخُلَاصَةُ أَنَّ الْمُحَامِلِينَ قَدْ يُفِيدُونَ النِّيَابَةَ الْمِلِّيَّةَ بِمَا لَدَيْهِمْ
مِنَ الْمَعَارِفِ الْخُصُوصِيَّةِ ، وَلَكِنْ لِسُوءِ الْحُظِّ زَادَ عَدَدُهُمْ عَلَى
نِسْبَةِ أَهْمِيَّتِهِمْ فِي الْأُمَّةِ فَصَارُوا أَصْحَابَ النُّفُوزِ فِي الْمَجْلِسِ وَوَجَّهُوا
حَرَكَتَهُ إِلَى حَيْثُ تَسُوءُ الْعُقْبَى .

وَبَقَدْرَ مَا آغَارَ الْمُحَامِلُونَ عَلَى الْمَجَالِسِ النِّيَابِيَّةِ تَأَخَّرَ أَهْلُ
الدِّينِ وَالْجُنُودُ فَلَا تَرَى مِنَ الْأَوَّلِينَ فِي الْمَجْلِسِ سِوَى رَجُلَيْنِ ؛ إِمَّا
لِأَنَّهُ يُصْعَبُ عَلَى الرُّؤَسَاءِ الرُّوحَانِيِّينَ أَنْ يَجْتَازُوا مَتَاعِبَ الْإِنْتِخَابِ
وَإِمَّا خَوْفِ النَّاسِ مِنْ تَسَلُّطِهِمْ عَلَى الْحُكُومَةِ . وَالسَّبَبُ فِي أَنَّ
رَجَالَ الْجَيْشِ لَا يَزِيدُونَ عَلَى سِتَّةِ نُوَابٍ حَظْرُ الْقَانُونِ عَلَى جَمِيعِ
الضَّبَاطِ الَّذِينَ فِي الْخِدْمَةِ الدُّخُولِ فِي الْمَجَالِسِ النِّيَابِيَّةِ ، فَلَا يُمَكِّنُنَا
حِينَئِذٍ أَنْ نَذْهَبَ مَذْهَبًا فِي قَلْتِهِمْ .

هَذَا وَقَدْ اسْتَوَى الْمُوظَّفُونَ عَلَى قِمَّةِ (١) الشَّكْلِ الَّذِي رَسَمْنَاهُ
وَهُمُ الْفَرِيقُ الْأَكْثَرُ عَدَدًا بَعْدَ أَهْلِ الْحِرَفِ الْأَدْبِيَّةِ . وَلِيَلْحَظْ

(١) استوى : استولى . والقمة : أعلى الشيء .

أَنَا نَعُدُّ الْمُؤَظَّفِينَ بِاعْتِبَارٍ وَظَانْفِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَشْغَلُونَهَا قَبْلَ
الِإِتِّخَابِ لِأَنَّ النِّيَابَةَ وَالْوِظِيفَةَ لَا يَجْتَمِعَانِ . وَهُمْ يَنْقَسِمُونَ إِلَى
ثَلَاثَةٍ وَعِشْرِينَ قَاضِيًا وَاثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ مُؤَظَّفًا إِدَارِيًّا ، فَالْمَجْمُوعُ
خَمْسَةٌ وَتِسْعُونَ عَضْوًا وَهُوَ عَدَدٌ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ الزَّرَاعِ وَالصَّنَاعِ
وَالتَّجَارِ مَعًا ، وَأَكْثَرُ أَوْلِيَاءِ الْمُؤَظَّفِينَ مِنْ رِجَالِ الْقَانُونِ وَلَكِنَّهُمْ
زَادُوا عَلَى مَعَارِفِهِمُ الْأَصْلِيَّةَ خِبْرَةً بِأَحْوَالِ النَّاسِ وَتَعَوُّدًا بِمَقْتَضَى
وَظَانْفِهِمُ احْتِرَامِ أَعْمَالِ الْحُكُومَةِ وَعَرَفُوا جَمِيعَ الطَّرِيقِ الَّتِي تُؤَيِّدُ فُوزَهَا
وَتُوجِبُ نَصْرَهَا ، وَقَوْمٌ هَذِهِ صِفَاتُهُمْ يُظَنُّ أَنَّهُمْ أَوْلَى بِالِإِتِّخَابِ
لِكُونِهِمْ أَدْرَى بِمَصَالِحِ الْبِلَادِ وَأَحَقُّ أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْعَدَدُ
الْأَوْفَرُ بَيْنَ النَّوَابِ وَيَكُونُوا أَعْدَلَ الْقَضَاةِ لِلْحُكْمِ فِي الْمَنْفَعَةِ
الْعَامَّةِ : وَلِيَبَيِّنَ مَا فِي هَذَا الظَّنِّ مِنَ الْخَطَايَا أَوِ الصَّوَابِ نَبَّحْتُ فِي الْمَنْفَعَةِ
الْعَامَّةِ .

الْمَنْفَعَةُ الْعَامَّةُ تَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ ثَمَنُ الْحُكُومَةِ رَخِيصًا حَتَّى
لَا تُكَلِّفَ الْأُمَّةَ مِنَ الْمَالِ إِلَّا يَسِيرًا ، لَكِنَّ مَنفَعَةَ الْمُؤَظَّفِينَ
تَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الثَّمَنُ رَفِيعًا إِلَى حُدِّ الْإِمْكَانِ : فَبِقَدْرِ ضَخَامَةِ
الْمِيزَانِيَّةِ تُوجَدُ الْوِظَائِفُ تَحْتَ تَصَرُّفِ الْحُكُومَةِ وَتَمْتَدُّ الْأَطْمَاعُ
لِنَيْلِهَا . أَلَا تَرَى فِي كُلِّ سَنَةٍ أَنَّ النُّفُوسَ تَمِيلُ إِلَى التَّوْفِيرِ وَالِاِقْتِصَادِ
سَدًّا لِلْعَجْزِ الَّذِي يَزْدَادُ عَامًا بَعْدَ عَامٍ ، حَتَّى إِذَا حَانَ زَمَانُ الْبَحْثِ
فِي أَبْوَابِ الْمِيزَانِيَّةِ وَتَتَابَعَتِ الْفُصُولُ إِثْرَ بَعْضِهَا تَغَيَّرَ شُعُورُ

مَجْلِسِ النُّوَابِ وَانْحَرَفَ ذَلِكَ الْمَيْلُ الْأَوَّلِيُّ وَتَحَرَّكَ الْخُمْسَةُ وَالتَّسْعُونَ
 مُوَظَّفًا بِحَرَكَةٍ شَدِيدَةٍ لَدَافِعَ لَهَا أَمَامَ تِلْكَ الْمِيزَانِيَّةِ الَّتِي هِيَ
 دَجَاجَةُ الْبَيْضِ الذَّهَبِيِّ عِنْدَهُمْ وَقَامُوا يُدَافِعُونَ عَنْ حَوْزَةِ الْمَالِ الَّذِي
 عَاشُوا مِنْهُ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ إِذْ خَرَجُوا مِنْ مَجْلِسِ النُّوَابِ . وَلَهُمْ فِي
 دِفَاعِهِمْ نَصِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْحِرْفِ الْأَدْبِيَّةِ لِأَمْلِهِمْ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ
 رَوَاتِبُ الْمَجْلِسِ أَنْ يَجِدُوا فِي الْحُكُومَةِ مَلْجَأً يَأْوُونَ إِلَيْهِ كَمَا يَفْعَلُ
 فَرُّ الْقِصَّةِ الْمَشْهُورَةِ فِي الْجَبْنَةِ الْهُولَنْدِيَّةِ . وَلَمَّا كَانَتْ الْحِرْفُ الَّتِي
 تُقَدَّمُ الْأَمْوَالُ لِلْحُكُومَةِ أَقَلَّ عَدَدًا فِي الْمَجْلِسِينَ مِنْ الَّتِي تَعِيشُ
 مِنْ ذَلِكَ الْمَالِ يَنْتَهِي الْأَمْرُ بِالْإِقْرَارِ عَلَى الْمِيزَانِيَّةِ وَيُوجَلُّ الْاِقْتِصَادُ
 إِلَى أَجَلٍ غَيْرِ مُسَمًّى ؛ إِلَّا أَنَّ الْأَمْرَ لَا يَنْتَظِي بِالْإِقْرَارِ عَلَى الْمَصْرُوفَاتِ ؛
 لِذَلِكَ يَرْكُضُ^(١) النُّوَابُ نَحْوَ الْاِقْتِرَاضِ وَوَضَعَ الضَّرَائِبَ
 الْجَدِيدَةَ رَغْمًا مِنْ وَعُودِهِمُ الَّتِي وَعَدُوا بِهَا الَّذِينَ اسْتَنَابُواهُمْ وَهَكَذَا
 يَعْظُمُ الْعَجْزُ سَنَةً بَعْدَ أُخْرَى .

الْمَنْفَعَةُ الْعُمُومِيَّةُ تَقُومُ بِتَبْسِيطِ مَصَالِحِ الْحُكُومَةِ وَعَدَمِ الْإِكْتِثَارِ
 مِنْ أَنْوَاعِ فُرُوعِهَا حَتَّى يَسْهَلَ عَلَى النَّاسِ مَعْرِفَةُ جِهَاتِ اشْغَالِهِمْ
 وَتَقْضَى شُؤْنُهُمْ كَمَا يَدْبِغِي فِي زَمَنِ قَصِيرٍ . وَمِنْ مَصْلَحَةِ
 الْمُوظَّفِينَ بَقَاءُ التَّعْقِيدِ الْحَالِيِّ وَهُمْ يَنْجَحُونَ عَلَى الدَّوَامِ فِي تَأْيِيدِهِ

رَغْمًا مِنْ الْمَعَارِضِينَ فِي بَقَائِهِ ، أَوْ عَنْ مَشْرُوعَاتِ الْإِصْلَاحِ الَّتِي
تَقَدَّمُ فِي كُلِّ حِينٍ . أَمَّا فَايْدُهُمْ مِنْ بَقَائِهِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ فَهِيَ أَنْ
التَّعْقِيدَ يَجْعَلُ وُجُودَهُمْ لِأَزْمَا لِحُلِّ مُشْكِلاتِهِ وَيُوسِّعُ اخْتِصَاصَاتِهِمْ
وَيُصَيِّرُ التَّنْقِيبَ ^(١) عَلَيْهِمْ عَدِيمَ الْجِدْوَى ، وَبِهَذَا يَصِيرُونَ أَقْوِيَاءَ
مُسْتَقْلِينَ غَيْرَ مَسْئُولِينَ .

وَمِنْ الْمَنْفَعَةِ الْعُمُومِيَّةِ الَّتِي تَدْخُلُ الْحُكُومَةُ فِي الْأَحْوَالِ
الْخُصُوصِيَّةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْأَفْرَادِ أَوْ بِالْقُرَى كُلِّ وَاحِدَةٍ عَلَى انْفِرَادِهَا
وَأَلَّا تَعُوقَ هِمَمَ الْأَفْرَادِ عَنِ الْعَمَلِ بِمَا يَنْبَغِثُونَ إِلَيْهِ فِي طَلَبِ
مَصَالِحِهِمْ وَأَلَّا يَجِدَهَا الْإِنْسَانُ أَمَامَهُ كَسُورٍ مِنْ حَدِيدٍ يَصُدُّهُ
كَلِمًا تَحْرِكُ يَمِينًا أَوْ شِمَالًا أَوْ كَلِمًا أَرَادَ أَنْ يُدِيرَ بِنَفْسِهِ أَقْلَ الْأَعْمَالِ
أَوْ يُؤَدِّيَ أَقْدَسَ الْوَأَجِبَاتِ . وَمَصْلَحَةُ الْمُوظَّفِينَ ، تَخَالِفُ كُلَّ هَذَا
فَلَا تَقُومُ إِلَّا إِذَا تَدَخَّلُوا فِي كُلِّ شَيْءٍ يَتَعَلَّقُ بِالْقُرَى وَالْعَائِلَاتِ
وَكَأَمَّا تَدَخَّلُوا زَادُوا عِدَدَ الْوظَائِفِ ، وَزِيَادَةُ الْوظَائِفِ تَجْرُزُ زِيَادَةَ
الْمُوظَّفِينَ ، وَهَذَا حَالٌ ضَرَرُهُ عَظِيمٌ خُصُوصًا أَنَّهُ عَامٌ تَشْتَرِكُ فِيهِ
جَمِيعُ الْأَحْزَابِ : فَمِنْ الْخَمْسَةِ وَالتَّسْعِينَ نَائِبًا وَاحِدٌ وَخَمْسُونَ
مِنْ حِزْبِ الْيَمِينِ ، وَأَقْلُ شَيْءٍ نَخْتَلِفُ فِيهِ هُوَ حُبُّنَا جَمِيعًا لِلْمِيزَانِيَّةِ
فِي كُلِّ عَامٍ .

(١) أى تتبع أعمالهم

يُقَالُ إِنَّ كَثْرَةَ عَدَدِ الْمُوظَّفِينَ فِي الشُّورَى غَيْرُ مَعِيبٍ لَانَّهُمْ
أَدَارُوا حُكُومَةَ الْبِلَادِ كُلِّهَا فَكَتَسَبُوا الْخِبْرَةَ التَّامَّةَ فِي أَعْمَالِهَا
وَعَرَفُوا مَا يَضُرُّهَا وَمَا يَنْفَعُهَا، وَأَصْبَحُوا نَوَّابًا مُحْكَمِينَ . وَالْحَقِيقَةُ
أَنَّ خِدْمَةَ الْحُكُومَةِ لَا تُرَبِّي إِلَّا أَشَدَّ الرَّجَالِ الْعُمُومِيِّينَ بَغْضًا عِنْدَ
النَّاسِ لِأَنَّهَا تَقْتُلُ فِي الرَّجُلِ هِمَّتَهُ الذَّائِمَةَ وَالِاسْتِقْلَالَ ، وَتُمِيتُ
شُعُورَهُ بِتَبِعَةٍ ^(١) مَا يَجْرِي عَلَى يَدَيْهِ مِنَ الْأَعْمَالِ ، وَهِيَ الصِّفَاتُ الَّتِي
لَا بَدَّ مِنْهَا فَيَمْنُ تَعَرَّضَ لِسِيَّاسَةِ الْأُمَّةِ . فَإِنَّ كَانَ الْمُوظَّفُونَ مِنْ
الْحِزْبِ الْقَابِضِ عَلَى أَرْمَةِ الْأَحْكَامِ رَأَيْتَهُمْ تَبَعًا لِلْحُكُومَةِ قَدْ أَهْدَوْهَا
اسْتِقْلَالَهُمْ بِمَا يَرْجُونَ مِنْ حِفْظِ مَرَكِزٍ أَوْ نَيْلِ وَظِيفَةٍ عِنْدَهَا .
وَإِنْ كَانُوا مِنْ خُصُومِهِ فَهُمْ أَعْدَاؤُهُ لِأَنَّ خُصُومَهُ يُحَاوِلُونَ
إِسْقَاطَهُ لِكُنَى يَسْقُطُ فَهُمْ ثَوْرِيُونَ طَبَعًا بِمَحْضِ انْتِهَامِ خُصُومِهِ .
ضَعَّ نَفْسَكَ بَيْنَهُمْ تَجِدُهُمْ بَيْنَ أَمْرَيْنِ : إِمَّا الْمَوْتَ أَوْ الْحَيَاةَ ، لِأَنَّ
الْخِدْمَةَ لَمْ تَوْهَلِهِمْ لِكَسْبِ عَيْشِهِمْ بِنَفْسِهِمْ فَاصْبَحُوا وَلَا عَيْشَةَ
لَهُمْ إِلَّا فِي مَخَادِعِ ^(٢) الْوِظَائِفِ الْعُمُومِيَّةِ . إِذَنْ لَا عَجَبَ أَنْ يُحَوَّلُوا
وَجْهَتَهُمْ إِلَى قِبَلَةِ وَاحِدَةٍ أَلَا وَهِيَ خَرَابُ بَصْرَةَ ، أَيْ قَلْبُ حُكُومَةِ
الْخُصُومِ .

لِهَذَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ فِي مَجْلِسِ النُّوَابِ أَغْلَبِيَّةٌ مِنْ أَصْحَابِ
الْمَنَافِعِ الْحَقِيقِيَّةِ فِي الْبِلَادِ حَتَّى تَضُمَّ الْمُوظَّفِينَ وَتَقْصِرَهُمْ عَلَى دَائِرَةِ

(١) يريد المسؤولية (٢) يريد أمكنة

لَا يَظْهَرُ مَعَهَا ضَرَرُهُمْ ، وَيَجِبُ أَنْ تَتَأَلَّفَ تِلْكَ الْأَغْلِيَّةُ مِنْ أَهْلِ
الْحِرْفِ الثَّلَاثِ الَّتِي وَضَعْنَاهَا فِي أَصْلِ الشَّكْلِ الَّذِي قَدَّمْنَاهُ : وَهِيَ
الزَّرَاعَةُ وَالصَّنَاعَةُ وَالتُّجَارَةُ ، وَقَدْ رَأَيْنَا أَنَّ عَدَدَ نَوَابِهَا قَلِيلٌ وَأَنَّهَمْ
لَيْسُوا مِنَ الْأَخْيَارِ .

هَذَا هُوَ عَيْبُ نِظَامِ مُحْكُومَتِنَا ، وَلِذَلِكَ فَالْمُوَازَنَةُ مَفْقُودَةٌ
فِي مَجَالِسِنَا تَدُومُ دَوَامَ الْيَقْطِينِ ^(١) لِأَنَّ الْأَغْلِيَّةَ مُؤَلَّفَةٌ مِنَ الْمَوْظَفِينَ
وَأَهْلِ الْحِرْفِ الْأَدْبِيَّةِ ، فَقَدْ بَلَغَ عَدْدُهُمْ ثَلَاثِمِائَةً وَخَمْسَةَ وَسِتِّينَ
فِي مُقَابِلِ مِائَةٍ وَخَمْسَةِ وَثَلَاثِينَ نَائِبًا عَنِ الْحِرْفِ الْجَارِيَةِ الثَّلَاثِ .
رَأَى الْقُرَاءُ أَنَّ الشَّكْلَ الَّذِي قَدَّمْنَاهُ إِلَيْهَمْ يُشْبِهُ الْحِجَارَةَ الْعَظِيمَةَ
الْمُتَزَعِّزَةَ لِقِيَامِهَا عَلَى أَسَاسِ ضَيْقٍ تَمُوجُ فِي كُلِّ صَوْبٍ ^(٢) لِأَقَلِّ
صَدْمَةٍ تُلَاقِيهَا . أَمَّا تِلْكَ الْأَحْجَارُ الْعَتِيقَةُ فثَابِتَةٌ ، أَعْنِي أَنَّهَا تُقَاوِمُ
تَقَلُّبَاتِ الْحَوَادِثِ رَغْمًا مِمَّا بَهَا مِنَ الْإِهْتِزَازِ وَتَمَرُّ عَلَيْهَا الْأَجْيَالُ
وَهِيَ بَاقِيَةٌ . وَمِنْ سُوءِ حِظَّنَا أَنَّ الْحَالَ لَيْسَ كَذَلِكَ عِنْدَنَا فَالِنِّيَابَةُ
الْمِلِّيَّةُ فِي فَرَنْسَا تَجْرِي مَعَ كُلِّ رِيحٍ تَهْبُ مِنْ جَانِبِ الْأَفْكَارِ
وَتَسْقُطُ إِلَى حَيْثُ تَمِيلُ تَارَةً فِي الشَّمَالِ وَتَارَةً فِي الْيَمِينِ ، فَهَسَمُ
فِي سُقُوطِهَا الْمَنَافِعِ الثَّلَاثِ الَّتِي رَزَحَتْ تَحْتَ أَثْقَالِهَا وَأَمْسَتْ عَاطِلَةً .
مَعَ أَنَّهَا هِيَ الْمَنَافِعُ الْعُمُومِيَّةُ الْحَقِيقِيَّةُ فِي الْبِلَادِ .

(١) اليقطين: ما لاساق له من النبات كالقضاء، وغلب على القرع المستدير وهو المراد هنا

(٢) جهة

الْفَرْقُ بَيْنَ حَالِنَا وَحَالِ الْأُمَّةِ الْإِنْكِلِيزِيَّةِ فِي هَذَا عَظِيمٌ .
تَرَى شَكْلَ نِظَامِ النِّيَابَةِ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ لَا يُمَثِّلُ ذَلِكَ الْحَجَرَ الَّذِي
اِخْتَلَّ مَرَكِزُ ثِقَلِهِ ، وَلَسْكَنُهُ يُمَثِّلُ أَهْرَامَ الْفِرَاعِنَةِ ذَوَاتِ التَّوَاعِدِ
الْعَرِيضَةِ الْقَوِيَّةِ . هُنَاكَ تَرَى نِسْبَةَ التَّوَاظُنِ مَرْعِيَّةً ، وَكُلُّ عُنْصُرٍ
مِنْ عُنَاصِرِ الْأُمَّةِ مُسْتَوِيًّا فِي مَكَانِهِ وَنِسْبَةِ تَغْيِيرِهِ عَلَى قَدْرِ الْمَنْفَعَةِ
الْعُمُومِيَّةِ الَّتِي يُشَخِّصُهَا ، وَتَرَى الْحِرْفَ الْأَدَبِيَّةَ قَدْ انْحَصَرَتْ
فِي دَائِرَةٍ مَقْبُولَةٍ ، فَزَالَ شَرُّهَا بَلْ صَارَتْ كَمَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ
زُخْرَفًا مَلِيًّا وَرُكْنًا مُهِمًّا مِنْ أَرْكَانِ التَّقَدُّمِ فِي الْأَفْكَارِ وَالْآدَابِ
وَمُلْطَفًا لِمَا عَسَاهُ يَتَأْتِي مِنَ الْإِفْرَاطِ مِنْ جَانِبِ أَهْلِ الْحِرْفِ الْجَارِيَةِ .
الضَّرَرُ عِنْدَنَا كُلُّ الضَّرَرِ مِنْ أَنَّهُ لَمْ يُعَدِّ لَنَا نُوَابٌ طَبِيعِيُّونَ .
وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ مِنَ النَّائِبِ الطَّبِيعِيِّ فَاقْرَأْ مَا كَتَبَهُ (تَاين)
(مُذَكَّرَاتٍ عَلَى إِنْكَلِتْرِهِ صَحِيفَةً ٢١٧ إِلَى ٢١٨) حَيْثُ يَقُولُ :
« إِنَّا لَنَعَجَبُ بِاسْتِقْرَارِ الْحُكُومَةِ الْإِنْكِلِيزِيَّةِ ، وَلَسْكَنَ لَا عَجَبَ
لِأَنَّهَا الْخُلَاصَةُ الطَّبِيعِيَّةُ لِتِلْكَ الْعُنَاصِرِ الْحَيَّةِ الَّتِي عَلِقَتْ بِالْأَرْضِ فِي
جَمِيعِ أَنْحَاءِ الْبِلَادِ ، وَإِذَا فَرَضْنَا أَنَّ الْحَرَكَةَ ثَوْرِيَّةً كَحَرَكَةِ
اللُّوزِذِ غَرْدُونَ قَامَتْ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ وَادَّارَتْهَا يَدَا كَثْرٍ تَجَارِبٍ وَأَمَهْرٍ
سِيَّاسَةً ، وَأَضْفْنَا إِلَيْهَا مَطَالِبَ الْفَوْضَوِيِّينَ ، وَضَعَمْنَا إِلَيْهِمَا جَالَ الْجَيْشِ -
وَإِنْ كَانَ مُحْتَالًا - وَحَسَبْنَا أَنَّ النَّيْجَةَ الْعَاجِلَةَ الْكَلِمَةَ هِيَ تَقْوِيضُ
أَرْكَانِ الْمَجْلِسِينَ وَحَقُّ أَثَارِ الْعَائِلَةِ الْمَلِكِيَّةِ ، ثُمَّ إِذَا نَظَرْنَا إِلَى الْبِلَادِ

بَعْدَ ذَلِكَ رَأَيْنَا أَنَّ قِمَّةَ الْحُكُومَةِ هِيَ الَّتِي دَفَّتْ آثَارَهَا وَمَادُونَهَا
بَاقٍ لَمْ يَمْسَسْهُ سُوءٌ، لِأَنَّكَ تَجِدُ فِي كُلِّ قَرْيَةٍ وَكُلِّ وَايَةٍ عَائِلَاتٍ
ثَابِتَةً الدَّعَائِمِ تَجْتَمِعُ حَوْلَهَا عَائِلَاتٌ مِثْلُهَا، وَرَجَالًا ذَوِي مَكَانَةٍ
رَفِيعَةٍ مِنَ الْمُهَذَّبِينَ وَأَهْلٍ الْأَحْسَابِ تَبِعْتُهُمْ هَمَّهُمْ إِلَى قِيَادَةِ
الزَّمَانِ وَالتَّقَدُّمِ إِلَى الْإِمَامِ وَاللِّنَّاسِ فِيهِمْ ثِقَةٌ فَيَتَّبِعُونَهُمْ لِأَنَّهُمْ أَبْنَاءُ
بِحَدِّهَا (١) بِمَا عُرِفُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ مِنْ عُلُوِّ الْمَنْزِلَةِ وَسَعَةِ الْمَالِ وَسَابِقِ
الْخِدْمِ، وَبِمَا أُوتُوا مِنَ التَّرْبِيَةِ وَحَازُوا مِنَ النُّفُوزِ، وَمِنْهُمْ الضَّبَّاطُ
وَالْقَوَادِ الَّذِينَ تَلْتَفُّ حَوْلَهُمُ الْجُنُودُ الْمُشْتَتَةُ فَيَرْجِعُ الْجَيْشُ عَلَى
الْفُورِ إِلَى نِظَامِهِ، بِخِلَافِ الْأُمَّةِ الْفِرَنْسَاوِيَّةِ فَإِنَّ أَوَاسِطَ النَّاسِ فِيهَا
وَالْفَعْلَةَ وَالشُّرَفَاءَ وَأَهْلَ الْأَرْيَافِ كُلِّ يَحْذَرُ رَفِيقَهُ، وَكُلُّهُمْ مُتَخَافُونَ
مُتَبَاغِضُونَ خَائِفُونَ، وَلَا رَأْسَ إِلَّا الْمُوظَّفُونَ الَّذِينَ هُمْ عَنْهُمْ أَجْنَبِيُّونَ
وَالَّذِينَ هُمْ فِي وِظَائِفِهِمْ وَأَجْفُونَ (٢) مُوقَّتُونَ، وَالَّذِينَ لَا يُطِيعُهُمْ
أَحَدٌ إِلَّا طَاعَةَ الْخَوْفِ بِلَا مَيْلٍ قَلْبِي وَلَا أَحْتِرَامٍ شَخْصِيٍّ، قَدْ
أَحْتَمَلَهُمُ الْمَحْكُومُونَ وَهُمْ فِي أَحْتِمَالِهِمْ مُسِيرُونَ لَا مُخِيرُونَ، هَكَذَا
كَانَتْ حُكُومَةُ الْإِنْكَلِيزِ ثَابِتَةً لِأَنَّ لِلْإِنْكَلِيزِ نُوَابًا طَبِيعِيِّينَ .
وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ صَحِيفَةً (١٩٠) « لَيْسَتْ الْمُدُنُ فِي بِلَادِ الْإِنْكَلِيزِ،
كَمَا هِيَ عِنْدَنَا، الْمَوْطِنُ الْمُخْتَارُ . فَإِنَّا إِذَا اسْتَشْنَيْنَا الْمُدْنَ الصَّنَاعِيَّةَ

(١) نقول عنده بحجة ذلك: أى علمه. ومنه يقال: هو ابن بجدتها للعالم بالشيء المتقن له

المميز له (٢) مضطربون

لَا نَرَى أَحَدًا يَسْكُنُ عَوَاصِمَ الْأَرْيَافِ مِثْلَ مَدِينَةِ يُورِكِ إِلَّا
 الْبِيَاعِينَ الشَّرَائِينَ . أَمَّا خِلَاصَةُ الْأُمَّةِ وَعُظْمَاؤُهَا فَبَعِيدًا عَنِ الْمُدُنِ
 يَسْكُنُونَ وَمُقَامُهُمُ الضِّيَاعُ وَالْأَرْيَافُ حَتَّى إِنْ مَدِينَةٌ لَوْ نَدَّرَهُ نَفْسَهَا
 أَصْبَحَتْ مُلْتَقَى أَهْلِ الْأَعْمَالِ لَا مَوْطِنًا لِأَكْبَرِ الرَّجَالِ .
 مَا أَسْعَدَ الْأُمَّمَ الَّتِي أَسْنَدَتْ ظَهْرَهَا إِلَى نُوَابِهَا الطَّبِيعِيِّينَ فَتَمَكَّنَتْ
 بِذَلِكَ مِنْ إِجْمَادِ النَّسَبَةِ بَيْنَ عُنَاصِرِهَا فِي النِّيَابَةِ الْمَلِيَّةِ .

الفصل الثاني

﴿ السَّبَبُ فِي أَنْ الْإِنْكِلَازَ السَّكْسُونِيِّينَ ﴾

(أَبْعَدُ عَنْ مَذْهَبِ الْإِشْتِرَاكِيِّينَ مِنَ الْأَلْمَانِيِّينَ وَالْفَرَنْسَاوِيِّينَ)
 لِحَوَادِثِ الْأَجْمَاعِيَّةِ كَالنَّبَاتِ لِكُلِّ نَوْعٍ مِنْهَا مَنبَتٌ مَخْصُوصٌ
 يَظْهَرُ فِيهِ، وَالْبَذْرَةُ الْوَاحِدَةُ لَا تَنْبُتُ فِي جَمِيعِ الْأَقَالِيمِ بِكَيْفِيَّةِ
 وَاحِدَةٍ، بَلْ لِلْوَسَطِ تَأْثِيرٌ فِيهَا كَمَا أَنَّ لَهُ تَأْثِيرًا فِي كُلِّ شَيْءٍ .
 وَمَذْهَبُ الْإِشْتِرَاكِيِّينَ لَمْ يَشِدَّ عَنْ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ، وَمِنْ
 الْوَاجِبِ أَنْ نَعْرِفَ تَارِيخَهُ كَمَا يَنْبَغِي حَتَّى نَقِفَ عَلَى حَقِيقَةِ ذَلِكَ
 الْمَذْهَبِ وَتَرْقِيهِ .

أصلُ نشأة مذهبِ الاشتراكيينِ وأوّلُ تكوِينِهِ كانَ في البلادِ الألمانيةِ ، فَنَمِيهَا مِنْبَعُهُ وَمِنْهَا انْتَشَرَ في بَقِيَّةِ أَرْجَاءِ الْمَسْكُونَةِ . ذلكَ ما أجمَعَ عَلَيْهِ الْإشْتِرَاكِيُّونَ وَالَّذِينَ كَتَبُوا عَلى مَذْهَبِهِمْ قالَ مُوسِيُو (دولافلى) في كتابِهِ (مذهبِ الْإشْتِرَاكِيِّينَ في الْعَصْرِ الْحَاضِرِ) صَفْحَةَ (٥) تَقْلاً عَن (باعبرجر) أَحَدِ النُّوَابِ الْأَلْمَانِيِّينَ ما نَصَّهُ :

« مِنْ الْغَرِيبِ أَنْ أَفْكَارَ الْإشْتِرَاكِيِّينَ لَمْ تَجِدْ مَجْالاً في أَىِّ بِلَدٍ كما وَجَدْتَ في أَلْمانيا ، فَإِنَّها لَمْ تَقْتَصِرْ عَلى الْفَعْلَةِ بَلِ انْجَذَبَتْ إِلَيْها الطَّبَقَةُ الوُسْطَى حَتَّى سَمِعْنَا أَهْلَها مِراراً يَقُولُونَ : رُبَّمَا صَارَ الْحالُ أَحْسَنَ مِمَّا هُوَ الآنَ إِذا جَرى الْعَمَلُ بِالمَذْهَبِ المُشارِ إِلَيْهِ ، وَأَنَّهم لا يَرُونَ سَبَباً يَمْنَعُ مِنَ التَّجْرِبَةِ . وَقَدْ اخْتَرَقَ ذلكَ المَذْهَبُ الطَّبَقَاتِ الْعالِيَةَ في الأُمَّةِ وَدَخَلَ في جَمعِيَّةِ المَعارِفِ وَاسْتَوَى ^(١) عَلى كِراسِي المُدْرَسِينَ . وَالْعاماءُ هُمُ الَّذِينَ رَفَعُوا أَصْواتَهُمْ بِالشَّكْوَى مِنَ الْحالَةِ الْحاضِرَةِ ، فَتَبِعَهُمُ جَمعِيَّاتُ الْفَعْلَةِ وَالصُّنَّاعِ ، وَالْحافِظُونَ هُمُ الَّذِينَ نَدَّوْا بِالِاخْتِصاصِ بِالْأَمْلَاقِ ، وَنادَوْا بِالوَيْلِ عَلى رَأْسِ المِمالِ ، وَلَسْنَا نَرى نَظيراً لِذلكَ في بِلَدٍ آخَرَ » وَقالَ في مُقَدِّمَةِ ذلكَ الْكِتابِ تَقْلاً عَن نائِبِ أَلْمانيِّ آخَرَ في كِلامٍ لَهُ أَمامَ مَجْلِسِ النُّوَابِ ما يَأْتِي : « لَقَدْ حَطَّ جَيْشُ مَذْهَبِ الْإشْتِرَاكِيِّينَ رِحالَهُ في الْبِلادِ الْأَلْمانيَّةِ وَتَرَبَّى عِنْدنا التَّرْبِيَّةُ الْفَلَسَفيَّةُ وَالْعامِيَّةُ » .

وَفِي الْوَأَقَعِ يَجِدُ الْبَاحِثُ فِي الْمَانِيَا جَمِيعَ شَيْعِ هَذَا الْمَذْهَبِ: فَمِنْهُمْ
 الثَّوْرِيُونَ وَمِنْهُمْ الْمُحَافِظُونَ وَمِنْهُمْ الْإِنْجِيلِيُّونَ ^(١) وَالْكَاثُولِيكِيُّونَ
 وَالْمُدْرَسُونَ فِي الْمَدَارِسِ . وَهَذَا الْإِنْتِشَارُ يَدُلُّ بِذَاتِهِ عَلَى أَنَّ جَوْ
 الْبِلَادِ الْأَلْمَانِيَّةَ يُلَاحِظُ هَذِهِ الْمَذَاهِبَ وَيُسَاعِدُ عَلَى انْتِشَارِهَا وَهُوَ
 يَظْهَرُ كَثِيرًا أَيَّامَ الْإِنْتِخَابَاتِ ، فَلِلثَّوْرِيِّينَ مِنْ أَهْلِهِ قِسْمٌ كَبِيرٌ
 فِي مَجْلِسِ النُّوَابِ وَكَانَ عَدَدُ الْأَصْوَاتِ الَّتِي أَصَابَتْ الْمُرَشَّحِينَ
 مِنْهُمْ فِي الْإِنْتِخَابَاتِ الْأَخِيرَةِ قَرِيبًا مِنْ مِائِيْنَ وَنِصْفِ مِائِيْنَ ، فَإِذَا
 أَضْفْنَا إِلَيْهِمْ أَهْلَ الْفَرَقِ الْأُخْرَى كَانَتْ الْأَغْلِيَّةُ فِي مَجْلِسِ النُّوَابِ
 الْأَلْمَانِيِّ لِلْإِشْتِرَاكِيِّينَ .

تَخْتَلِفُ فِرَقُ الْإِشْتِرَاكِيِّينَ فِي مَقَاصِدِهَا وَمَطَاطَبِهَا ، إِلَّا أَنَّهُا
 مُتَّفَقَةٌ كُلُّهَا عَلَى أَمْرٍ وَاحِدٍ هُوَ لُبُّ الْمَذْهَبِ وَرَأْيُهُ الَّتِي تَخْفُقُ فَوْقَ
 رَأْسِ الْجَمِيعِ وَعَلَامَتُهُ الْخَاصَّةُ ، وَهُوَ وَجُوبُ حَلِّ جَمِيعِ الْمَسَائِلِ
 الْإِجْتِمَاعِيَّةِ بِالْقَانُونِ أَوْ بِتَدْخُلِ الْحُكُومَةِ ، فَكُلُّهَا تُعَلِّلُ النَّفْسَ
 بِحُكُومَةٍ تَقَرَّرُ طَرِيقَةَ الشُّغْلِ وَتُحَدِّدُ الْمِلْكِيَّةَ وَتَقْدُرُ الْأَجُورَ
 وَتَتَكَفَّلُ بِإِسْعَادِ الْأُمَّةِ فِي مَجْمُوعِهَا وَفِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا مُفْرَدًا
 بَحَيْثُ نَصِيرُ الْحُكُومَةِ رَأَيْسًا عَامًّا لِلْكُلِّ . وَبِالْجُمْلَةِ فَالْحُكُومَةُ
 هِيَ كَعَبَةُ الْأَمَالِ الْجَدِيدَةِ الَّتِي يَحْجُجُ إِلَيْهَا الْإِشْتِرَاكِيُّونَ عَلَى اخْتِلَافِ
 مَشَارِبِهِمْ . وَلِكِنِّي يَتَبَيَّنُ هَذَا نَأْتِي عَلَى طَرَفٍ مِنْ أَحْوَالِ كُلِّ فَرِيقٍ :

(١) يريد البروتستانت أتباع لوتر

أَقْرَبُهُمْ إِلَى الْمَعْقُولِ هُمُ الثَّوْرِيُّونَ لِأَنَّهُمْ يَذْهَبُونَ بِرَأْيِهِمْ إِلَى آخِرِ مَا يُؤَدِّي إِلَيْهِ ، وَتَكَادُ الْفِرْقُ الْأُخْرَى لَا تَعْمَلُ إِلَّا لِحُدُومَتِهِمْ ، إِذْ مِنْ عَادَةِ الْفِكْرِ الْإِنْسَانِيِّ مَتَى قُدِفَ بِهِ فِي مُنْحَدَرٍ أَنْ يَسِيرَ حَتَّى يَبْلُغَ النَّهْيَةَ ، وَهَذَا هُوَ السَّبَبُ فِي ازْدِيَادِهِمْ عَلَى الدَّوَامِ . وَمِنْ بَيْنِهِمْ نَبَغَ أَسْتَاذُ مَذْهَبِ الْإِشْتِرَاكِيِّينَ الْحَالِي الَّذِي أَكْمَلَ مَبَانِيَهُ وَكَانَ لِرَأْيِهِ تَأْثِيرٌ فِي جَمِيعِ الْفِرَقِ حَتَّى الْمُحَافِظِينَ وَالْمُدْرَسِينَ وَهُوَ (كارل مركس) وَرَأْيُهُ مَبْسُوطٌ فِي كِتَابِهِ الْمُسَمَّى (رَأْسُ الْمَالِ) كِتَابٌ كُلُّهُ قَضَايَا عَقْلِيَّةٌ كَقَضَايَا الْحِسَابِ ، بَلْ هُوَ أَصْعَبُ مِنْهَا قِرَاءَةً وَأَتَعَبُ فَهْمًا . وَمَبْنَى طَرِيقَتِهِ عِدَّةُ اسْتِنْتِجَاتٍ مُتَرْتَبَةٍ عَلَى حُدُودٍ وَتَعَارِيفٍ وَفَرَضِيَّاتٍ وَحَدْسِيَّاتٍ ^(١) . فَبِإِحْدَى الْقَضَايَا يَهْدِمُ الْمُجْتَمَعُ الْإِنْسَانِيَّ الْحَاضِرَ ، وَبِثَانِيَةٍ يَبْنِيهِ عَلَى أُسٍّ جَدِيدٍ . وَمِنْ رَأْيِهِ (أَنْ الْعَمَلُ هُوَ الْوَحْدَةُ الْحَقِيقِيَّةُ الَّتِي يُمَكِّنُ تَقْدِيرَ قِيَمَةٍ جَمِيعِ الْمَصْنُوعَاتِ بِحَسَبِهَا وَمَعْرِفَةَ الْفِرْقِ بَيْنَ بَعْضِ الْأَنْوَاعِ وَبَعْضِهَا) .

إِذَنْ فَالْعَمَلُ - وَإِنْ شِئْتَ فَقُلِ الْعَامِلُ - هُوَ الَّذِي يُوجَدُ رَأْسَ الْمَالِ . وَعَلَيْهِ فَرَأْسُ الْمَالِ ، كَمَا وَجَدَ الْيَوْمَ ، إِنَّمَا هُوَ نَتِيجَةُ تَعَدُّ وَاعْتِصَابٍ . وَمِنْ هُنَا وَجَبَ رَدُّ الْمَالِ لِمَالِكِهِ الْحَقِيقِيِّ ، وَالْمَالِكُ الْحَقِيقِيُّ هُوَ جَمْعُ الْفَعْلَةِ وَالْعَمَالِ أَعْنَى أَنَّهُ يَجِبُ رَدُّ الْمَالِ إِلَى الْجَمْعِيَّةِ ذَاتِهَا

وَهِيَ الْكُلُّ . وَهَكَذَا أَخَذَ الْمُؤَلِّفُ يَتَرَقَّى مِنْ رُتْبَةٍ إِلَى رُتْبَةٍ حَتَّى انْتَهَى بِاعْتِبَارِ الْحُكُومَةِ رَئِيسًا عَامًّا هُوَ الَّذِي عَلَيْهِ إِدَارَةُ الْعَمَلِ كُلِّهِ وَتَقْسِيمُ ثَمَرَتِهِ بَيْنَ الْجَمِيعِ بِالْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ . وَقَدْ تَلَقَّى الْإِشْتِرَاكِيِّونَ الثَّوْرِيَّونَ هَذِهِ الْمَبَادِيءَ وَاسْتَخْلَصُوا مِنْهَا طَرِيقَةً قَرَّرُوهَا بَيْنَهُمْ سَنَةَ ١٨٧٧ فِي مُؤْتَمَرِ « غُوطَا » . وَإِلَيْكَ أَهَمُّ مَا تَقَرَّرَ :

« إِنَّ الْعَمَلَ مَنْعُ كُلِّ ثَرَوَةٍ وَكُلِّ تَمَدُّنٍ ، وَلَمَّا كَانَ الْعَمَلُ الْعَامُّ الْمُفِيدُ لَا يَتَيَسَّرُ إِلَّا لِلْأُمَّةِ كُلِّهَا فَالثَّمَرَةُ كُلُّهَا مِلْكٌ لَهَا أَيُّ جَمِيعِ أَفْرَادِهَا وَلِكُلِّ وَاحِدٍ الْحَقُّ فِي نَصِيبٍ يُنَاسِبُ حَاجَاتِهِ الَّتِي يَقْبَلُهَا الْعَقْلُ ، وَعَلَى الْجَمِيعِ أَنْ يَعْمَلُوا .

إِنَّ آلَاتِ الْعَمَلِ فِي الْهَيْئَةِ الْحَاضِرَةِ مُحْتَكِرَةٌ بَيْنَ أَيْدِي ذَوِي الْأَمْوَالِ ؛ وَمِنْ ذَلِكَ كَانَ الْفَعْلَةُ مُسَيَّرِينَ بِأَمْرِهِمْ ؛ وَهَذَا هُوَ السَّبَبُ فِي الشَّقَاءِ وَالِاسْتِعْبَادِ عَلَى اخْتِلَافِ طُرُقِهِ وَأَحْوَالِهِ . وَعَتَقُ^(١) النَّاسَ مِنْ هَذَا الْحَالِ يَقْتَضِي أَنْ تَصِيرَ تِلْكَ الْآلَاتُ كُلُّهَا مِلْكًا عَامًّا لِلْهَيْئَةِ بِتَمَامِهَا ، وَعَالِيهَا أَنْ تَضَعَ نِظَامًا جَمِيعِ الْأَعْمَالِ وَأَنْ يَكُونَ عَمَلُ الْكُلِّ لِمَنْفَعَةِ الْكُلِّ وَأَنْ تُقَسَّمِ الثَّمَرَةُ عَلَى الْجَمِيعِ بِلاَ غَبْنٍ^(٢) وَلَا تَمَيِّزٍ . » .

(١) يريد تحريرهم (٢) غبنه في البيع: خدعه، فهو من هذا

أَمَا كَيْفِيَّةُ الْإِجْرَاءِ فِي الْهَيْمَةِ الْجَدِيدَةِ الَّتِي يَطْلُبُونَهَا فَهِيَ أَنْ يَصِيرَ كُلُّ فَرْدٍ عَامِلًا فِي عَمَلٍ حَيْثُ كَانَ، وَيُعْطَى لِكُلِّ عَامِلٍ أَجْرُهُ عَلَى كُلِّ عَمَلٍ أَتَمَّهُ بِاعْتِبَارِ مُتَوَسِّطِ السَّاعَاتِ الَّتِي تَلْزَمُ إِتْمَامَ ذَلِكَ الْعَمَلِ وَيُدْفَعُ لَهُ فِي ذَلِكَ وَتَوَائِقُ تَدُلُّ عَلَى عَمَلِهِ لِيَسْتَبَدَلَ بِهَا مَا يُرِيدُ مِنَ الْمَصْنُوعَاتِ، وَتُوضَعُ هَذِهِ الْمَصْنُوعَاتُ فِي مَخَازِنِ عُمُومِيَّةٍ يُصْرَحُ لِلْمُوكَلِّينَ بِهَا بِاسْتِبْدَالِ الْبَضَائِعِ بِالْوَتَائِقِ وَالْوَتَائِقِ بِالْبَضَائِعِ. وَتَصِيرُ الْعَقَارَاتُ بِأَنْوَاعِهَا مِلْكَاً لِلْحُكُومَةِ وَيَعِيشُ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنَ الْعَمَلِ أَوْ الْوُضَيْفَةِ الَّتِي كَلَّفَ إِيَّاهَا فَلَا يَدْخِرُ الرَّجُلُ إِلَّا الْيَسِيرَ وَلَا يَتْرُكُ لِرِوَرْتِهِ إِلَّا مَا كَانَ مَالاً مَنْقُولاً.

وَأَشْهُرُ رُؤَسَاءِ فَرِيقِ الْإِشْتِرَاكِيِّينَ الثَّوْرِيِّينَ فِي هَذَا الْحِينِ ثَلَاثَةٌ هُمْ مُوسِيُو « بيبيل » و « لبيكنخت » و « فولمار » وَالْأَوَّلُ كَانَ صَانِعاً يَبْدُهُ فِي أَحَدِ الْمَعَامِلِ، وَالثَّانِي مِنْ أَهْلِ الطَّبَقَةِ الْوَسْطَى، وَالثَّلَاثُ مِنْ أَقْدَمِ الْعَائِلَاتِ الْعَظِيمَةِ فِي بِلَادِ « بافير » وَكَانَ مِنْ ضَبَاطِ الْجَيْشِ الْأَلْمَانِيِّ وَالْجَيْشِ الْبَابَوِيِّ. وَأُولَئِكَ الرُّؤَسَاءُ الثَّلَاثَةُ يُشَخَّصُونَ حَقِيقَةَ مَذْهَبِ الْإِشْتِرَاكِيِّينَ فِي الْأَمَانِيَا كَمَا يَنْبَغِي وَيَدُلُّونَ عَلَى أَنَّ جُذُورَهُ تَمْتَدُّ فِي أَعْمَاقِ الطَّبَقَاتِ النَّازِلَةِ وَتَتَشَرُّهُ فُرُوعُهُ بَيْنَ الْأَوَاسِطِ حَتَّى تَصِلَ أَعْلَى دَرَجَةِ فِي النَّاسِ. وَقَدْ أَصْبَحَتْ الْأَمَانِيَا مُتَشَبِعَةً بِهَذَا الْمَذْهَبِ مِنْ تَحْتِهَا وَمِنْ فَوْقِهَا عَلَى اخْتِلَافٍ

فِي الدَّرَجَةِ وَتَفَاوُتٍ فِي قُوَّةِ الإِنْتِشَارِ . وَمَعَ هَذَا فَمُرِيدُو^(١) الطَّائِفَةِ
الثَّوْرِيَّةِ هُمْ مِنَ الطَّبَقَةِ النَّازِلَةِ إِلاَّ قَلِيلاً ، وَأَمَّا الأَوْاسِطُ والأَشْرَافُ
فَإِنَّهُمْ يُفَضَّلُونَ الطَّوَائِفَ الأُخْرَى لِأَنَّهَا أَكْثَرُ اعْتِدَالاً وَهِيَ الَّتِي
بَقِيَ الكَلَامُ عَلَيْهَا .

قَدَمْنَا أَنَّهُ يُوجَدُ فِي المَانِيَا بَيْنَ فِرْقِ الإِشْتِرَاكِيِّينَ فِرْقَةٌ تُسَمَّى
بِالمُحَافِظِينَ ، وَلا حَظَّ مُوسِيُو « دَوْلَا قِي » صَفْحَةَ (٣٣) أَنْ كَامَتِي
إِشْتِرَاكِيِّينَ وَمُحَافِظِينَ مُتَمَافِرَتَانِ ، لِأَنَّ الإِشْتِرَاكِيَّ يَرْمِي إِلَى هَدْمِ
مَا بَنَاهُ المُحَافِظُ وَمَعَ هَذَا فَقَدْ وَجِدَ حِزْبٌ اتَّخَذَ الكَلِمَتَيْنِ اسْمًا لَهُ !
وَلَيْسَ مِنَ المُجَازِفَةِ^(٢) أَنْ تَقُولَ : إِنْ أَشْهَرَ رَئِيسَ لَهُ هُوَ البَرَنْسُ
دِي بِسِمَارِكٍ عَلَى نَوْعٍ مَّا . وَلا تَذْهَبُ هَذِهِ الفِئَةُ كَسَابِقَتِهَا إِلَى
وَجُوبِ القَاءِ آلا تِ العَمَلِ كُهَا بَيْنَ يَدَيِ الحُكُومَةِ ، وَإِنَّمَا يَصْدُقُ
عَلَيْهَا اسْمُ الإِشْتِرَاكِيِّينَ لِأَنَّهَا تَذْهَبُ إِلَى حَلِّ جَمِيعِ العَسَائِلِ
الإِجْتِمَاعِيَّةِ بِوَضْعِ نِظَامٍ مُحْكَمٍ وَزِيَادَةِ تَدْخُلِ الحُكُومَةِ حَتَّى
تَصِيرَ مَنُوطًا^(٣) بِهَا إِدَارَةُ العَمَلِ وَتَقْدِيرُ الأَجُورِ وَسَنُ القَوَاعِدِ
جَمِيعِ طُرُقِ الإِنْتِاجِ وَالتَّحْصِيلِ ، وَرَجَالَ هَذِهِ الفِئَةِ هُمْ فِي الغَالِبِ
مِنَ الأَوْاسِطِ الَّذِينَ يَخَافُونَ مِنْ مَذْهَبِ الثَّوْرِيِّينَ وَيُرِيدُونَ
الْهَرَبَ مِنْ غَائِلَتِهِمْ^(٤) بِدَفْعِ الأُمَّةِ كُهَا إِلَى حِمَى الحُكُومَةِ كَأَنَّهُمْ

(١) يريد أتباع (٢) جازف في كلامه: أى تكلم من غير قانون وبدون تبصر ، وهو من
المجازفة في البيع والجزاف هو البيع والشراء بلا وزن ولا كيل وعلى التخمين (٣) معلقا (٤) نشرهم

يَقُولُونَ لَهَا (اَعْمَلِي أَنْتِ مَا هُمْ عَامِلُونَ إِنَّ فِي ذَلِكَ نَجَاتَنَا أَجْمَعِينَ)
 وَكُلُّهُ يَعْلَمُ مُسَارَعَةَ إِمْبْرَاطُورِ الْمَانِيَا الشَّابِّ الَّذِي يَرَى أَنَّهُ خَيْرٌ
 بِكُلِّ شَيْءٍ إِلَى تَلْبِيَةِ^(١) هَذَا النَّدَاءِ ، لِذَلِكَ آتَى بِمُظَاهَرَاتٍ عِدَّةٍ كَانَتْ
 عَقِيمَةً الْعَاقِبَةَ بِعِقْدَارِ مَا دَوَّتْ^(٢) فِي الْأَرْجَاءِ ، وَهُوَ الْيَوْمَ الرَّئِيسُ
 لِحِزْبِ الْإِشْتِرَاكِيِّينَ الْمُحَافِظِينَ .

وَأَمَّا فِتْنَةُ الْإِشْتِرَاكِيِّينَ الْإِنْجِيلِيِّينَ فَسُمِّيَتْ كَذَلِكَ لِأَنَّ
 رُؤَسَاءَهَا مِنْ رِعَاةِ الْكَنِيسَةِ الرَّسْمِيَّةِ ، وَقَدْ قَامَتْ كَالَّتِي قَبْلَهَا لِتَوْبِيْدِ
 الْمَلِكِيَّةِ فِي الْأَذْهَانِ وَتَسَاعُدِ عَلَى انْتِشَارِ نُفُوزِ الْمَلِكِ ، مُتَذَرِّعَةً^(٣)
 فِي ذَلِكَ بِمَذْهَبِ الْإِشْتِرَاكِيِّينَ . وَهِيَ أَيْضًا تَطْلُبُ حَلَّ الْمَسَائِلِ
 الْإِجْتِمَاعِيَّةِ مِنَ الزِّيَادَةِ فِي وَظِيْفَةِ الْحُكُومَةِ وَتَأْيِيدِ تَدْخُلِهَا حَتَّى
 تَكُونَ الرَّئِيسَ الْعَامَّ لِجَمِيعِ النَّاسِ . وَإِلَيْكَ طَرَفًا مِنْ مَقَاصِدِهَا :
 (إِنْ حِزْبَ الْفَعْلَةِ الْإِشْتِرَاكِيِّينَ الْمَسِيحِيَّ مُؤَسَّسٌ عَلَى الْإِعْتِقَادِ
 الدِّينِيِّ وَالْوَلَاءِ لِلْمَلِكِ وَالْوَطَنِ ، وَهُوَ يَطْلُبُ مِنَ الْحُكُومَةِ إِيجَادَ
 طَوَائِفَ لِلْجِرْفِ مُمْتَازَةٍ بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ بِحَيْثُ يَكُونُ لِكُلِّ مِنْهَا
 نِظَامٌ قَانُونِيٌّ فِي جَمِيعِ الْمَمْلَكَةِ ، وَيَكُونُ مِنْ مُقْتَضَى ذَلِكَ النِّظَامِ
 تَحْدِيدُ يَدِشْرُوطِ الْإِحْتِرَافِ تَحْدِيدًا دَقِيقًا ، وَأَنْ تُشَكَلَ مَجَالِسٌ تُحْكِمُ
 تَكُونُ قَرَارَاتُهَا نَافِذَةً عَلَى أَصْحَابِ الشَّأْنِ فِيهَا ، وَأَنْ تُنْشَأَ صِنَادِيقٌ

(١) إجابة (٢) صار لها دوى (٣) متوسلة

لِإِعَانَةِ الْأَرَامِلِ وَالْيَتَامَى وَعَجْزَةِ الْعَمَلِ ، وَأَنْ تُحَدِّدَ سَادَاتُ الشُّغْلِ
عَلَى حَسَبِ طَبِيعَةِ الْعَمَلِ ، وَأَنْ تُسْتَعْلَمَ (٣) أُمْلَاكُ الْحُكُومَةِ وَأُمْلَاكُ
الْقُرَى لِفَائِدَةِ الْفَعْلَةِ ، وَيُزَادَ عَلَى تِلْكَ الْأُمْلَاكِ كَمَا كَانَ ذَلِكَ مُفِيدًا
مِنَ الْجِهَتَيْنِ الْاِقْتِصَادِيَّةِ وَالْفَنِيَّةِ ، وَأَنْ يُضْرَبَ عَلَى الْإِيرَادِ خَرَجٌ
يَتَرَفَّقُ بِزِيَادَتِهِ ، وَأَنْ يُضْرَبَ رَسْمٌ عَلَى التَّرِكَاتِ يَتَرَفَّقُ بِحَسَبِ أَهْمِيَّتِهَا
وَبَعْدَ قَرَابَةِ الْوَارِثِ مِنَ الْمَتُوفِي .

فَأَقْصَى مَا يَتَخَيَّلُهُ هَذَا الْحِزْبُ هُوَ أَنْ يُحْكَمَ الْبِلَادَ مُسْتَبَدِّ
عَادِلٌ تَكُونُ سَعَادَةُ الْكُلِّ فِي سِيَادَتِهِ .

وَأَمَّا فَتَةُ الْاِشْتِرَاكِيِّينَ الْكَاثُولِيكِيِّينَ فَكَثِيرَةٌ الْعَدَدِ ، وَتَأَلَّفَتْ
عَلَى إِثْرِ الْكِتَابِ الَّذِي نَشَرَهُ مُوسِيُو (كَتْلِير) قَسُّ (مِيَانِس)
وَسَمَّاهُ (مَسْأَلَةُ الْفَعْلَةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ) وَكَانَ لَهُ شَأْنٌ كَبِيرٌ فِي الْبِلَادِ
الْأَلْمَانِيَّةِ ، وَقَدْ تَقَلَّ فِي كِتَابِهِ هَذَا كَثِيرًا عَنِ (لَاسَال) الْاِشْتِرَاكِيِّ
وَتَخَلَّصَ مِثْلَهُ إِلَى وُجُوبِ تَأْسِيسِ شَرِكَاتٍ لِلتَّعَاوُنِ وَالْعَمَلِ يَكُونُ
الْفَرْضُ مِنْهَا وَضَعُ رَأْسِ الْمَالِ فِي يَدِ الْفَعْلَةِ فَتَنْجَلُ بِذَلِكَ مَسْأَلَةُ
الْأَجُورِ ، وَلَسَكَنَ الَّذِي عَمَّمَ فِكْرَةَ الْمَوْلَفِ وَانْتَزَعَ مِنْ كِتَابِهِ
طَرِيقَةً اتَّفَقَ عَلَيْهَا أَهْلُ الْمَذْهَبِ إِتْمَا هُوَ أَحَدُ تَلَامِيذِهِ وَهُوَ
مُوسِيُو « موفانج » شَمَّاسُ كَنِيسَةِ « مِيَانِس » . وَإِلَيْكَ بَيَانُ
الْعُهِمِّ مِنْهَا :

(إن أجور الفعلة غير كافية للقيام بحاجاتهم، فوجب تدخل الحكومة وهي تتدخل لتؤيد النظام الذي تدعه طائفة كل حرفة لإبائها. وعامياً أن تقرر ساعات العمل، وتقدر الأجور، وتبين علاقة الصبيان مع الرؤساء، والعمال مع أصحاب المعامل، وأن تقرض جمعيات الفعلة ما تحتاج إليه من المال، وهنأ يظهر ميل تلك الفئة إلى الاشتراك. قال موسيو (موفانج): لست أوافق على المعامل التي يشير بها موسيو (لويزيلان) ولكني لا أرى سبباً يمنع الحكومة من مساعدة جمعية الفعلة إذا أسست على نظام متين (ومن مقاصدها أيضاً أن تجعل الحكومة حداً لظلم أرباب الأموال ولكنها لم تبين طريقة الوصول إلى ذلك. قال موسيو (موفانج) (إنني لا أعرض للغنى ولا للأغنياء، ولكن الذي أندد به^(١) هي الطريقة التي يغتني بها اليوم أولئك الأغنياء المورون).

وليس بين هذا المذهب ومذهب الاشتراكيين الثوريين إلا تفاوت يسير، وأهم ما يفترقان فيه هو اعتماد أحدهما على الدين. نعم إن أصحابه لا يقولون بوجوب جعل الأراضي كلها مشتركة الملك، ولكنهم ليسوا بعيدين عن هذه الغاية لأن مبادئهم توصلهم حتماً إليها: فهم يطلبون أن يكون رأس المال مشتركاً بين

جَمِيعَاتِ الْفَعْلَةِ . وَرَأْسُ الْمَالِ جُزْءٌ مِنْ ذَلِكَ الْكُلِّ . وَعَلَى كُلِّ حَالٍ
فَهُمْ يَطْلُبُونَ جَهْرَةً أَنْ تَكُونَ الْحُكُومَةُ هِيَ الرَّئِيسَ الْعَامَّ فِي الْعَمَلِ .
وَعَلَيْهِ تَكُونُ هَذِهِ الْفِئَةُ تَابِعَةً حَقِيقَةً لِمَذْهَبِ الْإِشْتِرَاكِيِّينَ كَمَا
عَرَفْنَاهُ . وَتَكُونُ تَسْمِيَةُ نَفْسِهَا بِهَذَا الْإِسْمِ حَقِيقَةً .

وَالْأَخِيرَةُ هِيَ طَائِفَةُ الْإِشْتِرَاكِيِّينَ الْمُدْرِسِينَ ، إِلَّا أَنَّ رِجَالَهَا
غَيْرُ مُتَّفِقِينَ عَلَى الْمَبَادِيءِ ، لِذَلِكَ يُوجَدُ بَيْنَ مُدْرِسِي عِلْمِ الْاِقْتِصَادِ
مَنْ يَقُولُ بِمَذْهَبِ الْإِشْتِرَاكِيِّينَ لَكِنْ عَلَى حَذَرٍ وَتَهَيُّبٍ ، وَمِنْهُمْ
مَنْ يَتَمَشَّى فِيهِ إِلَى أَكْثَرِ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى جَهَرَ بَعْضُهُمْ كَمُوسِيُو
« وَجَنِير » بِالْقَوْلِ بِوُجُوبِ تَحْدِيدِ الْمِلْكِيَّةِ الشَّخْصِيَّةِ وَالتَّوَسُّعِ
فِي الْمِلْكِيَّةِ الْمُشْتَرَكَةِ ، وَلَكِنْهُمْ كُلُّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى رَأْيٍ وَاحِدٍ
مِنْ جِهَةٍ وَجُوبِ حَلِّ الْمَسَائِلِ كُلِّهَا بِوَاسِطَةِ وَضْعِ نِظَامٍ دَقِيقٍ
لِلْعَمَلِ وَالزِّيَادَةِ فِي تَدْخُلِ الْحُكُومَةِ .

وَمَا سَقَتْ هَذَا الْبَيَانَ إِلَّا لِأَبْرَهِنَ عَلَى أَنَّ أَلْمَانِيَا وَسَطٌ يَتَخَلَّلُهُ
مَذْهَبُ الْإِشْتِرَاكِيِّينَ مِنْ أَسْفَلِ الطَّبَقَاتِ إِلَى أَرْفَعِ الْمَقَامَاتِ فِيهَا .
وَقَبْلَ أَنْ نَنْتَقِلَ مِنْ هَذَا الْمَوْضُوعِ يَنْبَغِي أَنْ نَأْتِيَ بِالِاخْتِصَارِ عَلَى
السَّبَبِ الَّذِي آدَى إِلَى هَذِهِ الْحَالَةِ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ :

كَانَ ظُهُورُ مَذْهَبِ الْإِشْتِرَاكِيِّينَ فِي الْوُجُودِ مُعَاَصِرًا لِتَبَدُّلِ
الْأَحْوَالِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ فِي الْأُمَّةِ الْأَلْمَانِيَّةِ بِقِيَامِ سُلْطَةِ الْمِلْكِيَّةِ الْمُطْلَقَةِ

مَقَامَ سُلْطَةِ الْقُرَى وَالْأَقَالِمِ كَمَا حَصَلَ ذَلِكَ فِي إِسْبَانِيَا مُنْذُ ثَلَاثَةِ قُرُونٍ أَيَّامَ فِيلِيبِ الثَّانِي، وَفِي فَرَنْسَا مُنْذُ قَرْنَيْنِ أَيَّامِ لُوِيْزِ الرَّابِعِ عَشَرَ. وَالْمُطْلِعُ عَلَى التَّارِيخِ يَعْرِفُ كَيْفَ بَدَأَ مُلُوكُ الْبُرُوسِيَا بِهَذِهِ الْحَرَكَةِ وَكَيْفَ أَنَّ أَمْرَاطَةَ الْأَلْمَانِ يَهْتَمُّونَ مُنْذُ سَنَةِ ١٨٧٠ بِاتِّعَامِ مَا بَدَأَ بِهِ الْأَوَّلُونَ، وَإِدْخَالَ التَّحْسِينَاتِ فِيهِ، حَتَّى أَصْبَحَتْ أَلْمَانِيَا كُلُّهَا فِي قَبْضَةِ الْبُرُوسِيَا وَالْبُرُوسِيَا كُلُّهَا فِي قَبْضَةِ الْحُكُومَةِ. وَقَدْ مَضَى زَمَنٌ طَوِيلٌ عَلَى حُكُومَةِ الْبُرُوسِيَا وَهِيَ تَعْمَلُ بِمَبَادِيِ الْإِشْتِرَاكِيِّينَ وَإِنْ لَمْ تَقُلْ بِهَا. فَالتَّوَسُّعُ فِي الْجُنْدِيَّةِ حَتَّى عَمَّتْ جَمِيعَ النَّاسِ، وَتَنْظِيمُ الْمَصَالِحِ الْإِدَارِيَّةِ عَلَى شَكْلِ غَيْرِ بَسِيطٍ يَزْدَادُ تَعَقُّدًا فِي كُلِّ حِينٍ يُشْبِهَانِ مِنْ جِهَاتٍ كَثِيرَةٍ مَا يَرْمِي إِلَيْهِ الْإِشْتِرَاكِيُّونَ مِنْ النِّظَامِ الَّذِي يُرِيدُونَهُ لِلْأُمَّةِ بِتَمَامِهَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ. وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْحُكُومَةَ الْبُرُوسِيَانِيَّةَ تَضَعُ يَدَهَا عَلَى كُلِّ رَجُلٍ مُنْذُ الطُّفُولَةِ قَبْتَدِي سُلْطَتِهَا عَلَيْهِ أَوَّلًا بِوَسِطَةِ الْمَدَارِسِ، ثُمَّ بِوَسِطَةِ الْجُنْدِيَّةِ لِتَرْبِيَةِ حَسَبِ مَشِيئَتِهَا عَلَى الْمَبَادِيِ الَّتِي تَخْتَارُهَا.

وَأَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ أَنَّنا نَجِدُ فِي الْقَانُونِ الْمَدِينِيِّ الْبُرُوسِيَانِيِّ نُصُوصًا مُطَابِقَةً لِمَبَادِيِ الْإِشْتِرَاكِيِّينَ. جَاءَ فِي الْفِقْرَةِ الْأُولَى مِنَ الْبَابِ التَّاسِعِ عَشَرَ مَا نَفْسُهُ (يَجِبُ عَلَى الْحُكُومَةِ أَنْ تَقُومَ بِمَعِيْشَةِ الَّذِينَ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى الْإِرْتِزَاقِ بِأَنْفُسِهِمْ مِنْ مَطْعَمٍ وَغَيْرِهِ، أَوِ الَّذِينَ

لَيْسَ فِي قُدْرَتِهِمْ أَنْ يَحْصُلُوا عَلَى مَعِيشَتِهِمْ مِمَّنْ هُوَ مَسْتَوْلٌ عَلَيْهَا
 بِعَقْضِ الْقَانُونِ) - الْفِقْرَةُ الثَّانِيَةُ (يُعَيِّنُ لِلَّذِينَ لَا عَمَلَ لَهُمْ
 شُغْلٌ يَلِيْقُ بِحَالَةِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ) - الْفِقْرَةُ الثَّلَاثَةُ (الْأَشْخَاصُ
 الَّذِينَ يَحْمِلُهُمُ الْكَسَلُ أَوْ حُبُّ الْبَطَالَةِ أَوْ أَيُّ سَبَبٍ آخَرَ مِنْ
 الْأَسْبَابِ الرَّدِيئَةِ عَلَى عَدَمِ الْكَسْبِ وَتَحْصِيلِ وَسَائِلِ الْمَعِيشَةِ
 يُسْتَعْمَدُونَ فِي الْأَعْمَالِ النَّافِعَةِ تَحْتَ مِلَاخِظَةِ الْحُكُومَةِ) -
 الْفِقْرَةُ السَّادِسَةُ (لِلْحُكُومَةِ الْحَقُّ، كَمَا هُوَ وَاجِبٌ عَلَيْهَا أَيْضًا،
 أَنْ تُؤَسِّسَ مَصَانِعَ وَمَعَامِلَ يَكُونُ فِيهَا قِوَامُ حَيَاةِ الْمُحْتَاجِينَ
 وَتَهْدِيْبُ أَخْلَاقِ الْمُسْرِفِينَ) - السَّابِعَةُ (لَا يَجُوزُ لِلْحُكُومَةِ بِأَيِّ
 حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ أَنْ تَأْتِيَ عَمَلًا مِنْ شَأْنِهِ حَمْلُ النَّاسِ عَلَى الْكَسَلِ
 خُصُوصًا الطَّبَقَاتِ النَّازِلَةَ أَوْ يُلْهِئِي عَنِ الْأَشْغَالِ) - الْعَاشِرَةُ
 (عَلَى جِهَاتِ الْإِدَارَةِ الْبَلَدِيَّةِ فِي الْقُرَى أَنْ تَقُومَ بِمُؤُونَةِ فَقَرَائِهَا)
 - الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ (وَعَلَيْهَا أَنْ تَبْحَثَ عَنْ أَسْبَابِ ذَلِكَ الْفَقْرِ وَتُحِيْطَ
 بِهِ السُّلْطَةُ الْعُلْيَا لِتَتَّخِذَ التَّدَابِيْرَ الْوَاقِيَةَ مِنْهُ) .

وَلَا شَكَّ أَنَّ الْأُمَّةَ الَّتِي تُسَاسُ بِمِثْلِ هَذَا النِّظَامِ الَّتِي يَجْهَرُ
 بِحَقِّ النَّاسِ فِي الْعَمَلِ وَيَقْضِي بِتَدْخُلِ الْحُكُومَةِ حَتَّى يَكُونَ ذَلِكَ
 الْحَقُّ تَحْتَ رِعَايَتِهَا وَيُوجِبُ التَّدَخُلَ إِلَى هَذَا الْحَدِّ فِي حَيَاةِ الْأَفْرَادِ
 الْخُصُوصِيَّةِ تَكُونُ مُهَيَّأَةً بِالطَّبَعِ إِلَى قَبُولِ مَذْهَبِ الْإِسْتِرَاكِيَّانِ

وَالْعَمَلُ بِمَا جَاءَ فِيهِ . هَكَذَا تَدَرَّجَتْ تِلْكَ الْأُمَّةُ فِي مَبَاحِثِهَا طَالِبَةً
 حَلًّا لِمَسْأَلَةِ الْفَعْلَةِ فَوَصَلَتْ إِلَى وُجُوبِ مُسَاعَدَةِ الْحُكُومَةِ لِكُلِّ
 فَرْدٍ بِذَاتِهِ ، وَأَنَّهُ يَنْبَغِي تَغْيِيرُ نِظَامِ الْاجْتِمَاعِ ذَاتِهِ ، وَلَمْ تَطْلُبِ
 الدَّوَاءَ مِنْ هِمَّةِ كُلِّ وَاحِدٍ بِالذَّاتِ . وَإِذَا تَأَمَّلْنَا وَجَدْنَا أَنَّ هَذِهِ
 الْمُبَادِيءَ الَّتِي قَرَأْنَاهَا فِي قَانُونِ الْبُرُوسِيَا الْمَدَنِيِّ ، وَهِيَ الَّتِي يُجَاهِرُ
 بِوُجُوبِ اتِّبَاعِهَا مُلُوكُ الْبُرُوسِيَا وَبِرَاطِرَةِ الْأَمَانِيَا وَيَعْمَلُونَ هُمْ بِهَا
 تَأْيِيدًا لِسُلْطَتِهِمُ الْمُطْلَقَةِ ، هِيَ بَعِيْنَهَا مَبَادِيءُ الْاِشْتِرَاكِيِيْنَ . وَلَا
 فَرْقَ بَيْنَهُمَا إِلَّا أَنَّ الْاِشْتِرَاكِيِيْنَ اتَّخَذُوا تِلْكَ الْمُبَادِيءَ صِيغًا تَجْرِي
 عَلَى أَسْنَتِهِمْ وَمَطَالِبَ قَالُوا إِنَّهَا هِيَ مَطَالِبُ الْاِنْسَانِ ، أَيِ الْأُمَّمِ .
 وَلَقَدْ كَانَتْ الطَّبَقَاتُ الْوَسْطَى ، وَطَبَقَاتُ الْأَشْرَافِ مُسْتَعِدَّةً
 لِقَبُولِ هَذِهِ الْأَمْرِ كَالطَّبَقَاتِ النَّازِلَةِ ، فَإِنَّ الْاِفْرَاطَ فِي الْجُنْدِيَّةِ
 وَبُلُوغَ الْاِذَارَةِ ذَلِكَ الْحَدَّ الْعَظِيمَ مِنَ الْجَسَامَةِ وَالِاتِّسَاعِ عَطَلَّ
 فِي هَاتَيْنِ الطَّبَقَتَيْنِ وَظَائِفَ الْعَمَلِ أَوْ لَا ثُمَّ انْتَهَى فِجْعَلُهُمَا يَعْتَبِرَانِ
 الْحُكُومَةَ مَصْدَرًا كُلِّ شَيْءٍ فِي حَيَاةِ الْأُمَّةِ . وَهُمْ مُسْتَعِدُّونَ لِذَلِكَ
 أَكْثَرَ مِنْ نَظَرَاتِهِمْ فِي فَرَنْسَا ، لِأَنَّ تَعَدُّدَ الثَّوَرَاتِ عِنْدَنَا أَوْضَعُ
 كَثِيرًا مِنْ سُلْطَةِ الْحُكُومَةِ وَإِنْ كَانَتْ الْجُنْدِيَّةُ وَالِاِذَارَةُ سَوَاءً
 عِنْدَنَا وَعِنْدَهُمْ . وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ الْقَابِضِينَ عَلَى زِمَامِ الْأَحْكَامِ لَا يَسُوسُونَ
 لِلْأُمَّةِ الْيَوْمَ كَمَا كَانَتْ تُسَاسُ أَيَّامَ الْمَلِكِ لُوِيْزِ الرَّابِعِ عَشَرَ .

وَمِمَّا تَقَدَّمَ يَتَبَيَّنُ لَنَا أَنَّ السَّبَبَ فِي أَنَّ الْأُمَّةَ الْأَلْمَانِيَّةَ صَارَتْ
بِمُقْتَضَى مُحْكَمِ الزَّمَانِ مَنبَعًا لِمَبَادِيءِ الْإِشْتِرَاكِيِّينَ هُوَ تَأَخُّرُهَا قَرْنًا
كَامِلًا عَنِ بَقِيَّةِ أُمَّةِ الْغَرْبِ الْأُوْرُبِيِّ فِي سَبِيلِ التَّرَقِّيِّ .

وَيَتَأَيَّدُ هَذَا إِذَا ثَبَتَ أَنَّ مَذْهَبَ أَوْلِيَاءِكَ الْقَوْمِ إِنَّمَا يَنْتَقِلُ إِلَى غَيْرِ
تِلْكَ الْبِلَادِ مِنْهَا وَبِوَسِطَةِ الْأَلْمَانِيِّينَ أَنفُسِهِمْ ، وَإِثْبَاتُ ذَلِكَ أَمْرٌ سَهْلٌ
يَقُومُ بِتَتَبُّعِ سَيْرِ الْمَذْهَبِ فِي الْبِلَادِ الْأُخْرَى :

فَفِي فَرَنْسَا كَانَ مَذْهَبُ الْإِشْتِرَاكِيِّينَ خَامِلًا إِلَى سَنَةِ ١٨٨٦ كَمَا
جَاءَ فِي كِتَابِ « وَانْتِزِيرِ » الْمُسَمَّى « مَذْهَبُ الْإِشْتِرَاكِيِّينَ الْعَامُّ »
صَفْحَةَ ١٤٩ نَقْلًا عَنْ إِحْدَى جَرَائِدِ الْإِشْتِرَاكِيِّينَ الْأَلْمَانِيِّينَ ، إِذْ
قَالَتْ مُتَأَسِّفَةً : « يَتَقَدَّمُ مَذْهَبُ الْإِشْتِرَاكِيِّينَ تَقَدُّمًا حَقِيقِيًّا
لَكِنَّهُ بَطِيءٌ »

وَمِنْ ذَلِكَ الْحِينِ أَخَذَتْ أَحْزَابُ ذَلِكَ الْمَذْهَبِ فِي الظُّهُورِ
وَالِاسْتِقْلَالِ وَالنُّمُوِّ ، وَكَانَ الْقَائِمُ بِحَرَكَةِ النُّمُوِّ عَلَى الْخُصُوصِ أَنْصَارَ
مَذْهَبِ « كَارْل مَرْكْس » الْأَلْمَانِيِّ ، وَأَهْمُ الرُّؤَسَاءِ فِيهِمْ رَجُلَانِ :
مُوسِيُو « جُول جِينِزْد » وَمُوسِيُو « لَفَارْج » وَكَانَ يُطْلَقُ عَلَيْهِمَا اسْمُ
مِرْ كَسْتِيَيْنَ نِسْبَةً إِلَى ذَلِكَ الرَّجُلِ لِاجْتِهَادِهِمَا فِي إِدْخَالِ مَبَادِيئِهِ
الَّتِي وَضَعَهَا فِي كِتَابِهِ « رَأْسُ الْمَالِ » بِالْبِلَادِ الْفَرَنْسَاوِيَّةِ . وَمِنْ الْمَعْلُومِ
أَنَّ مُوسِيُو لَفَارْجِ النَّائِبَ عَنِ مُقَاتَعَةِ « لَيْل » سَابِقًا كَانَ مُصَاهِرًا

لذالك الاشتراكى الشهير ، لذالك لما نجح مؤتمر المر كستين
 فى باريس سنة ١٨٨٩ صاح الاشتراكيون فى المانيا طويلا
 بأصوات الفرح والانتصار ، وفى هذا المؤتمر صرح موسيو «جيزد»
 بن تصفيق سامعيه بأن مذهبهم إنما هو مذهب الاشتراكين
 الألمانين (راجع كتاب «واتر» المذكور صفحة ١٧٤).

ثبت إذن أن مذهب الاشتراكين فى فرنسا مأخوذ عن
 مذهبهم فى المانيا وأنه يسمى باسم أحد الألمانين وأنه ينتسب
 جهرة إلى المانيا .

وفى بلاد البلجيك اختلط مذهب الاشتراكين بمذهب
 الفوضويين والمتطرفين ، وبقى زمنا تتجاذبه عوامل الخلف والنزاع
 ولم يخلص ويستقل إلا بعد جهد وعناء ، وفى إبان^(١) استقلاله رأينا
 اثنين من رؤسائه فى المانيا ، وهما موسيو «بييل» وموسيو
 «بيرنستين» جاء إلى البلجيك على الخصوص ليُرشدا هذا الضوء
 الناشئ إلى الطريق المستقيم ، وكان لهذا التدخل تأثير أثبتته أحد
 مؤررخي مذهب الاشتراكين وهو «واتر» صفحة ١٢٢ حيث قال:
 (كان مذهب الاشتراكين فى البلجيك منقسما على نفسه بغير
 نظام فأصبح اليوم فى نوع من الترتيب والانضمام على نسق
 المذهب الألماني).

وَالَّذِي أَدْخَلَ مَذْهَبَ الْإِشْتِرَاكِيِّينَ فِي بِلَادِ هَوْلَنْدَةَ رَجُلٌ كَانَ مِنْ رُعَاةِ الْكَنِيسَةِ وَهُوَ «دوملايو واثهويس» وَقَدْ سَافَرَ هَذَا الرَّجُلُ مِنْذُ ثَلَاثِ سِنِينَ إِلَى بَرَلِينِ «لِيَتَعَلَّمَ مِنَ الْإِشْتِرَاكِيِّينَ الْأَلْمَانِيِّينَ طَرِيقَةَ عَمَلِهِمْ فِي الْإِتِّخَابَاتِ» وَهَذَا الْأَمْرُ وَحْدَهُ كَافٍ فِي بَيَانِ أَنَّ الْمَذْهَبَ فِي هَوْلَنْدَةَ مُسْتَمَدٌّ مِنَ الْأَمَانِيَا حَتَّى إِنَّهُمْ لَا يَقْتَصِرُونَ عَلَى الْأَخْذِ بِمَبَادِيهِمْ بَلْ يَأْخُذُونَ عَنْهُمْ أَيْضًا كَيْفِيَّةَ أَعْمَالِهِمْ فِي الْإِتِّخَابِ .

وَهَذَا حَالُ بُولُونِيَا فَمَا عَقِدَ مُؤْتَمَّرُ الْإِشْتِرَاكِيِّينَ فِي بَارِيسَ سَنَةَ ١٨٩٠ كَانَ النَّائِبُ فِيهِ عَنْ إِخْوَانِهِمْ فِي بُولُونِيَا سَيِّدَةً يُقَالُ لَهَا «جانكويسكا» وَقَدْ جَاءَ فِي تَقْرِيرِهَا عَنْ أَهْلِ حِزْبِهَا: «إِنَّهُمْ يَجْتَهِدُونَ دَائِمًا فِي تَقْلِيدِ إِخْوَانِهِمْ الْأَلْمَانِيِّينَ عَلَى قَدْرِ الْأَمْكَانِ فِي طُرُقِ نَشْرِ الْمَذْهَبِ وَكَيْفِيَّةِ السَّيْرِ وَإِنَارَةِ الْأَفْكَارِ» فَالْمَانِيَا هِيَ صَاحِبَةُ الصَّوْتِ أَيْضًا فِي بُولُونِيَا .

أَمَّا الرُّوسِيَا فَلَمْ يَكُنْ لِمَذْهَبِ الْإِشْتِرَاكِيِّينَ فِيهَا مِنْ الرُّسْلِ إِلَّا الْعَدَمِيُونَ وَالْفَوْضِيُّونَ حَتَّى هَذِهِ السَّنِينَ الْأَخِيرَةَ، غَيْرَ أَنَّ الْحَالَ تَبَدَّلَتْ مِنْذُ بَعْضَةِ أَعْوَامٍ، كَمَا ذُكِرَ ذَلِكَ فِي مُؤْتَمَّرِ بَارِيسَ، فَكَانَ لِلرُّوسِيَا مَعْدُوبَانِ اثْنَانِ فِيهِ أَحَدُهُمَا (لَارُوف) الثَّوْرِيُّ الْمَشْهُورُ الْقَدِيمُ، وَمِنْ قَوْلِهِ فِي ذَلِكَ الْمَوْثَمَرِ: إِنَّ الثَّوْرَةَ فِي الرُّوسِيَا تَقْتَرِبُ كُلَّ يَوْمٍ مِنْ

حِزْبِ الْاجْتِمَاعِيِّينَ وَإِنَّ حِزْبَهَا (يَتَقَرَّبُ إِلَى مَذْهَبِ الْإِشْتِرَاكِيِّينَ الْأَلْمَانِيِّينَ وَيَعْمَلُ عَلَى طَرِيقَتِهِمْ). هَذَا، وَقَدْ نَشَرَ مُوسِيُو (بليكانو) أَحَدُ زُعَمَائِهِمْ فِي الرُّوسِيَا كِتَابًا بِأَهْوَى فِي الْحَقِيقَةِ مَذْهَبُ كَارْل مَرْكْسَ بِتَمَامِهِ وَأَسَّسَ حِزْبَ الْأَحْرَارِ الْاجْتِمَاعِيِّينَ الرُّوسِيِّينَ جَرِيدَةً سَمَّاهَا بِاسْمِ اشْهَرِ جَرَائِدِ الْإِشْتِرَاكِيِّينَ فِي أَلْمَانِيَا وَنَقَلَ عَنْهُ الْكَلِمَةَ الَّتِي اتَّخَذَهَا شِعَارًا وَهِيَ: (يَأْيُهَا التُّعْسَاءُ مِنْ كُلِّ بَلَدٍ إِلَّا فَاتَّحِدُوا) وَكَانَ ظُهُورُ تِلْكَ الْجَرِيدَةِ الرُّوسِيَّةِ فِي (جَنيف) سَنَةَ ١٨٨٨ وَالغَرَضُ مِنْهَا كَمَا جَهَرَتْ بِهِ نَشْرُ مَبَادِيءِ مَذْهَبِ الْإِشْتِرَاكِيِّينَ الْأَلْمَانِيِّينَ فِي الرُّوسِيَا.

وَمَذْهَبُ الْإِشْتِرَاكِيِّينَ لَا يَزَالُ نَبْتًا حَدِيثًا فِي بِلَادِ رُومَانِيَا وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ قَالَ نَائِبُهَا فِي مُؤْتَمَرِ بَارِيسَ وَهُوَ (مَاتِي) الْقَائِمُ بِالْحَرَكَةِ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ مَا يَأْتِي: (يَتَقَدَّمُ مَذْهَبُ الْإِشْتِرَاكِيِّينَ حَتَّى بَيْنَ الْفَلَاحِينَ وَأَكْبَرِ الْمُسَاعِدِينَ لَهُ هُمُ الْمَعْلَمُونَ فِي مَدْرَسَةِ (جاسي) وَطَلَبَتْهَا لِأَنَّهُمْ تَرَجَّحُوا كُتِبَ كَارْل مَرْكْسَ. وَ (آنجل) وَ (لاسال) وَهُوَ لِأَهْلِهِمْ أَقْطَابُ الْمَذْهَبِ الْأَلْمَانِيِّ).

وَقَالَ مُوسِيُو (وانتر) (وُلِدَ مَذْهَبُ الْإِشْتِرَاكِيِّينَ فِي سُوِيْسْرَا مِنْ الْمَذْهَبِ الْأَلْمَانِيِّ وَكَانَ بَيْنَهُمَا عَلَى الدَّوَامِ رَوَابِطٌ مُحْكَمَةٌ الْعُرَا^(١))

(١) العرا: جمع عروة، وعروة القميص مدخل زرّه والمراد هنا شديدة الانصال

فَإِنَّا نَشَاهِدُ الْإِشْتِرَاكِيَّيْنَ السُّوَيْسِرِيِّينَ بِجَانِبِ إِخْوَانِهِمُ الْأَلْمَانِيِّينَ فِي كُلِّ مَكَانٍ يَتَقَابَلُونَ فِي الْمُجْتَمَعَاتِ وَيَتَحَدَّثُونَ فِي الْأَدَبِ وَالْمَبَادِي وَيَتَصَافَرُونَ (١) فِي مُقَاوَمَاتِهِمْ وَيَتَعَاوَنُونَ عَلَى مَا يَطْلُبُونَ .

وَلَا عَجَبَ بَعْدَ هَذَا مِنْ أَنَّ الْإِشْتِرَاكِيَّيْنَ فِي مَدِينَةِ (بال) اخْتَفَلُوا فِي الرَّابِعِ مِنَ شَهْرِ سِبْتَمْبَرِ بَتَذْكَارِ وَفَاةِ (لاسال) الْإِشْتِرَاكِيَّ الْأَلْمَانِيِّ وَأَتَمَّهُمْ عَقَدُوا فِي الْيَوْمِ الثَّانِي اجْتِمَاعًا عَامًّا دَعَوْا إِلَيْهِ مُوسِيُو (لبيكنخت) وَهُوَ أَيْضًا إِشْتِرَاكِيٌّ أَلْمَانِيٌّ لِيُنْشِرَ بَيْنَهُمْ مَذْهَبَ كَارْل مَرِكْس . وَلِلْإِشْتِرَاكِيَّيْنَ السُّوَيْسِرِيِّينَ جَرَائِدٌ خَاصَّةٌ بِهِمْ إِلَّا أَنَّ قَائِدَهُمْ لَا يَزَالُ هُوَ تِلْكَ الْجَرِيدَةُ الْأَلْمَانِيَّةَ الشَّهِيرَةَ فَإِنَّهَا رُوحُ اجْتِمَاعَاتِهِمْ فِي (زوربخ) وَ (انترتور) وَ (آرو) وَ (بال) وَ (فروانفلد) وَ (سان غال) وَ (شافوز) وَ (اكوار) وَ (زوج) وَ (نيوشاتيل) وَ (لوزان) وَ (جنيف) وَغَيْرِهَا . وَعَلَيْهِ فَسُوَيْسِرَا هِيَ إِذْنُ ضَحِيَّةٌ مِنْ ضَحَايَا الْمَذْهَبِ الْأَلْمَانِيِّ .

كَذَلِكَ يَأْخُذُ التَّلِيَانُ مَذْهَبَهُمْ عَنِ الْمَانِيَا وَيَكْفِي لِلدَّلَالَةِ عَلَيْهِ أَنْ نَذْكَرُ الْبَرْقِيَّةَ الَّتِي بَعَثَ بِهَا أَعْضَاءُ نَادِي الْمُتَطَرِّفِينَ فِي رُومِهِ بِاسْمِ الْإِشْتِرَاكِيَّيْنَ التَّلِيَانِيِّينَ إِلَى الْإِشْتِرَاكِيَّيْنَ الْأَلْمَانِيِّينَ

(١) تصافروا على الشيء . تعاونوا عليه

بِمُنَاسَبَةٍ فَوَزِهِمْ فِي الْإِتِّخَابَاتِ وَهِيَ (إِنَّ النَّادِي... يُسَلِّمُ عَلَى
 الْإِشْتِرَاكِيِّينَ الْأَلْمَانِيِّينَ الَّذِينَ هُمْ دُعَاةُ الثَّوْرَةِ الْجَدِيدَةِ طَلَبًا
 لِتَقْرِيرِ الْعَدْلِ الْاجْتِمَاعِيِّ وَلَا يَزَالُ الْأَحْرَارُ التَّلِيَانِيُّونَ يَذْكُرُونَ
 مُفْتَخِرِينَ مَا أَبَاهُمْ بِهِ (مَنْزِلِي) مِنْذُ سِنِينَ عَدِيدَةٍ مَعَ مَا كَانَ
 عَلَيْهِ مِنْ كَرَاهَةِ مَذْهَبِ كَارْل مَرْكْسَ، وَهُوَ أَنَّ الْأَمَانِيَا الْجَدِيدَةَ
 وَإِيْتَالِيَا الْجَدِيدَةَ هُمَا اللَّتَانِ يَقُومَانِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ بِحُلِّ الْمَسْأَلَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ).

وَيَتَّضِحُ مِمَّا تَقَدَّمَ بِأَجْلِي بَيَانٌ أَنَّ الْأَمَانِيَا هِيَ مَنَبْعُ مَذْهَبِ
 الْإِشْتِرَاكِيِّينَ وَأَنَّهَا هِيَ الَّتِي تَبَثُّهُ وَتَنْشُرُهُ فِي الْأُمَّمِ الْآخَرَى
 وَيُوْخِذُ مِنْهُ أَيْضًا أَنَّ جَمِيعَ الْبِلَادِ لَا تَقْبَلُ مَذْهَبَ الْإِشْتِرَاكِيِّينَ
 بِدَرَجَةٍ وَاحِدَةٍ، فَمِنْهَا مَا تَكُونُ أَرْضُهَا مُسْتَعِدَّةً لِنُومُوْهِ بِدُوْرِهِ كَالَّتِي
 ذَكَرْنَاهَا، وَمِنْهَا مَا لَيْسَ كَذَلِكَ كَبِلَادِ نَرْوِيْجٍ وَإِنْكَلْتِرَةَ وَالْوَالِيَاةِ
 الْمَتْجِدَةِ وَغَيْرِهَا مِنْ الْبِلَادِ الَّتِي أَحْتَلَّهَا الْعُنْصُرُ الْإِنْكَلِيزِيُّ
 السَّكْسُونِيُّ.

أَمَّا كَوْنُ بِلَادِ نَرْوِيْجِ غَيْرَ صَالِحَةٍ لِانْتِشَارِ الْمَذْهَبِ فَثَابِتٌ مِنْ
 رِسَالَةِ نَشْرَتِهَا جَرِيدَتُهُ الْأَلْمَانِيَّةُ الشَّهِيْرَةُ، وَفِيهَا يَشْكُو الْمَكْتَابُ
 مَرَّ الشَّكْوَى مِنْ ذَلِكَ الْحَالِ وَيَعْرُضُهَا (١) لِمَا عَلَيْهِ تِلْكَ الْبِلَادُ مِنْ
 التَّمَسُّكِ الشَّدِيدِ بِالْدِيْنِ. وَهُوَ تَعْلِيلٌ ضَعِيفٌ، لِأَنَّ رَأْيَنَا فِي الْأَمَانِيَا

كثيْرَ امِنَ الكَاثُوْلِيْكَ وَابْرُوْتِسْتَانَتْ وَفِي مُقَدِّمَتِهِمْ زُعَمَاءُ السُّكْنِيْسَةِ
قَدْ اعْتَنَقُوا مَذْهَبَ الْاِسْتِرَاكِيْنِ .

وَمَا مِنْ شَيْءٍ يَسْتَوْفِقُ النَّظَرَ كَحَيْرَةِ مُورِّخِي هَذَا الْمَذْهَبِ عِنْدَ
الْكَلَامِ عَلَيْهِ فِي اِنْكِلْتَرِهِ فَاِنَّهُمْ لَا يَجِدُوْنَ، اَوْ يَكَادُوْنَ اَلَّا يَجِدُوْا،
شَيْئًا يَذْكُرُوْنَهُ عَنْهُ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ اَللَّهِمَّ اِلَّا مَا قَاسَاهُ مُوسِيُو « اِثْنِ »
مِنَ الْاَتْعَابِ — هُوَ اَيْضًا صِهْرُ لِسْكَارْل مَرْكْس — الَّتِي ذَهَبَتْ اَدْرَاجَ
الرِّيَّاحِ (١) . « وَهُنَا اَيْضًا دَلِيْلٌ عَلٰى وُجُوْدِ الْاِصْبَعِ الْاَلْمَانِيَّةِ (٢) » وَكَذَلِكَ
اَتْعَابُ الشَّاعِرِ « موزيس » وَمُسِيُو « هندمان » وَهُمَا رَجُلَانِ خَرَجَا
عَنْ تَقَالِيْدِ قَوْمِهِمَا فَلَمْ يَلْتَفِتْ اِلَيْهِمَا اَحَدٌ اِلَّا سَاخِرًا (٣) ، وَقَدْ اَتَتْ
الرِّسَالَةُ السَّنَوِيَّةُ الَّتِي يَنْشُرُهَا الدُّكْتُورُ « لودويج ريشتر » فِي كُلِّ
سَنَةٍ عَنْ حَالَةِ الْمَذْهَبِ فِي جَمِيْعِ الْبُلْدَانِ خَالِيَةً مِنْ ذِكْرِ اِنْكِلْتَرِهِ .
وَالسَّبَبُ الَّذِي ذَكَرَهُ لِذَلِكَ هُوَ « اَنَّهُ لَا يُوْجَدُ شَيْءٌ يُقَالُ » وَحَاوَلَ
مُوسِيُو « ويزيوا » فِي كِتَابِهِ « حَرَكَةَ مَذْهَبِ الْاِسْتِرَاكِيْنِ فِي
اُورُبَّا » صَفْحَةَ ٢٠٩ بَيَانَ عِلَّةَ عَدَمِ اِنْتِشَارِهِ فِي اِنْكِلْتَرِهِ فَقَالَ : « اِنَّ
الْاِنْكِلِيزَ شَخْصِيُوْنَ بِفِطْرَتِهِمْ يُرِيدُوْنَ اَنْ يُتَرَ كُوًّا لِاَنْفُسِهِمْ
لِيَحْصُلَ كُلُّ وَاَحِدٍ مِنْهُمْ رِزْقُهُ بِالطَّرِيْقَةِ الَّتِي يَرْضَاهَا ، وَطَبَاعُهُمْ
تَابِي اَنْ يَتَجَنَّبُوْا تَحْتَ اَيِّ لَوْاءٍ كَانَ ، وَاَنْ يَنْزِلُوْا عَنْ اسْتِقْلَالِهِمْ

(١) يقال ذهب دمه درج أو أدراج الرياح أي هدر لم يؤخذ بثاره، والمراد هنا الأتعاب

التي ذهب سدى (٢) يريد الأثر الألماني (٤) هازثا

الذَّاتِيَّ طَلَبًا لِعَمَلٍ مُشْتَرَكٍ . وَهَذَا ، فِيمَا أَرَى ، أَحَدُ الْأَسْبَابِ الَّتِي تَجْعَلُهُمْ لَا يَمِيلُونَ إِلَى مَذْهَبِ الْإِشْتِرَاكِيِّينَ » .

وَإِذَا انْتَقَلْنَا إِلَى الْوَلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ رَأَيْنَا كَذَلِكَ أَنَّ هَذَا الْمَذْهَبَ لَمْ يَدْخُلْ بَيْنَ الْعُنْصُرِ الْإِنْكَلِيزِيِّ السَّكْسُونِيِّ لِأَنَّهُ يُقَاوِمُهُ كَمَا يُقَاوِمُ كَرْمٌ^(١) تِلْكَ الْبِلَادِ آفَةُ الْعَنْبِ « فِيلوكسرا » وَلَيْسَ لَهُ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ أَحْزَابٌ إِلَّا مِنَ الْإِيرْلَنْدِيِّينَ ، وَعَلَى الْخُصُوصِ مِنَ الْأَلْمَانِيِّينَ ، كَمَا شَهِدَ بِهِ مُوسِيُو « وَانْتِرِير » فِي كِتَابِهِ « مَذْهَبُ الْإِشْتِرَاكِيِّينَ الْعَالَمُ » . صَفْحَةَ ٢٣٣ حَيْثُ يَقُولُ : « إِنَّا عَقَدْنَا هَذَا الْفَصْلَ لِلْسُّكْلَامِ عَلَى مَذْهَبِ الْإِشْتِرَاكِيِّينَ فِي أَمْرِيكَ ، وَكَانَ حَقُّهُ أَنْ يُعْنُونَ بِمَذْهَبِ الْإِشْتِرَاكِيِّينَ الْأَلْمَانِيِّينَ فِي أَمْرِيكَ لِأَنَّ أَحْزَابَهُ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ وَأَخْصُ الْقَائِمِينَ بِهِ فِيهَا لَا يَزَالُونَ مِنَ الْأَلْمَانِيِّينَ وَمِنْ رُؤَسَائِهِمْ مَنْ كَانَ عَضْوًا فِي مَجْلِسِ النُّوَابِ الْأَلْمَانِيِّ . وَلَقَدْ كَانَ كَارْلُ مَرْكْسُ يَرْجُو النَّجَاحَ لِمَذْهَبِهِ فِي الدُّنْيَا الْجَدِيدَةِ ، وَأَشَارَ بِنَقْلِ مَجْلِسِ بُحُوثِهِ إِلَى تِلْكَ الْبِلَادِ فَيَخَابَ رَجَاؤُهُ » وَقَالَ أَحَدُ الْإِشْتِرَاكِيِّينَ الْأَلْمَانِيِّينَ يَصِفُ الْمَذْهَبَ فِي أَمْرِيكَ « إِنَّ ذَلِكَ الْحِزْبَ لَا وُجُودَ لَهُ إِلَّا بِالْإِسْمِ ، لِأَنَّ أَصْحَابَهُ لَا يُمَكِّنُهُمْ أَنَّى كَانُوا^(٢) أَنْ يُكُونُوا حِزْبًا بِلِسِيَّاسِيًّا ، وَالْمَذْهَبُ مُنْفَسُهُ يُخَالِ^(٣) أَنَّهُ أَجْنَبِيٌّ فِي الْوَلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ فَقَدْ كَانَ إِلَى عَهْدِ قَرِيبِ

(١) الكرم شجر العنب (٢) أى في أى مكان وجدوا (٣) يظن

لَا يَقُولُ بِهِ غَيْرُ الْمُهَاجِرِينَ مِنَ الْأَلْمَانِيِّينَ الَّذِينَ كَانُوا يَتَكَلَّمُونَ
بِلُغَتِهِمْ وَلَا يَعْرِفُونَ اللُّغَةَ الْإِنْكَلِيزِيَّةَ إِلَّا قَلِيلًا ، ثُمَّ إِنَّ لِهَؤُلَاءِ
الْمُهَاجِرِينَ رَأْيًا مَخْصُوصًا فِي وَسَائِلِ انْتِشَالِ الْفَعْلَةِ مِنَ التَّابِعِيَّةِ (١)
الَّتِي هُمْ فِيهَا لَا يَفْهَمُهَا إِلَّا النَّذْرُ الْيَسِيرُ مِنَ الْفَعْلَةِ الْأَمْرِيكِيِّينَ .
وَلَقَدْ اجْتَهَدُوا كَثِيرًا فِي اسْتِمَالَةِ إِنْكَلِيزِ أَمْرِيكََا إِلَى مَذَهَبِ
الْإِشْتِرَاكِيِّينَ فَجَعَلُوا إِلَيْهِمْ كَثِيرِينَ مِنَ الْأَلْمَانِيِّينَ ، نَذَرَ كُرٍّ مِنْ
بَيْنِهِمْ مُوسِيُو « لِيَكُنْخَتْ » وَإِحْدَى بَنَاتِ كَارِلِ مَرْكْسِ الَّتِي تَزَوَّجَتْ
مُوسِيُو « أَقْلِينَ » فَضَاعَ كُلُّ ذَلِكَ سُدَى وَرَفَضَتْ جَمْعِيَّاتِ الْفَعْلَةِ
الْإِنْضِمَامِ إِلَى حِزْبِ الْإِشْتِرَاكِيِّينَ وَخَسِرَ الْأَلْمَانِيُّونَ مَا بَدَلُوا مِنْ
الْفَصَاحَةِ وَذِلَاقَةِ اللِّسَانِ . ثُمَّ عَمَدَ بَعْضُ الْإِشْتِرَاكِيِّينَ إِلَى الْإِنْتِظَامِ
فِي سِلْكِ بَعْضِ طَوَائِفِ الْفَعْلَةِ الَّتِي بَلَغَ أَعْضَاؤُهَا أَكْثَرَ
مِنْ مِليُونٍ مِنَ النُّفُوسِ وَحَسِبُوا أَنَّهُمْ بِذَلِكَ يَتَّصِلُونَ إِلَى نَشْرِ مَبَادِيهِمْ
شَيْئًا فَشَيْئًا وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يُفْلِحُوا « وَقَالَ لَهُمْ رَئِيسُ الطَّائِفَةِ
الْأَعْظَمُ إِنَّ رَغْبَتَهُ مُوجَّهَةٌ إِلَى تَطْهِيرِ طَائِفَتِهِ مِنْ تِلْكَ الْعُنَاصِرِ
الثَّوْرِيَّةِ الْمُتَطَرِّفَةِ » وَعَرَضَ بَعْضُهُمْ رَأْيًا مَبْنَاهُ (٢) الْإِقْرَارُ عَلَى مُجَرِّدِ
الْمَيْلِ إِلَى اسْتِعْمَالِ الْوَسَائِلِ الثَّوْرِيَّةِ فَرَفِضَ الطَّلَبُ بِمِائَةِ وَوَاحِدٍ
وَخَمْسِينَ صَوْتًا ضِدَّ اثْنَيْ عَشَرَ وَخَمْسِينَ .

كَذَلِكَ لَمْ يَنْجَحِ الْإِشْتِرَاكِيُّونَ لَدَى حِزْبِ الْفَعْلَةِ الْمُجْتَمِعِينَ
 إِذْ أُقْصِيَتْ مِنْهُ جَمِيعُ اللَّجَانِ الَّتِي تَلَوَّتْ بِمَذْهَبِهِمْ بِقَرَارِ صَدَرٍ مِنْ
 الْجَمْعِيَّةِ الْعُمُومِيَّةِ فِي « سِيرَاكِين » ، وَإِلَى الْآنَ لَمْ تَنْجَحِ الْمَسَاعِي
 فِي نَشْرِ جَرِيدَةٍ وَاحِدَةٍ لِلإِشْتِرَاكِيِّينَ بِاللُّغَةِ الْإِنْكَلِيزِيَّةِ ! وَلِلْمَذْهَبِ
 عَشْرَ جَرِيدَاتٍ كُلُّهَا بِاللُّغَةِ الْأَلْمَانِيَّةِ وَهُوَ أَمْرٌ فِيهِ نَظَرٌ عَظِيمٌ ... وَمِنْ
 هُنَا يَتَبَيَّنُ السَّبَبُ فِي أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ فِي مُؤْتَمَرِ الْإِشْتِرَاكِيِّينَ الْأَخِيرِ
 بِيَارِيسَ مِنْ أَمْرِيكََا إِلَّا الْمُحَازِبُونَ الْأَلْمَانِيُّونَ وَاضْطُرَّ الْمُنْدُوبُ
 الْمَقْرَرُ وَهُوَ مُوسِيُو « كِيرشِنر » الْأَلْمَانِيُّ أَنْ يَقُولَ فِي تَقْرِيرِهِ : « إِنَّ
 الْفَضْلَ فِي كَوْنِ الْفَعْلَةِ الْأَمْرِيكِيِّينَ أَخَذُوا يَدْرُكُونَ مَعْنَى التَّحْزَبِ
 رَاجِعٌ بِالْأَخْصِ إِلَى الْمُهَاجِرِينَ الْأَلْمَانِيِّينَ فَإِنَّهُمْ لَمْ يَنْشُؤْا عَنْ
 إِرْشَادِ تِلْكَ الْجُمُوعِ الَّتِي لَا يَزَالُ الْجَهْلُ يُعْمِي بِصَائِرِهِمْ وَتَنْظِيمِ
 شَتَاتِهِمْ » .

تَبَّتْ إِذْنًا أَنَّ الْقَائِمِينَ بِنَشْرِ مَذْهَبِ الْإِشْتِرَاكِيِّينَ فِي بِلَادِ
 الْإِنْكَلِيزِيَّةِ السَّكْسُونِيِّينَ هُمُ الْأَلْمَانِيُّونَ وَأَنَّهُمْ لَا يَنْجَحُونَ مَهْمَا
 اجْتَهَدُوا وَتَابَرُوا ، وَهُوَ أَمْرٌ جَدِيدٌ لَمْ نَعُدْهُ فِيمَا مَضَى . وَهَذَا هُوَ
 مَا تَحْتَمَّازُ بِهِ تِلْكَ الْبِلَادُ عَلَى الَّتِي ذَكَرْنَاهَا مِنْ قَبْلُ ؛ فَهَمُ فَرِيقٌ قَائِمٌ
 بِذَاتِهِ أَهْمُ صِفَاتِهِ أَنَّهُ نَقُورٌ مِنْ مَذْهَبِ الْإِشْتِرَاكِيِّينَ .
 وَالسَّرُّ فِي هَذَا الْإِسْتِنَاءِ أَنَّ نَشَأَةَ الْعَنْصُرِ الْإِنْكَلِيزِيِّ السَّكْسُونِيِّ

اِسْتِقْلَالِيَّةٌ مُحَضَّةٌ كَمَا أَنَّ نَشَاةَ الْعُنْصُرِ الْأَلْمَانِيِّ اِتِّكَالِيَّةٌ بِالْمَرَّةِ (١) .
وَيَبْنِمَا نَفُوذُ مُحْكُومَةِ الْأَلْمَانِيِّينَ يَمْتَدُّ اِمْتِدَادًا فَوْقَ اَلْحَدِّ الَّذِي
يَنْبَغِي حَتَّى اَمَاتِ اَلْهَمَمِ النَّفْسِيَّةِ وَمَحَقَّ (٢) حَرَكَةَ الْقُرَى الذَّاتِيَّةِ
نَرَى مُحْكُومَةَ الْفَرِيقِ الثَّانِي لَمْ تَمَكَّنْ مِنْ اَلِاسْتِيْلَاءِ عَلَى سُلْطَةِ
كُبْرَى بِلْ وَقَفَتْ عَلَى الدَّوَامِ عِنْدَ حَدِّهَا بِمَا تَلَاقِيهِ مِنْ اِتِّحَادِ
الْقُوَّتَيْنِ : حَيَاةٌ كُلٌّ فَرْدٍ بِذَاتِهِ ، وَاسْتِقْلَالٌ كُلٌّ قَرِيْبَةٌ بِخُصُوصِهَا .
فَالْأَلْمَانِيَا هِيَ الْيَوْمَ الْوَسْطُ الَّذِي بَأَعَتْ فِيهِ اَثْرَةُ الْحُكُومَةِ
مُنْتَهَاهَا ، وَبِلَادُ الْاِنْكَلِيزِ السَّكْسُونِيِّينَ هِيَ الْاُمَمُ الَّتِي عَاشَ
اَفْرَادُهَا مُسْتَقْلِلِينَ وَحَكَمُوا اَنْفُسَهُمْ بِاَنْفُسِهِمْ . وَمِنْ الْبَدِيهِيِّ حِينَئِذٍ
اَلَّا تَرَى الْاَوَّلَى سَبِيْلًا لِحَلِّ الْمَسْأَلَةِ الْاِجْتِمَاعِيَّةِ فِي غَيْرِ تَدْخُلِ
الْحُكُومَةِ وَسَنِّ اللِّوَايِجِ وَجَعْلِ اَلآتِ الْعَمَلِ مُشْتَرَكَةً بَيْنَ
جَمِيْعِ النَّاسِ مِنْ اَهْلِهَا ، وَاَنَّ الثَّانِيَةَ لَا تَطْلُبُ النِّجَاةَ اِلَّا مِنْ هَمَمِ
الْاَفْرَادِ وَتَرْفُضُ كُلَّ الرَّفْضِ ذَلِكَ الْاِشْتِرَاكِ الْجَدِيْدِ الَّذِي
يُعْرَضُ عَلَيْهَا .

وَلَسْتُ فِي حَاجَةٍ اِلَى تَكَرُّرِ الْاَسْبَابِ الَّتِي اَوْجَبَتْ هَذَا
الْاِخْتِلَافَ الْعَقْلِيَّ بَيْنَ الْاُمَمَيْنِ ، وَلَكِنِّي اُحْيِلُّ الْقُرَاءَ عَلَى مَا كَتَبْتُهُ
عَنْ ذَلِكَ مُفَصَّلًا فِي الْجُزْءِ الثَّلَاثِ صَفْحَةَ ٥٥٨ وَمَا بَعْدَهَا وَالْجُزْءُ

(١) يريدون انكاليون انكالا صرفا لا يشوبه شيء من الاستقلال (٢) محقه: أبطله ومحاه

الرَّابِعِ صَفْحَةَ ١٣١ وَمَا بَعْدَهَا مِنْ مَجْلَدِ الْعِلْمِ الْإِجْمَاعِيِّ
وَأَكْتَفَى بِأَنَّ الْأَحْظَ أَنَّ أَثَرَ هَذَا الْإِخْتِلَافِ فِي النَّشْأَةِ
يَتَنَاوَلُ الْمَوْضُوعَ الَّذِي نَحْنُ فِيهِ.

ثَبَتَ مِمَّا قَدَّمَاهُ ثَلَاثَةٌ أُمُورٍ : أَنَّ الْأَلْمَانِيَّاهِ مَنبَعُ مَذْهَبِ
الِإِشْتِرَاكِيِّينَ ، وَأَنَّ الْأَلْمَانِيِّينَ هُمُ الَّذِينَ يَنْشُرُونَ مَذْهَبَ
الِإِشْتِرَاكِيِّينَ فِي الدُّنْيَا ، وَأَنَّ مَذْهَبَ الْإِشْتِرَاكِيِّينَ لَا يَنْتَشِرُ
فِي الْأُمَّمِ الَّتِي نَمَتُ فِيهَا هِمَمُ الْأَفْرَادِ الذَّاتِيَّةُ ، وَقَلَّ تَدَخُّلُ
الْحُكُومَاتِ .

وَلَمْ يَبْقَ عِنْدَنَا إِلَّا الْبَحْثُ فِيْمَا إِذَا كَانَ مَذْهَبُ الْإِشْتِرَاكِيِّينَ
الْأَلْمَانِيِّينَ هُوَ الْأَفْضَلُ فِي حَلِّ مَسْأَلَةِ الْفَعْلَةِ أَمْ اسْتِقْلَالُ الْإِنْكِلِيزِ
السَّكْسُونِيِّينَ وَفِيْمَا هُوَ الْحُلُّ الَّذِي يَدْخِرُهُ الْمُسْتَقْبَلُ .

وَإِنِّي أَرْجُو مِنْ الْقُرَّاءِ أَنْ يَعْتَقِدُوا بِأَنَّ نِظَامَ الْإِشْتِرَاكِيِّينَ
لَيْسَ بِالْجَدِيدِ أَبَدًا ، كَمَا يَمِيلُ إِلَى اعْتِقَادِهِ أَوْلِيَاكَ الَّذِينَ ادَّعَوْا أَنَّهُمْ
اخْتَرَعُوهُ ، بَلْ أَقُولُ إِنَّهُ قَدِيمٌ قَدِيمًا عَظِيمًا حَتَّى انْصَرَمَ (١) عُمُرُهُ ،
وَانْقَضَتْ أَيَّامُهُ وَصَارَ مِنَ السَّهْلِ الْوُقُوفُ عَلَى مَا يَأْتِي مِنْهُ فِي
الْمُسْتَقْبَلِ بِمَعْرِفَةٍ مَا تَنْجَعُ عَنْهُ فِي الْمَاضِي .

وَنَحْنُ إِذَا جَرَدْنَا الْمَذْهَبَ مِنْ تِلْكَ الْأَلْفَاظِ الْمُقَرَّرةِ وَرَجَعْنَا

(١) أصل الصرم: القطع، والمراد هنا انقضى

به إِلَى صُورَتِهِ الْحَقِيقِيَّةِ رَأْيَانَهُ إِنَّمَا يَتَقَهَّرُ بِنَا إِلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ الْأُمَّمُ
الْمَغَابِرَةُ تَقَهَّرُ الْبُسْطَاءُ إِنَّمَا أَقْلُ تَقَهَّرُ الْجُهَلَاءُ ، وَسَرَى إِنْ كَانَ هَذَا
النِّظَامُ يَلِيقُ بِالْمُسْتَقْبَلِ ، وَلِنَقْتَصِرِ الْآنَ عَلَى الْعِلْمِ بِأَنَّهُ كَانَ نِظَامَ
الزَّمَنِ الَّذِي مَضَى وَانْقَطَعَ .

يُرِيدُ الْإِشْتِرَاكِيُونَ كَمَا عَرَفْنَا أَنْ تَكُونَ الْمِلْكِيَّةُ وَآلَاتُ
الْعَمَلِ ، وَهِيَ وَسَائِلُ الْعَيْشِ فِي الدُّنْيَا ، مُشَاعًا لِلْمَجْمُوعِ وَأَنَّ الْمَجْمُوعَ
يَكُونُ هُوَ الرَّئِيسَ الْأَكْبَرَ وَهُوَ الَّذِي يُوزَعُ مَا حُصِلَ عَلَيْهِ مِنَ الْعَمَلِ
عَلَى كُلِّ عَامِلٍ بِحَسَبِ شُغْلِهِ أَوْ بِحَسَبِ حَاجَاتِهِ وَلَمْ يَهْتَدُوا تَمَامًا إِلَى
الِاتِّفَاقِ عَلَى طَرِيقَةِ التَّقْسِيمِ .

هَذَا هُوَ مِثَالُ الْجَمْعِيَّةِ الَّتِي يُطْلَبُهَا الْإِشْتِرَاكِيُونَ ، وَفِي ظَنِّي
أَنَّهُ غَيْرُ مَجْهُولٍ عِنْدَنَا ، فَهُوَ الَّذِي سَادَ الْأُمَّمَ فِي الْأَعْصُرِ
الْأُولَى ، وَمَعَ مَا كَانَ يُوجَدُ بَيْنَ تِلْكَ الْأُمَّمِ مِنْ أَوْجِهٍ الْإِفْتِرَاقِ
وَالِاخْتِلَافِ كَانَتْ كُلُّهَا قَائِمَةً عَلَى الْمِلْكِيَّةِ الْمُشْتَرَكَةِ :

فَكَانَتْ الْأَرْضُ عِنْدَ بَعْضِهِمْ كَالرُّعَاةِ الرَّحَلِ مِلْكَاً لِجَمِيعِ
السُّكَّانِ ، وَكَانَ الْجَمِيعُ يُسْتَعْلِقُونَهَا أَقْسَامًا بِحَسَبِ الْعَائِلَاتِ وَالْقَبَائِلِ
الَّتِي يَرْجِعُ نَسْلُهَا إِلَى أَصْلِ وَاحِدٍ ، كَذَا كَانَ حَالُ أَقْوَامِ الزُّنُوجِ
وَقَبَائِلِ الْعَرَبِ وَالْمَغَارِبَةِ وَغَيْرِهِمْ ، فَمَا اسْتَقَرَّتْ تِلْكَ الْعُشَائِرُ النَّقَالَةَ
فِي نَوَاحِيهَا أَقَامَتْ كُلُّ عَائِلَةٍ وَكُلُّ قَبِيلَةٍ بِالطَّبَعِ كَمَا كَانَتْ مِنْ نَاحِيَةٍ

شُيوعاً أملاً كرهاً وإلشترارك في منافعها . وكان هذا شأن جميع الأمم القديمة كالعبرانيين والجرمانيين والسلافيين وغيرهم ممن كانوا يقسمون الأراضى بين الجميع كل حين . ومن الأمم من أسلمت ملكية أرضها إلى الوازع ^(١) ، وصار هذا سيّداً عاماً مكلفاً كما يتبغى الإشترار كيون توزيع العمل بالنقسط ^(٢) بين الناس وتقسيم ثمراته عليهم وإيجاد معاش للأرامل والشيوخ ، وأكبر مثال لهذا النظام هي مصر أيام الفراعنة . وإني أكتفى هنا بذكر مجمل هذه المسائل المعروفة عندنا ، وأرجع القراء إن أرادوا زيادة الشرح - إلى ما كتبناه في مجلة العلم الإجتماعي « رسالة الفنون أيام الرعاة » ورسالة الزراعة بالإشترار جزء أول وثان وثالث وعاشر ورسالة مصر القديمة لموسيو « بريفييل » جزء تاسع صفحة ٢١٢ و٥٤٩ وجزء عاشر صفحة ١٦٠ و٣٣٨ وجزء حادى عشر صفحة ٨٠ و٢٥٢ وجزء ثانى عشر صفحة ٦٩ وغيرها .

على أن نظام الرؤية ليس خاصاً بالأمم السالفة بل ظل موجوداً فى بعض جهات المسكونة إلى يومنا هذا ، ولا يزال سائداً بين أهل آسيا وأفريقيا الشمالية بل وبين جميع بلاد أوربأ الشرقية . فمن المعلوم أن القرية التى تسمى عندهم (مير) عبارة عن روكية

عَظِيمَةٌ هِيَ الَّتِي تَمْلِكُ الْأَرْضَ وَتُقَسِّمُهَا بَيْنَ رُوكِيَّاتِ الْعَائِلَاتِ
 فِي كُلِّ حِينٍ بِحَيْثُ لَا يَكُونُ تَحْتَ يَدِ كُلِّ عَائِلَةٍ مِنَ الْأَطْيَانِ إِلَّا
 بِنِسْبَةِ عَدَدِ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ مِنْ أَعْضَائِهَا ، فَالشُّغْلُ مُشْتَرِكٌ كِلِدِكِيَّةٍ
 الْأَرْضِي .

ثَبَّتَ إِذْنًا أَنَّ الرُّوكِيَّةَ لَيْسَتْ حَلَا جَدِيدًا بَلْ هِيَ مَوْجُودَةٌ مِنْ
 يَوْمِ خَلَقَ اللَّهُ الدُّنْيَا وَلَا يَزَالُ بَعْضُ الْأُمَمِ يَعِيشُ فِيهَا .

وَدَفْعًا لِمَا عَسَاهُ يُقَالُ مِنْ أَنَّهُ حَلٌّ مَرَضِيٌّ يُنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَوَسَّعَ
 فِي الْبَحْثِ حَتَّى نَرَى الْأَشْيَاءَ كَمَا هِيَ . وَأَبْدَأُ بِلَفْتِ الْقُرَاءِ إِلَى الْمُشَاهَدَتَيْنِ
 الْآتِيَتَيْنِ : الْأُولَى عَامِنًا مِنَ التَّارِيخِ أَنْ إِحْدَى أُمَّمِ الْأَزْمَانِ السَّابِقَةِ
 تَقَدَّمَتْ كَثِيرًا عَلَى الْبَقِيَّةِ وَانْتَهَى بِهَا التَّقَدُّمُ أَنْ سَادَتْ مَنْ
 سِوَاهَا وَأَعْنَى بِهَا الْأُمَّةَ الرُّومَانِيَّةَ ، وَمِمَّا يَسْتَوْفِقُ النَّظَرَ أَنَّ الْأُمَّةَ
 الرُّومَانِيَّةَ هِيَ الَّتِي تَمَكَّنَتْ مِنَ التَّخَلُّصِ مِنَ الرُّوكِيَّةِ بِدَرَجَةٍ لَمْ
 تَصِلْ إِلَيْهَا أُمَّةٌ سِوَاهَا ، وَلِذَلِكَ أَسْبَابُ شَرْحِهَا مُوسِيُو (بريفييل)
 فِي مَجَلَّةِ الْعِلْمِ الْإِجْتِمَاعِيِّ الصَّادِرَةِ فِي شَهْرِ يَنَايِرِ سَنَةِ ١٨٩١ ضَمِنَ
 رِسَالَةً عَلَى الرُّومَانِيِّينَ فِي مِصْرَ الْقَدِيمَةِ . نَعَمْ إِنَّمَا لَمْ تَتَخَلَّصْ مِنْهَا
 تَمَامًا لِأَنَّ ذَلِكَ الْحِظَّ لَمْ يَتَوَافَرَ لِأُمَّةٍ مِنَ أُمَّمِ الْأَزْمَانِ الْقَدِيمَةِ ،
 غَيْرِ أَنَّا لَا نَجِدُ أُمَّةً عَظُمَتْ شَأْنَ الْمِلْكِيَّةِ الشَّخْصِيَّةِ وَبَالِغَتْ
 فِي احْتِرَامِهَا مِثْلَ الْأُمَّةِ الرُّومَانِيَّةِ ، وَفِيهَا وَصَلَتْ أَنَانِيَّةُ الْإِنْسَانِ

إِلَى أَعْظَمِ نُمُوٍّ أَتِيحَ لِأَهْلِ تِلْكَ الْعُصُورِ، وَفِيهَا صَارَ الْإِنْسَانُ مَسْئُولًا
عَنْ نَفْسِهِ وَعَنْ عَمَلِهِ، وَفِيهَا عَرَفَ الْإِنْسَانُ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لَهُ الْإِعْتِمَادُ
عَلَى نَفْسِهِ، وَتَأَسَّسَتْ الْمِلْكِيَّةُ الْخُصُوصِيَّةُ الَّتِي هِيَ تَقِيضَةُ
الْمِلْكِيَّةِ الْمُشْتَرَكَةِ، وَصَارَ لِلْمِلْكِيَّةِ الْأَفْرَادِ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْإِعْتِبَارِ
مَا وَصَلَ إِلَى حَدِّ الْعِبَادَةِ، حَتَّى إِنَّهُمْ جَعَلُوا حُدُودَ الْأَمْلاكِ مِنَ الْأُمُورِ
الْمُقَدَّسَةِ، وَقَالُوا بِوُجُودِ إِلَهٍ يُسَمَّى إِلَهَ الْحَدِّ، وَأَقَامُوا أَعْيَادًا دَعَوْهَا
الْحَدِّيَّةَ، وَتَقَرَّرَ أَنَّ الْحَدَّ مَتَى تَقَرَّرَ لَا يَجُوزُ نَقْلُهُ. وَقَدْ جَاءَ
فِي قِصَصِهِمْ مَا يُدُلُّ عَلَى هَذَا حَيْثُ نَسَبُوا إِلَى (جويبتير) عَظِيمِ
الْإِلَهَةِ أَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يُبْنِيَ لَهُ هَيْكَلًا عَلَى جَبَلٍ (كايتولان) وَلَكِنَّهُ
لَمْ يَتِمَّكَنْ مِنْ نَزْعِ مِلْكِيَّتِهِ مِنْ مَالِكِهِ إِلَهَ الْحَدِّ، وَدَدَّ الَّذِي
يَهْدِمُ الْحَدَّ أَوْ يُزْحِزُّهُ خَارِجًا عَلَى اللَّهِ وَمَارِقًا مِنَ الدِّينِ، وَجَاءَ
فِي قَوَائِنِهِمُ الْقَدِيمَةِ مَا يُشِيرُ إِلَى أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا أَصَابَ الْحَدَّ بِطَرْفِ
مِحْرَاةٍ يَصِيرُ ضَحِيَّةً هُوَ وَأَثْوَارُهُ لِإِلَهَةِ النَّيْرَانِ.

وَعَلَى هَذَا فَالْأُمَّةُ الَّتِي ارْتَقَتْ وَسَمَتْ فَوْقَ كُلِّ الْأُمَمِ فِي الْأَعْصُرِ
الْبَعِيدَةِ عَنَّا كَانَتْ أَقْلَهُمْ اتِّكَالًا.

المُشَاهِدَةُ الثَّانِيَّةُ : أَنَّ اسْتِقْرَاءَ أَحْوَالِ الْأُمَمِ الْحَاضِرَةِ يَدُلُّنَا
عَلَى أَنَّ اللَّهَ لَا تَزَالُ النِّشْأَةُ الْإِتِّكَالِيَّةُ فِيهَا شَدِيدَةً هِيَ أَعْظَمُهَا
تَأْخُرًا وَأَقْلَهَا مَالًا وَأَضْعَفَهَا جَانِبًا، قَدْ سَبَقَتْهَا فِي كُلِّ شَيْءٍ جَمِيعُ

الأمم التي نمت فيها الملكية الشخصية، وعظم فيها تأثير المرء منفرداً. وذلك لا نحتاج فيه إلى دليل غير النظر في أحوال الأمم الشريفة التي هي الاتكالية والأمم الغربية التي هي الأمم الاستقلالية - على اختلاف بينهما - حيث تبدو لنا الأولى غارقة منذ قرون عديدة في سبات^(١) عميق، وتبدو لنا الثانية في مظهرها العظيم، وقد أبلغت العمل إلى الغاية القصوى، ورفعت قدر الإنسان إلى أعلى الدرجات، وجعلتنا حائزين لأفضلية لم تنلها أمم قبلنا مما نفتخر به ونتيه على الملا^(٢)، وما كنا لنعرف سبب إعجابنا قبل قيام العلم الاجتماعى.

وإذا أنعمنا النظر رأينا أن أكبر أمم الغرب همة في العمل وأرقاهم في زراعتها وصناعاتها وتجارتها وأشدهم بأساً في التنافس الذي تخشاه الأمم الأخرى وأسرعهم إلى احتلال الأقاليم التي لا تزال خالية في الدنيا هي تلك الأمة الإنكليزية السكسونية التي لا تجارى والتي ضاقت بها بلاد إنجلترا فتدفقت في الجهات الأربع وترعرع في أمريكا غصنها القوى فكانت الولايات المتحدة^(٣)، وكل يرى هذا حتى الذين لا يبصرون. ومن المعلوم أن الأمة الاستقلالية الحقيقية بين أمم الغرب هي الأمة

(١) نوم (٢) الملا: جماعة القوم (٣) كان هنا تامة

الانكليزية السكسونية ، وَأَنَّهَا أَبْعَدُهُمْ عَنِ النَّشْأَةِ الْإِتِّكَالِيَّةِ
وَأَنَّهَا هِيَ الَّتِي بَلَغَتْ عِنْدَهَا هِمُّمُ الْأَفْرَادِ مُنْتَهَاهَا وَوَصَلَتْ
سُلْطَةُ الْحُكُومَةِ إِلَى أَدْنَاهَا^(١) .

هَكَذَا كَانَتْ الْأُمَّتَانِ اللَّتَانِ تَمَكَّنْتَا مِنْ أَعْنَاقِ الْعَالَمِ فِي
الزَّمَانِ : أُمَّةُ الرُّومَانِ فِي الْعَهْدِ الْقَدِيمِ ، وَأُمَّةُ الْإِنْكَلِيزِ السَّكْسُونِيِّينَ
فِي هَذَا الزَّمَانِ أَبْعَدَ الْأُمَّمِ عَنِ الْإِتِّكَالِ . وَمَا هَذَا الْإِتِّفَاقُ
بِمُصَادَفَةٍ فَإِنَّ الْمُصَادَفَةَ مُحَالٌ وَإِنَّمَا هُوَ لَازِمٌ مِنْ لَوَازِمِ نَشْأَةِ الْإِسْتِقْلَالِ
وَالِاقْتِنَاعِ بِمَا تَقُولُ سَهْلٌ مَيْسُورٌ

وَلَقَدْ تَمَكَّنْنَا أَنْ نُلَخِّصَ الْمَوْضُوعَ فِي كَلِمَتَيْنِ . مَا اعْتَمَدَ
الْإِنْسَانُ عَلَى غَيْرِهِ وَانْتَظَرَ الْمَعُونَةَ مِنَ الْمَجْمُوعِ إِلَّا قَلَّتْ هِمَّتُهُ
وَقَعَدَ عَنِ الْكَدِّ بِنَفْسِهِ لِيَكْسِبَ مَعِيشَتَهُ ، وَمَا عَرَفَ الْإِنْسَانُ
أَنَّهُ لَا اعْتِمَادَ لَهُ إِلَّا عَلَى نَفْسِهِ وَلَا مَعُونَةَ إِلَّا مِنْ عَمَلِهِ الذَّاتِيِّ
إِلَّا كَبُرَتْ هِمَّتُهُ وَاشْتَدَّ عَلَى الْكَدِّ سَاعِدُهُ لِيُحْصَلَ رِزْقُهُ وَيَتَرَقَّى
عَلَى الدَّوَامِ .

حَالُ الْأَفْرَادِ فِي الْأُمَّمِ الْإِتِّكَالِيَّةِ كَحَالِ مُوظِّفِ النَّظَارَاتِ^(٢)
وَمُسْتَعْدِمِ الْمَصَالِحِ ، وَهِيَ حَالٌ لَا تُرَبِّي فِي الْمَرْءِ مَيْلًا إِلَى الْعَمَلِ
كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ لِأَنَّهُ نِظَامٌ يُقْتَلُ فِي الْإِنْسَانِ مَلَكَةُ الْعَمَلِ وَتَقْدِيرُ

فَوَائِدِهِ الْعَظْمَى . فَإِذَا تَنَاوَلَ ذَلِكَ النُّظَامُ أُمَّةً بِتَامِهَا انْتَشَرَتْ
 آثَارُهُ بِحَسْبِهِ ، وَإِذَا دَامَ تَوَارُثُهُ زَمَنًا طَوِيلًا مِنَ الْآبَاءِ إِلَى الْأَبْنَاءِ
 اشْتَدَّ ظُهُورُ تِلْكَ الْآثَارِ عَلَى قَدْرِ مُدَّتِهِ ، فَتَضَعُفُ الْقُدْرَةُ عَلَى
 الْعَمَلِ نَوْعًا فِي الْوَلَدِ بَعْدَ أَبِيهِ وَيَشْتَدُّ الضَّعْفُ فِي بَنِيهِ . وَهَكَذَا
 حَتَّى يَصِلَ الْجِيلُ الْأَخِيرُ إِلَى مُخْمُولِ ذَلِكَ الرَّجُلِ الشَّرِيقِيِّ الَّذِي لَمْ
 يَبْقَ لَهُ مِنَ الْقُدْرَةِ عَلَى الْعَمَلِ إِلَّا مَا يُحْصَلُ بِهِ الْقُوَّةَ كَتَّى لَا
 يَمُوتَ جُوعًا . وَمَهْمَا قَلَبْنَا الْحَوَادِثَ وَفَتَشْنَا فِي بُطُونِ التَّوَارِيخِ
 فَلَا نَسْتَخْلِصُ غَيْرَ نَتِيجَةٍ وَاحِدَةٍ ، هِيَ أَنَّ النَّشْأَةَ الْإِتْكَالِيَّةَ قَدْ أضعُفَتْ
 الْهَمَمَ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَعَطَلَتْ اسْتِعْدَادَ الْأَفْرَادِ إِلَى الْعَمَلِ وَجَعَلَتْ
 أَهْلَهَا مِنَ الضَّعَفَاءِ الْمُتَأَخِّرِينَ . فَإِنَّ الْإِتْكَالَ وَسَادَةٌ ^(١) لِيَنْتَهَ تَلِيْقُهُ
 بِمَنْ يَمِيلُ إِلَى التَّعَاسِ وَلَسْكَتَهُ مَا كَانَ يَوْمًا بُوْقًا يَقُومُ عَلَى صَوْتِهِ
 مَنْ رَامَ النَّهْوضَ .

وَلَعَلَّ قَوْمًا يَقُولُونَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ أَحَبِّ الْأَشْيَاءِ إِلَيْهِمْ وَإِنَّهُمْ
 يُفَضِّلُونَ النَّوْمَ عَلَى الْقِيَامِ لِأَنَّ غَايَةَ الْمَتَمَنَّى ^(٢) فِي الْحَيَاةِ أَنْ يَسْتَرِيحَ
 الْمَرْءُ مَا اسْتَطَاعَ لِأَنَّ يَشْقَى مَا اسْتَطَاعَ ، وَإِنَّهُمْ يَرْتَاخُونَ لِخُمُولِ أَهْلِ
 النَّشْأَةِ الْإِتْكَالِيَّةِ وَلَا يَبْتَسِمُونَ لِذَلِكَ الْكَدِّ وَالْعَنَاءِ الَّذِي تُنْمِيهِ
 النَّشْأَةُ الْاسْتِقْلَالِيَّةُ . وَأَنَا أَذْرِكُ هَذَا الْإِعْتِرَاضَ بَلْ أَقُولُ إِنَّ فِيهِ

(١) مخدة (٢) أى غاية ما يتعمناه الانسان

رَفَقًا وَحَنَانًا بِالنَّاسِ وَلَيْسَ فِيهِ عَيْبٌ إِلَّا أَنْ مَا يَطْلُبُونَ مُحَالٌ
لِسَبَبَيْنِ :

الأولُ أَنَّ الأَسْبَابَ الطَّبِيعِيَّةَ الَّتِي تَوَلَّدَتْ عَنْهَا النَّشْأَةُ الاتِّكَالِيَّةُ
فِي الأَزْمَانِ المَاضِيَةِ لَمْ تَعُدْ مُؤَثِّرَةً فِي هَذِهِ الأَيَّامِ وَلَا عَامَّةً كَمَا
كَانَتْ. فَالأَصْلُ فِي وُجُودِ تِلْكَ النَّشْأَةِ حَالَةُ البَدَاوَةِ الأُولَى الَّتِي
ظَهَرَتْ فِي سُهُولِ آسِيَا الفَسِيحَةِ ذَاتِ الأعْشَابِ الكَثِيرَةِ حَيْثُ
بَدَأَتْ الإِنْسَانِيَّةُ بالتَّرَقِّي . فَلَمَّا تَفَرَّقَ النَّاسُ اسْتَضَجَبُوا مَعَهُمْ
نَشَأَتَهُمُ الأُولَى وَأَدْخَلُوهَا حَيْثُ اسْتَقَرَّ بِهِمُ المَقَامُ وَلَمْ تَتَغَيَّرْ إِلَّا
حَسَبَ ظُرُوفِ كُلِّ بَلَدٍ وَطِبَاعِ السَّاكِنِينَ فِيهِ ، فَخَضَعَتْ لِسُلْطَانِهَا
جَمِيعُ الأُمَمِ القَدِيمَةِ ، كَمَا بَيَّنَّاهُ ، لِأَنَّهَا كَانَتْ قَرِيبَةً العَهْدِ بِمَوْلِدِهَا ،
وَلِأَنَّ تِلْكَ النَّشْأَةَ كَانَتْ مَا تَزَالُ كَمَا وَجِدَتْ بَاقِيَةً فِي البِلَادِ المَجَاوِرَةِ
لِأَعْظَمِ سَهْلِ مَوْجُودٍ عَلَى وَجْهِ البَسِيطَةِ . وَمَعْلُومٌ أَنَّ البَدَاوَةَ لَمْ
يَعُدْ هُنَا ذَلِكَ التَّأثيرُ عَلَى الأُمَمِ خُصُوصًا فِي الغَرْبِ لِأَنَّهَا بَعِيدَةٌ عَنْهَا
زَمَانًا وَمَكَانًا ، وَلَوْ جُودِ الأُمَمِ الإِسْتِقْلَالِيَّةِ فِي الغَرْبِ مِنْ يَوْمِ ظُهُورِ
الدِّينِ المَسِيحِيِّ لِأَسْبَابِ وَظُرُوفِ شُرْحَتِ فِي مَجَلَّةِ العِلْمِ الإِجْتِمَاعِيِّ
وَلَا حَاجَةَ بِنَا إِلَى تَكَرُّرِهَا (جُزْءٌ أَوَّلٌ صَحِيفَةَ ١١٠)

ثَبَتَ إِذْنًا أَنَّ السَّبَبَ الأَوَّلَ المُؤَثِّرَ فِي وُجُودِ النَّشْأَةِ الاتِّكَالِيَّةِ
لَمْ يَعُدْ صَالِحًا اليَوْمَ لِغَايَتِهِ ، وَأَنَّهُمْ يُرِيدُونَ إِحْيَاءَ تِلْكَ النَّشْأَةِ بِسَبَبِ

صِنَاعِيٍّ هُوَ الْقَهْرُ، أَي سَنُّ الْقَوَانِينِ أَيْ تَدَخُّلُ الْحُكُومَةِ حَتَّى
تَصِيرَ الرَّئِيسَ الْأَعْظَمَ عَلَى السُّكُلِ فِي الْمُجْتَمَعِ الْإِشْتِرَاكِيِّ الَّذِي
يَتَأَلَّفُ فِي خِيَالِ الْإِشْتِرَاكِيِّينَ . وَبَدِيهِ أَنْ هَذَا الْحَالُ لَا يَتَحَقَّقُ
اللَّهُمَّ إِلَّا إِذَا اضْطَرَدَمَ مَعَ طَبَائِعِ الْأَشْيَاءِ فَغَلَبَهَا وَنَاطَحَ جَمِيعَ الْمَنَافِعِ
الْمُتَأَلِّفَةِ^(١) طَبَعًا عَلَيْهِ فَانْتَصَرَ عَلَيْهِا، لِأَنَّهَا عِبَارَةٌ عَنْ تَجْرِيدِ كُلِّ مَنْ
كَانَ فِي يَدِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنَ الْأَرْضِ أَوْ يَسِيرٌ مِنْ آلَاتِ الْعَمَلِ مِمَّا
مَلَكَ . وَلَسْنَا نَرَى كَيْفَ الْوُصُولِ إِلَى هَذَا السَّبِيلِ عَلَى فَرَضِ أَنَّ
النَّاسَ كُلَّهُمْ سَهْلٌ يَلِينٌ لِكُلِّ مَطْلَبٍ ، وَلَسْكَنَ الْإِشْتِرَاكِيِّينَ
لَا يَتَحَيَّرُونَ!!

هَبَّهُمْ نَجَحُوا — وَلَا أَدْرَى كَيْفَ يَنْجَحُونَ — فَأَدْخَلُوا نِظَامَهُمْ
الْإِشْتِرَاكِيَّ فِي الْبِلَادِ الَّتِي لَهُمْ بِهَا فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ بَعْضُ النُّفُوزِ
بَيْنَ سُكَّانِهَا، إِذْ ذَاكَ تَنَتَّصَبُ^(٢) أَمَامَهُمُ الْعَقَبَةُ الثَّانِيَّةُ — وَلَا غَالِبَ
لَهَا — فَتَسُدُّ فِي وَجْهِهِمُ الطَّرِيقَ سَدًّا مَكِينًا وَهِيَ السَّبَبُ الثَّانِي
الَّذِي بَقِيَ الْكَلَامُ عَلَيْهِ .

الثَّانِي إِذَا تَمَّ فَوْزُ الْإِشْتِرَاكِيِّينَ بِمَا يَشْتَهُونَ لَا يَلْبَثُونَ أَنْ يَرَوْا
جَمِيعَ نَتَائِجِ النِّشْأَةِ الْإِتِّكَالِيَّةِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا بَادِيَةً بَيْنَ جُمُوعِهِمْ

(١) تألب الناس عليه: تجمعوها وانضم بعضهم الى بعض

(٢) تقوم

الاشتراكية عملاً بسنة : العلة بذاتها تنتج المعلول بذاته أبداً .
 وَيَكُونُ فِعْلُ تِلْكَ النَّتَاجِ فِي النَّاسِ أَشَدَّ ، لِأَنَّ النَّظَامَ الَّذِي يُطَلِّبُهُ
 الْإِشْتِرَاكِيُّونَ الْأَلْمَانِيُّونَ أَقْسَى وَأَخْرَجُ مِنَ الَّذِي عَرَفْنَاهُ عَنْ زَمَنِ
 الْفِرَاعِنَةِ فِي الْأُمَّةِ الْمِصْرِيَّةِ ؛ هُنَالِكَ يَسْتَوْلِي الضَّعْفُ بَعِيْنَهُ عَلَى دَعَائِمِ
 تِلْكَ الْأُمَّةِ وَيَدْخُلُ الْإِنْجِلَالُ إِلَى أَعْصَابِهَا الْحَيَوِيَّةِ ، وَهُوَ الَّذِي
 رَمَى بِأُمَّةِ الزَّمَنِ الْقَدِيمِ بَيْنَ يَدَيِ الزَّمَانِ . نَعَمْ لَسْنَا نَخَافُ الْيَوْمَ
 مِنَ الرُّومَانِ إِلَّا أَنَّهُ يُوجَدُ فِي طَرِيقِ الْأُمَّةِ الْإِشْتِرَاكِيَّةِ خَصْمٌ
 أَشَدُّ بَأْسًا وَأَضْعَبُ مِرَاسًا وَهُوَ الْجِنْسُ الْإِنْكَلِيزِيُّ السَّكْسُونِيُّ
 الَّذِي هَمَّ بِالْإِسْتِيلَاءِ عَلَى الدُّنْيَا بِمَا أُوتِيَهُ مِنْ نُومٍ هَمَّةٍ أَفْرَادِهِ إِلَى
 الْحَدِّ الْمُسْتَطَاعِ ، أَصْحِيحٌ بَعْدَ هَذَا أَنَّ الزَّمَانَ مُنَاسِبٌ لَبَثِ رُوحِ
 مَذْهَبِ الْإِشْتِرَاكِيِّينَ بَيْنَ الْأُمَّةِ .؟؟

وَكَيفَ يَخْطُرُ بِالْبَالِ أَنَّ تِلْكَ الْعُقُولَ النَّيِّرَةَ لَا تَجِدُ مِنَ الْإِصْلَاحِ
 مَا تُشِيرُ بِهِ عَلَيْنَا إِلَّا نِظَامَ الشَّرْقِ مَعَ زِيَادَةِ فِي التَّمْيُودِ وَتَشْدِيدِ
 فِي التَّعَالِيمِ وَأَنَّهُمْ يَخْتَارُونَ لِتَقْدِيمِ هَذِهِ الْمَشُورَةِ ذَلِكَ الْيَوْمَ
 الَّذِي بَلَغَتْ فِيهِ قُوَّةُ الْغَرْبِ عَلَى الشَّرْقِ مُنْتَهَاهَا؟ أَجَلٌ لَنْ تُبْطِئَ
 عَنْهُمْ نَتِيجَةُ عَمَلِهِمْ هَذَا ، وَقَدْ تَبَّأْنَا بِهَا التَّارِيخُ عَلَى أَنَّ مَا يَجْرِي
 الْيَوْمَ كَافٍ لِلدَّلَالَةِ عَلَيْنَا .

يَجْرِي الْيَوْمَ أَنَّ أُمَّةَ الْغَرْبِ تَحْتَلُّ سَائِدَةً أُمَّةَ الشَّرْقِ وَتُنْشِئُ

فِيهَا الْمُسْتَعْمَرَاتِ وَتَقِيمُ الْحُكُومَاتِ أَوْ تَضْمُنُهَا إِلَى أَمْلَاكِهَا ضَمًّا
لَا تَحْتَاجُ فِيهِ إِلَى مَشُورَةٍ أَوْ اسْتِئْذَانٍ . يَجْرِي الْيَوْمَ أَنَّ تِلْكَ الْأُمَّةَ
الْإِتِّكَالِيَّةَ أَصْبَحَتْ كَأَنَّهَا خُلِقَتْ لِخِطْلِهَا قَوْمٌ آخَرُونَ . وَالْأُمَّةُ
الْإِنْكِلِيزِيَّةُ السَّكْسُونِيَّةُ هِيَ الَّتِي تَتَقَدَّمُ جَمِيعَ الْأُمَمِ فِي هَذِهِ
السِّيَادَةِ الْعَامَّةِ ، فَلَوْ أَنَّا وَضَعْنَا أَنْفُسَنَا مَوْضِعَ أُمَّةِ الشَّرْقِ لَزِدْنَا
فِي سَبْقِ الْإِنْكِلِيزِ السَّكْسُونِيِّينَ إِيَّانَا وَلَقَدَّمْنَا إِلَيْهِمْ فَرِيسَةً أُخْرَى .
وَلَيْسَتْ الْحَرْبُ سِجَالًا^(١) بَيْنَ أُمَّتَيْنِ أُمَّةٍ نَمَتْ فِيهَا الْهَمَّةُ وَالْإِقْدَامُ
بَيْنَ أَفْرَادِهَا وَأُمَّةٍ بَاتَتْ فِيهَا الْهَمَمُ مَضْغُوطًا عَلَيْهَا فَتَعَطَّلَتْ ، بَلْ
لَا بُدَّ أَنْ تَسْتَعْلِيَ الْأُولَى عَلَى الثَّانِيَةِ .

أَهَذَا هُوَ الَّذِي يَخْطُرُ بِأَحْلَامِ^(٢) الْإِشْتِرَاكِيِّينَ الْأَلْمَانِيِّينَ وَهَلْ
يَرَوْنَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ مَيْلًا إِلَى أَنْ يَصِيرُوا إِلَى مَا صَارَ إِلَيْهِ هُنُودُ امْرِيكَ
أَمَامَ الْإِنْكِلِيزِ مِنْ سُكَّانِهَا .

وَمَعَ مَا تَقَدَّمَ كَأَنَّه فَلَسْنَا مِمَّنْ يَقُولُ بِأَنَّهُ لَيْسَ فِي الْأَمْكَانِ أَبْدَعُ
مِمَّا كَانَ بِالنَّظَرِ إِلَى الْحَالَةِ الرَّاهِنَةِ كَمَا يَذْهَبُ إِلَيْهِ فِيمَا يَظْهَرُ بَعْضُ
الْإِقْتِسَادِيِّينَ . إِلَّا أَنَّ خَطَأَ الَّذِينَ يَسْعَوْنَ وَرَاءَ حَلِّ مَرْضَى لِلْمَسْأَلَةِ
الْاجْتِمَاعِيَّةِ يَأْتِي مِنَ الْمَيْلِ إِلَى زِيَادَةِ تَدَخُّلِ الْحُكُومَةِ وَالضَّغْطِ عَلَى
هَمِّ الْأَفْرَادِ الذَّائِمَةِ وَالْوَاجِبِ بِالْعَكْسِ فَإِنَّ الْحَقِيقَةَ الَّتِي تُبْرَهِنُ

(١) يقال الحرب بينهم سجال أى تارة لهم وتارة عليهم (٢) عقول

عَلَيْهَا الْحَوَادِثُ هِيَ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَحْذُوَ عَلَى الدَّوَامِ حَذْوً (١)
 الْأُمَمُ الَّتِي تَقَدَّمَتْ عَلَى غَيْرِهَا فِي الْمَاضِي وَفِي الزَّمَنِ الْحَاضِرِ لَا بِقُوَّةِ
 السَّلَاحِ بَلْ بِمَا هُوَ أَشَدُّ بَأْسًا مِنْهَا وَهِيَ قُوَّةُ النُّظَامِ الْاجْتِمَاعِيِّ .
 وَمِنْ الْمَشَاهِدِ أَنَّ هَذَا النُّظَامَ هُوَ الْيَقِينُ الْأَحْوَالِ لِجَلِّ الْمَسَائِلِ
 الَّتِي اخْتَلَفَ عَلَيْهَا الْمُشْتَغِلُونَ بِالْعَمَلِ فِي جَمِيعِ الْبِلَادِ وَأَعْنَى بِهَا مَسْأَلَةُ
 الْفَعْلَةِ الَّتِي يَدْعَى الْإِشْتِرَاكِيُونَ بِاطِّلَاءِ أَنَّهُمْ تَعَثَّرُوا عَلَى مِفْتَاحِهَا .
 وَالِدَلِيلُ عَلَى مَا نَقُولُ أَنَّ الْأُمَّمَ الْإِسْتِقْلَالِيَّةَ هِيَ الَّتِي أَصْبَحَ فِيهَا
 عَامِلَا الْعَمَلِ وَهُمَا السَّيِّدُ وَالْفَاعِلُ فِي أَحْسَنِ الْأَحْوَالِ الْمُوَافِقَةِ لِفَضْلِ
 جَمِيعِ الْمُنَازَعَاتِ الَّتِي تَحْدُثُ بِسَبَبِ اتِّسَاعِ النُّطَاقِ فِي الْمَعَامِلِ
 الصَّنَاعِيَّةِ . وَلَا حَاجَةَ بِي أَنْ أُبْرَهِنَ عَلَى أَنَّ النَّشْأَةَ الْإِسْتِقْلَالِيَّةَ
 تُنْمِي بَدَنِيَّهَا فِي الرُّؤْسَاءِ الْهَيْمَةِ وَالْإِقْدَامِ ، وَتُعَوِّدُهُمُ الْإِعْمَادَ عَلَى
 أَنْفُسِهِمْ ، وَتُرَبِّي فِيهِمْ مَلَكَتَةَ اسْتِنْبَاطِ الْمَشْرُوعَاتِ أَكْثَرَ مِنْ
 النَّشْأَةِ الْإِتِّكَالِيَّةِ بِدَلِيلِ الْفَرْقِ بَيْنَ أُمَّمِ الْعَرَبِ وَبَيْنَ أُمَّمِ الشَّرْقِ .
 وَلَا مُشَاحَّةَ فِي أَنَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ الْمُتَعَدِّدَةَ لَازِمَةٌ لِلنَّجَاحِ فِي إِدَارَةِ
 الْعَمَلِ بِالنَّظَرِ إِلَى الظُّرُوفِ وَالْأَحْوَالِ الْجَدِيدَةِ الدَّقِيقَةِ الَّتِي طَرَأَتْ
 عَلَى الصَّنَاعَةِ بَعْدَ الْعُثُورِ عَلَى مَنَاجِمِ الْفَحْمِ . كَمَا أَنَّهُ لَا مِرَاءَ (٢) فِي أَنَّ
 مِثَالَ الرَّئِيسِ الْكَبِيرِ ذِي الْكِفَايَةِ التَّامَةِ وَالْإِقْدَامِ قَدْ نَمَّا وَتَقَدَّمَ

في الأمة الإنكليزية السكسونية أكثر مما عليه أهل الأمم
الاتكالية أو التي تميل إلى الاتكال وهذا التقدم هو الذي جعل
لتلك الأمة أفضلية يخشاها الجميع في الصناعة .

قالوا (ومما الذي يفيد هذا في تحسين حال العامل وهو المقصود
أولاً وبالذات) والجواب على ذلك بسيط

فأول شرط في اطمئنان الفعلة على وجود ما يعملون فيه
بأكبر ما يمكن من الفائدة لهم أن يكون الرؤساء ذوى أهلية
كافية لاجتاج صناعتهم ، ولأشك في أن النظام الذي يربى
في الرؤساء ذلك الاستعداد يكون مناسباً لتحسين حال العمال إذ
متى نمت صناعة الرئيس تيسر له أن يدفع لعماله أجوراً طيبة ،
وسهل عليهم تخصيص نصيب من أموالهم لإيجاد المنشآت التي
تدفع عن رجالهم جوائج^(١) الزمان فتعينهم إذا احتاجوا وتسكف لهم
رزقهم إذا قعدوا وهكذا وذلك لا يتيسر للذين ضعف
استعدادهم وقل إقدامهم وصعبت عليهم الأعمال .

يقال إن قدرة الرؤساء على القيام بتلك الأعمال لا يترتب
عليها أنهم يقومون بها وقد يجوز كما شوهد أنهم ينتهزون
نجاحهم في أعمالهم فرصة لزيادة كسبهم غير ملتفتين أقل التفات
إلى تحسين حال العمال .

(١) الجائحة البلية والتهلكة والداية العظيمة التي تجتاح أى تسأصل

وَهُوَ اعْتِرَاضٌ وَجِيهٌ ، غَيْرَ أَنَّهُ يُتَبَيَّنُ لَنَا فِي الْجَوَابِ عَنْهُ أَنَّ
 بُيْنَ أَفْضَلِيَّةِ النَّشْأَةِ الْإِسْتِقْلَالِيَّةِ عَلَى النَّشْأَةِ الْإِتْكَالِيَّةِ ، لِأَنَّهَا مَعَ
 عَظَمَتِهَا لَمْ يَلْتَفِتِ الْبَاحِثُونَ إِلَيْهَا كَمَا يَنْبَغِي ، وَتِلْكَ الْأَفْضَلِيَّةُ حَاصِلَةٌ
 عِنْدَ الْفَعْلَةِ كَمَا هِيَ ثَابِتَةٌ لِلرُّؤْسَاءِ .

النَّشْأَةُ الْإِتْكَالِيَّةُ تَجْعَلُ الْعَامِلَ غَيْرَ أَهْلِ لِأَيِّ حَرَكَةٍ ذَاتِيَّةٍ
 عَظِيمَةٍ دَائِمِيَّةٍ ، بَلْ تُصَيِّرُهُ آلَةً صَمَاءً كَمَا كَانَ عَامِلُ الزَّمَنِ الْقَدِيمِ ،
 وَكَأَنَّ هُوَ حَالُ الْعَامِلِ الشَّرْقِيِّ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ ، وَكَأَنَّ هُوَ الْعَامِلُ الْأَلْمَانِيَّ
 عَلَى التَّقْرِيبِ ، فَإِنَّ هَذَا الْأَخِيرَ أَصْبَحَ آلَةً فِي يَدِ الْمُقْلِقِينَ يُجَنِّدُونَهُ
 تَحْتَ لَوَائِمِهِمْ بِسُهُولَةٍ لَيْسَ لَهَا مَثِيلٌ ، لَا فَرْقَ بَيْنَ الْمُقْلِقِ
 الْإِسْتِرَاكِيِّ الثَّوْرِيِّ ، أَوِ الْمُحَافِظِ ، أَوِ الْإِنْجِيلِيِّ ، أَوِ الْكَاثُولِيكِيِّ أَوْ
 غَيْرِهِمْ . وَلَا قُوَّةَ فِي الظَّاهِرِ لِلرُّؤْسَاءِ الْمَذْهَبِ الْأَلْمَانِيِّ إِلَّا بِهَذَا
 الْإِسْتِسْلَامِ فَقَدْ لَانَتْ فِي أَيْدِيهِمْ طِينَةُ الْعُمَالِ فَيُصَوِّرُونَهُمْ بِالشَّكْلِ
 الَّذِي يُرِيدُونَ وَيَسُوقُونَهُمْ كَالْأَغْنَامِ حَيْثُ يَشَاءُونَ ، وَهَذَا هُوَ السَّرُّ
 فِي دَهْشَتِهِمْ مِنْ اسْتِعْصَاءِ الْأَمْرِ عَلَيْهِمْ يَوْمَ جَاءُوا إِلَى إِنْكَاتِرِهِ
 وَالْوَلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ لِشَرِّ مَبَادِيهِمْ بَيْنَ تِلْكَ الْأُمَمِ ، وَذَهَلُوا لِأَنَّهُمْ
 وَجَدُوا الْفَعْلَةَ لَا يَسْمَعُونَ لَهُمْ نِدَاءً . وَتِلْكَ هِيَ دِهْشَةُ الرَّجُلِ
 الْإِتْكَالِيِّ الَّذِي يَصْطَلِمُ فِي طَرِيقِهِ مَعَ الرَّجُلِ الْإِسْتِقْلَالِيِّ ، لِذَلِكَ

وَصَفَ أَحَدُ أَوْلِيَاكَ الْمُقْلِقِينَ عُمَالَ الْإِنْكَلِيزِ السَّكْسُونِيِّينَ مُحْتَقِرًا
« بَأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يُبْصِرُونَ ». وَإِلَيْكَ مَا كَتَبَهُ مُوسِيُو « وِزِيُوَا » أَحَدُ
مُؤَرِّخِينَا فِي كِتَابِهِ « الْإِشْتِرَاكِوْنِ فِي أُورُبَا صَفْحَةَ ٢١١ » قَالَ :
« لَا يُوجَدُ فِي أُورُبَا بِلَدِّه حَصَلَ الْعَمَلَةُ فِيهِ عَلَى الَّذِي نَالُوهُ فِي انْجِلْتِرَا
لِتَحْسِينِ حَالَتِهِمْ ، فَإِنَّهُمْ أَكْثَرُوا فِيهَا صِنَادِيْقَ الْاِقْتِصَادِ وَشَرِكَاتِ
التَّأْمِينِ وَجَمْعِيَّاتِ التَّعَاوُنِ وَأَصْبَحُوا بِطَرِيقَتِهِمُ الْمُسَمَّاةِ « تِرَادَسِينِيُونِ »
مِنْ أَهْلِ الْأَمْوَالِ ، وَلَكِنَّهُمْ حَصَلُوا كُلَّ هَذَا بِغَيْرِ مَذْهَبِ
الْإِشْتِرَاكِوْنِ وَمِنْ دُونِ أَنْ يُفْسَكُرُوا فِي تَغْيِيرِ النِّظَامِ الْاِجْتِمَاعِيِّ
الْحَاضِرِ . وَمَعْنَاهُ أَنَّهُمْ حَصَلُوا كُلَّ هَذَا بِدُونِ أَنْ يَرْضُوا بِقِيَادَةِ
الْمُقْلِقِينَ وَالْمُتَطَفِّلِينَ عَلَى السِّيَاسَةِ ، وَهَذَا هُوَ ذَنْبُهُمُ الَّذِي لَا يَغْفِرُهُ
أَوْلِيَاكَ الْمُقْلِقُونَ .

وَالَّذِي يُحِبُّ الْوُقُوفَ عَلَى مَا آتَى بِهِ الْفَعْلَةُ مِنَ الْإِنْكَلِيزِ
السَّكْسُونِيِّينَ فِي إِنْكَارِهِ وَالْوَلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ بِأَنْفُسِهِمْ وَبِمَحْضِ
قُوَّتِهِمُ الذَّائِيَّةِ وَإِقْدَامِهِمْ بِدُونِ أَنْ يَطْلُبُوا مَعُونَةَ الْحُكُومَةِ بَلْ مَعَ
رَفْضِهِمْ تِلْكَ الْمَعُونَةَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَقْرَأَ تَارِيخَ جَمْعِيَّاتِهِمُ الْمُسَمَّاةِ
« تِرَادَسِينِيُونِ » الْمَذْكُورَةَ فَلَا شَيْءَ أُفِيدَ مِنْهُ وَلَا أَقْطَعَ حُجَّةً عَلَى
تَقَدُّمِ الْفَعْلَةِ مِنْ أَهْلِ النِّشَاةِ الْاِسْتِقْلَالِيَّةِ تَقَدُّمًا يَفُوقُ الْوَصْفَ ، وَعَلَى
مَا تُوْجَدُهُ تِلْكَ النِّشَاةُ فِيهِمْ مِنْ الْاِسْتِعْدَادِ لِلتَّقَدُّمِ وَالتَّرْقِي .

وَمِمَّا يُبْلَحُظُ فِي تِلْكَ الْجَمْعِيَّاتِ هُوَ أَنَّهَا مُتَشَبِّعَةٌ بِاسْتِقْلَالِهَا
 كَامَّتِهَا وَأَنَّهَا لَيْسَتْ كَالْجَمْعِيَّاتِ الْأَلْمَانِيَّةِ الَّتِي تَتَوَقُّ^(١) إِلَى تَعْمِيمِ
 نِظَامِهَا بَيْنَ الْفُعْلَةِ عِنْدَ جَمِيعِ الْأُمَمِ أَوْ عِنْدَ أُمَّتِهَا، وَتَرْمِي إِلَى تَغْيِيرِ
 الْهَيْئَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ بِتَامِهَا، وَإِنَّمَا هِيَ شَرِكَاتٌ اسْتِقْلَالِيَّةٌ تَتَأَلَّفُ كُلُّ
 وَاحِدَةٍ مِنْ فَرِيقٍ مَخْصُوصٍ يَجْمَعُهَا مَقْصِدٌ مُعَيَّنٌ مُحَدُودٌ وَلَا تَتَأَلَّفُ مِنْهَا
 جَمْعِيَّةٌ هَائِلَةٌ يَقُودُهَا بَعْضُ الْمُقْلِقِينَ وَيَسْتَعْمِلُونَهَا فِي إِقَامَةِ مَبَانِي مَجْدِهِمْ
 بَلْ هِيَ جَمْعِيَّاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ مُسْتَقَلَّةٌ بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ، أَوْ لَا يَرِبُطُهَا إِلَّا
 رِبَاطٌ صَغِيرٌ. وَيَشْعُرُ الْإِنْسَانُ إِذَا فَكَّرَ فِي نِظَامِ تِلْكَ الشَّرِكَاتِ أَنَّهَا
 وَجِدَتْ فِي أُمَّةٍ تَمِيلُ إِلَى الْإِسْتِقْلَالِ وَالْإِطْلَاقِ لِأَنِّي أُمَّةٌ تَعَشِقُ
 التَّقْيِيدَ وَالْإِسْتِبْدَادَ، وَالتَّارِيخُ شَاهِدٌ عَلَى مَا نَقُولُ. فَقَدْ نَشَرُ مُوسِيُو
 «كاستلو» رِسَالَةً فِي «جَرِيدَةِ الْاِقْتِصَادِيِّينَ» الصَّادِرَةِ فِي دَيْسَمْبَرِ
 سَنَةِ ١٨٩١ لَخَّصَ فِيهَا كِتَابَ مُوسِيُو «هويل» كَاتِمِ سِرِّ مَوْتَمَرَاتِ
 هَذِهِ الشَّرِكَاتِ الَّتِي سَمَّاهُ «النِّزَاعَ بَيْنَ الْعَمَلِ وَرَأْسِ الْمَالِ» وَمِمَّا
 جَاءَ فِيهَا: «لَقَدْ جَاءَتْ شَرِكَاتُ تَرَادِيسِيُونِ لِلصَّنَاعِ الْإِنْكَلِيزِ
 مَدْرَسَةً تَهْدِيْبِ وَأَخْلَاقٍ وَعَوْنًا عَلَى التَّرَقِّيِّ، وَلَا تَزَالُ حَافِظَةً
 لِاسْتِقْلَالِهَا النَّوْعِيِّ، وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى لَمْ تَخْرُجْ عَنْ تَقَالِيدِ النَّشْأَةِ
 الْإِسْتِقْلَالِيَّةِ — يُبْلَحُظُ أَنَّ الْكَلِمَةَ بِذَاتِهَا وَرَدَتْ فِي الرِّسَالَةِ — الَّتِي

قَامَتْ حِجَابًا بَيْنَهَا وَبَيْنَ انْضِمَامِهَا إِلَى جَمْعِيَّةٍ وَاحِدَةٍ تَدْخُلُ تَحْتَهَا
 جَمِيعُ الِهِمَمِ الذَّائِيَّةِ وَمَكَاسِبُ الْمُشْتَرِكِينَ كُلَّهَا نَخَابَتْ بِذَلِكَ كُلُّ
 الْمَسَاعِيِ الَّتِي بُذِلَتْ فِي هَذَا السَّبِيلِ . وَقَدْ بَلَغَ أَعْضَاءُ تِلْكَ الشَّرِكَاتِ
 فِي انْكِتِرَا وَحَدَهَا مِليُونًا وَنِصْفَ مِليُونٍ ، وَبَلَغَ دَخْلُهَا مِليُونَيْنِ
 مِنَ الْجُنَيْهَاتِ الْإِنْكِلِيزِيَّةِ أَعْنِي خَمْسِينَ مِليُونًا مِنَ الْفَرَنْسِكَاتِ ،
 وَعِنْدَهَا مَبْلَغُ احْتِيَاطِيٍّ مِثْلُ ذَلِكَ بِالتَّمَامِ . تِلْكَ هِيَ قُوَّةُ الْعُمَالِ الْهَائِلَةِ
 الَّتِي أَوْجَدَهَا الْإِقْدَامُ الذَّائِي فَلَتَّتْ لَنَا أَلْمَانِيَا بِمِثْلِ هَذَا .

وَلَا تَنْقُصُ قُوَّةُ الْعُمَالِ فِي الْوَلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ عَنْ ذَلِكَ كَمَا يَبْنَاهُ
 عِنْدَ الْكَلَامِ عَلَى رَفْضِهِمُ الدُّخُولَ فِي مَذْهَبِ الْإِشْتِرَاكِيِّينَ .
 وَمِمَّا يَجِبُ الْإِلْتِفَاتُ إِلَيْهِ أَنْ تِلْكَ الْقُوَّةُ الْعَظِيمَةُ لَمْ تَكُنْ قَائِمَةً
 فِي وَجْهِ « الْهَيْئَةِ ذَاتِ رَأْسِ الْمَالِ » كَمَا يَقُولُ الْإِشْتِرَاكِيُّونَ مُعْضِينَ
 بَلِ الْغَرَضُ الْوَحِيدُ مِنْهَا تَحْسِينُ حَالِ الْعُمَالِ فِعْلًا بِالْمَعَارِضَةِ فِي
 تَخْفِيزِ الْأَجُورِ وَاقْتِصَادِ جُزْءٍ مِمَّا يَكْسِبُونَ لِتَخْفِيفِ الْبَطَالَةِ الَّتِي
 قَدْ تَأْتَى عَفْوًا ، وَكُلُّ ذَلِكَ مِنْ دُونِ أَنْ يَمْدُوا أَيْدِيَهُمْ إِلَى طَلَبِ مُسَاعَدَةِ
 الْحُكُومَةِ أَبَدًا .

أَمْرٌ مَجْلِسُ النُّوَابِ بِإِجْرَاءِ تَحْقِيقٍ عَنِ حَالَةِ الْفَعْلَةِ فَقَرَّرَ أَغْلَبُ
 رُؤَسَاءِ الْعَمَلِ — رُؤَسَاءِ الْعَمَلِ ! هَلْ أَنْتُمْ سَامِعُونَ؟ — أَنَّ الْعُمَالِ الَّذِينَ
 مِنْ تِلْكَ الشَّرِكَاتِ نُمُّ أَمُورٌ فِي عَمَلِهِمْ وَأَخْلَصُ فِي شُغْلِهِمْ مِنْ بَقِيَّةِ

الْعَمَالِ الَّذِينَ مَعَهُمْ . قَالَ الْمَوْلَفُ السَّابِقُ : « وَعَلَى الْعُمُومِ فِإِنَّهُمْ
اكَتَفَوْا بِاسْتِعْمَالِ الطَّرِيقِ الشَّرْعِيَّةِ لِلْحُصُولِ عَلَى مَا بِهِ يَصِيرُونَ جَمْعًا
مِنْ شَأْنِهِ إِتْمَاءُ الْهَمِّ واحْتِرَامُ الْمَرْءِ لِدَاتِهِ ، وَلَمْ يَطْلُبُوا فِي الْوُصُولِ
إِلَى غَرَضِهِمْ مِنَ الْحُكُومَةِ إِلَّا أَنْ تَرْفَعَهُمْ عَنْهُمْ الْقِيُودَ الَّتِي كَانَتْ تُغْلِبُهُمْ (١)
عَنِ التَّرَقِّي فِي هَذَا السَّبِيلِ دُونَ أَنْ يَلْتَمِسُوا مِنْهَا مَنَّةً (٢) أَوْ مَعُونَةً .
وَقَدْ مَضَى عَلَى تِلْكَ الشَّرَكَاتِ نَحْوُ قَرْنٍ مِنَ السِّنِينَ ، وَلَمْ يَحِيدُوا (٣)
عَنْ طَرِيقِهِمْ هَذَا لِأَنَّهُ الطَّرِيقُ الْجَدُّ وَبِهِ الْفَخَارُ وَلَهُ الْوَقَارُ ، وَهُوَ
الَّذِي حَمَلَ أَقْلَ النَّاسِ مَيْلًا إِلَيْهِمْ عَلَى أَنْ يَقُومُوا لَهُمْ بِوَجِبِ الْإِحْتِرَامِ .
ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ نَجَبَةُ الْعَمَالِ ، وَقَدْ عُرِفُوا بِمَا عُرِفَتْ بِهِ الْأُمَّةُ الْبَرِيطَانِيَّةُ
مِنْ ثَبَاتِ الْأَخْلَاقِ وَالْبَقَاءِ هَادِيَةً فِي مَبَادِيهَا . »

هَكَذَا تَمَكَّنَتِ النِّسَاءُ الْإِسْتِقْلَالِيَّةُ مِنْ إِجَادِ رِجَالٍ بَيْنَ رُؤَسَاءِ
وَعَمَالٍ هُمْ أَقْدَرُ النَّاسِ بِأَنْفُسِهِمْ عَلَى حَلِّ الْمَسْأَلَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ .

وَالآنَ نَفْرِضُ - وَالْأَمْرُ وَقَعَ لَا شَكَّ فِيهِ - أَنَّ بَعْضَ الرُّؤَسَاءِ
لَا يَدْرِكُونَ حَقِيقَةَ مَصْلَحَتِهِمْ فَيَبْتَرُونَ (٤) أَمْوَالَ الْفَعَالَةِ وَيَأْكُلُونَ
حُقُوقَهُمْ بِالْبَاطِلِ ، وَيَعْتَبِرُونَ مِنْهُمْ كَالآتِ يَسْتَعْمِلُونَهُمْ مَتَى شَاءُوا
وَيَتْرَكُونَهُمْ مَتَى شَاءُوا وَيُحْمَلُونَ مَا لَا طَاقَةَ لَهُمْ بِهِ مِنَ الْأَعْمَالِ وَلَا
يَنْقُدُونَهُمْ إِلَّا الزَّهِيدَ مِنَ الْأَجُورِ وَلَا يَحْتَاطُونَ أَقْلَ احتياطٍ لِمَنْعِ الْبَطَالَةِ

وَمَعُونَةَ الشُّيُوخِ عَلَى مَصَائِبِ الدَّهْرِ ، أَلَا يَكُونُ الْفَعْلَةُ مِنْ أَهْلِ
النِّشَاةِ الْإِسْتِقْلَالِيَّةِ أَعْظَمَ اسْتِعْدَادًا ، وَأَكْبَرَ قُوَّةً ، وَأَشَدَّ بَأْسًا
لِاسْتِرْدَادِ حَقِّهِمُ الْمَسْلُوبِ أَضْعَافَ أَضْعَافٍ مَاعَلَيْهِ الْفَعْلَةُ الْآتِكَالِيُونَ؟
إِنَّهُمْ أَقْوَى لِأَنَّ قُوَّتَهُمْ تَأْتِيهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَلِأَنَّهُمْ يَلْقَوْنَ
مَا يَعْتَرِضُهُمْ مِنَ الصَّعَابِ بِالمُقَاوَمَةِ الذَّاتِيَّةِ مُبَاشَرَةً وَهُمْ نَاجِحُونَ .
إِنْ أُجْحِفَ^(١) بِمُحَقِّقِهِمْ فِي أَمْرٍ مُعَيَّنٍ وَجَدْتَهُمْ يَشْكُونَ شَكْوَى
مُعَيَّنَةً ، وَيَطْلُبُونَ الْإِنْصَافَ بِمَا لَا يَخْرُجُ عَنْ حَدِّ الْمَعْقُولِ وَالْإِيمَانِ
لَا كَمَا يَفْعَلُ رُؤَسَاءُ الْإِسْتِرْأَكِيِّينَ مِنْ سَرْدِ الْمَبَادِيءِ وَرِصِّ الْقَوَاعِدِ
وَالْقَاءِ الْخُطْبِ الْمُهَيَّبَةِ ، وَنَشْرِ الرِّسَائِلِ فِي الْجَرَائِدِ ، وَتَحْضِيرِ
المَشْرُوعَاتِ الْخَيَالِيَّةِ الَّتِي يَطْلُبُونَ فِيهَا قَلْبَ نِظَامِ الْهَيْئَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ
بِتَامِمِهَا ، وَالْفَعْلَةُ فِي خِلَالِ ذَلِكَ يُمُوتُونَ جُوعًا .

لِذَلِكَ نَقُولُ: إِنَّ أَنْكَرَهُ وَالْوَلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةَ أَسْبَقُ الْأَمَمِ فِي
حَلِّ مَسْأَلَةِ الْفَعْلَةِ خُصُوصًا بِالنَّظَرِ إِلَى مَنْ كَانَ مِنْهُمْ اسْتِقْلَالِيًّا مُحَضًّا ،
وَهُوَ لَأَنَّ يَجْتَمِعُونَ تَحْتَ لُؤَاءِ شَرَكَاتِ « تَرَادِسِينِيُونَ » ، وَأَمَّا الْفَعْلَةُ
الَّذِينَ هُمْ أَقَلُّ مِنْ أَوْلِيَّكَ فَلَا تَزَالُ الْمَسْأَلَةُ دَقِيقَةً بِالنَّظَرِ إِلَيْهِمْ فِي
هَذَيْنِ الْبَلَدَيْنِ ، وَكَذَلِكَ عَمَّالُ الْحِرْفِ الصَّغِيرَةِ الَّتِي لَا تَقْتَضِي فَنَاءً
مُخْصُوصًا كَالْحَمَّالِينَ فِي مَحَازِنِ لُونْدَرِهِ الْعُمُومِيَّةِ ، إِلَّا أَنَّ أَوْلِيَّكَ الْعَمَلَةَ

(١) أى سلبوها، والمراد ظلموا فيها بانتقاصها

لَيْسُوا مِنْ أَهْلِ النَّشْأَةِ الْإِسْتِقْلَالِيَّةِ الَّذِينَ اسْتَعَدُّوا لِلتَّرَاحُمِ فِي الْحَيَاةِ
بَلْ يَمْتَاَزُونَ عَنْهَا بِمَا فِيهِمْ مِنَ النَّقَائِصِ الشَّخْصِيَّةِ ، أَوْ لِأَنَّهُمْ مِنْ
النَّشْأَةِ الْاِتِّكَالِيَّةِ كَأَلِرْلَنْدِيِّينَ وَالْاِيْقُوسِيِّينَ وَمُهَاجِرِي الْاَلْمَانِيِّينَ
وَالْتَلْيَانِ وَعَیْرِهِمْ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْعُنَاصِرُ الَّذِينَ يَنْتَخِبُ الْفَقْرُ مِنْ
بَيْنِهِمْ أَهْلَهُ وَرَجَالَهُ فِي اِنْكَاتَرِهِمُ الْوَالَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ ، وَهُمْ الَّذِينَ يَجِدُ
مَذْهَبُ الْاِشْتِرَاكِيِّينَ مِنْ بَعْضِهِمْ مَيْلًا إِلَى مَبَادِئِهِ ، وَهُمْ الَّذِينَ
يَحْتَشِدُونَ تَحْتِ لُؤَاءِ أَهْلِ الثَّوْرَةِ وَالْاِضْطِرَابِ .

وَهَذَا أَيْضًا يُؤَيِّدُ مَا اسْتَخْلَصْنَاهُ مِنَ الْبُحُوثِ الْمُتَقَدِّمَةِ وَهُوَ
تَأْخُرُ أَهْلُ النَّشْأَةِ الْاِتِّكَالِيَّةِ عَنْ أَهْلِ النَّشْأَةِ الْإِسْتِقْلَالِيَّةِ بِمِقْدَارٍ عَظِيمٍ .
إِنَّمَا الْمُسْتَقْبَلُ لِلْاُمَمِ الَّتِي تَمَكَّنَتْ مِنَ الْخِلَاصِ مِنْ تِلْكَ النَّشْأَةِ .
وَالْحِكْمَةُ تَقْضِي عَلَيْنَا أَنْ نَقُولَ بِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ وَنُقَرِّرَهَا فَذَلِكَ أَوْلَى
مِنَ التَّمَسُّكِ بِمَا يَدْعُوهُ حَلًّا لِمَا نَحْنُ فِيهِ وَهُوَ خِيَالٌ ، لِأَنَّ ذَلِكَ
الْمَذْهَبَ أَصْبَحَ بِالْيَأِ ، وَدَلَّ مَا ضِيهِ عَلَى أَنَّهُ كَانَ سَبَبًا فِي اسْتِيْلَاءِ
الضَّعْفِ عَلَى قَوْمِهِ فِي أَرْزَمِنَةِ الْفِرَاعِنَةِ كَمَا أَنَّهُ يَنْتَشِرُ الْيَوْمَ فِي الدُّنْيَا
مُكَلِّبًا بِوَأَسْطَةِ أُمَّةٍ هِيَ أَشَدُّ أُمَّةِ الْغَرْبِ خُضُوعًا لِسُلْطَانِ
الْحُكُومَةِ الْمُطْلَقَةِ .

الفصل الثالث

﴿ فِي أَنَّ تَصَوُّرَ الْوَطَنِيَّةِ يَخْتَلِفُ عِنْدَ الْفِرَنَسَاوِيِّينَ ﴾

(وَالْإِنْكَلِيزِ السَّكْسُونِيِّينَ)

يَجِبُ عَلَى الْبَاحِثِينَ الَّذِينَ يَمِيلُونَ إِلَى اخْتِبَارِ الْأَفْكَارِ بِالْحَوَادِثِ
وَلَا تَخْدَعُهُمْ شِقْشِقَةٌ^(١) الْأَلْفَاظِ أَنْ يَفْقَهُوا مَعْنَى كَلِمَتِي « وَطَنَ »
وَ « وَطَنِيَّةً » كَمَا يَنْبَغِي وَهُمَا كَلِمَتَانِ كَبِيرَتَانِ اعْتَادَ قَوْمٌ النُّطْقَ بِهِمَا
ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ مِنْ غَيْرِ إِمْعَانٍ وَلَا تَمْيِينٍ ، وَبَعْضُهُمْ
يَنْطِقُ بِهِمَا مُعْجَبًا مُخْتَسِلًا ، فَلَا يَقْبَلُ فِيهِمَا جَدًّا وَلَا تَأْوِيلًا ، وَآخَرُونَ
يَلْفِظُونَهُمَا مُغْضِبِينَ مُحَقَّرِينَ بِلَا قَيْدٍ وَلَا مِيزَانٍ . فَبَيْنَمَا هُوَ لَاءٌ
يُمَجِّدُونَ الْوَطْنَ وَيَدَّابُونَ عَلَى إِثَارَةِ الْوَطَنِيَّةِ فِي الْأَفْكَارِ يَسْعَى
آخَرُونَ فِي الْحَطِّ مِنْ مَعَانِي هَذِهِ الْكَلِمَةِ ، وَيَقُولُونَ : إِنَّ الْوَطْنَ
امْرَأَةٌ تَدْعِي الْأُمُومَةَ تَطْفَلًا ؛ وَأَنَّ ذَلِكَ الْوَهْمُ أَقَامَ زَمَانًا وَانْقَضَى وَلَمْ
يَعُدْ مُوَافِقًا لِمُقْتَضِيَّاتِ الْأَيَّامِ الْحَاضِرَةِ ، وَأَنَّ كُلَّ النَّاسِ إِخْوَانٌ
وَيُعْلِنُونَ عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ أَنَّهُمْ لَا وَطْنَ لَهُمْ غَيْرَ مُبَالِينِ بِمَا يَحْسُهُ
مُوَاطِنُوهُمْ مِنْ الْخَجَلِ لِسَمَاعِ مِثْلِ هَاتِهِ الْأَقْوَالِ .

(١) الشَّقْشِقَةُ فِي الْأَصْلِ : غَدَةٌ كَالرُّثَّةِ يَخْرُجُهَا الْبَعِيرُ مِنْ فِيهِ إِذَا هَاجَ . وَمِنْهُ يُقَالُ لِلنَّفْصِيحِ

هَدَرَتْ شَقْشَقَتَهُ ؛ وَالْمُرَادُ هُنَا الْأَلْفَاظَ الْخَلَابَةَ

هَذَانِ مَذْهَبَانِ مُخْتَلِفَانِ يَتَعَدَّرُ التَّوْفِيقُ بَيْنَهُمَا ، غَيْرَ أَنَّ لِكُلِّ مَذْهَبٍ سَبَبًا يُعَلِّلُهُ وَمَصْدَرًا يَرْجِعُ إِلَيْهِ . وَيَنْبَغِي لَنَا أَنْ نُبَيِّنَ حَقِيقَةَ الْوَطَنِيَّةِ وَلِنُشْرَحَ صُورَهَا فِي الْأَذْهَانِ بِحَسَبِ تَقَلُّبِ الْأَزْمَانِ وَنَقِفَ عَلَى أَسْبَابِهَا وَنَتَأَمَّلَهَا لِيَتَبَيَّنَ إِنْ كَانَ الْعَالَمُ صَائِرًا إِلَى تَأْيِيدِ تِلْكَ الْحَقِيقَةِ أَوْ إِضْعَافِهَا أَوْ تَحْوِيرِهَا فَفَعَلِمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَصْدَقُ رَأْيًا وَأَصَحُّ فِكْرًا . فَإِذَا بَلَغَ مِنَّا الْعِلْمُ أَنَّهُمَا مُحِقَّانِ مِنْ جِهَةٍ وَمُخْطِئَانِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى بَحْمُنَا عَنْ دَرَجَةِ خَطَا كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا .

تِلْكَ مَسْأَلَةٌ عَوِيصَةٌ دَقِيقَةٌ تُحْتَاجُ مِنْ كَاتِبِ هَذِهِ السُّطُورِ وَمِنْ قُرَّائِهِ إِلَى رَوِيَّةٍ كَبِيرَةٍ وَحُرِّيَّةٍ فِكْرٍ وَاسِعٍ ، فَيَجِبُ عَلَيْنَا جَمِيعًا أَنْ نَطْرَحَ - وَلَوْ إِلَى حِينٍ - كُلَّ مَيْلٍ إِلَى الْحِزْبِ الَّذِي نَنْتَسِبُ إِلَيْهِ ، وَكُلَّ تَحْزُبٍ لِلْبَلَدِ الَّذِي نَحْنُ مِنْهُ ، وَنَفْرَضَ أَنَا نُوجَدُ فِي كَوْكَبٍ غَيْرِ قَارَتِنَا حَيْثُ نُشْرِفُ مِنْهُ مُطْمَئِنِّينَ عَلَى جَمِيعِ حَوَادِثِ الْأَرْضِ وَمَا يَجْرِي فِيهَا .

أَوَّلُ شَيْءٍ يَرَاهُ الْبَاحِثُ هُوَ أَنَّ الْوَطَنِيَّةَ لَا تَنْمُو بِدَرَجَةٍ وَاحِدَةٍ عِنْدَ جَمِيعِ الْأُمَمِ لِأَنَّهَا ثَمَرَةٌ أَسْبَابُ شَيْءٍ فَهِيَ تَنْوَعُ بِحَسَبِهَا ، وَلِهَذَا صُورٌ مُخْتَلِفَةٌ تَمْتَّازُ مِنْهَا أَرْبَعٌ عَنِ الْبَقِيَّةِ ، وَهِيَ : الْوَطَنِيَّةُ الدِّينِيَّةُ أَيْ الَّتِي يَكُونُ مَدَارُهَا الدِّينَ ، وَالْوَطَنِيَّةُ التِّجَارِيَّةُ أَيْ الْمَبْنِيَّةُ عَلَى التَّنَافُسِ فِي التِّجَارَةِ ، وَالْوَطَنِيَّةُ السِّيَاسِيَّةُ أَيْ الَّتِي تُبْنَى عَلَى التَّطَلُّعِ السِّيَاسِيِّ ،

وَالْوَطَنِيَّةُ الشَّخْصِيَّةُ وَهِيَ الَّتِي تَرْجِعُ إِلَى حُرِّيَّةِ كُلِّ فَرْدٍ
فِي مَعِيشَتِهِ الذَّائِنَةِ .

﴿الْوَطَنِيَّةُ الدِّيْنِيَّةُ﴾

تَمْتَّازُ بِالْوَطَنِيَّةِ الدِّيْنِيَّةِ أُمَّمُ الْعَرَبِ وَاللُّهُ كَمَا نِ وَيُقَالُ لَهُمْ
(التَّوَارِيخُ) ^(١) وَالْأَنْرَاكِ وَأَمْثَالَهَا . وَقَدْ بَيَّنْتُ فِي غَيْرِ هَذَا
الْكِتَابِ الْأَسْبَابَ الَّتِي تَحْمِلُ تِلْكَ الْأُمَّمَ الَّتِي نَشَأَتْ فِي الصَّحَارَى
عَلَى الْخُضُوعِ لِسَيَادَةِ الطَّوَائِفِ الدِّيْنِيَّةِ ^(٢) فَيُوجَدُ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ
بَيْنَ تِلْكَ الْأُمَّمِ كَمَا وَجِدَ فِي جَمِيعِ أَدْوَارِهَا الْمَاضِيَةِ طَائِفَةٌ يَرَى النَّاسُ
كُلَّهُمْ أَنَّهَا صَاحِبَةُ الْحَقِّ فِي السِّيَادَةِ فَلَا يُنَازِعُهَا أَحَدٌ وَلَا يَخْرُجُ عَنْ
مُحْكَمِهَا أَحَدٌ ، وَلَيْسَ رِجَالُ تِلْكَ الطَّائِفَةِ مِنْ قَبِيلَةٍ وَاحِدَةٍ بَلْ هِيَ
تَتَأَلَّفُ مِنْ كُلِّ مُتَعَصِّبٍ أَنَّى وَجِدَ ، لِذَلِكَ تَجِدُ فِيهَا قَوْمًا مِنْ شِمَالِ
الصَّحْرَاءِ وَقَوْمًا مِنْ جَنُوبِهَا عَلَى بُعْدِ مَا بَيْنَ الْمَرْكَزَيْنِ . وَتَمْتَّازُ تِلْكَ
الطَّائِفَةُ بِقُوَّةِ الْبَأْسِ وَبِامْتِدَادِ نَفُوزِهَا حَتَّى كَانَتْهَا الْجَامِعُ الْعَامُّ لِتِلْكَ

(١) التوارخ: أمة من برابرة منتشرة في صحراء أفريقيا بين بلاد (القوت) شمالا وتندوكتو جنوباً والنيجر غرباً وفرن شرفاً وهي تعتقد أنها من سلالة الترك وتحتقر العرب، ورجالها طوال القامة شديدو القوى خفيفو الحركات وديانتهم الاسلام وهم أشد القبائل بأساً في وسط الصحراء وأصعبهم مراساً وهم الذين أبادوا الارسالية الفرنسية التي توجهت الى تلك الاقطار تحت قيادة اميرالاي فلانر لتخطيط السكك الحديدية في تلك الاصقاع .

(٢) راجع مجلة المؤلف (العالم الاجتماعى) صفحة ٣١٥ وما بعدها من الجزء الخامس عشر

الْقَبَائِلِ وَالْعَشَائِرِ . وَهِيَ الَّتِي وَقَفَتْ فِي وَجْهِ جَمِيعِ الْفَاتِحِينَ الَّذِينَ
حَاوَلُوا اخْتِرَاقَ الصَّحْرَاءِ كَمَا وَقَفَتْ أَمَامَ الْإِنْكَلِيزِ عَلَى حُدُودِ السُّودَانَ
الْمِصْرِيَّ كَأَنَّهَا حِصْنٌ عَزِيزٌ الْمَنَالِ وَهِيَ الَّتِي تُصَدِّمُ أَمَامَهَا الْأُمَّةُ
الْفَرَنْسَاوِيَّةُ فِي حُدُودِ صَحْرَاءِ الْجَزَائِرِ .

أَوْلَايِكَ هُمْ مُلُوكُ الصَّحْرَاءِ وَأَسْمُهُمُ الطَّوَائِفُ الدِّيْنِيَّةُ وَأَسْمُ
رِجَالِهِمْ « الْإِخْوَانِ » . وَالْخُلَفَاءُ اسْمٌ لِلرُّؤَسَاءِ كَمَا يُقَالُ لَهُمُ الْمَشَائِخُ
وغير ذلك من الأسماء، وأحياناً يُسَمُّونَهُمُ الْمَهْدِيِّينَ أَوْ رُسُلَ اللَّهِ إِذَا
سَمَّيْتُمْ نَارَ الْإِعْتِقَادِ وَظَنَّ بَعْضُهُمْ نُزُولَ الْوَحْيِ عَلَيْهِ مِنْ السَّمَاءِ .
وَالْوَيْلُ الْوَيْلُ لِمَنْ يُحَاوِلُ الدُّخُولَ عِنْدَهُمْ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأَرْزَمَانِ .
وَلِهَذِهِ الطَّوَائِفِ « زَوَايَا » فِي جَمِيعِ الْوَاوِحَاتِ وَهِيَ مَعَابِدُ
تَابِعَةٌ لِلْجَامِعِ الْأَكْبَرِ ، فَنِي وَاحَةٌ « غِمَارٌ » بِالصَّحْرَاءِ اثْنَا عَشَرَ
مَسْجِداً وَأَرْبَعُ زَوَايَا ، مَعَ أَنَّ سُكَّانَهَا لَا يَزِيدُونَ عَلَى سَبْعِمِائَةٍ أَوْ
ثَمَانِيَةَ . وَلِلْإِخْوَانِ كَلِمَةٌ سِرِّيَّةٌ يَفْهَمُونَهَا وَإِشَارَاتٌ تَعَارَفَ بِمُخْصِوَصَةٍ .
وَهُمْ دَرَجَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ مُقَرَّرَةٌ لَدَيْهِمْ أَجْمَعِينَ تَبْتَدِئُ مِنْ
السَّيِّدِ الْأَكْبَرِ أَوْ الْخَلِيفَةِ إِلَى حَامِلِ الْعِلْمِ إِلَى الْحَارِسِ وَهَكَذَا .
وَلَهُمْ جَمْعِيَّاتٌ عُمُومِيَّةٌ يَتَلَقَّوْنَ فِيهَا أَوْامِرَ السَّيِّدِ السَّرِّيَّةَ أَوْ يَحْتَفِلُونَ
بِدُخُولِ بَعْضِ الْمُرِيدِينَ فِي الطَّرِيقَةِ أَوْ يَهَيِّئُونَ فِي الْبِلَادِ ثَوْرَةً ضِدَّ
عَدُوٍّ يُرِيدُ الْإِغَارَةَ عَلَيْهِمْ سِوَاهُ كَمَا كَانَ مِنْ دَاخِلِ الْبِلَادِ أَوْ خَارِجِهَا ،

وَكَأَنَّهُمْ وَطَنِيُونَ وَهُمْ غُلَاةُ الْوَطَنِيَّةِ فِي الصَّحْرَاءِ .

إِلَى هَذِهِ الْوَطَنِيَّةِ يَرْجِعُ نِظَامُ الْعَشَائِرِ الَّتِي تَسْكُنُ إِقْلِيمِي
أَشُورَ وَمِصْرَ فِي الْأَزْمَانِ الْخَالِيَةِ، أَعْنِي فِي الدَّوْرِ الْأَوَّلِ مِنْ تَارِيخِ
تِلْكَ الْأُمَّةِ الَّتِي كَانَتْ تَتَأَلَّفُ مِنَ الشُّعُوبِ الْوَافِدَةِ حَدِيثًا مِنْ
الصَّحْرَاءِ وَلِذَلِكَ خَضَعَتْ لِحُكْمِ الطَّوَائِفِ الدِّيْنِيَّةِ وَقَسُوسِ الْإِلَهِ
« آمُون » خُضُوعًا كَامِيًّا أَوْ جُزْئِيًّا، وَإِلَيْهَا أَيْضًا يَرْجِعُ مُحَمَّدٌ
« صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ » وَاتَّبَاعُهُ وَجَمِيعُ الْقَبَائِلِ وَالشُّعُوبِ الَّتِي
اجْتَمَعَتْ تَحْتَ رَأْيَتِهِ فِي وَدْيَانِ الْعَرَبِ أَوْ الصَّحْرَاءِ وَأَطْرَافِهَا مِنْ
بِلَادِ آسِيَا الصَّغْرَى إِلَى بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ . كَذَلِكَ يَدْخُلُ فِيهَا التُّرْكُ
فَإِنَّهُمْ أَخَذُوا عَنِ الْإِسْلَامِ أَشْكَالَ حُكُومَتِهِمْ وَكَانُوا يُجَارُونَهَا
لِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْبِدَاوَةِ غَيْرَ مُسْتَقْرِرِينَ فِي مَكَانٍ .

وَيَكْفِي فِي بَيَانِ حَقِيقَةِ هَذَا النَّوعِ مِنَ الْوَطَنِيَّةِ ذِكْرُ هَذِهِ
الْأُمَّةِ ، فَالْتَمَسْتُ كُونَ بِهَا لَا يُطِيقُونَ الْجِدَالَ فِيهَا وَلَا يَشْفِقُونَ
أَيَّ إِسْفَاقٍ عَلَى أَعْدَائِهِمْ لِأَنَّ مَرْجِعَ الْوَطَنِيَّةِ فِيهِمُ الدِّينُ وَهُوَ
لَا يَقْبَلُ التَّخْوِيرَ وَلَا يَحْتَمِلُ التَّسَامُحَ وَالتَّفْسِيرَ . وَأَهْمُ شَيْءٍ يُوجِبُ
الْخَشْيَةَ مِنْهَا هُوَ أَنَّهَا لَا تَقْتَصِرُ عَلَى إِخْضَاعِ الْأَجْسَامِ إِلَى سُلْطَانِهَا
وَلَكِنَّهَا تَبْسُطُ سِيَادَتَهَا أَيْضًا عَلَى الْأَفْكَارِ وَالْأَرْوَاحِ فَلَا تَكْتَفِي

بِخُضُوعٍ مَنْ تَتَعَلَّبُ عَلَيْهِ إِلَى مُحْكَمِهَا وَتُكَلِّفُهُ اعْتِنَاقَ مَذْهَبِ أَصْحَابِهَا: فِيمَا الْإِيْمَانُ وَإِمَا الْإِعْدَامُ. وَلَقَدْ أَهْرَقَتْ^(١) هَذِهِ الْوَطْنِيَّةُ دِمَاءً كَثِيرَةً خَضَبَتْ بِهَا تَارِيخَ أَجْيَالٍ عَدِيدَةٍ وَهِيَ الْيَوْمَ تَنْكَشِفُ إِلَى الْبَاحِثِينَ مُثْقَلَةً بِالْفِظَائِعِ وَالْآثَامِ.

إِنَّ الدِّينَ إِذَا اتَّخَذَ الْإِرْهَابَ سِلَاحَهُ بَدَلَ الدَّلِيلِ وَالْإِفْتِنَاعِ لَمْ يَكُنْ إِلَّا غَضْبًا وَهَيْبًا؛ وَمِنَ الْوَاجِبِ التَّنْكِيلُ^(٢). بِهَذِهِ الْوَطْنِيَّةِ بِكُلِّ مَا فِي الْجُهْدِ وَمُغَالَبَتِهَا جُهْدَ الْإِسْتِطَاعَةِ وَهَذَا الْوَاجِبُ إِنَّمَا يُطَلَّبُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِأَنَّهَا تَحُطُّ مِنْ قَدْرِ الْإِحْسَاسِ الدِّينِيِّ وَالْعَدَالَةِ^(٣) الصَّمْدَانِيَّةِ، وَهِيَ أَشْرَفُ الْأُمُورِ وَأَعْلَاهَا مَقَامًا. ذَلِكَ لِأَنَّ مِثْلَ الَّذِينَ يَدْعُونَ هَذِهِ الْوَطْنِيَّةَ كَمِثْلِ أَرْدَا الزَّنَادِقَةِ وَأَخْبَثِ الْمُنَافِقِينَ، تَرَاهُمْ يَحْمِلُونَ السَّيْفَ أَوْ الْعَصَا وَيَاتُونَ مَوَارِدَ شَهَوَاتِهِمْ وَمَوَاضِعَ انْتِقَامِهِمْ وَمَرَامِي أَطْمَاعِهِمْ بِاسْمِ الدِّينِ وَتَحْتِ سِتَارِهِ^(٤)

(١) أراقت وأسالت

(٢) يقال نكل به تنكيلا أى جعله نكالا وعبرة لغيره

(٣) يريد العدالة الالهية

(٤) نحن لاندرک معنى لخصر هذا النوع الممقوت من الوطنية فى الامم التى تقطن

﴿ الْوَطَنِيَّةُ التِّجَارِيَّةُ ﴾

تَمْتَازُ بِهَا أُمَّهُ شَوَاطِيءُ الْبَحْرِ الْأَبْيَضِ الْمُتَوَسِّطِ قَدِيمًا أَيَّامَ كَانَ
 ذَلِكَ الْبَحْرُ شَبِيهَاً بِجَوْضِ ذِي سُورٍ مُقْفَلٍ ، أَعْنَى أَيَّامَ كَانَتْ سَوَاحِلُهُ
 آهَلَةً بِالْمَدَائِنِ وَالشُّعُوبِ الَّتِي تَمْتَدُّ عَلَى شَوَاطِيءِ فِينِيْقِيَا وَآسِيَا
 الصُّغْرَى وَالْيُونَانَ وَجَنُوبِي إِيْتَالِيَا وَالْأَنْدَلُسَ وَإِفْرِيْقِيَا الشَّمَالِيَّةَ
 وَكُلَّهَا تَطْلُبُ الرِّزْقَ مِنَ التِّجَارَةِ . وَلَا بَدَّ مِنْ أَنَّ التَّنَافُسَ كَانَ شَدِيدًا
 بَيْنَ تِلْكَ الْأُمَّمِ وَأَنَّ حَيَاةَ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا كَانَتْ مُتَوَقِّفَةً عَلَى فَوْزِهَا

الاقطار الاسلامية والافتصار على ذكر العرب والترك والتركان فان كان يريد التعريض
 بالاسلام فانه لم يصب محجة الصواب لان الاسلام لا يلزم أحداً من مغايريه في الدين أن يصير
 مسلماً بعد أن يدين لحكمه: والتاريخ أصدق شاهد على خلاف رأيه وكتاب الله تعالى
 وسنة النبي صلى الله عليه وسلم صريحان في حقن دماء المسلمين ومسالمتهم إلا الوثنيين منهم .
 هكذا جرى العمل حتى في زمن الفتح أيام ثورة الدين حيث ما كان يرجى الحنان
 والاشفاق . فان لم يكن الاستشهاد بالقرآن مقنعاً في مذهب غير المسلمين فانا نورد على
 عبارة المؤلف ما قاله حضرة العالم الشهير الكونت هنرى دى كستري صاحب كتاب الاسلام
 في الفصل الثانى عن ملاينة الدين الاسلامى وكيف أنه عامل المسيحيين وقرهم اليه في
 مناصب الدولة ووظائف الملك (راجع ترجمتنا هذا الكتاب سنة ١٣١٥ هجرية)

وليس من الانصاف أن يرمى مسيحيو الشرق بهذه التهمة دون إخوانهم في الغرب لأن
 المذهب واحد . فان كان الدين هو الذى أغضب المؤلف من وطنيتهم لزمه أن يعمم حكمه على
 البقية وإن كان غيره فقد فسدت قاعدة رأيه . ولعله كان يقرب من الحقيقة لو أطلق شرحه
 على الوطنية الدينية من غير أن يقيدتها بأمة دون أخرى لان فعل الدين في النفس واحد
 نصرانيا كان الرجل أو مسلماً أو يهوديا أو مجوسيا اه مترجم

دُونَ غَيْرِهَا ، وَلَيْسَ التَّارِيخُ الْقَدِيمُ إِلَّا عِبَارَةٌ عَنْ قِصَصِ تِلْكَ
الْمُنَافَسَاتِ التَّجَارِيَّةِ .

وَمَنْ أَجَلِ ذَلِكَ أَحْتَاَجَتْ كُلُّ أُمَّةٍ مِنْ تِلْكَ الْأُمَمِ إِلَى أَنْ يَكُونَ
نِظَامُهَا مُوَافِقًا لِحَاجَاتِهَا، خُصُوصًا مَا يَتَعَلَّقُ بِدَفْعِ الْأَعْدَاءِ وَمُهَاجِمَةِ
الْخُصُومِ ، إِذْ كَانَ لَا مَنَاصَ لِكُلِّ مِنْهَا مِنَ الْإِعْتِمَادِ عَلَى نَفْسِهَا . وَهَذَا
هُوَ السَّبَبُ فِي اعْتِنَائِهَا كُلِّهَا بِتَرْبِيَةِ شُبَّانِهَا عَلَى التَّمَرُّنَاتِ الْجَسْمِيَّةِ
حَتَّى صَارَتْ الْقُوَّةُ وَالْمَهَارَةُ وَخَفَةُ الْحَرَكَاتِ وَالْحَذَقُ فِي رَمِي النَّبَالِ
أَعَزَّ صِفَاتِ الشَّبَابِ ، فَأَقِيمَتْ مِيَادِينُ الْأَلْعَابِ الْعُمُومِيَّةِ وَعَظُمَ
الْإِهْتِمَامُ بِهَا ، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِأَنَّهَا كَانَتْ فِي الْحَقِيقَةِ مَظَاهِرَ لِلْوَطَنِيَّةِ
فِي ثَوْبٍ مَخْصُوصٍ .

هُنَالِكَ كَانَتْ الْوَطَنِيَّةُ مُحَلِيَّةً أَى مَقْصُورَةً عَلَى أَهْلِ كُلِّ مَدِينَةٍ
أَوْ طَائِفَةٍ دُونَ جَارَتِهَا ، وَمِنْ هُنَا جَاءَ اسْمُ الْمَدِينَةِ وَالْبَلَدِ بِمَعْنَى
الْوَطَنِ مِمَّا مَأْتَتْ بِهِ كُتُبُ الْمُتَقَدِّمِينَ . جَمِيعُ الْأَعْمَالِ الْعَظِيمَةِ وَالْوَقَائِعِ
الشَّهِيرَةِ الَّتِي احْتَفَظْنَا بِهَا كَأَنَّهَا مِنَ الدِّينِ وَجَعَلْنَا نَحْشُوبُهَا أَذْهَانَ
أَبْنَانِنَا فِي الْمَدَارِسِ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ وَلَا تَأَمُّلٍ كُلِّهَا صُورٌ مِنْ تِلْكَ
الْوَطَنِيَّةِ التَّجَارِيَّةِ . وَقَدْ افْتَخَرَتْ كُلُّ مَدِينَةٍ بِشُجْعَانِهَا كَمَا افْتَخَرَتْ
بِحُكَمَاةِهَا ، لِأَنَّ الْفَرِيقَيْنِ غَرَسُ أَرْضٍ وَاحِدَةٍ هِيَ حَالَةُ تِلْكَ الْمُدُنِ
الْاجْتِمَاعِيَّةِ فِي هَاتِهِ الْأَزْمَانِ . قَالَ (اسْتِرَابُون) عَنْ (كروتون) :

إِنَّهُ كَانَ يَعْتَنِي عَلَى الْخُصُوصِ بِتَرْبِيَةِ الشُّجْعَانِ حَتَّى تَوْصَلَ إِلَى
 اخْتِصَاصِ رَجَالِهِ بِالْعَلْبَةِ فِي مِيَادِنِ الْأَلْعَابِ الْعُمُومِيَّةِ ، وَقِيلَ إِنَّ
 أضعفَ رَجُلٍ مِنْ رَجَالِهِ كَانَ يُعَدُّ فِي مُقَدِّمَةِ الْيُونَانِيِّينَ . وَكَانَ
 النَّاسُ يُعَظِّمُونَ الظَّافِرِينَ فِي تِلْكَ الْأَلْعَابِ تَعْظِيمًا لَا مَزِيدَ عَلَيْهِ ،
 فَيَخْلَعُونَ عَلَيْهِمْ أَحْسَنَ الْخَلْعِ وَيَحْتَضُونَهُمْ بِأَكْبَرِ عِلَامَاتِ الشَّرَفِ
 وَالْإِمْتِيَّازِ وَيَتَسَابَقُ الْمُصَوِّرُونَ إِلَى إِقَامَةِ تَمَائِيلِهِمْ فِي كُلِّ نَادٍ . هَكَذَا
 أُقِيمَ فِي (أولمبيا) تَمَثُّالُ (استيلوس) وَهُوَ مِنْ تَلَامِذَةِ (كريتون)
 الْمَذْكُورِ ، وَقَدْ تَمَّتْ لَهُ الْعَلْبَةُ فِي ثَلَاثَةِ الْعَابِ مُتَوَالِيَاتٍ . وَتَمَثُّالُ
 «فيليب» صَاحِبِ الْإِنْتِصَارَاتِ الْبَاهِرَةِ فِي تِلْكَ الْأَلْعَابِ ، وَكَانَ
 أَجْمَلَ أَهْلِ زَمَانِهِ وَتَزَوَّجَ ابْنَةَ «تيليس» ظَالِمِ «تيلباريس» وَعُدَّ
 بَعْدَ وَفَاتِهِ مِنْ أَكْبَرِ الْأَبْطَالِ ، وَتَمَثُّالُ «فيلوس» وَكَانَ مَكْتُوبًا
 عَلَيْهِ أَنَّهُ كَانَ يَقْفُزُ خَمْسًا وَخَمْسِينَ قَدَمًا وَيَرْمِي بِالسُّكْرَةِ عَلَى بُعْدِ
 خَمْسٍ وَتِسْعِينَ خُطْوَةً ، وَأَشْهَرُهُمْ «ميلون» السُّكْرِيْتُونِي فَقَدْ بَلَغَتْ
 إِنْتِصَارَاتُهُ سِتَّةَ وَعِشْرِينَ عَلَى اخْتِلَافِ الْأَلْعَابِ وَسَارَتْ الرَّكْبَانُ
 بِقُوَّتِهِ إِلَى أَقْصَى الشَّرْقِ ، وَبَلَغَتْ مَسَامِعَ كِسْرَى الْفُرْسِ ، وَأُقِيمَ
 لَهُ تَمَثُّالٌ مِنَ النُّحَاسِ . وَكَانَ لَهُ شَأْنٌ خَطِيرٌ فِي حُرُوبِ قَوْمِهِ مَعَ
 «سيلباريس» .

وَكَانَتْ جَمِيعُ الْمَدَائِنِ تَطْمَعُ فِي الْإِنْتِصَارِ فِي الْعَابِ أُولَمْبِيَا ، وَأَنَّ

تَفُوقَهَا بِالْعَابِهَا ، وَلِذَلِكَ أَقَامَ سِيبَارِيسُ وَكِرُوتُونُ فِي نَوَاحِيهِمُ
 الْأَلْعَابَ الْعُمُومِيَّةَ ، وَجَعَلُوا اللَّفَائِزِينَ فِيهَا وَسَامَاتٍ مِنَ الْفِضَّةِ رَجَاءً
 أَنْ يَجْتَمَعَ إِلَيْهَا يُونَانُ إِيَتَالِيَا وَسِيسِيلِيَا وَمَدَائِنُ آسِيَا الصُّغْرَى .
 وَتِلْكَ الْأَلْعَابُ هِيَ الْأَصْلُ الْأَصِيلُ الَّذِي نَشَأَتْ عَنْهُ الْعَابُ
 الرُّومَانِيِّينَ الْمُسَمَّاءُ « جِلادياتور » وَكَانَتْ مِنْ أَفْظَعِ الشَّنَائِعِ أَيَّامَ
 سُقُوطِ الدَّوْلَةِ الرُّومَانِيَّةِ .

تِلْكَ هِيَ صُورُ الْوَطْنِيَّةِ الَّتِي عَظُمَتْ عِنْدَ أُمَّمِ الْبَحْرِ الْأَبْيَضِ
 الْمُتَوَسِّطِ فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ ، وَالَّذِي أَلْجَأَهُمْ إِلَى ذَلِكَ أَحْتِياجُ كُلِّ
 أُمَّةٍ إِلَى رَدِّ غَارَةِ غَيْرِهَا بِتِجَارَتِهَا وَهِيَ وَطْنِيَّةٌ تُرْجِعُ إِلَى الْمَالِ ، وَكَانَ
 مِنْ لَوَازِمِهَا الْأَثَرَةُ وَالشَّرُّهُ ، وَلَمْ يَكُنِ السَّبَبُ فِي تِلْكَ الْوَقَائِعِ
 وَالْحُرُوبِ الَّتِي رَوَاهَا لَنَا مُورْخُونَ تِلْكَ الْأَعْصُرِ مُوَسَّاءَةً (١) بَمَا يُعْجِبُ
 الْقُرَّاءَ إِلَّا الرَّغْبَةُ فِي إِذْلالِ الْخُصُومِ بِالْقُوَّةِ الْقَهْرِيَّةِ بَعْدَ الْعَجْزِ عَنْ
 مُغَالَبَتِهِمْ بِالْمَهَارَةِ فِي التِّجَارَةِ وَالتَّفَنُّنِ فِي آسَالِيهَا ، وَلَمْ يَكُنْ لِحُبِّ
 الْوَطَنِ الْخَالِصِ وَرَغْبَةِ التَّفَانِي فِي الذُّودِ عَنْهُ مِنْ صُدُورِ أَوْلِيائِكَ
 التُّجَّارِ إِلَّا مَكَانٌ صَغِيرٌ فِي الْحَقِيقَةِ لَا كَمَا يَتَصَوَّرُهُ النَّاسُ عَنْهُمْ .
 وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ أَنَّهُ لَمَّا تَمَّتِ الثَّرْوَةُ لِتِلْكَ الْمَدَائِنِ وَمُلِئَتْ خَزَائِنُهَا مِنَ
 الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ لَمْ تَعُدْ تَطْلُبُ حِمَايَتَهَا مِنْ قَوْمِهَا وَعَمَدَتْ إِلَى

(١) من وثنى الثوب أى حسنه بالألوان ونممه ونقشه، ووثى الكلام كذب فيه

تَجْنِيدِ جِيُوشِهَا مِنْ الْأَجْرَاءِ . قَالَ « جُوسْتَان » : انْكَسَرَ أَبْطَالُ
« كَرِيْتُون » سَنَةَ ٥٦٠ فِي إِحْدَى الْوَقَائِعِ فَأَهْمَلُوا مِنْ ذَلِكَ الْحِينِ
صِنَاعَةَ الْحَرْبِ وَالْقَوَا السَّلَاحِ ، وَمَالُوا إِلَى الْإِنْهَمَاكِ فِي اللَّذَائِدِ
وَالْإِنْعِمَاسِ فِي الشَّهَوَاتِ مِثْلُ « سِيْبَارِيْس » ، وَكَذَلِكَ كَانَ شَأْنُ
« تَارَانْت » فَإِنَّهُ بَعْدَ أَنْ اشْتَهَرَ بِالشَّجَاعَةِ وَسَارَتْ بِذِكْرِ فَضْلِهِ
الرُّكْبَانُ أَضَاعَهَا فِي التَّنَعُّمِ وَالْفَسَادِ .

وَالْوَأَقِعُ أَنَّ تِلْكَ الْوَطَنِيَّةَ الَّتِي بَالِغَ النَّاسُ فِي الْإِشَادَةِ ^(١) بِهَا ،
تَرْجِعُ إِلَى رِوَايَةِ ذَاتِ قِسْمَيْنِ : فِي الْقِسْمِ الْأَوَّلِ نَشَاهِدُ بَعْضَ تِلْكَ
الْمَعَارِنِ تَثِيرُ الْحَرْبِ عَلَى بَعْضِهَا لِتَأْخُذَ حَظَّهَا مِنَ التَّجَارَةِ ، وَفِي الْقِسْمِ
الثَّانِي نَشَاهِدُ الَّتِي ظَفِرَتْ مِنْهَا قَدْ تَوَلَّاهَا الْإِنْحِطَاطُ وَدُمِّرَتْ بِيَدِ
مُتَغَلِّبٍ جَدِيدٍ خَرَجَ مِنْ مُجْتَمَعٍ يُخَالِفُ نَوْعَهَا .

الْوَطَنِيَّةُ السِّيَاسِيَّةُ

مَهْدُهَا عِنْدَ الْأُمَمِ الَّتِي عَظُمَتْ فِيهَا الْحُكُومَةُ وَانْحَصَرَتْ
السُّلْطَةُ فِي رُؤْسَائِهَا ، وَأَعْظَمُ مِثَالٍ لَهَا الْأُمَمُ الْفَرَنْسَاوِيَّةُ وَالْأَلْمَانِيَّةُ
وَالرُّوسِيَّةُ وَالتَّيْنَانِيَّةُ وَالْأَنْدَلُسِيَّةُ « الْإِسْبَانِيَّةُ » فِي زَمَانِنَا هَذَا ،
وَمِثَالِهَا فِي الزَّمَنِ الْقَدِيمِ الْأُمَّةُ الرُّومَانِيَّةُ .

وَلَيْسَ الْقَائِمُ بِالْحُكْمِ فِي هَذِهِ الْأُمَمِ الطَّوَائِفَ الدِّيْنِيَّةَ أَوْ

(١) يقال أشاد بذكره: أي رفعه بإنشاء عليه

الْمَجَالِسَ الْبَلَدِيَّةَ الْمُؤَلَّفَةَ مِنَ التُّجَّارِ كَمَا فِي النُّوعَيْنِ السَّابِقَيْنِ ، بَلِ
 الْقَائِمِ عَلَيْهِ رُؤَسَاءُ مِنْ رِجَالِ الْحَرْبِ أَوْ مَنْ جَمَعُوا حَوْلَهُمْ الْجُنْدَ الْمُجَنَّدَةَ
 وَامْتَدَّتْ سُلْطَتُهُمْ فِي أَقْطَارٍ شَاسِعَةٍ ، وَجَمَعُوا تَحْتَ تَصَرُّفِهِمْ وَسَائِلَ
 عَظِيمَةً مِنَ الْمَالِ وَالرِّجَالِ ، وَخَضَعَ لِأَوَامِرِهِمُ الْعَدَدُ الْعَدِيدُ مِنَ
 الْجُيُوشِ وَالْمُوظَّفِينَ ، وَهُمْ لِذَلِكَ أَقْدَرُ مِنْ غَيْرِهِمْ عَلَى إِقَامَةِ الْحُرُوبِ
 لِوَلَايَتِهِمْ عَلَى جَمِيعِ عُنَاصِرِ الْبِلَادِ الْحَيَّةِ ، إِذْ كُلُّ شَيْءٍ خَاضِعٌ لِلدَّوْلَةِ
 مِنْ جِهَةٍ مَا ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ مِنَ الْعُمَمَالِ إِرَادَةٌ غَيْرُ إِرَادَةِ الْحُكُومَةِ الَّتِي
 تَتَدَبَّرُ رَاتِبَهُ مَلِكِيًّا كَانَ أَوْ عَسْكَرِيًّا . وَفِي مِثْلِ هَذِهِ الْأَحْوَالِ
 تَمِيلُ الْجُيُوشُ إِلَى الْحَرْبِ أَكْثَرَ مِنْ مِيلِهَا إِلَى السَّلْمِ ، كَمَا أَنَّهُمْ
 لَا يُعْظَمُونَ الْمَلِكَ أَوْ الْوَازِعَ الْأَكْبَرَ فِي الْجُمْهُورِيَّةِ إِلَّا بِقَدْرِ
 مَا يَكُونُ لَهُ مِنَ الْغَزَوَاتِ وَمَا يُؤْتَاهُ مِنَ الْإِتِّصَارِ . وَمِنْ أَجْلِ
 هَذَا كَانَ رُؤَسَاءُ الْحُكُومَاتِ مِيَالِينَ طَبْعًا إِلَى الْحَرْبِ ، وَكَثِيرًا مَا تَكُونُ
 الْحَرْبُ سَبِيلَهُمْ الْوَحِيدَ فِي الْإِسْتِثْنَارِ بِمَرْغُوبٍ أَوْ فِي دَفْعِ مُنَافِسٍ
 يَخْشَوْنَ مُزَاحَمَتَهُ . وَهَذَا هُوَ السَّبَبُ فِي تِلْكَ الْحُرُوبِ الْعَدِيدَةِ الَّتِي
 مَدَشَوْهَا التَّنَازُعُ عَلَى الْمَلِكِ بَيْنَ الْعَائِلَاتِ أَوْ الْأَطْمَاعِ الذَّائِيَّةِ لِلْمُلُوكِ ،
 وَالنَّفْسُ تَخْدَعُ عَادَةً بِالِاسْتِيْلَاءِ عَلَى سُلْطَةِ تَجْعَلُ الْمَرْءَ فِي سَعَةِ وَنَعِيمٍ ،
 وَالنَّاسُ يَعْتَرِفُونَ بِهِمَا وَيُقَدِّسُونَهُمَا مَتَى تَمَّ النُّصْرُ لِلْغَيْرِ .
 غَيْرَ أَنَّهُ يَلْزَمُ الظَّافِرَ بَعْدَ ظَفَرِهِ أَنْ يَنْظُرَ فِي اسْتِبْقَاءِ نَصْرِهِ ،

والبقاء لَيْسَ بِالْأَمْرِ الْيَسِيرِ عَلَى مُحْكَمٍ وَاسِعٍ إِلَّا كُنَافٍ لَا بَدَّ فِيهِ
 مِنْ إِغْضَابِ قَوْمٍ وَجَرَحِ عَوَاطِفِ آخِرِينَ لِعَلَّةَ أَنَّهُ تَكْفَلَّ بِالْقِيَامِ
 مَقَامَ الْكُلِّ فِي التَّفْكِيرِ وَالتَّدْبِيرِ ، حَتَّى لَقَدْ يُحْشَى عَلَى تِلْكَ
 الْحُكُومَاتِ الضَّخْمَةِ أَنْ تَرْزَحَ (١) تَحْتَ هَذِهِ الْأَحْمَالِ الثَّقِيلَةِ الَّتِي
 جَلَبَهَا عَلَيْهَا اسْتِعْلَاؤُهَا وَسُلْطَانُهَا الرَّفِيعُ . فَإِذَا وَصَلَتِ الدَّوْلَةُ إِلَى هَذَا
 الْحَدِّ التَّمَسَّتْ مَخْرَجًا مِنْهَا بِالْحَرْبِ لِتَلْوِي أَفْكَارِ الْأُمَّةِ عَنِ النَّظَرِ
 إِلَى الصَّعُوبَاتِ الدَّاخِلِيَّةِ ، وَهَذَا أَيْضًا هُوَ السَّبَبُ فِي حُرُوبٍ كَثِيرَةٍ
 مِمَّا خَلَدَهُ التَّارِيخُ وَسَطَّرَهُ السِّكَّابُ . وَمَتَى انْتَصَرَ أَوْلِيَاكَ الْمُلُوكُ
 زَادَتْ سُلْطَتُهُمْ وَتَمَكَّنَتْ سَيَادَتُهُمْ ، وَحِينَئِذٍ تَرَاهُمْ يُشِيرُونَ بِالْحُرُوبِ
 لِيَزِدُوا بِسُطَّةً فِي الْمُلْكِ لَا لِيُثَبِّتُوا أَمْلًا كَيْفَهُمْ وَلِيَمِيدُوا حُدُودَ مَمَالِكِهِمْ
 الْعَظِيمَةَ الَّتِي يَفْرَحُ بِهَا الْمُؤَرِّخُونَ وَتَحْزَنُ لَهَا الْأُمَمُ ، أَوْلِيَاكَ هُمْ
 أَكْبَرُ الْقِيَاصِرَةِ وَعُظْمَاءُ الْأَمْلَاكِ (٢) وَالْأَكْاسِرَةُ الَّذِينَ غَصَّتْ (٣)
 بِأَسْمَائِهِمْ صَفَحَاتُ التَّارِيخِ وَاتَّخَذَهُمُ الْمُؤَرِّخُونَ بَيَانًا لِمَرَاحِلِ الْأَجْيَالِ .
 عَلَى أَنَّ هَذِهِ الدَّوْلَ الْعَظِيمَةَ لَا تَوَافِقُ طَبِيعَةَ الْجَمَاعَةِ لِمَا يَلِازِمُهَا
 مِنْ ارْتِكَابِ أَكْبَرِ الْفُضَائِحِ فِي الْحَيَاةِ الْعُمُومِيَّةِ ، وَجَلَبَ أَعْظَمَ
 الْمَصَائِبِ وَالرَّزَايَا فِي الْحَيَاةِ الْخُصُوصِيَّةِ ، وَلِذَلِكَ فَبَقَاؤُهَا مُحْدُودٌ
 وَدَوَامُهَا مُحَالٌ ، تَرَاهَا تَخْرُ مُهْشَمَةً (٤) عَقِبَ مَوْتِ شُجَاعِهَا ، وَكَثِيرًا

(١) من قولهم رزح الجمل أى سقط ولم يستطع النهوض تبعاً

(٢) الملوك (٣) امتلأت (٤) تخر: تسقط، ومهشمة: محطمة

مَا يَدْرِكُهَا الدَّمَارُ فِي حَيَاتِهِ . هُنَالِكَ تَهْبُ نَارُ الْحُرُوبِ ثَانِيَةً بَيْنَ
 الْحُلَفَاءِ وَتَسْتَمِرُّ مِنْ جِيلٍ إِلَى جِيلٍ . وَفِي الْغَالِبِ يَكُونُ انْتِشَابُ
 تِلْكَ الْحُرُوبِ رَغْمَ أَنْفِ الْأُمَمِ لِاحْتِيَاجِهَا إِلَى السَّلْمِ كَمَا تَتَفَرَّغُ إِلَى
 السَّعْيِ وَرَاءَ رِزْقِهَا ، وَالْحَرْبُ تُعْطَلُ الْأَعْمَالُ . غَيْرَ أَنَّ صَوْتَ الْأُمَّةِ
 ضَعِيفٌ فِي مِثْلِ هَاتِيكَ الدُّوَلِ ، فَإِنَّ مِنْ شَأْنِهَا الضَّغْطَ عَلَى حُرِّيَّةِ
 الْأَفْرَادِ فِيمَا عَسَاهُ يَأْتِي مِنْ عِنْدِيَّاتِهِمْ بِمَا اسْتَأْذَنَهُ نِظَامُهَا مِنْ جَمْعِ
 السُّلْطَةِ كُلِّهَا فِي يَدِ قَوْمٍ مَعْدُودِينَ . أَمَّا الْعَامَّةُ الَّتِي تَزَاوِلُ الْأَعْمَالُ
 النَّافِعَةَ وَتُكَبُّ عَلَى الْأَشْغَالِ الَّتِي تَأْتِي بِالثَّمَرَةِ وَتُمْكِنُهَا مِنْ أَدَاءِ
 الضَّرَائِبِ وَالْخَرَاجِ فَإِنَّهَا مَطْرُوحَةٌ وَرَاءَ السُّلْطَةِ الْعُمُومِيَّةِ الَّتِي
 انْتَهَبَتْ مِنْهَا رُويِدَارُ وَيَدَارُ قُدْرَتِهَا عَلَى الْأَعْمَالِ الْعَامَّةِ وَأَضْعَفَتْ فِيهَا
 بَوَاعِثَ الْاجْتِهَادِ وَمَصَادِرَ الْإِنْتِاجِ وَجَعَلَتْهَا لَا تَعْرِفُ مِنْ أُمُورِهَا
 إِلَّا الطَّاعَةَ وَالْإِنْقِيَادَ ، فَهِيَ تَخْضَعُ إِلَى الْحُكُومَةِ وَالْمُوظَّفِينَ كَمَا
 تَخْضَعُ لِأَهْلِ السِّيَاسَةِ أَوْ الْمُشْتَغَلِينَ بِالسِّيَاسَةِ ، وَمَا عَلِمْنَا أَنَّ الْأُمَّةَ
 أَبَدَتْ حَرَاكَاً أَمَامَ رَغَائِبِ فِيلِبِ الثَّانِي ، وَلَا تَحْتِ حُكْمِ لُويِزِ
 الرَّابِعِ عَشَرَ أَوْ حُكُومَةِ الثُّورَةِ أَوْ نَابِلْيُونِ الْأَوَّلِ .

وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذِهِ الْحُكُومَاتِ الْعَظِيمَةَ الَّتِي جَمَعَتْ مِنْ الْعُدَدِ
 وَالْعُدَدِ مَا يُمْكِنُهَا مِنْ إِرْضَاءِ أَطْمَاعِهَا السِّيَاسِيَّةِ لَا يَتَيَسَّرُ لَهَا تَسْيِيرُ
 أُمَّهَاتِهَا وَحَمْلُهَا عَلَى اخْتِمَالِ مَا تَطْلُبُهُ مِنْهَا مِنَ الرِّجَالِ وَالْأَمْوَالِ إِلَّا إِذَا

تَذَرَّعَتْ لَدَيْهَا بِمَنْفَعَةِ الْوَطَنِ وَآثَارَتْ فِي نَفُوسِهَا عَوَاطِفَ الْوَطَنِيةِ .
تَرَى تِلْكَ الْحُكُومَاتِ تَتَفَانِي فِي حُبِّ السَّلَامِ ، وَمَا مِنْ أَحَدٍ يَسْبِقُهَا
فِي الْجَهْرِ بِهَذَا الْمَيْلِ ، وَتَقُولُ إِنَّ الْحَرْبَ أَكْبَرُ الْمَصَائِبِ وَأَعْظَمُ
الْبَلَايَا حَتَّى لَقَدْ جَاءَ ذِكْرُ السَّلْمِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَرَّةً فِي خِطَابِ إِمْرٍ أَطُورِ
الْمَانِيَا الَّذِي أَلْقَاهُ فِي « كِيل » ، وَمَعَ هَذَا يَقْضُونَ حَيَاتَهُمْ فِي الْحُرُوبِ
أَوْ فِي تَجْهِيزِ مَعْدَاتِهَا وَتَهْيِئَةِ لَوَازِمِهَا . وَتِلْكَ الْإِسْتِعْدَادَاتُ الَّتِي
لَا حِدَّ لَهَا هِيَ فِي الْوَأَقِعِ أَشَدُّ تَدْمِيرًا وَأَعْظَمُ تَخْرِيْبًا مِنَ الْحُرُوبِ
فَإِنَّهَا تَسْتَنْزِفُ^(١) مَا فِي الْأُمَّةِ مِنَ الرَّجَالِ وَالْأَمْوَالِ . وَكَمَا اسْتَدَّتْ
وَقَرُ^(٢) هَذَا النِّظَامِ اسْتَدَّتْ الْحَاجَةَ فِي الْحُكُومَاتِ إِلَى الْإِسْتِنْجَادِ
بِالْوَطَنِيةِ ، وَمِنْ الصَّعْبِ مَعْرِفَةَ دَرَجَةِ مَا تَفْعَلُهُ الْوَطَنِيةُ فِي نَفُوسِ
أُمَّةٍ بَالِغَتْ مُنْتَهَى الْإِضْمِحْلَالِ مِنْ جَرَاءِ هَذِهِ الْأَحْوَالِ ، كَمَا لَا تَسَهَّلُ
مَعْرِفَةَ مَقْدَارِ مَا تَوْوَلُ إِلَيْهِ مِنَ الْخَرَابِ إِذَا بَالِغَتْ الْوَطَنِيةُ مِنْهَا
حَدَّهَا الْأَقْصَى . وَمَعَ هَذَا قَدْ يَتَأَنَّ الْإِلْمَامُ^(٣) بِذَلِكَ إِذْ انْظَرْنَا إِلَى حَالَةِ
الْأُمَّةِ التَّلِيَانِيَّةِ ، لِأَنَّ الْبَحْثَ فِي حَالَتِهَا الْعِلْمِيَّةِ وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ يُفِيدُنَا
فَائِدَةً كُبْرَى وَبُرْشِدُنَا إِلَى الْغَايَةِ الَّتِي نَحْنُ صَائِرُونَ إِلَيْهَا ،
كَذَلِكَ نَهْتَدِي إِلَى غَرَضِنَا بِالتَّأَمُّلِ فِي حَالَةِ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ «أَسْبَانِيَا» .
وَإِنَّا نَكْتَفِي بِتَوْجِيهِهِ ذِهْنِ أَهْلِ الْعَالَمِينَ إِلَى هَاتَيْنِ الْأُمَّتَيْنِ ،

(١) من قولهم ترف ماء البئر أى ترحه واستخرجه كله ، والمراد تنفذ (٢)

(٣) يريد الاحاطة

وَنُضِيفُ إِلَيْهِمَا جُمُورِيَّاتِ أَمْرِيكََا الْجَنُوبِيَّةِ لِمَنْ رَغِبَ فِي الْإِسْتِزَادَةِ
مِنَ الْبَيَانِ .

قَالَ بَعْضُهُمْ وَنِعْمَ قَوْلُهُ : « وَلَوْ أَنَا أَنْعَمْنَا النَّظَرَ فِي حَقِيقَةِ مَعْنَى
(وَطَنٍ) لَتَرَكْنَا الطَّرِيقَ وَقَفَلْنَا رَاجِعِينَ » . وَمِنَ الْمُحَقِّقِ أَنَّ الْوَطَنِيَّةَ
هِيَ الَّتِي كَانَتْ سَبَبًا فِي قِسْمِ عَظِيمٍ مِنَ الْفُظَائِعِ وَالْمُنْكَرَاتِ الَّتِي
مَلَأَتِ التَّارِيخَ وَصَيَّرَتْ قِرَاءَتَهُ مَعْيِبَةً مُخَالَفَةً لِلآدَابِ . نَعَمْ أَنَا عَالِمٌ
بِأَنِّي أُحَدِّثُ بِمَقَالِي هَذَا اضْطِرَابًا فِي نَفُوسِ بَعْضِ الْقُرَّاءِ ، وَأَرَاهُمْ
لِغُلُوبِهِمْ فِي الْوَطَنِيَّةِ يُشَدُّونَ النَّسْكَيرَ عَلَى وَيَفُوقُونَ نَحْوَى سِهَامِ
اللَّوْمِ وَالتَّنْذِيرِ ، وَلِذَلِكَ فَإِنِّي أَخْصِمُهُمْ بِمَقَالِي وَأَسْأَلُهُمْ إِنْ كَانُوا حَاقِقَةً
فِي وَطَنِيَّتِهِمْ صَادِقِينَ ، وَأُرِيدُ بِالْوَطَنِيِّ مَنْ يَتَغَلَّبُ عَلَى أَعْدَائِهِ
بِالْأَفْعَالِ ، لِأَنِّي لَسْتُ أَجْهَلُ أَنَّ عَدَدَ الْوَطَنِيِّينَ بِالْقَوْلِ لَا يُحْصَى .
غَيْرَ أَنَّ السَّكَّامَ فِي بَحْثِنَا لَا يُفِيدُ . وَأَنَا أَخْشَى أَنْ يَكُونَ السَّوَادُ
الْأَعْظَمُ مَعْرُورًا جَذَبَتْهُ الْأَوْهَامُ فَادَّعَى مَا لَيْسَ فِيهِ .

إِنَّمَا الْوَطَنِيَّةُ تَقُومُ بِأَمْرَيْنِ مُهِمَّيْنِ : دَفْعِ ضَرِيْبَةِ الْمَالِ وَأَدَاءِ ضَرِيْبَةِ
الدِّمَاءِ ، وَلَسْتُ أَنْكِرُ أَنَّهُمْ يُؤَدُّونَ الْخَرَاجَ بِالتَّمَامِ ، وَلَكِنَّ
رَأْسَ الْحِكْمَةِ مَخَافَةُ الْجُبَاةِ (٣) عَلَى أَنَّهُ لَا مَحِيصَ مِنَ الْإِدَاءِ . وَالذَّلِيلُ
عَلَيْهِمْ جَمِيعًا يَسْتَعْيِثُونَ مِنْ فِدَاْحَةِ (٢) الْمَصْرُوفَاتِ ، وَيَشْنُونَ

(١) الَّذِينَ يَجْمَعُونَ الْخَرَاجَ (٢) فِدَاْحَهُ الْأَمْرُ : أَنْتَقَلَهُ

الغارة على استرسال الحكومة في توسيع دائرة مصالحها ، وإذا
جاءهم مرشح في المجالس النيابية وجعل يخطب فيهم أنه يميل إلى
تخفيف الضرائب والاقتصاد في المصروفات أقبلوا عليه وأهدوه
أصواتهم مهللين ومكبرين ، إلا أنني أقسم أنهم بما يعملون يبرهنون
على أنهم في وطنيتهم ، التي لست أرضاها ، كاذبون ، لأنهم لا يجهلون
أن النظام الذي يدافعون عنه ، خلافاً لرأيي ، يقتضي المال الكثير .
فلو كانوا في ادعائهم الوطنية صادقين ، أي لو كانت الوطنية فيهم
غير مجرد التشديق^(١) في المقال وكانت مفهومة لديهم بغير ما يتظاهرون
به من الحركات التي لا يرضاها العقلاء لما ساوموا^(٢) الحكومة على
المال الذي تحتاج إليه في تغذية تلك الوطنية وصيانة دعائمها . إنهم لو
صدقوا لدفعوا المال ولم يشكوا ، إذ كما دفعوا انتصرت وطنيتهم
وكما انتصرت استبشروا وفرحوا ، أما أنا فلست من المبتهجين
لأنني غير راض عن نظام الهيئة الحاضرة القائم على تلك الوطنية
ولا حق لهم أن يغضبوا غضبي لأنهم إن غضبوا فقد خالفوا
أنفسهم وتناقضوا .

أيها الوطنيون — العلامة الثانية على الوطنية كما تفهمونها ،

(١) تشدق بالكلام وفيه توسع في الكلام من غير احتياط واحتراز

(٢) من قولهم ساوم البائع والشارى في السلعة أى جرى بينهما مقاولة في بيعها ، وساوم
بالسلعة عرضها بثمان دفع المشتري أقل منه ، وهكذا الى أن يتفقا على الثمن .

هِيَ ضَرِيْبَةُ الدَّمَاءِ . فَلنَنْظُرُ كَيْفَ أَنْتُمْ بِهَا قَائِمُونَ ، إِذَنْ لَيْسَ بِخَافٍ
عَلَى أَحَدٍ أَنْ كُلَّ أَهْتِيَامِ الْفَرَنْسَاوِيِّينَ ، حَتَّى غُلَاةُ الْوَطَنِيَّةِ مِنْهُمْ ،
مُوجَّهَةٌ إِلَى التَّخَاصُّصِ مِنَ الْخِدْمَةِ الْعَسْكَرِيَّةِ مُدَّةَ ثَلَاثِ سِنِينَ هُمْ
وَأَوْلَادُهُمْ ، وَأَنَّهُمْ نَظَّمُوا حَيَاتَهُمْ لِلسَّعْيِ فِي هَذَا السَّبِيلِ . فَإِنْ كَانَتْ
الْخِدْمَةُ ثَلَاثَ سِنِينَ لَازِمَةً فَسَبَبُ الْهَرَبِ مِنْهَا؟ وَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ
لَازِمَةً فَلِمَ الدَّفَاعُ عَنْهَا؟ أَلَا تَشْعُرُونَ أَنَّكُمْ مُتَنَاقِضُونَ فِي دِفَاعِكُمْ
عَنْهَا وَهَرَبِكُمْ مِنْهَا؟ إِنْ أُنْشِأْتُ الْمَدَارِسَ الَّتِي أَقْفَيْتُ تَلَامِيذَهَا مِنْ
الْجُنْدِيَّةِ مُدَّةَ سِنَتَيْنِ ، بَعَثْتُ قَانُونَ الْعَسْكَرِيَّةِ الْجَدِيدِ ، أَصْبَحَتْ غَاصَّةً
بِالطَّلَابِ وَكَانَ الْكَثِيرُ مِنْهَا فِي دَرَجَةِ سَيِّئَةٍ مِنَ الْإِنْزَوَاءِ لِقِلَّةِ الرَّاغِبِينَ
فِيهَا فَأَقْبَلَ الْيَوْمَ عَلَيْهَا الْعَدَدُ الْعَدِيدُ حَتَّى إِنْ مَدْرَسَةَ الْحُقُوقِ
خَفَّضَتْ مِنْ شِدَّةِ الْإِمْتِحَانِ وَسَهَّلَتْ الدَّرْسَ تَسْهِيلاً لِنَيْلِ شَهَادَتِهَا
الَّتِي تُعْنَى حَامِلَهَا مِنَ الْجُنْدِيَّةِ سِنَتَيْنِ كَامِلَتَيْنِ . وَكَأَنِّي بِالْمُدْرَسِينَ
وَقَدْ تَدَبَّهُوا إِلَى أَنَّهُمْ آبَاءُ وَأَنَّ غُلُوهُمْ فِي الْإِبْوَةِ يُرْبِي عَلَى غُلُوهُمْ
فِي الْوَطَنِيَّةِ . وَارْجِعْ إِلَى الثُّوَابِ وَالْأَعْيَانِ فِي الْمَجْلِسِينَ لَا تَجِدُ
مِنْهُمْ عَشْرَةَ يُودَى أَبْنَاؤُهُمْ خِدْمَةَ الْجَيْشِ ثَلَاثَ سِنِينَ . هَكَذَا
يُصَادِقُ الرَّجُلُ مِنْهُمْ عَلَى جَعْلِ الْخِدْمَةِ ثَلَاثَ سِنِينَ وَلَكِنَّهُ
لَا يَقْرُ دُخُولَ ابْنِهِ فِيهَا .

وَبِالْجُمْلَةِ فَالْوَطَنِيَّةُ الَّتِي نَحْنُ بِصَدَدِهَا قَائِمَةٌ عَلَى الْمَطَامِعِ

السِّيَاسِيَّةِ بِوَأَسْطَةِ الْحُرُوبِ وَتَوْسِيعِ نِطَاقِ الْمَصَالِحِ الْعُمُومِيَّةِ،
 غَيْرَ أَنَّهَا وَطَنِيَّةٌ صَعْبَةٌ الْإِحْتِمَالِ عَلَى الْأَمَمِ فَهِيَ تَفْرَحُ بِهَا فِي أَوَّلِ
 الْأَمْرِ ثُمَّ لَا تَلْبَثُ أَنْ تَشْعُرَ بِثِقَلِهَا فَتَرْغَبُ فِي التَّخْلُصِ مِنْهَا. وَحِينَئِذٍ
 تَتَكَلَّمُ كُلُّ (١) تِلْكَ الْأَحْمَالُ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْبُسَطَاءِ
 أَغْنَى عَلَى الْأُمَّةِ فَتُمِيتُهَا وَتُضْعِفُهَا، ثُمَّ يَضِيقُ بِهَا الْخِنَاقُ يَوْمًا
 فَتُثَوِّرُ ثَوْرَةً وَاحِدَةً وَتَتَخَلَّصُ مِنْ مِثْلِ لَوِيزِ الرَّابِعِ عَشَرَ
 وَمُحَكَّمِ الثَّوْرَةِ وَنَابِلْيُونِ، غَيْرَ أَنَّهَا لَا تَخْرُجُ مِنْ مُحْكَمِ هَؤُلَاءِ إِلَّا
 لَتَدْخُلَ فِي مُحْكَمِ لَوِيزِ الرَّابِعِ عَشَرَ وَمُحَكَّمِ الثَّوْرَةِ وَنَابِلْيُونِ!! لِأَنَّ
 أَوْلِيَّكَ الْمُسَيْطِرِينَ عَلَى الدَّوَامِ مَوْجُودُونَ فِي مِثْلِ ذَلِكَ النِّظَامِ.

الوَطَنِيَّةُ الشَّخْصِيَّةُ

يُوجَدُ هَذَا النَّوعُ مِنَ الْوَطَنِيَّةِ عِنْدَ الْأَمَمِ الَّتِي تَفْهَمُ مِنْ هَذَا
 اللَّفْظِ مَعْنَى غَيْرِ الْمَعَانِي الثَّلَاثَةِ السَّابِقَةِ، فَالرَّجُلُ مِنْ تِلْكَ الْأَمَمِ يَرَى
 أَنَّ الْوَطَنَ فِي بَيْتِهِ وَأَنَّ الْمَنْفَعَةَ الَّتِي يَجِبُ عَلَيْهِ الدِّفَاعُ عَنْهَا هِيَ
 اسْتِقْلَالُ ذَلِكَ الْبَيْتِ وَسَاكِنِهِ، وَأَنَّ الْوَطَنَ السِّيَاسِيَّ لَمْ يَفْهَمْ لَهُ
 إِلَّا إِيجَادُ وَسَائِلِ ذَلِكَ الْإِسْتِقْلَالِ الشَّخْصِيِّ، وَأَنَّ الرَّجُلَ لَمْ يُخْلَقْ
 لِلْوَطَنِ خَاصَّةً كَمَا فِي النَّوعِ السَّابِقِ بَلْ إِنَّ الْوَطَنَ إِنَّمَا وُجِدَ لِحِدْمَةِ

(١) الكلكل، والكلكال: الصدر، وتكلكل هنا: تراكم وتنقل.

الإنسان فهو لا يهتم كثيراً بأن يكون وطنياً من أمة عظيمة وإنما جلُّ اهتمامه أن يكون وطنياً مستقلاً. وبالجملة فإنه يرى نفسه رجلاً قبل أن يكون وطنياً.

هذه وطنية تخالف وطنية الأمم اللاتينية وكان أول ظهورها في غرب القارة الأوروبية نحو القرن الخامس من المسيح فأدخلها قوم «الفرنك» في بلاد «الغلو» والسكسونيون في بريطانيا العظمى والسكسونيون من هيمئة اجتماعية واحدة هي التي سميناها بالأمم الاستقلالية لأنها خالفت الجمعيات التي ترجع في أصولها إلى الأمة الرومانية القديمة فجعلت الشخص، أي الفرد الواحد، راجحاً على الدولة.

ورجحان الفرد على الدولة هو الذي كان السبب في تجزئة البلاد الفرنسية والجزائر البريطانية إلى إمارات صغيرة لا تحصى حتى صار عدد هافي القرون الوسطى بقدر عدد الأملاك الخوصية: فكان كل واحد سيّداً في أرضه له الحكم فيها وحفظ النظام بين ساكنيها، وهكذا حلت أوطان كثيرة محل ذلك الوطن الوحيد الروماني. وليس من غرضي الآن أن أبين هنا السبب في زوال هذا الشكل الجديد شيئاً فشيئاً من البلاد الفرنسية حيث أقصته عنها الحكومة الملكية التي جمعت أشتات السلطة، وفي بقائه كما

هُوَ بِلَادِ انْكَتِرَا ، غَيْرَ أَنَّ الْوَأَقِعَ هُوَ- أَنَّنَا لَا نَزَالُ نُشَاهِدُ تِلْكَ الصُّورَةَ عِنْدَ الْأُمَمِ الْإِنْكَلِيزِيَّةِ السَّكْسُونِيَّةِ أَغْنَى فِي بِلَادِ انْكَتِرَا وَمُسْتَعْمَرَاتِهَا الْعَدِيدَةِ وَفِي الْوَلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ . وَلِكِنِّي نُبَيِّنُ حَقِيقَةَ تِلْكَ الْوَطَنِيَّةِ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَذْكَرَ طَرَفًا مِّنَ الْحَوَادِثِ الَّتِي يَعْمَلُهَا الْكُلُّ لِمَا فِيهَا مِنَ الدَّلَالَةِ الْوَأَضِحَةِ .

أَوَّلًا - سُهولة هِجْرَةِ الرَّجُلِ عَنِ وَطَنِهِ ، وَلَيْسَ مَقْصِدُنَا أَنْ يَهَاجِرَ مِنْهُ عَلَى مَقْرَبَةٍ مِّنْ حُدُودِهِ بَلْ يَرْحَلْ عَنْهُ بَعِيدًا جَدًّا فَيَقْطَعَ الْأَرْضَ مِنْ نَاحِيَةٍ إِلَى أُخْرَى . وَالْمُهَاجِرُ مِنَ الْإِنْكَلِيزِ السَّكْسُونِيِّينَ يَشْعُرُ دَائِمًا بِأَنَّهُ إِنَّمَا يَرْحَلُ عَنْ بَلَدِهِ مُسْتَصْحِبًا لَوْطَنِهِ ، إِذْ هُوَ الْوَطَنُ حَيْثُ يَعِيشُ الْمَرْءُ حُرًّا ^(١) .

وَأَمَّا - اسْتِقْلَالُ الْمُسْتَعْمَرَاتِ بِالنَّظَرِ إِلَى الْعَاصِمَةِ الْكُبْرَى ، فَكُلُّ مُسْتَعْمَرَةٍ لَا يَلِزُهَا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تَابِعَةً لَهَا ثُمَّ هِيَ بَعْدَ ذَلِكَ مُنْطَلِقَةٌ تَحْكُمُ نَفْسَهَا بِنَفْسِهَا كَتَبُوعِهَا . وَلَا تَحْسَبُ أَنَّ حُبَّ الْوَطَنِ يَحْمِلُهَا عَلَى تَسْلِيمِ نَفْسِهَا إِلَيْهِ يُسَيِّرُهَا كَمَا يُرِيدُ . ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ التَّابِعِيَّةَ وَقْتِيَّةٌ لَا تَدُومُ إِلَّا بِقَدْرِ مَا يَتَرَبَّى التَّابِعُ وَإِنْ دَامَتْ فَلِزَمَنٍ قَرِيبٍ

(١) هذا يذكرنا بقول الحريري

لانركن الى وطن فيه تهان وتمنن
وارحل عن الدار التي تعلى الوهاد على القنن
وجب البلاد فأياها ارضاك فاختره وطن

لأنَّ المُسْتَعْمَرَاتِ الْإِنْكَلِيزِيَّةَ تَمِيلُ إِلَى الْمَهْجَرَةِ مِثْلَهَا كَمِثْلِ شُبَّانِ الْإِنْكَلِيزِ . هَكَذَا انْفَصَلَتِ الْوَلَايَاتُ الْمُتَّحِدَةُ عَنِ الْأُمَّةِ الْبَرِيْطَانِيَّةِ وَهَكَذَا تَبَدُّو الْآنَ عَلاَمَةُ الْإِنْفِصَالِ فِي أَوْسْٲرَالِيَا وَزِيلَانْدَا الْجَدِيْدَةِ وَكَنْدَا وَرَأْسِ الرَّجَا . قَالَ أَحَدُ الشَّيَاحِ الْإِنْكَلِيزِ وَهُوَ مُوسِيُو (مكس أوريل) : (يَفْتَخِرُ سُكَّانُ الْمُسْتَعْمَرَاتِ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ بِأَنْ يُطْلَقَ عَلَيَّهِمْ اسْمُ الْإِسْتِرَالِيَّيْنَ وَ (السكنديين) وَالْإِفْرِيْقِيَّيْنَ ، وَيَنْمُو فِيهِمْ رُوحُ الْمِلَّةِ ^(١) كُلَّ يَوْمٍ ، وَالْإِنْكَلِيزِيُّ هُوَ الَّذِي يُغَدِّي ذَلِكَ الْإِحْسَاسَ فِيهِمْ ، إِذْ كُلُّ إِنْكَلِيزِيٍّ يُقِيمُ بَضْعَ سِنِينَ فِي مُسْتَعْمَرَةٍ لَا يَبْقَى إِنْكَلِيزِيًّا بَلْ يَصِيرُ أَوْسْٲرَالِيًّا أَوْ كَنْدِيًّا أَوْ إفْرِيْقِيًّا وَيَحْلِفُ بِوَطْنِهِ الْجَدِيْدِ ، وَهُمْ لَا يَقْبَلُونَ مِنَ الْعَاصِمَةِ الْكُبْرَى أَنْ تُرْسَلَ عَلَيْهِمْ وُلَاةٌ إِلَّا تَأْذَبًا مِنْهُمْ ، وَمَعَ ذَلِكَ يَشْتَرِطُونَ عَلَيْهِمْ إِلَّا يَشْتَغَلُوا بِالسِّيَاسَةِ أَكْثَرَ مِمَّا تَشْتَغَلُ بِهَا الْمَلِكَّةُ وَرِجَالُ الْبَيْتِ الْمَلِكِيِّ .

وَتَالِثًا - عَدَمُ الْإِلْتِفَاتِ مُطْلَقًا إِلَى الْجُنْدِيَّةِ ، وَقَلَّةُ الْإِهْتِمَامِ بِشَأْنِهَا ، قَالَ (أدواردريكوس) فِي كِتَابِهِ (تَخْطِيطُ الْبُلْدَانِ الْجَدِيْدِ) : (إِنَّ إِنْجَلِيزِيَّةَ هِيَ أَقَلُّ الدُّوَلِ فِي الْجِيُوشِ الدَّائِمَةِ مَعَ أَنَّهَا تَحْكُمُ عَلَى أُمَّمٍ أَكْثَرَ مِمَّا تَحْكُمُ جَمِيعَ دُوَلِ أَوْرُبَّا بِأَرْبَعَةِ

(١) يريد الروح الشعبي

الأضعاف ، فلا يزيد جيشها النظامي على مائة ألف جندي) وهو
سدس الجيش الفرنسي والمانى والروسى ، أعني بلاد الوطنيه الثالثه
وهو ربع الجيش النمساوى وثلث الجيش التلياني في حالة السلم . وهو
جزء من ثلاثين أو من أربعين من عدد الرعايا (١) .

وهناك أمر آخر يوضح جيداً أن نظام تلك الأمم لا يوافق
الحر وب . قال « ريكلموس » في الجزء الرابع من كتابه المتقدم
ذكره صفحة ٨٧٩ : « لا يوجد في إنكلتره قانون للقرعة العسكرية
وليس في استطاعة الحكومة أن تحشد من أفراد الأمة جيشات تحارب
به رغبات الأمة ، والخدمة عندهم سنوية . ولولا أن المجالس
النيابية تقضى في كل سنة باستمرار العساكر مجتدة لأحل الجيش
في كل عام . ومن مبادئهم أنه لا حق للوزع في استبقاء جيش
مستمر ينفق عليه من بيت المال إلا بإقرار القرى والبلدان ، فهى
التي تقدم المال اللازم وتقرر القانون العسكرى في كل عام .
وليلحظ أن القرعة غير موجودة كذلك في البحرية ، بل يحشد
رجالها من المتطوعين كالعساكر البرية .

وعدد الجيش في الولايات المتحدة أيام السلم قليل جداً ، فلا

(١) يظهران في الطبعة الفرنسية خطأ لان مجموع الرعايا على تلك النسبة لا يزيد على
أربعة ملايين وهو قليل كما لا يخفى ، ولعل الاصل جزء من ثلاثمائة وأربعمائة . ويجب أيضاً
أن يكون المقصود بالعدد الرعايا الاصليين التابعين (المترجم)

يَزِيدُ عَلَى سِتَّةٍ وَعَشْرِينَ أَلْفًا مَعَ كَثْرَةِ عَدَدِ السُّكَّانِ وَبَعْدِ مَا بَيْنَ مَشْرِقِ تِلْكَ الْبِلَادِ .

وَمِنْ هُنَا يَتَبَيَّنُ لَكَ أَنَّ تِلْكَ الْأُمَّةَ لَيْسَتْ مِيَالَةً إِلَى الْجُنْدِيَّةِ .
وَيَزِدَادُ عَدَمُ الْمَيْلِ بِتَكَثُرِ جَمْعِيَّاتِ السَّلَامِ ، غَيْرَ أَنَّ هَذِهِ الْجَمْعِيَّاتِ
لَمْ تَنْتَشِرْ اِنْتِشَارًا مُحَسَّنًا إِلَّا فِي انْجَلْتِرَهُ وَالْوَلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ فَلَا يَبْلُغُ عَدَدُ
جَمِيعِ أَعْضَاءِ الشَّرَكَاتِ الَّتِي تَأَلَّفَتْ لِهَذَا الْغَرَضِ فِي الْبِلَادِ الْفَرَنْسَاوِيَّةِ
إِلَّا أَلْفًا وَمِائَتَيْنِ ، وَلَا نَعْرِفُ فِي أَلْمَانِيَا سِوَى جَمْعِيَّةٍ وَاحِدَةٍ لَا يَزِيدُ
عَدَدُ أَعْضَائِهَا عَلَى السَّبْعِينَ ، أَمَا انْجَلْتِرَهُ فَفِيهَا خَمْسُ جَمْعِيَّاتٍ
تَتَأَلَّفُ مِنْ خَمْسَةِ وَعَشْرِينَ أَلْفَ عَضْوٍ ، وَهَذَا بِخِلَافِ جَمْعِيَّةٍ سَادِسَةٍ
تُسَمَّى جَمْعِيَّةِ السَّلَامِ تَأَلَّفَتْ سَنَةَ ١٨١٦ وَفِيهَا بِضْعَةُ أَلْفٍ مِنْ
الأَعْضَاءِ ، وَفِي الْوَلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ جَمْعِيَّةٌ وَاحِدَةٌ يَبْلُغُ أَعْضَاؤُهَا
أَكْثَرَ مِنْ مِليُونَيْنِ ، وَبِجَانِبِهَا جَمْعِيَّاتٌ كَثِيرَةٌ لَا تُحْصَى وَأَعْضَاؤُهَا
فِي زِدَادٍ عَلَى الدَّوَامِ . وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى بُغْضِهِمْ أَيْضًا لِلْحُرُوبِ اتِّجَاهُ
المُيُولِ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ إِلَى فَضِّ الْمَشَاكِلِ بِوَأَسْطَةِ الْمُحْكَمِينَ
لَا بِاسْتِعْمَالِ الْمَدَافِعِ وَالسُّيُوفِ .

إِذَا تَقَرَّرَ هَذَا سَهْلَ عَلَيْنَا أَنْ نَقَارِنَ بَيْنَ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ الْأَرْبَعَةِ :

فَأَمَّا الْوَطْنِيَّةُ الدِّيْنِيَّةُ فَقَدْ انْحَصَرَتْ الْيَوْمَ فِي الصَّحْرَاءِ حَيْثُ

تَتَعَبُ الطَّوَائِفُ الدِّيْنِيَّةُ فِي اسْتِبْقَائِهَا ، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَإِنَّهُ لَمْ يَعْدَلَهَا

أَثْرُهُ فِي الْخَارِجِ لِأَنَّهَا لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ وَقَدْ مَالَ الدِّينُ فِي أُمَّمِ
الْغَرْبِ إِلَى الْمُلَايَنَةِ وَالْمُحَاسَنَةِ وَصَارَ يَنْتَشِرُ بِالْإِقْنَاعِ وَالِاسْتِدْلَالِ
لَا بِالْقَهْرِ وَالْغَلْبَةِ ثُمَّ إِنَّهُ اتَّخَذَ الضَّمَائِرَ أَرْضًا يَسْكُنُهَا وَمَالَ
عَنِ الْإِسْتِعَانَةِ بِسُلْطَةِ الْحُكُومَةِ عَلَى جَابِ الْمُحَازِبِينَ ^(١) وَعَلَيْهِ
تَرَى أَنَّ الْوَطَنِيَّةَ الدِّينِيَّةَ آخِذَةٌ فِي التَّقَهُّرِ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ.
وَكَذَلِكَ الْوَطَنِيَّةُ التِّجَارِيَّةُ انْقَضَى زَمَانُهَا وَلَمْ يَعْذُ لِلْأَسْبَابِ
الَّتِي كَانَتْ قَائِمَةً بِهَا عَلَى شَوَاطِئِ الْبَحْرِ الْمُتَوَسِّطِ أَثْرُهُ فِي الْوَقْتِ
الْحَاضِرِ وَكَادَتْ الْمَدَائِنُ الْعَتِيقَةُ تَنْقَرُضُ إِنْ لَمْ تَكُنْ قَدْ بَادَتْ مِثْلُ
فِينِيقِيَا وَقَرْطَاجِنَهَ وَالْيُونَانَ ثُمَّ فِينِيسِيَا وَجِنَ وَأَصْبَحَتْ تَدُلُّ بِأَطْلَالِهَا
أَوْ اَضْمِحْلَالِهَا عَلَى أَنَّ تِلْكَ الْوَطَنِيَّةَ التِّجَارِيَّةَ لَا تَصْلُحُ أَنْ تَكُونَ
أَسَاسًا يَقُومُ عَلَيْهِ نِظَامُ الْهَيْئَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ. وَالْيَوْمَ لِحَيَاةِ لِتِجَارَةِ الْإِلَّا
بِالتَّنَافُسِ فِيهَا وَإِنْ عَمَدَتْ بَعْضُ الْأُمَمِ إِلَى تَخْفِيفِهَا أَوْ تَحْدِيدِهَا
بِحِجَبِ الْخَرَاجِ عَلَى الْمُتَاجِرِ فِي مَرَاثِي ^(١) بِلَادِهَا، بَلْ نُشَاهِدُ أَنَّ الْعَقَبَاتِ
آخِذَةٌ فِي الزَّوَالِ بَيْنَ الْأُمَمِ وَأَنَّ التِّجَارَةَ تَتَخَلَّصُ كُلَّ يَوْمٍ مِنْ
قِيُودِهَا وَتَسِيرُ مُسْرِعَةً نَحْوَ الْإِطْلَاقِ بِلَا قَيْدٍ وَلَا حَرَجٍ. وَحِينَئِذٍ
لَا يُمَكِّنُ الْاعْتِمَادُ عَلَى هَذِهِ الْوَطَنِيَّةِ فَسَتُلْحَقُ بِسَابِقَتِهَا لِتَصِيرَ
مَعَهَا مِنْ زَخَارِفِ تَارِيخِ الْأَعْصُرِ الْخَالِيَةِ.

(١) يريد أهل الملل والنحل المخالفة الأخرى (٢) موانئ

وَمِنَ الْأَسْفِ أَنَّهُ لَا يَسْعُنَا ذِكْرُ الثَّالِثَةِ كَمَا ذَكَرْنَا الْأُولَيَيْنِ ،
فَإِنَّ رُوحَ الْوَطَنِيَّةِ السِّيَاسِيَّةِ لَمْ تَمُتْ حَتَّى الْآنَ ، غَيْرَ أَنَّ الْمَرَضَ قَدْ
اشْتَدَّ بِهَا أَكْثَرَ مِمَّا يَتَخَيَّلُهُ النَّاسُ وَبَدَتْ عَلَيْهَا أَمَارَاتُ الْفَنَاءِ الْمُحْتَمِّ ،
وَلَمْ يَعُدْ فِي الْإِمْكَانِ اسْتِبْقَاءُ تِلْكَ الْوَطَنِيَّةِ زَمَنًا إِلَّا بِاسْتِعْمَالِ الْوَسَائِلِ
الْوَقْتِيَّةِ وَاسْتِخْدَامِ سَبَابِ الْعُلُوِّ فِيهَا إِلَى حَدِّ التَّعَسُّفِ وَالتَّغَطُّسِ مِمَّا
جَعَلَهَا تَزْدَادُ وَقَرًّا عَلَى الْأُمَّةِ حَتَّى صَارَتْ عِبْثًا ثَقِيلًا . وَمِنَ الْمَظْنُونِ
أَنَّ الدَّائِرَةَ تَدُورُ عَلَى فَرَنْسَا أَوْ الْمَانِيَا مِثْلًا إِذَا سَبَقَتْ إِحْدَاهُمَا
الْأُخْرَى ، فَخَرَجَتْ قَتِيلَةً تَحْتَ أَثْقَالِ هَذَا السَّلَامِ الَّذِي صَارَ أَصْعَبَ
احْتِمَالًا مِنَ الْقِتَالِ ، غَيْرَ أَنَّ الظَّافِرَ فِي ذَلِكَ الْحِينِ لَا يَفْضُلُ الْمَغْلُوبَ
إِلَّا قَلِيلًا .

وَالنَّصْرُ كُلُّ النَّصْرِ لِلْأَمَمِ الَّتِي وَطَدَتْ أَرْكَانَ نِظَامِهَا عَلَى دَعَائِمِ
الْوَطَنِيَّةِ الرَّابِعَةِ أَوْ الْوَطَنِيَّةِ الشَّخْصِيَّةِ ، فَهِيَ الَّتِي تَلُوحُ عَلَى وَجْهِهَا
جَمِيعُ بَشَائِرِ الْمَوْجُودَاتِ النَّامِيَّةِ الَّتِي اسْتَقَرَّ لَهَا الْأَمْرُ وَأَمْسَتْ
أَمْنَةً عَلَى مُسْتَقْبَلِ الْإِيَّامِ .

أَوَّلًا : لِأَنَّهَا طَبِيعِيَّةٌ فَلَا تَحْتَاجُ لِمُنْبَهٍ مِنَ الْخَارِجِ دَائِمًا وَلَكِنَّهَا
آتِيَةٌ مِنْ حَالَةِ اجْتِمَاعِ شَأْنِهَا أَنْ تُرَبِّيَ فِي الْمَرْءِ بِحُكْمِ الضَّرُورَةِ حَاجَةَ
الِاسْتِقْلَالِ وَالْبَعْدَ عَنْ كُلِّ قَيْدٍ تُرِيدُهُ الدَّوْلَةُ وَلَا مَنَفْعَةَ لَهُ فِيهِ ، ثُمَّ

هُوَ لَا يَحْتَاجُ فِي الْمُحَافَظَةِ عَلَى هَذَا الْإِسْتِقْلَالِ أَمَامَ الْحُكُومَةِ ،
وَالْتَّخَلُّصِ مِنْ تِلْكَ الْقِيُودِ إِلَّا أَنْ يَتَّبَعَ وَجْدَانَهُ الْخَاصَّ فَتَرَاهُ يُجْرِي
عَلَى هَذِهِ الْوَطَنِيَّةِ بِطَبِيعَةِ الْحَالِ كَمَا يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ وَيَنَامُ .

ثَانِيًا : لِأَنَّهَا تُسَاعِدُ عَلَى إِنْمَاءِ الثَّرْوَةِ فَهِيَ لَا تَقْتَضِي لِلجِدِشِ نَفَقَةً
طَائِلَةً ، وَهِيَ تَحْمِلُ النُّفُوسَ عَلَى السُّكْدِ وَالِاسْتِرْزَاقِ مَا اسْتَطَاعَتْ .
وَلَا مَشَاحَةَ فِي أَنَّ الْأُمَمَ الَّتِي مِنْ هَذَا النَّوعِ هِيَ أَغْنَى أُمَّمِ الْأَرْضِ كُلِّهَا
وَمَا لَهَا مِنْ ثَمَرَةٍ أَعْلَاهَا .

ثَالِثًا : لِأَنَّهَا تُرَبِّي الْأِحْسَاسَ الْأَدَبِيَّ فِي الْإِنْسَانِ ، وَهُنَا مَوْضِعُ
تَأَمُّلٍ لِأَنَّ غَلَاتِنَا أَفْسَدُوهُ فِي الْأَذْهَانِ طَلِبًا لِمَنْفَعَتِهِمْ ، فَقَالُوا وَيَقُولُونَ :
إِنَّ الْحَرْبَ مَنبَعٌ عَظِيمٌ تُسْتَمَدُّ مِنْهُ الشَّجَاعَةُ وَالْهَيْمَةُ إِنْ لَمْ يَكُنْ
أَعْظَمَ الْمَنَابِعِ وَأَكْبَرَهَا ، وَإِنَّهُ لَوْ انْعَدَمَتِ الْحَرْبُ سَقَطَتْ هِمَمُ
بَنِي الْبَشَرِ وَذَلُّوا ، وَرُبَّمَا كَانَ الْقَوْلُ مُفِيدًا فِي حَمْلِ الْأُمَمِ عَلَى
تَقْتِيلِ بَعْضِهَا بَعْضًا ، وَلَسَكِنَّهُ قَوْلٌ يُخَالَفُ الْمُشَاهِدَاتِ كُلَّ
الْمُخَالَفَةِ . أَلَا تَرَى أَنَّ مُتَوَحِّشِي أَمْرِيكَ الْجَنُوبِيَّةِ وَهَمَّجِ أَفْرِيقَا فِي
حَرْبٍ وَنَزَالٍ مُسْتَمِرٍّ مِنْذُ قُرُونٍ عَلَى أَمَاكِنِ الصَّيْدِ وَالِاقْتِنَاصِ ،
وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ فِي أَحْطَ دَرَجَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَلَوْ صَحَّ قَوْلُ الْغَلَاةِ
لَكَانُوا أَوَّلَ الْأُمَمِ فِي تُمُوءِ الْإِحْسَاسِ الْأَدَبِيِّ مِنْذُ قُرُونٍ . وَإِذَا
رَاجَعْنَا التَّارِيخَ رَأَيْنَا أَنَّ الرَّجُلَ لَمْ تَسْقُطْ آدَابُهُ وَلَمْ يَفْقُدْ مَزَايَا

الهِمَّةُ الصَّحِيحَةُ إِلَّا فِي أَرْمَانَ الْحُرُوبِ وَالْغَارَاتِ أَيَّامَ كَانَتْ الْوَطَنِيَّةُ
 الْحَرَبِيَّةُ بِالْغَلَّةِ مُمْتَهَاهَا . هُنَا لِكَ ، تَتَرَادَفُ عَلَى أَسْنَةِ أَقْلَامِ الْكُتَّابِ
 حَوَادِثُ الْقَتْلِ وَالْخَدِيعَةِ وَالزُّورِ وَمُصَارَعَةُ الْأَخِ أَخَاهُ ، وَغَيْرَ ذَلِكَ
 مِنْ أَنْوَاعِ الْفُظَّائِعِ وَالْمَخَازِي . وَمِنْ الصَّعْبِ الْأَيْمِيَّزِ الْإِنْسَانُ
 بَيْنَ هَذِهِ الْأَحْوَالِ وَبَيْنَ مَا يَقْتَضِيهِ نُمُو الْإِحْسَاسِ الْأَدَبِيِّ فِي الْأُمَّمِ .
 عَلَى أَنَّ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الطَّبِيعِيَّةِ ، فَإِنَّهُ مَتَى ثَارَتْ ثَوْرَةٌ الْجُشَعِ فِي
 قُلُوبِ الرُّؤَسَاءِ أَقْبَلُوا بِكَلِيَّاتِهِمْ وَجَزَّيَاتِهِمْ عَلَى الْحَرْبِ وَالْفُتُوحِ ،
 وَدَاسُوا كَرَامِ الشَّمَائِلِ بِالْأَقْدَامِ ، وَمَتَى اشْتَبَكَ الْقِتَالُ وَحَمَى وَطَيْسٌ ^(١)
 الْحَرْبِ بَيْنَ الْجُنْدِ انْدَفَعَ الْعَسْكَرُ إِلَى إِرْتِكَابِ الشَّنَاعَاتِ وَأَعْمَالِ
 الْقَسْوَةِ وَالْتَوَحُّشِ وَالْفُجُورِ ، وَهِيَ الْأَفْعَالُ الَّتِي يُسَمِّيهَا النَّاسُ فُظَّائِعَ
 الْحَرْبِ وَمُوبَقَاتِ الْجِيُوشِ . نَعَمْ يَرْدُ أَنَّ نِظَامَ الْجِيُوشِ فِي هَذِهِ
 الْأَيَّامِ لَا يَقْتَضِي مِثْلَ تِلْكَ الْأَعْمَالِ - وَهُوَ صَحِيحٌ - إِلَّا أَنَّ فَسَادَ الْأَخْلَاقِ
 حَاصِلٌ أَيْضًا وَإِنَّمَا تَغْيِيرُ شَكْلِهِ فَقَطْ .

وَمِنْ حُسْنِ الْحُظِّ فِي هَذَا الزَّمَانِ أَنْ صَارَتْ الْحَرْبُ نَادِرَةً ،
 وَصَارَتْ مَعِيشَةُ الْجُنْدِيِّ مَعِيشَةً سَلِيمًا مُدَجَّجًا بِالسَّلَاحِ ، وَصَارَ بَيْنَنَا
 وَبَيْنَ ذَلِكَ الْعَسْكَرِيِّ الَّذِي يَقْضِي حَيَاتَهُ فِي الْحُرُوبِ أَجْيَالٌ طَوَالٌ
 وَأَصْبَحَ جُنْدِيْنَا يَقْضِي حَيَاتَهُ فِي الشُّكْنِ يَتَمَرَّنُ بِسِلَاحٍ قَدْ لَا تَحِينُ

(١) الوطيس : التور وما أشبهه والمركة على التشبيه ، يقال حمى الوطيس أى اشتدت

الْفُرْصَةَ لِاسْتِعْمَالِهِ فَهُوَ وَاحِدٌ مِنَ الْأُمَّةِ يَعِيشُ مُطْمَئِنًّا إِلَّا أَنَّهُ عَلَى
نَفَقَةِ الْحُكُومَةِ ، وَلَيْسَ فِي تِلْكَ الْمَعِيشَةِ مَا يُوجِبُ نُمُوَ الْإِحْسَاسِ
الْأَدَبِيِّ ، وَلَكِنِّي أَرَى فِيهَا مَا يَدْعُو إِلَى النِّقْصِ فِيهِ لِأَنَّهُمْ يَعِيشُونَ
فِي شِبْهِ بَطَالَةٍ بغيرِ عَمَلٍ ذَاتِيٍّ وَلَا تَبِعَةَ عَلَيْهِمْ فِي شَيْءٍ ، مُحْرَمِينَ
مِنْ جَمِيعِ الْمَشْتَهِيَّاتِ كَالرُّهْبَانِ ! وَكُلُّهَا شُرُوطٌ لَا تُوَافِقُ الْعِزَّةَ ، وَلَا
تَرْبِي الْأَنْفَةَ وَلَا تَشْجَعُ النَّفْسَ وَلَا تُنْعِي الْإِحْسَاسَ ، لِأَنَّ أَوَّلَ الدَّلَائِلِ
عَلَى نُمُوِ الْإِحْسَاسِ الْأَدَبِيِّ فِي الْإِنْسَانِ قُدْرَتُهُ عَلَى مُغَالَبَةِ نَفْسِهِ
وَاسْتِطَاعَتُهُ تَذِيلَ مَتَاعِبِ الْحَيَاةِ وَإِذْعَانَهُ إِلَى مَا تَقْتَضِيهِ مِنْ
الْكَدِّ وَالْعَمَلِ . وَمِمَّا لَا يَخْتَلِفُ فِيهِ اثْنَانِ أَنَّ الْخِدْمَةَ الْعَسْكَرِيَّةَ
تُضْعِفُ فِي الرَّجُلِ هَذَا الْإِسْتِعْدَادَ إِضْعَافًا شَدِيدًا فَلَا يَلِيْقُ الْجُنْدِيُّ
الْقَدِيمُ إِلَّا لِلْخِدْمَةِ فِي مَسَاكِبِ الشَّرْطَةِ ، وَمِنْ الصَّعْبِ عَلَيْهِ أَنْ
يَعُودَ زَارِعًا أَوْ أُجِيرًا كَمَا كَانَ قَبْلَ أَنْ يُصَيَّرَ جُنْدِيًّا ، لِأَنَّهُ يَرَى تِلْكَ
الْأَعْمَالَ شَاقَّةً عَلَيْهِ ، فَثَبَّتَ أَنَّ مُدَّةَ إِقَامَتِهِ فِي ثِكْنَةِ الْعَسَاكِرِ
أَضْعَفَتْ عَزِيمَتَهُ وَأَوْهَنْتْ قُوَاهُ الْأَدَبِيَّةَ .

كَذَلِكَ يَتَأَثَّرُ الضَّابِطُ بِذَلِكَ الْوَسْطِ تَأَثُّرًا لَيْسَ حَمِيدًا . وَمِنْهُمْ
مَنْ يَشْتَغِلُونَ فَيَنْجُونَ مِنْ عَدَوِي الثُّكْنِ بَعْضَ النَّجَاةِ وَلَكِنْهُمْ
لَا يَفْضُلُونَ غَيْرَهُمْ مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ يَكْدُونُ فِي سَبِيلِ رِزْقِهِمْ ، وَمِنْهُمْ

مَنْ لَا يَعْمَلُ عَمَلًا أَبَدًا ، وَيَكْتَفُونَ بِأَدَاءِ الْوَأْجِبَاتِ الْعَسْكَرِيَّةِ دُونَ
غَيْرِهَا . وَأَوْلَاكَ تَرَاهُمْ يَقْضُونَ أَوْقَاتَ فَرَغِهِمْ الطَّوِيلَةَ فِي الْمَقَاهِي
أَوْ الْمَقَامَرَةِ أَوْ اسْتِنْسَاقِ الْهَوَاءِ أَوْ الزِّيَارَاتِ أَوْ الْمَلَاهِي وَالْمَلَاذِّ ،
وَلَيْسَ فِي هَذِهِ الْأَعْمَالِ كَلْبًا مَا يَرْفَعُ دَرَجَتَهُمُ الْأَدْبِيَّةَ فَوْقَ دَرَجَةِ
أَقَلِّ النَّاسِ .

وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ الْأُمَمَ الَّتِي لَمْ تَحْفَلْ بِالْجُنْدِيَّةِ وَالْوُضَائِفِ الْإِدَارِيَّةِ
أَرْفَعُ مَنْزِلَةً فِي الْأَدَابِ مِنَ الَّتِي بَسَطْنَا الْكَلَامَ عَلَيْهَا ، لِأَنَّ شُبَّانَهَا
لَا يَجِدُونَ فِي الْعَسْكَرِيَّةِ أَوْ الْمَصَالِحِ الْأَمِيرِيَّةِ مَقَاعِدَ يَتَكَبَّرُونَ
عَلَيْهَا بِلَا تَعَبٍ وَلَا عَنَاءٍ ، بَلْ يُضْطَرُّونَ فِي تَحْصِيلِ رِزْقِهِمْ إِلَى
الْإِحْتِرَافِ بِالصَّنَاعَاتِ الْجَارِيَّةِ ، وَهَذِهِ تَقْتَضِي إِقْدَامًا أَوْفَرَ وَعَزْمًا
أَوْفَى وَفِيهَا السَّرَّاءُ وَالضَّرَّاءُ^(١) وَتَبَعْتُهَا أَكْبَرُ ، وَلَكِنَّهُمْ فِي كَدِّهِمْ
هَذَا التَّحْصِيلِ عَيْشِهِمْ وَإِيوَاءَ عَائِلَاتِهِمْ يَجِدُونَ هِمَّةً وَقُدْرَةً أَدْبِيَّتَيْنِ
لَا يَجِدُهُمَا مَنْ تَيْسَّرَ رِزْقُهُ وَعَاشَ كَسُولًا .

رَابِعًا : لِأَنَّهَا تُسَاعِدُ عَلَى انْتِشَارِ الْأُمَّةِ وَسُهُولَةِ تَعَوُّدِ أَفْرَادِهَا
الْإِقَامَةَ فِي جَمِيعِ أَنْحَاءِ الْمَسْكُونَةِ ، فَبَيْنَمَا نَحْنُ الْفَرَئِسَاوِيِّينَ نَجْتَبِدُ
فِي إِحْيَاءِ الْعَوَاطِفِ الْوَطْنِيَّةِ الَّتِي تَوْلَاهَا الْإِنْحِطَاطُ فِي أَرْجَاءِ الْبِلَادِ
كُلِّهَا بِاسْتِعْرَاضِ الْجُيُوشِ وَإِقَامَةِ الْإِحْتِفَالَاتِ الْعَسْكَرِيَّةِ يَمْخُرُ^(٢)

(١) الرخاء والشدة (٢) مخرت السفينة في البحر اذا جرت تشق الماء مع صوت

خَصْمَنَا فِي عُرْضِ الْبِحَارِ بِسُفْنِهِ الْعَدِيدَةِ ، وَيُغَيِّرُ عَلَى اطْرَافِ
 الْمَسْكُونَةِ بِمُهَاجِرِيهِ الدِّينِ لَا نُحْصِي لَهُمْ عَدًّا وَكَانْنَا لَا نَرَاهُ أَوْ أَنَّنَا
 نَحْتَقِرُهُ لِأَنَّهُ لَمْ يَنْسَلِجْ مِثْلَنَا مِنْ قَدَمِيهِ إِلَى عَيْنِيهِ . وَلَكِنَّا لَا نَزَالُ
 مُتَأَخِّرِينَ بِاعْتِقَادِنَا أَنَّ قُوَّةَ الْأُمَّةِ مِنْ قُوَّةِ حُكُومَتِهَا لِأَنَّهُ اعْتِقَادُهُ
 بَاطِلٌ ، إِذْ لَوْ كَانَ صَحِيحًا لَاصْبَحَتْ سَيَادَةُ الْعَالَمِ بِأَسْرِهِ فِي يَدِ الْأُمَّةِ
 اللَّاتِيْنِيَّةِ ، وَمِنْ الْمَشَاهِدِ أَنَّهُ تَرَجَعَ الْقَهْقَرَى ^(١) كُلَّ يَوْمٍ أَمَامَ
 تَقَدُّمِ الْأُمَّةِ الْإِنْكَلِيزِيَّةِ السَّكْسُونِيَّةِ عَلَى صِغَرِ حُكُومَاتِهَا وَقِلَّةِ
 جُيُوشِهَا .

إِذَا تَبَيَّنَا هَذَا كَمَا يَنْبَغِي تَمَكَّنَّا مِنْ أَخْذِ ثَارِنَا مِنَ الْأَمَانِيَا كَمَا
 يَنْتَبِغِيهِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا ، لِأَنَّنَا إِذْ ذَاكَ لَا نَطْلُبُهُ بِالْإِفْرَاطِ فِي حَشْدِ
 الْجُيُوشِ وَتَعَبُّبَةِ السَّلَاحِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُضَعِّفُ الْعَالِبَ وَالْمَغْلُوبَ سَوَاءً ،
 بَلْ نَبْتَغِيهِ مِنْ وَرَاءِ إِعْلَاءِ كَلِمَةِ الْأُمَّةِ فَهِيَ الْقُوَّةُ الْحَقِيقِيَّةُ ، لِأَنَّ
 قُوَامَهَا الْعَمَلُ وَاسْتِقْلَالُ الْأَفْرَادِ بِهِ .

وَلْيُلَاحِظْ أَنَّ حَالَةَ الْحَرْبِ أَوْ حَالَةَ السَّلْمِ الْمُسَلِّحِ لَيْسَتْ مِنْ
 الضَّرُورِيَّاتِ الْأَرْزَلِيَّةِ ^(٢) بَلْ هِيَ نَتِيجَةُ أَشْكَالِ الْجَمْعِيَّاتِ الَّتِي
 اسْتَوْلَتْ عَلَى زِمَامِ الْأُمَّةِ إِلَى هَذَا الْجَيْنِ ، وَكَانَتْ كُلُّهَا رَاجِعَةً إِلَى
 الْإِفْرَاطِ فِي تَعْظِيمِ السُّلْطَةِ الْعُمُومِيَّةِ وَتَوْسِيعِ نِطَاقِهَا . أَمَّا الْأُمَّةُ

(١) القهقري : الرجوع الى خلف ، ورجع القهقري أى رجع الرجوع المعروف
 بهذا الاسم لأن القهقري ضرب من الرجوع (٢) القديمة

الَّتِي اتَّخَذَتْ سَكَلًا آخَرَ فَإِنَّهَا لَمْ تَعُدْ تَشْعُرُ بِحَاجَةِ إِلَى الْإِقْتِتَالِ ،
وَصَارَتْ الْحَرْبُ عِنْدَهَا نَادِرَةً . وَهُمْ لَا يَسْتَبْقُونَ جُيُوشَهُمْ عَلَى قِلَّةٍ
عَدَدِهَا إِلَّا تَمَسَّكَ بِالْعَادَاتِ وَجَرِيًّا عَلَى الْمَاضِي ، أَوْ لِأَجْلِ أَنْ
يَدْفَعُوا بِهَا غَارَةَ الْأُمَمِ الَّتِي لَا تَزَالُ تَرَى كُلَّ شَيْءٍ مِنْ خِلَالِ
الْجُنْدِ مَلِيحًا .

وَلِنُخَصَّ مَا تَقَدَّمَ فَنَقُولُ :

إِنَّ الْوَطَنِيَّةَ السِّيَاسِيَّةَ وَطَنِيَّةَ صِنَاعِيَّةٍ كَاذِبَةٌ تُقَوِّدُ الْأُمَّمَ إِلَى
الدَّمَارِ ، وَالْوَطَنِيَّةَ الْحَقِيقِيَّةَ هِيَ الَّتِي تَفْضِلُ اسْتِقْلَالَ الشَّخْصِ وَتَحْمِيَهُ
مِنْ تَعَدِّيَاتِ الْحُكُومَةِ وَتُوسِّعُ نِطَاقَهَا ضِدَّ مَصْلَحَتِهِ ، لِأَنَّ
هَذِهِ هِيَ الطَّرِيقَةُ الْوَحِيدَةُ فِي اسْتِبْقَاءِ قُوَّةِ الْوَطَنِ وَتَحْصِيلِ سَعَادَتِهِ

الفصل الرابع

﴿ فِي أَنَّ الْفَرَنْسَاوِيِّينَ يَخْتَلِفُونَ عَنِ الْإِنْكَلِيزِ السَّكْسُونِيِّينَ ﴾

(فِي إِدْرَاكِ حَقِيقَةِ التَّضَامُنِ وَالتَّكَافُلِ)

أَصْبَحَ التَّكَافُلُ الْيَوْمَ مَذْهَبًا مَقْبُولًا فِي فَرَنْسَا كَالْبَدِيهِيَّاتِ حَتَّى
إِنَّ أَحَدَ رُؤَسَاءِ الْوِزَارَةِ السَّابِقِينَ وَهُوَ مُوسِيُو « لِيُون بَورجوا »
كَتَبَ فِيهِ رِسَالَةً مَخْصُوصَةً قَالَ فِيهَا : إِنَّ أَحْزَابَهُ عَدِيدُونَ وَذَكَرَ

مِنْهُمْ الْإِشْتِرَاكِيِّينَ مِنَ الْمَسِيحِيِّينَ وَبَعْضِ عُلَمَاءِ الْاِقْتِصَادِ الْاَلْمَانِيِّينَ
وَالْفَلَسَفَةِ كَمُوسِيُو « فويِه » وَ « ايزولى » وَحُكَمَاءِ الْفَلَسَفَةِ
الْوَضْعِيَّةِ الَّذِيْنَ يُسَمُّوْنَهُ مَذْهَبَ « الْغَيْرِيَّةِ ». قَالَ : « وَالْمَذْهَبُ
وَاحِدٌ عِنْدَ الْجَمِيعِ وَإِنْ اِخْتَلَفَتْ اَسْمَاؤُهُ ، وَمَرَّجِعُهُ إِلَى الْقَوْلِ بِوُجُودِ
رِبَاطٍ طَبِيعِيٍّ مِنَ التَّكَاْفُلِ بَيْنَ كُلِّ فَرْدٍ مِنَ الْاَفْرَادِ وَبَيْنَ الْبَقِيَّةِ ». .
وَلَوْ اِقْتَصَرُوا عَلَى ذَلِكَ لَأَمْسَكَنَ التَّسْلِيمُ بِهَذَا الْمَذْهَبِ إِذْ لَا ضَرَرَ
فِيهِ ، وَلَا نَهَّ إِتْمَانًا جَاءَ بِحَقِيْقَةِ لَا تَخْفَى عَلَى عَامَّةِ النَّاسِ غَيْرَ أَنَّ فِي
الْأَمْرِ شَيْئًا آخَرَ يَنْبَغِي التَّحَرُّزُ مِنْهُ ، ذَلِكَ أَنَّ الْقَائِلِينَ بِهَذَا الْمَذْهَبِ
يُرِيدُونَ أَنْ يَجْعَلُوهُ الْمَرْجِعَ الْأَصْلِيَّ فِي الْمَسْأَلَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ بِتَمَامِهَا
وَيَرَوْنَ أَنَّهُ الْوَسِيْلَةُ فِي حَلِّ مُشْكَلَاتِهَا وَمَدَارُ بَحْثِهِمْ كُلَّهُ عَلَى الْمَسْأَلَةِ
الْآتِيَّةِ : هَلْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْفَرْدُ تَابِعًا لِلْكُلِّ أَوِ الْكُلُّ لِلْوَاحِدِ ؟
وَهُمْ يُجِيبُونَ بِأَنَّ الصَّوَابَ تَتَّبِعُ الْوَاحِدَ لِلْكُلِّ ، وَعَلَيْهِ فَلِمَوْضُوعِ
لَيْسَ بَسِيْطًا وَلَكِنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى النَّظَرِ وَالتَّنْقِيْبِ .

وَأَكْبَرُ دَلِيلٍ - فِي رَأْيِ مُوسِيُو « بَورجوا » - عَلَى صِحَّةِ الْمَذْهَبِ
هُوَ قَوْلُهُ إِنَّ الرَّجُلَ تَابِعٌ لِلْجَمْعِيَّةِ لِأَنَّهُ مَدِينٌ لَهَا ، وَلَيْسَ هُوَ مَدِينًا
لِمُعَاصِرِيهِ فَقَطْ ، بَلْ « يُوَلِّدُ مَدِينًا لِلنَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ بِأَكْمَلِهِ » ، وَمِنْهُ
الْأَجْيَالُ الْمَاضِيَّةُ ، « لِأَنَّهُ يَأْخُذُ حَظَّهُ مِمَّا تَرَكَ آبَاؤُهُ وَأَبَاءُ
الْآخَرِينَ »

وَيَرَى الْمُتَأَمِّلُ مِنْ إِرَادِ هَذَا الدَّلِيلِ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ أَنَّهُ
يَسْهَلُ عَلَى صَاحِبِهِ إِطَالَةُ الشَّرْحِ فِيهِ ، كَمَا يَعْلَمُ أَنَّ مِنَ السَّهْلِ نَحْلَ
طَرِيقَتِهِ لِلرَّدِّ عَلَيْهِ . قَالَ : « يَتَبَادَلُ النَّاسُ الْمَنَافِعَ وَهُمْ أَحْيَاءُ » فَهُمْ
حِينَئِذٍ مُتَكَافِلُونَ .

وَقَدْ يُجَابُ عَنْ هَذَا الْقَوْلِ بِأَنَّهُ قَوْلٌ صَحِيحٌ ، وَبِأَنَّ النَّاسَ
يَتَبَادَلُونَ أَيْضًا أَحْقَادًا ، وَبَعْضُهُمْ مَعَ الْبَعْضِ الْآخِرِ يَتَنَافَسُونَ ، فَلْيَسُوا
حِينَئِذٍ مُتَكَافِلِينَ .

قَالَ : « إِذَا وُلِدَ الْإِنْسَانُ رَأَيْتَهُ يَتَمَتَّعُ بِرَأْسِ مَالٍ عَظِيمٍ جَمَعَتْهُ
الْأَجْيَالُ الْمَاضِيَةُ » فَهُوَ حِينَئِذٍ مَدِينٌ .

وَيُقَالُ فِي الْجَوَابِ : نَعَمْ ! وَلَسْكَنْهُمْ أَيْضًا أضعفوا قُوَّةَ الْعَمَلِ الذَّاتِيِّ
لِأَنَّهُمْ لَمْ يَتْرُكُوا مِنَ الْأَرْضِ إِلَّا يَسِيرًا لَمْ يَسْتَغْلَوْهُ فَصَيَّرُوا التَّنَازُعَ
فِي الْحَيَاةِ عَنيفًا ؛ لِذَلِكَ يَكُونُ الْفَرْدُ مِنَ الدَّائِنِينَ .

وَهَكَذَا يَسْهَلُ الْاسْتِرْسَالُ فِي هَذَا الْبَحْثِ عَلَى هَذَا النَّحْوِ
وَالْمَوْضُوعِ وَاقِفٌ عِنْدَ الْحَدِّ الْأَوَّلِ ! وَتَكُونُ النَّتِيجَةُ لِعِبَا بَيْنَ
مُتَنَازِرِينَ يَنْتَهِي بِاعْتِقَادِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَنَّهُ أَلْزَمَ خَصْمَهُ الْحُجَّةَ
وَأَسْكَتَهُ بِقُوَّةِ الْبُرْهَانِ .

وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ بَيْنَ النَّاسِ مَنَافِعَ مُشْتَرَكَةً وَآخَرَ مُتَنَاقِضَةً فَهُمْ
لِلْاجْتِمَاعِ دَائِنُونَ وَمَدِينُونَ ، وَهُنَا عَقْدَةُ الْأَشْكَالِ ! إِلَّا أَنَّ مُوسِيُو
« بورجوا » قَدْ سَهَّلَ لَنَا حَلَّهَا بِرِسَالَتِهِ .

وَلَنَجْعَلُ مَبْدَأَ بَحْثِنَا ذَلِكَ الدَّالِيلَ الَّذِي اخْتَارَهُ دُونَ غَيْرِهِ وَرَدَدَهُ
مِرَارًا وَجَعَلَهُ الْعِمَادَ الْأَوَّلَ فِي تَفْضِيلِ الْكُلِّ عَلَى الْوَاحِدِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ :
« يُولَدُ الْمَرْءُ مَدِينًا لِلْهَيْمَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ فَيَأْخُذُ حَظَّهُ مِمَّا تَرَكَ آبَاؤُهُ
وَأَبَاءُ الْآخَرِينَ ، حَتَّى إِنْ أَحْقَرَ الصَّنَاعِ فِي زَمَنِنَا هَذَا لِيَفْضُلَ مُتَوَحِّشِ
الْأَزْمَانِ الْقَدِيمَةِ بِمَقْدَارِ مَا بَيْنَهُ هُوَ مِنَ التَّفَاوُتِ وَبَيْنَ رَجُلٍ مِنْ
نَوَابِغِ عَصْرِهِ » إِلَى أَنْ قَالَ :

« وَمَا تَارِيخُ الْإِنْسَانِيَّةِ إِلَّا عِبَارَةٌ عَنْ تَارِيخِ مَا تَحَمَّلَهُ النَّوعُ
الْإِنْسَانِيُّ مِنَ الْمَتَاعِبِ وَالْخَسَائِرِ الَّتِي لَا يُحْصَى عَدْدُهَا وَلَا يُمَكِّنُ
تَقْدِيرُ أَهْمِيَّتِهَا حَتَّى وَصَلَ بِعَقْلِهِ وَقُوَّةِ إِرَادَتِهِ إِلَى إِدْرَاكِ مَا أُوْدِعَ
فِي السَّكُونِ مِنَ الْعُنَاصِرِ وَالْقُوَى وَتَمَكَّنَ مِنْ إِخْضَاعِ الْجَمِيعِ
لِسُلْطَانِهِ وَاسْتِعْمَالِهَا فِي مَنْفَعَتِهِ ، لِيَجِدَ كُلُّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِهِ يَوْمَ يُوجَدُ
وَسَطًا يَسْهُلُ عَلَيْهِ فِيهِ تَرْبِيَةٌ مَلَكَاتِهِ وَإِنَّمَاءٌ مَا اخْتَصَّ بِهِ مِنْ
الْقُوَى بَحْرِيَّةٍ أَوْ فِي وَأَكْبَرَ ، أَيْ لِتَسْكُونِ الْإِنْسَانِيَّةِ أَحْسَنَ فِي الْحَالِ
وَالِاسْتِقْبَالِ مِنْهَا فِي الْمَاضِي وَإِلَى رَاحَةِ الْأَجْسَامِ أَقْرَبَ وَإِلَى دَعَا
الْأَفْكَارِ الزَّمِّ وَإِلَى اطمئنانِ الصَّمَائِرِ أَوْجَبَ » .

ذَلِكَ أَمْرٌ لَا شَكَّ فِيهِ ؛ فَالرَّجُلُ مَدِينٌ لِلْهَيْمَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ بِمَا وَصَلَتْ
إِلَيْهِ مِنَ التَّرَقِّيِّ وَإِلَيْهَا يَرْجِعُ فَضْلُهُ الْحَالِي عَلَى مُتَوَحِّشِ الْقُرُونِ
الْأُولَى . غَيْرَ أَنَّ الْبَحْثَ الْوَاحِدَ الْمُهْمَّ الَّذِي يَنْبَغِي الْخَوْضُ

فِيهِ هُوَ مَعْرِفَةٌ كَيْفَ حَصَلَ هَذَا التَّرَقِّي فِي الْهَيْئَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ:
 هَلْ كَانَ فِي حُصُولِهِ السُّكُلُ خَاضِعًا لِلْفَرْدِ؟ أَوِ الْفَرْدُ تَابِعًا
 لِلسُّكُلِ كَمَا يَشَاءُ مُوسِيُو بوجوا. وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى هَلِ الَّذِي أُوجِبَ
 ذَلِكَ التَّرَقِّي الَّذِي صَيَّرَ فِي رَأْيِهِمُ الْوَاحِدَ مَدِينًا لِلسُّكُلِ هُوَ عَمَلُ
 الْجَمْعِ أَوْ عَمَلُ الْأَفْرَادِ؟ وَبِعِبَارَةٍ أُوْضِحَ: هَلْ هُوَ مِنْ عَمَلِ الْجَمْعِيَّاتِ
 الَّتِي كَانَتْ السُّلْطَنَةُ فِيهَا فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ أَوْ مِنْ عَمَلِ الْجَمْعِيَّاتِ الَّتِي
 كَانَ كُلُّ فَرْدٍ حُرًّا فِيهَا يَجْرِي وَرَاءَ مَصَالِحِهِ كَمَا يَشَاءُ؟ لِأَنَّهُ
 لَا يَتَأْتِي لَهُمْ بِالطَّبَعِ أَنْ يَبْنُوا مَذْهَبَهُمْ عَلَى مَا حَصَلَ مِنَ التَّرَقِّي
 وَلَا يَلْتَفِتُوا إِلَى كَيْفِيَّةِ حُصُولِهِ وَطَرِيقَةِ اكْتِسَابِهِ

وَإِذَا تَمَهَّدَ هَذَا سَهْلًا عَلَيْنَا الْبَحْثُ فِي مَوْضُوعِنَا:

مِنَ الْحَقَائِقِ الَّتِي يَعْرِفُهَا كُلُّ وَاحِدٍ أَنَّ الْأُمَّمَ الْحَالِيَّةَ
 سَاعَدَتْ عَلَى نُمُوِّ التَّقَدُّمِ أَكْثَرَ مِنَ الْأُمَّمِ الْمَاضِيَّةِ وَأَنَّ الْأُمَّمَ
 الْغَرْبِيَّةَ تَفْضُلُ فِي ذَلِكَ الْأُمَّمِ الشَّرْقِيَّةَ ، وَمِنَ الْوَاضِحِ أَنَّ
 الْأُمَّمَ الْحَالِيَّةَ وَالْأُمَّمَ الْغَرْبِيَّةَ إِنَّمَا فَضَلَتْ غَيْرَهَا بِتَعَلُّبِ الْعَمَلِ
 الشَّخْصِيِّ عَلَى الْعَمَلِ الْعَامِّ ، أَيْ بِقُوَّةِ اسْتِقْلَالِ الْفَرْدِ أَمَامَ
 السُّكُلِ ، فَكَمَا انْتَقَلْنَا مِنَ الْمَاضِي إِلَى الْمُسْتَقْبَلِ وَسِرْنَا مِنَ
 الشَّرْقِ إِلَى الْغَرْبِ نَشَاهِدُ شَخْصِيَّةَ الْأَفْرَادِ تَعْظُمُ شَيْئًا فَشَيْئًا
 وَأَنَّ الْوَاحِدَ يَسْتَقِلُّ عَنِ الْهَيْئَةِ وَيَسْتَأْثِرُ بِكَثِيرٍ مِنَ الْأَعْمَالِ

دُونَ الْبَقِيَّةِ وَأَنَّ الْعَمَلَ أَصْبَحَ حُرًّا بَعْدَ أَنْ كَانَ مُقَيَّدًا، وَأَضْحَى ذَاتِيًّا^(١) بَعْدَ أَنْ كَانَ كُليًّا، كَمَا انْتَقَلَتِ الْمِلْكِيَّةُ مِنْ يَدِ الْجَمْعِ وَتَقَسَّمَتْ عَلَى الْأَفْرَادِ. فَبَطَلَتْ صَوْلَةُ الْقَبِيلَةِ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ أَعْضَائِهَا، وَبَادَتْ أَثَرَةُ الطَّوَائِفِ دُونَ أَفْرَادِهَا وَتَسَاوَى كُلُّ بَأَخِيهِ مَدَنِيًّا وَسِيَاسِيًّا وَتَبَدَّلَتِ الْحُكُومَاتُ مِنْ مَلَكيَّةٍ مُطْلَقَةٍ أَوْ جُمْهُورِيَّةٍ مُسْتَبَدَّةٍ إِلَى مَلَكيَّةٍ أَوْ جُمْهُورِيَّةٍ حُرَّةٍ نِيَابِيَّةٍ.

وَبِالْجُمْلَةِ نُشَاهِدُ التَّقَدُّمَ الْاجْتِمَاعِيَّ يَسِيرُ خَلْفَ اسْتِقْلَالِ الْأَفْرَادِ تَجَاهَ^(٢) الْحُكُومَاتِ. وَإِذَا نَظَرْنَا إِلَى أُمَّمِ الْعَرَبِ وَحَدَّهَا رَأَيْنَا أَنَّ اللَّي تَفُوقُ غَيْرَهَا مِنْهَا فِي التَّقَدُّمِ وَسُرْعَةِ التَّرَقِّي وَالثَّرْوَةِ وَالِانْتِشَارِ هِيَ الَّتِي يَعْظُمُ فِيهَا قَدْرُ الْوَاحِدِ وَيَتَأَيَّدُ اسْتِقْلَالُهُ الذَّاتِي، ذَلِكَ كَمَا هُوَ وَاضِحٌ مُحَسَّنٌ فَلَا أَطِيلُ الشَّرْحَ فِيهِ.

عَلَى أَنَّ مُوسِيُو (بُورجُوا) لَا يُخَالِفُ فِي الْحَقِيقَةِ مَا أَقُولُ، وَلَمْ يَفْتَهُ مَا فِي مَذْهَبِهِ مِنَ الضَّعْفِ وَالْفَسَادِ وَإِنْ بَنَاهُ عَلَى ظَاهِرِ خِدَاعٍ قَدْ تَقَوَّتْ مَضَارُّهُ عَلَى غَيْرِ النَّاقِدِينَ، بَلْ عَرَفَ يَقِينًا أَنَّهُ يُؤَدِّي إِلَى إِمَاتَةِ رُوحِ الْعَمَلِ فِي الْأَفْرَادِ وَسَدِّ بَابِ التَّقَدُّمِ الَّذِي هُوَ مَدَارُ مَذْهَبِهِ. لِذَلِكَ أَخَذَ يَتَقَدَّمُ بِالرَّدِّ عَلَى مَا خَشِيَ الْإِعْتِرَاضَ بِهِ عَلَيْهِ فَقَالَ (لَقَدْ عَرَفَ السُّكُلُ فِي تَارِيخِ الْأُمَّمِ وَالشُّعُوبِ

(١) فردياً (٢) تجاه بضم التاء وكسرهما أى تناقاه

أَنَّ السَّبَبَ الْأَصْلِيَّ فِي التَّرَقِّي تَزَاكُمُ الْأَفْرَادِ عَلَى اسْتِقْلَالِهِمْ ، وَأَنَّ الْأُمَّةَ لَا تَتَّجِهُ نَحْوَ التَّقَدُّمِ إِلَّا إِذَا نَشِطَ الْوَاحِدُ مِنْ قِيُودِهِ وَتَيَسَّرَ لَهُ اسْتِعْمَالُ مَا اخْتَصَّ بِهِ مِنَ الْمَلَكَاتِ وَالْمَزَايَا ، وَأَنَّهُ بِقَدْرِ تَقَدُّمِ الْأَفْرَادِ فِي اسْتِقْلَالِهِمْ وَمُؤْخَرِ كَاتِمِهِمِ الْجِسْمِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ الَّتِي هِيَ قَوَامُ كُلِّ حَرَكَةٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ يَكُونُ تَقَدُّمُ الْهَيْئَةِ بِتَمَامِهَا وَيَعْظُمُ عَمَلُهَا فِي سَبِيلِ التَّرَقِّي وَالنَّجَاحِ .

وَذَلِكَ أَبْلَغُ مَا يُقَالُ ، غَيْرَ أَنَّ الْمُؤَلِّفَ بَعْدَ أَنْ فَرَغَ مِنْ هَذَا التَّحْقِيقِ جَعَلَ يَتَأَوَّلُهُ وَيَتَدَحَّرَجُ فِيهِ حَتَّى أَرْجَعَهُ إِلَى مَذْهَبِهِ كَيْ لَا تُتْرَكَ قُوَى الْأَفْرَادِ لِلْأَفْرَادِ ، فَقَالَ : « وَاجْتِمَاعُ قُوَى الْأَفْرَادِ تَحْتَ لَوْاءِ وَاحِدٍ - قَهْرًا فِي أَرْمِنَةِ الاسْتِبْدَادِ أَوْ اخْتِيَارًا فِي أَعْصَرِ الْحُكُومَاتِ الْحُرَّةِ - هُوَ الَّذِي آيَّدَ بَقَاءَ الْمُجْتَمَعَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَحَفِظَهَا مِنَ الشَّتَاتِ وَهِيَ الْعَائِلَةُ وَالْقَبِيلَةُ وَالْمَدِينَةُ وَالشَّعْبُ وَالِدِّينُ وَالْأُمَّةُ » . وَعَلَيْهِ فَارْقَ نِظَامٍ فِي الْوُجُودِ هُوَ « الَّذِي تَحْصُلُ بِهِ الْمُوَاظَنَةُ بَيْنَ الْأَفْرَادِ وَالْكَلِّ حَتَّى يَعِيشَ الْكَلُّ لِلْوَاحِدِ وَيَعِيشَ الْوَاحِدُ لِلْكَلِّ وَيُصْبِحَ هَذَانِ الْمُؤَثِّرَانِ مُتَلَازِمَيْنِ بَعْدَ أَنْ ظَاهَمَا النَّاسُ تَقْيِيزَيْنِ زَمَنًا مَدِيدًا ، أَلَا وَهِيَ تَقَدُّمُ كُلِّ فَرْدٍ فِي حَيَاتِهِ وَتَقَدُّمُ الْأُمَّةِ فِي حَيَاتِهَا » . وَمَرْجُ النِّظَامَيْنِ الْفَرْدِيِّ وَالْكَلِّيِّ عَلَى هَذَا النَّحْوِ يَأْخُذُ بِالْأَفْكَارِ عِلْمًا وَيَدُلُّ صَرَاحَةً عَلَى أَنَّ الْمُؤَلِّفَ يُرِيدُ أَنْ يُرْضِيَ الْجَمِيعَ ؛ لَكِنْ مَنْ ذَا الَّذِي يُبَيِّنُ لَنَا

مَقْدَارَ مَا يَجِبُ مِنْ كُلِّ عُنْصُرٍ فِي هَذَا الْمَرْجِحِ ؛ وَمَنْ الَّذِي يَتَوَلَّى
أَمْرَ الْمَرْجِحِ بَيْنَ الْعُنْصُرَيْنِ ؛ وَهَلْ يُوجَدُ مَنْ يَتَسَنَّى لَهُ هَذَا الْمَرْجِحُ
وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ عِلْمَ تَحْلِيلِ الْهَيْئَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ أَكْثَرُ تَعْقِيدًا وَأَكْبَرُ
اسْتِعْصَاءً مِنْ عِلْمِ تَحْلِيلِ الْأَجْرَامِ ؟

لَمْ يَفْتُ ذَلِكَ مُوسِيُو بَورجوا فَعَقَدَ لَهُ فَصْلًا مَخْصُوصًا عَنْوَانُهُ
« تَطْبِيقُ مَذْهَبِ التَّكَاثُلِ الْاجْتِمَاعِيِّ عَمَلًا » إِلَيْكَ أَهْمٌ حَدِيثُهُ فِيهِ :
يَجِبُ فِي التَّأْلِيفِ بَيْنَ الْعُنْصُرَيْنِ أَنْ يُتَمَتَّتَ إِلَى طَبِيعَةِ الْاجْتِمَاعِ
وَغَايَتِهِ وَالظُّرُوفِ الَّتِي تَكْتَنِفُ كُلَّ فَرْدٍ يَوْمَ يَنْضَمُّ إِلَيْهِ ، وَحَظَّهُ
مِنْهُ وَوَأَجِبِهِ فِيهِ . وَبِالْجُمْلَةِ يَنْبَغِي أَنْ يُقَابَلَ بَيْنَ مَزَايَا الْاجْتِمَاعِ
وَمَتَاعِهِ بِالنَّظَرِ إِلَى كُلِّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِهِ ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ بِذَلِكَ مَالَهُ مِنْ
الْحُقُوقِ وَمَا عَلَيْهِ مِنَ الْوَأَجِبَاتِ .

« وَلَيْسَ إِشَارِعٌ ^(١) الْأُمَّةُ أَنْ يَكُونَ هُوَ مُفَرَّقٌ الْخُطُوطِ وَالْمَتَاعِبِ
فِي الْاجْتِمَاعِ ، فَلَنْ يَكُونَ مِنْ وَظِيفَتِهِ إِجْمَادُ الْحُقُوقِ بَيْنَ النَّاسِ ، بَلْ
تَنْحَصِرُ وَاجِبَاتُهُ فِي اتِّزَاعِهَا مِنْ مَلَا حَظَّةٍ رَوَابِطِهِمْ بَعْضِهِمْ مَعَ
بَعْضٍ ، وَالْوُقُوفِ عِنْدَ بَيَانِهَا وَتَقْرِيرِ أَحْكَامِهَا . وَمَتَى تَبَيَّنَ النَّسْبَةُ
الْكَائِنَةُ بَيْنَ عَنَاصِرِ الْهَيْئَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَضَحَّتْ لَهُ النَّسْبُ الَّتِي تُوجَدُ
بَيْنَ ضَمَائِرِ الْمُجْتَمِعِينَ وَمَشَاعِرِهِمْ فَيَقْرُرُهَا .

وَحِينَئِذٍ لَا يَكُونُ شَرْعُهُ قَانُونًا سَنَّتَهُ الْهَيْئَةُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ وَالزَّمَتِ
 الْاَفْرَادَ اتِّبَاعَهُ اِزْمَامًا بَلْ يَكُونُ ذَلِكَ الْقَانُونُ عِبَارَةً عَنِ النَّامُوسِ^(١)
 الطَّبِيعِيِّ لِلْهَيْئَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الْوَاجِبِ الْعَمَلُ بِهِ بَيْنَ النَّاسِ .
 وَيَرَى الْقَارِيءُ أَنَّ مُوسِيُو بَورجُوا عَلَى رَجَاءٍ مِنْ وُصُولِ النَّاسِ -
 بَعْدَ زَمَنٍ طَوِيلٍ - إِلَى دَرَجَةٍ مِنَ الْاِسْتِنَارَةِ وَالْعِرْفَانِ وَالْحِكْمَةِ
 تَمَكَّنْتُهُمْ مِنَ الْاِتِّفَاقِ عَلَى عَقْدِ اجْتِمَاعِيٍّ يَصِيرُونَ بِمُقْتَضَاهُ شَرِكَةً
 اخْتِيَارِيَّةً يَسْهُلُ عَلَيْهِمْ فِيهَا « الْجَمْعُ بَيْنَ الْقُوَى الْمُتَنَاقِضَةِ وَتَحْوِيلُهَا
 كُلِّهَا إِلَى مُؤَثَّرَاتٍ مُفِيدَةٍ لِكُلِّ فَرْدٍ وَلِلْمَجْمُوعِ ، وَأَنَّ يُقِيمُوا عَلَى
 اِطْلَالِ التَّنَافُسِ وَالْخِصَامِ وَدَوَارِسِ^(٢) السَّاطَةِ الْقَهْرِيَّةِ وَالِاسْتِبْدَادِ
 بِنَاءِ هَيْئَةٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ جَدِيدَةٍ عَمَادَتِهَا السَّلَامُ وَقَوَامُهَا التَّرَاضِي
 وَالِاخْتِيَارُ » .

وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ هَذَا مَطْمَاحٌ لَا يَرْمِي إِلَيْهِ إِلَّا حَكِيمٌ حَكِيمٌ^(٣)
 وَهُوَ الْعَرَضُ الَّذِي يَجِبُ أَنْ تَقْصِدَهُ الْاِنْسَانِيَّةُ فِي خُطَايَاهَا وَهُوَ الَّذِي
 يُمَكِّنُهَا أَنْ تَسِيرَ إِلَيْهِ ، إِلَّا أَنَّهُ يَصْعَبُ عَلَيْنَا أَنْ نَمْشِيَ مَعَ الْمُؤَلَّفِ هَذَا
 الشَّوْطِ الْبَعِيدِ ، كَمَا يَصْعَبُ عَلَيْنَا أَنْ نُوَافِقَهُ عَلَى أَنَّ الْمُقَدِّمَاتِ الَّتِي
 وَضَعَهَا تُؤَدِّي إِلَى النَّتِيجَةِ الْمَذْكُورَةِ . فَقَدْ دَلَّنَا عَلَى وُجُودِ قُوَّتَيْنِ
 فِي الْحَيَاةِ الْاِنْسَانِيَّةِ ، وَهُمَا قُوَّةٌ كُلٌّ فَرَدٍ مِنْهَا وَقُوَّةُ الْهَيْئَةِ

(١) يريد القانون (٢) يريد مدارس منها وعفا واندر (٣) يريد حكيما متمكنا.

المُجْتَمَعَةَ وَاعْتَرَفَ بِأَنَّ التَّقَدَّمَ الَّذِي وَصَلَتْ إِلَيْهِ رَاجِعٌ إِلَى الْأُولَى مِنْهُمَا ، ثُمَّ اسْتَنْتَجَ مَعَ هَذَا وَجُوبِ انْمَاءِ الثَّانِيَةِ وَجَعَلَهَا مَحَلَّ الرَّجَاءِ فِي «الْوُصُولِ إِلَى هَيْئَةٍ جَدِيدَةٍ عَمَادُهَا السَّلَامُ وَقَوَامُهَا التَّرَاضِي وَالِاخْتِيَارُ» .

وَإِنِّي لَا أُخْطِيءُ كَثِيرًا إِذَا قُلْتُ بِأَنَّ هَذَا التَّنَاقُضَ مَقْصُودٌ ، فَإِنَّ مُوسِيُو «بُورْجُوا» رَجُلٌ سِيَاسِيٌّ أَوْلَاوُ بِالذَّاتِ ، وَشُغْلُهُ الشَّاعِلُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ تَأْلِيْفُ حِزْبٍ يَكُونُ لَهُ نَصِيرًا ، ثُمَّ الْعَمَلُ عَلَى دَوَامِ هَذَا الْحِزْبِ وَانْتِشَارِهِ بِمَا يَصِلُ إِلَيْهِ الْإِمْكَانُ ، وَهُوَ يَحْشَى أَنْ يُنْفَرَ مُحَازِيِيهِ إِنْ قَالَ لَهُمْ : إِنَّ الْحَيَاةَ أَيُّهَا الْأَوْلِيَاءُ لَيْسَتْ لَعِبًا وَلَهُوًا وَإِنَّمَا هِيَ مُغَالَبَةٌ دَائِمَةٌ ضِدَّ مَتَاعِبٍ لَا تُحْصَى مُتَجَدِّدَةٌ فِي كُلِّ آنٍ وَلَنْ تَنَالُوا الظَّفَرَ فِي هَذَا الْجِهَادِ إِلَّا إِذَا جَعَلْتُمْ كُلَّ اعْتِمَادِكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ لَا عَلَى غَيْرِكُمْ . إِذْ كُلُّ مَا يُمَكِّنُ لِأَهْلِيكُمُ وَأَصْدِقَائِكُمْ وَجِيرَانِكُمْ وَحُكُومَتِكُمْ أَنْ يُسَاعِدُوكُمْ بِهِ أَقَلُّ فِي الْحَقِيقَةِ بِكَثِيرٍ مِمَّا يُمَكِّنُكُمْ أَنْ تُسَاعِدُوا بِهِ أَنْفُسَكُمْ بِأَنْفُسِكُمْ إِذَا عَوَّلْتُمْ عَلَيْهَا وَلَمْ تَرْجِعُوا فِي أُمُورِكُمْ إِلَّا إِلَيْهَا . لِأَنَّهُ مِنَ الْمُسَلِّمِ أَنْ مِثْلَ هَذَا الْخِطَابِ إِنَّمَا يُؤَثَّرُ فِي عُقُولِ الْمُسْتَنْبِرِينَ وَلَا يَأْخُذُ إِلَّا بِقُلُوبِ الَّذِينَ سَمَّتْ مَدَارِكُهُمْ وَكَانُوا قَوْمًا عَارِفِينَ ، وَلَكِنَّهُ لَا يَجْذِبُ الْجَمَاهِيرَ خُصُوصًا مَنْ أَسْلَمُوا أَمْرَهُمْ إِلَى أَهْلِ السِّيَاسَةِ وَوَقَفُوا حَظْمَهُمْ فِي الْحَيَاةِ عَلَى

مَا يَعْمَلُونَ . ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ لَا يَطْلُبُونَ نَصِيْبَهُمْ فِي الْوُجُودِ إِلَّا مِنْ
 الْحُكُومَةِ ، وَلَا يَرْجُونَ مَزِيَّةً إِلَّا مِنَ الْهَيْئَةِ بِتَمَامِهَا . وَمِثْلُ هَؤُلَاءِ
 الْقَوْمِ يَسْهُلُ اكْتِسَابُ قُلُوبِهِمْ إِذَا وُعِدُوا صَلَاحَ أُمُورِهِمْ بِوِاسِطَةِ
 ذَلِكَ التَّكَاْفُلِ لِأَنَّهُ صِغَةٌ مُبْهَمَةٌ بَسِيْطَةٌ يَقْبَلُهَا النَّاسُ بِالسَّهْوَةِ
 وَلَا تَضِيقُ عَلَى أَحَدٍ وَلَا تُوجِبُ شَيْئًا مِنَ الْمَتَاعِبِ وَلَا تَسْتَلْزِمُ مَعَ
 ذَلِكَ تَغْيِيرَ شَيْءٍ مِمَّا يَجْرِي عَلَيْهِ النَّاسُ فِي الْحَيَاةِ الْآنَ . وَهِيَ دَعْوَةٌ
 تَلْذُّهَا عَامَّةُ النَّاسِ الَّذِينَ لَا يَطْلُبُ مِنْهُمْ عَمَلٌ مِنَ الْأَعْمَالِ وَهُمْ
 يَطْلُبُونَ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ غَيْرِهِمْ ، وَتَلْذُّهَا أَيْضًا رِجَالُ السِّيَاسَةِ وَالْمُسْتَغْلُونَ
 بِالْمَسَائِلِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالْحُكَمَاءُ وَمُحِبُّو الْإِنْسَانِيَّةِ الَّذِينَ لَا يَتَكَلَّفُونَ
 مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا يَسِيرًا لِيُظْهِرُوا أَمَامَ النَّاسِ فِي ثَوْبِ قَوْمٍ عَرَفُوا
 مَتَاعِبَ الْإِنْسَانِيَّةِ وَكَانُوا بِهَا مُشْفِقِينَ .

نَعَمْ يَكْفِي ذَلِكَ تَأْلِيْفَ الْأَحْزَابِ وَجَمْعَ النُّصَرَاءِ ، وَلَكِنَّهُ
 لَا يَكْفِي النُّهُوضَ بِالْإِنْسَانِيَّةِ نَحْوَ كَالِهَلَا ، بَلْ إِنَّهُ يَزِيدُ فِي سُوءِ
 حَالِهَا ، لِأَنَّ التَّكَاْفُلَ أَمْرٌ وَهْمِيٌّ أَكْثَرَ مِمَّا هُوَ حَقِيقِيٌّ . وَإِلَيْكَ
 الْبَيَانَ بِالْإِيْجَازِ :

أَوَّلًا — مُجَرَّدُ النَّدَاءِ بِأَنَّ النَّاسَ كُفَلَاءُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ، وَأَنَّ
 مُسَاعَدَةَ الْبَعْضِ لِلْبَعْضِ وَاجِبَةٌ لَا يَكْفِي إِجْمَادُ التَّكَاْفُلِ أَوْ إِحْكَامُ

رَوَابِطِهِ بَيْنَهُمْ ، وَإِنَّمَا مَيْلُ الْأَفْرَادِ إِلَى الْإِعْتِمَادِ عَلَى الْجَمْعِ أَوْ جَعَلَ
 الْفَرْدَ تَابِعًا لِلْكُلِّ يَتَوَلَّدُ فِي الْهَيْئَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ بِمُقْتَضَى نَوَامِيسِ
 مُقَرَّرَةٍ يُرْشِدُ إِلَيْهَا التَّأَمُّلُ فِي الْوُجُودِ وَيَعْرِفُهَا قِرَاؤُنَا . فَيَسْمُو وَجَدَتْ
 تِلْكَ النِّوَامِيسُ تَوَلَّدَ هَذَا الْمَيْلُ مِنْ غَيْرِ احْتِيَاجٍ إِلَى النَّدَاءِ بِهِ أَوْ
 الْإِرْشَادِ إِلَيْهِ ، لِأَنَّهُ يَحْدُثُ بِانْتِظَامٍ كَمَا تَتَوَلَّدُ جَمِيعُ الْحَوَادِثِ الطَّبِيعِيَّةِ .
 فَإِذَا أَرَدْنَا إِنْمَاءَهُ وَجَبَ عَلَيْنَا أَنْ نَعْرِفَ الظُّرُوفَ وَالْحَوَادِثَ الَّتِي
 اسْتَلْزَمَتْ وُجُودَهُ .

وَهُنَا يَظْهَرُ مَا فِي مَذْهَبِ التَّكَاْفُلِ مِنَ الْوَهْمِ وَالْخِلَالِ ؛ إِذْ لِسُوءِ
 الْحِظِّ كَمَا قَوِيَ هَذَا الْمَيْلُ اشْتَدَّتْ تَابِعِيَّةُ الْوَاحِدِ لِلْكُلِّ وَتَأَصَّلَتْ
 عِنْدَهُ عَادَةُ الرُّكُونِ إِلَيْهِ ، وَقَلَّ اعْتِمَادُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَصَارَ أَعْزَلَ ^(١)
 أَمَامَ مَتَاعِبِ الْحَيَاةِ لِمَا يَعْتَرِيهِ مِنْ فُتُورِ الْهَيْمَةِ وَضَعْفِ الْإِرَادَةِ
 وَسُقُوطِ الْعَزِيمَةِ عَنِ الْعَمَلِ . وَمَا لِتَأَخُّرِ الشَّرْقِ عَنِ الْغَرْبِ سَبَبٌ
 غَيْرُ هَذَا .

وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَحْفَظَ التَّوَازِينَ بَيْنَ الْوَاحِدِ وَالْكُلِّ عَلَى الدَّوَامِ
 لَزِمْنَا الْقَوْلُ بِوُجُوبِ زِيَادَةِ اعْتِنَاءِ الْكُلِّ وَمُضَاعَفَةِ سَهَرِهِ عَلَى قَدْرِ
 مَا يَعْتَرِي الْوَاحِدَ فِي ذَلِكَ الْوَسْطِ مِنَ الْخُمُولِ وَالْإِنْحِطَاطِ . وَمِنْ
 نَكَدِ الطَّالِعِ أَنَّ الْعَكْسَ هُوَ الْوَاقِعُ ! وَهُوَ مَعْقُولٌ ، لِأَنَّ ذَلِكَ الْكُلَّ

الَّذِي يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي الْإِسْتِعَانَةِ عَلَى ضَعْفِ الْوَاحِدِ إِنَّمَا يَتَأَلَّفُ مِنْ
مَجْمُوعٍ أَوْلَئِكَ الضَّعْفَاءِ، فَطَبِيعَتُهُ مِنْ طَبِيعَتِهِمْ. وَالَّذِي يُضْعِفُ الْفَرْدَ
وَيَجْعَلُهُ مُفْتَقِرًا إِلَى غَيْرِهِ يُضْعِفُ الْكُلَّ وَيُعْوِزُهُ. وَمَعْنَاهُ أَنَّ
التَّكَاثُلَ يَزِدُّهُ ضَعْفًا بِقَدْرِ اشْتِدَادِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ. وَإِنِّي أَسْأَلُ الْقُرَّاءَ
عَفْوًا عَنْ تَقْرِيرِ هَذِهِ الْحَقَائِقِ الَّتِي هِيَ فِي الْوَاقِعِ بَدِيهِيَّاتٌ.

وَعَلَيْهِ يَتَبَيَّنُ أَنَّ هَذَا الْمَذْهَبَ مَعِيبٌ مِنْ جِهَتَيْنِ: أَوَّلًا لِأَنَّهُ يُوَلِّدُ
فِي الْأُمَّةِ أَفْرَادًا لَا أَهْلِيَّةَ لَهُمْ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَعْمَالِ وَيُسَاعِدُ عَلَى كَثْرَةِ
عَدَدِهِمْ شَيْئًا فَشَيْئًا، وَثَانِيًا لِأَنَّ الْأُمَّةَ تَضْعُفُ عَنْ مُسَاعَدَتِهِمْ
كَلَّمَا كَثُرَ عَدَدُهُمْ.

مَا مُسَاعَدَةُ الْهَيْئَةِ لِلْأَفْرَادِ إِلَّا وَسِيلَةٌ عَرَضِيَّةٌ وَقْتِيَّةٌ تُحْصَلُ
بِطَرِيقِ الْإِسْتِثْنَاءِ عِنْدَ اشْتِدَادِ الضَّنْكِ^(١) بَعْضِ النَّاسِ، فَلَيْسَتْ دَوَاءً
يَشْفِي الْعِلَّةَ بَلْ هِيَ مُسَكِّنٌ كَالْمُخَدَّرَاتِ تُهْدِي سَوْرَةَ^(٢) الْأَلَمِ حِينَ
لَكِنَهَا لَا تُنِيمُ الْأَلَمَ إِلَّا إِذَا أَنَامَتِ الْعَرِيضُ.

كَذَلِكَ يُحْتَاجُ فِي تَطْبِيقِ مَذْهَبِ التَّكَاثُلِ عَمَلًا إِلَى اتِّفَاقِ جَمِيعِ
الْأَفْرَادِ عَلَى قَبُولِهِ، أَيْ إِلَى تَحْرِيرِ ذَلِكَ الْعَقْدِ الْاجْتِمَاعِيِّ الَّذِي يَنْشُدُهُ^(٣)
مُوسِيُو بَورْجُوا وَيُحْضِرُ آمَالَهُ فِيهِ. أَمَّا إِذَا اعْتَضْنَا عَنْ عَمَلِ الْكُلِّ
بِعَمَلِ كُلِّ فَرْدٍ فَإِنَّا نَفْتَحُ لِكُلِّ وَاحِدٍ سَبِيلَ نَجَاةِ الْهَيْئَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ

(١) الضنك: الضيق من كل شيء، يقال مكان ضنك وعيشة ضنك (٢) السورة: الحدة

(٣) يطلبه

بتمامها ، كما أن الدين يفتح لكل فرد باب سلامته الأبدية . فالواقع
 أن الحياة الاجتماعية كالحياة الأبدية كلاهما متعلق بالأفراد
 لا بالجموع ، وعلى كل امرئ أن يتخير السبيل الذي يوصله إلى
 نجاته بنفسه كما يتخير التربية التي تجعل أبناءه قادرين على الحياة
 بأحسن الطرق والوسائل . وكما تشبعت الأفكار بأن قيام
 المجتمع الإنساني متوقف على عمل كل فرد أحس كل واحد منهم
 بوجوب التعويل على نفسه دون غيره ومال إلى استعمال ما أوتي من
 الهمة والإرادة والاجتهاد .

رُبَّ مُعْتَرِضٍ يَقُولُ : أَنَا مُقِيمٌ حُبَّ الذَّاتِ مَقَامَ مَذْهَبٍ عَلَيْهِ
 صَلاَحُ الْإِنْسَانِيَّةِ وَفِيهِ نَجَاتُهَا ؟ وَهُوَ اعْتِرَاضٌ فَخْمٌ الْأَلْفَاظِ يَخَافُ
 مِنْهُ أَناسٌ كَثِيرُونَ ، لِذَلِكَ وَجَبَ أَنْ نَفْصَحَ الْقَوْلَ لِنَعْلَمَ إِنْ كَانَ
 حُبُّ الذَّاتِ فِيمَا نَقُولُ أَوْ فِي الْمَذْهَبِ الَّذِي يَقُولُ بِهِ غَيْرُنَا .

قَدْتُ إِنْ مَذْهَبَ التَّكَاْفُلِ خَيَالِي وَأَزِيدُ عَلَيْهِ ، وَلَا أَخْشَى مُعَارِضًا ،
 أَنَّهُ صُورَةٌ مِنْ صُورِ حُبِّ الذَّاتِ الْمُخْجَلِ ، حَتَّى إِنِّي كُنْتُ وَضَعْتُ
 لِهَذَا الْفَصْلِ عُنْوَانًا آخَرَ (هُوَ حُبُّ الذَّاتِ عِنْدَ الْغَيْرِيِّينَ ^(١))

وَسَيَتَّضِحُ لِلْقُرَّاءِ أَنَّ التَّسْمِيَةَ كَانَتْ صَحِيحَةً لَا مُجَرَّدَ تَلَاعُبٍ بِالْأَلْفَاظِ .
 ذَلِكَ لِأَنَّهُ بِالْبَحْثِ فِي التَّكَاْفُلِ نَرَاهُ يَشْتَمِلُ عَلَى أَمْرَيْنِ : كَوْنِ الْمَرْءِ

يُسَاعِدُ غَيْرَهُ ، وَكَوْنَهُ يَنْتَظِرُ الْمُسَاعَدَةَ مِنْ غَيْرِهِ . وَلَعَمْرِي لَسْتُ
أَدْرِي أَيُّ الْإِعْتِبَارَيْنِ يَجْذِبُ النُّفُوسَ نَحْوَ هَذَا الْمَذْهَبِ وَيَجْعَلُ النَّاسَ
يَجْتَمِعُونَ حَوْلَهُ إِنْ كَانَتْ رَغْبَتُهُمْ فِي مُسَاعَدَةِ غَيْرِهِمْ ، أَوْ رَجَاءُهُمْ
الْمُسَاعَدَةَ مِنْ ذَلِكَ الْغَيْرِ . وَمِنْ الْمَشَاهِدِ أَنَّ الَّذِينَ يَمِيلُونَ إِلَى مُسَاعَدَةِ
غَيْرِهِمْ يُؤَدُّونَ تِلْكَ الْمُسَاعَدَةَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَهُمْ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ مُنْذُ
خُلِقَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ، وَلَمْ يَقُولُوا بِأَنَّ عَمَلَهُمْ هَذَا مَذْهَبٌ
لَا زِمَ فِي الْإِنْسَانِيَّةِ وَلَمْ يَتَحَرَّوْا النَّدَاءَ بِهِ عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ .
وَعَلَيْهِ فَمِيلُ الْمَرْءِ إِلَى مُسَاعَدَةِ غَيْرِهِ لَيْسَ هُوَ الْإِعْتِبَارُ الَّذِي أَوْجَبَ
انْتِشَارَ مَذْهَبِ التَّكَاثُلِ الْجَدِيدِ ، وَإِنَّمَا الَّذِي أَوْجَبَ ذَلِكَ هُوَ تَصَوُّرُ
الْمُسَاعَدَةِ مِنَ الْغَيْرِ حَيْثُ يُمْنَى الْوَاحِدُ رَاجِعًا أَنْ تَجْعَلَ لَهُ الْحُكُومَةَ
أَوْ الْأُمَّةَ رَاتِبًا أَوْ تُوْجَدَ لَهُ عَمَلًا أَيًّا كَانَ يَعِيشُ مِنْهُ . هَذَا هُوَ الَّذِي
يَحْتَلِبُ الْأَفْكَارَ وَيَجْتَذِبُ النُّفُوسَ وَيَحْشِدُ الْجُمُوعَ حَوْلَ مَذْهَبٍ
ظَاهِرُهُ التَّضَامُنُ وَالتَّكَاثُلُ وَبَاطِنُهُ الْأَثَرَةُ وَحُبُّ الدَّاتِ .

إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي يُؤَدِّي الْجَزِيَّةَ إِلَى صُنْدُوقِ الْحُكُومَةِ وَالَّذِي
يَتَقَاضَى الرَّاتِبَ مِنْ ذَلِكَ الصُّنْدُوقِ شَرِيكَانِ مُتَّكَاثِلَانِ فِي عَمَلِهِمَا ،
غَيْرَ أَنَّ لِكُلِّ وَجْهَةً فِي شَرِكَتِهِ ، فَالتَّكَاثُلُ يَحْلُو لِأَحَدِهِمَا دُونَ
أَخِيهِ . أَلَا تَرَى أَنَّ الْمَرْءَ مَيَّالًا إِلَى التَّوَضُّفِ أَكْثَرَ مِنْ مَيِّلِهِ إِلَى
أَنْ يَكُونَ مِمَّنْ وَجَبَ عَلَيْهِ الْخَرَاجُ وَأَقْرَبُ إِلَى إِعْتِبَارِ التَّكَاثُلِ

فِي مَنفَعَتِهِ مِنْ اِعْتِبَارِهِ وَاجِبًا عَلَيْهِ .

وَالْخُلَاصَةُ أَنَّ الْمَرْءَ مَيَّالٌ إِلَى اسْتِخْدَامِ غَيْرِهِ أَكْثَرَ مِنْ مَيَلِهِ
إِلَى خِدْمَتِهِ، وَإِنْ صَاحَ مُوسِيُو بَورجُوا بِمَا يُخَالَفُ مَا ذُكِرَ . وَإِلَيْكَ
دَلِيلَيْنِ قَرِيبَي الْعَهْدِ مَنَّا أَخَذْنَاهُمَا مِنْ طَرِيقَةِ الْاِسْتِعْمَارِ عِنْدَنَا .
الْأَوَّلُ : نَمَقْلُهُ عَنْ أُسْتَاذِ الْفَلَسَفَةِ مُوسِيُو « لَانِي » مِنْ رِسَالَةٍ
نَشَرَهَا فِي مَجَلَّةِ الْفَلَسَفَةِ الْعَقَلِيَّةِ يَصِفُ فِيهَا مُعَامَلَةَ الْاُورُبِيِّينَ
لِلْأَهَالِي فِي مُسْتَعْمَرَاتِنَا . قَالَ : « لَقَدْ نَشَرَ الْاِسْتِبْدَادُ جَنَاحَيْهِ فِي كُلِّ
نَاحِيَةٍ ، وَشَمِلَتِ الْاَثَرَةُ ^(١) جَمِيعَ النَّاسِ بِأَشَدِّ حَالَاتِهَا ، وَصَرْنَا
نَشَاهِدُ أَنَّ مُحْكَمَ الشُّرَفَاءِ يَحْيَا مِنْ جَدِيدٍ فِي الْمُسْتَعْمَرَاتِ حَيْثُ
الْأُورُبِيُّ هُوَ السَّيِّدُ الْأَمِيرُ وَالْوَطَنِيُّ هُوَ الْخَادِمُ الْحَقِيرُ ؛ حَيْثُ
الْأَمِيرُ هُوَ الَّذِي يَقْضِي بَيْنَ اتِّبَاعِهِ بِمَعْنَى أَنَّهُ يُصَادِرُهُمْ فِي مَاشِيَتِهِمْ
إِنْ جَاءَتْ لِتَرْعَى فِي أَرْضِيهِ ، أَوْ يُقَدِّرُ الْغَرَامَةَ الَّتِي تَجِبُ عَلَيْهِمْ . وَقَدْ
حَذَا الْخُدَّامُ حَذْوَ الْمَخْدُومِينَ ، فَمَا وَجَدَ خَادِمٌ أُرُبِيٌّ بَيْنَ خُدَّامِ وَطَنِيِّينَ
إِلَّا رَأَيْتَهُ الْقَى مَا فِي يَدِهِ مِنْ آلَاتِ الْعَمَلِ وَجَعَلَ يُصَدِّرُ الْأَوَامِرَ
لِلْآخَرِينَ ! ائْتَمَّ الْجُنْدِيُّ يُوحَى إِلَى الْمَدَنِيِّ طَرِيقَةَ الْاِسْتِبْدَادِ .
وَبِالْجُمْلَةِ فَإِنَّ عَيْشَةَ الْمُسْتَعْمَرَاتِ لَا تَلَامُ الْفَضِيلَةَ ، وَلَا تَدْعُو إِلَى
مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ . »

وَالدَّلِيلُ الثَّانِي نَأْخُذُهُ عَنْ مُوسِيُو «لَانْسَان» وَهُوَ مِنَ الطَّبِيعِيِّينَ
خِلَافًا لِمُوسِيُو «لَانِي» وَكَانَ حَاكِمًا فِي «التونكين» وَقَضَى فِي
المُسْتَعْمَرَاتِ زَمَنًا طَوِيلًا، وَهُوَ كِتَابٌ سَمَّاهُ «مَبَادِيُ الإِسْتِعْمَارِ»
تَكَلَّمَ فِيهِ عَنْ عِلَاقَاتِ الأورِيبِيِّينَ بِالوَطَنِيِّينَ . وَمِمَّا جَاءَ فِيهِ
قَوْلُهُ: «أَعْظَمُ رَجُلٍ مُتَمَدِّنٍ يَصِيرُ فِي المُسْتَعْمَرَاتِ كَالطِّفْلِ فِي مُعَامَلَةِ
العَجَمَاوَاتِ^(١) فَهُوَ يُعَامِلُ الوَطَنِيِّينَ كَأَنَّهُمْ آلَاتٌ خُلِقَتْ لِلا لَامِ،
يَعْبَثُ بِدِينِهِمْ، وَلا يَحْتَرِمُ عَائِلَاتِهِمْ، وَلا يُوقِرُ مَا اعْتَادُوا تَوْقِيرَهُ
فِي مُجْتَمَعَاتِهِمْ، وَلا يَعْبَأُ بِأَمْلَاكِهِمْ، وَلا يَتَهَيَّبُ أَشْخَاصَهُمْ، وَلا
يُقَدِّرُ لَهُمْ حَيَاةً، وَلا يَسَ تَوْحُّشِ الإِسْتِعْمَارِ فِي هَذِهِ الأَيَّامِ بِأَقْلٍ مِنْ
تَوْحُّشِهِ فِي غَابِرِ الأَزْمَانِ». ثُمَّ أَتَى بِالشَّوَاهِدِ عَلَى قَوْلِهِ فَسَرَدَ وَقَائِعَ
وَحَوَادِثَ لا عَدَدَ لَهَا . وَالحَالُ وَاحِدٌ فِي كُلِّ جِهَةٍ فِي الهِنْدِ الصِّينِيَّةِ
وَمَدَغَشْقَرِ وَشَطُوطِ أَفْرِيقِيَا . ثُمَّ خَتَمَ مُوسِيُو «لَانْسَان» الكَلَامَ
بِقَوْلِهِ: «يَجِبُ وَضْعُ حَدِّ لِهَذِهِ المُعَامَلَاتِ الفُظِيْعَةِ إِنْ كَانَتِ الحُكُومَةُ
تُرِيدُ أَلَّا تَسُوءَ عُقْبَى السِّيَاسَةِ الإِسْتِعْمَارِيَّةِ بِسَبَبِهَا». نَحْنُ نَرَى
أَيْضًا أَنَّهُ يَجِبُ إِقَامَةُ حَدِّ لِتِلْكَ المُعَامَلَاتِ الشَّنِيعَةِ الَّتِي تَقْسِمُ النَّاسَ
إِلَى قِسْمَيْنِ: مَنْ يَسْتَعْمِلُونَ التَّكْفُلَ فِي مَنَفَعَتِهِمْ، وَمَنْ يَتَرَقَّبُونَ
الْفُرْصَ لِيَسْتَأْثِرُوا بِمَنَافِعِهِ، وَالفَرِيقُ الأَوَّلُ ظَالِمٌ وَالفَرِيقُ الثَّانِي

مَظْلُومٌ، وَلَكِنَّهُمَا يَجْتَمِعَانِ فِي رَغْبَاتِهِمَا أَنْ يَعِيشُوا كَلًّا^(١) عَلَى
الْكُلِّ، أَيْ عَلَى الْمَجْمُوعِ، أَيْ عَلَى الْأُمَّةِ .

وَإِذَا بَحَثْنَا عَنْ طَرِيقَةِ لِلْخَلَّاصِ مِنْ هَذِهِ الْحَالِ فَإِنَّا لَا نَجِدُهَا
فِي نَشْرِ مَذْهَبِ التَّكَافُلِ، لِأَنَّا رَأَيْنَا أَقَلَّ النَّاسِ اسْتِحْقَاقًا لِلْعِنَايَةِ قَدْ
انْتَهَزُوهُ فُرْصَةً لِاحْتِكَارِ مَنَافِعِهِ إِضْرَارًا بِمُحَقِّقِي غَيْرِهِمْ فَلَمْ يَسْتَفِدْ
مِنْهُ إِلَّا الْخُبَاءُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا التَّكَافُلَ آلَةً يَبْتَزُّونَ بِهَا أَمْوَالَ ذَلِكَ
الْغَيْرِ وَيَسْتَعْمِلُونَهُ مُتَكَاكِلًا لَهُمْ حَتَّى كَلَّ^(٢) مِنْهُمْ وَاسْتَجَارَ وَقَرَّبَ
مِنَ الْعَدَمِ .

إِذَا ثَبَتَ هَذَا عَامِلًا أَنْ تَرْتَقِيَ الْهَيْئَةُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ لَا يَقُومُ
بِالِاتِّكَالِ عَلَى الْغَيْرِ وَالْحَيْفِ^(٣) عَلَيْهِ، وَذَلِكَ هُوَ أَكْبَرُ بُرْهَانٍ
يُقَدِّمُهُ كُلُّ وَاحِدٍ لِأَخِيهِ عَلَى أَنَّهُ وَإِيَّاهُ مُتَكَافِلَانِ . وَيَحْصُلُ هَذَا
التَّرْتِيقُ بِمَقْدَارِ مَا عِنْدَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْإِعْتِمَادِ عَلَى نَفْسِهِ وَكِفَايَةِ
حَاجَاتِهِ بِنَفْسِهِ وَنَشَاتِهِ عَلَى اسْتِعْمَالِ قُوَّتِهِ الذَّاتِيَّةِ وَهَمَّتِهِ الشَّخْصِيَّةِ .
وَمَعْنَى مَا تَقَدَّمَ أَنَّهُ يَنْبَغِي الْإِهْتِمَامُ بِتَرْبِيَةِ الْقُدْرَةِ الشَّخْصِيَّةِ أَكْثَرَ
مِنَ الْإِهْتِمَامِ بِتَعْظِيمِ السُّلْطَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ .

عَامِنًا أَنْ تَرْبِيَةِ النَّاسِ عَلَى الْإِعْتِمَادِ عَلَى الْهَيْئَةِ يُضْعِفُ مِنْ قُوَّتِهِمْ
الذَّاتِيَّةِ، وَمِنْهُ يُوْخَذُ أَنَّ تَرْبِيَتَهُمْ عَلَى الْإِعْتِمَادِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ يَزِيدُ فِي

تِلْكَ الْقُوَّةَ وَهُوَ بُرْهَانٌ سَاطِعٌ عَلَى مَالِ الْوَسْطِ مِنَ التَّأْثِيرِ . فَإِنْ كَانَ مُلَايَمًا لِلْعَمَلِ أَصْبَحَ الْعَامِلُ الطَّيِّبُ مَاهِرًا ، وَالْعَامِلُ الْمُتَوَسِّطُ مُتَقَدِّمًا وَالْعَامِلُ الْبَسِيطُ مُتَوَسِّطًا ، وَالْعَامِلُ الْخَمَلُ بَسِيطًا ، وَهَكَذَا تَتَرَقَّى الطَّبَقَاتُ وَاحِدَةً بَعْدَ الْأُخْرَى .

وَلِيْلَا حَظَّ أَنْي لَا أَقُولُ هَذَا اعْتِبَاطًا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ لِي سَنَدٌ فِيهِ ، غَايَةٌ مَا فِي الْأَمْرِ أَنْي لِلْقُرَاءِ حَوَادِثَ كَثِيرَةً كُلُّهَا ثَابِتَةٌ بِالْخَبْرِ وَالِاسْتِقْرَاءِ . وَدَلِيلُهُ مَا كَتَبْتُهُ إِلَى صَدِيقِي وَزَمِيلِي الْفَاضِلِ مُوسِيُو « بُول دُوروسِيَه » فِي الشَّهْرِ الْمَاضِي مِنْ مَدِينَةِ « سَنَسَنَاتِي » بِأَمْرِيكََا حَيْثُ ذَهَبَ لِيَسْتَطْلِعَ الْأَحْوَالَ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ قَالَ : « رَأَيْتُ فِي أَمْرِيكََا كَنْزًا لِلِاسْتِقْرَاءِ لَا يَفْنَى فِيهَا بِلْدَةٌ يَأْتِيهَا الْمُهَاجِرُونَ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ بِلَا انْقِطَاعٍ ، وَقَدْ اشْتَعَلَ عَامَاؤُهَا بِالْبَحْثِ عَنِ الْأَجْنَاسِ الَّتِي فِيهَا قَابِلِيَّةٌ لِاحْتِمَالِ الْعَيْشَةِ الْأَمْرِيكِيَّةِ وَالَّتِي لَا تَقْدِرُ عَلَيْهَا ، وَفِي ذَلِكَ فَائِدَةٌ كَلِيَّةٌ لَا تَخْفَى . وَأَعْرَبُ مَا شَاهَدْتُ هُنَا هُوَ تَقَدُّمُ الْإِرْلَنْدِيِّينَ مِنْذُ عِشْرِينَ عَامًا ، وَكُلُّ شَيْءٍ قَابِلٌ لِلتَّرَقِّي وَالنُّمُوِّ يَعْظُمُ وَيَكْبُرُ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ ، لِذَلِكَ لَا تَرَى الْإِرْلَنْدِيَّ الْيَوْمَ يَكُنُّسُ الطَّرَقَاتِ وَلَمْ يَعُدْ هُوَ ذَلِكَ الْعَامِلَ الْحَقِيرَ الْجَاهِلَ الَّذِي كُنَّا نَعْرِفُهُ مِنْ قَبْلُ ، بَلْ ذَلِكَ شَأْنٌ قَدْ اخْتَصَّ بِهِ الْآنَ « الْبُولُونِي » وَالْإِيْتَالِيُّ وَغَيْرُهُمَا .

وَلَا شُبْهَةٌ فِي أَنَّ هَذَا الْإِسْتِقْرَاءَ مُفِيدٌ جِدًّا وَأَنَّهُ يُسَاعِدُ كَثِيرًا عَلَى تَوْضِيحِ مَسْأَلَتِنَا الْاجْتِمَاعِيَّةِ الَّتِي نَبَحَثُ فِيهَا ، وَعَلَى الْقُرْءِ أَنَّ يُقَابَلُوا بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ مَا نَقَلْنَاهُ عَنْ مُوسِيُو « لَانِي » وَ « لَانِسَان » لِيَتَبَيَّنُوا الْفَرْقَ وَيَقِفُوا عَلَى حَقِيقَةِ الْمَوْضُوعِ وَيَهْتَدُوا إِلَى الصَّوَابِ فِيهِ .

الْأُورُبِّيُّ هُوَ الَّذِي يَهَاجِرُ فِي الْحَالَتَيْنِ ، إِلَّا أَنَّ الْفَرْقَ عَظِيمٌ بَيْنَ النَّتِيجَتَيْنِ . وَالسَّرُّ فِي هَذَا أَنَّ بَعْضَهُمْ أَقَامَ بِلَدِّ اتِّكَالِيٍّ ، أَيْ لَمْ يَتَعَوَّدْ أَهْلُهُ الْإِعْتِمَادَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بَلْ عَلَى الْهَيْئَةِ الَّتِي وَجَدُوا فِيهَا ، وَكَانَتْ نَتِيجَةُ تَأْثِيرِ هَذَا الْوَسْطِ مُضِرَّةً بِالْفَرِيقَيْنِ الْوَطَنِيِّ وَالْأُورُبِّيِّ الْأَوَّلِ لِمَا يُصِيبُهُ مِنَ الظُّلْمِ وَالْإِسْتِبْدَادِ ، وَالثَّانِي لِمَا يَأْتِيهِ ^(١) مِنْهُمَا . وَبَعْضُهُمْ أَقَامَ بِلَدِّ اسْتِقْلَالِيٍّ أَيْ تَعَوَّدَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِهِ الْمَحَافَظَةَ عَلَى اسْتِقْلَالِهِ تَجَاهَ الْهَيْئَةِ بِتَمَامِهَا ، وَشَبَّ عَلَى الْإِرْتِقَاءِ بِجِدِّهِ وَعَمَلِهِ مُسْتَعِينًا بِهَيْئَتِهِ وَقُوَّتِهِ حَيْثُ الْقُدْرَةُ الشَّخْصِيَّةُ بَلَغَتْ غَايَتَهَا ، وَقَالَ تَأْثِيرُ الْهَيْئَةِ إِلَى الْاِحْتِدَادِ . فَإِذَا وَصَلَ الْأُورُبِّيُّ إِلَى هَذَا الْوَسْطِ الْحَيِّ سَرَتْ فِيهِ حَرَكَةُ الْحَيَاةِ ، وَتَنَبَّهَتْ قُوَّاهُ ، وَتَبَدَّلَتْ أَحْوَالُهُ ، فَصَارَ رَجُلًا غَيْرَ الَّذِي هَاجَرَ ، وَأَصْبَحَ قَادِرًا عَلَى تَحْصِيلِ حَاجَاتِهِ بِنَفْسِهِ ، إِذْ لَا سَبِيلَ لِلْإِعْتِمَادِ عَلَى الْغَيْرِ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ وَلَا إِلَى ابْتِرَازِ الْمَالِ مِنْ أَيْدِيهِمْ ، وَلَا إِلَى الْإِتِّكَالِ عَلَى تَكَاْفُلِ وَهْمِيٍّ يَخْدَعُ

النُفُوسَ كَذِبًا وَتَلْبِيسًا^(١). تِلْكَ بِلَادُ « الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ » فَكُلُّ مَا فِيهَا يُنَادِيكَ: أَعِنْ نَفْسَكَ بِنَفْسِكَ. لِذَلِكَ تَحَوَّلَ الْإِرْلَنْدِيُّ وَارْتَقَى، وَهِيَ مُعْجِزَةٌ مِنَ السَّهْلِ عَلَى مَنْ لَهُمْ أَقَلُّ الْمَامِّ بِالْعِلْمِ الْاجْتِمَاعِيِّ أَنْ يُدْرِكُوا السَّرَّ فِيهَا.

مَضَتْ الْأَجْيَالُ الطَّوَالَ عَلَى ذَلِكَ الرَّجُلِ وَهُوَ فِي وَسْطِ اتِّكَالِي حَتَّى صَارَ يَهْرُبُ مِنْ كُلِّ عَمَلٍ يُكَلِّفُهُ بَعْضَ الْعَنَاءِ أَوْ يَقْتَضِي بَعْضَ الْهِمَّةِ الذَّائِبَةِ مُتَعَوِّدًا الْمَعِيشَةَ مِنْ تَكَاثُلِ عَشِيرَتِهِ حَتَّى وَصَلَ بِتَأْثِيرِ ذَلِكَ التَّكَاثُلِ إِلَى حَالِهِ الَّتِي نَشَاهِدُهَا عَلَيْهَا فِي أَوْرُبَّا مِنَ الْإِنْحِطَاطِ السِّيَاسِيِّ وَالضَّعْفِ الْاجْتِمَاعِيِّ فَاصْبَحَ رَجُلًا تَرَفَّعَ عَنِ الْحِرْفِ الدَّيْنِيَّةِ الَّتِي كَانَ مَقْصُورًا عَلَيْهَا بِحُكْمِ مَذْهَبِ التَّكَاثُلِ الْمُهِمِّتِ، وَلَمْ يَعُدْ كُنُتَاسًا فِي الشُّوَارِعِ وَالطَّرِيقَاتِ أَوْ صَانِعًا كَالْآلَةِ تَتَحَرَّكُ بِإِرَادَةِ غَيْرِهَا، وَأَمْسَى قَادِرًا عَلَى الْعَمَلِ بِنَفْسِهِ وَتَحْصِيلِ الرِّزْقِ مِنْ غَيْرِ الْإِسْتِعَانَةِ فِيهِ إِلَّا بِهَيْمَتِهِ وَدَخَلَ فِي طَرِيقِ سَعَادَتِهِ.

أَمَّا الْمُهَاجِرُونَ مِنَ التَّلِيَانِيِّينَ وَالْبُولُونِيِّينَ، فَهَمَّ أَقْرَبُ مِنْهُ عَهْدًا بِمُعَاشَرَةِ الْأُمَّةِ الْإِنْكَلِيزِيَّةِ السَّكْسُونِيَّةِ وَلَمْ يَتِمَّ خَلَاصُهُمْ حَتَّى الْآنَ مِمَّا تَرَبَّوْا عَلَيْهِ فِي بِلَادِهِمْ، وَلَمْ يَنْتَهَ تَحَوُّلُهُمْ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ إِلَّا أَنْ الشُّوْطَ^(٢) الَّذِي سَارَهُ الْإِرْلَنْدِيُّ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ يَدُلُّنَا عَلَى الْغَايَةِ

(١) تعمية وإبهاماً (٢) الشوط: الجرى مرة واحدة الى الغاية، يقال جرى الفرس شوطاً والجمع أشواط.

الَّتِي هُمْ صَارُوا أَيْضًا إِلَيْهَا بِالتَّدرِجِ ، فَلابدَ لَهُمْ مِثْلُهُ أَنْ يَنَالُوا
فِي ذَلِكَ الوَسَطِ وَبِتَأثيرِهِ مَا فِيهِ سَعَادَتُهُمْ .

وَلَا يَتَوَهَّمَنَّ أَحَدٌ أَنَّ هَذَا الانْقِلَابَ يَحْصُلُ إِجْمَاعًا أَيْ يَنَالُهُ
الْكُلُّ عَلَى السَّوَاءِ بَلْ هُوَ يَحْصُلُ لِكُلِّ فَرْدٍ عَلَى حَدِّهِ كَمَا أَشْرَفْنَا
إِلَيْهِ ، فَأَكْثَرُهُمْ عَمَلًا وَأَكْبَرُهُمْ هِمَّةً أَسْبَقُهُمْ إِلَى التَّرَقِّي ، ثُمَّ
تَلِيهِمُ الطَّبَقَةُ الَّتِي دُونَهُمْ فَالَّتِي مِنْ بَعْدِهَا ، وَهَكَذَا لِكُلِّ امْرِئٍ
مَا كَسَبَ .

ثَبَتَ مِنْ هَذَا أَنَّ الأُمَّمَ الاسْتِقْلَالِيَّةَ أَصْلَحَ لِنُموِّ التَّكافُلِ
الإِجْتِمَاعِيِّ مِنَ الأُمَّمِ الاتِّكَالِيَّةِ . وَكَانِي بِالَّذِينَ يُحِبُّونَ التَّمَادِي
فِي الجِدَالِ مِنَ القُرَّاءِ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ مَصِيرِ الأَفْرَادِ الَّذِينَ لاقِبَ (١)
لَهُمْ بِالِارْتِقَاءِ بَأَنْفُسِهِمْ فِي مِثْلِ ذَلِكَ الوَسَطِ الاسْتِقْلَالِيِّ رَغْمًا مِنْ
تَعَدُّدِ وَسَائِلِ الحِثِّ وَالتَّحْرِيضِ؟ فَأَجِيبُهُمْ بِأَنَّ مِنْ لَوَازِمِ هَذَا الوَسَطِ
تَقْلِيلَ عَدَدِ أولئك الضُّعَفَاءِ جِدًّا بِخِلَافِ مَذْهَبِ التَّكافُلِ ، فَإِنَّهُ
يُسَاعِدُ عَلَى كَثْرَتِهِمْ دَائِمًا ، وَبُرْهَانُهُ الأِيرْلَنْدِيُّونَ فِي الوَلَايَاتِ المُتَّحِدَةِ
ثُمَّ إِنَّ مَذْهَبَ التَّكافُلِ فَضْلًا عَنِ كَوْنِهِ يُعوِّدُ النَّاسَ عَدَمَ الإِهْتِمَامِ
بِتَحْصِيلِ حَاجَاتِهِمْ بَأَنْفُسِهِمْ وَيُرِييهِمْ عَلَى طَابِ المَعُونَةِ دَائِمًا مِنْ
أُمَّتِهِمْ ، لَا يُسَاعِدُ الضُّعَفَاءَ عَلَى النُّهُوضِ مِنْ خُمُودِهِمْ كَمَا أَنَّهُ يُضْعِفُ

مِنْ هَمِّ أَوْلَى الْعَزْمِ ^(٢) بِمَا يُقَلُّ مِنْ تَتَائِجِ عَمَلِهِمْ كَمَا يَقُولُ عُلَمَاءُ
 الْاِقْتِصَادِ ، وَيُلْحِقُ بِهِمُ الْفَقْرَ فَتَقِلُّ قُدْرَتُهُمْ عَلَى مُسَاعَدَةِ الْغَيْرِ وَإِنْ
 رَغِبُوا فِيهَا مَا اسْتَطَاعُوا . وَتَقْصُ الثَّرْوَةُ فِي يَدِ كُلِّ فَرْدٍ يُوَدَّى إِلَى
 نَقْصِهَا فِي يَدِ الْأُمَّةِ بِتَمَامِهَا ، وَحِينَئِذٍ يَعدُّمُ الْبَائِسُ الضَّعِيفُ سَبِيلَ
 الْمَعُونَةِ مِنَ الْأَفْرَادِ وَمِنَ الْحُكُومَةِ سِوَاهُ . وَلَنْ تَقُومَ الْأُمَّةُ
 بِمُسَاعَدَةِ الضُّعْفَاءِ وَمُؤَاسَاةِ الْفُقَرَاءِ وَالْبَائِسِينَ إِلَّا إِذَا تَوَافَرَ الْمَالُ لَدَى
 الْكَثِيرِ مِنْ أَفْرَادِهَا حَتَّى يَسْهَلَ عَلَيْهِمْ تَخْصِيفُ مَا زَادَ عَلَى حَاجَاتِهِمْ
 لِلْخَيْرَاتِ ، وَالَّذِي يُسَاعِدُ عَلَى انْتِمَاءِ ثَرْوَةِ الْأَفْرَادِ هُوَ الَّذِي يُسَاعِدُ
 عَلَى انْتِمَاءِ رُوحِ الْمَعُونَةِ وَفِعْلِ الْخَيْرَاتِ الْخُصُوصِيَّةِ وَالْعُمُومِيَّةِ .
 وَإِذَا قَابَلْتَ بَيْنَ مَا يُنْفِقُهُ الْإِنْكِلِيزُ وَالْأَمْرِيكَانُ كُلَّ عَامٍ فِي هَذَا
 السَّبِيلِ وَبَيْنَ مَا تُنْفِقُهُ نَحْنُ مِثْلًا فِي فَرَنْسَا مِمَّا يَقِلُّ سَنَةً عَنْ سَنَةٍ
 وَجَدْتَ الْفَرْقَ عَظِيمًا وَارْتَاحَ ضَمِيرُكَ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ .

تَلَخَّصَ مِنْ هَذَا أَنَّ رَجُلَنَا الْاجْتِمَاعِيَّ يَمْتَنِزُ عَنْ رَجُلٍ مَذْهَبِ
 التَّكَاوُلِ بِقُدْرَتِهِ عَلَى مُسَاعَدَةِ الضُّعْفَاءِ وَبِكَوْنِهِ يَسْهَلُ لَهُمْ أَيْضًا
 سَبِيلَ التَّقَدُّمِ وَالْإِرْتِقَاءِ وَهُوَ الَّذِي يَسِيرُ بِالْإِنْسَانِيَّةِ إِلَى طَرِيقِ
 حَلِّ مُشْكَلاتِهَا ، وَعَلَى الْخُصُوصِ إِلَى حَلِّ مَا يُسَمَّى « مَسْأَلَةَ الْفَعْلَةِ
 وَالصَّنَاعِ » فَهُوَ الَّذِي يُخْطُو نَحْوَهُ فَضَّ الْإِشْكَالِ بِمَحْوِ حَالَةِ الْفَعْلَةِ

(١) الثبات والشدّة فيما يعزم عليه الانسان أى بنوّه

الْحَاضِرَةِ مِنَ الْوُجُودِ وَذَلِكَ هُوَ مُسْتَقْبَلُ الدُّنْيَا .

رُبَّمَا عَدَّ هَذَا مِنْ قَبِيلِ السَّفْسَاطَةِ لِتَعَوُّدِ نَا الْحُكْمِ عَلَى الْمُسْتَقْبَلِ بِالْمَاضِي وَلِكَوْنِهِ يَصْعَبُ عَلَى الْفِكْرِ طَبَعًا أَنْ يَنْسَى الْأَوْضَاعَ الَّتِي اعْتَادَهَا وَإِنْ أَخَذَتْ فِي الْإِنْزِوَاءِ وَالزَّوَالِ، وَأَنْ يَلْتَقِيَ إِلَى الْأَوْضَاعِ الْجَدِيدَةِ الَّتِي تَظْهَرُ فِي الْوُجُودِ هُنَا وَهُنَاكَ، غَيْرَ أَنْ عَلَّامٌ هَذَا الْإِقْتِلَابِ بَادِيَةٌ جَلِيَّةٌ فِي الْأُمَّةِ الْمُتَقَدِّمَةِ فِي طَرِيقِ الْمُسْتَقْبَلِ وَهِيَ وَاضِحَةٌ تَمَامًا فِي إِنْكَاتِرِهِ وَالْوَلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ فَإِنَّكَ تَرَى الصَّنَاعَ فِي الْحَرْفِ الدِّيْنِيَّةِ كُلِّهِمْ مِنَ الْأَجَانِبِ أَوْ مِنَ الْقَادِمِينَ حَدِيثًا وَلَمْ يَمُضْ عَلَيْهِمْ زَمَنٌ كَافٍ لِيَتَشَبَّهُوا بِأَهْلِ تِلْكَ الْبِلَادِ وَالصَّنَاعَاتِ الرَّفِيعَةِ تُدَارُ بِالآلَاتِ شَيْئًا فَشَيْئًا، وَالرَّجُلُ يُنْتَقِلُ مِنْ كَوْنِهِ صَانِعًا أَوْ عَامِلًا إِلَى كَوْنِهِ مُوظَّفًا أَوْ مُلَاحِظًا. كَذَلِكَ أَصْبَحَ الصَّانِعُ الْفَلَاحُ الَّذِي نَعْرِفُهُ فِي بِلَادِنَا مِنْ زَمَنِ مَدِيدٍ عَلَى وَشَكِّ الزَّوَالِ، فَإِنَّ آلَاتِ الزَّرَاعَةِ تَكْثُرُ كُلَّ يَوْمٍ حَتَّى كَانَ الْفَلَاحُ فِي كَثِيرٍ مِنْ أَقَالِيمِ أَمْرِيكََا عَالِمٍ يُبْحَثُ فِي طَبَقَاتِ الْأَرْضِ عَنْ مَعَادِنِهَا فَيَحْرُثُ وَيُمَهِّدُ وَيَحْصُدُ وَيُدْرُسُ (١) وَهُوَ مُسْتَرِيحٌ عَلَى جَلْسَةٍ مُنْتَظِمَةٍ يَقُودُ مِنْهَا دَابَّتَهُ كَأَنَّهُ فِي عَمَلِهِ أَحَدُ الظَّرْفَاءِ فِي عَرَبَتِهِ وَرُبَّمَا رَأَيْتَهُ بِلِبَاسِ الظَّرْفَاءِ أَحْيَانًا. وَلَمْ يَبْقَ عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ يَتَعَلَّمَ

(١) درس الخطة ونحوها دراساً ودرسا: دامها بالنورج ونحوه

أَطْوَارُهُمْ وَيَتَهَدَّبُ بِأَفْكَارِهِمْ، وَسَيِّمٌ لَهُ ذَلِكَ. وَقَدِ اتَّسَعَ ذِهْنُهُ
فِي جَمِيعِ مَا يُرَقِّي الزَّرَاعَةَ لِذَلِكَ لَا يُحْجِمُ عَنْ اسْتِعْمَالِ كُلِّ
جَدِيدٍ فِيهَا.

الْوَلَايَاتُ الْمُتَّحِدَةُ الْآنَ فِي طَلِيعَةِ الْأُمَمِ مِنْ جِهَةِ التَّقَدُّمِ
الِاجْتِمَاعِيِّ، كَمَا سَبَقَتْهُمْ فِي الْمَصْنُوعَاتِ الْمِيكَانِيكِيَّةِ. وَهِيَ نَوْعَانِ
مِنْ أَنْوَاعِ التَّقَدُّمِ مُتَلَازِمَانِ لَا كَمَا يَظُنُّ النَّاسُ عَادَةً فَالثَّلَاثِي نَتِيجَةُ
الْأَوَّلِ وَالْأَوَّلُ يَتَأَثَّرُ كَثِيرًا بِالثَّانِي، وَلَيْسَ فِي قُدْرَةِ أَحَدٍ أَنْ يُخْبِرَ
بِمَا تَصِلُ إِلَيْهِ الْأُمَمُ مِنَ التَّرَقِّي بِاجْتِمَاعِ هَذَيْنِ الْأُمَرَيْنِ.

وَجَبَّ عَلَيْنَا إِذْنٌ أَنْ نُقْلَعَ عَنِ التَّمَسُّكِ بِأَوْضَاعِ الْاجْتِمَاعِ
الْقَدِيمَةِ كَمَا أَخَذْنَا فِي تَرْكِ آلَاتِ الْعَمَلِ الَّتِي تُدِيرُهَا يَدُ الْإِنْسَانِ
فَذَلِكَ هُوَ الْمَاضِي الَّذِي يَبْعُدُ عَنَّا كُلَّ يَوْمٍ وَلَا مَرَدَّ لَهُ أَبَدًا.

وَيَبْنِمَا الْعَالَمُ الْإِنْسَانِي يُسِيرُ مُظْفَرًا نَحْوَ حَالِ جَدِيدِ نَرَى
رَجُلًا كُوسِيُو بَورجُوا- نُجَلُهُ أَنْ يَكُونَ فِي عِدَادِ كُلِّ النَّاسِ مَعَ
كُونِهِ يَطْمَعُ فِي رِيَّاسَةِ حِزْبِ التَّرَقِّي فِي الْبِلَادِ الْفَرَنْسَاوِيَّةِ- يَعْضُ
عَلَيْنَا أَنْ نَرْجِعَ إِلَى مَذْهَبِ تَقَادِمِ الْعَهْدِ عَلَيْهِ حَتَّى بَلَى ظَانًا
أَنَّهُ كَشَفُ جَدِيدٌ! وَهُوَ أَوْهَى الْمَذَاهِبِ وَأَشَدُّهَا تَعَسُّفًا وَاسْتِبْدَادًا.

حَقًّا لَيْسَ لَنَا مِنْ حِظِّ!

الفصل الخامس

﴿ مَا أَحْسَنُ حَالَاتِ الْاجْتِمَاعِ لِتَحْصِيلِ السَّعَادَةِ ﴾

أَلْفَ السَّيْرِ (جون لوبوك) كِتَابًا عُنْوَانُهُ (سَعَادَةُ الْحَيَاةِ) وَقَدْ انْتَشَرَ انْتِشَارًا عَظِيمًا فِي انْكَتِرَتِهِ حَتَّى إِنَّ الَّذِي عُغِيَ بِتَرْجُمَتِهِ إِلَى اللُّغَةِ الْفَرَنْسَاوِيَّةِ لَمْ يَفْرُغْ مِنَ الْجُزْءِ الْأَوَّلِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ أُعِيدَ طَبْعُ الْكِتَابِ عِشْرِينَ مَرَّةً وَمِنَ الْجُزْءِ الثَّانِيِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ ظَهَرَتْ طَبْعَتُهُ السَّابِعَةُ وَالسَّبْعُونَ.

وَلَا يَحْسَبَنَّ الْقُرَّاءُ أَنَّ الْمَوْلَفَ أَمْسَكَ الْعَنْقَاءَ^(٣) وَجَعَلَ يَرْضَاهَا عَلَى أَهْلِ زَمَانِهِ فِي نَظِيرِ بَعْضِ شِلْنَاتٍ يَدْفَعُونَهَا ثَمَنَ كِتَابِهِ إِذْ لَوْ كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ لَقَلْنَا إِنَّ الْإِنْكَلِيزَ لَيَسُؤُوا بِطَمَاعِينَ بَلِ الْكِتَابُ بِجُزْأِيهِ عِبَارَةٌ عَنْ جَمْعِ حِكْمٍ وَنَقْلِ أَفْكَارٍ مِنْ كُتُبِ جَمِيعِ الْمَوْلَفِينَ الْمَشْهُورِينَ. وَغَرَضُ الْمَوْلَفِ مِنْ هَذَا الْجَمْعِ وَذَلِكَ النَّقْلِ أَنْ يُبْرِهِنَ لِلنَّاسِ أَنَّهُمْ سَعْدَاءُ لِكُونِهِمْ أَحْيَاءَ.

وَلِلدَّلَالَةِ عَلَى صِحَّةِ رَأْيِهِ جَعَلَ يَسْرُدُ مُوجِبَاتِ السَّعَادَةِ الَّتِي يُشَاهِدُهَا الْإِنْسَانُ وَاحِدًا فَوَاحِدًا كَالْأَرْتِيَّاحِ بِمَدِّ أَدَاءِ الْوَاجِبِ وَاللَّذَّةِ مِنْ

(١) العنقاء طائر مجهول لم يوجد يضرب به المثل في استحالة الشيء أو عزته

قِرَاءَةِ أَشْهَرِ مَا أُلْفَ وَأَحْسَنِ مَا كُتِبَ وَنِعْمَةَ الْمَحَبَّةِ وَلَذَّةَ السِّيَاحَةِ
وَلَذَّةَ الْبَيْتِ وَالْمَلَاذِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْعَشْقِ وَالْفُنُونِ وَالشَّعْرِ وَالْمُوسِيقِ
وَبَدَائِعِ الطَّبِيعَةِ وَهَكَذَا . وَهُوَ لِكُلِّ شَيْءٍ بِشُّ الْوَجْهِ هَشُّ
النَّفْسِ يَمْلَأُهُ الْأَمَلُ عَلَى الدَّوَامِ ، فَلَا يَرَى إِلَّا سُرُورًا بِحَيْثُ يُضْعَفُ
خَصْمُهُ عَنْ مُنَاضَلَتِهِ . وَمِنْ قَوْلِهِ : « لَقَدْ سَمِعْتُ النَّاسَ كَثِيرًا
يَشْكُونَ مِمَّا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا مِنْ كُفْرَانِ النُّعْمِ وَحُبَّةِ الذَّاتِ . أَمَّا
أَنَا فَلَمْ أَشْعُرْ مَرَّةً وَاحِدَةً بِأَثَرِ هَاتَيْنِ الْمُصِيبَتَيْنِ ، وَلَعَلَّ ذَلِكَ مِنْ
حُسْنِ حَظِّي » ذَلِكَ أَمْرٌ يُوجِبُ الْإِسْتِغْرَابَ أَوْ يَدْعُو إِلَى الْقَوْلِ
بِأَنَّ صَاحِبَهُ رَجُلٌ مِنَ الْبُسْطَاءِ . وَإِلَيْكَ أَغْرَبَ مِنْهُ قَالَ : « نَحْنُ
فِي الْحَقِيقَةِ أَغْنِيَاءُ أَكْثَرَ مِمَّا نَظُنُّ ، وَكَثِيرًا مَا نَسْمَعُ بِسِدَّةِ رَغْبَاتِ
النَّاسِ فِي الْكَسْبِ وَالِاسْتِحْوَاذِ ، وَبَعْضُهُمْ يَحْسُدُ كِبَارَ الْمُوسِرِينَ
وَيَظُنُّ السَّعَادَةَ فِي امْتِلَاكِ الْأَرْضِ الْوَاسِعَةِ ، غَيْرَ أَنَّ الْغَالِبَ أَنَّ
الرَّجُلَ يَمْلِكُ الْأَرْضَ وَالْأَرْضُ تَمْلِكُهُ كَمَا قَالَ « ايمرسون » . وَلَوْ
ارْتَقَيْنَا قَلِيلًا بِالْفِكْرِ لَوَجَدْنَا أَنَّ لَنَا الْأُلُوفَ الْمُؤَلَّفَةَ مِنَ الْفَرَاسِخِ
وَالْأَمْيَالِ ، فَالْشُّوَارِعُ وَالطَّرِيقَاتُ وَالسَّكَّ الْعُمُومِيَّةُ وَالْجُسُورُ
وَشَوَاطِئُ الْبَحْرِ عَلَى اخْتِلَافِ صُنُوفِهَا وَتَنَوُّعِ مَنَاطِرِهَا ، كُلُّهَا
مِلْكٌ لَنَا ، فَخَنُّ مِنْ كِبَارِ الْأَغْنِيَاءِ وَلَا عِلْمَ لَنَا . وَلَيْسَتْ الْأَرْضُ

هِيَ الَّتِي تَنْقُصُنَا بِلِ الَّذِي نَحْتَاجُ إِلَيْهِ هُوَ الْقُدْرَةُ عَلَى التَّمَتُّعِ بِمَا
 مَلَكَنَا، وَتِلْكَ مَزِيَّةٌ عَظِيمَةٌ تَتَّبِعُهَا مَزِيَّةٌ أُخْرَى وَهِيَ أَنَّهُ لَا تُكَلِّفُنَا
 عَمَلًا وَلَا تَطْلُبُ مِنَّا عَنَاءً . فَصَاحِبُ الْأَمْلَاقِ مَشْغُولُ الْبَالِ عَلَى
 الدَّوَامِ ، وَلَكِنَّ الْمُنَاطِرَ الطَّبِيعِيَّةَ مَمْلُوكَةٌ لِكُلِّ مَنْ لَهُ عَيْنَانِ
 تُبْصِرَانِ . وَبِهَذَا الْمَعْنَى صَحَّ لِمُوسِيُو « كَنْجَلِي » أَنْ يَقُولَ « إِنَّ
 بُسْتَانَهُ زَمَنَ الشِّتَاءِ كَانَ أُخْضِرَةً الَّتِي تَكْتَنِفُ بَعْضَ الْمَكَانِ الَّذِي
 يَسْكُنُهُ ، لِأَنَّهُ كَانَ يَمْلِكُهَا حَقِيقَةً بَلِ اعْتِبَارًا بِالْمَعْنَى الَّتِي يَجْعَلُ
 الْأُلُوفَ مِنَ الْبَشَرِ مَالِكِينَ لِلشَّيْءِ بِعَيْنِهِ » .

وَالْكِتَابُ كُلُّهُ مَحْشُورٌ بِهَذَا الْأَمَلِ الشَّدِيدِ ، وَادِّلَّةُ الْمُؤَلِّفِ عَلَى
 مَذْهَبِهِ كُلُّهَا مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ . وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْإِنْكَلِيزِ السَّكْسُونِيِّينَ
 لَا يَقْنَعُونَ بِمِثْلِ تِلْكَ الْأَدِلَّةِ الضَّعِيفَةِ ، كَمَا أَنَّ تِلْكَ الْأَدِلَّةَ لَيْسَتْ
 هِيَ السَّبَبُ فِي انْتِشَارِ الْكِتَابِ بَيْنَهُمْ ذَلِكَ لِانْتِشَارِ .
 وَمِمَّا يَجِبُ الْبَحْثُ عَنْهُ مَعْرِفَةُ السَّبَبِ الَّذِي لِأَجْلِهِ لَمْ يَنْتَشِرْ
 هَذَا الْكِتَابُ عِنْدَنَا إِلَّا قَلِيلًا وَلِأَجْلِهِ يَضْحَكُ الْفَرَنْسَاوِيُّونَ مِنْ
 قِرَاءَتِهِ وَيَتَبَسَّمُونَ لِسِرِّهِ أَدِلَّتِهِ .

وَيَلِزُ مِنَّا فِي ذَلِكَ أَنْ نُنْعِمَ النَّظَرَ وَنُطِيلَ التَّأَمُّلَ أَكْثَرَ مِنْ
 مُوسِيُو « لُوبُوكِ » فِي مَوْضُوعِ تِلْكَ السَّعَادَةِ الَّتِي شَغَلَتْ الْإِنْسَانَ
 طُولَ الزَّمَانِ .

تَعْرِيفُ السَّعَادَةِ

نُرِيدُ بِهَذِهِ السَّكِمَةِ « السَّعَادَةَ » حَالَةَ ارْتِيَاحٍ تَقُومُ بِنَفْسٍ أَوْلَمَكَ
الَّذِينَ يَتِمَّكُنُونَ مِنَ التَّغَلُّبِ عَلَى مَتَاعِبِ الْحَيَاةِ الْمَادِّيَةِ وَالْأَدْبِيَةِ
تَغَلُّبًا حَقِيقِيًّا .

وَالْعَرَضُ مِنْ وَصْفِ الْمَتَاعِبِ بِالْمَادِّيَةِ وَالْأَدْبِيَةِ أَنْ يَتَنَاوَلَ
التَّعْرِيفُ حَاجَتِي الْمَرْءِ الْعَظِيمَتَيْنِ فِي الدُّنْيَا، وَهُمَا رَاحَةُ الْجِسْمِ وَرَاحَةُ
النَّفْسِ، فَوْجُودُهُ كُلُّهُ رَاجِعٌ إِلَيْهِمَا .

وَيَازُ مِنْهَا قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ أَنْ تَقِفَ عَلَى حَقِيقَةِ الْأَسْبَابِ الَّتِي ذَهَبَ
الكَثِيرُونَ إِلَى أَنَّهَا هِيَ وَحْدَهَا مَصْدَرُ سَعَادَةِ الْإِنْسَانِ كَالطَّبَعِ
وَالصَّحَّةِ وَالْمَالِ وَالدِّينِ .

فَأَمَّا الطَّبَعُ الْحَسَنُ فَهُوَ الَّذِي يَمِيلُ بِصَاحِبِهِ إِلَى أَخْذِ الْأَشْيَاءِ
بِأَحْسَنِ جِهَاتِهَا أَيْ يَحْمِلُهُ عَلَى اعْتِبَارِ جِهَةِ الْحُسْنِ فِي الْأَشْيَاءِ مُطْلَقًا .
وَلِكُلِّ شَيْءٍ جِهَةٌ حَسَنَةٌ وَآخَرَى تَقْيِضُهَا، غَيْرَ أَنَّ الْخِيَالَ مَحْدُودٌ
مَهْمَا كَانَ شَدِيدًا، وَدَلَى كُلِّ حَالٍ فَهُوَ لَا يُغَيِّرُ مِنْ حَقَائِقِ الْأُمُورِ
شَيْئًا، وَمَتَى اتَّضَحَتِ الْحَقِيقَةُ وَوَجَبَ التَّسْلِيمُ بِهَا كَانَ الْيَأْسُ أَشَدَّ
وَقَعًا، وَعَلَيْهِ فَإِنَّ تَوْهُمَ عَدَمِ وُجُودِ الضَّرَرِ لَا يَنَافِيهِ .

وَأَمَّا الصَّحَّةُ فَإِنَّهَا تَكْفِينَا شَرَّ كَثِيرٍ مِنَ الْأَلَامِ الْجِسْمِيَّةِ ،
وَتَجْعَلُنَا بِذَلِكَ قَادِرِينَ عَلَى مُزَاوَلَةِ الْعَمَلِ اللَّازِمِ فِي تَحْصِيلِ الْمَأْكُلِ

وَالْمَلْبَسِ وَالْمَسْكَنِ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا تُعْطَى إِلَّا الْقُدْرَةُ، وَقَدْ تَعَطَّلَ الْقُدْرَةُ
بِسَبَبِ مِنَ الْأَسْبَابِ، فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَرْءُ بِالْغَا مُنْتَهَى الصِّحَّةِ،
وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ فِي أَشَدِّ حَالَاتِ الضَّنْكِ وَالْإِحْتِيَاجِ، وَمَا ذَلِكَ مِنْ
مُوجِبَاتِ السَّعَادَةِ فِي شَيْءٍ .

وَأَمَّا الْمَالُ فَكَثِيرٌ وَنَ يَعْتَبِرُ وَنُهُ أَهَمُّ وَسِيْلَةٍ فِي السَّعَادَةِ، وَالْوَاقِعُ
أَنَّهُ يَضْمَنُ لِصَاحِبِهِ عَيْشَهُ الْيَوْمِيَّ، وَيُسَهِّلُ لَهُ اجْتِيَازَ الْكَثِيرِ مِنْ
الْمَتَاعِ الْمَادِّيَّةِ وَليْسَ هَذَا يَسِيرٌ، وَلَكِنَّ الْمَالَ لَا يُفِيدُ شَيْئًا فِي
اجْتِيَازِ الْمَتَاعِ الْاَدْبِيَّةِ، فَهِنَّ شَأْنِهِ الْمَيْلُ بِالْهَمَّةِ إِلَى الْفُتُورِ،
وَإِضْعَافِ الْإِرَادَةِ. وَمِنْ أَهَمِّ اسْبَابِ السَّعَادَةِ الْأَمَلُ، أَى رَجَاءِ
الْحُصُولِ عَلَى الْمَرْغُوبِ، فَإِذَا مَلَكَتَ مَا رَجَوْتَ ضَاعَ جُزْءٌ عَظِيمٌ
مِنْ مَيْلِكَ السَّابِقِ إِلَيْهِ، وَالْمَالُ لَا يَجْعَلُ لِلْأَمَلِ مَحَلًّا لِأَنَّهُ يُسَهِّلُ
الْحُصُولَ فَوْرًا عَلَى الْمُرَادِ، وَذَلِكَ يُؤَدِّي إِلَى ضَعْفِ لَذَّةِ الْاِنْتِظَارِ .
وَهَذَا هُوَ السَّبَبُ فِي أَنَّ الْأَغْنِيَاءَ يَطْلُبُونَ دَائِمًا مَلَازَ جَدِيدَةٍ
وَمَلَاهِي غَيْرِ الَّتِي اعْتَادُوا هَالًا لَانَّهُمْ سَرِيعُو الشَّبَعِ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ فِي أَوَّلِهِ .
فَالْمَالُ يُضَيِّعُ الْاِهْتِمَامَ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَمَتَى ضَاعَ الْاِهْتِمَامُ فَقَدَ الرَّجُلُ
ذَوْقَ سَعَادَةِ الْحَيَاةِ ذَوْقًا صَحِيحًا فَلَا يَحْفَلُ بِشَيْءٍ وَلَا شَيْءٍ يَحْمِلُهُ عَلَى
الْاِهْتِمَامِ . وَخَطْوُنَا فِي الْمَالِ آتٍ مِنْ اِعْتِبَارِنَا إِيَّاهُ بِالنَّظَرِ إِلَى الْفَقْرَاءِ
التَّوَسُّطِ فِي الْمَعِيشَةِ، وَالْوَاجِبُ أَنْ نَنْظُرَ إِلَيْهِ مِنْ حَيْثُ هُوَ وَنَقْدَرَهُ

حَقَّ قَدْرُهُ فِي الْوَاقِعِ وَنَفْسِ الْأَمْرِ تَقْدِيرًا صَحِيحًا . وَإِذَا فَعَلْنَا ذَلِكَ وَجَدْنَاهُ أَتَبْرَ (١) مِنْ جِهَاتٍ كَثِيرَةٍ حَتَّىٰ إِنْ صَاحِبُهُ لَا يَتِمَكَّنُ بِوِاسِطَتِهِ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ مِنَ التَّغَلُّبِ عَلَى الصُّعُوبَاتِ الْمَادِيَّةِ الَّتِي تَعْرُضُ لَهُ ، وَإِنْ خِيلَ لِبَعْضِهِمْ أَنَّ ذَلِكَ مِنَ الْمُسْتَعْرَبَاتِ . الْأَتْرَى أَنَّ الَّذِينَ يَمِيلُونَ فِي مَعِيشَتِهِمْ إِلَى اللَّذَاتِ وَالزَّخَافِ يَصْرَفُونَ فِي غَالِبِ الْأَحْوَالِ أَكْثَرَ مِمَّا يَكْسِبُونَ ، وَيُنْتَهِي بِهِمُ الْأَمْرُ إِلَى تَعَوُّدِ الصَّرْفِ مِنْ غَيْرِ حِسَابٍ وَإِلَى فَقْدَانِ تَعَوُّدِ الْعَمَلِ ، فَيَخْتَلُ التَّعَادُلُ عِنْدَهُمْ . وَفِي ذَلِكَ الْجُبِّ (٢) الْعَمِيقِ انْهَالَتْ ثَرْوَةٌ كَبَارٍ الْأَغْنِيَاءِ فِي كُلِّ زَمَانٍ ، كَمَنْ مِنْ عَائِلَةٍ كَانَتْ ذَاتَ بَسْطَةٍ كَبِيرَةٍ مِنَ الْبَسَارِ فَأَصْبَحَ أَبْنَاؤُهَا بِائِسِينَ ، فَإِنْ دَامَ الْحَالُ لِأَبْنَائِهِمْ افْتَقَرَ الدَّوْرُ الثَّانِي أَوْ الثَّلَاثُ ، وَيُمْسُونَ غَيْرَ قَادِرِينَ عَلَى إِصْلَاحِ حَالِهِمُ الْمَادِيَّ فَضْلًا عَنِ الْأَدَبِيِّ ، لِأَنَّ مَنْ فَقَدَ عَادَةَ الْعَمَلِ وَالْكَدَّ يَصْعَبُ عَلَيْهِ اسْتِرْجَاعُهَا ، كَذَا حَالُ الشَّرَفَاءِ مِنَّا وَكَذَا شَأْنُ الْمُوسِرِينَ مِنْ الْأَوَاسِطِ وَهِيَ سُنَّةٌ أَبَدِيَّةٌ . وَالْخُلَاصَةُ أَنَّ فَرَاحَ الْيَدِ أَدْعَى إِلَى تَحْسِينِ حَالِ الْإِنْسَانِ مَادِيًّا وَأَدْبِيًّا مِنَ الثَّرْوَةِ ، لِأَنَّهُ أَدْعَى إِلَى الْعَمَلِ وَالْاجْتِهَادِ .

بَقِيَ عَلَيْنَا الدِّينُ ، وَقَدْ عَتَبَرَهُ بَعْضُهُمْ كَافِيًّا فِي تَحْصِيلِ السَّعَادَةِ ،

(١) يربد ناقصاً (٢) الجب: البر التي لم تبن بالحجارة والكلام استعارة

وَلَا شُبْهَةٌ فِي أَنَّ الدِّينَ يُسَاعِدُ كَثِيرًا عَلَى اجْتِيَازِ مَتَاعِبِ الْحَيَاةِ
النَّفْسِيَّةِ ، غَيْرَ أَنَّهُ إِنْ لَمْ يُصَادَفْ فِي نَفْسِ صَاحِبِهِ قُدْرَةٌ عَلَى الْعَمَلِ
وَأَسْتِعْدَادًا لِلْكَدِّ كَانَ تَأْثِيرُهُ مَقْصُورًا عَلَى التَّوَكُّلِ وَالِاسْتِسْلَامِ
إِلَى مُحْكَمِ الْقَضَاءِ ، وَالِاسْتِسْلَامِ لِأَمْرِ إِذْعَانٍ مِنَ الْمُسْتَسْلِمِ بِأَنَّهُ
مُتَعَبٌ شَاقٌّ ، وَهَذَا هُوَ الْإِعْتِقَادُ الَّذِي يُحْدِثُهُ الدِّينُ فِي النُّفُوسِ مِنْ
جَهَةِ الْحَيَاةِ فِي مِثْلِ تِلْكَ الْأَحْوَالِ ، فَيَرَى صَاحِبُنَا أَنَّهَا دَارٌ عَنَاءٍ
وَبُكَاءٍ ، وَيَمِيلُ إِلَى الْإِعْتِقَادِ بِأَنَّ السَّعَادَةَ لَيْسَتْ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا . وَالْوَاقِعُ أَنَّ الدِّينَ لَا يُقْصَدُ بِهِ أَوْلًا وَبِالذَّاتِ سَعَادَةٌ
الْأَمَمِ فِي الدُّنْيَا بَلِ السَّعَادَةُ الْآخِرُويَّةُ لِأَنَّهُ لَا يَلْتَفِتُ إِلَى الْأُمُورِ
الرَّائِلَةِ وَلَكِنْ إِلَى الْخُلُودِ وَهُوَ أَفْضَلُ مَا يُبْتَغَى عَلَى التَّحْقِيقِ .
لَكِنَّا لَا نَبْحَثُ فِي هَذَا وَإِنَّمَا كَلَامُنَا فِيمَا يُحْصَلُ لَنَا سَعَادَةٌ
هَذِهِ الدَّارِ الْفَائِيَّةِ ، لِأَنَّا لَا نَتَكَلَّمُ فِي التَّوْحِيدِ بَلْ نَتَكَلَّمُ
فِي الْعِلْمِ الْاجْتِمَاعِيِّ .

وَلَا يَغْيِبَنَّ عَنِ الْقُرَّاءِ أَنَّ بَعْضَ الْمُتَّصِفِينَ بِالتَّقْوَى يُخْطِئُونَ خَطَأً
فَاحِشًا فِي الْعَمَلِ بِمُقْتَضَى قَاعِدَةِ التَّسْلِيمِ فَيَتَدْرَعُونَ بِهَا إِلَى
الْكَسَلِ وَالنُّمُولِ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ إِنَّ الْحَيَاةَ لَا تَسَاوِي
تِلْكَ الْمَتَاعِبِ كُلَّهَا ثُمَّ يَرْمُونَ تَكْلَامَهُمْ ^(١) كَلَهُ عَلَى اللَّهِ « الَّذِي

لَا يَنْسَى مَنْ آمَنَ بِهِ وَلَجَأَ إِلَيْهِ « وَيَنْسُونَ قَوْلَهُ تَعَالَى « أَعِنُّ نَفْسَكَ يُعِينِكَ رَبُّكَ » (١) وَالْأَدْعَى لِلرَّاحَةِ عِنْدَهُمْ أَنْ يَرْمُوا أَهْمَهُمْ كُلَّهَا عَلَيْهِ . وَمَنْ كَانَ هَذَا فِكْرُهُ أَصْبَحَ ضَعِيفًا تَلْقَاءَ أَنْعَابِ الْحَيَاةِ مَادِيًا وَأَدْبِيًا . وَعَلَيْهِ فَالَّذِينَ إِذَا فَسَدَ الْعَمَلُ بِهِ يَصِيرُ آلَةُ ضَعْفٍ وَانْحِطَاطٍ مَعَ أَنَّهُ قِوَامُ الْحَيَاةِ وَفِيهِ أَكْبَرُ مُعِينٍ عَلَى تَحْصِيلِ السَّعَادَةِ ، وَلَكِنَّ النَّاسَ يُعْزُونَ أَنْفُسَهُمْ مَتَى فَسَدُوا بِقَوْلِهِمْ : (إِنَّ اللَّهَ يَبْتَلِي عِبِيدَهُ الْمُخْلِصِينَ) أَوْ بِقَوْلِهِمْ : (أَبْنَاؤُ الْجَحِيمِ أَكْبَرُ حِذْقًا وَأَوْفَرُ حِطًّا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَبْنَاؤِ النَّعِيمِ) وَمَا أَسْهَلَهَا طَرِيقَةً فِي إِرْجَاعِ الْإِنْسَانِ خَطَايَاهُ وَأَثَامَهُ إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ !! ..

إِذَا ثَبَتَ هَذَا فَلَنَا أَنْ نَقُولَ بَأَنَّ الْأَسْبَابَ السَّالِفَةَ ذِكْرُهَا لَا تَكْفِي تَحْصِيلَ السَّعَادَةِ وَإِنَّمَا هِيَ مِنَ الْمُسَاعِدَاتِ عَلَى تَحْصِيلِهَا ، وَالْوَاقِعُ أَنَّ تَأْثِيرَهَا يَتَّبِعُ الْوَسْطَ الَّذِي تُوْجَدُ فِيهِ وَكَيْفِيَّةَ اسْتِعْمَالِهَا قُوَّةً وَضَعْفًا . وَمِنْ هُنَا وَجَبَ عَلَيْنَا أَنْ نَعْرِفَ كَيْفَ يَكُونُ الْوَسْطُ مُلَئِمًا أَوْ مُنَافِيًا لِتَحْصِيلِ السَّعَادَةِ ، أَيْ لِإِيْجَادِ ذَلِكَ الْإِرْتِيَاحِ الَّذِي يَشْعُرُ بِهِ مَنْ تَمَكَّنَ مِنَ التَّغْلُبِ عَلَى مَتَاعِ الْحَيَاةِ الْمَادِّيَّةِ وَالْأَدْبِيَّةِ تَغْلُبًا حَقِيقِيًّا .

وَإِذَا نَظَرْنَا إِلَى الْأُمَمِ وَجَدْنَاهَا لَا تَسِيرُ فِي طَرِيقٍ وَاحِدٍ نَحْوِ
السَّعَادَةِ، بَلْ تَفْتَرِقُ إِلَى ثَلَاثٍ :

الأولى : هِيَ الَّتِي سَهِّلَ فِيهَا تَحْصِيلُ السَّعَادَةِ لِسُهولةِ وَسَائِلِ
الْمَعِيشَةِ .

الثَّانِيَةُ : هِيَ الَّتِي يَصْعَبُ فِيهَا الْحُصُولُ عَلَى السَّعَادَةِ لِصُعُوبَةِ
تِلْكَ الْوَسَائِلِ .

الثَّالِثَةُ : هِيَ الَّتِي تُدْرِكُ فِيهَا السَّعَادَةُ رَغْمًا مِنْ تِلْكَ الصُّعُوبَةِ ..
وَلنَشْرَحَ تِلْكَ الْأَحْوَالَ الثَّلَاثَةَ الَّتِي يُخَالُ أَنَّهَا غَامِضَةٌ لَا يُدْرِكُ
الْمُرَادُ مِنْهَا . كُلُّنَا يَعْرِفُ الْمَثَلَ الْمَشْهُورَ - لَيْسَ لِلْأُمَّةِ السَّعِيدَةِ
تَارِيخٌ مَعْرُوفٌ - وَالْمَثَلَ صَحِيحٌ عَالِمًا .

أَمَّا الْأُمَمُ الَّتِي لَا تَارِيخَ لَهَا فَهِيَ الَّتِي تَعِيشُ مِنْ الرِّزْقِ
الطَّبِيعِيِّ كَالْعَشَائِرِ الرَّحَالَةِ الَّتِي تَدْتَقِلُ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ بَيْنَ
الْمَرَاعِ وَالْمُرُوجِ . هُنَالِكَ تَكْثُرُ الْأَعْشَابُ فَلَا يَجِدُ الرَّجُلُ مِنْهُمْ
لِلْعَمَلِ دَاعِيًا . وَأَهْمُ أَوْلِيكَ الْأَقْوَامِ عَشَائِرُ التَّسَارِ (الْمَنْغُولِيِّينَ) .
وَإِنِّي لَا أَذْكَرُ قِبَائِلَ الصَّحَّارَى كَالْعَرَبِ وَشُعُوبِ أَوْاسِطِ أَفْرِيْقِيَا
لِأَنَّهُمْ مُضْطَرُّونَ إِلَى شَيْءٍ مِنَ الْعَمَلِ لِیَحْصُلُوا إِتْمَامَ عَيْشِهِمْ
فَعِنْدَ الْعَشَائِرِ الرَّحَالَةِ الْحَقِيقِيَّةِ تَجِدُ صُعُوبَةَ الْحَيَاةِ الْمَادِيَّةِ
وَالْأَدْبِيَّةِ مُهَمَّةً مُدَلِّلَةً مِنْ ذَاتِهَا .

أَمَّا الْمَتَاعِبُ الْمَادِّيَّةُ الَّتِي تَرْجِعُ إِلَى الْمَأْكَلِ وَالْمَلْبَسِ وَالْمَسْكَنِ فَهِيَ مَعْدُومَةٌ ، إِذِ الْمَأْشِيَّةُ كَأَفَلَةٍ لِتِلْكَ الْحَاجَاتِ وَهِيَ تَتَغَدَّى بِمَا تُنْبِتُهُ الْأَرْضُ مِنَ الْأَعْشَابِ بِدُونِ عَمَلِ الْإِنْسَانِ . وَلَيْسَ عَلَى وَجْهِ الْمَسْكُونَةِ رَجُلٌ خُلِّصَ مِنْ تِلْكَ الْأَثْقَالِ وَأَمِنَ الْمَوْتَ جُوعًا مِثْلُ أَوْلِيكَ الْقَوْمِ فَلَا يَهْتَمُّونَ كُلَّ يَوْمٍ بِتَحْصِيلِ قُوَّتِهِمْ كَمَا هُوَ حَالُنَا ، لِأَنَّ الْعُشْبَ قَدْ كَفَاهُمْ مُؤُونَةَ ذَلِكَ الْإِهْتِمَامِ وَالْعُشْبُ يُبْتِ وَحْدَهُ وَلَا يَحْتَاجُ النَّازِلُ فِيهِ إِلَى حَصَدِهِ أَوْ تَجْفِيفِهِ أَوْ إِدْخَارِهِ . وَبِذَلِكَ نَجَا أَوْلِيكَ الْقَوْمِ مِنْ مَخَالِبِ الْفَقْرِ وَالْفَاقَةِ وَلَا يَعْرِفُونَ مَا نَسَمِيهِ مَسْأَلَةَ الْفَعْلَةِ لِأَنَّهُمْ لَيْسَ فِيهِمْ رَجُلٌ أَجِيرٌ .

وَهَذَا الرَّجُلُ الَّذِي آمِنَ بِطَبِيعَةِ الْحَالِ مِنْ جِهَةِ حَاجَاتِهِ الْمَادِّيَّةِ آمِنٌ أَيْضًا مِنْ جِهَةِ الْحَيَاةِ الْأَدْبِيَّةِ ، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ تَقِيَسَهُ بِنَا فَإِنَّ لَنَا حَاجَاتٍ وَرَغَبَاتٍ وَمَقَاصِدَ كَيْفَتِهَا ظُرُوفُ اجْتِمَاعِنَا وَأَكْدَتْهَا حَالَةُ مَعِيشَتِنَا مِمَّا لَا نَسْبَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا هُوَ فِيهِ . وَتِلْكَ الْحَاجَاتُ الَّتِي اسْتَحْدَثْنَاهَا أَوْ الَّتِي وَلَدَهَا فِينَا وَسَطْنَا الْاجْتِمَاعِيَّ تُجْعَلُنَا مِنَ التَّعْسَاءِ مَا عَجَزْنَا عَنْ الْقِيَامِ بِهَا ، فَإِذَا كُفِينَا مُؤُونَةَ حَاجَةٍ تَوَلَدَتْ فِينَا حَاجَاتٌ جَدِيدَةٌ وَرَغَائِبُ غَيْرُ الْأُولَى أَشَدُّ تَحَكُّمًا وَأَصْعَبُ إِرْضَاءً . لِذَلِكَ قَالُوا : (السَّعَادَةُ فِي الْإِقْلَالِ مِنَ الرَّغَبَاتِ) كَمَا قَالُوا (يَنْبَغِي لِلْمَرْءِ أَنْ يَكْتَفِيَ بِالْعَيْشِ الْوَسَطِ الْهَنِيِّ) وَهُوَ قَوْلٌ حَسَنٌ .

غَيْرَ أَنَّ حَالَتَنَا الْاجْتِمَاعِيَّةَ تَدْفَعُنَا إِلَى ضِدِّ مَا بِهِ يَنْصَحُونَ، عَلَى أَنَّهُمْ
لَمْ يُرْشِدُونَا إِلَى تِلْكَ الْحِكْمَةِ إِلَّا لِأَنَّ الْعَمَلَ بِهَا نَادِرٌ فِي الْوُجُودِ .
وَأَقْطَعُ دَلِيلٍ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ الرَّحَالَةَ رَاضٍ عَنْ حَالَتِهِ - وَهَذَا الرِّضَا هُوَ
أَقْصَى مَرَاتِبِ السَّعَادَةِ فِي هَذِهِ الدَّارِ - أَنَّكَ لَنْ تُفْلِحَ فِي حَمْلِهِ عَلَى
اسْتِبْدَالِهَا ، إِذْ مِنْ الْمُقَرَّرِ أَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ اسْتِعْصَاءً عَلَى الْإِنْتِقَالِ مِنْ
حَالٍ إِلَى غَيْرِهِ هُوَ الْبَدَوِيُّ الَّذِي لَا يَرْضَى أَنْ يَسْتَعْيِضَ غُدُوهُ
وَرَوْاحَهُ بِالِاسْتِقْرَارِ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ وَلَا أَنْ يَتَخَلَّى عَمَّا أَلْفَ فِي الْبَدَاوَةِ
لِيَعْتَنِقَ مَا نَحْنُ فِيهِ مِنَ الْأَعْمَالِ الَّتِي نُجَاهِدُ فِيهَا لِتَحْصِيلِ قُوَّتِنَا .
وَالْأُمَّمُ الْمُتَمَدِّنَةُ الْمُتَاخِجَةُ ^(١) لِتِلْكَ الْعِشَائِرِ تَعْلَمُ مَا نَقُولُ فَإِنَّهَا لَمْ تَصِلْ
إِلَى إِدْخَالِ بَعْضِ التَّعْدِيلِ فِي أَحْوَالِهِمْ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ ، وَاسْتِعْمَالِ
طُرُقِ الْإِعْنَاتِ ^(٢) مِمَّا يَكَادُ يَبْلُغُ حَدَّ الْقَهْرِ وَالْإِجْبَارِ . وَلَمْ يَنْجَحْ
الْقِيَاصِرَةُ فِي هَذَا السَّبِيلِ مَعَ (السُّلَافِيِّينَ) إِلَّا بَعْدَ مُرُورِ الْأَجْيَالِ
وَالْقُرُونِ . وَمَعْلُومٌ أَنَّ يَدَ الْقِيَاصِرَةِ لَمْ تَكُنْ رَحِيمَةً قَطُّ ، وَمَعَ هَذَا
فَإِنَّهُمْ لَمْ يَنْجَحُوا تَمَامًا ، وَلَا يَزَالُ السُّلَافِيُّ عَلَى جَانِبِ عَظِيمٍ مِنْ
حَالَتِهِ الْأُولَى يَعِيشُ فِي مَبَادِيءِ الْبَدَاوَةِ أَكْثَرَ مِمَّا يَعِيشُ فِي عَادَاتِ
الْحَضَارَةِ وَالتَّمَدُّنِ ، وَلَا يَزَالُ يُقَدَّرُ السَّعَادَةُ بِكَثْرَةِ الْمَاشِيَةِ لَا بِسَعَةِ
الْأَرْضِ الَّتِي يَفْلَحُهَا .

(١) المجاورة، وتقوم الأرض: حدودها (٢) الاعنات من العنت: وهو الوقوع في

وَقَدْ كَانَ الْقُدَمَاءُ يَعْرِفُونَ تِلْكَ السَّعَادَةَ فِي الْعَشَائِرِ الْبَدَوِيَّةِ
فَكَانَ (هُومِير) وَمِنْ بَعْدِهِ (إيفور) يُسَمِّيَانِهِمْ (أَعْدَلَ النَّاسِ).
وَقَالَ (كورييلوس) الرَّحَّالَةَ (هُمْ أَوْلَيْكَ الْقَوْمُ الْإِفَاضِلُ الْعُدُولُ)
وَقَالَ (استرابون): (إِنَّهُمْ) يَعِيشُونَ عَيْشَةً تَقَشُّفٍ وَلَا هَمَّ لَهُمْ
بِجَمْعِ الْمَالِ (وَلَا يَزَالُ هَذَا رَأَى السِّيَاحِ فِي هَذَا الْعَصْرِ قَالَ مُوسِيؤُ
(هُوك) يُحَدِّثُ عَنِ (الْمَنْغُولِيِّينَ) وَقَدْ عَاشَ بَيْنَهُمْ حَوَائِنَ كَامِلِينَ:
(أَوْلَيْكَ الْمَنْغُولِيُّونَ لَهُمْ نَفُوسٌ دِينِيَّةٌ كَمَا يَنْبَغِي ، فَتَرَاهُمْ دَائِمًا
مُشْتَغَلِينَ بِالْحَيَاةِ الْبَاطِنِيَّةِ ، وَكُلُّ مَا فِي هَذِهِ الدَّارِ صَغِيرٌ فِي أَعْيُنِهِمْ فَهُمْ
يَعِيشُونَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا كَأَنَّهُمْ لَيْسُوا مِنْهَا).

ذَلِكَ هُوَ مِثَالُ الرَّجُلِ الَّذِي يُقَلُّ مِنْ رَغْبَاتِهِ ، وَيَرَى السَّعَادَةَ
فِي عَيْشٍ وَسَطٍ لَيْسَ بِالْمَغْبُوطِ عَلَيْهِ . وَمَرَجِعُ هَذِهِ السَّعَادَةِ
هُوَ الْوَسَطُ الْمَادِّي الَّذِي يَعِيشُ فِيهِ لِكِفَايَتِهِ وَتَوْفِيرِهِ وَسَائِلِ
الْعَيْشِ أَيْ تَوْفِيرِهِ . ثُمَّ إِنَّ سَهُولَةَ الْمَعِيشَةِ تَزْدَادُ لَدَيْهِمْ بِضُرُورَةِ
اجْتِمَاعِهِمْ ، فَقَدْ تَبْلُغُ الْعَائِلَةُ مِنْهُمْ مِئَاتٍ مِنَ النَّفُوسِ كَمَا كَانَ عَلَيْهِ
أَسْبَاطُ^(١) التَّوْرَةِ . فَلَيْسَ الرَّجُلُ بِمَعزُولٍ عَنِ النَّاسِ قَطُّ ، بَلِ
الْوَاحِدُ مِنْهُمْ يَسْتَعِينُ بِأَخِيهِ فَيُصْبِحَانِ فِي مَأْمَنِ مِنْ طَوَارِقِ

(١) السبط من اليهود كالقبيلة من العرب

الْحَدَثَانِ . وَلَيْسَ الضُّعْفَاءُ مِنْهُمْ وَالْمُقْعَدُونَ وَفَاقِدُوا الْأَهْلِيَّةَ
وَالطَّائِشُونَ مُهْمَلِينَ وَشَأْنُهُمْ وَلَا مُعَرَّضِينَ لِتِلْكَ الْحَالَةِ التَّعْسَةِ الَّتِي
تَفَاقَمَ خَطْبُهَا ^(١) بَيْنَ الْقَوْمِ الْمُتَمَدِّينِ .

وَأَخْلَاصَةُ أَنْكَ تَرَى الرَّجُلَ فِي تِلْكَ الْمَجْتَمَعَاتِ سَعِيدًا بَوْفُورَةً
الْغِذَاءِ الطَّبِيعِيِّ وَمَعُونَةَ الْوَسْطِ الَّذِي وُلِدَ فِيهِ فَهُوَ بِهِمَا فِي مَأْمَنٍ
مِنْ غَوَائِلِ الْحَيَاةِ بَعِيدٌ عَنْ مُوجِبَاتِ الشَّقَاءِ سَعِيدٌ لَا يَتَّغِي مِنْ
حَالَتِهِ بَدِيلًا .

وَيُوجَدُ بِجَانِبِ تِلْكَ الْعَشَائِرِ أَقْوَامٌ آخَرُونَ غَيْرُ قَلِيلِينَ
يَعِيشُونَ مِنَ الْأَعْشَابِ مُسْتَعِينِينَ بِجَمْعِيَّتِهِمُ الْمُتَكَاثِفَةَ لَكِنِ عَلَى
حَالٍ أَقَلِّ كَمَا مِنَ الْأَوَّلِينَ ، فَهُمْ أَيْضًا فِي مَأْمَنٍ عَلَى التَّقْرِيبِ مِنْ
صُرُوفِ الْحَيَاةِ . وَأُولَئِكَ الْأَقْوَامُ طَبَقَاتٌ بَعْضُهَا أَحَطُّ مِنْ بَعْضٍ
فِي دَرَجَةِ السَّعَادَةِ وَهِيَ تَبْتَدِي مِنْ تِلْكَ الطَّبَقَةِ الَّتِي وَصَفْنَاهَا لَكَ حَتَّى
تَصِلَ إِلَى حَالَةِ الْأُمَمِ الثَّانِيَةِ الَّتِي سَنَتَكَلَّمُ عَلَيْهَا :

تِلْكَ الْأُمَمُ الثَّانِيَةُ هِيَ الَّتِي فَقَدَتْ وَسَائِلَ الْحَيَاةِ الْمَادِّيَّةِ لِفَقْدِ
الْأَعْشَابِ الطَّبِيعِيَّةِ وَتَمَزَّقِ الْعَائِلَةَ . فَالرَّجُلُ فِيهَا وَاقِفٌ بِنَفْسِهِ
أَمَامَ مَتَاعِ عَيْشِهِ وَلَسْكَنَهُ لَا يُقَدِّمُ عَلَى اقْتِحَامِهَا ، بَلْ إِنَّهُ يَفْرُغُ
جَهْدَهُ فِي الْهَرَبِ مِنْهَا . وَقَدْ يُقَالُ : إِنَّ السَّبَبَ فِي هَرَبِهِ هَذَا مَا فُطِرَ

(١) الخطب : الأمر صغر أو عظم وغلب استعماله للأمر العظيم المكره . وتفاقم

الخطب عظم ولم يجر على استواء

عَلَيْهِ الْمَرْءُ مِنْ حُبِّ الْإِبْتِعَادِ عَنِ الشَّقَاءِ، وَهُوَ سَبَبٌ صَحِيحٌ
مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ إِلَّا أَنَّهُ يُلْزِمُنَا الْبَحْثَ عَنِ السَّبَبِ الَّذِي جَعَلَ
التَّرِيَةَ وَقِيَامَ الضَّرُورَةَ لَا تُزِيلَانِ ذَلِكَ الدَّاعِيَ إِلَى الْبَطَالَةِ
وَالْكَسَلِ .

وَالْعِلْمُ الْاجْتِمَاعِيُّ يُدُلُّنَا عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْأُمَّمَ الَّتِي تَسْكُنُ
الْقِسْمَ الْأَكْبَرَ مِنْ وَجْهِ الْبَسِيطَةِ، وَنَاحِيَةَ مِنْ غَرْبِي أَوْ رَبَّا قَدْ
نَشَأَتْ اتِّكَالِيَّةً أَيَّامَ كَانَ آبَاؤُهُمُ الْأَقْدَمُونَ يَعِيشُونَ فِي تِلْكَ الْبِقَاعِ
ذَاتَهَا مِمَّا تَبَتُّ الْأَرْضُ بِغَيْرِ عَنَاءٍ .

فَأَمُّ الْيَوْمِ سُلَالَةُ أُمَّمِ الْأَمْسِ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ الْأَرْضَ لَمْ
تَعُدْ تَبَتُّ شَيْئًا مِنْ نَفْسِهَا كَمَا مَضَى .

وَرَجُلُ الْيَوْمِ مِنْ تِلْكَ الْأُمَّمِ تَعَوَّدَ الْإِعْتِمَادَ عَلَى مَا يَسُوقُ اللَّهُ
إِلَيْهِ مِنَ الرِّزْقِ الطَّبِيعِيِّ، وَمَا يُسَاعِدُهُ بِهِ الْأَهْلُ وَالْمُؤَاطِنُونَ، ثُمَّ
أَمْسَى وَقَدْ فَقَدَ الْمُعَوَّتَيْنِ وَاضْطَرَّ إِلَى اقْتِحَامِ الْأَتْعَابِ لِيَحْصَلَ قُوَّتُهُ
بِنَفْسِهِ فَالْحَاجَةُ تُنَادِيهِ، (اعْمَلْ وَكُنْ ذَا عَزِيمَةٍ وَمَضَاءٍ وَلَا تَرُكَنَّ
إِلَى غَيْرِكَ، إِذْ لَيْسَ مِنْ سَبِيلٍ غَيْرِ هَذِهِ فِي تَحْصِيلِ رِزْقِكَ وَسَعَادَتِكَ)
وَفِطْرَتُهُ الْأَصْلِيَّةُ وَمَا شَبَّ عَلَيْهِ مِنَ الْعَادَاتِ يُجِيبُ هَذَا النِّدَاءَ :
(إِنَّ الْعَمَلَ وَالْجِدَّ وَالْعَزِيمَةَ مَتَاعِبٌ أَحَلَّتْ مِنْهَا اجْتِنَابُهَا وَفِي الْبُعْدِ عَنْهَا
سَعَادَةُ الْإِنْسَانِ). وَالْغَالِبُ هُوَ صَوْتُ الْفِطْرَةِ، لِأَنَّهُ يَجِدُ أَذْنَا

صَاحِبَةً^(١) هِيَ الْعَادَةُ الْمَأْلُوفَةُ ، لَا سِيَّمَا أَنَهَا مَقْبُولَةٌ يَرْتَاحُ إِلَى
الِاسْتِرْسَالِ مَعَهَا .

وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ لَا مَلْجَأَ لِلْمَرْءِ مَنْ تَحْمَلُ هَاتِيكَ الْمَتَاعِبِ إِلَّا
اسْتِعْمَالُ مَا وَرِثَهُ عَنْ آبَائِهِ مِنَ الْإِعْتِمَادِ عَلَى الْغَيْرِ وَالْعَيْشَةِ مِمَّا
يَكْسِبُونَ أَغْنِي بِذَلِكَ التَّمَادِي فِي طَلَبِ الْمَعُونَةِ مِنَ النَّاسِ شَأْنُ الزُّبُورِ
مَعَ النَّحْلَةِ .

نَعَمْ زُبُورُ ذَلِكَ الْفَتَى الَّذِي بَلَغَ الْعِشْرِينَ مِنْ عُمُرِهِ وَكَانَ سَلِيمَ
الْجِسْمِ صَحِيحَ الْقُوَى ، ثُمَّ جَعَلَ كُلَّ اعْتِمَادِهِ عَلَى مَا يَتَنَاوَلُهُ مِنْ عَائِلَتِهِ
فَلَا يَعِيشُ إِلَّا مِنْ مَكَارِمِهَا !! .

زُبُورُ ذَلِكَ الْفَتَى الَّذِي بَلَغَ الْخَامِسَةَ وَالْعِشْرِينَ أَوْ الثَّلَاثِينَ ، ثُمَّ
هُوَ لَا يَنْظُرُ إِلَى الزَّوْجِ إِلَّا مِنْ جِهَةِ الْمَهْرِ الَّذِي يَكُونُ لِخَطِيئَتِهِ
لِيَكُونَ لَهُ مِنْهُ سَبِيلٌ سَهْلٌ لِلْمَعِيشَةِ عَلَى نَفَقَتِهَا !! .

زُبُورُ ذَلِكَ الْفَتَى الَّذِي يَحْتَقِرُ الْمِهْنَ الْحُرَّةَ وَالصَّنَاعَاتِ الْمُسْتَقْبَلَةَ
وَيَرَى الشَّرْفَ كُلَّ الشَّرْفِ فِي وُظَائِفِ الْحُكُومَةِ حَيْثُ لَا جُهْدَ
وَلَا عَنَاءَ وَلَا هَمَّةَ وَلَا إِقْدَامَ فَيَعِيشُ كَلًّا^(٢) عَلَى بَيْتِ الْمَالِ !!

زُبُورُ ذَلِكَ الرَّجُلِ مُتَوَسِّطِ الْحَالِ أَوْ الْأَجِيرِ الَّذِي لَا يَرَى
فَرْجًا مِنْ مَصَاعِبِ الْحَيَاةِ فِي الزَّمَنِ الْحَاضِرِ ذَيْرَ الْإِتِّجَاءِ إِلَى الْهَيْئَةِ

(١) صفا اليه: مال ، وأصغى اليه: مال اليه بسمعه (٢) عالة

كَالْبَدِيَّةِ أَوْ الْحُكُومَةِ لِيَطْلُبَ الْمَعُونَةَ مِنْهَا وَيَعِيشَ أَيْضًا مِنْ بَيْتِ الْمَالِ .

ثُمَّ زُبُورُ ذَلِكَ الَّذِي اتَّخَذَ السِّيَاسَةَ مِهْنَةً وَاسْتَخْدَمَ سَدَاجَةَ قَوْمِهِ فَتَحَبَّبَ إِلَيْهِمْ بِوَعْدِهِمْ مَا يَشْتَهُونَ حَتَّى يَعِيشَ عَلَى نَفَقَةِ أَوْلِيَاءِ الْقَوْمِ الَّذِينَ يَخْدَعُهُمْ وَيُلْحِقَ بِهِمُ الْفَقْرَ وَالْأَمَارَ !!

إِذَا بَلَغَ الْحَالُ فِي أُمَّةٍ هَذِهِ الدَّرَجَةَ انْتَفَى الْعَجَبُ مِنْ ظُهُورِ الْإِشْتِرَاقِيِّينَ فِيهَا وَسُرْعَةِ انْتِشَارِهِمْ بَيْنَ طَبَقَاتِهَا إِذْ فِي مَذْهَبِهِمْ وَعَدُّ لِلنَّاسِ بَهِيئَةً اجْتِمَاعِيَّةً جَدِيدَةً يَكُونُ الْكُلُّ فِيهَا مِنَ الزَّنَابِيرِ لَكِنْ ، لِسُوءِ حَظِّ الْمُبَشِّرِينَ بِهَذَا النِّعَمِ لَا وُجُودَ لِلزَّنَابِيرِ إِلَّا إِذْ وُجِدَ النَّحْلُ وَلَا سَبِيلَ لِلإِكْتِشَارِ مِنَ الْأُولَى إِلَّا إِذَا ضُوعِفَ عَمَلُ الثَّانِيَةِ ، وَهَذِهِ ضَرُورَةٌ يُوسَفُ عَلَى وُجُودِهَا وَلَوْ لَاهَا حَلَالًا بِالطَّبَعِ لِكُلِّ إِنْسَانٍ أَنْ يَعِيشَ مِنْ مَالِ الْجَمِيعِ .

وَرُبَّ مُعْتَرِضٍ يَقُولُ : أَجَلُ إِنِّ حَالَةَ الزَّنَابِيرِ مِمَّا تَرْتَاحُ لَهُ النُّفُوسُ وَالْهَمُّ كُلُّ الْهَمِّ فِي صِرُورَةِ الْإِنْسَانِ زُبُورًا ، فَهَنْ نَالَ ذَلِكَ كَانَ سَعِيدًا وَعَلَيْهِ فَلْتَحَى الزَّنَابِيرُ . غَيْرَ أَنَّ الْأُمَّةَ الَّتِي يَكُونُ هَذَا حَالُهَا لَا تَسَاعِدُ عَلَى تَحْصِيلِ السَّعَادَةِ كَثِيرًا لِأَنَّ مِنَ الْمَعْضَلَاتِ أَنْ يُحْصَلَ الْإِنْسَانُ سَعَادَتَهُ بِأَقَلِّ عَمَلٍ مُمَكِّنٍ فِي أُمَّةٍ لَا قِوَامَ لَهَا إِلَّا بِأَكْثَرِ عَمَلٍ مُمَكِّنٍ ، وَطَالِبُ هَذَا شَيْءٌ

بِالرَّجُلِ الَّذِي يَطْلُبُ حَاجَتَهُ مِنْ وَرَاءِ نَهْرٍ جَارٍ ، فَهُوَ مُضْطَرٌّ إِلَى مُقَاوَمَةِ الْمَاءِ عَلَى الدَّوَامِ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَسَاعَةٍ وَالنَّهْرُ لَا يَزَالُ يُجْرِي ضِدَّ مَقْصِدِهِ وَمَنْ كَانَ هَذَا شَأْنُهُ تَعَدَّرَ أَنْ يَكُونَ خَلِيَّ الْبَالِ سَعِيدًا . هَذِهِ حَالٌ لَا يَأْمَنُ الضَّيْمُ ^(١) مَعَهَا أَوْلَئِكَ الَّذِينَ صَارُوا مِنْ صَفِّ الْمُوظَّفِينَ أَنْفُسِهِمْ ، مَعَ أَنَّهُمْ قَدْ خَلَصُوا بِذَلِكَ مِنْ مَتَاعِبَ كَثِيرَةٍ فِي الْحَيَاةِ لِأَنَّ غَالِبَهُمْ يَعِيشُ فِي ضَيْقٍ وَتَقْتِيرٍ اضْطِرَّارًا إِلَى الْمَعِيشَةِ هُمْ وَعَائِلَاتُهُمْ وَإِلَى تَرْبِيَةِ أَبْنَائِهِمْ بِرِزْقٍ قَلِيلٍ . ذَلِكَ هُوَ الشِّتَاءُ تَحْتَ الْكُسُوفَةِ السَّوْدَاءِ وَهُوَ أَقْسَى شَقَاءٍ فِي الْوُجُودِ . ذَلِكَ بُؤْسٌ لَا يَتِمَكَّنُ الْمَرْءُ مَعَهُ مِنَ الْمَحَافَظَةِ عَلَى دَرَجَتِهِ بَيْنَ النَّاسِ وَلَا هُوَ يَخْلُصُ مِنَ التَّأَلُّمِ بِهِ ، فَهُوَ جُرْحٌ يَتَجَدَّدُ فِي كُلِّ صَبَاحٍ . وَزِدْ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُ يَعِيشُ مَسْلُوبَ الْإِرَادَةِ مُؤْتَمِرًا ^(٢) بغيرِهِ وَالْأَمَالَ مَحْضُورَةً وَلِلرَّجَاءِ حَدٌّ قَرِيبٌ .

ثُمَّ الْحَالُ أَشَدُّ فِي تِلْكَ الْأُمَّمِ بِالنَّظَرِ لِغَيْرِ الْمُوظَّفِينَ الَّذِينَ يُضْطَرُّونَ إِلَى الْعَمَلِ بِأَنْفُسِهِمْ وَهُمْ عَلَيْهِ غَيْرُ قَادِرِينَ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَتَّهَمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ التَّرْبِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ وَالْكَسْبِ غَيْرُ مُحَقَّقٍ فِيَوْمٍ يُسْرُو وَيَوْمٌ فِي إِعْسَارٍ . وَلَهُمْ فَوْقَ ذَلِكَ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا وَظَائِفَ

(١) الضيم : الظلم (٢) يقال اتهم الأمر أي امتثل

الحُكُومَةِ وَأَطَاعُ تَمْتَدُّ نَحْوَهَا، وَهُمْ عَلَى الدَّوَامِ يَرْتَجِعُونَ مِنْ
أَمَالِهِمْ خَائِبِينَ .

وَبِالْجُمْلَةِ فَالْحَيَاةُ شَاقَّةٌ عَلَى الْجَمِيعِ وَالْكَلُّ مُتَأَثِّرٌ بِنَشَاتِهِ
الِاتِّكَالِيَّةِ وَهِيَ السَّبَبُ فِي اعْتِقَادِ كُلِّ وَاحِدٍ أَنَّ مَالَ الْأَبِ مَالٌ
لِجَمِيعِ عَائِلَتِهِ. لِذَلِكَ تَرَى الرَّجُلَ يَتَجَرَّدُ عَنْ أَمْلَاكِهِ فِي حَيَاتِهِ
وَيَهَبُهَا مَهْرًا لِأَوْلَادِهِ مَتَى حَانَ وَقْتُ الزَّوْاجِ وَوَجِبَ عَلَى كُلِّ وَالِدٍ أَنْ
يَجْمَعَ مِنَ الْمَالِ مَا يَكْفِي جَمِيعَ أَوْلَادِهِ مَعَ أَنْ مِنَ الصَّعْبِ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ
أَنْ يُحْصَلَ الْإِنْسَانُ مَالًا يَكْفِيهِ وَحْدَهُ. فَلَمَّا رَأَى قَوْمًا أَنَّ الْقِيَامَ
بِهَذَا الْوَجِبِ مُتَعَدِّزٌ لَمْ يَجِدُوا لَهُمْ بُدًّا مِنْ الْهَرَبِ مِنْهُ إِلَّا
الْإِفْلَالَ مِنَ الْأَبْنَاءِ، وَأَصْبَحْنَا نَفْضُلُ أَنْ نَهْرَ أَبْنَاءِنَا عَلَى الْإِكْثَارِ
مِنْ نَسْلِنَا. وَمَعَ هَذَا لَا تَرَالُ الْحَيَاةُ مُتَعَبَةً إِذْ نَحْنُ نَعِيشُ عَيْشَةً
ضَيْقٍ وَحِرْمَانٍ وَنَقْتَصِدُ اقْتِصَادَ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ، وَذَلِكَ مِمَّا
يُكَدِّرُ صَفْوَةَ الْحَيَاةِ وَيُعْطِلُ السَّعَادَةَ فِي الْأُمَّةِ .

وَلِهَذَا الضَّيْقِ فِي تِلْكَ الْأُمَّمِ آثَارُهُ يَنْبَغِي النَّظْرُ فِيهَا وَأَكْتَفِي
بِذِكْرِ أَرْبَعَةٍ يَرْتَجِعُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا إِلَى دَوْرٍ مِنْ أَدْوَارِ الْأُمَّةِ الَّتِي
ظَهَرَ فِيهَا، وَقَدْ عُنِيْتُ بِاخْتِيَارِهَا فِي بِلَادٍ مُخْتَلِفَةٍ :

فَالْأَوَّلُ هُوَ يَأْسُ النُّفُوسِ الَّذِي ائْتَمَزَتْ بِهِ الْأُمَّةُ الْهِنْدِيَّةُ وَهُوَ

مَذْهَبُ الْفَنَاءِ الْمَعْرُوفُ عِنْدَهُمْ بِاسْمِ (نِيرَفَانَا) . وَقَدْ انْتَشَرَ هَذَا الرُّوحُ بِسُرْعَةٍ بَيْنَ سُكَّانِ الشَّرْقِ الْأَقْصَى مَعَ أَنَّ زُرَاعَتَهُمْ لَا تَرَالُ قَرِيبَةً مِنْ الْحَالَةِ الطَّبِيعِيَّةِ ، إِلَّا أَنَّهُمْ حُرِّمُوا مِنَ التَّسَهُّلَاتِ اللَّازِمَةِ فِيهَا . وَمَعْنَى (نِيرَفَانَا) هُوَ النِّجَاةُ أَوْ السَّلَامَةُ ، وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى السَّعَادَةُ الَّتِي وَعَدَ بِهَا الْهِنْدِيُّينَ صَاحِبُ الْمَذْهَبِ الْبُودِيِّ الْمَشْهُورِ . وَمَدَارُ هَذِهِ السَّعَادَةِ عَلَى أَنَّ النَّاسَ لَا يَرْجِعُونَ بَعْدَ مَوْتِهِمْ إِلَى حَيَاةٍ كَالَّتِي فَارَقُوهَا بَلْ يَدْخُلُونَ فِي حَيَاةٍ أُخْرَى غَيْرِ جَسْمِيَّةٍ وَلَا مُحَسَّسَةٍ ، وَمِنَ الْمُوصَلَاتِ إِلَيْهَا السُّبُتَاتُ ^(١) الْمُسْتَمِرَّةُ ، وَالتَّسْلِيمُ الْمَطْلُوقُ ، وَهَجْرُ الْعَمَلِ ، وَإِنْكَارُ فَضْلِهِ حَتَّى يَكَادُ الْمَرْءُ يَنْسَى أَنَّهُ مُوجُودٌ . وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنِ انْكَارِ السَّعَادَةِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، فَتَرَى الرَّجُلَ مِنْهُمْ قَدْ اسْتَوَلَى عَلَيْهِ الْيَأْسُ مِنْ تَحْصِيلِ سَعَادَتِهِ الدُّنْيَوِيَّةِ فَلَا يَجِدُ لَهُ مَلْجَأً فِي مَعِيشَتِهِ غَيْرَ الْإِنْكَمَاشِ وَالِاسْتِمَاتَةِ ! لَا يَسْعَى لِتَحْصِيلِ رِزْقِهِ وَلَا يُغَالِبُ مَا يَعْزِضُ لَهُ مِنَ الصُّعُوبَاتِ فِي حَيَاتِهِ بَلْ يُسَلِّمُ نَفْسَهُ لِكُلِّ جَائِحَةٍ ^(٢) عَلَى الدَّوَامِ وَالِاسْتِمْرَارِ .

وَالثَّانِي مَذْهَبُ الْعَدَمِيِّينَ الْمَعْرُوفِينَ فِي الْأُمَّمِ السَّلَافِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ بِاسْمِ (نِهَيْلِسْت) وَهُوَ ضَرْبٌ مِنْ ضُرُوبِ الْيَأْسِ أَيْضًا . وَهُمْ أُمَّمٌ خَرَجُوا مِنْ حَالَةِ الْمَعِيشَةِ الْبَسِيطَةِ إِلَى حَالَةٍ أَوْرُبَا الْغَرِبِيَّةِ ، وَرَأَوْا

(١) السببات في الأصل: النوم، ويراد به هنا تلك الحالة التي تشبه الغيبوبة

(٢) الجائحة: الشدة التي تجتاح المال، والمراد هنا المصيبة مطلقاً

أَنَّهُمْ مُلْجَبُونَ إِلَى الْكَدِّ وَالْعَمَلِ فَأَرَادُوا الْهَرَبَ مِنْ تِلْكَ الْوَاجِبَاتِ
الْجَدِيدَةِ وَلَمْ يَهْتَدُوا إِلَيْهِ سَبِيلًا . لِذَلِكَ تَوَلَّدَ فِيهِمْ مَذْهَبُ الْعَدَمِ
أَيَّ انْكَارِ كُلِّ مَا فِي الْوُجُودِ وَوُجُوبِ الْعَمَلِ بِمَا يَقْتَضِي التَّخْرِيبَ
وَالْإِبَادَةَ . وَأَوْلَيْكَ قَوْمٌ لَا سَعَادَةَ لَهُمْ فِي هَذِهِ الدَّارِ أَيْضًا .

وَالثَّلَاثُ مَذْهَبُ الْإِشْتِرَاكِينَ وَهُوَ الْيَأْسُ الَّذِي اسْتَوَلَى عَلَى
أُمَّمِ الْعَرَبِ الَّذِينَ عَلَى الْحَالَةِ الْإِتْكَالِيَّةِ قَلِيلًا أَوْ كَثِيرًا . وَالسَّبَبُ
فِي ظُهُورِ هَذَا الرُّوحِ كَمَا بَيَّنَّاهُ ، النَّشْأَةُ الْأَصْلِيَّةُ الَّتِي فَطَرَتْ عَلَيْهَا
تِلْكَ الْأُمَّمُ . وَخُلَاصَةُ الْمَذْهَبِ حَمْلُ كُلِّ فَرْدٍ عَلَى طَلَبِ السَّعَادَةِ
مِنْ أُمَّتِهِ ، وَفِيهِ انْكَارُ مَزَايَا الْعَمَلِ وَالِاجْتِهَادِ وَالْهَمَّةِ وَالْإِفْدَامِ .
وَمَنْ أَرَادَ الْوُقُوفَ عَلَى حَقِيقَةِ رَأْيِهِمْ فَلْيَقْرَأْ رِسَالَهُ مُوسِيُو (لأفارج)
ضِدَّ الْعَمَلِ الَّتِي عِنْوَانُهَا (حَقُّ الْإِنْسَانِ فِي الْكَسَلِ) فَفِيهَا : (لَقَدْ
اسْتَوَلَى الْجُنُونُ عَلَى طَبَقَاتِ الْفَعْلَةِ فِي الْأُمَّمِ الَّتِي سَادَ فِيهَا أَصْحَابُ
الْأَمْوَالِ ، وَنَشَأَ عَنْ هَذَا الْجُنُونِ بَوْمٌ حَالَ النَّاسِ وَضَنَكَ الْهَيْئَةَ
الْاجْتِمَاعِيَّةِ اللَّذَانِ أُصِيبَتْ بِهِمَا الْإِنْسَانِيَّةُ مُنْذُ قَرْنَيْنِ كَامِلَيْنِ فَكَدَّرَا
صَفْوَةَ الْعَيْشِ عَلَيْهَا . وَالْعَمَلُ هُوَ السَّبَبُ الْفَعَّالُ فِي فَسَادِ أَفْكَارِ الْأُمَّمِ
الَّتِي سَادَ الْمَالُ فِيهَا وَهُوَ السَّبَبُ فِي تَشْوِيهِ^(١) الْإِنْسَانِ وَتَرْكِيبِ
الْإِنْسَانِ) ثُمَّ أَرَادَ الْمَوْلَفُ أَنْ يَسْتَدِلَّ عَلَى أَفْضَلِيَّةِ الْكَسَلِ عَلَى

الْعَمَلِ فَذَكَرَ الْمَثَلَ الْأَنْدَلُسِيَّ : (الرَّاحَةُ هِيَ الصِّحَّةُ ^(١)) .
وَعَلَى كُلِّ فَإِنَّ ظُهُورَ ذَلِكَ الْمَذْهَبِ يَدُلُّ دَلَالَةً قَاطِعَةً عَلَى أَنَّ أَهْلَهُ
لَا يَجِدُونَ سَعَادَتَهُمْ فِي هَذِهِ الدَّارِ كَمَا خُلِقَتْ .

وَالرَّابِعُ مَذْهَبُ التَّطْيِيرِ ^(٢) وَهُوَ الْفِكْرُ الَّذِي اسْتَوَلَى عَلَى
طَبَقَاتِ الْمُسْتَنِيرِينَ فِي الْأُمَمِ الْغَرْبِيَّةِ ، وَارِيدُ بِهِ تِلْكَ الْمَذَاهِبَ
الْفَلَسَفِيَّةَ أَوَّالِيَّتِي تَنْسَبُ إِلَى الْفَلَسَفَةِ الَّتِي سَادَتْ بَيْنَ الْأُمَمِ الْأَلْمَانِيَّةِ
وَالسَّلْتِيَّةِ وَبَنَوْا عَلَيْهَا نَظَرَهُمْ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . نَعَمْ لَا أَنْكُرُ
أَنَّ الْيُونَانِيِّينَ وَالتَّلِيَانِ يَتَوَسَّمُونَ الْخَيْرَ فِي الْحَيَاةِ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِمْ
وَلَكِنَّ السَّبَبَ فِي هَذَا عِنْدَ الْأُمَّتَيْنِ الْمَذْكُورَتَيْنِ مُسْكِنَاهُمْ بِلَادًا
تَكثُرُ فِيهَا النَّبَاتَاتُ وَالْأَعْشَابُ ، فَيَسْهُلُ عَلَيْهِمْ زَرْعُهَا زَرْعًا بَسِيطًا
وَذَلِكَ مِمَّا يُؤَيِّدُ الْقَاعِدَةَ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا ، وَقَدْ يَعِيشُ الْعَدَدُ الْكَثِيرُ
مِنْهُمْ مِنْ جَنَى الثَّمَارِ وَلَا يَعْمَلُونَ إِلَّا قَلِيلًا . وَالشَّحَّاذُونَ فِي مَدِينَةِ
نَابُلُ هُمْ أَعْظَمُ مِثَالٍ لِتِلْكَ الْأُمَمِ ، لِذَلِكَ تَصِلُ الْأُمَمُ الَّتِي تَسْكُنُ
جَوَانِبَ الْبَحْرِ الْأَبْيَضِ الْمُتَوَسِّطِ بِالْأُمَمِ الَّتِي تَرَى سَعَادَتَهَا الْعُضْمَى
فِي سُهولةٍ مَعِيشَتِهَا .

وَيَتَبَيَّنُ مِمَّا تَقَدَّمَ أَنَّ مَسْأَلَةَ السَّعَادَةِ مُفَصَّلَةٌ فِي الْحَالَةِ الثَّلَاثَةِ ، غَيْرَ

(١) ولو كان يعرف العربية لتمثل بقول بعضهم :

ان البطالة والكسل أحلى مذاقاً من عسل

(٢) التشاؤم

أَنَّهَا هِيَ الْحَالَةُ الَّتِي يَنْجَحُ السَّعْيُ فِيهَا وَرَاءَهَا ، فَقَدْ رَأَيْنَا الْإِنْسَانَ
يَبْحَثُ عَنْ سَعَادَتِهِ فِي رَاحَتِهِ أَوْ فِي أَنَّهُ لَا يَشْتَغِلُ إِلَّا الْقَلِيلَ مَا اسْتَطَاعَ .
وَهُوَ فِي حَالَةِ الرَّاحَةِ يَجِدُ السَّعَادَةَ إِلَّا أَنَّهَا عَفْنَةٌ ضَائِلَةٌ ، وَهُوَ فِي الثَّانِيَةِ
لَا يَجِدُهَا أَبَدًا .

لَسَكِنَةٌ فِي الْحَالَةِ الثَّلَاثَةِ يَطْلُبُهَا بِجِدِّهِ الذَّاتِيِّ وَعَمَلِهِ الْخَاصِّ ، فَلَا
يَهْرَبُ مِنْ صَعْبٍ وَلَا يَجْزَعُ لِعَمَلٍ شَاقٍّ ، بَلْ يُقَدِّمُ عَلَى الْمَتَاعِ
ثَابِتِ الْجَاشِ ، وَيُقَدِّرُهَا كَمَا يَنْبَغِي ثُمَّ يَجْتَازُهَا بِعِزْمٍ وَإِقْدَامٍ .
وَيُخَالِفُ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ أَنْ طَلَبَ السَّعَادَةَ مِنَ السَّكْدِ وَالْعَنَاءِ أَمْرٌ
يُشْبِهُ التَّهَكُّمَ الْمُؤَلَّمِ أَوْ لَعِبَ النَّصِيبِ ^(١) ، وَهُوَ صَاحِحٌ إِذَا لَمْ
يَلْحِظْ الْإِنْسَانُ فِي الْحُكْمِ عَلَى هَذَا الْإِذَاتِهِ وَمَا يَشْعُرُ بِهِ ، لِأَنَّهُ
بِالطَّبْعِ مَيَّالٌ إِلَى الرَّاحَةِ أَكْثَرَ مِنْ مَيْلِهِ إِلَى التَّعَبِ . أَغْنَى أَنَّهُ
يُفَضِّلُ السَّهْلَ عَلَى الْعَسِيرِ ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُ بُعَاثٌ يَدْعُوهُ إِلَى
الْحَرَكَةِ لَصَبَا ^(٢) إِلَى عَيْشَةِ الزُّهَادِ وَالْمُتَعَبِّدِينَ وَاكْتَفَى بِحَشَائِشِ
الْأَرْضِ طَعَامًا .

وَلَكِنْ لَا تَبْحَثُ عَنْ شُعُورِ الْقَارِيءِ أَوْ عَمَّا نَشْعُرُ بِهِ نَحْنُ ،
بَلْ نَتَّبِعُ الْوَقَائِعَ وَنَسْتَقْرِي الْحَوَادِثَ لِنَقِفَ عَلَيْهَا كَمَا يَنْبَغِي .
وَمَهْمَا كَانَتْ غَرَابَةُ الْأَمْرِ فَإِنَّ إِدْرَاكَهُ مِنَ الْمَيْسُورِ عَقْلًا ، وَالْمَرْءُ

(١) أى لعب ورق (اليانصيب) يربد المقامرة التي قد تخطيء وقد نصيب (٢) مال

لَمْ يَطْلُبِ السَّعَادَةَ بِالرَّهْبِ مِنَ الْكَدِّ وَالنَّصَبِ إِلَّا لِكَوْنِهِ يَسْتَعْظِمُ
 الْجُهْدَ الَّذِي يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَحَمَّلَهُ فِي التَّغْلُبِ عَلَى الصُّعُوبَاتِ
 الْمُمْكِنَةِ ، وَعَادَةُ الْإِنْسَانِ إِلَّا يَقْبَلَ الْعَمَلَ الْمَطْلُوبَ مِنْهُ إِذَا عَلِمَ مِنْ
 نَفْسِهِ عَدَمَ الْقُدْرَةِ عَلَى آدَائِهِ ، غَيْرَ أَنَّ الْعَمَلَ الَّذِي لَا يَتَأْتِي لِزَيْدٍ مِنَ
 النَّاسِ فِعْلُهُ لِصُعُوبَتِهِ عِنْدَهُ يَكُونُ سَهْلًا عِنْدَ كَثِيرٍ مِنْ غَيْرِهِ ، بَلْ
 رُبَّمَا كَانَ مِنَ الْأُمُورِ الْمُحِبَّبَةِ إِلَيْهِمْ . وَإِذَا ثَبَتَ هَذَا ثَبَتَ بِالطَّبَعِ
 أَنَّ أَوْلِيَاءَكَ الْقَوْمَ الْأَشِدَّاءَ الْأَقْوِيَاءَ لَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْحَيَاةِ كَمَا نَنْظُرُ
 نَحْنُ إِلَيْهَا ، وَأَنَّهُ لَا تَأْثِيرَ فِيهِمْ لِتِلْكَ الْمَذَاهِبِ مِنْ يَأْسٍ وَعَدَمِ
 وَفَوْضَى وَتَطْيِيرٍ . هُمْ يَرَوْنَ الْحَيَاةَ كُلَّهَا بَعِينَ غَيْرِ أَعْيُنِنَا فَتَجَلَّى لَهُمْ
 فِي بَهَاءٍ وَجَمَالٍ . لِذَلِكَ كَانَ مَذْهَبُهُمْ مَذْهَبَ رَجَاءٍ وَأَمَالٍ وَحُسْنِ ظَنِّ
 بِالِاسْتِقْبَالِ .

بَقِيَ عَلَيْنَا أَنْ نَعْرِفَ إِنْ كَانَ أَوْلِيَاءَكَ الْقَوْمَ مَوْجُودِينَ أَمْ لَا ؟ وَلَا
 يَشْكُ أَحَدٌ مِمَّنْ قَرَأَ الْأَسْطُرَ السَّابِقَةَ فِي أَنَّهُمْ مَوْجُودُونَ . وَلَكِنِّي
 أُرِيدُ أَنْ أُبْرِهِنَ عَلَى أَمْرٍ جَدِيدٍ وَهُوَ أَنَّ الْجَمْعِيَّاتِ الْإِسْتِقْلَالِيَّةَ
 كَمَا تَوْجِبَ رَفَعَةَ أُمَّهَاتِهَا فِي الْعَالَمِ وَتَقَدَّمَهَا عَلَى غَيْرِهَا فَإِنَّهَا هِيَ الَّتِي
 تَمِيلُ بِالْإِنْسَانِ إِلَى تَحْصِيلِ أَوْ فِي حَظِّ مُسْكِنٍ مِنَ السَّعَادَةِ فِي هَذِهِ
 الدَّارِ إِذَا اتَّفَقَتْ فِي جَمِيعِ الظُّرُوفِ هِيَ وَالْأُمَّمُ الْآخَرَى .

شَرَحْتُ فَمَا تَقَدَّمَ نِظَامَ مَدْرَسَةِ غَرَضِ الْقَائِمِينَ بِهَا تَعْلِيمُ

الإنسان كيف يقدر على تحصيل عيشه بنفسه، وقلت إنها تربي العزيمة والإرادة والثبات وأنها تقوى الجسم كما تربي العقل. وشرح موسيو « روزيه » و « بيرو » في مجلة (العلم الاجتماعى) تلك الطريقة عينها في بلاد الإنكليز والولايات المتحدة فعرفنا منهم أن الشاب يشب على اعتقاد أن الرجل إذا سقط يجب أن يسقط على قدميه كالحجر، سواء تعلم في البيت أو في المدرسة أو بين إخوانه وهم يعملون. فوجهة الشبان هناك الكد والتراحم في الحياة لا الإخلاق^(١) إلى الراحة والكسل وهم لا يخافون من تلك الكلمات: تراحم في الحياة كد نصب، لانهم لا يخافون من مسمياتها وما عدم خوفهم إلا من أن تربيتهم جعلتهم قادرين على مغالبتها.

وواقع أن تلك الأمة الإنكليزية السكسونية قد أخرجتنا من معظم البلاد التي كنا نحتلها فلم يحل علينا القرن مذ كنا أصحاب السيادة والنفوذ في آسيا وأفريقيا وأمريكا، إلا وقد انهزمنا في كل مكان أمامها فهي خصمنا الموروث وهي الخصم الذي يجب علينا أن نقلده في ارتقائه. ولسنأ بترداد هذا النصح نعمل كعالم وقف على حقائق الأشياء فقط بل كمحب لوطنه يلاحظ المستقبل ويأخذ بالأحوط.

إِلَّا أَنْ غَرَضِي الْآنَ يَنْحَصِرُ فِي بَيَانِ أَنَّ تِلْكَ التَّرِييَةَ تَجْعَلُ
الرَّجُلَ سَعِيدًا أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِ لِمَا تَوْجَدُهُ فِي نَفْسِهِ مِنَ الْأَعْتِقَادِ
بِرَفْعَتِهِ عَمَّنْ سِوَاهُ وَاسْتِخْفَافِهِ بِالْمَتَاعِ وَاسْتِسْهَالِهِ كُلَّ صَعْبٍ
فِي سَبِيلِ وُجُودِهِ. وَإِلَيْكَ مَثَلًا لَا يَخْلُو مِنَ الْغَرَابَةِ فِي بَابِهِ وَهُوَ
مِنْ الْأَطْفِ مَا يُحْكِي عَثْرَتُ عَلَيْهِ فِي جَرِيدَةٍ «الطان» بِقَلَمٍ
مُوسِيو «دى فارينى» قال: «اجتمع في أواخرِ يَنَائِرِ الْمَاضِي دَلِي مَائِدَةٌ
فِي أَحَدِ مَطَاعِمِ «بوسطن» لَفَيْفٌ مِنَ الشَّبَّانِ ذَوِي الْبُيُوتِ
الْكُرَيْمَةِ تَخَرَّجُوا حَدِيثًا مِنْ كَلِيَّةِ «هاروارد» وَفَاقُوا فِي الْعِلْمِ
وَالْتَمَرِينَاتِ الْجِسْمِيَّةِ ثُمَّ أَخَذُوا يَتَجَادَبُونَ أَطْرَافَ الْحَدِيثِ فَقَالَ
أَحَدُهُمْ وَكَانَ اسْمُهُ «بول جونيس»: إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ فِي الْوَلَايَاتِ
الْمُتَّحِدَةِ فَقِيرٌ إِلَّا الَّذِينَ لَا ثِقَةَ لَهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ وَإِنَّهُ لَوْ أَضَاعَ هُوَ
جَمِيعَ مَا تَرَكَهُ لَهُ أَبُوهُ مِنَ الْمَالِ وَأَصْبَحَ لَا يَمْلِكُ فُلْسًا وَاحِدًا
وَكَانَ عُرْيَانًا كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ لَوْ سَعَهُ أَنْ يُحْصَلَ عَيْشُهُ وَأَنْ
يَرْجِعَ مِنْ تِلْكَ الْبِلَادِ بِخَمْسَةِ آلَافِ دُولَارٍ أَيْ خَمْسَةِ وَعِشْرِينَ
أَلْفَ فَرَنْكٍ بَعْدَ مَصَارِفِهِ كُلِّهَا، وَذَلِكَ بَعْدَ سَنَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ
الزَّمَانِ. فَتَرَاهُنَّ مَعَهُ أَصْحَابُهُ عَلَى خَمْسِينَ أَلْفَ فَرَنْكٍ وَاتَّفَقُوا
عَلَى أَنَّهُ يَتَوَجَّهُ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ يَنَائِرٍ إِلَى
الْحَمَامَاتِ التُّرْكِيَّةِ وَهُنَاكَ يَتَجَرَّدُ عَنْ جَمِيعِ مَلَابِسِهِ حَتَّى إِذَا جَاءَ

الزَّمنُ المَحْدُودُ بَدَأَ بِطَوَافِهِ حَوْلَ الْأَرْضِ. وَكَانَتِ الصُّعُوبَةُ عَلَيْهِ
 أَنْ يَبْدَأَ بِسِيَاحَتِهِ لِأَنَّهُ كَانَ عُرْيَانًا لِذَلِكَ وَجَّهَ أَهْمَامَهُ أَوَّلًا وَبِالذَّاتِ
 إِلَى سِتْرِ عَوْرَتِهِ بِأَقْلٍ مَا يُمكنُ مِنَ الْمَالِ فَجَعَلَ يَمْسَحُ أَحَدِيَّةَ
 رِجَالِ الْمَسْكَنِ الَّذِي هُوَ فِيهِ بِجِدِّ وَرِضَى كَأَنَّهُ لَمْ يَتَعَوَّدْ غَيْرَ تِلْكَ
 الصَّنْعَةِ فِي حَيَاتِهِ. ثُمَّ يَتَنَاوَلُ الرَّاتِبَ الْمُخَصَّصَ لِهَذَا الْعَمَلِ وَهُوَ
 زَهِيدٌ فَيَقْسِمُهُ بَيْنَ قُوَّتِهِ وَكِسَائِهِ وَمَكْتَهْكَ هَكَذَا خَمْسَةَ عَشْرَ يَوْمًا
 وَهُوَ زَمَنٌ كَبِيرٌ نَظْرًا لِلْأَجَلِ الْمَحْدُودِ لَهُ وَهُوَ سَنَةٌ وَاحِدَةٌ. فَلَمَّا
 خَرَجَ مِنَ الْحَمَامِ قَصَدَ مَدِينَةَ لُنْدْرَةَ لِيُسَافِرَ مِنْهَا إِلَى الْهِنْدِ
 وَلِكِي يُحْصَلَ أَجْرَةُ السَّفَرِ جَعَلَ يَبِيعُ الْجَرَائِدَ فِي الْأَسْوَاقِ
 وَيَشْتَغَلُ بِالسَّمْسَرَةِ وَمُرَافَقَةِ الْأَجَانِبِ كَتَرَجْمَانٍ لِأَنَّهُ كَانَ يَعْرِفُ
 الْفَرَنْسَاوِيَّةَ وَالْأَلْمَانِيَّةَ وَالتَّلْيَانِيَّةَ وَتَوَصَّلَ بِصِفَتِهِ تَرْجَمَانًا إِلَى السَّفَرِ
 مَجَانًّا عَلَى إِحْدَى الْبُؤَاخِرِ الْأُمْرِيكِيَّةِ إِلَى لُنْدْرَةَ وَمَعَهُ مِنَ الْمَالِ
 خَمْسُونَ دُولَارًا أَيْ مِائَتَانِ وَخَمْسُونَ فَرَنْكًا. وَصَارَ يُلْقِي الْخُطْبَ
 فِي لُنْدْرَةَ حَتَّى كَثُرَ الْمَالُ لَدَيْهِ، وَالتَّحَقَّقَ بَعْضُ الْجَرَائِدِ الْإِنْكَلِيزِيَّةِ
 وَحَصَلَ مِنْ ذَلِكَ عَلَى مَصَاريفِهِ إِلَى الْبِلَادِ الْهِنْدِيَّةِ. وَلَمَّا قَامَ إِلَى
 تِلْكَ الْبِلَادِ أَخَذَ مَعَهُ مَتَجَرًّا خَفِيفًا بِمَا جَمَعَ مِنَ الْمَالِ وَبَاعَهُ فِي مَدِينَةِ
 (كَلْكُوتَا) بِشَمَنِ رَيْبِحٍ، وَلَا يَزَالُ الْآنَ سَائِرًا فِي طَرِيقِهِ. وَيَظْهَرُ
 مِنْ خُطْبَاتِهِ لِأَصْحَابِهِ وَمَا يَنْشُرُهُ فِي الْجَرَائِدِ أَنَّهُ مُتَأَسِّفٌ عَلَى عَدَمِ

جَعَلَهُ الْجُعْلَ ضَعْفَيْنِ وَلَوْ اسْتَلْزَمَ ذَلِكَ مُضَاعَفَةَ الْمَبْلَغِ الَّذِي تَعَهَّدَ
بِكَسْبِهِ لَدَى عَوْدَتِهِ مِنْ سِيَاحَتِهِ .

وَيُظْهِرُ أَنَّ انْتِشَارَ هَذِهِ الرُّوحِ فِي جِسْمِ الْأَمْرِيكَانِيِّينَ حَرَمَ
الْإِنْكِلِيزَ لَدَيْدَ الْمَنَامِ فَقَدْ قَرَأْنَا فِي جَرِيدَةِ (بِى جِرْنَال) أَنَّ اثْنَيْنِ
مِنْ شُبَّانِهِمْ تَرَاهُنَا عَلَى الْأَمْرِ بِعَيْنِهِ وَاجْتَازَا الْبِلَادَ الْفَرَنْسَاوِيَّةَ لِلْغَايَةِ
نَفْسَهَا حَتَّى يُبْرِهِنَا أَنَّهُمَا غَيْرُ مُتَأَخَّرِينَ عَنْ إِخْوَانِهِمَا .

عَرَفْنَا السَّادَةَ بِقَوْلِنَا إِنَّمَا حَالَةٌ ارْتِيَاحٍ تَقُومُ بِنَفْسِ أَوْلِيكَ الَّذِي
يَتِمَكَّنُونَ مِنَ التَّغْلِبِ عَلَى مَتَاعِبِ الْحَيَاةِ الْمَادِيَّةِ وَالْأَدْبِيَّةِ تَغْلِبًا
حَقِيقِيًّا ، وَعَلَيْهِ فَكُلُّ وَسْطٍ يُسَاعِدُ الْإِنْسَانَ عَلَى اجْتِيَازِ تِلْكَ
الْمَتَاعِبِ كَمَا يَجْتَازُ الصَّبِيُّ حَوَاجِزَ الْأَلْعَابِ ، يُسَاعِدُ مِنْ غَيْرِ شَكِّ عَلَى
تَحْصِيلِ السَّعَادَةِ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِ . وَلَسْتُ أَدْرِي إِنْ كَانَ أَوْلِيكَ
الشُّبَّانُ الثَّلَاثَةُ الَّذِي ذَكَرْتُهُمْ يَفُوزُونَ بِمَا تَرَاهُنَا عَلَيْهِ أَمْ لَا ، عَلَى
أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ مُحَلًّا لِلنَّظَرِ بَلِ الَّذِي يَقْتَضِي الْإِلْتِفَاتَ هُوَ تِلْكَ الْحَالَةُ
الْفِكْرِيَّةُ الَّتِي دَبَّتْ فِي أَدْهَانِهِمْ وَتِلْكَ الْهَمَّةُ الدَّائِيَّةُ الَّتِي يَدُلُّ عَلَيْهَا
عَمَلُهُمْ . وَلَا شَكَّ أَنَّهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَى الْحَيَاةِ بِنَظَرٍ مُخَالَفٍ لِنَظَرِ الْأُمَّتَيْنِ
الَّتَيْنِ قَدَّمْنَا ذِكْرَهُمَا مُخَالَفَةً كَلِيَّةً ، فَإِنَّ الرَّجُلَ فِيهِمَا يُلْقَى الْإِلَاحَ
أَمَامَ الصَّعَابِ إِذَا اعْتَرَضَتْهُ فِي طَرِيقِهِ وَيَعْنَى تَعَسُّا لِسُعُورِهِ بِمَا هُوَ
فِيهِ مِنَ الضَّعْفِ وَالْإِنْهَامِ . أَمَّا رَفِيقُهُ فَنَفْسِهِ اعْتِقَادٌ أَنَّ هِمَّتَهُ

أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ صَعْبٍ يَلْقَاهُ وَهُوَ فِي الْوَأَقِعِ أَشَدُّ مِرَاسًا وَأَثْبَتُ
 قَدَمًا، وَأَعْتَقَادُهُ هَذَا سَبَبٌ فِي اطْمِئْنَانِهِ وَتَبَسُّمِهِ لِلْحَيَاةِ تَبَسُّمَ الْمُوقِنِ
 بِالنَّجَاحِ . ذَلِكَ رَجُلٌ قَدْ تَوَلَّى بِيَدِهِ زِمَامَ السَّعَادَةِ عَلَى قَدَرِ مَا يَسَّرَ
 اللَّهُ لِلْبَشَرِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .

لِهَذَا لَا نَرَى الزَّنَابِيرَ بَيْنَ صُفُوفِ تِلْكَ الْأُمَّةِ إِلَّا نَادِرًا، وَلَيْسَ
 لَهُمْ وُجُودٌ فِي الْأُمَّمِ الْإِنْكِلِيزِيَّةِ السَّكْسُونِيَّةِ اللَّهُمَّ إِلَّا إِنْ كَانُوا
 مِنْ تِلْكَ الْأُمَّمِ الْإِتْكَالِيَّةِ الَّذِينَ اسْتَوْطَنُوا الْبِلَادَ الْإِنْكِلِيزِيَّةَ قَدِيمًا
 أَوْ هَاجَرُوا إِلَى الْبِلَادِ الْأَمْرِيكِيَّةِ حَدِيثًا . وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ طَائِفَةَ
 السِّيَاسِيِّينَ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ الْأَخِيرَةِ مِنَ الْإِرْلَنْدِيِّينَ، وَكَيْلَا حَظَّ أَنَّهَا
 هِيَ الطَّائِفَةُ الَّتِي كَثُرَ شَغْبُهَا ^(١) وَقَلَّ رِضَاهَا بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَهَا .

حَقِيقَةٌ لَيْسَ مِنَ الزَّنَابِيرِ أَوْلَيْكَ الشُّبَّانُ الَّذِينَ بَلَغُوا الْمُتَمِّمَةَ
 لِلْعِشْرِينَ وَلَمْ يَطْلُبُوا مُسَاعَدَةَ مَنْ آبَاهُمْ قَطُّ، وَتَزَوَّجُوا بِنِسَاءٍ
 بَغِيرِ مَهْرٍ، وَاحْتَقَرُوا الْوُظَائِفَ فِي الْحُكُومَةِ وَفَضَّلُوا عَلَيْهَا الْإِسْتِغَالَ
 بِالْحِرْفِ الْجَارِيَةِ وَالصَّنَاعَاتِ الْمَأْلُوفَةِ الْمُسْتَقْلَةِ وَجَعَلُوا اتِّكَا لَهُمْ عَلَى
 هَمِّهِمْ غَيْرَ مُنْتَظَرِينَ مَعُونَةً مِنَ الْحُكُومَةِ أَوْ الْأُمَّةِ . وَمِنْ الْوَاجِبِ
 عَلَيْنَا أَنْ نَعْتَقِدَ بَأَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ الَّذِينَ قَدْ تَرَكُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ لِنَفْسِهِ
 أَقْرَبُ إِلَى السَّعَادَةِ مِنْ أَوْلَيْكَ الَّذِينَ إِذَا صَادَفْتَهُمْ صُعُوبَةٌ مَدَّوْا الْأَعْنَاقَ
 نَحْوَ الْغَيْرِ يَرْجُونَ مَعُونَتَهُ . وَهَذَا الشُّعُورُ هُوَ السَّرُّ فِي نَجَاحِ كِتَابِ

(١) الشغب بسكون العين تهيبج الشمر

موسيو « جون لوبوك » وانتشاره ذلك الانتشار الغريب مما لا ندرك له نحن سبباً ، فإن أدلته ضعيفة لا تؤدى بذاتها إلى إقناع واحد من قرائه بالرضى بما نال من رزقه إلا إذا كانت نفسه متشعبةً بذلك الارتياح والاطمئنان ، وتجلت له الحياة بظاهر الفرح والابتهاج مما يبعد عنا صورته . وبالجملة فإنه كتاب الفه انكليزى لقوم من الانكليز ، وكأنى بمترجم هذا الكتاب إلى لغتنا ، وقد أحسن هذه الحقيقة حيث قال : (لقد شرح هذا الكتاب أجمل صفات الانكليز العقلية فهو انكليزى بما أودع فيه من الاستبشار وحسن الحظ بالمآل ، وكمال الرضى والارتياح) . وهو استنباط صحيح ، لأن المؤلف يلقب إنكثرة بإنكثرة المتبججة ويقول : (إذا أردت أن تعرف الحزن الصحيح فوَلِّ وَجْهَكَ قِبَلَ الْمَشْرِقِ إِذْ لَيْسَ شَيْءٌ أَشَدَّ حُزْنَاً مِنْ شَعْرِ عُمَرُ الْخِيَّامِ ، أَوْ شَعْرِ دِيَوَانَسٍ ^(١) قَالَا .

(الزَّمنُ الَّذِي يَقْضِيهِ الْعَرُءُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا قَصِيرٌ ، وَهُوَ لَا يَنَالُ مِنْهَا غَيْرَ حُزْنٍ وَآلَامٍ وَلَا يُدْرِكُ مِنْ حَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ إِلَّا الْيَسِيرَ ، وَقَدْ أَصْبَحَتْ مَسَائِلُ الْحَيَاةِ بغيرِ حَلٍّ وَلَا تَحِينِ ^(٢) النَّظَرِ فِيهَا ، فَقَدْ انْقَضَى الْأَجَلُ وَوَجَبَ الرَّحِيلُ) .

(١) قد بحثنا عن هذين الاسمين فلم نقف على ثانيهما ولم نعلم لاولهما على منظوم بهذا المعنى ، ولذلك سقنا الترجمة ثراً (المترجم)

(٢) أى ليس الحين حين النظر فيها

(الْحَيَاةُ أَشْبَهُ بِرِيَّاحٍ ضَلَّتْ وَجْهَتَهَا ، وَنَحْنُ أَشْبَهُ بِصَوْتٍ لِتِلْكَ الرِّيحِ . نَطْلُبُ الرَّاحَةَ فَلَا نُلَاقِي إِلَّا مَا يُوجِبُ التَّحَسُّرَ وَالِانْتِحَابَ وَانْهَمَالَ الْعِبْرَاتِ ، وَلَا نُلَاقِي إِلَّا عَوَاصِفَ شُهَدْدَانَا ، وَحَرَبًا نَقْتُلُ فِيهَا)

ثُمَّ اتَّفَقَ رَأْيُ الْمُؤَلِّفِ وَرَأْيُنَا فَقَالَ: (وَإِذَا صَحَّ هَذَا وَكَانَتْ الْحَيَاةُ الْإِنْسَانِيَّةُ عَلَى قَدَرِ مَا قَالُوا مِنَ الْإِيْلَامِ وَالشَّدَّةِ فَلَا غَرَابَةَ فِي أَنَّ الْعَدَمَ ، أَيْ انْقِضَاءَ الْأَكْدَارِ ، يَكُونُ مِنْ أَقْصَى الْأَمَانِي وَلَوْ أَضَاعَ النَّاسُ فِي سَبِيلِهِ وَوَجَدَانَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ). وَفِي هَذَا كَمَا قُلْنَا بَيَانٌ لَوْجُودِ مَذْهَبِ التَّطَيُّرِ فِي كُتُبِ الْجِرْمَانِيِّينَ وَالسَّلْتِيِّينَ ، أَيْ فِي الْأَمَمِ الَّتِي لَمْ تَتَعَوَّدِ الْعَمَلَ وَلَمْ تَتَرَبَّ عَلَى الْإِجْتِهَادِ كَمَا هُوَ مَوْجُودٌ فِي فَلْسَفَةِ الشَّرْقِيِّينَ وَأَشْعَارِهِمْ .

كَذَلِكَ يُوَافِقُنَا فِي الْقَوْلِ بَأَنَّ الْإِنْكِلِزِيَّ السَّكْسُونِيَّ لَأَيَّابُ الْكُدِّ ، وَلَا يَرْهَبُ الْعَمَلَ ، وَلَا يَخْشَى الصَّعَابَ ، وَأَيَّدَ قَوْلَهُ بِأَقْوَى الْحُجَجِ ، قَالَ فِي أَوَّلِ الْفَصْلِ الْعَاشِرِ الَّذِي عُنْوَانُهُ (الراحة والعمل) مَا تَرَجَّمْتُهُ: (إِنِّي بِالطَّبَعِ لَا أَعِدُّ ضَرُورَةَ الْعَمَلِ بَيْنَ مَتَاعِ الْحَيَاةِ). وَهَذِهِ مُجَلَّةٌ لَا أَظُنُّهَا تَصَدَّرُ مِنْ قَلَمِ كَاتِبٍ نَشَأَ فِي أُمَّةٍ اتِّكَالِيَّةٍ لِأَنَّهُ مِنْ غَيْرِ شَكِّ كَانَ يَعُدُّ الْعَمَلَ فِي مُقَدِّمَةِ تِلْكَ الْمَتَاعِ . أَمَّا السَّيْرُ «جون لوبوك» فَإِنَّهُ يَسْتَشْنِي مِنْهَا الْعَمَلَ بِلُطْفٍ وَصَدْرٍ رَحِيبٍ حَيْثُ

يَقُولُ بِالطَّبَعِ ، لِأَنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ عِنْدَهُ . وَفِي اعْتِقَادِي أَنَّ قُرَائِي
لَنْ يُوَافِقُوهُ ، كَمَا أَنِّي أَشْهَدُ عَلَى نَفْسِي أَنِّي مِنْ صَفْهِمٍ . وَلَا غَرَابَةَ فَإِنِّي
أَقِيمُ هَذِهِ الدَّعْوَى عَلَى نَفْسِي كَمَا أَقِيمُهَا عَلَى قَوْمِي . ثُمَّ تَرَقَّى السَّيْرُ
جُونَ لُوبُوكَ فِي فِكْرِهِ فَقَالَ : (إِنَّ الْعَمَلَ ، وَإِنْ شَقَّ ، مَنبَعُ مَنَابِعِ
السَّعَادَةِ مَتَى ابْتَعَدَ الْمَرْءُ فِيهِ عَنِ حَدَيِّ التَّفْرِيطِ وَالْإِفْرَاطِ . فَكُنَّا
يَعْلَمُ كَيْفَ أَنَّ الزَّمَانَ يَمُرُّ سَرِيعًا عَلَى الْإِنْسَانِ الْمُشْتَغَلِ ، وَأَنَّ الْأَوْقَاتَ
تَثْقُلُ عَلَى الْكُسَالَى ، ثُمَّ الْأَشْتَغَالُ يُذْهِبُ الْبَهْمَ وَيُسْرِى (١) أَحْزَانَ
الْعَيْشَةِ الْيَوْمِيَّةِ ، وَلَا يَجِدُ الْمُشْتَغَلُ مِنْ زَمَانِهِ وَقْتًا يَقْتُلُهُ فِي التَّخِيلِ
أَوْ الْإِضْطِرَابِ ، وَنَحْنُ مُعَاشِرَ الْإِنْكَلِيزِ إِنَّمَا نَجْعُنَا وَصِرْنَا أُمَّةً
حَيَّةً نَامِيَةً لِأَنَّنا قَوْمٌ نُحِبُّ الشُّغْلَ وَنَهْوَى الْعَمَلَ) .

وَقَدْ مَدَحَ عُلَمَاءُ الْأَخْلَاقِ عِنْدَنَا الْعَمَلَ وَاجْتَهَدَ أَسَاتِذَةُ
الْمَدَارِسِ فِي غَرْسِ مَحَبَّتِهِ فِي قُلُوبِ الْأَطْفَالِ ، وَلَكِنَّا نَمْدَحُهُ
وَنُوصِي بِهِ وَنُعَلِّمُ مَحَبَّتَهُ بِاعْتِبَارِهِ أَحَدَ الْوَاجِبَاتِ وَكَانَهُ ضَرُورَةً
لَا مَفْرَ مِنْهَا فَوَجَبَ الْخُضُوعُ لِحُكْمِهَا وَحَمْلُ النَّفْسِ عَلَى
الْقِيَامِ بِمَا اقْتَضَتْهُ أَمَا عِنْدَهُمْ فَصِيعَةُ الْكَلَامِ غَيْرَ ذَلِكَ فَهُمْ
إِنَّمَا يُشِيرُونَ إِلَى أَنَّ الْأَمْرَ يَجْرِي كَذَلِكَ فِي الْعَالَمِ بِطَبِيعَةِ
الْحَالِ وَلَا يَعْدُونَ الْعَمَلَ مُتَعَبًا بَلْ يَقُولُونَ إِنَّهُ (مَنبَعٌ مِنْ

مَتَابِعِ السَّعَادَةِ) ، وَمَا مِنْ أَحَدٍ يُخَالِفُ قَوْلَهُمْ أَحَتَّى إِنِّي سَأَلْتُ
فَتَاةً مِنَ الْإِنْكَلِيزِ فَوَجَدْتَهَا عَلَى رَأْيِ السَّيْرِ جُونَ لُوبُوكِ تَرَى
الرَّاحَةَ فِي الْعَمَلِ وَالْكَدَّ وَالتَّغْلُبَ عَلَى الصُّعُوبَةِ وَتَقُولُ: إِنَّ كُلَّ
النَّاسِ فِي بِلَدِهَا عَلَى رَأْيِهَا وَكُنْتُ فِي أَثْنَاءِ كَلَامِهَا أَظْهَرُ الْإِسْتِنْكَارَ
فَقَالَتْ: وَلَا بَدَّ لِلْإِنْكَلِيزِيِّ مِنْ عَمَلٍ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ مِنْ
الْأَشْغَالِ الْإِعْتِيَادِيَّةِ مَا يَعْمَلُ فِيهِ عَمَدًا إِلَى التَّجْدِيفِ فِي النَّهْرِ
أَوْ إِلَى لَعِبِ الْكُرَّةِ وَالرِّيَاضَةِ الْجَسْمِيَّةِ أَوْ قَصْدَ قِمَّةِ جَبَلٍ شَاهِقٍ
يَصِلُ إِلَيْهَا، وَلَوْ كَانَ فِي الْأَمْرِ خَطَرٌ تَلَدَّذَ بِاجْتِيَازِ صَعْبٍ مِنْ
الصُّعَابِ. وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ الْإِنْكَلِيزِ لَا يَنْظُرُونَ إِلَى الشُّغْلِ بِهَذِهِ
الْعَيْنِ الرِّيَاضِيَّةِ إِلَّا لِأَنَّهُمْ مُتَعَوِّدُونَ أَحَتَّى صَارَ فِي جِبَلَتِهِمْ أَمْرًا
مَقْضِيًّا. قَالَ مُوسِيو جُونَ لُوبُوكِ: (وَقَدْ شَاهَدْتُ أَحَدَ السِّيَاحِ الشَّرْقِيِّينَ
جَمَاعَةً فِي أَوْرُبَا يَلْعَبُونَ لِعِبَّةٍ شَاقَّةً وَرَأَى بَيْنَهُمْ كَثِيرًا مِنْ
الْأَغْنِيَاءِ فَعَجِبَ وَسَأَلَ: لِمَ لَا يَسْتَعْمِلُونَ غَيْرَهُمْ فِيمَا شَقَّ مِنْ هَذِهِ
اللَّعْبَةِ بِأَجْرَةٍ يَدْفَعُونَهَا؟) وَالسَّائِلُ إِنَّمَا جَرَى فِي سُؤَالِهِ عَلَى
حَسَبِ تَرَبُّتِهِ لِأَنَّ الْأُمَمَ الْآتِيَّةَ كَالْيَوْمِ لَا تَنْظُرُ إِلَى الْعَمَلِ إِلَّا مِنْ جِهَةِ
كَوْنِهِ أَمْرًا مُتَعَبًا. وَقَدْ جَاءَ فِي الْمَثَلِ التُّرْكِيِّ (أَوْلَى لِلْمَرْءِ أَنْ يَكُونَ
جَالِسًا مِنْ أَنْ يَكُونَ قَائِمًا، وَأَنْ يَكُونَ نَائِمًا مِنْ أَنْ يَكُونَ
جَالِسًا، وَأَنْ يَمُوتَ مِنْ أَنْ يَكُونَ نَائِمًا) وَمَعْلُومٌ أَنَّ تِلْكَ الْأَمَانِيَّ

بَعِيدَةُ الْمَنَالِ. لِذَلِكَ كَانَتْ الْأَمَمُ الَّتِي تَوَدَّهَا أَعْسَ الْأَمَمِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهِيَ لِذَلِكَ أَشَدُّهَا حُزْنًا وَكَدْرًا. أَمَّا الْأَمَمُ الَّتِي تَعْتَقِدُ أَنَّ الْأَوْلَى لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَكُونَ قَائِمًا مِنْ أَنْ يَكُونَ جَالِسًا فَهِيَ بِالطَّبَعِ أَوْفَرُ حُظًّا وَأَوْفَى سَعَادَةً، إِذْ يَلْزِمُ الْفَوْزَ فِي الدُّنْيَا أَلَّا يَجْلِسَ الْمَرْءُ مَا اسْتَطَاعَ إِلَى الْوُقُوفِ سَبِيلًا .

لَكِنْ لَيْسَ مِنَ السَّهْلِ إِدْخَالَ هَذِهِ الرُّوحِ فِي الْأَذْهَانِ فَلَا يَكْفِي ذَلِكَ أَنْ يُنَادَى عَلَى مَنَابِرِ الْخُطَابَةِ أَوْ فِي الْمَدَارِسِ بِأَنَّ السَّعَادَةَ فِي الْعَمَلِ لِأَنَّ هَذِهِ الصَّيْغَةَ بِهَذَا التَّرْكِيبِ (السَّعَادَةُ فِي الْعَمَلِ) غَيْرُ صَاحِحَةٍ حَتَّى عِنْدَ الَّذِينَ يَنْطِقُونَ بِهَا وَلَا يَعْمَلُونَ بِهَا إِلَّا قَلِيلًا ، وَلَوْ كَانَتْ صَاحِحَةً لَأَصْبَحَ النَّاسُ أَجْمَعُونَ لَا تَنْثِي لَهُمْ عَزِيمَةً عَنِ الْعَمَلِ أَبَدًا ، إِذْ مَا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَهُوَ يُحِبُّ السَّعَادَةَ حُبًّا كَثِيرًا . وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ مُعْظَمَ الْبَشَرِ لَا يَجِدُ السَّعَادَةَ فِي الْعَمَلِ .

وَالْوَاقِعُ أَنَّ السَّعَادَةَ لَيْسَتْ فِي الْعَمَلِ بَلْ هِيَ فِي الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ . وَفَرَقُ بَيْنَ الْحَالَتَيْنِ . فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقْرَأُونَ : لَيْتَنَّا نُحِبُّ الْعَمَلَ وَلَكِنَّهُمْ لَا يُحِبُّونَهُ ، وَلَنْ يُحِبُّوهُ مَعَ مَا يَقْرَأُونَ فِي كُتُبِ الْأَخْلَاقِ مِنَ الْحُضِّ عَلَيْهِ وَالنَّصْحِ بِهِ وَمَعَ مَا جَاءَتْ بِهِ الْفَلَسَفَةُ وَأَمَرَ بِهِ الدِّينُ مِنْ وُجُوبِهِ وَإِسْنَادِ النَّجَاحِ إِلَيْهِ . وَلَنْ يَصِلَ الْمَرْءُ إِلَى اجْتِيَازِ هَذِهِ الْعُقْبَةِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَكُونَ مِنْ وَسَطِ تَعَوُّدِ

حُبَّ الْعَمَلِ زَمَانًا طَوِيلًا . وَذَلِكَ يَقْتَضِي أَنَّ الْأَبْوِينَ لَا يَرِيَانُ
 مِنْ وَاجِبِهِمَا بِالنَّظَرِ إِلَى أَبْنَاهُمَا إِلَّا تَرْبِيَتَهُمْ تَرْبِيَةً صَحِيحَةً .
 وَأَنَّ الْأَبْنَاءَ يَرُونَ أَنَّ لَا مَلْجَأَ لَهُمْ فِي الْحَيَاةِ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ .
 وَأَنَّ الزَّوْجَةَ إِنَّمَا يَقْصِدُ بِهَا الرَّفِيقُ لِأَمَلِ الْكَثِيرِ . وَأَنَّ الْحُكُومَةَ
 لَا تَأْخُذُ مِنَ السُّلْطَةِ إِلَّا مَا احتَاجَتْ إِلَيْهِ . وَلَا تَتَوَسَّعُ فِي الْوُضَائِفِ
 إِلَّا بِقَدْرِ الضَّرُورَةِ لِتَشْجَعِ النَّاسَ بِذَلِكَ عَلَى اعْتِنَاقِ الْحِرْفِ وَالِاشْتِغَالِ
 بِالصَّنَاعَاتِ الَّتِي تَقْتَضِي الْعَمَلَ وَتَسْتَلْزِمُ الْجُهْدَ وَتَطْلُبُ الْهَمَمَ
 الذَّائِبَةَ .

وَبِالِاخْتِصَارِ يَنْبَغِي أَنْ يَقْلَّ اعْتِبَارُ الْمُوظَّفِ وَالسِّيَاسِيِّ وَالْبَطَالِ
 الَّذِي لَا عَمَلَ لَهُ عَنِ اعْتِبَارِ الزَّرَّاعِ وَذَوِي الصَّنَاعَةِ وَالتَّاجِرِ ، وَظَاهِرٌ
 أَنَّ ذَلِكَ كَأَنَّهُ لَيْسَ بِالْأَمْرِ الْبَسِيطِ غَيْرَ أَنَّهُ كُلُّهُ لَازِمٌ فِي تَحْصِيلِ
 السَّعَادَةِ لِلنَّاسِ وَكُلُّهُ لَازِمٌ فِي اسْتِمَالَةِ الرَّجُلِ إِلَى الْعَمَلِ أَوَّلًا وَغَرَسِ
 مَحَبَّتِهِ فِي قَلْبِهِ ثَانِيًا .

وَمَهْمَا بَحَثْنَا عَنْ حَلِّ صَحِيحٍ لِلْمَسْأَلَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ لَا نَجِدُ إِلَّا هَذَا .

لفصل السائر

﴿ فِي ضَعْفِ الْمُؤْتَرِ الْأَدْبِيِّ ﴾

« وَفِي أَمَارَاتِ نُهْوِضِ الْهَيْئَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ »

ظَهَرَ فِي هَذِهِ الْأَوْقَاتِ فَرِيقٌ مِّنَ النَّاسِ يَطْلُبُ مِنْ عِلْمِ الْأَخْلَاقِ
الْأَخَذَ بِنَاصِرِ بَنِي الْإِنْسَانِ لِلنُّهُوضِ مِمَّا آلَوْا إِلَيْهِ مِنَ الْإِنْحِطَاطِ
وَيَسْعَى وَرَاءَ « تَطْمِينِ السَّرَائِرِ وَتَهْدِيَةِ الضَّمَائِرِ بِمَعِيشَةٍ أَحْسَنَ وَأَرْضَى »
كَمَا هُوَ اللَّفْظُ الَّذِي اصْطَلَحُوا عَلَيْهِ وَيَقُولُونَ: إِنَّ الطَّرِيقَ إِلَى غَرَضِهِمْ
هَذَا هُوَ تَرْبِيَةُ الْإِنْسَانِ عَلَى تَحْمِلِ الْحِرْمَانِ وَمَحَبَّةِ الْغَيْرِ وَإِنَّ حَالَةَ
النَّاسِ الَّتِي هُمْ فِيهَا الْيَوْمَ لَيْسَتْ « مُسَبَّبَةً عَنْ أَحْوَالِهِمِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ
أَوْ السِّيَاسِيَّةِ » بَلْ « مَرْجِعُهَا إِلَى الْأَخْلَاقِ وَالِدِّينِ ». وَمِنْ هُنَا
كَانَ أَنْجَحُ الْوَسَائِلِ فِي تَغْيِيرِ تِلْكَ الْحَالَةِ هُوَ أَنْ يَبْدَأَ كُلُّ وَاحِدٍ
بِتَغْيِيرِ نَفْسِهِ وَأَنْ يُوَلِّدَ مِنْ جَدِيدٍ « كَمَا هُوَ قَوْلُهُمْ وَقَوْلُ إِنْجِيلِ
يُوحَنَّا: وَإِنَّ « أَوَّلَ عَمَلٍ يَدْخُلُ بِهِ الْمَرْءُ بَابَ هَذَا الْإِصْلَاحِ هُوَ
الْعَزْمُ عَلَى تَرْكِ مَحَبَّةِ الذَّاتِ وَالْخُضُوعِ إِلَى التَّعَالِيمِ الْمَأْثُورَةِ ». .
وَبِالْجُمْلَةِ يُرِيدُ أَوْلِيَاءُ الْقَوْمِ لِإِصْلَاحِ حَالِ الْبَشَرِ أَنْ يُعِيدُوا « زَمَانَ
الْأَخْيَارِ أَهْلَ التَّحْقِيقِ وَالْأَبْرَارِ » وَيَقُولُونَ إِنَّ مِنْهُمْ مَنْ هُوَ الْآنَ
يَبْنَانَا « وَلَكِنَّهَا الْيَنَابِيعُ الرَّائِقَةُ وَالْعُمُيُونَ الصَّافِيَةُ تَذَهَبُ سُدًى.

وَاحِدًا فَوَاحِدًا فِي الْأَرَاذِي الْمَجْدِبَةِ وَالرَّمَالِ الْمُتْرَبَةِ وَالنَّاسِ لَاهُونَ
فَيْتْرُ كُونَهَا تَضْيَعٌ وَلَا يَسْتَقُونَ مِنْهَا، وَمَنْ اسْتَقَى فَقَلِيلٌ غَيْرُ ظَاهِرٍ «
ثُمَّ يَشِيرُونَ بِالْحَافِظَةِ عَلَى تِلْكَ الْإِنْيَاعِ وَالْإِكْثَارِ مِنْهَا.

وَهُمْ مَعَ هَذَا يَتَبَرَّءُونَ مِنَ الْمَيْلِ إِلَى إِجْحَادِ دِينِ جَدِيدٍ أَوْ إِضَافَةِ
شَيْعَةٍ عَلَى الَّتِي وُجِدَتْ مِنْ قَبْلُ وَيُنَادُونَ بِأَنَّهُ « لَيْسَ مِنَ الْغَرَضِ
بِنَاءِ مَرَسَى جَدِيدٍ تَرْسُو إِلَيْهِ الْأُرُوحُ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ إِطْلَاقُ الْإِنْبُوعِ
فِي الْمَرَايِسِ الْمَوْجُودَةِ لِيَمْلَأَهَا الْمَاءُ فَتَتَّصِلَ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ ».

وَالْوَاقِعُ أَنَّهُمْ لَا يَأْتُونَ بِدِينِ جَدِيدٍ لِأَنَّهُمْ لَا يَقُولُونَ بِمَذْهَبٍ
مَخْصُوصٍ، بَلْ تِلْكَ فِكْرَةٌ دِينِيَّةٌ أَيْ مَيْلٌ دِينِيٌّ مَخْصُوصُ الْغَرَضِ
مِنْهُ مَقَاوِمَةٌ مَذْهَبِ الْمَادِّيِّينَ وَأَهْلِ الْيَأْسِ. لِذَلِكَ مَدُّوا أَيْدِيَهُمْ
إِلَى جَمِيعِ الطَّوَائِفِ وَالتَّحَلِّ الْمَسِيحِيَّةِ وَغَيْرِهَا مِمَّنْ يَشْعُرُونَ
بِحَاجَتِهِمْ إِلَى مُسَاعِدِ أَجْنَبِيٍّ فِي مُحَارَبَةِ الشَّهَوَاتِ وَالتَّغْلِبِ عَلَى
الْأَهْوَاءِ جَاءَ فِي كِتَابِهِمُ الْمُسَمَّى « عَقْلَنَا »: « إِنَّا وَإِنْ اُعْتَبَرْنَا جَمِيعَ
التَّابِعِينَ لِلْكَنَائِسِ عَلَى اخْتِلَافِهَا مِنْ الْمُسَاعِدِينَ الْمَحْبُوبِينَ لَدَيْنَا،
نَرَى أَيْضًا فِي الْمَذْشَقِينَ أَوْ الْمُتَفَرِّقِينَ أَبْنَاءَ لَنَا لِأَنَّهُمْ فِي عَزَلَةٍ شَدِيدَةٍ «
أَعْنَى أَنَّهُمْ يَدْعُونَ إِلَيْهِمْ كُلَّ مَنْ أَلَمَتْهُ الْحَيَاةُ أَدِيًّا وَمَادِيًّا حَتَّى
يَكُونُوا هَيْئَةً جَدِيدَةً أَسَاسُهَا تَضْحِيَّةُ الْمَنْفَعَةِ الدَّائِيَّةِ وَتَرْكُ مَحَبَّةِ
الذَّاتِ وَإِمَاتَةِ الشَّهَوَاتِ وَإِغْفَالِ الْمِيُولِ الشَّخْصِيَّةِ وَمَحَبَّةِ الْغَيْرِ

وَيَقُولُونَ: «إِنَّ الْإِنْسَانَ يُوَثِّرُ بِإِرَادَتِهِ فِي نُفُوسِ الْغَيْرِ بِمُجَرَّدِ إِقْدَامِهِ
بِشَجَاعَتِهِ عَلَى الْعَيْشَةِ الرَّوْحَانِيَّةِ» .

لَكِنَّ هَلْ تَضْحِيحَةُ الذَّاتِيَّاتِ ، وَتَذَلِيلُ النَّفْسِ ، وَحُبُّ الْغَيْرِ
وَهِيَ الَّتِي يَجْمَعُهَا قَوْلُهُمْ «الموثر الأدي» تُوَدِّي ، كما يُؤْ كَدُونَ لُزُومًا ،
إِلَى رَفَعِ شَأْنِ الْعَالَمِ الْإِنْسَانِيِّ وَإِيجَادِ النَّظَامِ الْاجْتِمَاعِيِّ الْمَطْلُوبِ .

هَذَا هُوَ مَحَلُّ الْبَحْثِ وَمَوْضِعُ النَّظَرِ ، وَأَنَا أَجْهَرُ بِمُخَالَفَتِهِمْ
وَأَقُولُ بِأَنَّ الْمُوَثِّرَ الْأَدَبِيَّ مَهْمًا عَظِيمًا فِعْلُهُ لَا يَكْفِي لِلْقِيَامِ بِحَاجَةِ الْهَيْئَةِ
الاجتماعية ، وَلَا أَبَالِي إِذَا أَخَجَلْتَهُمْ بِشُدُوزِي عَنْهُمْ وَأَخَجَلْتُ مَعَهُمْ
قَوْمًا آخَرِينَ . عَلَى أَنِّي لَسْتُ مِنَ الْيَائِسِينَ الَّذِينَ خَرَجُوا عَنْ جَمِيعِ
الْأَدْيَانِ ، وَلَكِنِّي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ التَّابِعِينَ لِمَذْهَبِ مُقَرَّرِي الدِّينِ
وَلِي كَنَيْسَةٌ أُرْكَنُ إِلَيْهَا ، فَقَوْلِي هَذَا لَيْسَ نَاشِئًا عَنْ بُغْضٍ أَوْ
مُجَافَاةٍ ، بَلِ الْعِلْمُ هُوَ الَّذِي أَمْلَأُهُ عَلَى . وَإِذَا أَرَدْتُمْ أَيُّهَا الْقُرَّاءُ
فَابْحَثُوا مَعِيَ فِيهِ :

لَنَا فِي الْبَحْثِ طَرِيقٌ سَهْلٌ حَقِيقِيٌّ ، وَهُوَ أَنْ تَقْيَسَ مُرَادَهُمْ فِي
الْمُسْتَقْبَلِ بِمَا كَانَ فِي الْمَاضِي . وَقَدْ نَبَعَ فِي بَعْضِ الْأَزْمَانِ الْمَاضِيَةِ
رِجَالٌ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ الْبَرَّةِ الْأَخْيَارِ اعْتَقَدَ النَّاسُ بِحَقِّ فِيهِمْ أَنَّهُمْ
بَلَّغُوا مِنْ كَمَالِ الصِّفَاتِ وَتَهْدِيبِ الْأَخْلَاقِ حَدَّ الْإِعْجَازِ ،
وَبَرَّهْنُوا عَلَى تَضْحِيحَةِ الذَّاتِيَّاتِ وَرَدِّ جَمَاحِ الشَّهَوَاتِ ، وَحُبِّ الْغَيْرِ

أَيُّ بُرْهَانٍ . وَلَاشَكَّ فِي أَنَّ أَصْحَابَنَا يَرْضُونَ كَمَالَ الرَّضَى ،
وَيُصْبِحُونَ آمِنِينَ عَلَى صَلَاحِ النَّوعِ الْبَشَرِيِّ إِذَا تَيْسَّرَ الْعَوْدُ إِلَى مِثْلِ
تِلْكَ الْأَوْقَاتِ ، وَظُهُورُ مِثْلِ أَوْلِيكَ الْأَقْطَابِ وَرُجُوعُ ذَلِكَ الْيَنْبُوعِ
إِلَى مَجَارِيهِ .

وَلَنَنْظُرُ مَاذَا تَتَّجِعُ عَنْ ذَلِكَ فِي الْأَيَّامِ الْأُولَى لِظُهُورِ الدِّينِ
الْمَسِيحِيِّ ؟ جَرَى ذَلِكَ الْيَنْبُوعُ وَفَاضَ حَتَّى فَارَ الْمَاءُ وَاسْتَوَى عَلَى
جَانِبَيْهِ ، وَكَانَ بِجَانِبِهِ أَيْضًا يَنْبُوعٌ آخَرٌ يُسَاعِدُهُ مَاؤُهُ يَتَكَوَّنُ
مِنْ دِمَاءِ الْوُفِّ الْمُسْتَقْتَلِينَ حُبًّا فِي ذَلِكَ الدِّينِ وَأَهْلِهِ ، فَمَا أَزْهَرَتْ
رِيَاضُ الْأَوْلِيَاءِ فِي زَمَنِ أَكْثَرَ مِنْ تِلْكَ الْأَزْمَانِ وَمَا بَلَغَ الْإِنْسَانُ
فِي الْأَدَبِ وَالْكَمَالِ دَرَجَةَ أَعْلَى مِنْ الَّتِي بَلَغَهَا فِيهَا ، وَمَعَ هَذَا يَحَالُ
لِي أَنَّ النَّاسَ لَمْ يَنْحَطُّوا إِلَى دَرْكٍ^(١) أَسْفَلَ مِمَّا هَبَطُوا إِلَيْهِ فِي تِلْكَ
الْأَيَّامِ بِذَاتِهَا . زَمَانٌ كَانَ الْحُكْمُ فِيهِ مُحْكَمَ الْقِيَاصِرَةِ ، أَعْنِي أَنَّ
مُحْكُومَتَهُ كَانَتْ أَرْدَا الْحُكُومَاتِ الَّتِي تَوَلَّتْ زِمَامَ النَّاسِ فِي جَمِيعِ
الْأَزْمَانِ وَأَفْظَعَهَا ، وَهِيَ الَّتِي سَبَقَتْ غَيْرَهَا فِي أَسَالِبِ الْمَظَالِمِ وَأَفَانِينِ
الْمَغَارِمِ ، وَلَيْسَ لِمَا اسْتَوَى عَلَى الْإِنْسَانِ مِنَ الذُّلِّ وَالْهَوَانِ وَالْخَسْفِ
وَالْحِرْمَانِ وَفَسَادِ التَّرْبِيَةِ الْعَامَّةِ وَسُوءِ التَّرْبِيَةِ الْخَاصَّةِ إِذْ ذَلِكَ
نَظِيرٌ لِأَشْدُّ وَذَا . قَالَ الْقَسُّ «مَلْفِيَان» : لَسْنَا نَجِدُ مِثْلَ تِلْكَ الْمَظَالِمِ

(١). واحد الدركات يسكن ويحرك

فِي جَمِيعِ الْأُمَمِ إِلَّا عِنْدَ الرُّومَانِيِّينَ ، فَمَا بَلَغَ الْفِرَانُكَ مِنْ الشَّرِّ هَذَا الْمَبْلَغَ وَمَا عَرَفَ « الْهُونِس » وَأُمَّهُ « الْفَنْدَال » وَ « الْجُوط » مِثْلَ هَاتِيكَ الْفَطَائِعِ وَالْآثَامِ ، بَلْ إِنْ الرُّومَانِيِّينَ أَنْفُسَهُمُ الَّذِينَ يَعِيشُونَ بَيْنَ الْمُتَبَرِّينَ لَا يُطِيقُونَ تِلْكَ الْفِعَالِ ، وَلَا يَتَمَنَّوْنَ إِلَّا أَنَّهُمْ لَا يَعُودُونَ إِلَى مُحْكَمِ الرُّومَانِ مَرَّةً أُخْرَى . وَهَذَا هُوَ السَّبَبُ فِي أَنَّ إِخْوَانَنَا هَجَرُوا الْأَوْطَانَ وَفَضَلُوا الْإِقَامَةَ بَيْنَ الْمُتَبَرِّينَ ، وَمَنْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى الرَّحِيلِ لِكثْرَةِ عَائِلَتِهِ أَوْ ثَقَلِ يَدَيْهِ لَمْ يَرِ بُدًّا فِي الْحَيَاةِ مِنَ الْإِتِّجَاءِ إِلَى الْأَغْنِيَاءِ ، فَاسْأَمُوا أَنْفُسَهُمْ إِلَيْهِمْ . وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَحْمِهِمُ الْمُوسِرُونَ مِنْ ظُلْمِ الظَّالِمِينَ ، بَلْ زَادُوهُمْ بِلَاءً وَشَقَاءً .»

وَهَذَا الشَّقَاءُ قَدِيمٌ تَكَلَّمَ عَنْهُ « لَا كِتَانِس » فَقَالَ : « مُسِحَّتِ الْأَطْيَانُ حَتَّى قَبِسَتْ الذَّرَاتُ مِنْهَا ، وَجَرَى تَعْدَادُ قَوَائِمِ مُكْعَبَاتِ الْكُرُومِ وَأَصُولِ الْأَشْجَارِ ، وَسُجِلَّتْ أَنْوَاعُ الْحَيَوَانَاتِ عَلَى اخْتِلَافِهَا فِي الدَّفَاتِرِ وَالْأَوْرَاقِ وَلَمْ تَغِبْ نَفْسٌ وَاحِدَةٌ عَنِ الْحَاسِبِينَ وَقَدْ حُشِدَتْ الْخَلَائِقُ فِي الْمُدُنِ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ وَسَارَتْ قَوَائِلُ الرِّقِيقِ تَعْدُو وَتَرُوحُ فِي الْخَلَاءِ وَسُمِعَتْ أَصْوَاتُ السَّيَاطِ وَضَرَبَاتُ التَّعْذِيبِ صَاعِدَةً مِنْ كُلِّ جِهَةٍ وَمَكَانٍ ، وَكَانَ الرَّجُلُ يَدْفَعُ الضَّرَائِبَ عَنْ أَرْضِهِ لَا يَمْلِكُهَا وَلَا هِيَ فِي يَدِهِ حَتَّى

الْعَجْزَةُ حَتَّى الْمَرْضَى حَتَّى الْأَمْوَاتُ سُجِّلُوا فِي دَفَاتِرِ الصِّيَارِفِ
وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْجِزْيَةُ أَى عَلَى الْأَحْيَاءِ مِنْ أَجْلِهِمْ.»

وَلَمْ تُتْرَكْ تِلْكَ الْمَظَالِمُ بِغَيْرِ طَعْنٍ وَلَا تَنْدِيدٍ، بَلْ قَامَ
الْأُلُوفُ مِنَ الْقُسُوسِ وَالرُّهْبَانِ وَالْأَوْلِيَاءِ لِنُصْرَةِ الْمَظْلُومِ وَرَفْعُوا
أَصْوَاتَهُمْ بِالتَّنْدِيدِ عَلَى الْمُعْتَدِينَ وَجَعَلُوا يَعْظُونَ النَّاسَ بِاتِّبَاعِ
أَسْلَمِ الْمَسَالِكِ وَكَانُوا لَهُمْ فِي ذَلِكَ قُدْوَةً حَسَنَةً وَلَكِنَّ الْإِنْحِطَاطَ
اسْتَمَرَّ فِي هُبُوطِهِ وَسَارَ سَيْرًا حَثِيثًا وَلَمْ تُجِدِ الْأَقْوَالُ وَلَا
نَجَحَتِ التَّعَالِيمُ وَلَمْ يَقِفِ الدَّمَارُ بُرْهَةً وَاحِدَةً مِنَ الزَّمَانِ بَلْ
ظَلَّ يَتَقَدَّمُ حَتَّى اسْتَحْكَمَ الْفُشْلُ وَتَمَّ التَّمَرُّقُ وَالْإِنْجِلَالُ !!

هُنَالِكَ أَقْبَلَ الْمُتَبَرِّرُونَ وَأَتَوْا بِتِلْكَ الْمُعْجِزَاتِ الَّتِي عَجَزَ
عَنْهَا أَوْلِيَاكَ الْأَفْضِلُ وَالْأَوْلِيَاءُ بِسُهُولَةٍ لَا مَزِيدَ عَلَيْهَا وَمِنْ
دُونِ أَنْ يَلْتَفِتُوا إِلَى مَا يَصْنَعُونَ، وَرَغْمًا مِنْ تَوْحُشِهِمْ وَمَعَايِبِهِمْ
وَمَا ارْتَكَبُوا مِنَ الْجَرَائِمِ وَالْآثَامِ فَبَرَزَتْ مِنْ بَيْنِهِمُ الْأُمَّمُ
الْحَاضِرَةُ الَّتِي تُخَالِفُ الْأُمَّمَ الْغَائِبَةَ كُلَّ الْمُخَالَفَةِ وَتَفُوقُهَا مِنْ
جِهَةِ الْأَخْلَاقِ وَالْأَحْوَالِ الْإِجْتِمَاعِيَّةِ.

رُبَّمَا يُعْتَرَضُ بِأَنَّ الْمُتَبَرِّرِينَ إِنَّمَا نَجَحُوا فِي تَغْيِيرِ الْأَحْوَالِ
الْإِجْتِمَاعِيَّةِ لِأَنَّهُمْ نَشَرُوا فِي الْأُمَّةِ الرُّومَانِيَّةِ بَسَاطَتَهُمْ فِي الْمَعِيشَةِ
بِوَالِيَتِهِمْ كَانُوا أَقَلَّ فَسَادًا فِي الْأَخْلَاقِ لِقِلَّةِ الْمَالِ عِنْدَهُمْ، إِلَّا أَنَّ

هَذَا الْإِعْتِرَاضَ يَسْقُطُ إِذَا لُوْحِظَ أَنَّ الْأُمَّمَ الْمُتَبَرِّبِرَةَ لَيْسَتْ
 كُلُّهَا هِيَ الَّتِي اخْتَلَّتِ الْبِلَادَ، وَأَنَّ الَّذِينَ جَاءُوا مِنْهَا إِلَيْهَا لَمْ يَكُونُوا
 مِنْ أَبْسَطِهِمْ مَعِيشَةً وَأَقْلَهُمْ مَالاً « رَاجِعْ فِي شَرْحِ هَذَا الدَّلِيلِ
 مَا كَتَبَهُ مُوسِيو دى نَورِفِيل » فِي مَجَلَّةِ الْعِلْمِ الْإِجْتِمَاعِيِّ تَحْتَ
 عُنْوَانِ « تَارِيخُ النِّشْأَةِ الْإِسْتِقْلَالِيَّةِ » .

عَلَى أَنَّنِي لَا أَنْسُبُ نَجَاحَ الْمُتَبَرِّبِرِينَ إِلَى تَوْحُّشِهِمْ وَرَذَائِلِهِمْ
 وَجَرَائِمِهِمْ، وَسَابِقِينَ فِيمَا بَعْدُ سَبَبَ هَذَا التَّحَوُّلِ وَأَكْتَفَى الْآنَ
 بَيِّانَ أَنَّهُمْ قَامُوا بِمَا عَجَزَ عَنْهُ غَيْرُهُمْ وَأَنَّ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى
 أَنَّهُمْ كَانُوا يَحْمِلُونَ مَعَهُمْ رُوحًا أَشَدَّ بَأْسًا وَأَكْبَرَ قُوَّةً مِنْ
 فِعْلِ الْمُؤَثِّرِ الْأَدَبِيِّ .

وَلَنَأْتِي فِي إِرْتِنَادِهِ مِثَالُ آخَرَ عَلَى ضَعْفِ ذَلِكَ الْمُؤَثِّرِ الْأَدَبِيِّ، فَقَدْ
 سُمِّيَتْ تِلْكَ الْجَزِيرَةُ فِي الْقَرْنِ السَّادِسِ بِجَزِيرَةِ الْأَوْلِيَاءِ وَالْقَدِيسِينَ
 وَكَانَتْ مَشْحُونَةً بِالْمَعَابِدِ وَالْأَذْيِرَةِ وَمِنْهَا ذَهَبَ الْمُرْسَلُونَ لِشَرِّ
 الدِّينِ الْمَسِيحِيِّ فِي الْأُمَّمِ الْجَرْمَانِيَّةِ، وَكَانَ فِي إِسْكَانِ جَمْعِيَّةِ الْأَخْلَاقِ
 أَنْ تَجِدَ فِيهِمْ أَنْصَارًا بِقَدَرٍ مَا تُرِيدُ لِأَنَّ كُلَّ النَّاسِ فِي جَمِيعِ
 الْأَقْطَارِ كَانُوا مُشْتَغِلِينَ بِتِلْكَ « الْحَيَاةِ الْحَقِيقِيَّةِ »، وَكَانَتْ تِلْكَ
 الْبِلَادُ غَاصَةً بِالرِّجَالِ الَّذِينَ اتَّصَفُوا بِمَا تَسْعَى إِلَيْهِ مِنَ الْأَخْلَاقِ
 كَحُبِّ الْخَيْرِ وَالْعَقْلِ وَالتَّقَى وَمَا كَانَ اعْتِقَادُهُمْ كَسَارِ الْقَشِّ لَا تَكَادُ

تَوْقِدُ حَتَّى تَصِيرَ رَمَادًا بَلْبُ هُوَ اعْتِقَادُ مَتِينٍ لِأَنَّ إِرْلَنْدَهُ لَا تَزَالُ إِلَى
 الْيَوْمِ مَهْدَ الْعَحِمَةِ الدِّينِيَّةِ . وَكَانَ مِنَ اللَّازِمِ أَنْ هَذِهِ الْحَيَاةُ
 الْأَدْبِيَّةُ تُوجِدُ فِي تِلْكَ الْأُمَّةِ حَالَةَ اجْتِمَاعٍ مِنْ أَحْسَنِ الْحَالَاتِ
 وَأَكْثَرَهَا دَوَامًا وَأَرْضَاهَا ، وَلَكِنَّهَا لِسُوءِ الْحِظِّ مَا جَنَّتْ إِلَّا
 دَوَامَ التَّقَهُّرِ وَكَانَ مَبْدَأُ ظُهُورِهِ وَهِيَ فِي أَشَدِّ حَالَاتِهَا تَمَسُّكَ
 بِتِلْكَ الْأَخْلَاقِ وَلَا تَزَالُ هَاوِيَةً حَتَّى الْآنَ .

وَهُنَا أَيْضًا لَا أَنْسَبُ تَأَخَّرُهَا إِلَى نُمُوِّ الْأَخْلَاقِ وَالدِّينِ فِيهَا
 لِأَنِّي أَقْبُ بِذَلِكَ فِيمَا وَقَعُوا فِيهِ مِنَ الْخَطَا إِذْ قَالُوا إِنَّ بَيْنَ حَرَكَتِ
 الْأَخْلَاقِ وَحَرَكَتِ الْأُمَّمِ نِسْبَةٌ كَمَا بَيْنَ الْعِلَّةِ وَالْمَعْلُولِ وَهُوَ خَطَأٌ أَنَا
 أَجْتَهِدُ فِي نَفْيِهِ وَالتَّحْذِيرِ مِنْهُ ، وَسَأْفِي هَذَا الْمَقَامَ حَقَّهُ لِأَنَّهُ مِفْتَاحُ
 الْمَوْضُوعِ الَّذِي أَبْحَثُ فِيهِ .

بَلَغَتْ حَرَكَتُ الْأَخْلَاقِ وَالدِّينِ فِي إِيْتَالِيَا فِي الْقَرْنِ الثَّلَاثِ عَشَرَ
 وَالْقَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ مَبْلَغًا عَظِيمًا وَظَهَرَ فِيهَا مِنَ الْقَاعَيْنِ بِتِلْكَ الْحَرَكَتِ
 كِبَارٌ مِنْ أَهْلِ الدِّينِ كَالْقَدِّيْسِينَ « فَرَنْسُوا دَاسِيز » وَ « كَلِير »
 وَ « انطوان دى بادو » وَالسَّعِيدِ « يواقيم دى فلور » وَ « حنادى پارم »
 وَ « فراسلامبو » وَ « يعقوبين دى تودى » وَ « سليستان » وَ « كترين »
 دى ستين » وَغَيْرِهِمْ وَظَهَرَتْ طَوَائِفُ الْفَرَنْسِيْسِيْسْكَانِ وَ « كلاريس »
 الَّتِي أَدْهَشَتْ الدُّنْيَا بِفَقْرِهَا وَخُضُوعِهَا وَهِيَ الْفَضِيلَتَانِ اللَّتَانِ يُحِلُّهُمَا ،

أَصْحَابُ الْمُؤْتَرِ الْأَدْبِيِّ أَعْلَى مَقَامٍ الْقَوْلِهِمْ: إِنَّهُ لَا صَلاَحَ لِلنَّاسِ «إِلَّا إِذَا
تَجَرَّدُوا عَنِ التَّلَاقِ بِكُلِّ أَمْرٍ لَا يَكُونُ ضَرُورِيًّا»: وَلِقَوْلِهِمْ
«عَجَبًا لِقَوْمٍ يَأْتُونَ لِيَنْصَحُوا الْأُمَّةَ وَهُمْ فِي الْعَرَبَاتِ رَاكِبُونَ! مَعَ
أَنَّهَا لَا فَايِدَةَ لَهَا مِنْ اِقْتِنَائِهِمْ تِلْكَ الْعَرَبَاتِ وَهُمْ بِذَلِكَ إِنَّمَا يَزْعُونَ
الْحَسَدَ فِي الْقُلُوبِ بِمَا يُظْهِرُونَ مِنَ التَّائِقِ وَالتَّرَفِّهِ وَيُؤَكِّدُونَ بِهَذَا
وُجُودَ طَبَقَاتٍ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ مَعَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّ ذَلِكَ وَهُمْ
وَخِيَالٌ وَعَلَيْهِ فَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُشْفِقَ حَقِيقَةً عَلَى الْأُمَّةِ وَنَتَأَسَّى لِمَا هِيَ
فِيهِ مِنَ الْآلَامِ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَجَرَّدَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ
يَجْعَلَ الْحَيَاةَ فِي الظَّاهِرِ حَيَاةَ تَفَاخُرٍ وَتَنْعَمٍ وَلَا مَحِيصَ لَنَا عَنِ الْعَمَلِ
بِهَذَا الْوَاجِبِ وَإِنْ كَانَ شَاقًّا كَمَا قَدَّمْنَا إِذْ يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَعَكِسَ سُلْمَ
أَحْكَامِ الْعَقْلِ فَجَعَلَ الْفَوْقِ تَحْتِيًّا وَالتَّحْتِ فَوْقِيًّا وَبِالْجُمْلَةِ لَا بَدَّ لَنَا
مِنْ قَلْبِ الْعُقُولِ قَلْبًا تَامًّا فَإِذَا لَمْ تَهَيِّأِ النُّفُوسُ إِلَى هَذَا الْاِثْتِحَابِ
فَلَا بَدَّ لَهَا مِنَ الْاِثْتِحَابِ^(١) عَلَى مَفَاسِدِ النَّاسِ كَمَا يَبْكِي الْأَطْفَالُ «
وَلَوْ أَنَّ هَذَا الْخِطَابَ قُرِئَ عَلَى الْقَدِيسِ «فرنسوا داسيز» لَأَمْضَى
عَلَيْهِ بِالْيَدَيْنِ لِأَنَّهُ كَانَ يُرِيدُ أَيْضًا «أَنْ يَتَجَرَّدَ الْمَرْءُ مِنْ كُلِّ مَا لَيْسَ
ضَرُورِيًّا» قَالَ: «اذْهَبُوا وَلَا تَلْبَسُوا فِضَّةً وَلَا ذَهَبًا وَلَا تَأْخُذُوا
مَالًا فِي جُيُوبِكُمْ وَلَا وَطَابًا^(٢) وَلَا بُرْدِينَ وَلَا نَعْلِينَ وَلَا عَصَا»

(١) الانتحاب روع الصوت بالبكاء (٢) الوطاب جمع وطب وهو في الاصل سقاء
اللين وهو جلد الجذع فما فوقه والمراد هنا الجلد مطلقاً ولعله يريد ولا عيابا (شظلا)

وَنَحْنُ نَعْلَمُ مَا كَانَ لِمَذْهَبِهِ مِنْ سُرْعَةِ الْإِنْتِشَارِ وَكَثْرَةِ إِقْبَالِ النَّاسِ عَلَيْهِ ، فَلَمْ يَمُضِ عَلَى تَأْسِيسِهِ تِسْعُ سَنَوَاتٍ حَتَّى تَمَكَّنَ مِنْ إِزْسَالِ خَمْسَةِ آلَافٍ مُرِيدٍ^(١) إِلَى الْجَمْعِيَّةِ الْعُمُومِيَّةِ فِي « آسيز » وَبَلَغَ عَدْدُ أَصْحَابِهِ مِائَةً وَخَمْسَةَ عَشَرَ أَلْفَ نَسَمَةٍ يُقِيمُونَ فِي سَبْعَةِ آلَافٍ دِيرٍ وَذَلِكَ غَيْرُ أَذِيرَةٍ لِلنِّسَاءِ وَعَامَّةِ الْقَوْمِ الَّذِينَ مَالُوا إِلَى ذَلِكَ الْمَذْهَبِ وَجَرَوْا عَلَيْهِ .

وَلَوْ أَنَّ تِلْكَ الْجَمَاهِيرَ أَصْغَتْ إِلَى هَذَا النِّدَاءِ لَأَصْبَحَ أَصْحَابُ الْمُؤَثِّرِ الْأَدَبِيِّ آمِنِينَ عَلَى تَحْسِينِ حَالِ الْأُمَّةِ الْفَرَنْسَاوِيَّةِ لَكِنَّ الْحَوَادِثَ دَلَّتْنَا عَلَى أَنَّ انْتِشَارَ الْأَخْلَاقِ وَالِدِّينِ ذَلِكَ الْإِنْتِشَارَ لَمْ يُؤَثِّرْ بَأَكْثَرٍ مِمَّا كَانَ لَهُ مِنَ النَّتَاجِ فِي الدَّوْلَةِ الرُّومَانِيَّةِ وَأَيْرِلَنْدِهِ التَّعْسَةِ . وَظَلَّتْ عَوَامِلُ التَّقَهُّرِ تُهَكُّ الْأُمَّةَ التَّلْيَانِيَّةَ بَيْنَ فَوْضَى سِيَاسِيَّةٍ وَفَسَادِ أَخْلَاقٍ دِينِيَّةٍ مِنْهُمَا فِي أُمَّةِ الرُّومَانِ أَيَّامَ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ . وَلَمْ تَقْتَصِرِ النَّهْضَةُ الْجَدِيدَةُ عَلَى إِرْجَاعِ التَّلْيَانِ إِلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ الْأُمَّةُ الْعَابِرَةُ مِنَ الْأَخْلَاقِ وَالْفُنُونِ بَلْ أَعَادَتْ إِلَيْهَا أَيْضًا رِذَائِلَهُمُ الْأُولَى . وَانْتَهَى الْحَالُ فِي ذَلِكَ الْبَلَدِ بِتَقْوِيضِ أَرْكَانِ نِظَامِهِ الْجَمَاعِيِّ وَالسِّيَاسِيِّ وَلَمْ يُغْنِ عَن ذَلِكَ سَعْيُ الْقِدِّيسِينَ وَالْأَخْيَارِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ النُّفُوزِ ، وَلَمْ يَقْتَدِ النَّاسُ بِهِمْ فِيمَا كَانُوا بِهِ يَتَظَاهَرُونَ .

(١) يريد بالمريد هنا التابع الديني

لَسْتُ أَبْغِي إِلَّا كَثَارَ مَنْ إِيْرَادِ الْأَمْثَلَةِ ، فَتَارِيخُ تِلْكَ الْأَزْمَانِ
مَحْشُوبٌ بِهَا ، وَلَكِنِّي أَسْتَمِيحُ^(١) الْقُرَاءَةَ فِي ذِكْرِ شَاهِدٍ وَاحِدٍ .

ذَهَبَ النَّاسُ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ إِلَى تَعْظِيمِ آدَابِ الدِّيَانَةِ الْبُودِيَّةِ
وَأَحْلَوْهَا مَكَانًا عَلِيًّا ، وَهِيَ فِي الْوَأَقِعِ شَدِيدَةُ الْإِشْفَاقِ عَلَى الضُّعْفَاءِ
وَالْبَائِسِينَ كَثِيرَةً الْحَنَانِ عَلَى الْمَظْلُومِينَ ، غَيْرَ أَنَّ هَذَا لَيْسَ الْمُرَادَ
بَلِ الْمَدَارُ عَلَى مَعْرِفَةِ مَا إِذَا كَانَتْ تَعَالِيمُ تِلْكَ الدِّيَانَةِ أَوْجَدَتْ حَلًّا
لِلْمَسْأَلَةِ الْإِجْتِمَاعِيَّةِ وَنَهَضَتْ بِأُمَّمِ الْهِنْدِ وَالشَّرْقِ الْأَقْصَى الَّتِي
كَانَ لَهَا عَلَيْهَا التَّأْثِيرُ الْعَظِيمُ مِنْ وَهَادِ الْإِنْحِطَاطِ إِلَى أَوْجِ^(٢)
السَّعَادَةِ وَالْهِنَاءِ .

بَلَى^(٣) إِنْ أَنْحِطَاطَ تِلْكَ الْأُمَّمِ غَيْرُ مُتَحَاجٍ إِلَى دَلِيلٍ . وَمَا عَلَى
الْبَاحِثِ إِلَّا أَنْ يَنْظُرَ بَعَيْنِهِ لِيَعْلَمَ كَيْفَ الْحَالِ وَيُوقِنَ بَانَ
آدَابِ تِلْكَ الدِّيَانَةِ لَمْ تَنْتَشِلْ تِلْكَ الْأُمَّمَ مِنَ الْحُضِيِّضِ الَّذِي
هُمُ فِيهِ .

وَمِنْ أَظْهَرَ الْبَرَاهِينِ عَلَى عَدَمِ نَجَاحِ الْمُوَثَّرِ الْأَدَبِيِّ فِي تَحْسِينِ
حَالِ الْأُمَّمِ أَنَّ الَّذِينَ يُنْكَرُونَ قَوْلَنَا لَا يَسْمَعُهُمْ أَنْ يُنْكَرُوا
مَا يَشَاهِدُونَ فِي أَحْوَالِ الْأُمَّمِ مِثْلَنَا بَلْ إِنَّ الْحَقَّ يَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ

(١) استباحه : سأله العطاء . والمراد هنا أطلب من القراء إعطائي فرصة لذكر هذا
الشاهد (٢) الأوج : العلو (٣) بلى جواب للتحقيق توجب ما يقال لك لانها

بِالرَّغْمِ مِنْ إِرَادَتِهِمْ مَدْفُوعًا بِقُوَّةِ الْحَوَادِثِ وَالْمُشَاهَدَاتِ ، وَهِيَ أَكْبَرُ الدَّوَافِعِ وَأَزْمُهَا بَيَانًا .

إِلَيْكَ مَا جَاءَ فِي مَنشُورِ الْحِزْبِ الْمُشَارِ إِلَيْهِ قَالُوا « نَعَمْ نَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ الْعَائِلَاتِ وَالْمَدَارِسَ تَقُولُ لِلْأَطْفَالِ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَكُونَ صَادِقًا أَمِينًا مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ ، وَأَنْ يَكُونَ صِدْقُهُ وَأَمَانَتُهُ قَائِمِينَ بِإِخْلَاصِهِ وَنَزَاهَتِهِ ، وَلَوْ كَانَ مُجَرَّدُ قَوْلِ الشَّيْءِ وَسَمَاعِهِ مِنْ الْمُخَاطَبِ كَافِيًا لِلْعَمَلِ بِهِ لَأَصْبَحَ فَتْحُ الضَّمَائِرِ وَاجْتِدَابُ الْقُلُوبِ إِلَى الدِّينِ أَمْرًا يَسِيرًا ، كَذَلِكَ قَدْ انْتَشَرَتِ الْكِنَائِسُ وَالْمَعَابِدُ وَالْهَيْكَلُ انْتِشَارًا عَظِيمًا ، وَيَدْخُلُهَا الْكَثِيرُ مِنَ الْأَطْفَالِ لِيَتَقَفَّوْا تَعَالِيمَهَا ، وَالْعَدَدُ الْعَدِيدُ مِنَ النَّاسِ لِيَسْمَعُوا الْوَعْظَ وَالنَّصَاحَ ، وَتُشَاهِدَ أَعْيُنُهُمْ بِمَا يُمَثِّلُ أَمَامَهَا مِنَ الْمَنَاطِرِ وَالِاحْتِفَالَاتِ ، كَيْفَ يَنْتَقِلُ الْمَرْءُ مِنْ حَالَتِهِ الْإِعْتِيَادِيَّةِ فَيَصِيرَ مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ تَقِيًّا .

وَاللُّوْعْظُ وَالْإِرْشَادُ رَهْبَانٌ وَقَسُوسٌ يُعَدُّونَ بِالْآلَافِ ، وَهُمْ لَا يَفْتَرُونَ عَنْ أَدَاءِ ذَلِكَ الْوَاجِبِ ، فَلَوْ كَانَ هَذَا كَأَنَّ مِمَّا يُوصَلُ إِلَى الْغَايَةِ وَحْدَهُ . وَإِنْ عَزَّ نَيْلُهَا . لَأَصْبَحْنَا بِهَا ظَافِرِينَ ، لَكِنَّا مَعَ مَا نَقُولُ لَا نَرَى إِلَّا نَجِيلَ سَائِدًا فِي النَّاسِ ، وَلَا هُمْ يَعْمَلُونَ بِمُقْتَضَى قَوَاعِدِ الْحِكْمَةِ الصَّحِيحَةِ الَّتِي أَسَّسَهَا عُظَمَاءُ الْفَلَسَفَةِ فِي الْأَعْصُرِ الْأَخِيرَةِ . وَالَّتِي تُطَابِقُ تَعَالِيمَ الْإِنْجِيلِ وَمَبَادِئِهِ . وَالْجَلِيُّ الْوَاضِحُ أَنَّ الْفَرْقَ

عَظِيمٌ بَيْنَ دَرَجَةِ الْكَمَالِ الَّتِي يَشْعُرُ بِهَا الْوُجْدَانُ بَعْدَ هَذَا الْعَنَاءِ
وَبَيْنَ مَا نَجْرِي عَلَيْهِ فِعْلًا مِنَ الْأَخْلَاقِ وَالْأَدَابِ « رَاجِعْ كِتَابَ
عَقْلُنَا صَحِيفَةَ ١١ » .

وَلَوْ أَنِّي الْقَائِلُ لَمَا أَجَدْتُ كَمَا أَجَادُوا ، وَالْعَجَبُ مِنْ كَوْنِ
الَّذِينَ كَتَبُوا مَا نَقَلْنَا لَهُمْ يُدْرِكُوا مَكَانَ الضَّعْفِ فِي مَذْهَبِهِمُ الَّذِي
أَسَّسُوهُ عَلَى الْمُؤَثِّرِ الْأَدْبِيِّ دُونَ سِوَاهُ ، يَعْتَرِفُونَ بِأَنَّ « الْوَقَائِمَ
الْقُسُوسَ وَالرُّهْبَانَ يَعْمَلُونَ عَلَى الدَّوَامِ لِإِنجَاحِ مَقْصِدِهِمْ » فِي
الْأَخْذِ بِنَاصِرِ الْأَمَمِ مِنْ وَهْدَتِهَا وَأُولَئِكَ الْقُسُوسَ وَالرُّهْبَانَ هُمُ
مِنْ جَمِيعِ الْمَذَاهِبِ وَالْأَدْيَانِ ، فَمِنْهُمْ الْكَاتُولِيكِيُّ وَالْبِرُوتِسْتَانْتِيُّ
وَالْيَهُودِيُّ ، وَيَالِيَتِهِمْ كَانُوا وَحْدَهُمْ بَلْ أَضَافُوا إِلَيْهِمْ « عُظَمَاءَ فَلَاسِفَةِ
الْعَصْرِ » وَخَرَجُوا مِنْ هَذَا كَلِّهِ يَعْتَرِفُونَ وَالْحَزَنُ مِلءُ قُلُوبِهِمْ
بَأَنَّهُمْ كَلَّمَهُمْ أَسَؤُا خَائِبِينَ وَبَانَ النَّاسُ لَا يَعْمَلُونَ بِمَا قَضَى بِهِ الْإِنجِيلُ
وَمَا قَرَّرَهُ الْحِكْمَاءُ وَأَعْجَبُ مِنْهُ أَنَّهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ يَقُولُونَ وَهُمْ
مُطْمَئِنُونَ هَادِثُونَ بِوُجُوبِ « الْإِبْتِدَاءِ بِالْعَمَلِ مِنْ جَدِيدٍ »
وَيُؤَمِّلُونَ النِّجَاحَ حَيْثُ لَمْ تَنْجَحِ الْكِنَائِسُ وَالْمَعَابِدُ عَلَى اخْتِلَافِ
مَذَاهِبِهَا مَعَ مَا كَانَ لَهَا مِنْ قُوَّةِ السُّلْطَانِ وَنُفُوزِ الْكَلِمَةِ وَعُلُوِّ
الشَّانِ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَعْرِفُوا أَنَّ عَدَمَ نِجَاحِ تِلْكَ الْمَسَاعِي مَعَ مَا سُوِّعَتْ
بِهِ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْإِخْلَاصِ وَالتَّجَرُّدِ عَنِ الذَّاتِ وَفِعْلِ الْخَيْرَاتِ

وَتَضْحِيحَةَ النُّفُوسِ وَالْأَرْوَاحِ وَحُبَّ الْجَبَّارِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَا شَيْءٌ
يَنْفَعُ وَلَا مُرِيدٌ يَنْجَحُ إِنْ دَامَ يَسْلُكُ ذَلِكَ الطَّرِيقَ . وَكُلُّ عَالِمٍ
خَابَتْ تَجْرِبَتُهُ لَا يَغِيبُ عَنْهُ هَذَا الْخَطَرُ الْبَدِيهِيُّ الْبَسِيطُ
وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَعْرِفُوا حَتَّى الْآنَ أَنَّ الْمُؤَثِّرَ الْأَدَبِيَّ لَا يَكْفِي تَحْقِيقَ
سَعَادَةِ الْأُمَّمِ وَدَوَامِ نَعِيمِهَا وَتَحْصِيلِ مَجْدِهَا الْاجْتِمَاعِيِّ وَأَنَّهُ
يَنْقُصُهُ شَيْءٌ آخَرٌ فَقَدَانُهُ هُوَ السَّبَبُ فِي تَخَلُّفِ الْغَرَضِ الْمُرَادِ

فَلَنْبَحَثُ حِينَئِذٍ عَنْ ذَلِكَ الشَّيْءِ الَّذِي يُعُوزُنَا

وَلْيَسْمَحْ لِي الْقُرَّاءُ أَنْ أَضْرِبَ فِي الْبَيَانِ مَثَلًا اسْتَعِيرُهُ مِنَ الْإِنْجِيلِ
وَإِظْنُ بِهَذَا التَّشْبِيهِ لَا أَغْضِبُ أَصْحَابَ الْمُؤَثِّرِ الْأَدَبِيِّ
يُمْكِنُ تَشْبِيهُ الْمُؤَثِّرِ الْأَدَبِيِّ بِبِذْرَةٍ تَنْبُتُ إِنْ غُرِسَتْ فِي أَرْضٍ
صَالِحَةٍ وَلَا تَنْبُتُ إِنْ خُبْتُ مَغْرُسُهَا . وَعَلَيْهِ فَلِجُودَةِ الْأَرْضِ وَفَسَادِهَا
تَأْثِيرٌ عَظِيمٌ . وَكَلَّمْتُ بِهَذَا أَقُولُ قَوْلًا جَدِيدًا وَإِنَّمَا هُوَ قَوْلٌ مُتَقَنَّ
عَلَيْهِ إِجْمَاعًا بِالتَّقْرِيبِ وَقَدْ قَرَّرَهُ الْوَعَاظُ وَعُلَمَاءُ الْأَخْلَاقِ وَالْمُتَكَلِّمُونَ
مِنْ كُلِّ مَذْهَبٍ وَدِينٍ أَلْفَ أَلْفِ مَرَّةٍ مِنْ يَوْمٍ أَنْ ظَهَرَ الْإِنْجِيلُ
وَصَارَ مِنَ الْعَادِيَّاتِ لِصِحَّتِهِ وَبِدَاهَتِهِ

غَيْرَ أَنَّهُمْ لِسُوءِ الْحِظِّ أَقَامُوا بِجَانِبِ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ خَطَأً الْبَسْهًا
مِنَ الظَّلَامِ ثَوْبًا فَأَخْفَاهَا: إِذْ حَسَبُوا أَنَّ جُودَةَ الْبِذْرَةِ تُوَلِّدُ جُودَةَ
الْأَرْضِ وَتَقْتَضِي الْإِنْبَاتِ وَقَالُوا « لَيْسَ مِنْ أَرْضٍ غَيْرِ صَالِحَةٍ وَمَا

الْفَسَادُ إِلَّا فِي الْبُدُورِ » وَظَاهِرُهُ أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ بَيْنَ هَذَا الْقَوْلِ
وَإِهْمَالِ النَّظَرِ فِي طَبِيعَةِ الْأَرْضِ الَّتِي يُرَادُ الْغَرْسُ فِيهَا إِلَّا مَرَحَلَةٌ
قَصِيرَةٌ وَقَدْ اجْتَا زَوْهَا بِأَسْهَلِ مَا يَكُونُ فَانْتَقَلُوا مِنْ قَضِيَّةٍ إِلَى قَضِيَّةٍ
حَتَّى قَالُوا مَا نَصَّهُ بِالْحَرْفِ الْوَاحِدِ « لَيْسَ مَحَلُّ الْبُحْثِ مَعْرِفَةٌ مَا إِذَا
كَانَ الزَّمَنُ الْحَاضِرُ أَرَادًا مِنَ الزَّمَنِ الْمَاضِي لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي اسْتِطَاعَةِ
أَحَدٍ أَنْ يُحَقِّقَ شَيْئًا فِي هَذَا الْبَابِ فَمِنْ الْعَبَثِ أَنْ يُسْأَلَ عَنْهُ »
وَمَعْنَاهُ أَنْ مِنَ الْعَبَثِ الْبُحْثُ عَنْ طَبِيعَةِ الْأَرْضِ الْمُرَادِ غَرْسُهَا .
ادَّعَوْا هَذَا بِغَيْرِ دَلِيلٍ وَمَلَّثُوا الْيَدَيْنِ مِنْ بُدُورِ الْأَخْلَاقِ ثُمَّ
بَذَرُوهَا فِي كُلِّ صَوْبٍ ^(١) وَمَعَ كُلِّ رِيحٍ تَهْبُتُ وَعَجِبُوا بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ
تَخَلُّفِ نَبْتِهَا أَوْ أَنَّهُمْ أَخْفَوْا عَجَبَهُمْ بِمَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ مِنْ انْتِظَارِ
النَّبْتِ يَوْمًا لَا يَعْرِفُونَ لَهُ وَقَتًا فَقَالُوا « إِنَّ الْمَقْصِدَ خَطِيرٌ وَالْعَمَلَ
جَلِيلٌ فَلَا يَطْمَعَنَّ أَحَدٌ مِنَّا فِي أَنْ يُدْرِكَ بَوَادِرَ تَحْقُوقِهِ غَيْرَ أَنْ هَذَا
لَا يُغَيِّرُ مِنْ وَاجِبِنَا لِأَنَّ النَّجَاحَ لَيْسَ مِنْ أَعْمَالِنَا (رَاجِعْ كِتَابَ
عَقْلِنَا صَفْحَةَ ٢٦)

أَجَلٌ إِنَّمَا النَّجَاحُ هُوَ الَّذِي مِنْ عَمَلِنَا وَهُوَ كُلُّ الْعَمَلِ بَلْ
لَا عَمَلَ لَنَا إِلَّا هُوَ . وَمِنَ الْمُسْتَعْرَبَاتِ أَيُّهَا النَّاسُ أَنْ تَدْعُوا الْقِيَامَ
بِذَلِكَ الْمَقْصِدِ الْأَمْجَدِ الرَّفِيعِ الشَّانِ وَهُوَ النَّهْوضُ بِالْأُمَّمِ مِنْ

حَضِيضُهَا مِنْ جِهَةِ الْأَخْلَاقِ وَالْأَحْوَالِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ ثُمَّ أَنْتُمْ تَدْعُونَ
مَعَ هَذَا أَنْ النَّجَاحَ ، أَيْ نُهُوضَ الْأُمَّمِ ، لَيْسَ مِنْ عَمَلِكُمْ . إِنَّكُمْ
إِذَنْ قَوْمٌ تُحِبُّونَ الْفُنُونَ لِذَاتِهَا وَمَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ لِمَكَارِمِ
الْأَخْلَاقِ .

مَا عَدَمُ نَجَاحِ أَصْحَابِ الْمُؤَثِّرِ الْأَدْبِيِّ وَحَدَهُ مِمَّنْ خَلَوْا مِنْ
قَبْلِكُمْ إِلَّا مُسَبَّبٌ عَنْ ذَلِكَ الْأَعْتِقَادِ الْفَاسِدِ بِأَنَّهُ لَا تَأْثِيرَ لِطَبِيعَةِ
الْأَرْضِ الَّتِي تُنْقَى الْبُذُورُ فِيهَا وَبِأَنَّهُ مِنْ الْعَبَثِ الْإِلْتِفَاتِ إِلَيْهَا .
إِنَّمَا طَبِيعَةُ الْأَرْضِ الْاجْتِمَاعِيَّةُ سَبَبٌ مِنَ الْأَسْبَابِ الْجَوْهَرِيَّةِ الَّتِي
لَهَا التَّأْثِيرُ الْأَعْظَمُ فِي نَجَاحِ الْمُؤَثِّرِ الْأَدْبِيِّ وَخَيْبَتِهِ . وَلَا أُرِيدُ
الِاسْتِدْلَالَ عَلَى مَا أَقُولُ إِلَّا بِتَجَارِبِ مُوسِيُو (بول دي جاردان)
صَاحِبِ الدَّعْوَةِ إِلَى تَأْلِيفِ الْقُلُوبِ حَوْلَ الْمُؤَثِّرِ الْأَدْبِيِّ ، فَقَدِ اثْتَمِنَا
فِي إِيدِ بُورْجِ أَيَّامَ قَصْدِنَاهَا لِإِلْقَاءِ بَعْضِ أُخْطَبِ هُنَاكَ هُوَ فِي مُؤَثِّرِهِ
الْأَدْبِيِّ وَأَنَا فِي الْعِلْمِ الْاجْتِمَاعِيِّ ، وَرَأَيْتُهُ مُتَعَجِّبًا مِنْ إِقْبَالِ النَّاسِ عَلَى
مَذْهَبِهِ . وَيَرَى - كَمَا أَخْبَرَنِي - (أَنَّ الْأَرْضَ صَالِحَةٌ جِدًّا ! وَالْوَاقِعُ أَنَّهُ لَقِيَ
مِنْ أَهْلِ تِلْكَ الْمَدِينَةِ قَوْمًا يُصْغُونَ إِلَيْهِ بِكَمَالِ الْإِلْتِفَاتِ وَيَسْمَعُونَ
حَدِيثَهُ بِجِدِّ وَاهْتِمَامٍ وَعَلَى أَفْكَارٍ تَلِيْقُ كُلَّ اللَّيْقَانِ بِمَذْهَبِهِ وَنَشْرِهِ
مَبَادِيئِهِ ، وَكَانَ دَهْشًا مِنْ الْفَرْقِ بَيْنَ اسْتِعْدَادِ الْأَفْكَارِ فِي هَذِهِ الْمَدِينَةِ

وَبَيْنَ حَالَةِ الْأَفْكَارِ فِي فَرَسَانَا إِذْ يُوجَدُ بَيْنَ أَصْحَابِهِ أَنْفُسِهِمْ عِنْدَنَا
 مَنْ يَتَّبِعُهُ لِجَرْدِ الْأَنْضَامِ إِلَيْهِ حُبًّا فِي التَّقْلِيدِ وَالتَّمَسُّكِ بِكُلِّ شَيْءٍ
 جَدِيدٍ جَرِيًّا مَعَ مَيُولِ الْفَرَسَاوِيِّينَ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ إِلَى عُلُومِ الْأَدَبِ
 وَالْأَخْلَاقِ، فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْهَا الْيَوْمَ يَتَمَذَّهَبُ بِمَذْهَبِ كَذَا أَوْ كَذَا
 لِيُقَالُ، كَمَا جَرَى عَلَى أَسْنِنَتِهِمْ، ذَلِكَ أَظْرَفُ وَأَحْلَى! ذَلِكَ أَحْكَمُ وَأَدْقُ!
 ذَلِكَ هُوَ الرَّأْيُ الْأَخِيرُ: ذَلِكَ مَيْلٌ مِنْ الْمَيُولِ وَهَكَذَا مِنَ الْأَلْفَافِ
 الْغَرِيبَةِ الَّتِي دَرَجَتْ بَيْنَهُمْ. فَإِذَا تَبَدَّلَ الْحَالُ أَوْ جَدَّ جَدِيدٌ رَأْيَتَهُمْ
 يَتَسَارِعُونَ إِلَى تَرْكِ مَا تَعَشَّقُوا وَذَهَبُوا يَتَفَرَّجُونَ عَلَى الرَّأْيِ الْمُطْلِ^(١)
 كَمَا يَتْرُكُ الرَّجُلُ رِدَاءَ الصَّيْفِ لِيَلْبَسَ ثَوْبَ الشِّتَاءِ. وَفِي كُلِّ هَذِهِ
 الْأَدْوَارِ تَرَى عَامَّةَ الْقَوْمِ يَقْلِبُونَ ذَلِكَ الْجِدَّ هَزْلًا كَمَا هِيَ عَادَةٌ
 الْفَرَسَاوِيِّينَ فِي قَلْبِ كُلِّ شَيْءٍ تَهَكُّمًا.

تِلْكَ أَرْضٌ لَيْسَتْ صَالِحَةً لَوْضِعِ الْبُذُورِ فِيهَا، وَالنَّشْأَةُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ
 الْحَاضِرَةُ لَيْسَتْ مُسْتَعِدَّةً لِقَبُولِ فِعْلِ الْمُوَثِّرِ الْأَدْبِيِّ كَمَا قَامَتْ
 فِي وَجْهِهِ عِنْدَ الْأُمَّةِ الرُّومَانِيَّةِ وَفِي إِرْلَنْدَةَ وَإِيْتَالِيَا، وَفِي الشَّرْقِ
 حَيْثُ لَمْ يَأْتِ بِمَا كَانَ يُنْتَظَرُ مِنْهُ مِنَ الْمَزَايَا وَلَا بِمَا أَرَادُوا أَنْ
 يَكُونَ لَهُ مِنْهَا.

وَجَبَّ إِذْنُ أَنْ يُبَدَأَ بِتَغْيِيرِ النَّشْأَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ ذَاتِهَا، إِنْ كَانَ الْمُرَادُ

(١) المطل: المشرف القادم، يريد الرأي الجديد

الْوُصُولَ إِلَى فَايِدَةٍ صَحِيحَةٍ، أَعْنِي أَنَّهُ يَنْبَغِي الْبَدْءَ فِي الْإِصْلَاحِ بِأَوَّلِهِ.
وَأَوَّلُ مَا يَجِبُ الْبَدْءُ فِيهِ عِنْدَنَا، حَتَّى يَكُونَ الْمُؤَثِّرُ الْأَدَبِيُّ صَالِحًا
لِلْغَرَضِ الْمَطْلُوبِ، تَرْبِيَةً الرَّجَالِ وَإِعْدَادَهُمْ لِلْحَيَاةِ الْحَقِيقِيَّةِ. وَنَحْنُ
الْيَوْمَ نَعْلَمُ أُنْبَاءَنَا أَنَّ مُنْتَهَى الْأَمَلِ وَمُنْتَهَى الْحِكْمَةِ هُوَ الْخَلَاصُ
بِمَا فِي الْجُهْدِ مِنْ مَتَاعِبِ الْحَيَاةِ وَتَقَلُّبَاتِهَا. يَقُولُ الْوَالِدُ لَوْلَدِهِ :
(يَا بُنَيَّ تَوَكَّلْ أَوْ لَا عَلَيْنَا فِي دُنْيَاكَ! فَإِنَّكَ تَرَى كَيْفَ نَقْتَصِدُ وَنَدَّخِرُ
لِنَجْمَعَ لَكَ مَالًا جَزِيلًا نُقَدِّمُهُ لَكَ مَهْرًا يَوْمَ زَوَاجِكَ وَلَقَدْ بَلَغَ
حُبُّنَا لَكَ مَبْلَغًا لَا نَسْتَطِيعُ مَعَهُ أَنْ تَتْرُكَ أَمَامَكَ عَقَبَةً مِنْ عَقَبَاتِ
الْحَيَاةِ إِلَّا ذَلَّلْنَاهَا مَا اسْتَطَعْنَا. ثُمَّ تَوَكَّلْ بَعْدَنَا عَلَى أَقَارِبِنَا وَأَصْدِقَائِنَا
فِي مَعُونَتِكَ وَالتَّوَصِّيَةِ بِكَ حَتَّى تَنَالَ مُرْتَقًا. وَتَوَكَّلْ أَيْضًا عَلَى
الْحُكُومَةِ فَلَدَيْهَا مِنَ الْوُظَائِفِ عَدَدٌ لَا يُحْصَى !! وَهُنَاكَ بَيْتٌ
الْمَرْءِ مُطْمَئِنِّ الْبَالِ آمِنًا مِنَ التَّقَلُّبَاتِ يَقْبِضُ رَاتِبَهُ فِي آخِرِ كُلِّ شَهْرٍ
عَلَى التَّوَالِي وَيَتَرَقَّى بِطَبِيعَةِ الْحَالِ إِجْرَدٌ وَجُودِ الْمَعَاشِ وَحَقِّ التَّقَاعِدِ
وَالْوَفَاةِ حَتَّى إِنَّكَ لَتَعْرِفُ رَاتِبَكَ مَتَى بَلَغْتَ سِنَّ كَذَا وَكَذَا وَمَتَى
تَنَالَ الْمَعَاشَ فَتَقْعُدَ عَنِ الْعَمَلِ آمِنًا مُسْتَرِيحًا بِحَيْثُ إِنَّكَ بَعْدَ أَنْ
تَكُونَ قَضَيْتَ زَمَانًا مِنْ حَيَاتِكَ وَكَأَنَّكَ لَمْ تَأْتِ عَمَلًا يُمَكِّنُكَ أَنْ
تَعِيشَ بَقِيَّةَ عَمْرِكَ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَأْتِيَ عَمَلًا أَبَدًا وَإِنْ كُنْتَ لَا تَزَالُ
فِي سِنِّ يَكْدُ فِيهَا الْمَرْءِ وَيَتَعَبُ. وَمَلَّا كَانَ أَيُّهَا الْوَالِدُ الْعَزِيزُ رَاتِبُ

الْوُظَائِفِ زَهِيدًا - وَمَا كُلُّ مَا يَتَمَنَّى الْمَرْءُ يُدْرِكُهُ - يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَتَوَكَّلَ
 أَيْضًا عَلَى الْمَهْرِ الَّذِي تَأْتِي بِهِ لَكَ زَوْجَتِكَ . وَعَلَيْهِ فَمَنْ وَاجِبِكَ قَبْلَ
 كُلِّ شَيْءٍ أَنْ تَبْحَثَ عَنْ زَوْجَةٍ غَنِيَّةٍ وَلَيَطْمِئِنَّ بِأَنَّكَ مِنْ هَذِهِ الْجَهَةِ
 فَسَنَبْحَثُ لَكَ نَحْنُ عَنْهَا ، وَسَنَجِدُهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ . تِلْكَ أَيُّهَا الْوَالِدُ
 الْعَزِيزُ هِيَ النَّصِيحَةُ الَّتِي يُمْلِيهَا عَلَيْنَا حُبُّنَا لَكَ وَمِيلُنَا إِلَيْكَ .

هَذَا هُوَ الْقَوْلُ الَّذِي يَسْمَعُهُ الْوَالِدُ كُلَّ يَوْمٍ فِي بَيْتِ أَبِيهِ
 وَمِنْ جِيرَانِهِ وَمُخَالِطِيهِ وَأَنَّى ذَهَبَ ! وَلَا شَكَّ فِي أَنَّهُ يَعُودُهُ مِنْ غَيْرِ
 شُعُورِ الْإِعْتِمَادِ عَلَى غَيْرِهِ أَكْثَرَ مِنْ نَفْسِهِ ، وَيُبْعِدُهُ عَنْ حُبِّ
 الْمُرْتَزَقَاتِ الَّتِي تَقْتَضِي الْجِدَّ وَتَسْتَلْزِمُ الْهَمَّةَ وَالْإِقْدَامَ وَقَدْ يُصِيبُ
 فِيهَا أَوْ يَخِيبُ كَالزَّرْعَةِ وَالصَّنَاعَةِ وَالتَّجَارَةِ ، وَيَجْعَلُهُ مَيَّالًا إِلَى
 الْحَيَاةِ الْمُسْتَرِيحَةِ .

وَمَتَى صَارَ هَذَا نَظَرُهُ فِي الْحَيَاةِ جَمَدَتْ إِرَادَتُهُ وَخَمَلَتْ هِمَّتُهُ ،
 وَارْتَحَتْ مِنْهُ الْعَزِيمَةُ وَصَارَ غَيْرَ قَادِرٍ عَلَى الْكَدِّ وَالْعَمَلِ مَيَّالًا إِلَى
 الْهَرَبِ مِنَ الصَّعَابِ لَا رَاغِبًا فِي مُغَالَبَتِهَا يَبْحَثُ عَمَّا فِي الْحَيَاةِ مِنْ
 الْمُسْلِيَّاتِ لَا عَنِ الْجِدِّيَّاتِ ، وَيُمَسِّي غَيْرَ قَابِلٍ لِتَأْثِيرِ ذَلِكَ الْمَوْثِرِ
 الْأَدْبِيِّ الَّذِي يَطْلُبُ الْكَدَّ وَيُوجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَقْهَرَ
 نَفْسَهُ لِيَمْلِكَهَا .

هَذَا هُوَ الْمَانِعُ الْأَكْبَرُ لِلْعَمَلِ بِمَقْتَضَى الْإِرْشَادِ الْأَدْبِيِّ وَحَدُّهُ

وَلَا يُمْكِنُ إِزَالَتُهُ بِالْمَوْثُرِ الْأَدْبِيِّ وَحْدَهُ، لِأَنَّ الْوَسْطَ الْاجْتِمَاعِيَّ
 كَلَهُ مُتَضَافِرٌ^(١) عَلَيْهِ. فَالْمَوْثُرُ الْأَدْبِيُّ يَقُولُ: «يَجِبُ عَلَى الْعَرِّ أَنْ
 يَكُونَ مُسْتَعِدًّا لِإِجْرَاءِ مَا فِيهِ كَافَّةً عَلَيْهِ^(٢)» وَوَسَطْنَا الْاجْتِمَاعِيَّ
 كَلَهُ يَصِيحُ بِضِدِّ هَذَا، وَيُعْشَى^(٣) بِصَوْتِهِ كُلَّ صَوْتٍ عَدَاهُ، وَجَبَ
 إِذَنْ تَغْيِيرُهُ هَذَا الْوَسْطِ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَنْ يَكُونَ تَغْيِيرُهُ عَلَى
 النَّحْوِ الَّذِي يُوجِبُ نَحْوَهُمْ الْأَفْرَادِ الذَّاتِيَّةِ، وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى
 تَوْجِيهِ النَّاسِ إِلَى اعْتِنَاقِ «الْحَيَاةِ الْحَقِيقِيَّةِ».

يَقُولُونَ إِنَّ هَذَا أَمْدٌ بَعِيدٌ، وَلَكِنْ أَقْرَبَ الطَّرْقِ هُوَ الَّذِي
 يُؤَدِّي إِلَى الْغَرَضِ الْمَقْصُودِ وَالْمَوْثُرِ الْأَدْبِيِّ بِاعْتِرَافِ أَهْلِهِ لَا يُؤَدِّي إِلَيْهِ
 عَلَى أَنَّ الطَّرِيقَ لَيْسَ بَعِيدًا كَمَا يَظُنُّونَ لِأَنَّ الزَّمَانَ يَدْفَعُنَا نَحْوَهُ
 وَدَافِعُ الزَّمَانَ أَشَدُّ الْبَوَاعِثِ كُلِّهَا، وَالْوَاجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نُوَجِّهَ
 أَعْمَالَنَا وَنَلْفِتْ هِمَمَنَا إِلَى مَعْرِفَةِ هَذِهِ الْحَرَكَةِ وَنُسَاعِدْهَا فِي فِعْلِهَا
 وَنَسْتَبْطِئَهَا لِأَنَّ نِقَاطَ وَمَوَاقِفَهَا وَنُؤَخِّرْهَا.

وَهَآنَذَا أَذْكَرُ بَوَاجِهِ الْإِخْتِصَارِ عَلَامَاتِ تِلْكَ الْحَرَكَةِ وَبَوَادِرِهَا
 الْعَلَامَةُ الْأُولَى: اخْتِلاطُ الْجِنْسِ الْإِنْكَلَبِيِّ السَّكْسُونِيِّ
 وَمُنَافَسَتُهُ - إِنَّا لَا يُمْكِنُنَا أَنْ نَتَخَلَّصَ مِنْ تِلْكَ الْمُنَافَسَةِ وَالْمُنَافَسَةِ،
 فَإِنَّا نَلْتَقِي مَعَ ذَلِكَ الْجِنْسِ الْمَقْدَامِ الْمُغْيِرِ فِي جَمِيعِ الْأَقْطَارِ الَّتِي

(١) تضافروا على الشيء: تعاونوا عليه (٢) يريد مشقة (٣) يغشى: يغطي

يَمْتَدُّ إِلَيْهَا نَفُوزُنَا ، نَجِدُهُ عَلَى أَوْابِنَا فِي أَوْرُبَا وَنَجِدُهُ أَنَّى ذَهَبْنَا فِي
 الْبِلَادِ الْأَجْنَبِيَّةِ وَهُوَ الَّذِي نَجِدُهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ نَتَّخِذُهُ مُسْتَعْمَرَةً
 لَنَا أَوْ نَضَعُ فِيهِ أَيَّ عَمَلٍ كَانَ . يُنَافِسُنَا حَيْثُ وَجَدْنَا بُزْرَاعَهُ
 وَمُسْتَعْمَرِيَهُ وَصُنَاعَهُ وَتُجَارِهِ ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ مَا فِي مُنَافَسَتِهِ مِنْ
 الْخَطَرِ عَلَيْنَا لِمَا امْتَازَتْ بِهِ مِنْ عَزْمِ الْقَائِمِينَ بِهَا وَثَبَاتِهِمْ وَخَبْرَتِهِمْ
 بِالْمَسَائِلِ الْعَمَلِيَّةِ وَتَعَوُّدِهِمْ الْإِعْتِمَادَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، فَيَجِبُ أَنْ
 يَكُونَ لَنَا مُشْجِعٌ مِنْ هَذِهِ الْمَزَاحِمَةِ وَتِلْكَ الْمُنَافَسَةِ ، لِأَنَّ الْمَرْءَ
 يَنْبَغُ إِلَى الْعَمَلِ إِذَا ضَاقَ الْفَضَاءُ أَمَامَهُ وَخَافَ التَّقَهُّرَ مِنَ الْمَوَاقِعِ
 الَّتِي يَحْتَمِلُهَا ، وَيَسْتَفِيدُ مِنَ التَّمَثُّلِ ^(١) بِخَصْمِهِ ، وَيَتَأَثَّرُ بِهِ فِي أَحْوَالِهِ
 وَأَعْمَالِهِ .

وَإِنَّمَا نَحْنُ نَحْتُ الشُّبَّانَ الَّذِينَ يَحْضُرُونَ دَرَسَنَا فِي الْعِلْمِ
 الْإِجْتِمَاعِيِّ عَلَى الذَّهَابِ إِلَى لُنْدُرِهِ لِكَيْ يَتَلَقَّوْا ذَلِكَ الدَّرْسَ الْمُفِيدَ بِالْخَبَرِ
 وَالْعِيَانِ فِيهَا ، إِذْ يَجْتَمِعُونَ هُنَاكَ بِأَهْلِ تِلْكَ الْأُمَّةِ وَيَتَعَامُونَ مِنْهَا
 الْمَزَايَا الَّتِي تَفْضُلُ بِهَا مَنْ عَدَاهَا

غَيْرَ أَنَّ هَذِهِ الْعَلَامَةَ لَا تَكُنِي الدَّلَالَةَ عَلَى أَنَّ التَّرْقِيَّ بَدَأَ
 فِيهَا إِذْ لَمْ تَقْتَرِنْ بِغَيْرِهَا مِمَّا هُوَ كَائِنٌ فِي الْأُمَّةِ نَفْسِهَا .
 الْعَلَامَةُ الثَّانِيَةُ خَبِيَّةٌ طَرِيقَةُ التَّعْلِيمِ عِنْدَنَا كَمَا أَجْمَعُ النَّاسُ
 عَلَى تَحْقِيقِهِ .

خِيبَةُ التَّعْلِيمِ ظَاهِرَةٌ لِجَمِيعِ النَّاسِ ، لِذَلِكَ يَزْدَادُ عَدَدُ الْمُنْدَدِينَ
يَوْمًا فَيَوْمًا كَمَا يَزْدَادُونَ جُرْأَةً فِي التَّنْذِيدِ وَإِقْدَامًا ، وَفِيهِمْ مِنْ كُلِّ
صِنْفٍ حَتَّى مِنْ الْمُدْرَسِينَ وَوَزُرَاءِ الْمَعَارِفِ الْعُمُومِيَّةِ وَجَمِيعِ الْأَحْزَابِ
السِّيَاسِيَّةِ ، وَالْكَلُّ مُتَّفَقٌ تَقْرِيْبًا عَلَى أَنَّ الْمَدَارِسَ لَمْ تَأْتِ بِمَا
كَانَ يُرْجَى مِنْهَا . وَالْمُسْتَعْلُونَ بِالتَّعْلِيمِ يُشَاهِدُونَ سُقُوطَهُ وَانْحِطَاطَ
دَرَجَتِهِ عَلَى وَجْهِ الْعُمُومِ . نَعَمْ نَعَلَّمُ الْمَدَارِسُ شُبَّانًا يَخْرُجُونَ مِنْهَا
حَائِزِينَ لِلشَّهَادَةِ الثَّانَوِيَّةِ « بكالوريا » أَوْ مُوظَّفِينَ وَمُسْتَعْدِمِينَ
وَلَكِنَّهَا لَا تُرَبِّي رِجَالًا قَادِرِينَ عَلَى تَحْصِيلِ عَيْشِهِمْ بِأَنْفُسِهِمْ .

وَدَلِيلُنَا عَلَى وُجُوبِ إِدْخَالِ التَّخْوِيرِ فِي طَرِيقَةِ التَّعْلِيمِ عِنْدَنَا
مَا قَرَأْنَاهُ ضِمْنَ خِطَابِ الْقَاهُ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ عَلَى أَحَدِ الْأَنْدِيَّةِ
مُوسِيُو « لَأَيْسَ » رَئِيسُ فَرِيقٍ مِنْ رِجَالِ التَّعْلِيمِ عِنْدَنَا يَسْعَوْنَ
فِي الْوُصُولِ إِلَى تِلْكَ الْغَايَةِ حَتَّى يَكُونَ التَّعْلِيمُ صَالِحًا لِاسْتِمَارِ
مَا أُودِعَ فِي الْمَرْءِ مِنَ الْقُوَى وَالْمَلَكَاتِ وَهُوَ : « إِنِّي أَذْكَرُ كَلِمَةً
قَالَهَا لِي أَحَدُ الشُّبَّانِ الْإِنْكَلِيزِيِّ وَهِيَ أَرْجُوكَ أَلَّا تُظَنِّي مِنْ
الْعُلَمَاءِ فَإِنَّ الْمَدْرَسَةَ لَا تُعَلِّمُنَا شَيْئًا كَبِيرًا اللَّهُمَّ فِيمَا أَظُنُّ إِلَّا
كَيْفَ نَسِيرُ فِي الْحَيَاةِ » وَمَا أَجْمَلَ هَذَا الْفَخَّارَ الْإِنْكَلِيزِيَّ الَّذِي
انْدَرَجَ طَى هَذَا التَّوَاضِعِ فِي الْمَقَالَ وَلَا شَكَّ عِنْدِي فِي أَنَّ زَائِرِي
مَا كَانَ لِيَرْضَى أَنْ يَسْتَعِيْضَ عَنْ عِلْمِ السَّيْرِ فِي الْحَيَاةِ بِمَعَارِفِنَا

الْمَدْرَسِيَّةِ وَلَوْ أَنِّي عَرَضْتُ الْمُقَارَضَةَ عَلَيْهِ لَأَجَابَنِي إِنْ أَنْكَرْتَهُ
مُحْتَاجَةً إِلَى رِجَالٍ تَعَوَّدُوا الْإِعْتِمَادَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَشَبَّوْا عَلَى الْإِسْتِقْلَالِ
وَالْإِقْدَامِ لِيَكُونُوا لَهَا تَجَارًا وَسَاسَةً وَصُنَاعًا .

وَلَيْسَ يَسِيرٌ أَنَّنَا قَدْ عَرَفْنَا حَاجَةَ طَرِيقَةِ التَّعْلِيمِ عِنْدَنَا إِلَى
التَّغْيِيرِ وَالْإِصْلَاحِ وَأَنَّهَا لَا تُعَلِّمُنَا « كَيْفَ نَسِيرُ فِي الْحَيَاةِ » وَلَا
تَعَوَّدُنَا « الْإِعْتِمَادَ عَلَى أَنْفُسِنَا » فَإِنَّ إِذْرَاكَ الْخَطَأِ أَوَّلُ خُطْوَةٍ
نَحْوِ الْحَقِيقَةِ .

الْعَلَامَةُ الثَّلَاثَةُ تَقْدُمُ التَّمْرِينَاتِ الْجِسْمِيَّةِ عِنْدَ الشُّبَّانِ :
كِفَانًا مَا احْتَقَرْنَا مِنَ التَّرْبِيَةِ الْجِسْمِيَّةِ ، فَقَدْ جَهَلْنَا مِنْهَا حَتَّى
اسْمَهَا . وَكَلَّمَا يَعْرِفُ مَدَارِسَنَا وَطُولَ دُرُوسِهَا وَقِصَرَ أَوْقَاتِ
الِاسْتِرَاحَةِ مِنْهَا وَعَدَمَ وُجُودِ تَمْرِينٍ مِنْ أَى نَوْعٍ كَانَ وَنُزْهَتَهَا
الَّتِي تُشْبِهُ نُزْهَةَ الْمَسْجُونِينَ حَيْثُ يَغْدُو التَّلَامِذَةُ وَيَرُوحُونَ بَيْنَ
أَرْبَعِ حَيْطَانٍ مُرْتَفِعَةٍ تَحْزُنُ النُّفُوسَ ثُمَّ فُسْحَةٌ يَوْمَ الْخَمِيسِ
وَيَوْمَ الْأَحَدِ عَلَى النِّظَامِ الْعَسْكَرِيِّ إِذْ يَخْرُجُ الطَّلَبَةُ صَفًّا صَفًّا
كَأَيْ تَرِيضِ الشُّيُوخِ لَا الشُّبَّانِ . وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ الْبَقَاءَ تَحْتَ
هَذَا النِّظَامِ يُطْفِئُ هِمَّةَ الْجِسْمِ وَيَجْعَلُهُ عَائِقًا لِصَاحِبِهِ لَا مُسَاعِدًا لَهُ .
وَعَلَيْهِ فَلَا يَتَأَنَّى نَمُو الْقُدْرَةِ وَالْإِقْدَامِ وَحُبِّ الْعَمَلِ وَالْمِيلِ إِلَى
الِاسْتِقْلَالِ . وَالرَّجُلُ إِذَا كَانَ مُتَمَكِّنًا مِنْ آلَةٍ طَبِيعِيَّةٍ جَيِّدَةٍ

يَكُونُ أَشَدَّ وَثُوقًا مِنْ نَفْسِهِ ، وَأَقْدَرَ عَلَى مُعَالَبَةِ الْحَيَاةِ وَاقْتِحَامِ
 مَتَاعِهَا وَأَكْثَرَ مَيْلًا إِلَى الْعَمَلِ لَا إِلَى الْبَطَالَةِ وَالْبَقَاءِ تَابِعًا
 كَمَا لَوْ كَانَ مُوظَّفًا وَيَشْعُرُ مِنْ نَفْسِهِ شُعُورًا أَعْظَمَ بِرُجُولَتِهِ
 وَهُوَ كَذَلِكَ فِي الْحَقِيقَةِ . وَقَدْ انْتَشَرَتِ التَّمْرِينَاتُ الْجِسْمِيَّةُ
 انْتِشَارًا عَظِيمًا مُنْذُ بَضْعِ سِنِينَ كَمَا هُوَ الْمَعْلُومُ وَدَارَتِ أَسْمَاءُ
 الْأَلْعَابِ الْمُخْتَلِفَةِ الْإِنْسِكَلِيزِيَّةِ عَلَى أَلْسِنَةِ الْفَرَنْسَوِيِّينَ وَدَخَلَتْ
 فِي لُغَتِهِمْ وَخَصَّصَتْ كُلُّ جَرِيدَةٍ قِسْمًا مِنْ صَفْحَاتِهَا لِلشَّرْحِ مَا يَتَعَلَّقُ
 بِتِلْكَ الْأَلْعَابِ وَأُنْشِئَتْ فِيهَا جَرَائِدٌ مَخْصُوصَةٌ تُطَبِّعُ بَعْضُهَا مَا يَزِيدُ
 عَلَى عَشْرَةِ آفِ نُسخَةٍ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَصَارَ يَجْتَمِعُ لِلتَّفَرُّجِ عَلَى تِلْكَ
 الْأَلْعَابِ فِي بَعْضِ الْأَمَاكِنِ مَا يُذَيِّفُ^(١) عَلَى الْعِشْرِينَ أَلْفَ نَسْمَةٍ ،
 وَقَدْ يَعْصُ الْمَكَانُ فِرْدُ الزَّرُّونِ ، وَلَا شُبْهَةَ فِي أَنَّ الشُّبَّانَ الَّذِينَ
 جَذَبَتْهُمْ تِلْكَ التَّمْرِينَاتُ إِلَى هَذَا الْحَدِّ هُمْ أَقْدَرُ مِنْ غَيْرِهِمْ عَلَى تَحْمَلِ
 أَلْعَابِ الْحَيَاةِ وَأَكْبَرُ هِمَّةٍ وَأَشَدُّ عَزْمًا لِأَنَّهُمْ تَعَامَلُوا كَيْفَ يَتَغَلَّبُونَ
 عَلَى تَكَاسُلِ أَجْسَامِهِمْ وَيَحْكُمُونَ عَلَى حَرَكَاتِهَا وَتِلْكَ أَحْسَنُ
 الْوَسَائِلِ لِلنَّجَاحِ فِيمَا تَقْتَضِيهِ الْحَيَاةُ مِنَ الْأَعْمَالِ وَأَصْبَحَتْ هَذِهِ
 الشَّيْبَةِ مَحَلَّ الْأَمَلِ وَمَوْضِعَ الرَّجَاءِ .

الْعَلَامَةُ الرَّابِعَةُ : كَثْرَةُ التَّرَاحُمِ عَلَى الْأَوْظَافِ الْإِدَارِيَّةِ وَالْحَرْفِ

الْأَدَائِيَّةِ .

غَصَّتْ وَظَائِفُ الْحُكُومَةِ وَالْحِرْفُ الْأَدِيَّةُ بِأَهْلِهَا حَتَّى ضَجَّ
النَّاسُ كُلُّهُمْ وَأَمْسَى عَلَى بَابِ الْوُضَيْفَةِ أَوْ الْحِرْفَةِ الْوَاحِدَةِ عَشْرَةَ
طُلَابٍ وَعِشْرُونَ وَمِائَةً لِأَنَّ كُلَّ النَّاسِ رَاغِبٌ فِيهَا وَزَادَ عَدَدُهُمْ
حَتَّى مُلِئَتْ بِهِمْ دَهَالِيزُ الْمَصَالِحِ الْإِدَارِيَّةِ وَضَاقَتْ رِحَابُهَا وَتَهَاوَتْهَا عَلَى
نَحْلِ كُتُبِ التَّوَصِيَةِ وَبَاتُوا حَيَارَى . وَلَمَّا اشْتَدَّ الْأَمْرُ ظَهَرَ فِي الْوُجُودِ
فِكْرُهُ جَدِيدٌ وَهُوَ أَنَّ النَّاسَ صَارُوا يَشْعُرُونَ بِصُعُوبَةِ نَيْلِ تِلْكَ
الْوُظَائِفِ وَقَلَّ الْأَمَلُ فِيهَا ، وَهِيَ لَا تُجْزَى عَنِ الْأَنْعَابِ الَّتِي يُقَاسُونَهَا
لِلْوُصُولِ إِلَيْهَا ، وَبَدَأَتْ الْعِيُونَ تُشَخَّصُ إِلَى الْحِرْفِ الْمُسْتَقِيلَةِ الَّتِي
هِيَ أَيْضًا أَكْثَرُ رِجَاءً وَأَوْفَرُ كَسْبًا إِلَّا أَنَّهُمْ لَا يَزَالُونَ مُتَرَدِّدِينَ
وَلَكِنَّ الشُّخُوصَ مَوْجُودٌ فَلَنْتَرِكَ الْأَمْرَ لِفِعْلِ الزَّمَانِ إِذْ لَا بَدَّ
لِهَذِهِ الْحَرَكَةِ مِنَ الظُّهُورِ تَمَامًا وَقَدْ ظَهَرَتْ مِنْ قَبْلُ فِي الشُّبَّانِ الَّذِينَ
هُمْ أَكْبَرُ اسْتِعْدَادًا وَأَبْعَدُ نَظْرًا .

الْعَلَامَةُ الْخَامِسَةُ : هُبُوطُ فَائِدَةِ الْمَالِ

بَعْدَ أَنْ كَانَتْ فَائِدَةُ النُّقُودِ خَمْسَةَ فِي الْمِائَةِ نَزَلَتْ إِلَى أَرْبَعَةٍ ثُمَّ
صَارَتْ ثَلَاثَةً فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ بَلْ إِنَّ فَائِدَةَ أَحْسَنِ الْقِرَاطِيسِ أَقَلُّ
مِنْ ذَلِكَ وَوَجِبَ حِينَئِذٍ أَلَّا يَعْتَمِدَ الْإِنْسَانُ عَلَى إِرَادِهِ أَوْ مَهْرِ
زَوْجَتِهِ وَصَارَ مِنَ الْعُسْبِ كِفَايَةً الْحَاجَاتِ بِرَوَاتِبِ الْوُظَائِفِ لِقِلَّتِهَا
وَأَصْبَحَتْ مَعِيشَةُ الرَّجُلِ مِنْ إِرَادِهِ الْخَاصِّ أَصْعَبَ وَأَشَدَّ حَرَجًا

إِذَا كُتِفَ بِهِ وَرَكَنَ إِلَى الْبَطَالَةِ وَتَلَّكَ حَالٌ مِنْ أَقْوَى الْبَوَاعِثِ فِي حَمْلِ الْمَرْءِ عَلَى الْعَمَلِ بِنَفْسِهِ وَالْأَيُّ يَتَمَدَّدُ إِلَّا عَلَى نَفْسِهِ . وَلَيْسَ فِي قُدْرَةِ النَّاسِ أَنْ يَسْتَعْصُوا زَمَانًا طَوِيلًا عَلَى إِجَابَةِ هَذَا النِّدَاءِ لِأَنَّهُمْ بَعْدَ أَنْ يَطْرُقُوا أَبْوَابَ الْاِقْتِصَادِ كَالِهَامَا لَا يَبْدَأُ لَهُمْ مِنْ دُخُولِ ذَلِكَ الْبَابِ .

الْعَلَامَةُ السَّادِسَةُ : فَدَاخَةُ الضَّرَائِبِ إِلَى الْحَدِّ الْأَقْصَى

الْفَرَنْسَاوِيُّونَ هُمُ الْأُمَّةُ الَّتِي كَثُرَتْ ضَرَائِبُهَا عَنْ غَيْرِهَا وَهُمْ يَحْتَمِلُونَ وَقَرَّهَا ^(١) بِقُوَّةِ التَّوْفِيرِ وَالْاِقْتِصَادِ لَا بِقُوَّةِ الْعَمَلِ وَالِاجْتِهَادِ لِأَنَّ النَّاسَ إِذَا ارْتَقَوْا فِي الْأُمَّةِ عِنْدَنَا تَرَكَوا الزَّرَاعَةَ وَالصَّنَاعَةَ وَالتَّجَارَةَ مَعَ أَنَّ الَّذِينَ يَرْتَقُونَ هُمُ الَّذِينَ كَانَ فِي قُدْرَتِهِمْ أَنْ يَصِلُوا بِهَا إِلَى الْغَايَةِ الْقُصْوَى مِنَ التَّحْسِينِ وَالِإِتْقَانِ بِمَا أُوتُوا مِنَ الْعَقْلِ وَمَا جَمَعُوا مِنَ الْأَمْوَالِ . وَمِنْ هُنَا نَقْصَ إِيرَادِ هَذِهِ الْمَصَادِرِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي عَلَيْهَا مَدَارُ الثَّرْوَةِ الْعَامَّةِ سَنَةَ بَعْدَ أُخْرَى وَأَصْبَحَ مِنَ الْمُتَعَسِّرِ الْاِعْتِمَادُ عَلَى الضَّرَائِبِ لِأَنَّهَا تَصْعَبُ حِينًا بَعْدَ حِينٍ لِلَّهِمَّ إِلَّا إِذَا عَرَفْنَا طَرِيقَ الْاِعْتِمَادِ عَلَى أَنْفُسِنَا لِنَقُومَ مَا اعْوَجَّ مِنْ حَالِ الزَّرَاعَةِ وَالصَّنَاعَةِ وَالتَّجَارَةِ وَنُوجِّهَهَا نَحْوَ النُّمُوِّ الْمُسْتَمِرِّ فَهِيَ الْمَنْبَعُ

الَّذِي تَسْتَقِي مِنْهُ جَمِيعُ الْعِرْفِ الدَّخِيلَةِ الَّتِي اتَّخَذَتْ لَهَا مَوْطِنًا مُخْتَارًا
فِي الْمِيزَانِيَّةِ .

الْعَلَامَةُ السَّابِعَةُ مُبِيلُ النَّاسِ ثَانِيَةً إِلَى الْمَعِيشَةِ الْخَلْوِيَّةِ وَالْإِحْتِرَافِ
بِالْمِهْنِ الْمُسْتَقِيلَةِ .

وَالسَّبَبُ فِي هَذَا الْمِيلِ هُوَ الْإِزْدِحَامُ عَلَى أَبْوَابِ الْوُظَائِفِ ،
وَهَبُوطُ فَائِدَةِ الْمَالِ وَعَدَمُ كِفَايَةِ الْمِيزَانِيَّةِ بِحَاجَةِ الْأُمَّةِ ، وَقَدْ
بَدَأَ النَّاسُ يُقْتَلُونَ مِنْ أَحْتِقَارِهِمْ لِتِلْكَ الْمِهْنِ الَّتِي هَجَرُوا وَهِيَ الْمُجَرَّدُ
الِاسْتِحْسَانِ لَا بِالْبُرْهَانِ وَلِتَوْهَمِ أَنَّهَا دُونَ الرُّثْبَةِ ، وَلِلنَّفُورِ مِنْ
كُلِّ عَمَلٍ يَقْتَضِي الْكِدَّ وَيَطْلُبُ الْهِمَّةَ ، وَيَكُونُ صَاحِبُهُ فِيهِ
مَسْئُولًا عَنْهُ ، وَسَيَعُودُونَ إِلَيْهَا خَاضِعِينَ لِحُكْمِ الزَّمَانِ . ظَهَرَتْ
هَذِهِ الْحَرَكَةُ عَلَى الْخُصُوصِ فِي الزَّرَاعَةِ ، فَقَدِ التَّجَأَ إِلَيْهَا اضْطِرَّارًا
عَدَدٌ مِنْ أَرْبَابِ الْأَمْلاكِ الَّذِينَ خَسِرُوا بِانْحِطَاطِ الزَّرَاعَةِ وَهَبُوطِ
فَائِدَةِ الْأَمْوَالِ وَالتَّرَاحُمِ حَوْلِ الْوُظَائِفِ الْإِدَارِيَّةِ ، وَهُمْ مَعَ
ذَلِكَ يُوَدُّونَ إطَالََةَ مُدَّةِ إِقَامَتِهِمْ فِي الْمُدُنِ وَلَسْكَنَ طَبِيعَةَ الْحَالِ
تَدْفَعُهُمْ إِلَى الرَّيْفِ وَقَدْ انْتَهَى بِهِمُ الْحَالُ — وَكَانَ لِأَبَدٍ مِنْ ذَلِكَ —
فَتَعَوَّدُوا الْإِسْتِعْمَالَ بِاسْتِغْلَالِ أَرْضِيهِمْ الَّتِي هَجَرَهَا الْمُسْتَأْجِرُونَ أَوْ
أَضْرَوْا بِهَا ، وَصَارَ بَعْضُهُمْ يَسْكُنُ وَسَطَ أَمْلاكَهِ وَيَقْضِي الْقِسْمَ
الْأَكْبَرَ مِنَ السَّنَةِ فِيهَا ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَقَامَ فِيهَا نِهَائِيًّا طَلَبًا لِلِاِقْتِصَادِ

وَمَا يَدُلُّ عَلَى تِلْكَ الْحَرَكَةِ أَيْضًا انْتِشَارُ الشَّرَكَاتِ الزَّرَاعِيَّةِ وَكَثْرَةُ
 الْجَرَائِدِ الزَّرَاعِيَّةِ وَالْجَمْعِيَّاتِ الزَّرَاعِيَّةِ، فَقَدْ ظَهَرَتْ هَذِهِ الْجَمْعِيَّاتُ
 مِثَّاتٍ مِثَّاتٍ فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ، وَكَانَ تَأْلِيفُهَا بِسَعْنِ أَصْحَابِ الْأَمْلاَكِ
 الْوَاسِعَةِ الَّذِينَ كَانُوا فِي مَبْدَأِ الْأَمْرِ يَسْتَخْدِمُونَهَا فِي أَغْرَاضِهِمْ
 السِّيَاسِيَّةِ وَتَأْيِيدِ نَفُوزِهِمْ، وَلَكِنَّهُمْ صَارُوا يَتَأَثَّرُونَ شَيْئًا فَشَيْئًا
 بِذَلِكَ الْوَسْطِ الْجَدِيدِ، وَأَصْبَحُوا يَتَعَرَّفُونَ مَسَائِلَ السَّمَادِ وَالآلَاتِ
 الزَّرَاعِيَّةِ الَّتِي أَحْتَقِرُوهَا إِلَى هَذَا الْحِينِ، وَانْقَلَبَتِ الْجَمْعِيَّةُ زُرَاعِيَّةً
 مُحَضَّةً بِحُكْمِ الضَّرُورَةِ. وَمِنْ جِهَةٍ ثَانِيَةٍ فَطَنَ بَعْضُ أَصْحَابِ
 الْأَمْوَالِ إِلَى هُبُوطِ أَسْعَارِ الْأَطْيَانِ لِانْحِطَاطِ الزَّرَاعَةِ فَعَكَفُوا
 عَلَى مُشْتَرَى الْأَرْضِ، لِأَنَّ غَلَّةَ الْأَطْيَانِ مَائِلَةٌ إِلَى التَّقَرُّبِ مِنْ
 فَائِدَةِ النُّقُودِ.

العلامة الثامنة: التشجيعات على الاستعمار

إِنَّ قُوَّةَ الْأُمَّةِ فِي الْإِسْتِعْمَارِ مِنْ أَدَلِّ الدَّلَائِلِ عَلَى قُوَّتِهَا
 الْاجْتِمَاعِيَّةِ لِأَنَّهَا تَدُلُّ عَلَى مَا لِأَهْلِهَا مِنَ الْأَهْمِيَّةِ وَالْإِقْدَامِ وَالْقُدْرَةِ
 عَلَى الْإِنْتِشَارِ فِي الدُّنْيَا. وَهَذِهِ الصِّفَةُ هِيَ الَّتِي أَصْبَحَتْ بِهَا الْأُمَّةُ
 الْإِنْكِلِيزِيَّةُ السَّكْسُونِيَّةُ يُهْدَدُ مِنْ سِوَاهَا. نَعَمْ لَا يَسَعُنَا أَنْ
 نَقُولَ بَانَ فَرَنْسَا دَخَلَتْ فِي هَذَا الطَّرِيقِ حَقِيقَةً لِأَنَّهَا لَا نَزَالَ
 نَبَعَتْ بِالْعَسَاكِرِ وَالْمُوظَّفِينَ أَكْثَرَ مِنَ الْمُسْتَعْمِرِينَ، غَيْرَ أَنَّ مِنْ

المشاهد حصول التشجيع على الاستعمار والاجتهاد في بيان مزاياه
وقد أسست لهذا الغرض شركات وأنشئت جرائد، ونظمت بعثات
الاستكشاف وصار عدد الذين يهتمون بعلم تقويم البلدان يكثر
في كل يوم كأن فرنساوى الذى ألف بيته أخذ يلتفت إلى أنه
يوجد خارج فرنسا بلاد تمكن الإقامة بها والمعيشة فيها. ومع
اعترافنا بأن ذلك كله لا يزال في عالم القوة نرى أن العلامات
التي سبق ذكرها تبعث الهمم أيضاً إلى الاستعمار وتساعد على نمو
تلك الحركة.

العلامة التاسعة: سقوط منزلة السياسة والذين اتخذوها حرفة
سقوطاً مستمراً.

كما أن قوة الأمة في الاستعمار دليل على قوتها الاجتماعية كذلك
ثقتها بالسياسة والمخترفين بها برهان على ضعفها وانحطاطها لما
في ذلك من الدلالة على أن الناس يعتمدون على الحكومة
أكثر من اعتمادهم على أنفسهم وأنهم ميالون إلى الارتزاق من
الوظائف أكثر من ميلهم إلى الكسب من المهن الحرة المستقلة
والذى تطمع فيه الأحزاب بعد انتصارها إنما هو التهام الغنيمة
أعني الوظائف في الحكومة فالأسلاب لمن ظفر وميتى رسخت
هذه الأفكار في العقول أبدت أهلها عن الحرف المستقلة

وَالْحِرْفُ الْمُسْتَقْلَةُ هِيَ الَّتِي فِيهَا قُوَّةُ الْأُمَّةِ الْحَيَوِيَّةُ كَمَا أَنَّ تِلْكَ
 الْأَفْكَارَ تَتَبَطُّ الْعَزَائِمَ وَتَتَشَنَّى الْهَمَمَ . وَعِنْدَنَا الْيَوْمَ مِنَ الْعَلَامَاتِ
 الصَّحِيحَةِ مَا يُشِيرُ إِلَى أَنَّ الْفَرَنْسَاوِيِّينَ بَدَءُوا يَنْفُضُونَ عَنْ
 أَفْكَارِهِمْ غُبَارَ هَذَا الْخِيَالِ فَصِرْنَا نَعْقِلُ أَنَّ السِّيَاسَةَ لَمْ تَأْتِ لَنَا
 بِمَا كُنَّا نَرْجُوهُ مِنْهَا وَأَنَّ أَمَلَنَا قَدْ خَابَ فِي كُلِّ صَوْبٍ فَلَمْ نَنْلُ حِظَّنَا
 مِنَ الْحُرِّيَّةِ وَالْمَسَاوَاةِ وَالْإِخَاءِ ، وَلَمْ نَحْظْ بِحُكُومَةٍ قَلَّ مَصْرِفُهَا وَلَمْ
 تُخَفِّفْ عَنَّا ضَرَائِبَنَا وَلَمْ تَحْصُلِ الْمَسْأَلَةُ وَالْإِحْتِمَالُ فِي الْأَرَاءِ السِّيَاسِيَّةِ
 وَالْمُعْتَقَدَاتِ الدِّيْنِيَّةِ وَلَمْ وَلَمْ ، بَلْ رَجَعْنَا مِنَ الْيَأْسِ إِلَى قَلْبِ
 الْحُكُومَاتِ وَإِسْقَاطِ الْوِزَارَاتِ ، وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ تَنْقِيحُ الْقَوَازِينِ
 وَتَعْدِيلُ النِّظَامِ وَأَصْبَحْنَا وَقَدْ اخْتَبَرْنَا كُلَّ شَيْءٍ وَصِرْنَا عَلَمِينَ بِمَا
 فِي جَوْفِ السِّيَاسَةِ كُلِّهَا . وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ تَوْلَدَ هَذَا الرُّوحُ الْجَدِيدُ
 الَّذِي نَشَاهِدُهُ وَهُوَ زِيَادَةُ عَدَدِ الَّذِينَ يَقِلُّ اِهْتِمَامُهُمْ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ
 بِالْجَرَائِدِ السِّيَاسِيَّةِ الْمُحَضَّةِ . ارْجِعْ إِلَى زَمَنِ « الْأِصْلَاحِ » أَوْ زَمَنِ
 « حُكُومَةِ شَهْرِ يُوْنِيهِ » أَوْ زَمَنِ « الْإِمْبِرَاطُورِيَّةِ الثَّانِيَّةِ » نَفْسِهَا
 تَرَانُ كُلَّ جَرِيدَةٍ سِيَاسِيَّةٍ كَانَتْ قُوَّةً بِذَاتِهَا يَحْتَرُّهَا النَّاسُ وَيَسْمَعُونَ
 قَوْلَهَا ، وَكَانَتْ لِصَاحِبِ الْجَرِيدَةِ قُوَّةٌ كَبْرَى حَتَّى كَانَ أَعْظَمُ رِجَالِ
 الْعَصْرِ مِنْ أَصْحَابِ الْجَرَائِدِ وَمِنْهُمْ مَنْ أَمْسَكَ عَلَيْهِ جَرِيدَتُهُ فِي مَنْصِبِهِ
 وَكَانَتْ جَرَائِدُ « نَاسِيُونَالِ » وَ « جَلُوبِ » وَ « كُونَسْتِيْسِيُونِيلِ »

و «الديبا» تَقَلَّبُ الرَّأْيَ الْعَامَّ كَيْفَمَا شَاءَتْ وَتُوَقِّدُ نَارَ الثَّوْرَةِ فِي بَعْضَةِ أَشْهُرٍ إِنْ أَرَادَتْ وَلَمْ يَكُنْ فِي الْأُمَّةِ مِنَ الْجَرَائِدِ إِلَّا السِّيَاسِيَّةُ وَكَانَتْ كُلُّ جَرِيدَةٍ تُشَخَّصُ فَرِيقًا مُسْتَقِلًّا مِنْ أَقْسَامِ الرَّأْيِ الْعَامِّ . وَلَكِنْ مَا أَعْظَمَ تَقَلُّبَاتِ الزَّمَانِ فَقَدْ أَضَاعَتْ الْجَرَائِدُ السِّيَاسِيَّةُ قِسْمًا كَبِيرًا مِنْ سُلْطَانِهَا وَقِسْمًا أَكْبَرَ مِنْ قُرَائِمِهَا وَانْتَقَلَ الرَّوَّاجُ إِلَى الْجَرَائِدِ الْمُسَمَّاةِ جَرَائِدِ الطَّرِيقِ الَّتِي أَزْوَتِ السِّيَاسَةَ إِلَى رُكْنٍ صَغِيرٍ^(١) وَاعْتَبَرَتْهَا تُشْدُّ الْخِنَاقَ عَلَى النَّاسِ وَإِلَى الْجَرَائِدِ الْإِخْرَاقِيَّةِ الَّتِي تَنْقُلُ الْحَوَادِثَ الْبَرْقِيَّةَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ لَهَا رَأْيٌ فِي السِّيَاسَةِ وَإِلَى النَّشْرَاتِ الْمَوْضُوعِيَّةِ الَّتِي تُكْتَبُ فِي الْأَعْمَالِ وَتُرْجَمُ عَنْ حَالِ الْمِهْنِ وَالصَّنَاعَاتِ أَوْ تُخَدِّمُ الْمَنَافِعَ الْمَحَلِّيَّةَ وَكَانَ هَذَا الصَّنْفُ مُجْهُولًا تَمَامًا قَبْلَ أَرْبَعِينَ أَوْ خَمْسِينَ عَامًا . وَمِنْ عِلَامَاتِ ذَلِكَ السَّقُوطِ أَيْضًا أَنَّ الْمَرَاتِبَ السِّيَاسِيَّةَ لَمْ تَعُدْ وَحْدَهَا صَاحِبَةَ الْمَنْزِلَةِ الرَّفِيعَةِ وَالْمَكَانَةَ الْعَالِيَةَ فِي نَظَرِ النَّاسِ وَلَمْ يَعُدْ لِلْمَوْظِفِينَ مِنَ الْإِعْتِبَارِ مَا كَانَ لَهُمْ أَيَّامَ الْحُكُومَاتِ السَّابِقَةِ بَلِ الْفَرْقُ بَيْنَ الْحَالَتَيْنِ عَظِيمٌ . أَيْنَ ذَلِكَ الْمُدِيرُ أَيَّامَ الْإِمْبِرَاطُورِيَّةِ الَّذِي مَا كَانَ يَقَعُ بَصْرُ أَحَدٍ عَلَيْهِ إِلَّا ارْتَعَدَتْ فَرَائِصُهُ^(٢) وَتَوَلَّاهُ الْفَزَعُ وَالِاضْطِرَابُ؟ أَيْنَ تِلْكَ الْمَحَاكِمُ

(١) أى جعلتها في زاوية صغيرة (٢) الفرائض جمع فريضة وهي لحمية بين التدى . والكف ترعد عند الفزع يقال ارتعدت فرائضه أى فزع .

الَّتِي عَرَفْنَاهَا مُنْذُ أَرْبَعِينَ عَامًا حَيْثُ كَانَتْ كُلُّ مُحْكَمَةٍ إِقْلِيمٍ مِنْهَا
 أَشْبَهَ بِقَدَيْسِينَ تَحَصَّنُوا فِي الْوِظَائِفِ وَامْتَنَعُوا فِي حُصُونِ الْقَضَاءِ .
 لَقَدْ أَصْبَحْنَا شَاعِرِينَ بِأَنَّ تِلْكَ الْوِظَائِفَ أَقْلُ ثَبَاتًا وَأَضْعَفُ مَكَانَةً
 مِمَّا كُنَّا نَظْنُهُ مِنْ قَبْلُ وَبِأَنَّهَا تُقَيِّدُ اسْتِقْلَالَ صَاحِبِهَا بِسَلْسِلٍ وَأَغْلَالٍ
 وَبِأَنَّهَا قَلِيلَةٌ الرَّاتِبِ عَدِيمَةُ الْمَكْسَبِ . هَذَا وَلَسْتُ أَذْكَرُ فِي بَيَانِي
 حَوَادِثَ « بِنَامَا » الَّتِي تَشَمَّرُ لِأَجْلِهَا مِنَ السِّيَاسَةِ نُفُوسُ الَّذِينَ هُمْ
 أَقْلُ النَّاسِ نُفُورًا مِنْهَا .

الْيَوْمَ انْكَشَفَ غِطَاءُ الْأُبْهَةِ وَالْجَلَالِ الَّذِي كَانَ يَغْشَى الدَّوْلَةَ
 وَوُزَرَءَهَا وَمُوظَّفِيهَا وَنِعَمَ الْحَالُ ، فَالَّذِي تَخْشَرُهُ الْحُكُومَةُ
 يَكْسِبُهُ الْأَفْرَادُ ، وَالْحَيَاةُ الْخُصُوصِيَّةُ وَالْحَيَاةُ الْمَحَلِّيَّةُ ، وَتِلْكَ هِيَ
 الدَّعَائِمُ الْحَقِيقِيَّةُ الْمُتِينَةُ الَّتِي يُشَادُّ عَلَيْهَا بِنَاءُ الْهَيْئَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ . وَعَلَى
 هَذَا فِي الْحَالِ تَقَدَّمُ مِنْ تِلْكَ الْجِهَةِ أَيْضًا .

الْعَلَامَةُ الْعَاشِرَةُ : قِيَامُ الرَّأْيِ الْعَامِّ حَقِيقَةً ضِدَّ سِيَادَةِ الْجُنْدِيَّةِ
 إِنَّ انْتِشَارَ الْجُنْدِيَّةِ عَقَبَهُ فِي طَرِيقِ الْإِصْلَاحِ الْاجْتِمَاعِيِّ فَإِنَّهُ
 يَضُرُّ بَثْرَةَ الْأُمَّةِ ، وَيَدْفَعُ الشُّبَّانَ إِلَى الْمَدَارِسِ الْعَالِيَةِ فَيُثْنِيهِمْ عَنْ
 الْإِسْتِعْمَالِ بِالْفُنُونِ الْجَارِيَةِ وَالْمِهَنِ النَّافِعَةِ ، وَالَّذِينَ لَا يَنْجَحُونَ
 فِي سَبِيلِ الْجُنْدِيَّةِ لَا يَكُونُونَ أَهْلًا لِاعْتِنَاقِ الْحِرْفِ الْمُسْتَقَلَّةِ الَّتِي

تَقْتَضِي اَلْهُمَّةَ وَالْاِقْدَامَ الذَّاتِيَّ ، لِاَنَّ تِلْكَ التَّرْبِيَةَ اَضْرَتْ بِهَيْدِهِ
 الْمَلْسَكَتِ . غَيْرَ اَنَّهُ يُمَكِّنُنَا اَنْ نُبَشِّرَ قَوْمَنَا بِاَنَّ الْجُنْدِيَّةَ اَصْبَحَتْ
 فِي انْزِوَاءٍ مُنْذُ الْاَنِ اِذْ لَمْ يَعْذُ لِلْاُمَّةِ قُدْرَةٌ عَلٰى تَحْمَلِ اَثْقَالِهَا زَمَنًا
 طَوِيلًا وَّلَا اَنَّ السَّلْمَ بِهَذَا الثَّمَنِ اَشَدُّ ضَرَرًا مِنْ حَرْبٍ تَكُونُ وَبِالْاَلَا .
 وَقَدْ فَرَعَتْ خَزَائِنُ اِيتَالِيَا بِمَا اَنْفَقَتْهُ حُكُومَتُهَا فِي هَذَا السَّبِيلِ ،
 وَلَا بَدَّ لَهَا مِنْ الْاِقْتِصَادِ فِي حَرْبِ يَتِيَّتِهَا . وَلَا تَرَالُ الْمَانِيَا وَفَرَسَاتُ قَوْمَانِ
 بِاَعْبَاءِ جِيُوشِهِمَا بِغَايَةِ الصُّعُوبَةِ وَاِنْ دَامَ الْحَالُ زَمَنًا فَاِنَّهُ يَضُرُّ بِحَيَاةِ
 الْاُمَّتَيْنِ ، وَلَا بَدَّ لِهَذَا الْبُرْهَانِ الْمَالِيِّ مِنْ الْفَوْزِ عَلٰى اَدِلَّةِ الْجُنْدِيَّةِ
 كَلَّهَا . عَلٰى اَنَّ اَنْصَارَ الْجُنْدِيَّةِ اَصْبَحُوا الْيَوْمَ يَذْمُونَ مَا آلَتْ اِلَيْهِ ،
 وَاَصْبَحَتْ اَعْمَالُهُمْ تُكْذِبُ اَقْوَالَهُمْ ، وَعَامِلُوا اَنَّ طُولَ الْاِقَامَةِ
 فِي الشُّكَنِ يَجْعَلُ الْاِحْتِرَافَ بِغَيْرِ الْجُنْدِيَّةِ صَعْبًا بَعِيدَ الْاِمْكَانِ ،
 وَمِنْ اَجْلِ ذَلِكَ تَرَاهُمْ اَسْرَعَ النَّاسِ اِلٰى تَخْلِيصِ اَوْلَادِهِمْ مِنْهَا .
 وَالْفَائِزُ مَنْ وَجَدَ لَهُ مَهْرَبًا مِنْ ذَلِكَ النِّظَامِ الَّذِي يَقُولُونَ اَمَامَ النَّاسِ
 بِضُرُورَتِهِ وَفَوَائِدِهِ . هَذَا هُوَ السَّبَبُ فِي اِقْبَالِ النَّاسِ عَلٰى الْمَدَارِسِ
 الَّتِي يُعْفَى طَلِبَتُهَا مِنْ سَنَتَيْنِ فِي الْخِدْمَةِ الْعَسْكَرِيَّةِ مُنْذُ صَدَرَ الْقَانُونُ
 الْجَدِيدُ اِقْبَالًا حَتَّى صَارَ الْقَاصِدُونَ يَدُوسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَلٰى اَبْوَابِهَا ،
 وَفِي ذَلِكَ مِنَ الْاَدِلَّةِ اَظْهَرُهَا عَلٰى النُّفُورِ مِنَ الْخِدْمَةِ الْعَسْكَرِيَّةِ

لأنها حالة شعرت بها الأمة من غير منبه إليها، وليس أمام الآباء والأمهات في العائلات الكبيرة من المعضلات^(١) التي لا ينفكون يلمسون لها حلاً إلا كيف ينجون بأولادهم من الخدمة المشار إليها، وهي مع ذلك أبهى النظمات عندنا، وأما أهل الطبقات النازلة فيخضعون لحكمها وهم يزجرون ويحسدون أهل الطبقات الرفيعة على تخلصهم منها، ومتى هرب الناس من نظام وهجره الصقهم به وأشدهم دفاعاً عنه فقد أدركه الضعف وصار منحطاً. ولا أظن أن نمو الجندية إلى هذا الحد يدوم دوام أعمارنا، فإن لم يكن فينا من سلامة الذوق ما يكفيننا مؤنته لقام بتلك الوظيفة عسر الحال من جهة المال ومنفعة العموم.

العلامة الحادية عشرة: سقوط منزلة المشروعات الخيرية نعم إن المقصد الذي توجد لأجله جمعيات البر والإحسان، وجمعيات الإعانة وجمعيات الخير العام من أجل المقاصد وأسماها لكنها مضرّة من جهة كونها تجعل الناس يمتقدون بأنها كافية لحل المسألة الاجتماعية مع أنها من قبيل المسكنات لا الأدوية، فهي تخدر الألم كالمورفين ولا تشفيه. والمساعدة الحقيقية إنما تكون بجعل المساعد قادراً على الترقى لا تقديم المعونة إليه.

(١) أعضل الأمر: اشتد واستغلق

وَمِنْ هَذِهِ الْجَهَةِ كَانَ الْبَحْثُ عَنْ حَلِّ الْمَسْأَلَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ بِتِلْكَ
الْوَسَائِلِ لَا يَخْلُو مِنَ الْخَطَرِ.

وَمِنْ الْمُحَقِّقِ أَنَّ إِقْبَالَ النَّاسِ عَلَى هَذِهِ الْأَعْمَالِ وَتَعْظِيمَهُمْ
لِلْقَائِمِينَ بِهَا أَخَذَ فِي التَّنَاقُصِ لِأَنَّ الْمَسَاعِيَ الَّتِي مُبْدِلَتْ فِي سَبِيلِ
ذَلِكَ ذَهَبَتْ أَذْرَاجَ الرِّيحِ وَدَامَ خِذْلَانُهَا زَمَنًا طَوِيلًا وَفَقَدَ
النَّاسُ مَا كَانَ لَهُمْ فِيهَا مِنَ الثَّقَةِ الْحُسْنَى وَتَيَسَّرَ لَهُمْ أَنْ يَقْفُوا
عَلَى ضَعْفِ تِلْكَ الْمَسَاعِيَ الْمُجْتَمَعَةِ مَعَ مَا هِيَ عَلَيْهِ مِنْ مَظَاهِرِ
الْقُوَّةِ وَالنَّجَاحِ لِأَنَّهَا لَيْسَتْ فِي الْحَقِيقَةِ إِلَّا بُرْهَانًا عَلَى ضَعْفِ
الْإِنْسَانِ. وَآيَقَنَ الْكُلُّ بِأَنَّ رَئِيسَ الْمَعْمَلِ أَوْ صَاحِبَ الْأَطْيَانِ
أَوْ مُدِيرَ التَّجَرِّ إِذَا اهْتَمَّ بِأَمْرِ رِجَالِهِ، أَتَى بِفَائِدَةٍ أَكْبَرَ مِمَّا
يَأْتِيهِ خَمْسُونَ رَجُلًا مِنْ رِجَالِ تِلْكَ الْمَشْرُوعَاتِ فِي تَحْسِينِ
حَالِ قَوْمٍ تَشْتَتُوا فِي كُلِّ صَوْبٍ وَهُمْ لَا يَعْرِفُونَهُمْ وَلَيْسَ
بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ أَقْلٌ رَابِطَةٌ طَبِيعِيَّةٌ فَعَلِيَّةٌ.

العلامة الثانية عشرة : تدفق المذاهب الاشتراكية

إِنَّ الْعَلَامَاتِ الَّتِي سَبَقَ ذِكْرُهَا تَدْفَعُنَا بِلَا شَكٍّ فِي طَرِيقِ غَيْرِ
طَرِيقِ الْإِشْتِرَاكِيِّينَ لِأَنَّهَا تُسَاعِدُ عَلَى نُمُوِّ الْهِمَّةِ الذَّاتِيَّةِ وَحَضْرِ
السُّلْطَةِ الْعُمُومِيَّةِ. وَمِنْ جِهَةٍ ثَانِيَةٍ نَرَى أَعْظَمَ الْأُمَمِ تَقَدُّمًا عَلَى
الْبَقِيَّةِ، وَهِيَ الْأُمَّةُ الْإِنْكَلِيزِيَّةُ السَّكْسُونِيَّةُ، إِنَّمَا حَازَتْ هَذَا

التَّقدُّمَ بِهَمَّةٍ أَفْرَادِهَا فَمَذَهبُ الْإِشْتِرَاكِيِّينَ يُنَاقِضُ حِينَئِذٍ مَجْرَى
 الْأَحْوَالِ الْحَاضِرَةِ . أَمَا سَبَبُ ظُهُورِ هَذَا الْمَذَهبِ مِنْ جِهَةٍ وَكُونِنَا
 اتَّخَذْنَاهُ دَلِيلًا عَلَى تَقَدُّمِ الْأُمَّمِ نَحْوَ التَّرْتِيقِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى
 فَظَاهِرٌ ، وَبَيَانُهُ أَنَّ التَّحَوُّلَ الَّذِي قَدَّمْنَا ذِكْرَ عِلْمَاتِهِ لِأَيِّحْصُلُ
 فِي أُمَّةٍ بِالسُّهُولَةِ مِنْ دُونِ أَنْ يَضُرَّ بَعْضُ الْمَصَالِحِ فِيهَا وَإِيلَامِهَا
 بَعْضَ الْأَلَمِ . كَانَ الرَّجُلُ مُتَعَوِّدًا مُسَاعِدَةً أَهْلَهُ وَأَصْحَابِهِ وَالْحِزْبِ
 السِّيَاسِيِّ الَّذِي انْتَمَى إِلَيْهِ وَالْحُكُومَةِ ، وَكَانَتْ الْأُمَّةُ الَّتِي يَعِيشُ
 فِيهَا مَائِلَةً إِلَى الْمُحَافَظَةِ عَلَى حَالَتِهَا لَا مُتَّجِهَةً نَحْوَ التَّرْتِيقِ وَكَانَ
 التَّسَابِقُ فِيهَا قَلِيلًا لِضَعْفِ وَسَائِلِ النُّقْلِ . وَكُلُّ ذَلِكَ يُؤَدِّي
 إِلَى بَقَاءِ التَّقَالِيدِ كَمَا كَانَتْ وَدَوَامِ وَسَائِلِ الْإِرْتِزَاقِ عَلَى مَا هِيَ
 عَلَيْهِ . غَيْرَ أَنَّ تَسَهِيلَ وَسَائِلِ النُّقْلِ وَاتِّسَاعَ نِطَاقِ مَعَامِلِ الصَّنَاعَةِ
 عَلَى إِثْرِ كَشْفِ الْفَحْمِ حَطَّمَتْ جَمِيعَ تِلْكَ الْحَوَاجِزِ وَمَزَقَتْ
 دَائِرَةَ ذَلِكَ الْوَسَطِ الْعَنِيْقِ الَّذِي كَانَ يَحْتَضِنُ الْإِنْسَانَ بَيْنَ جَوَانِبِهِ
 وَأَصْبَحَ الزَّارِعُ وَالصَّانِعُ وَالتَّاجِرُ عُرْضَةً لِمُنَافَسَةِ جَمِيعِ الزُّرَّاعِ
 وَكُلِّ الصَّنَاعِ وَالتَّجَّارِ فِي الدُّنْيَا فَمَنْ كَانَ مِنَ الْقَوْمِ ذَا عَزِيمَةٍ
 وَهَمَّةٍ وَإِقْدَامٍ رَأَى فِي ذَلِكَ الْحَالِ الْجَدِيدِ تَغْيِيرًا لَا بُدَّ مِنْهُ فِي الدُّنْيَا
 وَاتَّخَذَ لَهُ مِنْهُ حِطًّا فَانْدَفَعَ يَطْلُبُ الزِّيَادَةَ فِي الْهَمَّةِ وَالْإِكْثَارَ
 مِنَ الْإِقْدَامِ وَوَصَلَ إِلَى دَرَجَةٍ مِنَ الْغِنَى وَالْقُوَّةِ لَمْ تَكُنْ لِأَحَدٍ

فِي حِسَابٍ . ذَلِكَ شَأْنُ الْأُمَّةِ الْإِنْكِلِيزِيَّةِ السَّكْسُونِيَّةِ لِأَنَّهَا كَانَتْ
فِي مُقَدِّمَةِ الْكُلِّ مِنْ جِهَةِ هِمَّةِ أَفْرَادِهَا وَإِقْدَامِهِمْ ، وَمِنْ ذَلِكَ
الْحِينِ أَخَذَتْ تَنْتَشِرُ فِي أَرْجَاءِ الْمَسْكُونَةِ وَتُهْدُدُ جَمِيعَ الْأُمَمِ
الْأُخْرَى . وَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ أَقَلَّ عَزْمًا وَأَضْعَفَ إِقْدَامًا تَوَلَّاهُ
الدَّهْشُ وَأَنَّ (١) تَحْتَ أَثْقَالِ الْحَيَاةِ الْجَدِيدَةِ وَلَمْ يَتَّخِذْ لِنَفْسِهِ
سِلَاحًا مِنْ عَزْمِهِ وَلَمْ يَتَدَارَكْ قُوَاهُ لِيُقَاوِمَ مَا أَقْبَلَ عَلَيْهِ مِنْ
الْمَتَاعِبِ وَاحْتَفَهُ (٢) مِنَ الصَّعَابِ بَلِ اسْتَسْهَلَ النَّحِيبَ أَوْلًا وَعَمَدَ
بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى مُنَاجَاةِ وَسَطِهِ الْمُتَمَرِّقِ الْبَالِي مِنْ أَهْلِ وَأَصْحَابِ
وَحُكُومَةِ وَأُمَّةٍ جَرِيًّا عَلَى سُنَّةِ أَسْلَافِهِ الْأَوَّلِينَ . ثُمَّ التَّفَتَتْ تِلْكَ
الْجُمُوعُ الضَّالَّةُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ وَتَدَاعَى (٣) الْمُتَأَخَّرُونَ وَالضُّعْفَاءُ
وَفَاقِدُوا الْأَهْلِيَّةِ إِلَى صَعِيدٍ (٤) وَاحِدٍ فَاحْتَشَدُوا تَحْتَ لُؤَاءِ
مَذْهَبِ الْإِشْتِرَاقِيِّينَ وَمَا مَذْهَبُ الْإِشْتِرَاقِيِّينَ إِلَّا صُورَةٌ
مِنْ صُورِ رُوكِيَّةِ الشَّرْقِ الَّتِي آدَتْ بِأَمَمِهِ إِلَى الضَّعْفِ وَالْإِنْجِلَالِ
هَكَذَا لَمَّا رَأَتْ طَوَائِفُ الْعُمَمَالِ فِي الْقَرْنِ الْمَاضِي أَنْ مَنِيَّتْهَا قَدْ حَانَتْ
بِاتِّسَاعِ نِطَاقِ الْمَعَامِلِ جَمَعَتْ مَا بَقِيَ فِيهَا مِنَ الْقُوَى وَقَامَتْ تُقَاوِمُ
التَّقَدُّمَ الْجَدِيدَ جُهْدَهَا فَأَكْثَرَتْ مِنَ اللَّوَاخِ وَشَدَّدَتْ الْقِيُودَ
وَالْأَحْكَامَ الَّتِي كَانَتْ تَحْفَظُ لَهَا احْتِكَارَ الْعَمَلِ وَتَحْمِيهَا مِنْ مُنَافَسَةِ

(١) أن المريض : ناوه أو صوت ألقا (٢) أحاط به واكتنفه (٣) أى دعا بعضهم

بعضاً (٤) أصل الصعيد: وجه الأرض أو ما ارتفع منها

الأجنبيِّ وَلَكِنْ ذَهَبَتْ أَعَابُهَا أَدْرَاجَ الرِّيحِ كَمَا يَعْلَمُهُ كُلُّ وَاحِدٍ
 مِنَّا وَنَسَفَ التَّيَّارُ الْجَدِيدُ تِلْكَ النِّظَامَاتِ الْعَتِيقَةَ فَجَعَلَهَا نَسِيًّا مَنْسِيًّا .
 أَخْطَأَ الْإِشْتِرَاكِیُونَ إِذْ جَهَلُوا التَّارِیْخَ فَبَاءُوا بِمَذْهَبِ دَرَجَتْ
 عَلَيْهِ الْأَعْوَامُ وَجَعَلُوا يُصَادِمُونَ الْحَوَادِثَ الطَّبِيعِيَّةَ الَّتِي تَدْفَعُ الْعَالَمَ
 الْإِنْسَانِيَّ فِي طَرِيقِ جَدِيدٍ . وَمَهْمَا اجْتَهَدُوا وَشَدَّدُوا الْعَزَائِمَ فَإِنَّهُمْ
 إِنَّمَا يَزِيدُونَ فِي قُوَّةِ الْبُرْهَانِ عَلَى هَذَا الْمَصِيرِ الْجَدِيدِ الَّذِي تَأَلَّبُوا
 لِمُغَالَبَتِهِ بِمَا بَقِيَ فِيهِمْ مِنَ الْقُوَّةِ كَمَا فَعَلَتِ الطَّوَائِفُ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا
 مِنْ قَبْلُ وَأَصْبَحُوا عَلَى فِعْلِهِمْ نَادِمِينَ . وَلَيْسَ لِمَذْهَبِ الْإِشْتِرَاكِیِّينَ
 فَائِدَةٌ تُنْتَظَرُ إِلَّا زِيَادَةُ الضَّعْفِ فِي نُفُوسِ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ عَمِيَتْ
 بَصَائِرُهُمْ فَأَصْبَحُوا يَرْجُونَ السَّلَامَةَ مِنْ مُنْجٍ لَا وُجُودَ لَهُ إِلَّا
 فِي الْخَيَالِ .

مَا مَذْهَبُ الْإِشْتِرَاكِیِّينَ بِجَدِيدِ يَبْدُو، وَلَكِنَّهُ قَدِيمٌ يَتَفَانِي .
 وَعَلَيْهِ فَمَهْمَا قَلَبْنَا الْحَوَادِثَ وَغَيَّرْنَا وَجْهَةَ الْبَحْثِ فِيهَا لَا نَسْتَفِيدُ مِنْهَا
 غَيْرَ أَنَّ الْعَالَمَ مُتَقَدِّمٌ وَنَحْنُ مَعَهُ نَحْوُ إِنْمَاءِ الْهِمَّةِ الذَّائِتَةِ فِي الْإِنْسَانِ،
 وَلَا سَبِيلَ لِلنَّجَاحِ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ إِلَّا بِهَذَا .

وَالآنَ أَسْأَلُ إِنْ كَانَ وَاجِبُنَا الْيَوْمَ هُوَ فِي الْإِكْتِفَاءِ بِفِعْلِ الْمُؤَثَّرِ
 الْأَدْبِيِّ وَالنِّدَاءِ بِهِ نِدَاءً مُبْهِمًا أَوْ فِي أَنْنَا نَقْفُ عَلَى حَقِيقَةِ أَحْوَالِ
 الْمَعِيشَةِ الْجَدِيدَةِ الَّتِي يَتَوَقَّفُ عَلَيْهَا رَغْدُ الْأُمَّةِ؟ لِأَنَّهُ ثَبَتَ أَنَّ الْمُؤَثَّرِ

الأَدَبِيَّ وَحَدَهُ لَا يَقُومُ بِمُحَاجَتِنَا فِي هَذِهِ الْأَزْمَانِ ، وَفِي أَنَا نَنْشُرُ تِلْكَ
 الْفَضَائِلَ الْاجْتِمَاعِيَّةَ وَنُدَافِعُ عَنْهَا لِأَنَّهَا دَارُ السَّلَامِ .
 وَلَا خَوْفَ مِنْ هَذَا عَلَى الْمُؤَثِّرِ الْأَدَبِيِّ أَنْ يُنْسَى وَتَثْقُلَ عَلَيْهِ
 وَطْأَةُ مُؤَاهِمَةِ الذَّاتِيَّةِ وَاعْتِمَادُ كُلِّ امْرِئٍ فِي الْحَيَاةِ عَلَى نَفْسِهِ ، كَمَا
 أَنَّهُ لَا يُخْشَى مِنْ حَطِّ دَرَجَةِ الْإِنْسَانِ وَجَعْلِهِ مُجَبَّبًا لِذَاتِهِ وَإِيمَاتَةً
 الْأَمَلِ وَقَتْلِ رُوحِ الْإِحْتِمَالِ وَعَاطِفَةِ الْإِحْسَانِ وَحُبِّ الْجَارِ فِيهِ فَإِنِّي
 لَنْ أَفْرُغَ مِنْ كِتَابِي إِلَّا إِذَا اسْكَنْتُ رُوعَ^(١) الْقُرَّاءِ مِمَّا يَخَافُونَ .
 أَقُولُ لَهُمْ إِنْ تَرْتِيبَ الْحَوَادِثِ وَسَيْرَ الْوُجُودِ يُرْشِدُنَا إِلَى أَنَّ
 الْأَمَمَ الَّتِي بَلَغَتْ فِيهَا هِمَّةُ الْإِنْسَانِ مُنْتَهَاهَا هِيَ مَلْجَأُ الْحَيَاةِ الْأَدَبِيَّةِ
 الصَّحِيحَةِ حَيْثُ تَثْبُتُ الْأَخْلَاقُ وَتَبْقَى الْمَحَامِدُ . وَبَيَانُهُ أَنَّ الْمُؤَثِّرَ
 الْأَدَبِيَّ إِنَّمَا يَجْعَلُ الْمَرْءَ قَادِرًا عَلَى قَهْرِ النَّفْسِ وَالتَّغَلُّبِ عَلَى هَوَاهَا .
 وَلَيْسَ مِنْ دَرَسٍ يَتَعَلَّمُ فِيهِ الرَّجُلُ قَهْرَ نَفْسِهِ وَقِيَادَةَ زَمَانِهَا أَشَدَّ
 فِعْلًا مِنْ الْحَيَاةِ الْمِلِّيَّةِ الَّتِي يَتَعَلَّمُ فِيهَا أَنَّهُ لَا اعْتِمَادَ لَهُ إِلَّا عَلَى نَفْسِهِ .
 وَلَيْسَ مِنْ مُرَبِّ يَأْخُذُ بِمَجَامِعِ الْقُلُوبِ أَكْثَرَ مِنْ تِلْكَ الْحَيَاةِ
 فِيهِ الَّتِي تَقُودُ الْمَرْءَ إِلَى « الْحَيَاةِ الْحَقِيقِيَّةِ » وَهِيَ الْمَدْرَسَةُ الطَّبِيعِيَّةُ
 الَّتِي تُرَبِّيه كَيْفَ يَحْتَمِلُ الْمَتَاعِبَ وَالرَّزَايَا ، وَهِيَ الْأَسْهَلُ تَنَاوُلًا
 وَالْأَكْثَرُ شِوَعًا وَطُلَابًا . تِلْكَ ضَرُورَةٌ أَشَدُّ فِعْلًا فِي النَّفُوسِ مِنْ

(١) الروع الفزع والحوف

وَعَظِ الْوَاعِظِينَ وَنُصِّحِ الْحُكَمَاءَ وَالْمُرْشِدِينَ الَّذِينَ يَدْخُلُ كَلَامُهُمْ
مِنْ إِحْدَى الْأُذُنَيْنِ وَيَخْرُجُ مِنَ الْأُخْرَى ذَلِكَ لِأَنَّ الْأَعْمَالَ تَدْعُو
إِلَى الْعَمَلِ أَكْثَرَ مِنَ الْأَقْوَالِ .

جاءَ فِي الْكِتَابِ « إِنَّكَ لَتَنَالُ عَيْشَكَ مِنْ عَرَقِ جَبِينِكَ » حِكْمَةٌ
هِيَ أَسُّ الْقُوَّةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَمَبْنَى الْأَدَابِ وَبِهَا تَتَمَكَّنُ الْأَخْلَاقُ .
وَمَا مِنْ أُمَّةٍ هَرَبَتْ مِنْ مُحْكَمِ تِلْكَ الْحِكْمَةِ الَّتِي تَقْضِي عَلَى الْمَرْءِ
بِالْكَدِّ وَالْعَمَلِ بِمَا تَلْتَمِسُ مِنَ الْحَيْلِ إِلَّا انْحَطَّتْ أَخْلَاقُهَا وَتَأَخَّرَتْ
الْأَدَابُ بَيْنَ قَوْمِهَا ، كَذَا أَهْلُ الْجُلُودِ الْحُمْرِ أَمَامَ الشَّرْقِيِّينَ ، كَذَا
الشَّرْقِيُّونَ أَمَامَ الْغَرْبِيِّينَ كَذَا أُمَّ الْغَرْبِ اللَّاتِنِيُّونَ وَالْجَرْمَانِيُّونَ
أَمَامَ الْإِنْكَلِيزِ السَّكْسُونِيِّينَ .

فهرس

صحيفة

٣	مقدمة المترجم
٤٨	مقدمة المؤلف
٥١٠	مقدمة الطبعة الثانية — قول فيما يدعى من أفضلية الالمانيين

الباب الأول

٦١٠. الفرنسية والانكليزية والسكسونيون في المدرسة

الفصل الاول

٦٣. فيما اذا كان نظام التعليم بالمدارس الفرنسية يربي رجالا

الفصل الثاني

٧٤. فيما اذا كان نظام التعليم في المدارس الالمانية يربي رجالا

الفصل الثالث

١٠٩. فيما اذا كان نظام التعليم في المدارس الانكليزية يربي رجالا

الفصل الرابع

١٤٣. كيف ينبغي أن نربي أولادنا؟

البَابُ الثَّانِي

١٧٠ الفرنساوى والانكليزى السكسونى فى حياتهما الخصوصيه

الفصل الاول

١٧١ فى أن طريقه التربيه عندنا تقلل المواليد فى فرنسا

الفصل الثانى

١٩٤ فى أن طريقه التربيه عندنا مضرة بثروه الأمة الفرنساويه

الفصل الثالث

٢٠٩ فى أن التربيه السكسونيه تساعد على التزاحم فى الحياه - النوع
والاخلاق

الفصل الرابع

٢٤٣ فى أن طريقه المعيشه المنزليه تساعد على نجاح الانكليز السكسونيين

البَابُ الثَّالِث

٢٧٩ الفرنساوى والانكليزى السكسونى فى المعيشه العموميه

الفصل الاول

٢٨٠ أهل السياسه فى فرنسا وفى انكلترا

الفصل الثانى

٣١٤ السبب فى أن الانكليز السكسونيين أبعد عن مذهب الاشتراكيين
من الالمانيين والفرنساويين

الفصل الثالث

٣٦٠ في أن تصور الوطنية يختلف عند الفرنسيين والإنكليز السكسونيين

الفصل الرابع

٣٩١ في أن الفرنسيين يختلفون عن الإنكليز السكسونيين في إدراك حقيقة التضامن والتكافل

الفصل الخامس

٤١٦ ما هي أحسن حالات الاجتماع لتحقيق السعادة؟

الفصل السادس

٤٥٠ في ضعف المؤثر الأدبي وفي أمارات نهوض الهيئة الاجتماعية



